موقف الإسلام
من نظرية ماركس للتفسير المادي للتاريخ

تأليف
الدكتور أحمد العوايشة
الجامعة الاردنية - كلية الشريعة

المكتبة الإسلامية
عمان - الأردن

الطبعة الأولى
١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

الطبعة الثانية
١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

المكتب الإسلامي
هاتف ٨٤٢٨٨٧ ص.ب ١١٣ / الجبيهة - عمان - الأردن

مَوقِفُ الإسلام

مِن نَظَرِيَّةِ مَارْكس للتفسير المادِّي للتَاريخ

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوٰاتُ وَٱلأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾

(المؤمنون: ٧١)

﴿ٱنظُرْ كَيفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾

(الأنعام: ٢٤)

﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾

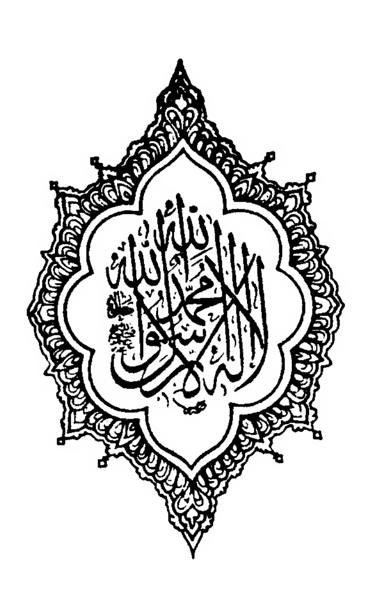
(النحل: ٢٥)

﴿بَل نَقْذِفُ بِالحَقِّ عَلَى الباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾

(الأنبياء: ١٨)

﴿فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّي لَكُم مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾

(الذاريات: ٥٠)



شُكر وتَقْدير

أتوجه بالطاعة والشكر لله رب العالمين، الذي وفقني لإتمام هذا البحث وأعانني عليه، فمنه سبحانه وتعالى أستمد العون في حياتي، وأستلهم السداد في أعمالى.

وإني لأشكر من بعده، أستاذي الدكتور راشد بن راجح الشريف، على ما بذل لي من مساعدة وتسهيل وتشجيع، فجزاه الله عني خير الجزاء، وأجزل له في المثوبة والعطاء.

كما أشكر القائمين على عمادة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، وأخص منهم بالذكر سعادة الدكتور محمد بن سعد الرشيد عميد كلية الشريعة، والدكتور عليان الحازمي وكيل الكلية، والدكتور محمد العروسي رئيس قسم الدراسات العليا الشرعية.

كما أتوجه بالشكر الجزيل إلى أستاذي، فضيلة الشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني المشرف على هذه الرسالة، على الرعاية والعناية التي شملني بها. والتوجيهات المفيدة التي أرشدني إليها.

كما أتوجه بالشكر إلى فضيلة أستاذي الشيخ محمد قطب، المشرف السابق على الرسالة لما بذل من جهد وأبدى من توجيهات.

كما أشكر أستاذي الشيخ محمد الغزالي، والدكتور محمد الشلبي، والزميلين الأخوين الكريمين سفر بن عبد الرحمن، وحسين الخالدي. وجميع من قدم لي مساعدة.

جزى الله هؤلاء جميعاً عني وعن المسلمين خير الجزاء. إنه سميع مجيب الدعاء.

أحمد العوايشة

المقــدّمَة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وصفيه من خلقه وأمينه على وحيه، بلغ الرسالة وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وتركها على المحجة البيضاء والطريق الواضحة ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، ولا يتنكبها إلا ضال، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه ومن سار على دربه وعمل بسنته إلى يوم الدين. وبعد. . .

فقد أكرم الله سبحانه وتعالى هذه الأمة، إذ بعث فيهم نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم، أفضل رسول بأكمل دين وأقوم شريعة، ليخرجهم من عبادة الأوثان إلى عبادة الواحد القهار، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة. وقد تكفل الله سبحانه وتعالى بحفظ كتابه من التحريف والتبديل، والزيادة والنقصان، ليكون تشريعاً خالداً للبشرية على مر العصور والأيام، حتى يرث الله الأرض ومن عليها، واعتنق هذا الدين رجال حملوا علم الدعوة الإسلامية، ونشروها بين الناس، أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، وحاربوا

الترف والفجور، وحققوا مفهوم لا إله إلا الله في واقع حياتهم، وحكّموا كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم في جميع شؤونهم، فنصرهم الله ومكن لهم في الأرض حين استقاموا على شرع الله ونهجه. وبدأت طلائع الغزو الفكري تغزو المجتمعات الإسلامية رويداً رويداً، وبدأ السوس ينخر في عظم المسلمين لما انحرفوا عن تطبيق شرع الله في واقع حياتهم، وبدأت الأمة الإسلامية تفقد ذاتيتها وأصالتها، وتحس بالضعف والانهيار أمام الأمم الأخرى، والانبهار التام بحضارتها، وتستمد كل مقومات حياتها من حضارة هذه الأمم ومناهجها وقيمها بلا وعي وتدبر. والأهم من ذلك خطورة، أنها بدأت ترتد على مقومات حياتها الأصلية بالنقد والتجريح والشتم والدس الرخيص، إرضاءً لمن أصبحت تشعر بالضآلة أمام حضارتهم المادية. وبدأ الذباب المنهار من أبناء هذه الأمة بنقل جراثيم الغزو الفكري لبلاده، حيناً بقوة السلاح، وحيناً آخر بالأقلام المأجورة. وبدأت أعراض الأمراض الفكرية تظهر على الساحة الإسلامية بصور شتى، على شكل شعارات مضللة، واتجاهات متباينة، عليها من البريق والخداع ما يكفي لتضليل كثير من الناس البلهاء المغفلين، الذين يسيرون خلف كل ناعق. وبدأت طلائع الغزو الفكري بالشيوعية والوطنية والقومية والعلمانية والوجودية، ونظرية التطور الإلحادية، وغيرها من المسميات والشعارات الخادعة تغزو بلاد المسلمين. وسرت عدوى هذه الأمراض ــ التي ظهرت في أوروبا نتيجة لبعدها عن دين الله، وعدم تحكيم شرعه في حياتها، ولحماقة الكنيسة التي حكمتها ــ في بلاد المسلمين سريان النار في الهشيم، وتغلغلت في عقول وقلوب كثير من أبناء أمتنا الذين فقدوا رصيدهم من مفهوم لا إله إلّا الله، ولم يعملوا بمقتضاه في حياتهم، وتربت على ذلك أجيال ممسوخة مريضة هزيلة، حملت على عاتقها مهمة الإجهاز

على منابع الحياة الكامنة في أمتها، وتعبيدها للغرب تارة وللشرق تارة أخرى. ونسي هؤلاء أو تناسوا أن الظروف التي مرت بها أوروبا، والتي جعلتها تكره الدين وتتحلل من الأخلاق، ليست موجودة في ديننا ولله الحمد.

ومهدت هذه الطلائع الشيطانية الطريق أمام قوى البغي والفساد المجتمعة تحت راية الشيوعية للقضاء على الإسلام، واقتلاع جذوره من الأرض، بعد أن شككوا كثيراً من الناس في أمور دينهم وتقاليدهم وأخلاقهم، وغرسوا في نفوسهم أن ما عند أوروبا هو الحضارة، لأنها تملك العلم والقوة. وانتشرت الأحزاب الشيوعية في معظم بلاد المسلمين، وبدأت تطلق الشعارات الخادعة، وتعمل في السر والعلن ضد الإسلام والمسلمين. وخدع كثيرٌ من أبناء أمتنا الإسلامية وحكامها، وأخذوا يرددون عن وعي وغير وعي شعاراتها وأفكارها، ويخدمون أغراضها، ويتسابقون في تنفيذ مخططاتها الإجرامية الشيطانية، وأصبح المغرور بفكرهم يفتخر بأنه يطبق الإشتراكية في بلاده، أو يكتب في الدفاع عنها، أو أنه جندي في أحزابها. وزادت جرأتهم على دين الله حيث بدأوا ــ زيادة في تضليل الناس بتبرير الإشتراكية بنصوص من الدين، يزعمون فيها أن الإسلام دين الإشتراكية، ونسوا حقيقة مهمة هي أنه لا يمكن أن يتم لقاء بين الشيوعية والإسلام، لأن قاعدة التصور في كل منهما مختلفة، فالإسلام يقوم على قاعدة تصور منطلقة من مفهوم لا إله إلّا الله • والشيوعية قائمة على تصور منطلقه من إنكار وجود الله. وأعان الشيوعية وأتباعها على ترويج أفكارها في عالمنا الإسلامي الفراغ الرهيب الذي تحياه أمتنا الإسلامية، وكلمة صريحة أطلقها شيخنا الأستاذ محمد الغزالي حفظه الله حين قال: «وغاظني أن الفراغ الديني الرهيب في الأمة الإسلامية المترامية الأطراف هو أول ما يعين الشيوعية على خداعها، ويوقع

القاصرين في حبائلها، وهو فراغ لا يملأ جزءاً منه علماء الدين المحنطون في معارضهم التقليدية الباهتة، ولا رجال السياسة المنسلخون عن عقيدتهم وشريعتهم، الحارسون لحكم مدني ميت الروح وضيع الهدف»[1].

وظن جنود الشيوعية ودعاتها والمخدوعون بشعاراتها وأفكارها، أن نهاية الإسلام قد قربت. ولكن الله رد كيدهم في نحورهم، وأنبت في وسط الظلام رجالاً حملوا علم الدعوة إلى الله من جديد، بقوة وعزم. وظهرت حركات إسلامية في كل بلد إسلامي، تدعو الناس إلى العودة من جديد إلى الالتزام بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، كما فهمها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتحكيم شريعة الله في شؤون حياتهم، وتحارب البدع والضلالات التي دخلت على العقيدة والشريعة، وانبثق من هذه الحركات المباركة فكر حر أصيل مستمد من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم مباشرة. وتكمن عظمة هذا الفكر بل حياته في سر واحد فقط، هو أنه شخّص مرض الأمة الإسلامية، وأدرك أن سبب انحطاطها هو بعدها عن حقيقة لا إله إلاّ الله، وأن العلاج الشافي لأمراض الأمة يبدأ من تصحيح مفهوم الناس من جديد لمدلول هذه الحقيقة، وإزالة ما علق في أذهانهم حولها من بدع وضلالات وخرافات.

وكان من توفيق الله عز وجل لي، أن التحقت بقسم الدراسات العليا الشرعية في كلية الشريعة ــ مكة المكرمة ــ في فرع العقيدة، وأن أدرس مادة المذاهب الفكرية المعاصرة على يد علم من أعلام الفكر الإسلامي المعاصر، هو الأستاذ محمد قطب حفظه الله، وأن أختار لرسالتي في الماجستير موضوعاً في هذه المادة، وبإشراف هذا الأستاذ

---

(١) الإسلام في وجه الزحف الأحمر، ص٢.

الكريم. وقد هداني الله عز وجل لاختيار موضوع فكري، ووفقني لاختيار «نظرية ماركس للتفسير المادي للتاريخ». وقد آثرت هذا الموضوع على غيره لأسباب منها:

١ ــ الانبهار الشديد بالفكر الماركسي الذي ابتلي به كثير من شباب أمتنا، والحرب الفكرية والعسكرية التي تشنها الشيوعية وأتباعها على الإسلام وأهله.

٢ ــ أن هذا الموضوع لم يكتب فيه ــ على حد علمي ــ من وجهة النظر الإسلامية، أو بشكل مفصل وشامل، حيث أن الكتب التي كتبت في نقض الشيوعية كانت تتناول بعض القضايا في الفكر الشيوعي وتناقشها مناقشة عامة دون أن تدخل في كثير من التفصيلات، نعم كتب الأستاذ محمد باقر الصدر في نقض بعض مواضيع المادية التاريخية في كتابه اقتصادنا وناقشها من زاوية فلسفية اقتصادية، كما كتب الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في نقض أوهام المادية الجدلية، وناقش قضاياها بأسلوب علمي، وناقش بعض قضايا التفسير المادي للتاريخ من زاوية علمية بحتة.

لهذا آثرت الكتابة في هذا الموضوع الشاق خدمة لدين الله عز وجل، وقد عرفت منذ البداية أن مهمتي ليست يسيرة، وأن موضوعي ليس سهلاً، وأن عليّ أن أخوض في ميادين بعيدة عن مجال دراستي الشرعية، فاستعنت بالله عز وجل، وشرعت في قراءة الفكر المادي من مصادره، مسترشداً بالتوجيهات القيمة والآراء السديدة التي كان أستاذي الفاضل الشيخ محمد قطب حفظه الله يزودني بها باستمرار ــ واستغرقت القراءة مني جهداً ووقتاً، ولكن الله سبحانه وتعالى أعانني على قراءة فكرهم وأراني إياه على حقيقته عارياً، وخرجت بنتيجة أن

هذا الفكر تافه هزيل، لا يستحق كل ما نسمعه عنه من جعجعات وطنطنات.

وقد اعترضتني في الطريق بعض الصعوبات، منها أنني لم أجد المصادر الشيوعية الكافية في هذا البلد ــ ولله الحمد على خلوه منها ــ وأخيراً حصلت عليها من الأردن. ولم أجد من كتب في هذا الموضوع من وجهة النظر الإسلامية وبشكل واسع مفصل كما ذكرت. وشرعت بحمد الله عز وجل بالكتابة، وكنت أعرض ما أكتبه على شيخي الأستاذ محمد قطب حفظه الله تعالى، وقد قرأت عليه معظم الأبحاث التي دونتها في هذه الرسالة مرتين كان خلالهما يتفضل بتوجيهاته وإرشاداته. وشاءت إرادة الله عز وجل أن يتفرغ الأستاذ محمد قطب قبل أن أتمكن من قراءة الرسالة عليه القراءة الختامية، وأكرمني الله عز وجل مرة أخرى بمشرف كفء هو فضيلة الشيخ الأستاذ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني. فهو علم آخر من أعلام الفكر الإسلامي المعاصر، متخصص في كشف أباطيل الملحدين، ودسائس المضللين من دعاة المذاهب الهدامة، فقد وسع لي صدره. واستقبلني وأكرمني في بيته وأعطاني من وقته الشيء الكثير، على الرغم من كثرة أشغاله، فلم يبخل علي بنصيحة أو فائدة علمية، فاستفدت من توجيهاته السديدة فوائد كثيرة أضفتها في رسالتي إلى الفوائد السابقة التي استفدتها من الأستاذ محمد قطب، فجزاهما الله عني خير الجزاء وأجزل لهما في المثوبة والعطاء، إنّه سميع مجيب.

وقد قسمت موضوع الرسالة إلى تمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة:

أما التمهيد: فقد خصصته لبيان الظروف التي مهدت لانتشار التفكير المادي في أوروبا وتعرضت فيه لخصائص الحضارتين اليونانية والرومانية منبت المادية القديمة، كما تتبعت خط الانحراف في الدين النصراني. والظلم الذي مارسته الكنيسة على الناس، والنتائج الخطيرة التي ترتبت عليه. وقيام النهضة على أساس غير ديني.

أما الباب الأول فهو: عرض نظرية ماركس للتفسير المادي للتاريخ من وجهة نظر أصحابها. وقد مهدت لهذا الباب بعرض موجز للتفسير المادي للتاريخ، وبينت فيه الصلة بينه وبين المادية الجدلية. وجاء هذا الباب في ثمانية فصول:

الفصل الأول: المادة سابقة في الوجود على الفكر، وقد عرضت فيه لتعريف المادة عند الماديين. وأنها في رأيهم سابقة في الوجود على الفكر وهي أزلية وأبدية.

الفصل الثاني: قوانين المادة. عرضت فيه قوانين المادة وكيف فهمها الماديون، وكيف طبقوها على حياة المجتمعات البشرية.

الفصل الثالث: أثر نظرية دارون على التفسير المادي للتاريخ. وقد عرضت فيه آثار الداروينية على الفكر الأوروبي بصفة عامة والفكر الشيوعي بصفة خاصة.

الفصل الرابع: مراحل التطور في التاريخ البشري وحتمياته. وقد تحدثت فيه عن أساليب الإنتاج وقوى الإنتاج وأثرها على الحياة الإنسانية، ثم تعرضت فيه لتقسيم الماديين للمراحل الإجتماعية في التاريخ البشري، وهي الشيوعية البدائية والرق والإقطاع والرأسمالية والإشتراكية الممهدة للشيوعية، وتعرضت للصراع الطبقي ونشوءالأمم والإستعمار.

الفصل الخامس: التفسير المادي للتاريخ والدين. وقد عرضت فيه موقف الشيوعيين من الدين، وناقشت القضايا المتعلقة بهذا الموضوع.

الفصل السادس: التفسير المادي للتاريخ والأخلاق. وقد عرضت فيه موقف الشيوعيين من الأخلاق، وناقشت القضايا المتعلقة به كذلك.

الفصل السابع: التفسير المادي للتاريخ والشخصيات البارزة، فقد عرضت فيه موقف الشيوعيين من الأفراد البارزين والهدف الذي يكمن خلفه.

الفصل الثامن: التفسير المادي للتاريخ والأسرة، وقد عرضت فيه موقف الشيوعيين من الأسرة، وعلاقة الرجل بالمرأة، وشيوعية النساءالقديمة والحديثة.

* * *

أما الباب الثاني فهو: مناقشة النظرية وقد جاء في عشرة فصول.

الفصل الأول: هل المادة أزلية أبدية؟ وقد تعرضت فيه لمناقشة الشيوعيين في أزلية المادة وأبديتها، وتعرضت للأدلة الإيمانية والعلمية التي تبطل دعواهم، وناقشت جميع القضايا المتعلقة به.

الفصل الثاني: هل المادة سابقة في الوجود علىالفكر؟ تعرضت فيهلتعريفات المادةالحديثة، والمغالطة المفتعلة في أسبقية المادة في الوجود على الفكر، وتراجع الماركسيين عن هذا الرأي.

الفصل الثالث: مناقشة قوانين المادة. تعرضت فيه لمناقشة قوانين المادة وهي الترابط والحركة، والتطور والتناقض بالأدلة العلمية.

الفصل الرابع: قوانين المادة لا تنطبق على حياة الإنسان. تعرضت فيه لسلوك الإنسان وسلوك المادة، وتفرد الإنسان عن المادة.

الفصل الخامس: مناقشة أثر نظرية دارون على التفسير المادي للتاريخ. تعرضت فيه لمناقشة نظرية دارون بالأدلة العلمية، ولأقوال العلماء التي تحدثت عن تفرد الإنسان عن الحيوان.

الفصل السادس: مناقشة مراحل التطور في التاريخ البشري وحتمياته. وقد خصصته لمناقشة أهم الأدلة التي اعتمد عليها التفسير المادي للتاريخ، والقضايا التي بحثها، فقد تعرضت لمناقشة تطور القوى المنتجة وأدوات الإنتاج، والشيوعية البدائية والرق، وصراع الطبقات، ومرحلة الإقطاع والرأسمالية. وعرضت موقف الإسلام من الطبقات والرق والإقطاع، ودور اليهود في ظهور الرأسمالية. وتعرضت بالنقد للعامل الاقتصادي والحتميات، ونشوء الأمم والاستعمار. وتعرضت لنزعة الملكية الفردية ودعواهم من كل حسب طاقته ولكل حسب حاجته وتعرضت لفكرة زوال الدولة وتنبؤات ماركس والأدلة التي تكذبها، وأبرزت تراجعهم عن كثير من مبادىء الشيوعية.

الفصل السابع: مناقشة موقف التفسير المادي للتاريخ من الدين. تعرضت فيه لأسباب محاربة الشيوعية للدين والقضايا التي أثاروها حول الدين بالمناقشة العلمية.

الفصل الثامن: مناقشة موقف التفسير المادي للتاريخ من الأخلاق. وتعرضت فيه لمناقشة مفهوم الشيوعية للأخلاق، والقضايا المتعلقة بها.

الفصل التاسع: مناقشة موقف التفسير المادي للتاريخ من الشخصيات البارزة. تعرضت فيه لموقف الشيوعيين من الأفراد البارزين، ودور الأنبياء والمصلحين في دفع عجلة التاريخ إلى الأمام.

الفصل العاشر: مناقشة موقف التفسير المادي للتاريخ من الأسرة. وقد تعرضت فيه لمناقشة موقف الشيوعيين من الأسرة، ولحالة المرأة الأوروبية في الشرق والغرب، وعن وضع المرأة في الإسلام.

* * *

أما الباب الثالث فهو: التصـور الإسلامي ويشتمـل على فصلين.

الفصل الأول: سنن الله في الكون والإنسـان وخصائصها. وقد تعرضت فيه لمفهوم التصور الصحيح للألوهية وأثره على الناس، وسنن الله الثابتة في الكون. وعن الإنسان في التصور الإسلامي.

الفصل الثاني: تفسير تاريخ الأمم بمقتضى التصور الإسلامي. وقد تعرضت فيه لبيان مفهوم الحضارة في الإسلام، وعوامل سقوط الحضارات.

الخاتمة: وقد تعرضت فيها لأهم النتائج التي توصلت إليها من خلال البحث.

هذا وإن أملي في الله عز وجل كبير في أن أكون قد وفيت هذا الموضوع حقه من العناية والبحث والتمحيص، وأن أكون قد أتيت فيه بجديد، ومن الله أستلهم العون والسداد، فهو ولي ذلك والقادر عليه وصلّ الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. والحمد لله رب العالمين.



التمهيد

الظروف التي مهّدت لانتشار التفكير المادّي في أوربا

تمهيد عام

حين يكتب الإنسان عن المذاهب المادية في أوروبا، فلا بد من طرح سؤال هو: هل نشأت هذه المذاهب نشأة طبيعية، أم أن لها ظروفاً خاصة بها؟

إن أوروبا التي نشأت فيها المذاهب المادية المعادية للدين، وانتشرت منها، لم تعرف الدين الصحيح المنزل من عند الله، وإنما اعتنقت ديناً محرفاً ممزوجاً بالوثنية، هو الدين النصراني.

ولكي نعرف كيف حرف الدين النصراني عن أصله الصحيح، والآثار التي ترتبت على هذا التحريف، لا بد لنا من الرجوع إلى الوراء قليلاً لنعرف طبيعة الدين النصراني، والجو الذي نشأ فيه هذا الدين، والظروف التي أحاطت به منذ بدايته، ومن ثم كيف تم التحريف.

الدين الصحيح كما أنزله الله على عيسى عليه السلام

أرسل الله سبحانه وتعالى الرسل إلى أقوامهم مبشرين ومنذرين، أرسلهم لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

وكانت رسالتهم التي أرسلهم الله بها واحدة، وهي دعوة الناس إلى توحيد الله وإفراده سبحانه وتعالى بالربوبية(١) والألوهية(٢)، فيعبدونه وحده بلا شريك ويطيعون أمره.

فكان كل رسول يقول لقومه:

﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾(٣)

فكانت كل رسالة سماوية ذات شقين: عقيدة وشريعة.

---

(١) توحيد الربوبية هو اعتقاد أن الله سبحانه وتعالى خالق العباد ورازقهم، محييهم ومميتهم. وقد أقر بهذا التوحيد المشركون السالفون، ومعظم أهل الملل السابقة كاليهود والنصارى وغيرهم والدليل على هذا الإقرار هو قوله تعالى:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾

سورة لقمان الآية ٢٥.

(٢) توحيد الألوهية، وهو توحيد العبادة، وهو إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة لأنه المستحق لأن لا يعبد سواه، مهما سمت درجته وعلت منزلته. وهو التوحيد الذي جاءت به الرسل إلى أممهم. لأن الرسل عليهم السلام جاءوا بتقرير الربوبية الذي كانت أممهم تعتقده، ودعوتهم إلى توحيد الألوهية، كما أخبر الله عنهم في كتابه المجيد.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

سورة هود الآية ٥٠ ــ انظر تطهير الجنان والأركان عن درن الشرك والكفران ص ١٢ ــ ١٧، وكتاب الجامع الفريد الرسالة الثالثة، أنواع التوحيد وأنواع الشرك ص ٣٤٠، ورسالة تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد ص ٤٩٦.

(٣) سورة هود آية ٥٠.

أما العقيدة فهي ثابتة لا تتغير وهي دعوة الرسل جميعاً، أن:

﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾[٤]

هي توحيد الله سبحانه وتعالى وتنزيهه عن الصاحبة والولد والشريك، وإرجاع الأمر والخلق والتدبير والتحاكم إليه سبحانه وتعالى. وشريعة تحكم حياة الناس بما يتناسب مع نموهم وتقدمهم، إلى مجتمع منظم ودولة. فيها التشريع الاقتصادي والسياسي والاجتماعي إلخ. يحكم بها وفق ما يرضى الله سبحانه وتعالى، وكما أنزلت من عنده من غير تحريف أو تعطيل أو تبديل.

ومن بين الرسل الذين أرسلهم الله سبحانه وتعالى سيدنا موسى عليه السلام، أرسله الله سبحانه وتعالى إلى بني إسرائيل بعقيدة التوحيد الخالصة، المطهرة من الشرك. وشريعة تحكم حياتهم على هدى الله عز وجل. وقد آمن معه نفر من قومه فصدقوه ونصروه، وأبى أكثر يهود إلا نفوراً. قاوموا دعوة الله وعذبوا رسله وقتلوهم.

حرفوا دينهم، فأحلوا ما حرم الله عليهم، وحرموا ما أحل الله لهم. أسرفوا في حب الدنيا ومتاعها المادي، فكان الجشع والطمع ديدنهم، والحقد والبغضاء والحسد والفتنة خلقهم وشيمتهم.

لهذه الصفات الخسيسة والطباع اللئيمة كرههم الناس واضطهدوهم وأذلوهم وشتتوهم، لذلك نشأوا حاقدين على البشرية. أحبوا أنفسهم واستعلوا على البشرية وزعموا أنهم شعب الله المختار، لم يتركوا باباً للخير إلا أوصدوه، ولا قبراً للشر إلا نبشوه.

وشاءت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يرسل إليهم سيدنا عيسى

---

(٤) سورة هود آية ٥٠.

عليه السلام برسالة جديدة، وهي ككل رسالة منزلة من عند الله، عقيدة وشريعة. وإن كانت لم تأت بتفصيلات تشريعية، وذلك لأن شريعتها الأساسية كانت التوراة مع تعديلات غير كثيرة نزلت على عيسى عليه السلام في الإنجيل.

قال الله سبحانه وتعالى على لسان عيسى عليه السلام:

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ (٥)

فكان المفهوم الطبيعي للنصرانية أن تحكّم شريعة الله المنزلة في التوراة، مع مراعاة التعديلات الواردة في الإنجيل.

وقد نزلت رسالة عيسى عليه السلام لمواجهة المادية المتطرفة التي كانت شائعة في بني إسرائيل، والعالم الروماني يوم بعث المسيح عليه السلام، تلك المادية التي غالت في التشبث في الأرض والواقع المحسوس والقيم الأرضية، تلك المادية المتطرفة التي قطعت كل صلة لها بالسماء، وبعالم الروح. لذلك لا بد لها من قدر ملائم من الروحانية الصافية لتتناسب مع المادية المتطرفة، لعلها تصلح النفوس.

يقول شيخنا الأستاذ محمد قطب حفظه الله: «ومن ثم كانت كل تعاليم المسيح عليه السلام دعوة للتطهر والروحانية، دعوة ترتفع بالإنسان عن نفسه، وتصل به إلى الآفاق العليا التي تسمو عن الجسد والمادة. الآفاق الطليقة من قيود الأرض ومن نوازع الشهوات»(٦).

---

(٥) آل عمران آية ٥٠.

(٦) الإنسان بين المادية والإسلام ص ٩.

البيئة التي نشأت فيها النصرانية:

كانت الدولة الرومانية الوثنية هي المسيطرة على بلاد الشام وبيت المقدس وقت نزول الرسالة على عيسى عليه السلام.

ومنذ اللحظة الأولى بدأ اليهود يكيدون للدعوة الجديدة، ويشعلون نار الفتنة والفساد ضد هذا الدين الجديد.

وكما هو معلوم أن اضطهاد الأنبياء وقتلهم عادة متأصلة في نفوس اليهود، يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ (٧)

بداية إضطهاد النصارى:

ونشأ الخلاف بين اليهود والنصارى، ولم تتدخل الدولة الرومانية في بداية الأمر في هذا الخلاف، لأنها كانت تعتبره خلافاً داخلياً لا يضر بمصلحة الدولة وكل ما يهم الدولة هو استقرار الأمن، وخضوع الهيئات كلها لنظام الحكم فيها، وليس من مصلحتها أن تتدخل في المسائل الخلافية التي لا تضر بمصالحها. ولكن اليهود لم تفتر همتهم ولم يقعدوا عن إشعال نار الفتنة ساعة واحدة، لجأوا إلى جميع الوسائل والحيل، حتى تمكنوا أخيراً من إقناع الحاكم الروماني بيلاطس من أن المسيح ودعوته خطر على الإمبراطورية. فأمر بيلاطس بقتل المسيح عليه السلام صلباً. ولكن الله سبحانه وتعالى نجاه من كيدهم فلم يتمكنوا من صلبه، بل صلب يهوذا الأسخريوطي كما قيل مكانه، حيث أوقع الله شبه عيسى عليه السلام عليه.

---

(٧) سورة البقرة ـ آية ٨٧.

قال الله تعالى داحضاً زعمهم الباطل بأنهم قتلوا المسيح وصلبوه:

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾[٨]

والمهم في الأمر أن الاضطهاد الديني للنصرانية بدأ منذ اللحظة الأولى لظهورها، واستمرت عملية الاضطهاد والتعذيب بعد رفع عيسى عليه السلام من الأرض فترة طويلة. وكان الاضطهاد قاسياً أليمًا فوق مايتصوره العقل ويتحمله البشر. كان النصراني يؤخذ بالتهمة والظن، ويعدم إن أقر أنه نصراني. وزاد الطين بلة أن الرومان اتهموا النصارى بحرق روما فصبوا جام غضبهم عليهم. وكان أقسى اضطهاد شهدوه على عهد نيرون الطاغية. فقد تفنن في تعذيبهم حتى كان يلبس بعضهم جلود الحيوانات ويطعمهم للكلاب. وكان يدهن جلود بعضهم الآخربالقار، ويشعل النار في أجسادهم لتصير مشاعل تنير الظلام في الليل على جوانب الطرقات، وغير هذه من الألوان البشعة في التعذيب.

وجاء بعده الإمبراطور تراجان فعذبهم وأعدم الكثيرين منهم. ثم جاء الإمبراطور ديسيوس ولم يقل عن سابقه في اضطهاد النصارى. وأخيراً جاء الإمبراطور دقلديانوس. وقد قتل الكثيرين من النصارى

(٨) سورة النساء، آية ١٥٧، ١٥٨.

وخاصة من الأقباط في مصر حتى سمي عصره بعصر الشهداء لكثرة القتلى الذين ماتوا تحت سياط التعذيب وبالحرق والصلب[٩]

في هذا الجو المشحون بالاضطهاد نشأت النصرانية وترعرعت بعد المسيح عليه السلام، وفي هذا الجو المظلم المليء بالاضطراب النفسي والخوف والفزع دونت الأناجيل المعروفة.

وجدير بي وأنا أكتب عن الجو الذي نشأت فيه الديانة النصرانية، أن أتعرض لخصائص الحضارة السائدة في ذلك الوقت، وأثرها على هذه الديانة.

لقد كانت الحضارة الرومانية هي السائدة في ذلك الوقت، ولكن الرومانيين تتلمذوا على اليونانيين، وتأثروا بفكرهم ومدارسهم الفلسفية، وتتلمذوا في الفكر والآداب عليهم. وبناء على هذا الأمر فلا بد من عرض سريع لأهم خصائص الحضارة اليونانية، وأثر مدارسها الفلسفية على النصرانية.

خصائص الحضارة اليونانية:

كان اليونانيون أمة موهوبة ومن أذكى أمم العالم، وأكثرها استعداداً للعلم والآداب، ولكنهم كانوا في الدرك الأسفل من ناحية التدين والعبادة، فقد كانوا يعبدون الأوثان وينحتون التماثيل والأصنام ويتقربون إليها.

هذا وقد ظهر منهم فلاسفة وأدباء وعلماء، ما تزال علومهم تذخر بها مكتبات العالم. وتمتاز الحضارة اليونانية بالإضافة إلى الصفات

(٩) انظر كتاب المسيحية ص ٦٠ ــ ٦١، والاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام ص ٣٣ ــ ٤٣ ومحاضرات في النصرانية ص ٣١ ــ ٣٥.

التي كانت تشترك فيها مع باقي الأمم في ذلك الوقت بالخصائص التالية:

١ ـ الإيمان بالمحسوس وقلة التقدير لما لا يقع تحت الحس.
٢ ـ قلة الدين والخشوع.
٣ ـ شدة الإعتداد بالحياة الدنيا والاهتمام الزائد بمنافعها ولذائذها.

«ويمكن أن نحصر هذه المظاهر المشتتة في كلمة مفردة وهي «المادية» فقد كانت الحضارة اليونانية شعارها «المادية»، وهي التي ينم بها كل ما يتصل باليونان من ثقافة وعلم وفلسفة ودين، فلم يستطيعوا ان يتصوروا صفات الله وقدرته إلا في شكل آلهة شتى نحتوا لها تماثيل، وبنوا لها معابد وهياكل. فللرزق إله. وللرحمة إله، ثم نسبوا إليها كل ما يختص بالجسم المادي ونسجوا حولها نسائج من[10] أساطير وخرافات وصوروا المعاني المجردة وتصوروها في أجسام وأشكال، فللحب إله وللجمال إله.[11]

وتشير كتب التاريخ إلى أنه قد كثر في حياة اليونانيين الطرب والرقص ورقة الدين وقلة الخشوع، والولوع بالصور والتماثيل. فقد كانوا يعظمون آلهتهم كما يعظمون حكامهم وشيوخهم. وكانت عبادتهم وأعمالهم الدينية جسداً بلا روح. وقد نشأ في نفوس اليونانيين حب الوطنية، حتى أن بعض علماءهم طالب بمعاملة الأجانب كما تعامل البهائم، وكانوا يميزون بين اليوناني وغير اليوناني، «بل إن

---

(١٠) ورد في لسان العرب: نسج الحائك الثوب بنسجه وينسجه نسجاً. ويقال: نسيج وحده بمعنى منفرد بخصائصه وصفاته ـ ج ٢ ص ٣٧٦ ـ ٣٧٧.

(١١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٧٤.

أرسطاطاليس لم يكتف بحب وطنه والولاء له فحسب، بل قال: إن اليونانيين ينبغي لهم أن يعاملوا الأجانب بما يعاملون به البهائم»[١٢].

مدرسة الإسكندرية:

نشأت هذه المدرسة في مصر في الشرق، وكان من أشهر أساتذتها آمنيوس المتوفي عام ٢٤٢م، الذي اعتنق النصرانية ثم ارتد عنها إلى وثنية الدولة الرومانية. ثم جاء أفلوطين عام ٢٧٠م الذي تتلمذ على هذه المدرسة ثم رحل إلى الهند وفارس، واطلع على تعاليم البرهمية والبوذية.

أهم خصائص فلسفة أفلوطين:

وتتلخص فلسفة أفلوطين بما يلي:

١ ــ الكون نشأ عن «الخالق الأزلي الأول» الذي لا تحده الأفكار.

٢ ــ الأرواح شعب «الروح واحد» تتصل بالخالق الأزلي عن طريق (العقل) المنبثق عن الخالق الأزلي الأول.

٣ ــ العالم كله في تدبيره وتكوينه وتحركه يخضع لهذه الثلاثة: المنشيء الأزلي الأول ــ العقل المنبثق عنه ــ الروح التي هي مصدر تتشعب منه الأرواح جميعاً.

ويشرح أفلوطين نظريته الثلاثية فيقول:

١ ــ عن المنشيء الأول صدر العقل. وليس صدوره كالولادة، ولكنه انبثاق.

٢ ــ ومن العقل انبثقت الروح التي هي وحدة وأساس الأرواح كلها.

---

(١٢) المصدر السابق ص ١٧٨.

٣ ـ وهذه الثالثة: المنشيء الأول، والعقل، والروح أساس توالد العالم كله[١٣].

أثر مدرسة الإسكندرية على العقيدة النصرانية:

تأثرت العقيدة النصرانية بفكرة التثليث من مدرسة الإسكندرية تأثراً كبيراً، حيث أن فلسفة مدرسة الإسكندرية ترجع العالم في تكوينه وتدبيره إلى ثالوث مقدس: المنشيء الأول، والعقل الذي تولد منه كما يتولد الولد من أبيه، والروح الذي يتصل بكل حي ومنه الحياة، فإذا عبّرنا عن المنشيء الأول بالأب، وعن العقل المتولد عنه بالابن، وعن الروح بروح القدس كما هو ثالوث النصارى الذي أخذ ببعضه مجمع نيقيه وبكله المجامع التي جاءت من بعده، فإننا لا نكون قد خرجنا في التسمية عن الصواب.

والمعروف أن السابق أستاذ اللاحق، ومدرسة الإسكندرية سابقة على مجمع نيقيه والمجامع التي جاءت بعده[١٤]، هذه المجامع التي قررت عقيدة التثليث وفرضتها على النصارى ظلمًا وعدواناً، حين حرف علماؤهم كلام الله عن موضعه.

يقول الفيلسوف جون لوتيه: «إن هذا التزاوج الذي تحدثنا عنه في الباب السابق بين العقيدة اليهودية والميتافيزيقا الإغريقية، لم ينتج فلسفة فحسب، بل كان منه أيضاً دين، فالمسيحية الخارجة من المسيحية لم تلبث أن تشربت رويداً رويداً بالتصورات والأفهام الفلسفية للإغريق، بوساطة بولس الرسول ومؤلف الإنجيل ـ كما يقول القديس يوحنا ـ وآباء الكنيسة. لقد شرب اللاهوت المسيحي من

---

(١٣) انظر أضواء على المسيحية ص ٣٠ ـ ٣١، ومحاضرات في النصرانية ص ٣٨ ـ ٣٩.
(١٤) انظر محاضرات في النصرانية، ص ٣٩.

الينابيع نفسها التي شرب منها المذهب الأفلاطوني الجديد، فظهر فيه مشابه كثيرة لهذا المذهب، وإن افترق عنه في عدة نقاط أساسية.

«حقاً استند اللاهوت المسيحي، مثل المذهب الأفلاطوني الجديد إلى مذهب التثليث. فالأقانيم الثلاثة الإلهية هي نفسها لا تختلف فيها، الأول هو الله الذي لا يوصف ولا يحيط به إدراك، الله الذي يحوي في وحدته كل كمالات إذ كان منبعها: هو الخير المطلق، وقد أطلق عليه المسيحيون اسم الأب، والثاني أو الابن، هو الكلمة، وهو كذلك العقل الإلهي، بل إن نظرية المثل الأفلاطونية، التي تجعل الكلمة هي المقر الأزلي، نجدها عند القديس كليمانت كما عند أفلوطين، والثالث هو دائماً الروح القدس.

«وكذلك لم تكن الأقانيم سواء في رأي الافلاطونيين المحدثين، فأصبحت سواسية في رأي المسيحيين: الفكر أو العقل الإلهي يجب أن يكون تعبيراً معادلاً للذات الإلهية. فالإبن الذي صدر عن الأب يمكن أن يكون دونه وإلا لكان من طبيعة الكامل أن يكون منه غير الكامل، وذلك لا يكون انحطاطاً حقيقياً، وهذا إن صح صار الباب مفتوحاً للمذهب الحلولي الذي يتمثل غير الكامل نتيجة (أو معلولاً) ضرورية للكامل، أي أنه وهو ليس إلا واحداً وكما صار الابن»[١٥] والابن في منزلة سواء. كذلك الحب الإلهي أي روح القدس صار في نفس المنزلة. وهذا ما حدا بعلماء اللاهوت المسيحي إلى إطلاق أسماء أشخاص بدلاً من أقانيم على الوحدات الإلهية.

«وأخيراً نجد فارقاً ثالثاً يستخلص من هذين الفارقين: ذلك بأنه عند الفلاسفة الإسكندريين يتم الصدور عن الله نفسه من الأقنوم

---

(١٥) هكذا وردت. ولعله خطأ مطبعي لأن المقصود من كلامه هو الأب.

الأول إلى الثاني وإلى الثالث بطريق الفيض، لكن الروح لما لم تبق روح العالم، لم تعد واسطة بينه وبين الله.

ثم التثليث كما فهم الأفلاطونيون المحدثون، نجده تثليثاً مفتوحاً كما رأينا بينما نراه في اللاهوت المسيحي تثليثاً مغلقاً، فالعالم، كما ذهب رجال هذا اللاهوت، لا يصدر بعد عن الروح الإلهية وحدها بطريق الفيض، بل يجب أن يكون إنتاجاً مشتركاً للأشخاص الثلاثة معاً، هذه الأشخاص التي لا تتساوى إلا في الأزلية فحسب، بل في كل شيء. وكذلك بينما صدور تلك الأشخاص الإلهية يتم بالفيض، نجد الانتقال من الله إلى العالم يتم على وجه آخر هو الخلق. لقد كان العالم من العدم بما فيه المادة نفسها أيضاً، بعمل اشترك فيه القدرة الإلهية والعقل الإلهي والحب الإلهي، وكانوا جميعاً في مرتبة سواء[١٦].

خصائص الحضارة الرومانية:

تأثر الرومان بحضارة اليونانيين تأثراً كبيراً. وبخاصة في مجال العلم والفلسفة والآداب، فخضعوا لهم علمياً، واقتبسوا من علومهم وآدابهم وفلسفتهم، ولم يقتصر الخضوع على هذا فحسب وإنما غلبت المدنية اليونانية المدنية الرومانية في الأخلاق والاجتماع والعواطف والنزعات، بل في كل ناحية من نواحي الحياة العامة، حتى أصبح الروماني يقلد الإغريق ويتنبل بذلك ويتظرف.

وهناك تشابه كبير بين اليونانيين والرومانيين من حيث الإيمان بالمحسوس، والغلو في تقدير الحياة والشك في الدين والاستخفاف بنظامه وطقوسه، والاعتزاز بالقومية والتعصب لها، والحب المفرط

(١٦) المدخل لدراسة الفلسفة الإسلامية، ص ١٤٢ ـ ١٤٥.

للوطن، والاعتداد بالقوة واحترامها احتراماً زائداً يبلغ العبادة والتقديس[١٧].

لم يكن للدين أثر على أخلاق الرومان وسياستهم:

وكان الرومان كلما تقدموا بالعلم وتنورت أفكارهم زادوا استخفافاً بالدين وفصلوا بين السياسة والدين من أول يوم، حيث قالوا إن الآلهة لا دخل لهم في السياسة وأمور الدنيا. يقول «سيسرو»: «لما كان الممثلون ينشدون في دور التمثيل أبياتاً معناها أن الآلهة لا دخل لهم في أمور الدنيا يصغي إليها الناس ويسمعونها بكل رغبة»[١٨].

فلم يكن للدين تأثير في سياسة الأمة وأخلاقها ومجتمعها، ولم يكن يملك عليهم شعورهم وميولهم ويراقب عليهم أخلاقهم ونزعاتهم، ولم يكن ديناً عميقاً يحكم على أرواحهم وينبعث من أعماق قلوبهم، بل كان تقليداً من التقاليد تقضي السياسة بالبقاء عليه ولو بالإسم والرسم[١٩].

يقول ليكي: «إن الدين الرومي كان أساسه على الأثرة، ولم يكن يرمي إلا إلى رفاهة الأفراد وسلامتهم من المصائب والمتاعب، والشاهدعلى ذلك أنه ظهر في روميّة مئات من الأبطال والعظماء، ولكن لم ينهض فيها زاهد في الدنيا عزوف عن ملذات الحياة، ولا تسمع مثالاً في تاريخ الروم للتضحية والإيثار إلا وتجده لا تأثير فيه للدين ولكن مبنياً على الوطنية»[٢٠].

---

(١٧) انظر ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٧٨ ــ ١٧٩.

(١٨) عن كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين. ص ١٨٠.

(١٩) انظر نفس المصدر، ص ١٨٠.

(٢٠) ليكي: تاريخ أخلاق أوروبا ص ١٧٧ نقلاً عن المصدر السابق، ص ١٨٠ ــ ١٨١.

ويقول الأستاذ الندوي: «والظاهرة التي يمتاز بها الروم من بين أمم الأرض المعاصرة، بل بعدها، والتي أصبحت لها ديناً تدين به وشعاراً تعرف به هو روح الاستعمار والنظر المادي البحت إلى الحياة، وذلك ماورثته أوروبا المعاصرة عن سلفها الروميين وخلفتهم فيه»[21].

ويقول الأستاذ محمد أسد: «كانت الفكرة التي تقوم عليها الامبراطورية الرومانية هي الإجتياح بالقوة واستغلال الأقوام الآخرين، لفائدة الوطن الأم وحده، وفي سبيل الترفيه عن فئة ممتازة. لم ير الرومانيون في عنفهم سوءً ولا في ظلمهم انحطاطاً. وإن «العدل الروماني» الشهير كان عدلاً للرومان وحدهم[22].

ومن البين أن اتجاهاً كهذا كان ممكناً فقط على أساس إدراك مادي خالص للحياة وللحضارة؛ «إدراك مادي هذبه على التأكيد ذوق فكري، ولكنه على كل حال بعيد عن جميع القيم الروحية». إن الرومانيين في الحقيقة لم يعرفوا الدين وإن آلهتهم التقليدية لم تكن سوى محاكاة شاحبة للخرافات اليونانية لقد كانت أشباحاً سكت عن وجودها حفظاً للعرف الاجتماعي ولم يكن يسمح لها قط بالتدخل في أمور الحياة الحقيقية، بل كان عليها أن تنطق بالرجز على ألسنة عرافيها إذا سئلت مثل ذلك. ولكن لم يكن ينتظر منها أن تمنح البشر شرائع خلقية»[23].

وعلى هذا الأساس فالفلسفة الرومانية فلسفة أرضية، لا تؤمن

---

(٢١) نفس المصدر، ص ١٨١.

(٢٢) وهذا هو الأسلوب الذي نهجته الدول الاستعمارية كبريطانيا وفرنسا وغيرهما مع الأمم المستعمرة حيث كانوا يستغلون خيرات البلاد وينهبون ثرواتها في سبيل الترفيه عن شعوبهم فقط.

(٢٣) محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق. ص ٣٥ ـ ٣٦.

إلا بالحياة المادية، وتنكر تدخل الله سبحانه وتعالى في شؤون السياسة والحكم وفرض الشرائع الأخلاقية عليهم، أي أنهم يرفضون التحاكم إلى شرع الله.

ومع أنهم كانوا يعبدون آلهة وثنية متعددة، فإنهم كانوا لا يدينون لها بالطاعة في أعمالهم وتصرفاتهم، ولا سلطان لها على نفوسهم.

وقد كانت الأديان في الدولة الرومانية قبل أن تصير نصرانية ثلاثة هي:

١ ـ دين الدولة الرسمي وهو الوثنية.
٢ ـ دين اليهود.
٣ ـ دين النصارى.

وفي خضم الاضطهاد الديني للنصارى حدث ما يلي:

(أ) دخل نفر من النصارى في الوثنية ولكنهم ظلوا بعقولهم وقلوبهم نصارى.

(ب) دخل نفر من الوثنيين في النصرانية بعد زوال الاضطهاد ولكنهم ظلوا بعقول وعاطفة وثنية.

وقد نشأت في الدولة الرومانية فلسفة خاصة نتيجة للظلم والاضطهاد الذي كان يعانيه المجتمع، والترف والبذخ الذي كان يعيشه النبلاء والأشراف، وفساد رجال الدين، ونتيجة لضعف السلطان الديني في النفوس.

فلما أراد الفلاسفة أن يملأوا الفراغ الذي تركه سلطان الدين في صدور الناس قدموا تلك الفلسفة التي تسمو فيها العواطف بالعقل إلى أعلى، وامتزجت تلك الفلسفة الجديدة بالوثنية والنصرانية وتكونت ديانة جديدة، أو فلسفة جديدة هي النصرانية التي امتزجت بالفلسفة

والأفكار الوثنية، أو الوثنية التي صارت مسيحية وانصهرت في بوتقة تسمى الفلسفة»[٢٤].

انحراف النصرانية:

سار الانحراف في النصرانية في طريقين:

الأول: إنحراف في العقيدة.

والثاني: فصل العقيدة عن الشريعة.

كيف بدأ الانحراف في العقيدة:

ذكرنا سابقاً أن الدين المنزل من عند الله على عيسى عليه السلام هو دين التوحيد الخالص، دين الأنبياء جميعاً، الذين أفردوا الله سبحانه وتعالى بالعبادة والحاكمية، ونزهوه عن الصاحبة والولد والشريك.

ولكن النصارى حرفوا دين الله، وقاوموا دعوة التوحيد التي جاء بها عيسى عليه السلام، ومزجوا العقيدة الصحيحة بتعاليم الوثنيين وفلسفتهم إرضاء للجماهير، حتى يكسبوا ودهم ويدخلوا في دينهم، ويكونوا عوناً لهم في نشر الدين في الأرض.

أول من بدأ التحريف:

وقد بدأ التحريف في وقت مبكر من ظهور هذا الدين على الأرض، وتولى كبر التحريف اليهودي شاول أو بولس، الذي يعتبر المؤسس الحقيقي للديانة النصرانية المحرفة.

يقول الدكتور أحمد شلبي: «وبولس هو المؤسس الحقيقي للديانة المسيحية، . . . ولم ينفر بولس من الطقوس الوثنية، بل على

(٢٤) انظر أضواء على المسيحية ص ٢٩.

العكس اقتبس كثيراً من هذه الطقوس ليضمن نشر ديانته بين الوثنيين دون أن ينفروا منها»[٢٥].

ويقول الأستاذ عبدالكريم الخطيب: «فلقد التقت المسيحية بالوثنية فصافحتها مصافحة المسالمة والموادعة، بل والمصادقة!! فلم تنكر عليها وجهاً من وجوهها ــ بل إن دعاة المسيحية ورسلها الأولين قد غيروا وبدلوا في صميم الشريعة، لكي تجيء على سمت التفكير الوثني وما استقر في نفوس الوثنيين وحياتهم من تقاليد وعادات»[٢٦].

التحريف الأول: تحريف العقيدة:

وأول تحريف أصاب من الديانة النصرانية مقتلاً هو تحريف العقيدة، وقد سار هذا التحريف في طريقين:

الأول: القول بألوهية المسيح وبذر بذرة التثليث.

الثاني: استحلال ما حرم الله وتحريم ما أحل الله.

أولاً ــ القول بألوهية المسيح وبذر بذرة التثليث:

وقد ظهر هذا التحريف في وقت مبكر والحواريون لا يزالون على قيد الحياة، حين انتشر بين الناس أن للمسيح طبيعة إلهية. على الرغم من أن سيدنا عيسى عليه السلام ــ كما تعترف دائرة المعارف البريطانية ــ لم تصدر عنه أي دعوى تفيد أنه من عنصر إلهي، أو من عنصر أعلى من العنصر الإنساني المشترك[٢٧].

وكانت اليد الطولى في التحريف كما ذكرنا سابقاً لبولس

---

(٢٥) المسيحية ص ٧٣.

(٢٦) المسيح في القرآن والتوراة والإنجيل، ص ٣٣٨.

(٢٧) انظر رسالة العلمانية وأثرها في الحياة الإسلامية المعاصرة ص١٣؛ والجفوة المفتعلة، ص ١٥.

الرسول، اليهودي الأصل، الذي اشتهر أول حياته باضطهاد النصارى ثم تحول فجأة فأصبح الشخصية النصرانية الأولى والقطب الكنسي المعظم.

وبولس هو أول من أثار موضوع ألوهية المسيح مدعياً أنه «إبن الله»[28].

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ﴾[29]

وكانت هذه الدعوى البذرة الأولى لعقيدة التثليث.

وقد تأثر بولس بمدرسة الإسكندرية التي أشرنا سابقاً إلى تعاليمها وعنها نقل فكرة التثليث.

يقول ولز: «على أن ما أسهمت به نحلة الإسكندرية في الفكر المسيحي والطقوس المسيحية كان أعظم قدراً أو يكاد»[30].

ويقول في موضع آخر: «وظهر للوقت معلم آخر عظيم، يعده كثير من الثقات المؤسس الحقيقي للمسيحية، وهو شاؤل الطرسوسي أوبولس، والراجح أنه كان يهودي المولد وإن كان بعض الكتاب اليهود ينكرون ذلك. ولا مراء في أنه تعلم على أساتذة من اليهود، بيد أنه كان متبحراً في لاهوتيات الإسكندرية الهلينية... وهو متأثر بطرائق التعبير الفلسفي للمدارس الهلنستية، وبأساليب الرواقيين، كان صاحب نظرية دينية ومعلماً يعلم الناس قبل أن يسمع بيسوع الناصري بزمن طويل... ومن الراجح جداً أنه تأثر بالمترائية، إذ هو يستعمل عبارات عجيبة الشبه بالعبارات المترائية. ويتضح لكل من يقرأ رسائله

---

(٢٨) انظر رسالة بولس إلى أهل رومه صح ١: ٤ ـ ٥.

(٢٩) مريم ٣٥.

(٣٠) معالم تاريخ الإنسانية ص ٧٠٩، ج ٣.

المتنوعة جنباً إلى جنب مع الأناجيل أن ذهنه كان مشبعاً بفكرة لا تبدو قط بارزة قوية فيما نقل عن يسوع من أقوال وتعاليم، ألا وهي فكرة الشخص الضحية الذي يقدم قرباناً لله كفارة عن الخطيئة، فما بشر به يسوع كان ميلاداً جديداً للروح الإنسانية أما ما علمه بولس فهو الديانة القديمة، ديانة الكاهن والمذبح وسفك الدماء طلباً لاسترضاء الإله»[٣١].

ويقول الدكتور أحمد شلبي: «لقد أحدث بولس في المسيحية أحداثاً خطيرة... نقلها من التوحيد إلى التثليث، قال بألوهية المسيح وألوهية الروح القدس... إلخ»[٣٢].

وبعد هذا التحريف في العقيدة الذي هدم أساس الديانة النصرانية التي تعاني من التحريف حتى يومنا هذا، نعرض التحريف الخطير الثاني في العقيدة الذي هز النصرانية من أساسها وهو تحريم ما أحل الله، واستحلال ما حرم الله، والمساومة على العقيدة.

ثانياً ـ استحلال ما حرم الله وتحريم ما أحل الله:

قدم النصارى وأحبارهم ورهبانهم تنازلات كثيرة في عقيدتهم وشريعتهم لكسب ود الوثنيين، طمعاً في دخولهم في دينهم. ومن أهم هذه التنازلات بعد التثليث: تحريم ما أحل الله واستحلال ما حرم الله سبحانه وتعالى. وإلى هذا أشار الله سبحانه وتعالى بقوله:

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾[٣٣]

---

(٣١) معالم تاريخ الإنسانية، ص ٧٠٥ ـ ٧٠٦ ج ٣.

(٣٢) المسيحية، ص ١٠٣.

(٣٣) التوبة ـ ٣١.

وقد فسرها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث عـدي بن حاتم رضي الله عنه. روى الـطبري عن مصعب بن سعـد عن عدي بن حاتم قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي عنقي صليب من ذهب. فقال:يا عدي اطرح هذا الوثن من عنقك فطرحته. وانتهيت إليه وهو يقرأ في سورة براءة فقرأ هذه الآية:اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله قال: قلت:يا رسول الله إنا لسنا نعبدهم فقال:أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ويحلون ما حرم الله فتحلونه قال: قلت:بلى قال: فتلك عبادتهم.وفي رواية أخرى،قلت:يا رسول الله أما أنهم لم يكونوا يصلون لهم، قال:صدقت. ولكنهم كانوا يحلون لهم ما حرم الله فيستحلونه ويحرمون ما أحل الله فيحرمونه [٣٤].

وعن أبي البختري قال: سئل حذيفة عن قول الله عز وجل: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ هل عبدوهم؟ فقال: لا ولكن أحلوا لهم الحرام فاستحلوه وحرموا عليهم الحلال فحرموه. وذكر عبدالله بن عباس رضي الله عنهما نحو هذا حيث يقول: «لم يأمروهم أن يسجدوا لهم ولكن أمروهم بمعصية الله فأطاعوهم فسماهم الله بذلك أرباباً» [٣٥].

ويجب علينا هنا أن نلاحظ قضية هامة، وهي أن المساومة على العقيدة والتشريع الرباني، وتقديم التنـازلات على حسـاب الدين الإسلامي، من أجل استرضاء كفار قريش الذين عذبوا المسلمين واضطهدوهم، قضية أباها الله سبحانه وتعالى، وأمر نبيه محمداً صلى

(٣٤) جامع البيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص ٨٠ ـ ٨١. وقد جاء الحديث بألفاظ متقاربة في تفسير ابن كثير، ج ٣؛ ص ٣٨٥. وجامع الترمذي مع شرح تحفة الأحوذي ج ٤، ص ١١٢، وقال الترمذي عنه:حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عبدالسلام بن حرب بن غطيف بن أعين، ليس بمعروف في الحديث.

(٣٥) الجامع لأحكام القرآن، ج ٤ ص ٢٦٥٦.وجامع البيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص ٨١.

الله عليه وسلم أن يرفضها رفضاً حازماً فقد أخرج إبن جرير وابن أبي حاتم والطبراني عن ابن عباس: «أن قريشاً دعت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن يعطوه مالا فيكون أغنى رجل بمكة، ويزوجوه ما أراد من النساء، فقالوا: هذا لك يا محمد وكف عن شتم آلهتنا ولا تذكرها بسوء. فإن لم تفعل فإنا نعرض عليك خصلة واحدة ولك فيها صلاح قال ما هي؟ قالوا تعبد آلهتنا سنة ونعبد آلهتك سنة، قال حتى أنظر ما يأتيني من ربي.

فجاء الوحي من عند الله:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ (٣٦)

إلى آخر السورة. وأنزل الله:

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ (٣٧)

إلى قوله ــ بل الله فاعبد وكن من الشاكرين»(٣٨).

أما النصارى فساوموا على عقيدتهم وشريعتهم، وقدموا تنازلات

---

(٣٦) سورة الكافرون وتمامها:

﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾

(٣٧) الزمر وتمامها.

﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٦٥ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٦٦﴾

الآيات ٦٤، ٦٥.

(٣٨) فتح القدير، ج ٥، ص ٥٨، وانظر القرطبي: ج ٨، ص ٧٣١٥ ــ ٧٣١٧.

كبيرة في سبيل إرضاء الوثنيين كما ذكرت سابقاً، فمثلاً حرم النصارى الختان الذي أحله الله لهم وأحلوا لحم الخنزير الذي حرمه الله عليهم.
وكان أول من قدم تنازلات في الشريعة النصرانية للوثنيين من أجل قبول العقيدة النصرانية هو: (شاول بولس) الذي دخل في النصرانية ليكيدها ويفسد أصولها، وهو يهودي الأصل وعدو للنصرانية كما عرفنا.

يقول برنتون: «كانت العقبة الكبرى في وجه الأميين الذين وجدوا أسلوب الحياة المسيحية جذاباً قانون اليهود ـ أي شريعة التوراة ـ إلى أن يشرح الكاتب كيف أن بولس أزال هذه العقبة فأفتى بأن «الإغريق والمصريين والرومان الذي يقبلون المسيحية في حل من الختان وفي حل من التقيد بحرفية القانون»[٣٩].

ويقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب عن استحلال لحم الخنزير: «وكذلك كان الشأن في الخنزير» الذي تحرمه الشريعة ـ فلقد أباح رسل المسيحية للمسيحيين أكله استجابة للعادة التي كانت قد رسخت في الوثنيين من استطابة طعامه والحرص على اقتنائه»[٤٠].
وفي غمار موجة الاضطهاد التي ابتلي بها النصارى، زاد التحريف في الديانة، واقتبسوا كثيراً من عادات الوثنيين، كلباس القساوسة وحلق اللحى وغيرها من البدع والخرافات لا مجال لحصرها والتي تراجع في مظانها»[٤١].

ولم يخف الاضطهاد عن النصارى إلا في عهد قسطنطين الذي

(٣٩) أفكار ورجال: ص ١٨١.
(٤٠) المسيح في القرآن والتوراة والإنجيل: ص ٣٣٩.
ـ ومحاضرات في النصرانية: ص ١٣٥.
(٤١) انظر المسيحية، ومحاضرات في النصرانية وقصة الحضارة، ومعالم تاريخ الإنسانية وغيرها من الكتب التاريخية ومقارنة الأديان.

تسلم عرش الإمبراطورية الرومانية في حالة ضعف وضعضعة، فأراد أن يرأب الصدع ويعيد بناء الدولة من جديد، لتبقى قوية متماسكة، فأظهر عطفه ووده للنصارى، ليعاونوه على ما عقد النية عليه.

ولما كانت سنة الله لا تتغير وهي أن الحق والباطل دائمًا في صراع مستمر، فقد دب الخلاف بين النصارى الموحدين وبين النصارى المتأثرين بالتثليث والوافد إليهم على يد بولس - ومدرسة الإسكندرية.

وقد خشي الامبراطور على سلامة بنيان دولته من هذا الخلاف، فدعا القساوسة والرهبان إلى عقد اجتماع موحد للقضاء على ذلك الخلاف.

مجمع نيقية

وبالفعل اجتمع كثير من الرهبان والقساوسة لبحث هذا الأمر الخطير، ولكن الوثنية إنتصرت في هذا المجمع العام الذي ترأسه الإمبراطور، وقد عقد هذا المجمع في نيقية عام ٣٢٥م.

يقول ولز: «وثمة أمر هام جداً علينا أن نلحظه ونسجله، وهو الدور الذي لعبه الإمبراطور في تثبيت المسيحية، فلم يقتصر الأمر على أن قسطنطين الكبير هو الذي دعا لاجتماع مجمع نيقية - بل إن كل المجامع العظيمة ومنها اثنان بالقسطنطينية - جمعتها كلها يد الإمبراطور»[٤٢].

---

(٤٢) معالم تاريخ الإنسانية: ج ٣، ص ٧٢١.

أهم قرارات هذا المجمع:

(أ) القول بالتثليث وبألوهية المسيح ونزوله ليصلب تكفيراً عن خطيئة البشر.

(ب) عدم التصريح لمن يترمل من الكهنة بأن يتزوج مرة أخرى.

(ج) اختار المجمع الكتب المقدسة التي لا تتعارض مع القرارات السابقة، وقرر تدمير ما عداها من الرسائل والأناجيل [٤٣].

وينقل ول ديورانت نص القرار الذي صدر عن المجمع؛ «نحن نؤمن بإله واحد هو الأب القادر على كل شيء خالق الأشياء كلها ما ظهر منها وما بطن وبسيد واحد هو المسيح ابن الله، المولود ــ غير المخلوق من نفس جوهر الأب ــ وبأنه من أجلنا نحن البشر ومن أجل نجاتنا نزل وتجسد وصار إنساناً، وتعذب وقام مرة ثانية في اليوم الثالث وصعد إلى السماء، وسوف يعود ليحاسب الأحياء والأموات»[٤٤]...

وقد أثمر آخر الأمر ذلك الإجماع العملي على العقيدة الأساسية التي اشتق منها اسم الكنيسة في العصور الوسطى، وهو الكنيسة الكاثوليكية. وكان في الوقت نفسه إيذاناً باستبدال المسيحية بالوثنية، وجعلها المظهر الديني والعضد القوي للإمبراطورية الرومانية[٤٥].

واعتنق قسطنطين النصرانية، وانتصرت على الوثنية، وأصبح لها

---

(٤٣) المسيحية: ص ١٦٥.

(٤٤) أما الإسلام فقد نفى الولد والشريك والصاحبة والوالد عن الله سبحانه وتعالى ونزهه عن النقائص والعيوب، كما نفى الصلب عن المسيح عليه السلام، ورد أمر الحساب إلى الله سبحانه وتعالى، وجميع الأنبياء عليهم السلام شهود على أقوامهم. كما نفى فكرة الحلول والاتحاد والتجسيد في البشر عن الله سبحانه وتعالى.

(٤٥) قصة الحضارة: ج ٣، مجلد ٣، ص ٣٩٥ ــ ٣٩٦.

دولة قوية مترامية الأطراف، ولكن النصارى الذين انتصروا في ساحة القتال، وكونوا دولة عظيمة، انهزموا في معترك العقائد والأديان وكان أكبر مسخ للنصرانية على يد قسطنطين الذي فرض الوثنية عليها.

سبب مداهنة النصارى للوثنيين:

كان النصارى في حالة ضعف واضطراب، فقد تلاحقت عليهم عدة اضطهادات من أقسى ما عرفته البشرية كما ذكرنا ذلك.

وحين تسلم قسطنطين العرش، أمر برفع الاضطهاد عنهم، ولأجل هذا كانوا على استعداد لأن يقدموا تنازلات كبيرة في عقيدتهم، وذلك راجع إلى أمرين: الأمر الأول: إن بذور التحريف وجدت في عصر مبكر من ظهور الديانة على يد بولس وأنصاره إبان الاضطهادات الأولى. ثم تعمقت الوثنية والشرك في النصرانية بتأثير كثير من المنافقين واليهود الذين تسلموا وظائف كبيرة في الدولة الرومانية، بسبب تظاهرهم بالنصرانية، على الرغم من أنهم لم يحتفلوا بأمر الدين ولم يخلصوا له قط في حياتهم، بل كانوا يهدفون إلى تدميره والقضاء عليه.

الأمر الثاني: قد يكون مع هؤلاء فئة من علماء النصارى رضيت بالتنازلات في العقيدة إسترضاءً لقسطنطين رغبة بإقامة دولة نصرانية، واحتمال وجود هذا الصنف أورده المؤرخ درابر. ولكن الإنسان متى قبل التنازلات في عقيدته استسلم للتحريف، وهذا هو الذي وقع للنصارى،فقد قوي سلطانهم، وحكموا الناس باسم الدين النصراني، ولكنهم لم ينقحوا عقيدتهم، بل زاد التحريف، واستغل الدين في سبيل تحقيق مصالح الكنيسة ورجالها الخاصة.

يقول درابر: «دخلت الوثنية والشرك النصرانية بتأثير المنافقين

الذين تقلدوا وظائف خطيرة، ومناصب عالية في الدولة الرومية، بتظاهرهم بالنصرانية، ولم يكونوا يحتفلون بأمر الدين ولم يخلصوا له يوماً من الأيام. وكذلك كان قسطنطين فقد قضى عمره في الظلم والفجور ولم يتقيد بأوامر الكنيسة الدينية إلا قليلاً في آخر عمره (٣٣٧م).

إن الجماعة النصرانية، وإن كانت قد بلغت من القوة بحيث ولت قسطنطين الملك، ولكنها لم تتمكن من أن تقطع دابر الوثنية وتقتلع جرثومتها. وكان نتيجة كفاحها أن اختلطت مبادئها، ونشأ من ذلك دين جديد تتجلى فيه النصرانية والوثنية سواءً بسواء. هنالك يختلف الاسلام عن النصرانية، إذ قضى الإسلام على منافسته (الوثنية) قضاءً باتاً ونشر عقائده خالصة بغير غش.

وإن هذا الإمبراطور الذي كان عبداً للدنيا لم تكن عقائده الدينية تساوي شيئاً، رأى لمصلحته الشخصية ولمصلحة الحزبين المتنافسين ــ النصراني والوثني ــ أن يوحدهما ويؤلف بينهما، حتى أن النصارى الراسخين أيضاً لم ينكروا عليه هذه الخطة، ولعلهم كانوا يعتقدون أن الديانة الجديدة ستزدهر إذا طعمت ولقحت بالعقائد الوثنية القديمة وسيخلص الدين النصراني عاقبة الأمر من أدناس الوثنية وأرجاسها»[٤٦].

ثم توالت المجامع المقدسة بعد مجمع نيقية على الإنعقاد واحداً إثر الآخر وكان من أشهرها مجمع القسطنطينية الأول عام **٣٨١م** الذي قضى بألوهية الروح القدس ثم مجمع رومة الذي عقد سنة **١٢١٥م** وفيه تقرر أن الكنيسة البابوية تملك الغفران وتمنحه لمن تشاء وكان آخر

---

(٤٦) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ ص ١٨٣ ــ ١٨٤، نقلاً عن النزاع بين الدين والعلم، ص ٤٠ ــ ٤١.

المجامع مجمع رومة الذي عقد سنة ١٨٦٩م وفيه تقرر أن البابا معصوم[٤٧].

ونختتم حديثنا عن المجامع المقدسة وأثرها على الدين النصراني بعبارة لزكي شنودة جاء فيها: «كانت هذه المجامع في بداية أمرها وسيلة للدفاع عن الإيمان المسيحي. ثم لم تلبث أن أصبحت بعد ذلك أداة في يد الإمبراطور لتنفيذ أغراضه، مستغلاً في ذلك مطامع بعض الأساقفة وطموحهم إلى الجاه والنفوذ والسلطان. وهكذا أصبحت المجامع أداة هدم بعد أن كانت أداة بناء[٤٨]، وقد فتحت الباب على مصراعيه للخصومة والشقاق بين المسيحيين في البلاد المختلفة»[٤٩][*].

ويصور شيخنا الأستاذ محمد قطب حفظه الله إستغلال الكنيسة للعقائد المزوجة بالوثنية التي صنعتها الكنيسة ومجامعها للناس تصويراً رائعاً حيث يقول: «ومزجت العقيدة السماوية بعناصر وثنية من التي كانت قائمة يومئذٍ، تأليفاً لقلوب الوثنيين، وتشجيعاً لهم على الدخول في الدين. فلما أصبح هذا المزيج المختلط غير مفهوم للناس، إدعت الكنيسة لنفسها التفرد بمعرفة الأسرار التي خفيت عليهم ــ وعلقت إيمانهم بالله بالتسليم بهذه الأسرار دون مناقشة ودون علم ــ وجعلت

---

(٤٧) انظر المسيحية: ص ١٦٥ ــ ١٦٧.

(٤٨) نخالف الكاتب فيما ذهب إليه من أن المجامع كانت أداة بناء، لأن أول المجامع وهو مجمع نيقية كان هداماً، حيث هدم أكبر جزء في العقيدة وهو القول ببنوة المسيح، فنقل النصرانية بهذا القرار من التوحيد إلى الشرك رسمياً.

(٤٩) المسيحية: ص ١٦٨ ــ نقلاً عن تاريخ الأقباط في مصر لزكي شنودة، ص ١٧٧.

(*) عارض آريوس ما قام به قسطنطين من نقل النصرانية إلى الوثنية والقول ببنوة عيسى، فقد أصر آريوس على وحدانية الله ونفي الصلب عن عيسى عليه الصلاة والسلام، وأعيد المؤتمر مرة أخرى بسبب معارضة آريوس. وما نزال نرى في النصارى حتى اليوم من ينتسب إلى آريوس. ولا شك أن الدين الحق هو دين واحد، وأن توحيد الله وإفراده بالعبودية هو الدين الحق.
هذه الملاحظة أفدتها أثناء المناقشة من فضيلة الدكتور محمد سعيد البوطي.

وساطة الكنيسة ضرورية لإتمام الاتصال بينهم وبين الله. ثم فرضت الكنيسة لنفسها ــ عن هذا الطريق ــ سلطاناً بشعاً على القلوب والأفكار والمشاعر»[٥٠].

التحريف الثاني ــ فصل العقيدة عن الشريعة:

لم تحكم النصرانية منذ ظهورها واقع الناس وحياتهم بشريعة الله، وقد عمل المسيح عليه السلام جاهداً لإقامة حكم الله وتطبيقه على حياة الناس الذين أرسل إليهم وتصحيح انحرافاتهم الاعتقادية. وشاءت حكمة الله تعالى أن يرفعه إليه قبل إقامة دولة تحكم بشرع الله. ودعوة الأنبياء عليهم السلام تكون دائمًا ضعيفة في بداية أمرها لقلة الأتباع وضعفهم. ثم ينشط الدعاة المخلصون لله عز وجل في تبليغ دعوة الله فيمكن الله لهم في الأرض وينصرهم على أعدائهم.

ولكن النصارى أبوا إلا أن يحرفوا دينهم. فإذا لم يحرفوا بعض الكلام عن موضعه ــ حيث حرفوا الكلم عن موضعه ــ حرفوا الفهم عن المعنى المقصود من كلام نبيهم، فاتخذوا من قولة المسيح حين سأله الفريسيون عن جواز إعطاء الجزية لقيصر أم لا، فقال لهم بعد أن طلب منهم العملة التي يدفعون بها الجزية وقد ظهرت على أحد وجهيها صورة القيصر قال: أعطوا إذن ما لقيصر لقيصر وما لله لله». فلما سمعوا تعجبوا وتركوه ومضوا»[٥١]. «اتخذوا هذه المقولة حجة لفصل الدين عن الدولة مع أن المسيح عليه السلام إن كان قالها حقاً فإنما يقصد منها أن الأوان لم يحن بعد لمقاتلة قيصر ولا يمكن أن يكون قد قصد بها المعنى الذي ادعته الكنيسة من فصل الدين عن الدولة،

---

(٥٠) جاهلية القرن العشرين: ص٢٤٨ ــ ٢٤٩.

(٥١) متى صح، ٢٢: ١٨ ــ ٢٢.

لأنه لا يمكن لنبي مرسل من عند الله أن يقسم العالم إلى قسمين، ويعطي الطاغية الكافر شرعية وحكمًا»[٥٢]. ولكن الكنيسة هي التي فسرت هذه القولة بفصل الدين عن الدولة واعتبار الدين علاقة بين العبد والرب ومحله في القلب، ولا يتدخل في شؤون الحياة العملية (فيما عدا الأحوال الشخصية).

وهكذا كانت حياة الناس تحكم قلوبهم ومشاعرهم ديانة محرفة، وتحكم حياتهم ومعاملاتهم وعلاقاتهم الاجتماعية والاقتصادية قوانين رومانية وثنية.

وحين سيطرت الكنيسة على الحكم لم تغير من واقع الحال، ولم ترد الناس إلى التحاكم لشرع الله، بل احتفظت بالسيادة لنفسها لتحقيق مطامعها الشخصية وسلكت في سبيل هذا الهدف شتى أنواع الطغيان واستعملت أخس الوسائل وأحقر الأعمال.

وزاد طغيان الكنيسة ورجالها في جميع ميادين الحياة، وفيما يلي تفصيل ذلك: —

طغيان الكنيسة:

الكنيسة معبد النصارى وما يشتمل عليه هذا المعبد من رجال هم عندهم مقدسون، لأنهم في عقيدتهم موهوبون من عند الله أو الرب المسيح «قاتلهم الله أنى يؤفكون»[٥٣]. فالبابا والقسيس وواعظ القرية وراعي الأبرشية كلهم لهم قداسة حيث اغتصبوا هذا السلطان لذواتهم وشاركوا الله سلطانه في الأرض، ابتدعوا هذه القداسة،

---

(٥٢) مقتطفات من محاضرة شيخنا الأستاذ محمد قطب على طلاب السنة المنهجية فرع العقيدة يوم الأحد ١٩٧٧/١٢/٢٣م.

(٥٣) التوبة: ص ٣٠.

لا لأنهم يقومون على تنفيذ شرع الله، وإنما فرضوا سلطانهم على الملوك والناس لتحقيق مصالحهم الشخصية. وقد مارست الكنيسة ألواناً كثيرة من الطغيان من أهمها:

الطغيان الروحي:

بعد أن حرف النصارى دينهم، أصبح كثير من عقائدهم غير مفهوم لدى الناس، فاتخذت الكنيسة لنفسها حق فهم هذه الأسرار، وعلى الناس أن يؤمنوا بها دون مناقشة، وأصبحت تفسر هذه الأسرار لمصالحها الشخصية. ونتيجة لهذا الغموض في العقيدة أمسى للكنيسة حق منح المغفرة لمن تشاء، وحرمانها عمن تشاء، وحالت بين الناس وخالقهم، فما عادت التوبة تقبل إلا عن طريقها بعد أن يعترف المذنب بذنوبه أمام القسيس والكاهن[٥٤] (أي ما يسمى بعرفهم بكرسي الإعتراف) كما فرضت الكنيسة سلطانها على أرواح الناس وعقولهم، وهذا أمر لا تملكه. والأسرار التي فرضتها الكنيسة والتي لا يمكن للعقل أن يتقبلها اعتبرت مسلمات لا يجوز التفكير فيها ولا مناقشتها، وأهم هذه الأسرار التي لا تناقش، وإلا تعرض المناقش للحرمان والطرد من رحمة الله على زعم الكنيسة هي: عقيدة التثليث، والعشاء الرباني،

---

(٥٤) الإسلام لا يقر الوساطة بين الخالق والمخلوق، وإذا ما أذنب الإنسان ذنباً وستره الله عز وجل لا ينبغي له أن يحدث الناس عن ذنبه، وأن يعترف أمامهم بتفاصيله مهما كانت مرتبتهم سواءً كانوا من العلماء أو غيرهم من الناس. بل على الإنسان أن يستغفر الله لذنبه مباشرة بدون وساطة أحد لأن الله غفور رحيم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: كل أمتي معافى إلا المجاهرين. وإن من المجانة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يصبح وقد ستره الله فيقول يا فلان عملت البارحة كذا وكذا وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه». والمجانة هي المجاهرة صحيح البخاري، ج ٨، ص ٢٤.

وكرسي الاعتراف، وغيرها من أمور العقيدة. أضف إلى ذلك أنها باركت فصل الدين عن الدولة.

وعززت الكنيسة سلطتها الدينية بادعاء حقوق لا يملكها إلا الله سبحانه وتعالى مثل حق الحرمان، وحق الغفران، وحق التحلّة، وهو حق خاص يبيح للكنيسة أن تخرج عن تعاليم الدين وتتخلى عن الالتزام بها متى اقتضت المصلحة ـ مصلحتها هي ـ ذلك (٥٥). وحق الحرمان كان شبحاً مخيفاً للأفراد والشعوب في آن واحدة. فأما الذين تعرضوا له من الأفراد فلا حصر لهم، ومن الملوك أمثال هنري الرابع الألماني، وهنري الثاني الإنجليزي، ورجال الدين المخالفين، من آريوس حتى لوثر، والعلماء والباحثون من برونو إلى أرنست رينان وغيرهم.

«أما الحرمان الجماعي؛ فقد تعرض له البريطانيون عندما حصل خلاف بين الملك يوحنا ملك الإنجليز وبين البابا، فحرمه البابا، وحرم أمته، فعطلت الكنائس من الصلاة، ومنعت عقود الزواج، وحملت الجثث إلى القبور بلا صلاة، وعاش الناس حالة من الهيجان والاضطراب، حتى عاد يوحنا صاغراً يقر بخطيئته ويطلب الغفران من البابا، ولما رأى البابا ذله وصدق توبته رفع الحرمان عنه وعن الأمة»(٥٦).

الطغيان السياسي:

ذكرنا فيما سبق أن الكنيسة هي التي فسرت قولة المسيح عليه السلام «أعطو إذن ما لقيصر لقيصر، وما لله لله» بفصل الدين عن

---

(٥٥) معالم تاريخ الإنسانية: ج ٣، ص ٨٩٦.

(٥٦) أنظر حرية الفكر: ص ٥٦، والعلمانية وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، ص ٩٥.

الدولة. ولكن البابوات ورجال الكنيسة حين تمت لهم السيطرة السياسية في القرن الخامس الميلادي لم يهدفوا من وراء سيطرتهم السياسية إلى تطبيق حكم الله في الأرض، ولكنهم استغلوا سلطتهم السياسية في سبيل تحقيق مصالحهم الشخصية فادعت الكنيسة أن لها سلطة زمنية على أرواح وعقول وأجساد البشر، واشتطت في هذا السلطان إلى حد الوحشية والفظاظة. ولم يعد يخطر في بالهم أن يروا على حد تعبيرهم مملكة الرب موطدة في قلوب البشر بل أصبح همهم أن يروا قوة الكنيسة، التي هي قوتهم، متسلطة على شؤون الناس في جميع مجالات الحياة. وكانوا لا يخجلون في سبيل تحقيق هذا الهدف من المساومة على أمور الدين.

يقول ولز في معرض حديثه عن الكنيسة: «فأصبح قساوستها وأساقفتها على التدريج رجالاً مكيفين وفق مذاهب واعتقاديات حتمية، وإجراءات مقررة ثابتة، حتى إذا ما آن أوان توليهم منصب الكرادلة أو البابوات، إذا بهم في العادة كهول قد ألفوا من الكفاح السياسي، ذلك الضرب الذي يقصد إلى غاية قريبة مباشرة ولم يعودوا أهلاً لقبول آراء رحيبة يشمل أفقها العالم بأسره.

ولم تعد لهم بعد رغبة في رؤية مملكة الرب موطدة في قلوب الناس. فقد نسوا ذلك الأمر وأصبحوا يرغبون في رؤية قوة الكنيسة التي هي قوتهم، متسلطة على شؤون البشر. وكانوا في سبيل توطيد تلك القوة على أتم استعداد للمساومة مع أي شيء، حتى البغض والخوف والشهوات المستقرة في نفوس البشر.

«ونظراً لأن كثيراً منهم كانوا على الأرجح يسرون الريبة في سلامة بنيان مبادئهم الضخم المحكم، وصحته المطلقة لم يسمحوا بأية مناقشة فيه، كانوا لا يحتملون أسئلة ولا يتسامحون في مخالفة، لا لأنهم

على ثقة من عقيدتهم، بل لأنهم كانوا غير واثقين منها. وكانوا يريدون ممن حولهم موافقتهم على رأيهم لأسباب تتصل بالسياسة»[٥٧].

هذا وقد فرضت الكنيسة سلطاناً قاسياً على الملوك والأمراء والنبلاء، ولم يكن هذا الطغيان على الملوك من أجل خدمة دين الله وإجبارهم على تنفيذ شرعه، وإنما كان من أجل مصالح رجال الكنيسة ومنافعهم الشخصية، وإظهار عظمة بابواتها وقوتهم، ولتتمكن أكثر من فرض طغيانها الروحي والمالي على الناس. حيث لم يكن هناك ملك ـ على جبروت الملوك جميعاً ـ يجرؤ على مخالفة البابا. وقد كان الملك يستمد من ذله أمام البابا شموخاً على رعيته. وكان الملوك وأعوانهم أدوات تنفيذ في يد البابا. ولم تكتف الكنيسة بهذا الإذلال للملوك بل جندت جيشاً لها لملاحقة العصاة وتأديب الملوك الخارجين عن طاعتها المطلقة.

كان لهذه التصرفات الحمقاء التي مارستها الكنيسة الأثر الكبير في نزع هيبتها من صدور الناس، لأنها لم تنفذ شرع الله الصحيح، فثار الناس من علماء ومفكرين وكتاب وفنانين وملوك وأمراء على الكنيسة، ليتخلصوا من نيرها القاسي المذل، وبالتالي تحطيم الدين الذي تدعو إليه الكنيسة، ورفض سلطته والتحرر من قيوده التي فرضتها الكنيسة باسمه.

يقول ول ديورانت «واتفقت الكنيسة والدولة على أن الضالين الذين لا يتوبون عن ضلالهم خونة يجب أن يعاقبوا بالإعدام»[٥٨].

ويقول ولز: «ثم يجيء هلدبراند العظيم الذي ختم حياته تحت اسم جريجوري السابع (١٠٧٣ ـ ١٠٨٥م) والذي فعل الشيء الكثير

(٥٧) معالم تاريخ الإنسانية: ج ٣، ص ٩٠٢ ـ ٩٠٣.
(٥٨) قصة الحضارة: ج ٥، مجلد ٤، ص ٦٩.

بتقريره العزوبة على رجال الدين وتشبثه بسيادة الكنيسة على الملوك والأمراء لكي يركز قوة الكنيسة في روما.

«وحدث نزاع عظيم بين هلدبراند والإمبراطور المنتخب هنري الرابع على مسألة التعيينات فحاول الإمبراطور أن يخلع البابا، فحرم البابا الإمبراطور، وأحل أتباعه الأمراء من ولائهم له. واضطر الإمبراطور أن يذهب تائباً إلى البابا في كانوسا (١٠٧٧) وأن ينتظر الغفران ثلاثة أيام متدثراً بالخيش وهو حافي القدمين في الثلج في فناء القلعة»[٥٩].

الطغيان المالي:

استخدمت الكنيسة سلطانها الروحي في ابتزاز أموال الناس، ليرفه رجالها عن أنفسهم بالملذات والمتع التي حرموها على غيرهم، وليبنوا القصور ويزينوها بالأثاث الفاخر والتحف، فأحلوا لأنفسهم ما حرموه على غيرهم.

وقد استخدمت الكنيسة مختلف وسائل الابتزاز، ففرضت العشور والضرائب والخدمة المجانية يوماً واحداً في الأسبوع، وأن يوصي الميت بجزء من وصيته للكنيسة فتحولت إلى إقطاعية كبيرة. وباركت نظام الإقطاع وحمته ووقفت بوجه من ثار ضده.

يقول ول ديورانت: «وكان ينتظر من القس أن يصب اللعنات من أجل عشوره ــ على حدّ قول الإنجليز ــ أي أن يخرج من الدين من يحاولون التملص من أدائها، أو يزورون في إيرادهم، لأن الناس في تلك الأيام كانوا يكرهون أداء العشور للكنيسة التي يرون أن أعمالها لازمة لنجاتهم»[٦٠]. ويقول أيضاً: «وكان ينتظر من كل مالك

(٥٩) معالم تاريخ الإنسانية: ج ٣، ص ٩١٠ ــ ٩١١.

(٦٠) قصة الحضارة، مجلد ٤، ص ٦٨.

حسب السنن الإقطاعية أن يوصي حين مماته بجزء من ماله للكنيسة. وكان الذين لا يفعلون هذا يرتاب في صدق إيمانهم، ويتعرضون لعدم الدفن في الأراضي المخصصة للموتى الصالحين.

وإذا كان الذين يعرفون الكتابة من غير رجال الدين نسبة ضئيلة من الأهلين، فإن القس كان هو الذي يدعى في العادة إلى كتابة الوصايا. وقد أصدر البابا إسكندر الثالث في عام (١١٧٠م) قراراً يحرم على أي إنسان عمل وصية صحيحة من الوجهة القانونية إلا في حضرة قسيس. وينص أن كل موثق من غير رجال الدين يجرؤ على كتابة وصية بغير هذا الشرط يطرد من حظيرة الدين، وكانت الكنيسة وحدها هي المختصة بإثبات صحة الوصايا»(٦١).

ويصور ديورانت ضخامة ممتلكاتها قائلاً: «وإذا كانت أملاك الكنيسة مما لا يجوز انتقاله إلى غيرها وكانت قبل عام ١٢٠٠ معفاة في الأموال العادية من الضرائب الزمنية فقد أخذت هذه الأملاك تنمو على مر القرون فلم يكن من الأمور غير العادية أن تمتلك كنيسة كبرى، أو يملك دير للرجال والنساء عدة آلاف من الضياع، تشمل فيما تشمله اثنتي عشرة بلدة، بل تشمل أحياناً مدينة كبرى أو مدينتين»(٦٢).

صكوك الغفران:

لم تكتف الكنيسة بالأموال الطائلة التي كانت تأتيها عن طريق الهبات والضرائب والعشور وغيرها، بل قادها طمعها وجشعها المادي إلى المزيد من نهب أموال الناس، ولو أن النهب جاء عن طريق الظلم

---

(٦١) نفس المصدر ص ٦٩.

(٦٢) نفس المصدر ص ٧٠.

لكان أثره على النفوس أخف. ولكن النهب جاء في هذه المرة بطريقة هزلية إصطدمت مع العقول السليمة مباشرة. فكانت الضربية القاصمة التي وجهت إلى الكنيسة ودينها المحرف. هذه المهزلة التي لم تسبق فيها الكنيسة، لا في المتقدمين ولا عند المتأخرين، وهي بيع الجنة وتوزيعها في مزاد علني، وكتابة وثائق وتعهدات تضمن فيها الكنيسة للمشتري غفران ما تقدم من ذنبه وما تأخر... وليتها اكتفت بالأحياء، ولكنها الأم الرؤوم لم تغفل عن الأموات الذين فاتهم هذا المزاد الخطير الذي تغفر فيه الذنوب والخطايا، فسمحت للأحياء بشراء صك الغفران لمن يحبون. وهنا يفتح المجال للذي يدس وثيقة الغفران في جيبه أن يفعل ما يشاء من المنكرات، فقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر... ماذا عليه لو أشرك بالله وبالمسيح عندهم؟... ماذا عليه لو زنى وسرق وفجر وقتل؟!! أليس المسيح هو الذي منحه الغفران... والمسيح هو الذي يدين ويحاسب؟ هل يمنح الناس المغفرة ثم يحاسبهم على الذنوب؟

﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾﴾ (٦٣)

أما الفقراء والمحرومون الذين لا يجدون حيلة فيظلون محرومين من هذه الموهبة مهما بلغت تقواهم ومحبتهم العظيمة للمسيح عليه السلام...

(٦٣) مريم ٨٩ ــ ٩٠.

الأساس الذي قامت عليه هذه المهزلة:

إن الأساس الذي قامت عليه هذه البدعة، هو الفكرة الوثنية التي زعمها رجال الدين لأنفسهم وهي فكرة القداسة. وعن هذه الفكرة نشأت ضلالة أخرى وهي الاستشفاع برجال الدين، ليغفر الله لهم ذنوبهم. وظل الجهلة يتوسلون إلى القساوسة، راجين الشفاعة والتقرب إلى الله زلفى. وقد ترتب على هذه التصرفات إدّعاء رجال الكنيسة لأنفسهم حق التوسط بين الخالق وخلقه. فعن طريقهم تقبل الصلوات، وهم الذين يطعمون العشاء الرباني، وهم الذين يعمدون، وهم الذين يقومون بمراسيم الزواج والموت، وهم الذين يتقبلون الإعترافات من المذنبين.

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾(٦٤)

وقد كان النصراني يستطيع ضمان الملكوت مع المسيح باعتراف واحد في العمر، هو اعترافه ساعة الاحتضار أمام القسيس. حيث يتم دهن جسده بالزيت المقدس، فيتطهر من كل الأرجاس والذنوب. وكان من العقوبات القاسية التي تتخذها الكنيسة ضد من يخالفها من الشعوب، حرمانهم من الاعتراف الأخير والصلاة عليهم. فلا يشكون أن المحرومين ذاهبون إلى الجحيم.

واستمر الحال مدة طويلة، إلى أن عقد مجتمع (لاتيران) عام ١٢١٥، الذي فرض على الناس أن يعترفوا أمام قسيس الأبرشية مرة كل عام، لكي يستطيعوا الحصول على الغفران(٦٥).

وأخذ الناس يتوافدون على الكنيسة والأبرشيات، ويقدمون

(٦٤) المجادلة ــ ٢.

(٦٥) انظر تاريخ العالم ج ٥، ص ٥٠٢.

الهدايا لرعاتها وقساوستها، فارتفع مركزها المادي والمعنوي. ولكن الناس تقاعسوا عن الاعتراف وتقديم الهدايا. وزاد إلحاح الكنيسة على تثبيت مركزها وتعبئة خزائنها. وأخيراً هداها تفكيرها إلى كتابة الغفرانات في صكوك تباع على الناس. وتنص على غفران أبدي ليكون حافزاً على دفع المبلغ الذي تقرره الكنيسة.

يقول الصك: «ربنا يسوع يرحمك يا... (يكتب إسم الذي سيغفر له) ويحلك باستحقاقات الأمة الكلية القدسية، وأنا بالسلطان الرسولي المعطى لي أحلك من جميع القصاصات والأحكام والطائلات الكنسية التي استوجبتها. وأيضاً من جميع الإفراط والخطايا والذنوب التي ارتكبتها مهما كانت عظيمة وفظيعة، ومن كل علة وإن كانت محفوظة لأبينا الأقدس البابا، والكرسي الرسولي، وأمحو جميع أقذار الذنب وكل علامات الملامة، التي ربما جلبتها على نفسك في هذه الفرصة، وأرفع القصاصات التي كنت تلتزم بمكابدتها في المطهر، وأردك حديثاً إلى الشركة في أسرار الكنيسة. وأقرنك في شركة القديسين، أردك ثانية إلى الطهارة والبر اللذين كانا لك عند معموديتك، حتى أنه في ساعة الموت يغلق أمامك الباب الذي يدخل منه الخطاة إلى محل العذاب والعقاب، ويفتح الباب الذي يؤدي إلى فردوس الفرح، وإن لم تمت سنين مستطيلة، فهذه النعمة تبقى غير متغيرة حتى تأتي ساعتك الأخيرة، باسم الأب والابن والروح القدس»[٦٦].

الأسباب التي دفعت الكنيسة إلى ارتكاب هذه المهزلة:

في هذه المرحلة كانت الكنيسة تواجه ألد أعدائها؛ «المسلمين»، وكانت الحروب الصليبية قد استعر أوارها، وبدأت بوادر الهزيمة تلوح

---

(٦٦) المسيحية ص ٢١٠، محاضرات في النصرانية ص ١٩٥.

للنصارى. وخاب ظن النصارى بكنيستهم التي وعدتهم ومنتهم بالنصر (وما يعدهم الشيطان إلا غرورا)(*). وأصبحت الوعود الشفوية بالمغفرة للمشتركين في الحرب لا تجدي نفعاً، فقررت الكنيسة كتابة وثيقة خطية محسوسة يحملها المقاتل ويندفع للاشتراك في الحرب بثقة وعزم. وبرزت إلى الوجود مهزلة صكوك الغفران. أضف إلى ذلك طمع الكنيسة وحرصها على الأبّهة والعظمة وحب الترف. فتحقق لها ما تصبو إليه في بداية الأمر من جمع أكبر ثروة في أوروبا. حتى أن أموال الكنيسة ودخولها أصبحت تعادل دخول ملوك أوروبا مجتمعين.

يقول ديورانت: «كذلك جاءت إلى البابوات أموال طائلة ممن ينالون صكوك الغفران البابوية، ومن الحجاج القادمين إلى رومة. وقد حسب دخل الكرسي البابوي عام ١٢٥٠م فكان أكثر من دخل رؤساء الدول الأوروبية الزمنيين مجتمعين. ولقد تلقى البابا عام ١٢٥٣م ثلاثة أمثال إيراد التاج.

ومهما تكن ثروة الكنيسة متناسبة مع اتساع وظائفها، فقد كانت هذه الثروة أهم أسباب الإلحاد في هذا العصر»(٦٧).

نتائج هذه البدعة:

ظهرت هذه البدعة في الفترة التي اتصلت فيها أوروبا بنور الإسلام، وتأثرت بالمنهج التجريبي الذي كان الفضل للمسلمين في ابتداعه وتطبيقه ونشره على العالم. فأخذت العقول السليمة النائمة تتلمس مكانها في الحياة، والفطر تستيقظ من سباتها العميق.

(*) النساء ــ ١٢٠.

(٦٧) قصة الحضارة ج ٥، مجلد ٤ ص ٧٢.

كانت هذه البدعة في بداية أمرها من عوامل قـوة الكنيسة وشموخها، فازدادت ثراء وسلطة، وشددت قبضتها على الناس وعلى الملوك والأمراء، وارتفعت مكانة رجالها الدينية في نظر الجهلاء لأنهم ظنوا فيهم الصلاح والقداسة، لأنهم يملكون حق مغفرة الذنوب، ومن يملك هذا الحق فلا بد أن يكون مغفوراً له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قويت سلطة الكنيسة العسكرية والسياسية، وضعفت سلطة الملوك والأمراء. هذه الثمار التي جنتها الكنيسة لم تستخدمها في خدمة دين الله ورد الناس إلى الدين الصحيح، بل زادت غطرسة وفجوراً وطغياناً وظلمًا. فقد رأت الناس يعبدونها من دون الله ويأخذون بتعاليمها دون تعـاليم المسيـح، وأصبحت تتحكم في الضمـائـر والأرواح كيف تشاء... تغفر لمن تشاء منهم وتعاقب بالحرمان من تريد. وازداد آباء الكنيسة مضياً في الضرر والبطش، غير حافلين بعواقبها الوخيمة وشرورها الأثيمة. وسنة الله لا تجامل أحداً فالزبد يذهب جفاء، والظلم عاقبته وخيمة. فصكوك الغفران التي زادت من ثراء الكنيسة، وتجبرت بسببها كانت مسماراً في نعشها، وبداية لنهايتها، ونذيراً لبداية الثورة عليها وعلى دينها المحرف.

فمن الناحية الاقتصادية؛ انخفض الشراء لكثرة العرض وقلة الطلب، مما اضطر الآباء والقساوسة إلى المسـاومة عليهـا بأبخس الأثمان، حيث تولد شعور لدى الناس أن شراءها إضاعة للمال فيما لا طائل تحته.. وبدأت مكانة رجال الدين والهالة القدسية التي كانوا محاطين بها تضعف رويداً رويداً. ومن الناحية السياسيـة؛ بدأت العداوة والبغضاء تأكل قلوب الملوك والأمـراء والإقطاعيـين، ضد الكنيسة التي رأوا فيها أكبر خطر يهددهم ويقضي عليهم، لذلك حين وجدوا الفرصة سانحة للقضاء على الكنيسة، قلموا أظافر حقدهم وناصروا الحركات المعارضة، وأجحوا سعيرها. وعلى سبيل المثال؛

نجد ثورة لوثر على الكنيسة، لولم يجد الحماية والعطف من الأمراء، لما نجى من قبضة الكنيسة وقرارات حرمانها.

والأهم من هذا كله، أن الأوروبيين رأوا الحياة الكريمة التي يعيشها المسلمون عن طريق احتكاكهم بهم في الحروب الصليبية والأندلس والشمال الأفريقي، حيث لا كهنوت ولا طغيان ولا احتكارات، فهزت هذه الرؤية نفوسهم، وكذب كثير منهم صكوك الغفران ووعود الكنيسة.

ولا يشك أي منصف في أن للإسلام تأثيراً مباشراً في اندلاع الثورة على الكنيسة ودينها المحرف. والذي يهمنا هو أن مهزلة صكوك الغفران قد ساعدت بصفة مباشرة على هدم التعاليم الدينية من أساسها، والاستهتار بكل المعتقدات والأصول الإيمانية بجملتها، وأسهمت في انتشار فكرة إنكار الآخرة والجنة والنار التي لا يقوم دين بغيرها»[٦٨].

الفساد الأخلاقي في الكنيسة:

كان لبدعة الرهبنة وفرض العزوبية على رجال الكنيسة أثر واضح في فساد الأخلاق، وانتشار الرذيلة في الكنيسة، حيث أن الرهبنة كانت رد فعل للترف الذي كان يعيش فيه الملوك والأمراء الرومان. وقد كان النصارى ينظرون إلى المرأة نظرة احتقار وإذلال، على أساس أنها محل الشر وسبب الخطيئة الأولى. وكان الجنس وحتى التفكير فيه مستقذراً عندهم. ولكن الرهبان بشر ولهم غرائز. ولا بد للغرائز إذا لم توجه التوجيه السليم على الهدى الرباني أن تنطلق جامحة تحطم الحواجز التي تعترض سبيلها.

(٦٨) انظر العلمانية وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة ص ٨٥ ـ ٨٦.

ونتيجة لهذا الكبت المبتدع انتشرت الفاحشة والرذيلة والسلب والنهب بين رجال الكنيسة، حتى أن سجلات الأديرة تحوي فيما تحوي على عشرين مجلداً من المحاكمات بسبب الاتصال الجنسي بين الرهبان والراهبات[٦٩].

الطغيان العلمي:

لم تكتف الكنيسة بفرض سلطانها على أرواح الناس وأجسادهم وأموالهم، واحتفاظها لنفسها بالأسرار التي لا تناقش، والعقيدة التي لا تفهم، بل تعدى الأمر حدوده، وفرضت الكنيسة سلطانها على العقول والأفكار خوفاً على بنائها من الانهيار، أمام صوت الحق والنور، أمام التوحيد والعلم القادم من بلاد المسلمين.

وقد احتضنت الكنيسة نظريات علمية معينة، قالت عنها إنها من وحي السماء وتحمل طابع القداسة، فلا يجوز الخروج عليها لأنه كفر وخروج من حظيرة الدين.

يقول ولز: «ولم يقتصر تعصب الكنيسة على الأمور الدينية وحدها. فإن الشيوخ الحصفاء المولعين بالأبهّة السريعي الهياج الحقودين، الذين من الجلي أنهم كانوا الأغلبية المتسلطة في مجالس الكنيسة، كانوا يضيقون ذرعاً بأية معرفة عدا معرفتهم، لا يثقون بأي فكر لم يصححوه ويراقبوه. فنصبوا أنفسهم للحد من العلم، الذي كانت غيرتهم منه بادية للعيان. وكان أي نشاط عقلي عدا نشاطهم يعد في نظرهم نشاطاً وقحاً»[٧٠].

---

(٦٩) انظر قصة الحضارة ج ٤ مجلد ٥، ص ٨٦ وراجع فصل أخلاق رجال الدين من هذا الكتاب من ص ٧٦ ــ ٨٨.

(٧٠) معالم تاريخ الإنسانية ج ٣ ص ٩٠٥.

ولما أثبت العلم التجريبي ــ الذي أخذته أوروبا عن المسلمين بإعترافهم ــ بطلان ما اعتقدته الكنيسة من نظريات، لجأت الكنيسة إلى العنف واستخدام القوة ضد المخالفين من العلماء فأحرقتهم أحياء. يقول إنجلز في معرض حديثه عن النهضة الأوروبية: «وتحطمت الدكتاتورية الروحية التي كانت للكنيسة، نبذتها أكثرية الشعوب الجرمانية مباشرة متبنية البروتستانتية بينما كان يضرب جذوره أعمق فأعمق لدى الشعوب. فكر حر نشيط مأخوذ عن العرب، ومتغذ بالفلسفة اليونانية المكتشفة لتوها، ويمهد لمادية القرن الثامن عشر.

«ويداً بيد مع الإيطاليين العظام، الذين تبدأ بهم الفلسفة الحديثة، قدمت شهداءها طعاماً للنار، وأسرى لزنزانات محاكم التفتيش. ومما له دلالته أن البروتستانت قد تجاوزوا الكاثوليك في اضطهاد الدراسة الحرة للطبيعة، أن كالفان قد أحرق بالنار سيرجيت، وهو على وشك اكتشاف دوران الدم، شاوياً إياه حياً مدة ساعتين. إن عهد التفتيش قد اكتفى على الأقل بمجرد حرق جيورد انوبرونو»[٧١].

محاكم التفتيش:

ظهرت محاكم التفتيش على مسرح الحياة الإنسانية في وقت مبكر لمحاكمة المخالفين للعقيدة النصرانية.

وفي عهد تيودوسيوس (٣٩٥م) ظهرت لأولِ مرة «محكمة التفتيش» وتم تنظيمها فيما بعد في القرن الثاني عشر. وكان أعضاؤها من الرهبان، وكانت وظيفتهم اكتشاف المخالفين في العقيدة، ولهم سلطان كبير، ولا يسألون عما يفعلون. وتاريخ محكمة التفتيش هو

(٧١) نصوص مختارة ص ٣٢٨، ٣٣٠، ٣٣١.

تاريخ الاضطهاد الديني في أقسى صورة، وقتل حرية الفكر بأبشع أداة، ومن أقذر سبلها أنها حتمت أن ينهي كل إنسان في غير تباطؤ ما يصل إلى سمعه بشأن الملحدين، وهددت من يتوانى بعقوبات صارمة في الدنيا والآخرة. فانتشر بسببها نظام التجسس حتى بين أفراد الأسرة الواحدة»(٧٢).

ويقول الدكتور توفيق الطويل: «وفي القرون التالية كثر صرعى هذا النظام، وتعرض للشنق والحرمان جماعات كثيرة لأنهم في نظر الكنيسة هراطقة. وكثيراً ما كانت الكنيسة تلجأ إلى الإعدام البطيء مبالغة في التنكيل، فتسلط الشموع على جسم الضحية، وتخلع أسنانه، كما فُعِلَ ببنيامين كبير أساقفة مصر لأنه رفض الخضوع لقرار مجمع خلقدونية الذي يرى أن للمسيح طبيعتين إلاهية وإنسانية.

«وكان الإعدام يسبق بصور من التعذيب كالكي بالنار والضرب، لعل المتهم يعترف بجرمه، فإن لم يعترف قتل لأنه لم يكن يعتبر بريئاً حتى تثبت إدانته، بل مجرماً حتى تثبت براءته، وهيهات أن تثبت وإذا اعترف بجريمته إستمر تعذيبه قبل القضاء عليه لعله يكشف عن أنصاره وشركائه. وكانت تقضى القوانين أن يحمل الأبناء والأحفاد تبعة الجرم الذي يدان به الآباء، فيسلبون حقهم في مباشرة الكثير من الوظائف، ومزاولة الكثير من المهن.

«وأما الجماعات التي أعدمت فأكثر من أن يحصيها عد، ففي إسبانيا فقط قدمت محكمة التفتيش للنار أكثر من واحد وثلاثين ألف نسمة، وحكمت على أكثر من مائتين وتسعين ألفاً بعقوبات أخرى تلي الإعدام.

---

(٧٢) انظر الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية للإمام محمد عبده ص ٤٠.

«وفي عام ١٥٦٨م أصدر الديوان حكمه بإدانة جميع سكان الأراضي الواطئة، والحكم عليهم بالإعدام واستثنى من الحكم بضعة أفراد نص القرار على أسمائهم، وبعد عشرة أيام من صدور الحكم دفع للمقصلة ملايين الرجال والنساء والأطفال. . .

«ولما ظهر البروتستانت، اتجهت الكنيسة لهم بالاضطهاد العنيف، وكثرت المذابح، ومن أهمها مذبحة باريس في **٢٤** أغسطس سنة **١٥٧٢**، والتي سطا فيها الكاثوليك على ضيوفهم من البروتستانت، هؤلاء الذين دعوا لباريس لعمل تسوية تقرب بين وجهات النظر، ثم قتلوا خيانة وهم نيام، فلما أصبحت باريس كانت شوارعها تجري بدماء هؤلاء الضحايا.

وانهالت التهاني على تشارلس التاسع من البابا ومن ملوك الكاثوليك وعظمائهم على هذا العمل الدنيء»(٧٣).

«وكانت المحكمة عبارة عن سجون مظلمة تحت الأرض، بها غرف خاصة للتعذيب، وآلات لتكسير العظام وسحق الجسم البشري. وكان الزبانية يبدأون بسحق عظام الأرجل، ثم عظام الصدر والرأس واليدين تدريجياً، حتى يهشم الجسم كله، ويخرج من الجانب الآخر كتلة من العظام المسحوقة، والدماء الممزوجة باللحم المفروم، وكان لدى المحكمة آلات تعذيبية أخرى، منها آلة على شكل تابوت فيه سكاكين حادة، يلقون الضحية في التابوت ثم يطبقونه عليه فيتمزق جسمه إرباً وآلات كالكلاليب تغرز في لسان المعذب، ثم تشد

(٧٣) الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام ص٧٦، ٧٩، ٨٠، ٩٠، وانظر التعصب والتسامح لشيخنا محمد الغزالي حفظه الله ص ٣١٤ ــ ٣١٥.

فتقصه قطعة قطعة، وتغرز في أثداء النساء حتى تتقطع كذلك. وصور أخرى تتقزز منها النفوس وتشمئز لذكرها»(٧٤)

وقد كان المسلمون في إسبانيا من أوائل الضحايا الذين حكمت عليهم محاكم التفتيش بالإبادة التامة بأقسى وأشنع ما يتخيله الإنسان من الهمجية والوحشية، ثم تلاهم المتأثرون بالحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي النير ــ ثم انتقلت المحاكم من إسبانيا إلى بقية المناطق التابعة للكنيسة الأم «روما».

وعلى كل حال، فإن محاكم التفتيش ستبقى وصمة عار في جبين الكنيسة ودينها المحرف ورجالها الشياطين في القرون الوسطى.

وسيبقى دين الله الصحيح الذي نزل على رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم أنموذجاً يحتذى به حتى يرث الله الأرض ومن عليها ــ في حسن معاملته للبشرية. فمن أصول الإسلام العامة عدم قتل الأبرياء أو المخالفين في العقيدة من أهل الكتاب إن لم يؤذوا المسلمين. قال الله تعالى: «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين»(٧٥).

وفي وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم لقادة الجيش، ووصايا أصحابه، وحسن معاملة صلاح الدين للصليبيين، والمماليك للأقباط في مصر، ومقابلة(٧٦) الإساءة بالإحسان أروع الأمثلة التي يفاخر بها المسلمون على مر العصور.

بخلاف النصارى ــ فإن محاكم التفتيش كانت نابعة عن أصل عقيدي قررته مجامعهم المقدسة، يكفر من يخالف قراراتها، فلديها حق

---

(٧٤) العلمانية وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة ص ٩٧ ــ ٩٨.

(٧٥) الممتحنة ٨.

(٧٦) انظر التعصب والتسامح ص ٣١١ ــ ٣١٨.

الغفران، وحق الحرمان، وحق التحلّة وهو حق خاص يبيح للكنيسة ان تخرج عن تعاليم الدين وتتخلى عن الالتزام بها متى اقتضت المصلحة ــ مصلحتها هي ــ ذلك»[٧٧].

ونختم حديثنا عن محاكم التفتيش البشعة بنصين لسلامة موسى وول ديورانت: يقول سلامة موسى «كان الإنسان في تلك العصور يكبس منزله وهو هاديء وادع، فيحمل في جوف الليل، ويعتقل الأشهر بل السنين وهو لا يدري ماهية التهمة التي سيتهم بها لأن خصمًا له من الجيران قد أبلغ المحكمة بأنه سمعه يقول كيت وكيت... عن الرؤيا أو عن الثالوث أو عن المعجزات. ثم إذا أصر المتهم على إنكار ما نسب إليه من التهمة جاز للمحكمة تعذيبه بأن تقطعه أشلاء... شلواً بعد شلو أمام عينيه، وأن تقرض لحمه بالمقراض وأخيراً تحرقه[٧٨].

ويقول ول ديورانت: «وإذا ما عفونا عن بعض هذا الشذوذ الجنسي، والانهماك في ملاذ المأكل والمشرب، فإنا لا نستطيع أن نعفو عن أعمال محاكم التفتيش»[٧٩]

حركة الإصلاح الديني:

قامت حركات إصلاحية داخل الكنيسة وخارجها، كرد فعل للطغيان الذي كانت تمارسه الكنيسة على الناس، وأهم الأسباب التي أشعلت نار الحركة الإصلاحية هي:

١ ــ تأثر المصلحين بالثقافة الإسلامية والمنهج التجريبي القادم إليهم

---

(٧٧) انظر معالم تاريخ الإنسانية ج ٣، ص ٨٩٦.

(٧٨) حرية الفكر ص ٦٢.

(٧٩) قصة الحضارة ج ٤، مجلد ٥، ص ٨٦.

من بلاد المسلمين عن طريق الحروب الصليبية وجامعات الأندلس والشمال الأفريقي.

٢ ــ البدع الكثيرة التي استحدثتها الكنيسة لخدمة مصالحها الشخصية ومن أهمها:

(أ) سلطة البابا وما ترتب عليها من فساد وطغيان، حيث منح حق الغفران والحرمان، وحق فهم الكتاب المقدس وأسراره، والفصل في المسائل الدينية.

(ب) بدعة الإستحالة: «وهي اعتقاد النصارى أنهم حين يشربون الخمر ويأكلون الخبز يوم الفصح «يستحيل الخبز إلى لحم عيسى ويستحيل الخمر إلى دمه فمن أكل ذلك الخبز وشرب تلك الخمر فقد أدخل المسيح في جوفه وامتزج به وبتعاليمه»[٨٠].

(ج) صكوك الغفران وقد شرحناها شرحاً واسعاً فلتراجع في مكانها.

(د) الضرائب الباهظة، وكانت تشمل الفقير والغني.

(هـ) محاربة الهراطقة: والهرطقة كما فهمتها الكنيسة هي مخالفة رأي الكنيسة «فرأي يراه عالم في الكون هرطقة، ومحاولة فهم الكتاب المقدس لرجل غير كنسي هرطقة، وانتقاد شيء يتصل بالكنيسة هرطقة، ومساعدة واحد من هؤلاء أو الرضا عن اتجاهه هرطقة، وهكذا...»[٨١].

---

(٨٠) انظر متى ,ط؛ .ط ــ لوقا ٢٥، ٢٨ مرقص ١٤، ٢٢ المسيحية ص ٢٠٩.

(٨١) معالم تاريخ الإنسانية ج ٣ ص ٩٠٩.

أوائل الهراطقة على رأي الكنيسة:

وكان من أوائل الهراطقة على رأي الكنيسة ويكلف، الذي وجه انتقادات صريحة للكنيسة، وما عليه رجالها من فساد. ونبش قبره عام ١٤٢٨م، وأحرق بأمر من البابا مارتن الخامس...

«ولم يكن هذا الانتهاك لحرمة المقابر عمل متعصب بمفرده، بل كان عملاً أتته الكنيسة.

«وجون هيس عميد جامعة براج، أحرق حياً عام ١٤١٥م بقرار من مجمع كونستانس المنعقد عام ١٤١٤ ـ ١٤١٨م بتهمة الهرطقة رغم ضمان الإمبراطور لسلامته»[(٨٢)].

وفي القرن السادس عشر ظهر لوثر، ثم تلاه كالفن، اللذان ظهرت على أيديهما حركة الإصلاح البروتستانتيـة، وأهم شيء نادت به هو ردّ الأحكام التي صدرت عن البابوات، ولم تكن موجودة في الكتاب المقدس، ومحاربة صكوك الغفران، وحق الغفران الممنوح للبابوات، وكثير من العقائد الفاسدة كالاستحالة والعشاء الرباني، ونادت بإباحة الزواج للكهنة وعدم اتخاذ الصور والتماثيل والسجود لها في الكنائس وأنكرت حق فهم الكتاب المقدس على الكنيسة»[(٨٣)].

دوافع حركات الإصلاح الديني القومية:

يقول الأستاذ الندوى: «والدين السماوي مهما تحرف وتغير لا يعرف الفروق المصطنعة بين الإنسان والإنسان، ولا يفرق بين الأجناس والألوان والأوطان، فجمعت النصرانية الأمم الأوروبية تحت

(٨٢) نفس المصدر ص ٩١٠، ٩٧٨.

(٨٣) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٢١١ ـ ٢١٢.

لواء الدين، وجعلت من العالم النصراني عشيرة واحدة، وأخضعت الشعوب الكثيرة للكنيسة اللاتينية فقلبت العصبية القومية والنعرة الوطنية وشغلت الأمم عنها لمدة طويلة، ولكن لما قام لوثر سنة ١٤٨٣ ـ ١٥٤٦م بحركته الدينية الاصلاحية الشهيرة ضد الكنيسة اللاتينية، ورأى من مصلحة مهمته أن يستعين بالألمان جنسه ونجح في عمله نجاحاً لا يستهان بقدره. وانهزمت الكنيسة اللاتينية في عاقبة الأمر فانفرط عقدها، واستقلت الأمم وأصبحت لا تربطها رابطة، ولم تزل كل يوم تزداد استقلالاً في شؤونها وتشتتاً، حتى إذا اضمحلت النصرانية نفسها في أوروبا قويت العصبية القومية والوطنية. «وكان الدين والقومية ككفتي ميزان، كلما رجحت واحدة طاشت الأخرى. ومعلوم أن كفة الدين لم تزل تخف كل يوم ولم تزل كفة منافسته راجحة. وقد أشار إلى هذه الحقيقة التاريخية ـ الإنجليزي المعروف لورد لوثين ـ السفير البريطاني في أميركا في خطبته التي ألقاها في حفلة جامعة عليكرة في يناير سنة ١٩٣٨م).

«لما قضت حركة لوثر التي تدعى حركة إصلاح الدين على وحدة أوروبا الثقافية والدينية، إنقسمت هذه القارة في إمارات شعبية مختلفة، وأصبحت منازعاتها ومنافساتها خطراً خالداً على أمن العالم»[٨٤].

ويقول ولز: «كانت الكنيسة تفقد سيطرتها على ضمائر الأمراء وذوي اليسار والاقتدار من الناس. كذلك شرعت تفقد إيمان عامة الناس بها، وثقتهم فيها، وكان من نتيجة انحطاط سلطانها الروحي على الطبقة الأولى؛ أن جعلتهم ينكرون تدخلها في شؤونهم، وقيودها الخلقية عليهم، ومدعياتها بالسيادة العليا فوقهم، وادعاءها الحق في

(٨٤) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٢١١ ـ ٢١٢.

فرض الضرائب وفي حل ارتباطات الولاء. لذلك كفوا عن احترام مالها من سلطان وممتلكات.

«ولقد ظل هذا الخروج عن الطاعة يصدر عن الأمراء والحكام طوال العصورالوسطى بأكملها. بيد أن الأمراء لم يشرعوا في التفكير جدياً في الإنفصال عن المذهب الكاثوليكي وإقامة كنائس جزئية منفصلة إلا عندما أخذت الكنيسة في القرن السادس عشر تنضم علناً لخصمها القديم، الإمبراطور، عندما قدمت إليه التأييد، وقبلت منه المساعدة في حملتها على الهراطقة. وما كانوا ليقدموا على ذلك أبداً لولا أنهم أيقنوا أن سيطرة الكنيسة على أذهان الجماهير قد ضعفت.

«ولما انفصلت إنجلترة واسكتلندة والسويد والنرويج والدانمارك، وشمال ألمانيا وبوهيمياعن الارتباط بروما، أظهر الأمراء وغيرهم من الوزراء أقصى بوادر القلق والاهتمام بحفظ زمام الحركة في أيديهم، ذلك أنهم كانوا لا يسمحون من الإصلاح إلا بالقدر الذي يمكنهم من فصم العلاقة مع روما.

«فأما ما تجاوز ذلك، وأما أي انفصام خطر يتجه بالأفكار إلى تعاليم يسوع البدائية أو التفسير الفج المباشر للكتاب المقدس، فأمور كانوا يقاومونها»[٨٥].

إذن فالأمراء والحكام كانوا يهدفون من وراء الإصلاح الديني الانفصال عن الارتباط الدنيوي بكنيسة روما، أما ماسواه من الإصلاح، إصلاح العقيدة والشريعة المحرفة فهذان أمران يتفقون فيها مع كنيسة روما على استئصال جرثومتها من عقول المصلحين. ومن هنا كان معظم الحركات الإصلاحية التي زعمت أنها تريد رد الدين إلى نقائه دوافعها قومية لا دينية. وقد فشلت في أداء مهمتها، وذلك لأن

(٨٥) معالم تاريخ الإنسانية ج٣، ص ٩٨٩ ـ ٩٩٠ ـ ٩٩١.

الدين في نفوس المصلحين كان ما يزال يحمل فصل العقيدة عن الشريعة، فصل الدين عن الدولة، وأنها كانت في معظمها قومية لا دينية، حيث كان الأمراء والكنيسة يقاومون الدعوة الإصلاحية لتنقية الدين، والرجوع به إلى تعاليم عيسى عليه السلام الأصلية، وكان الأمراء يشجعون الدعوة الإصلاحية التي تدعو الناس إلى الانفصال عن كنيسة روما.

ثم إن الحركات الإصلاحية الدينية كانت في معظمها متجهة إلى فساد الكنيسة ورجالها، ولم تكن متجهة لتصحيح التحريف الذي دخل على الدين المنزل من عند الله على المسيح عليه السلام. فقد بقيت مسألة التثليث والصلب وحقيقة الأناجيل، وعدم البحث عن الإنجيل الذي نزل على عيسى عليه السلام، وعن مدى سلطة المجامع في اتخاذ القرارات التي تتعلق بأسس الدين دون بحث، ولم تتناولها أيدي المصلحين.

الدين الذي اعتنقته أوروبا دين محرف:

إن أوروبا لم تعرف الدين الصحيح المنزل من عند الله على عيسى عليه السلام على الرغم من انتشار النصرانية فيها، وتعصب الأوروبيين لها، وبخاصة في الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش الوحشية ضد المسلمين، بل عرفت ديناً محرفاً ممزوجاً بالوثنية، لأن العقيدة ــ كما ذكرنا سابقاً ــ شوهت تشويهاً سخيفا لا تقبله العقول السليمة فقالوا بالتثليث، واعتقدوا بربوبية عيسى عليه السلام، ولم يحكموا الشريعة الربانية في حياة الناس إلا قليلاً في الأحوال الشخصية. لأنهم فصلوها عن العقيدة. وقد كان المناخ الأوروبي في أصله فاسداً، وعمق هذا الفساد الدين المحرف الذي بشر به

النصارى، وما صاحبه من ظلم روحي وفكري وعلمي، وفساد خلقي، وطغيان مالي وسياسي مارسته الكنيسة على الناس. أضف إلى ذلك مهزلة صكوك الغفران، وعصمة البابا، وغيرها من الأسباب أدت إلى انحراف أوروبا، فكرهت الدين وحاربته، وارتدت وثنية لا تؤمن إلا بالمادة وبما تدركه الحواس.

يقول شيخنا الأستاذ محمد قطب: «ولكن أوروبا حين نزعت عنها سلطان الكنيسة لم تكتف بذلك، بل نزعت عنها سلطان الدين أيضاً. إذ كان الدين لديها ممثلاً في الكنيسة مجسماً فيها، وأغراهم بهذا أن في العقيدة المسيحية ـ كما صورتها الكنيسة، لا كما أنزلها الله سبحانه وتعالى ـ كثيراً مما يناقض العقل ويثقل على الأفهام، وليست مشكلة التثليث إلا واحدة من هذه المتناقضات.

«على أي حال لقد تجردت أوروبا من نير الكنيسة ومن سلطان الدين معاً وارتدت بذلك رومانية كاملة، لا يقف شيء في سبيل نزعتها الرومانية، التي لا تعرف غير الجسد ونزواته، ولا تؤمن إلا بالواقع المادي الذي تثبته الحواس. ونشأت على أنقاض الكنيسة والدين فلسفة مادية بحتة، تستمد وحيها من الأرض من واقع الحواس، ولا ترتفع ببصرها لحظة واحدة إلى السماء»[٨٦].

ويقول محمد أسد: «وخلاصة القول، إن المدنية الأوروبية قائمة في أساسها على المدنية الرومانية الوثنية وهي لم تأخذ من النصرانية ـ التي اعتنقتها لأسباب سياسية قاهرة ـ سوى الطلاء الخارجي فحسب، ثم إن المدنية الأوروبية لا تزال في واقعها مادية لا تؤمن بغير القوة»[٨٧].

---

(٨٦) الإنسان بين المادية والإسلام ص ١٦.

(٨٧) الإسلام على مفترق الطرق، ص ٣٨.

النهضة الأوروبية:

يقصد الأوروبيون بالنهضة إحياء العلوم والآثار الرومانية واليونانية. لأنه في حوالي منتصف القرن الخامس عشر الميلادي بدأت المدنية اليونانية تؤثر في عقول الغربيين. وانبعثت من إيطاليا لغة اليونانيين القدماء وشعرهم وفلسفتهم حتى شملت أوروبا كلها.

لقد ولدت النهضة الأوروبية الحديثة على مبعدة من الدين. ففي القرون الوسطى قامت الحرب الصليبية بين أوروبا النصرانية وبين العالم الإسلامي، على الرغم من أن أوروبا لم تكن في حقيقتها متدينة بالدين المنزل من عند الله، ولكن عدم التزامها بالدين الصحيح، لم يمنعها من أن تتعصب وتتجمع لمحاربة المسلمين حرباً وحشية لا هوادة فيها. ونتيجة لهذه الحروب نشأ احتكاك بين العالم النصراني والعالم الإسلامي. فاستفاد النصارى من علوم المسلمين التي كانت مفخرة القرون الوسطى. أضف إلى ذلك احتكاك النصارى بالمسلمين في الغرب، في الأندلس والشمال الإفريقي. وقد أخذ النصارى عن المسلمين العلوم التجريبية التي قامت على أساسها نهضتهم العلمية الحديثة.

وقد استفادوا من المسلمين فكرة التجمع في أمم، بعد أن كانوا إقطاعيات منفصلة، كما طالبوا بتحرير كيان الإنسان وضميره من العبوديات التي تخنقه وتكتم أنفاسه، حين رأوا الحرية العملية للإنسان، وممارسته لحقوقه في ظل شريعة الله في بلاد المسلمين.

أوروبا تضيع فرصة النجاة:

لكن أوروبا ضيعت على نفسها فرصة النجاة نتيجة الحقد والتعصب البغيض الذي أشعلته الكنيسة في قلوب النصارى. فتركت

النور القادم إليها من بلاد المسلمين. وسار علماؤها ومفكروها في دياجير الظلام عائدين القهقرى إلى الوثنية الرومانية واليونانية، لعلهم يجدون الخلاص من الظلم والاضطهاد الذي كانت تمارسه الكنيسة عليهم.

واستمرت أوروبا تخاصم الدين الإسلامي في وحشية قاسية، كان ذلك يبدو نموذجاً منها في محاكم التفتيش البشعة. هذا من جهة، ومن جهة ثانية زادت العداوة بين العلماء والمفكرين والدعاة إلى الإصلاح الاجتماعي، وبين الدين، ويرجع ذلك إلى حماقة الكنيسة وتصرفاتها المثيرة للنفوس.

يقول شيخنا الأستاذ محمد قطب: «كانت الكنيسة تحارب العلم لأن الجهالة سندها الأكبر في الاحتفاظ بسلطانها على الناس ويوم تتعلم الجماهير ــ يوم تعلم أن ما تلقنه إياها الكنيسة يشتمل على مجموعة من الأساطير التي لا تثبت للمناقشة ــ يومئذ لن تسلم الجماهير قيادها للكنيسة بالسهولة التي يتم بها الأمر في ظل الجهالة والظلام.

«وكانت الكنيسة تحارب الحرية»؛ لأن الحرية خطر على السلطان الغاشم، ويوم يحس الناس طعم الحرية ويتذوقونه، فلن يصبروا على العبودية، ولو كانت العبودية تفرض عليهم باسم الدين وسلطانه.

«وكانت الكنيسة تفجر وتعبث داخل أديرتها وهياكلها، وهي تفرض على الناس الزهادة والتقوى، وتطالبهم بمكارم الأخلاق، وذلك فوق الأتاوات والعشور، وفق مساندة الإقطاع ضد الفلاحين الذي يسحق كيانهم الفقر والحرمان»(٨٨).

وحين قامت النهضة على أساس غير ديني ابتعد الناس عن

(٨٨) جاهلية القرن العشرين ص ٢٩ ــ ٣٠.

الدين رويداً رويداً وعاشت أوروبا قروناً كاملة بشخصية مزدوجة نصرانية ووثنية في ذات الوقت. وبدأت النهضة تسير في طريقها، مستمدة من الوثنية اليونانية والرومانية. فكرها ونظام حياتها وتحوّل كل تقدم يأتيها عن طريق العالم الإسلامي إلى هاتين الوثنيتين.

يقول راندال: «فقد كانت الشعوب الغربية وهي تترك العالم القديم سائرة في الطريق الموصل إلى العالم الجديد، تتناول في لهفة كل ما يقع تحت أيديها من كنوز الإغريق وروما»[٨٩].

ويعترف الكاتب بفضل المسلمين على أوروبا بقوله: «وسط هذا العالم الذي أخذت رقعته في الاتساع، اتجه رجال القرون الوسطى إلى المعرفة العلمية التي وجدوها في مكاتب العرب[٩٠] وجامعاتهم الغنية ــ «وعن طريق إسبانيا جاءت أول معرفة بمؤلفات أرسطو الكبيرة. ولكن المسلمين أنقذوا من العالم القديم شيئاً ــ كان أرسطو بالرغم[٩١] من عبقريته عاجزاً كل العجز عنه ــ وهو العلم الرياضي والآلي.

«ويظهر أن عظمة العرب كانت كامنة في مقدرتهم على تمثل أفضل ما في التراث الفكري للشعوب التي احتكوا بها، أكثر مما كانت في أي إبداع أصيل[٩٢]. فقد أخذوا من العلم اليوناني المعرفة الرياضية والطبية، التي احتقرها الرومانيون، ونبذها المسيحيون جانباً،

---

(٨٩) تكوين العقل الحديث، ج ١ ص ١٨٠.

(٩٠) المقصود بالعرب هم المسلمون. لأن الإسلام هو الذي جعل العرب أمة واحدة وجعل لها ثقافة واحدة هي الثقافة الإسلامية ويشترك فيها العرب وغير العرب من المسلمين.

(٩١) والصواب على الرغم.

(٩٢) هنا يظهر تعصب الكاتب وحقده على المسلمين حيث ينفي عنهم الإبداع العلمي الأصيل. والواقع أن للمسلمين تراثهم وعلومهم الخاصة بهم والتي حازوا قصب السبق بها على غيرهم من الأمم كعلم الجبر والكيمياء والصفر الحسابي، ومن أراد التوسع فليراجع كتاب شمس العرب تسطع على الغرب.

وراحوا يعملون بصبر وجهد في ذلك الطريق الذي ازدراه الإغريق في أوج عظمتهم، تابعين طريق التطور البطيء والتكيف العملي. وقد اكتسبوا من الهند الأرقام (العربية) التي لا يمكن الاستغناء عنها. وشكّل التفكير الجبري الذي لولاه لما استطاع المحدثون قط أن يبنوا على الأسس التي وضعها الإغريق.

«وبنوا في القرن العاشر في إسبانيا حضارة لم يكن العلم فيها مجرد براعة فحسب، بل كان علماً طبق على الفنون والصناعات الضرورية للحياة العملية، وعلى الإجمال كان العرب يمثلون في القرون الوسطى التفكير العلمي، والحياة الصناعية العلمية، اللذين تمثلها في أذهاننا اليوم ألمانيا الحديثة»[٩٣].

ويقول محمد أسد: «إن العصور الوسطى قد أتلفت القوى المنتجة في أوروبة. كانت العلوم في ركود، وكانت الخرافات سائدة، والحياة الاجتماعية فطرية خشنة إلى حد من الصعب علينا أن نتخيله اليوم. في ذلك الحين أخذ النفوذ الإسلامي في العالم ــ في باديء الأمر بمغادرة الصليبيين إلى الشرق، وبالجامعات الإسلامية الزاهرة في إسبانيا المسلمة في الغرب. ثم بالصلات التجارية المتزايدة التي أنشأتها جمهوريتا جنوة والبندقية، أخذ هذا النفوذ يقرع الأبواب الموصدة دون المدنية العربية.

وأمام تلك الأبصار المشدوهة. أبصار العلماء والمفكرين الأوروبيين ظهرت مدنية جديدة ــ مدنية مهذبة راقية خفاقة بالحياة، ذات كنوز ثقافية كانت قد ضاعت ــ ثم أصبحت في أوروبة من قبل نسياً منسياً. ولكن الذي صنعه العرب كان أكثر من بعث لعلوم

---

(٩٣) تكوين العقل الحديث، ج ١، ص ٣١٣ ــ ٣١٤.

اليونان القديمة، لقد خلقوا لأنفسهم عالماً علمياً جديداً تمام الجدة. لقد وجدوا طرائق جديدة للبحث، وعملوا على تحسينها، ثم حملوا هذا كله بوسائط مختلفة إلى الغرب، ولسنا نبالغ إذا قلنا أن العصر العلمي الحديث الذي نعيش فيه، لم يدشن في مدن أوروبة النصرانية، ولكن في المراكز الإسلامية: في دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة»[٩٤].

بداية ظهور الفلسفة المادية الحديثة:
مذهب الإنسانية الحديثة:

بدأت بوادر ظهور الفلسفة المادية الحديثة في مطلع عصر النهضة، حين اتجهت أوروبا نحو الحضارة اليونانية والرومانية، تأخذ عنها كل مايتعلق بنواحي حياتها الفكرية والمادية، وكان مذهب الإنسانية الحديثة أول طلائع المادية، حيث ركز الإنسانيون في كتبهم الأدبية وفنونهم على الفردية الإنسانية، وحرية الفرد في التفكير والحكم على الأشياء.

يقول رابوبرث في معرض حديثه عن عصر النهضة:

«وامتاز ذلك العصر بشعور الإنسان فيه بشخصيته المطلقة، وبمعارضته للسلطة وذويها، وذهابه شوطاً بعيداً في اعتبار العالم كله وطناً له. وهذه دلائل أعظم رقي يصل إليه الناس في تقدمهم العقلي. وقد أعلت النهضة شأن الطبيعة الإنسانية والحياة الدنيوية، مخالفة في ذلك طريقة التفكير في القرون الوسطى، ولذلك يسمى العلماء الذين خصصوا أنفسهم لدراسة آداب اليونان والرومان والعلوم عند القدماء «الإنسانيين»، كما تسمى عقائدهم ومثلهم العليا «الإنسانية» وكان من خير ما أحدثه هؤلاء الإنسانيون «نمو الفردية»؛ أعني الرأي القائل بأن

(٩٤) الإسلام على مفترق الطرق، ص ٣٩ ــ ٤٠.

الانسان ينبغي أن يفكر بنفسه لنفسه ـ وهو رأي كان قد أهمل في عصر عبودية العقل»[٩٥].

ويقول كرين برينتون في معرض حديثه عن الحركة الإنسانية وفنونها: «إنه طالما كانت العصور الوسطى في الواقع عصوراً دينية، وطالما أن عصر النهضة. يعني ـ على الأقل ـ محاولة العودة إلى الوثنية اللادينية، إن لم نقل الزندقة، فإن فن العصور الوسطى يرتبط بالكنيسة.

أما فن عصر النهضة فيتمتع بحرية بوهيمية، وهذه هي حقيقة الأمر، وكان النحاتون والرسامون في ذروة عصر النهضة يقلدون العري الكلاسيكي، كما يقلدون كل شيء كلاسيكي آخر»[٩٦].

وظهر من العلماء والكّتاب الإنسانيين بترارك ١٣٠٤ ـ ١٣٧٤، ورابليه ١٤٩٠ ـ ١٥٥٣، وشكسبير ١٥٦٤ ـ ١٦١٦، وغيرهم. وكان هؤلاء ينشدون طريقاً وسطاً بين النصرانية التقليدية والعلمانية الحديثة. ونتيجة لتحرير العقول من العبودية التي فرضتها الكنيسة عليها، فصلت الفلسفة عن الدين وأصبحت علماً دنيوياً مستقلاً، لأن العلوم الطبيعية هي التي مهدت الطريق أمام الفلسفة لتستقل في عملها، فالاكتشافات الجغرافية، ونظرية كوبرنيكس حول العالم، وقوله بدوران الأرض وكرويتها، وأبحاث جاليلو العلمية وغيره، هذه العلوم، أثرت تأثيراً كبيراً على العلوم في العصور الحديثة.

يقول فندلبند: «كلما انفصلت الفلسفة عن الدين وكانت علماً كونياً مستقلاً، كانت مهمتها التي يجب أن تؤديها، هي أن تبحث في

(٩٥) مبادىء الفلسفة ص ١١٢.
(٩٦) منشأ الفكر الحديث ص ٢٧.

علوم الطبيعة، وإلى هذه الغاية كانت تتجه كل أبحاث الفلسفة زمن النهضة، حتى أن شعارها كان «لتكونن الفلسفة علمًا طبيعياً»[٩٧].

المذهب العقلي والمذهب التجريبي:

عندما انبثق فجر الفلسفة الحديثة ـ التي انفصلت عن الدين ـ بدأ الفكر يتعرض للدين والنظم التي بنيت عليه، بالبحث والنقد الهادم، وأصبح الحق في نظر الناس هو الذي يقتنع الفكر به ويستطيع أن يبرهن عليه، لا ما قاله من قديم فلان أو فلان. وقد أهمل الفكر الحديث البحث في الغيبيات، وكانت الفلسفة الحديثة تنظر إلى الماضي البعيد، إلى الإغريق والرومان فاعتاضت بما عندهم عن عقائد القرون الوسطى الأوروبية المظلمة.

وبدأت الفلسفة تتجه نحو الطبيعة وعلومها، وكان من خواص هذه الفلسفة الطبيعية لفت عقل الفرد إلى التطلع نحو الطبيعة وتحريره من رق الإيمان الأعمى على الطريقة التي كانت سائدة في أوروبا، حيث كان من أغراض الحركة الفكرية الحديثة تقرير حق الأفراد في الحكم على الأشياء، والترخيص لكل فرد أن يبحث أي شيء وينتقده دون تقييد من سلطة خارجية.

يقول رابوبرت: «وعلى الجملة، فقد تقرر أن يكون لعقل الفرد القول الفصل في الحكم على الأشياء، وبذلك نشأ الإعتقاد بأن العقل قادر على أن يحل كل ألغاز العالم، ويصل إلى أبعد أسرارها، وعلى هذا الأساس بنى (ديكارت) و(سبينوزا) و(لينتز) نظمهم الكبرى (فيما بعد الطبيعة)، ويسمى مذهبهم مذهب العقليين»[٩٨].

---

(٩٧) مبادىء الفلسفة ص ١١٤.

(٩٨) نفس المصدر ص ١١٧.

ويقول برينتون: «فالمذهب العقلي يتجه نحو إزالة الله وما فوق الطبيعية من الكون، وقد ترك المذهب العقلي الأشياء الطبيعية التي يتمسك بها أتباعه على أنها قابلة للفهم دائمًا، ومن الوجهة التاريخية، فإن نمو المعرفة العلمية، وازدياد الاستخدام البارع للأساليب العلمية يرتبط بشدة مع نمو الوضع العقلي نحو الكون، ومع علم الكون العقلي»(٩٩).

إذن فالمذهب العقلي بدأ يتجه إلى إزالة الله وما فوق الطبيعة من الكون، وقد مهد لهذه العملية بمقدمات طويلة، حيث أن الإلحاد لا يتم دفعة واحدة، وذلك لأن التدين في أوروبا كان قوياً وإن كان على غير الهدى الرباني.

وكان من أهم هذه المقدمات انتعاش المادية القديمة، فقد انتعشت على يد توماس هوبز في إنجلترا، الذي ذهب «إلى أن كل مظاهر العالم الحقيقية نتيجة الحركة، وأن ليس هناك أرواح غير مجسدة، وفسر الروح بأنها أجسام طبيعية رقيت حتى لم تستطع حواسنا إدراكها»(١٠٠).

وفي هذا العصر الذي برزت فيه فكرة المادية، دعمتها فكرة أخرى هي:

نظرية الملكية المطلقة:

يقول راندال: «نشأت نظرية الحق الإلهي للملوك في أول عهدها كمحاولة لتحرير الحكومة المدنية، أو العلمانية من رقابة البابا

---

(٩٩) منشأ الفكر الحديث ص١٠٣.

(١٠٠) مبادىء الفلسفة ص١٥٣.

والكهنة. كما أنها كانت رداً على دعواه في أن له حقاً إلهياً في السيطرة على الأمور الزمنية»[101]، وقد حاول الكتاب والمفكرون انتزاع الحق الإلهي من الكنيسة للملوك، ونشأ صراع حاد بين البابا والملوك على هذا الحق الإلهي، أسفر في نهاية الأمر عن وحدة تامة بين حق الملك الإلهي وحق السيادة القومية، وأصبحت الكنيسة خاضعة للسلطة الزمنية. وقد كان دفاع الكتاب عن الحق الإلهي للملوك يستند إلى العقل لا إلى الدين، وظهر هوبز في انجلترا، ومكيافلي في إيطاليا وبودان في فرنسا. وتظهر أهمية هؤلاء الثلاثة في أنهم وضعوا في الدفاع عن الحكم الإستبدادي نظرية كانت فيما بعد نافعة في محاربته، وفي توطيد سلطة سيادة الدولة القومية.

نظرية العقد الاجتماعي:

يقول راندال: «تعود أصول فكرة العقد الاجتماعي إلى الفكر الروماني. وفكر القرون الوسطى معاً. وقد قامت نظرية الإمبراطورية الرومانية ــ كما ضمنت في مجلة الحقوق المدنية ــ على القول بأن كل سلطة وكل حق في وضع القوانين يعودان للشعب الروماني، غير أن الشعب تنازل بموجب قانون شهير عن هذه الحقوق للإمبراطور، وهو تفسير طبيعي لمجرى التاريخ الروماني. فجميع حقوق الشعب الروماني وجميع سلطاته إنتقلت إلى الإمبراطور، وله وحده حق القوانين وحق تفسيرها.

«وعندما تم إحياء القانون الروماني في القرون الوسطى، إنتبه الإمبراطور إلى هذه النظرية، واتخذها سلاحاً ضد سيطرة الكنيسة، ثم تبعه في ذلك جميع الأمراء. وهكذا نشأت نظرية العقد الاجتماعي

---

(١٠١) تكوين العقل الحديث ج ١، ص ٢٧٧.

القائلة بأن كل سلطة مدنية ترتكز في أساسها على الشعب، وأن الشعب قد حولها إلى الحاكم ليمكنه من القيام ببعض الـوظائف الضرورية. ومن الواضح أنها نظرية ذات حدين. فقد تفسر لتأكيد سلطة الحاكم الشاملة، باعتباره مصدر جميع السلطات، أو لتأكيد سيادة الشعب الأساسية، باعتباره المصدر الأخير لتلك السلطة..

«إستخدم هوبس هذه النظرية من أجل توطيد دعائم دولة قوية استبدادية، معتبراً أن لا شيء يجدي سوى العقل»[١٠٢].

إذن فهذه النظرية تركز على فصل الدين عن السياسة وإن كان الدين لم يحكم واقع أوروبا إلا في الأحوال الشخصية. فهم يركزون على سلطة الشعب ثم سلطة الحاكم باعتباره مصدر كل السلطات وتنطلق في تقرير هذا الحق من العقل، وفيه إشارة إلى تقديس العقل وتقديمه على الدين لأن هوبز يصرح بأنه لا شيء يجدي في هذه الحياة سوى العقل.

وينطلق هوبز في نظريته في الطبيعة البشرية، من أن الإنسان ذئب على أخيه الإنسان، فإذا لم توجد سلطة تحد من الصراع بين بني البشر هلك الناس جميعاً في حومة هذا الصراع الأبدي. ولما كانت هذه هي الحالة الطبيعية للإنسان، فإن عقله يوصيه أن يبحث عن السلام والأمن ويحافظ عليهما

المذهب التجريبي:

كان المنهج السائد عند أصحاب المذهب العقلاني هو إخضاع كل شيء لبحث العقل لأن له القول الفصل في الحكم على الأشياء.

---

(١٠٢) نفس المصدر ص ٢٨١.

هذا الميل إلى اخضاع كل شيء لبحث العقل، أدى إلى وضع العقل نفسه تحت البحث، حيث صار كل من العالم المادي والعقلي خاضعاً للنظر والاختبار.

وطريقة التفكير الأوروبية الحديثة تشبه طريقة اليونانيين القدماء في التفكير، حيث انطلقوا من مبدأ واحد؛ هو النظر في الكون المادي. ثم جاء بعده عصر النظر في الإنسان نفسه. ثم تلاه عصر النظر في الأبحاث النفسية.

وأخذ الإنسان يسأل عن أصل المعرفة، وعن الإدراك، وعن منبعهما، وانتهت أخيراً بفلسفة الشك، فقديماً أسسها السوفسطائيون في اليونان. وحديثاً دافيد هيوم في إنجلترا.

يقول رابوپرث: «من ذلك نرى أن الفلسفة الحديثة، اتبعت في تطورها الطريقة التي جرى عليها الفكر عند اليونان. فالفلسفة اليونانية كانت أيام طفولتها فلسفة طبيعية تبحث في عالم الطبيعة، ثم تحول البحث إلى الإنسان وقواه الباطنة، فبعد أن كانت الفلسفة فلسفة نظر في الكون، صارت فلسفة إنسان «فلسفة أنثروبولوجية»، ثم آلت الحركة التي قام بها السوفسطائيون إلى الشك في الحقائق. وهذا بعينه هو الطريق الذي سلكه الفكر الحديث. فقد كان مجرى الفكر متجهاً نحو الطبيعيات عندما فارق منبع النهضة، ثم اتجه نحو الإنسان عند اجتيازه هولندا وألمانيا وفرنسا. ثم ارتقى فاتجه إلى البحث في نظرية المعرفة عند وصوله إلى إنجلترا ثم وصل في النهاية إلى الشك والارتياب. وكما مهد السوفسطائيون بشكوكهم الطريق للإصلاح الذي قام به سقراط، ولنظام أفلاطون «المثالي»، فكذلك الشك الذي أسسه هيوم مهد السبيل للإصلاح الذي قام به «كانت»، مذهب المثال الألماني»[١٠٣].

---

(١٠٣) مبادىء الفلسفة ص ١١٩ ـ ١٢٠.

وانتشرت نظرية التجريبيين القائلة بأن المعرفة مستقاة من التجربة، في إنجلترا. وترى هذه النظرية كما يقول الدكتور محمد البهي: «أن تحصيل الإنسان للحقائق الكونية، ومعرفته بها لا يكون إلا بالتجربة الحسية وحدها. ومعنى ذلك أن الحس المشاهد ـ لا غيره ـ هو مصدر المعرفة الحقيقية اليقينية. ففي العالم الحسي تكمن حقائق الأشياء. أما انتزاع المعرفة مما وراء الظواهر الطبيعية الحسية، والبحث عن العلة في هذا المجال، فأمر يجب أن يرفض، ولهذا تكون كل نظرية أو كل فكرة عن وجود له طابع الحقيقة فيما وراء الحس نظرية أو فكرة مستحيلة(١٠٤).

وقد ذكرنا سابقاً أن الأوروبيين أخذوا المنهج التجريبي عن المسلمين. وقد حمل لواء هذا المنهج من الأوروبيين فرنسيس بيكون، الذي يعتبر مؤسس الفلسفة التجريبية الأوروبية. ثم جاء ديكارت الفرنسي، الذي رفض التسليم بشيء لم يفحصه العقل ويتحقق من وجوده. وكل ما كان مبنياً على الحدس والتخمين، أو منشؤه العرف والعادة، يجب أن يرفض، وطريقة البحث عنده تبدأ بأبسط الأشياء، ثم تنتهي بأكثرها تعقيداً حتى يصل إلى المقصود، ولا يمكن الحكم بصحة مقدمة في التجربة حتى يتأكد منها في الاختبار(١٠٥).

وظهر في إنجلترا الفيلسوف جون لوك، الذي اعتبر أن أصل المعرفة التجربة، لا العقل ثم جاء بعده دافيد هيوم، ورقي ما قاله لوك في التجربة وأوصله إلى مذهب الشك.

هذا وقد سار المنهج التجريبي جنباً إلى جنب مع المنهج العقلي، مع وجود الخلاف بين الطرفين، حتى جاء كانت، الذي حاول أن

---

(١٠٤) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي: ص ٢٩٧.

(١٠٥) انظر مبادىء الفلسفة: ص ٢١٤.

يوفق بين الطرفين، ويزيل الخلاف بينهما بتحديد دائرة لكل من العقل والتجربة. وتقويم كل باعتبار ما يوصل إليه من النتائج، وقد وجه كانت أبحاثه نحو المعرفة وسمى نظامه بالنظام الاقتصادي(١٠٦).

مذهب السببية:

نشأ هذا المذهب في بداية عصر النهضة على يد نيوتن ولوك، حيث اكتشف نيوتن قانون الجاذبية وعلاقة الكواكب والسيارات بعضها ببعض، حيث بدت وكأنها تشرح ولو بصورة مؤقتة الظواهر الطبيعية في الكون. والسببية تسمح بالانتقال من حيز المظاهر الخارجية إلى واقع الحياة وتهتك أسرارها، يقول برينتون: «إن السببية تهدم كل ما بنته الخرافات والإلهامات والمعتقدات الخاطئة في هذا العالم»(١٠٧).

ويبين برينتون منهج نيوتن في تصور الإله، ووضع الانسان، ومركزه في هذا الكون بقوله: «الإله في عرف نيوتن أشبه بصانع الساعة، ولكنه صانع هذه الساعة الكونية ـ ونعني بها الكون ـ لم يلبث أن شد على رباطها إلى الأبد، فبإمكانه أن يجعلها تعمل حتى الأبد.

أما الرجال على هذه الأرض، فقد صممهم الإله كأجزاء من آلته الضخمة هذه ليجروا عليها. وإنه ليبدو أن ليس ثمة داعٍ أو فائدة من الصلاة إلى الإله صانع هذه الساعة الضخمة الكونية، الذي لا يستطيع إذا ما أراد التدخل في شؤون عمله(١٠٨). وقد نشأ جيل

---

(١٠٦) أنظر نفس المصدر، ص ١٢١.

(١٠٧) نفس المصدر، ص ١٥١.

(١٠٨) ليس الواقع كذلك لأن الله من صفاته القدرة وهو سبحانه وتعالى يستطيع أن يغير نظام الكون متى شاء ولكن سنته ثابتة بحكمته. قال تعالى:

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ يس ٨٢.

آمن بهذه النظرية، وقفز بها قفزة هائلة من الايمان بالله إلى الالحاد. فحين نجد فولتير الفرنسي يدعو إلى اختراع الله، نجد أنّ الجيل الثاني من معتنقي السببية كما يقول برينتون: «لم يروا ثمة حاجة لاختراع الإله، حيث ألفوا من خلال دراستهم للرياضيات مفهوم اللانهائية. فالجهاز الكوني كان وما يزال موجوداً، وسيوجد دوماً وأبداً ــ وإذا كان الإله خارج هذا العالم فكيف يستطيع أن يكون داخله أو بالأحرى داخل عقولنا بمثابة مفهوم؟

ويتبين لنا من هذا أن فكرة الاعتقاد بالله ليست ضرورية، وأن فكرة الطبيعة كافية.

«ولكن ثمة أناس ذهبوا إلى أبعد من ذلك واعتبروا فكرة الإله فكرة شريرة، وخاصة إذا ما كان إله الكنيسة الكاثوليكية، وأطلقوا على أنفسهم بكل فخر إسم الملحدين. وهم يعتقدون أن ليس ثمة وجود للمسيح أو لإله المسيحية. ويقولون إن الكون ليس إلا مجموعة متحركة ذات نظام معين يمكن فهمه باللجوء إلى السببية المعتمدة على أسس العلوم الطبيعية»(١٠٩). ويقول في موضع آخر: «وقد أهمل جميع المؤمنين بالمذهب الجديد ــ ألا وهو مذهب السببية، من معتقدين بالله أو ماديين ــ الاكتراث بما أورده الدين المسيحي عن الله، وقالوا إن العالم ليس إلا آلة ضخمة وإن الانسان جزء منها وهو يخضع لقوانين الطبيعة. كما افترضوا وجود مدرسة في نفوس الناس، دعوها مدرسة السببية، تتيح للناس أن يتدربوا فيها ليحيطوا بقوانين الطبيعة ونظمها. وأن ينسقوا سلوكهم بحيث يكون على انسجام تام مع القوانين الطبيعية. وبذلك يتسنى لهم العيش معاً في أمن وسلام وسعادة»(١١٠).

---

(١٠٩) نفس المصدر ١٥١ ــ ١٥٢.

(١١٠) نفس المصدر، ص١٥٢ ــ ١٥٣.

وكان من أشهر السببيين الماديين (هولباخ)، الذي أنكر بصورة قاطعة ـ على حد زعمه ـ الله والحرية والخلود. وكان هولباخ عالماً فيزيائياً، اعتقد أن العلم النيوتوني يتضمن تفسيراً كاملاً للكون، ولا يتطلب أية إضافة من أي نوع كان. يقول هولباخ: «تفعل المادة لأنها موجودة، وتوجد لتفعل. فإذا سئلنا كيف توجد المادة أو لماذا توجد؟ لأجبنا بأننا لا نعرف. ولكن إذا فكرنا على أساس من المقايسة بين ما لا نعرفه وبين ما نعرفه، لوجب أن يكون رأينا أن المادة توجد بالضرورة ولأنها تحتوي في ذاتها علة كافية لوجودها».

«إنه لأقرب إلى الطبيعي والمعقول أن نشتق من صور المادة كل شيء موجود، لأن كل حاسة من حواسنا تبرهن على وجودها، ونختبر كل لحظة نتائجها بأنفسنا، ونراها فاعلة متحركة، تنقل الحركة وتولد القوة دون انقطاع، من أن نعزو تكون الأشياء لقوة مجهولة، ولكائن روحي لا يستطيع أن يخرج من طبيعته ما ليس هو بذاته، كائن يعجز ـ بحكم الجوهر المنسوب إليه ـ أن يفعل أي شيء أو أن يحرك أي شيء[١١١]».

ويرجع راندال السبب الذي دفع الناس في فرنسا إلى اعتناق مذهب(سبينوزا)إلى النهاية، إلى تصرفات الكنيسة الكاثوليكية. يقول راندال: «ولم يكن معظم الناس راغبين في اتباع سبينوزا وهولباخ إلى النهاية القصوى، إلا في فرنسا، حيث دفعت الكنيسة الكاثوليكية بسياستها الاجتماعية، وتحالفها مع النظام القديم، ومساوئها، كل رجل عاقل إلى المعارضة القوية، لا لنظام الرهبانية الكاثوليكي فحسب ولكن لكل ما له صلة به وللديانة ذاتها»[١١٢].

---

(١١١) تكوين العقل الحديث: ج ١، ص ٤٣٨ ـ ٤٣٩.

(١١٢) نفس المصدر، ص ٤٤١ ـ ٤٤٢.

الصراع الفكري في أوروبا:

لمسنا فيما سبق عرضه من مذاهب إنسانية وعقلية وتجريبية، أن الفكر الأوروبي كان مسرحاً للصراع حول تبرير مصادر المعرفة التي عرفتها البشرية حتى الوقت الحاضر، وهي الدين والعقل والحس. وقد مر ذلك بمراحل بدأت بالصراع ضد السلطة البابوية مع عدم الخروج على الدين ذاته، حتى وصل الأمر إلى إنكار الدين جملة، وعدم تحكيمه في أي أمر من أمور الحياة.

يقول الدكتور محمد البهي في معرض بيان هذه المراحل: «كان الدين أو النص سائداً طوال القرون الوسطى في توجيه الانسان سواءً في سلوكه وتنظيم جماعته أو في فهمه للطبيعة. وكان يقصد بالدين «المسيحية». وكان يراد من المسيحية الكثلكة، وكانت الكثلكة تعبر عن البابوية»(١١٣).

ولما قامت حركة لوثروكالفن الاصلاحية، تعرضت النصرانية للجدل الفكري، وأصبحت موضوعاً للنقاش العلمي والمذاهب الفلسفية، وكانوا يهدفون من إنكار أن للدين سلطة إنكار سلطة البابا.

يقول الدكتور البهي: «وفي عهد سيادة «الدين» كمصدر للمعرفة ـ سواءً في عصر سلطة الكنيسة الكاثوليكية أو في عهد الإِصلاح الديني للوثر ـ نُظِر الى الكتاب المقدس، وهو الانجيل على أنه فوق العقل ـ على معنى أن للعقل أن يبحث ويرى ـ إن جاز له أن يبحث ويرى ـ ولكن للكتاب المقدس الكلمة الأخيرة فيما يرى العقل

---

(١١٣) الفكر الاسلامي الحديث: ص ٣١٩ ـ ٣٢٠.

ويحكم. والفلاسفة الذين ناصروا الدين والوحي· اعتبروا أن الألوهية المرجع الأخير للوجود وللمعرفة على السواء»[١١٤].

سيادة العقل أو عصر التنوير:

يقول الدكتور البهي: «إستمر اعتبار الوحي كمرجع أخير للمعرفة على خلاف في تحديد تعاليمه، حتى كان النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وهو عصر «التنوير» في تاريخ الفلسفة الأوروبية ـ وعصر التنوير له طابعه الخاص الذي يتميز به عن العصر السابق عليه، وكذا عن الآخر اللاحق له، وله طابعه المشترك في الفكر: الألماني والانجليزي والفرنسي في الفترة الزمنية التي تحدده، وله فلاسفة في دوائر الفكر الثلاث كونوا الطابع الفكري الذي عرف به[١١٥].

وقد ذكرنا في مذهب العقليين بعضاً من أساتذة هذا المذهب. ويتميز طابع عصر التنوير الفكري بوجوب سيادة العقل كمصدر للمعرفة على غيره، والمقصود به الكاثوليكية النصرانية. وللعقل الحق في الإشراف على جميع اتجاهات الحياة السياسية والدينية والقانونية والاجتماعية؛ «حيث أن الانسانية هي هدف الحياة للجميع، وليس الله أو المجتمع الخاص أو الدولة الخاصة...».

فالتنوير لا يقصد به إلا إبعاد الدين عن مجال التوجيه، وإحلال العقل محله فيه[١١٦].

---

(١١٤) نفس المصدر، ص ٣٢١ ـ ٣٢٢.

(١١٥) نفس المصدر، ص ٣٢٢.

(١١٦) نفس المصدر ص ٣٢٣.

أهم فلاسفة عصر التنوير:

ذكرنا أن فلاسفة عصر التنوير ذهبوا إلى سيادة العقل، ومن هؤلاء الفلاسفة الـذين دخلوا حلبة الصـراع ـ من أجل سيـادة العقل ـ الفيلسوف الألماني(فيشته)الذي ولد عام ١٦٦٢ ـ ١٨١٤م.

وقد أقام فلسفته على أساس استخدام مبدأ النقيض، وقد أكد فيها على قيمة العقل الانساني وحريتـه، حيث يعتبره الأسـاس، والطبيعة تابعة له. ويركز على الحرية الفردية، ويعتبر العمل من أجل الدولة كإنتاج للإنسان ـ عملاً يتم بالخلقية والمدنية، ويدعو إلى جعل قيادة الجماهير في يد الخاصة «وهم أصحاب العقل الخالق»، ويجب أن يوضع بيدهم توجيه الجماهـير والعامـة. ويحدد رسـالة هؤلاء الجماهير في أن يسيروا في ذات الطريق الذي عبره عظماؤهم، وإلى نفس الغاية التي قصدوا إليها في مسيرهم... ويرى أن تطور البشرية يجب أن يكون إلى الانصهار في جمهورية عامة، وهو عمل للعقل صادر عن حرية في الفكر وإرادة خلقية ـ ويوم تنصهر الشعوب في جمهورية يدل ذلك على أنها تمدنت بـالعقل وعـلى أن العقل أدى رسـالة عظيمة»[١١٧].

النقيض عند هيجل:

إستخدام فيشته مبدأ النقيض، كي يدعم سيادة العقل كمصدر للمعرفة مقابل الدين والطبيعة. وهيجل يستخدم مبدأ النقيض أيضاً لتأكيد قيمة العقل من جهة ثم لدعم فكرة الألوهية من جديد، وتأكيد الوحي كمصدر أخير للمعرفة، لأنه يعتبر الله ـ سبحانه عما يصفون ـ عقلاً.

(١١٧) نفس المصدر، ص ٣٣١ ـ ٣٣٢.

واستخدم مصطلحات خاصة به وهي الدعوى، ومقابل الدعوى وجامع الدعوى ومقابلها، والمجال الذي استخدم فيه هيجل مبدأ النقيض، كي يصل إلى هدفه هو مجال الفكرة، حيث تصور أن هناك فكرة مطلقة، أطلق عليها إسم العقل المطلق، ولهذا العقل المطلق وجود ذاتي أزلي قبل خلق الطبيعة ومنه ــ وهو الله عنده ــ إنبثقت الطبيعة وهي تغايره تماماً، لأنها مقيدة ومتفرقة، وهي عنده العقل المقيد. ثم انتقلت الفكرة من الطبيعة أو العقل المقيد إلى جامع يلتقي فيه الشيء ونقيضه، وهو العقل المجرد. الذي هو نهاية الطبيعة المحدودة وغايتها، هو جامع الدعوى ومقابل الدعوى.

يقول الدكتور البهي عن العقل المجرد: «هو العقل في صورة اتصال العالم بعضه ببعض، سواء ما يأخذ منه طريقه إلى الظهور أو ما ظهر منه بالفعل. وهذا العقل المجرد يتمثل في القانون والأخلاق، وفي الفن والدين والدولة والجماعة والفلسفة. وإذن فالعقل المجرد الذي يتحقق في أي واحد من هذه القيم العاملة المذكورة جامع للمتقابلين: جامع للفكرة في العقل المطلق وهو الله، وللفكرة في العقل المقيد وهو الطبيعة. ذلك أنه ليس له إطلاق العقل المطلق ولا تحديد عقل الطبيعة، بل فيه إطلاق بالنسبة إلى الطبيعة وتقييد بالنسبة للعقل المطلق ولذا يعتبر جامع الدعوى ومقابل الدعوى»[١١٨].

ويوضح مبدأ النقيض بمثال الماء. فالماء دعوى، وتحول الماء إلى بخار مقابل الدعوى، وصيرورة الشيء إلى نقيضه وهو صيرورة الماء إلى بخار جامع الدعوى ومقابل الدعوى. وصيرورة الشيء إلى نقيضه ستنحل من جديد ــ إلى دعوى، فمقابل الدعوى، إلى جامع الدعوى

(١١٨) نفس المصدر، ص ٣٣٤.

ومقابلها، وهكذا. فالشيء، ومقابل الشيء، وصيرورة الشيء إلى مقابله، تمثل خطوات النقيض الفكرية وهي الدعوى ـ ومقابل الدعوى. والجامع بين الدعوى ومقابلها.

يقول الدكتور البهي: «وباستخدام مبدأ النقيض كخاصة من خواص العقل الانساني، وصل «فيشته» و«هيجل» معاً من الوجهة الفلسفية إلى:

«ترجيح جانب العقل على الطبيعة والحس، وتقدير الدولة كعمل خلقي للعقل الانساني. كما وصلا إلى أن سعادة البشرية رهن بالتعاون على العمل المثمر، المنظم في الطريق الذي يرسمه عظماء الفكر والسياسة»(١١٩).

الثورة الفرنسية والثورة الصناعية:

كان للظلم الديني الذي كانت تمارسه الكنيسة على الأفراد، والظلم السياسي الذي كان يمارسه الحكام، والظلم الاقتصادي الذي كان يمارسه الاقطاعيون، أثر كبير في إشعال نار ثورة علمانية تفصل الدين نهائياً عن شؤون الحياة. ينطلق مفكروها من قاعدة «أشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس»، لأن القسيس في نظرهم في كل بلد وفي كل عصر من أعداء الحرية، حليف الحاكم المستبد، يعينه على سيئاته في نظير حمايته لسيئاته هو الآخر»(١٢٠).

وبالفعل حدثت الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م. جاءت لتخليص الفرد من نير الظلم السياسي الذي كانت تمارسه الدولة على الأفراد.

---

(١١٩) نفس المصدر، ص ٣٤١.

(١٢٠) أفكار ورجال، ص ٥٠٢.

فقد كانت الدولة تفرض شتى القيود التي تحد من نشاط الفرد وحريته، فاتجه الأفراد إلى التحلل من قيود التشريعات التي تنظم بها الدولة مسائل الاقتصاد، كالإقطاع، والحرف في المدن، وسيطرة الدولة على السياسة التجارية والخارجية. وحين أرادت الشعوب أن تتحـرر، إتجهت الأفكار إلى تبديل سياسة الدولة تجاه الاحتكار الاقتصادي، الذي حرم الفرد من الحياة الكريمة. وقد كانت الأفكار تنادي من قبل إلى تحرير الفرد من الأوهام والخرافات، التي صورتها الكنيسة لهم على أنها دين منزل من عند الله. وكان معظم المفكرين يوجهون الناس إلى التحرر من كل لون من ألوان الضغط والتقيد. وقد أسفرت الثورة الفرنسية عن إعلان حقوق الانسان الأوروبي وحريته، وعن الإخاء والمساواة، وتحطيم امتيازات الطبقة الممتازة، وإطلاق الحرية للفرد. فتحطم الاقطاع وحلت البرجوازية مكانه، فقد ولدت لأول مرة في تاريخ النصرانية دولة علمانية لا تقيم لدين الله وزناً، تقوم فلسفتها على الحكم باسم الشعب لا بإسم خالق الشعب، وعلى حرية التدين بدلاً من الإلتزام بالكاثوليكية، وعلى الحرية الشخصية عوضاً عن التقيد بأخلاق الدين، وعلى دستور من وضع المفكرين لا من قرارات الكنيسة.

وقامت الثورة بأعمال غريبة عـلى عصرهـا، حيث سرحت الرهبان والراهبات، وصادرت أموال الكنيسة، وألغت كل امتيازاتها، وحاربت العقائد الدينية علناً، وحلت الجماعات الدينية. وأصبح رجال الدين موظفين مدنيين لدى الثورة، واتجهت إلى العقل بالعبادة، وفتنت بالعلم وفنونه(١٢١).

وقد سارت الثورة الصناعية جنباً إلى جنب مع الثورة الفرنسية،

---

(١٢١) أنظر تاريخ أوروبا في العصر الحديث فشر الفصل الأول.

حيث أطلقت للفرد الحرية في التفكير والاختراع والعمل، الذي كان من شأنه قلب نظم الإنتاج القديمة رأساً على عقب، ونتج عن هاتين الثورتين العظيمتين في حياة أوروبا التركيز على الفرد وحريته.

يقول شيخنا الأستاذ محمد قطب في معرض حديثه عن الفرد الأوروبي في القرون الوسطى، وعن الظلم الذي مارسته الكنيسة عليه باسم الدين، وعن ظلم الاقطاعيين للأفراد: «وكان على الناس أن يزيحوا عن كاهلهم ما يرزحون تحته من أثقال. أول ثقل بدأوا يزحزحونه هو الكنيسة ورجال الدين. وهنا دخلت «عبادة الطبيعة» مهرباً من الكنيسة وإلٰهها المتجبر الذي تحكم باسمه الناس، ومحاولة لإقامة «عبادة» جديدة، يلتقي فيها العابد والمعبود مباشرة بلا وسيط.

«ثم أخذوا يزيحون ثقل الإقطاع بما يشمله من طبقة الأشراف، وكانت الثورة الفرنسية جماع هذه الثورة التي أطاحت بالملكية ورجال الاقطاع، على الطريقة الأوروبية، أو على الطريقة الفرنسية: المقصلة وقطع الرقاب. وبدأ الفرد يحس بكيانه ولكنه ــ في هذه الجاهلية التي لا تعرف الله ــ لم يكن يتوقع له أن يحس بكيانه على اهتداء، إنه ــ مثلاً ــ لم يسع إلى الاتصال المباشر بخالقه بغير وساطة الكاهن، وإنما أدار ظهره للكنيسة بكل ما تحمله من كهنة وقسس وإله.

ولم يحاول أن يفرز التقاليد السارية في مجتمعه، فيرى ما كان منها ذا قيمة باقية، فيقوم بأدائه عن إيمان، فتكون له الشخصية المتميزة في هذا الاداء ــ وإنما أدار ظهره لمجموعة الأخلاق والتقاليد في عصره، على أنها شيء بائد... لا بد أن يبيد. وهكذا لم يتعقل في ثورته المجنونة. لقد كان ــ في هياجه ــ يلقي كل شيء لينطلق خفيفاً من الأثقال...

«ثم كان الانقلاب الصناعي، الذي أتى على بقية ما كان من

بنيان. لقد أحدث هذا الانقلاب تغييراً كاملاً في صورة المجتمع ــ في كل شيء فيه ــ، وكان عاملاً من أهم العوامل في التركيز على فردية الانسان. . . ».

«لقد جاء العمال من المدينة فرادى. . . غير متعارفين ولا مترابطين. وسكنوا في المدينة كذلك فرادى. لا يلتقون إلا في زمالة العمل وحده. ولكن لا تقوم بينهم الروابط التي كانت تقوم بين الفلاح وأخيه في الريف، حيث الناس متعارفون، متعاونون، تربطهم القرابة والمصاهرة والجوار، ودوام الاتصال، والتقاليد المشتركة التي توحد كيانهم من الداخل، فيلتقون متعارفين بالمشاعر والأفكار».

«بل إنهم جاؤوا فرادى بلا أسر. فقد كان الجيل الأول من العمال النازحين من الريف، يتحسسون الطريق في المدينة، فلا يحضرون معهم أسرهم حتى يطمئنوا أولاً إلى الجو الذي يعيشون فيه. وكان معظمهم من الشباب العزاب الذين لم يرتبطوا بعد برباط الزواج».

«وهكذا أحس كل إنسان في المدينة بفرديته المتميزة، أكثر مما أحس بالرباط الجمعي. ثم عملت المرأة. . . وأحست كذلك بفرديتها»[١٢٢].

سيادة الطبيعة:

إنتهى عصر التنوير بانتهاء القرن الثامن عشر. وابتدأ عصر جديد من عصور الفكر الأوروبي في بداية القرن التاسع عشر، حيث تميز هذا القرن بفلسفة خاصة به، وهي سيادة الطبيعة على الدين

(١٢٢) جاهلية القرن العشرين، ص ١٢٠ ــ ١٢١.

والعقل، واستقلال الواقع كمصدر للمعرفة اليقينية مقابل الـدين والعقل.

وقد قامت هذه الفلسفة التي تدعو إلى سيادة الطبيعة. إن لم نقل عبادتها ــ في جو معين، حيث تولدت الرغبة في نفوس كثير من العلماء والفلاسفة لمعارضة الكنيسة التي كانت تملك نوعاً خاصاً من المعرفة، التي كانت تستغل بمعرفتها الخاصة بها معارضة خصومها. والمقصود بمعرفة الكنيسة هي المعرفة الدينية، فقام فريق من العلماء والفلاسفة بمعارضة الكنيسة ومعرفتها الخاصة معارضة قوية، وشنوا هجوماً عنيفاً عليها باسم العلم. أضف إلى ذلك أن هؤلاء العلماء والفلاسفة اعتبروا فلسفة عصر التنوير فلسفة فاشلة، لم تحقق الهدف المطلوب منها، وهو إبعاد التوجيه الكنسـي كلية عن توجيه الإنسان وتنظيم الجماعة الإنسانية، حيث مالت الفلسفة المثالية إلى تـأييد الـدين والوحي من جديد على عهد هيجل، بعد أن شكك «كانت» بالمعارف الدينية. وقد قامت هذه الفلسفة الوضعية على أساس خاص بها، وهو تقدير الطبيعة وحدها كمصدر للمعرفة اليقينية.

يقول الدكتور محمد البهي: «ومعنى تقديرها للطبيعة على هذا النحو، أن الطبيعة ــ في نظرها ــ هي التي تنقش الحقيقة في ذهن الإنسان، وهي التي توحي بها وترسم معالمها الواضحة. هي التي تكون عقل الإنسان، والإنسان ــ لهذا ــ لا يملى عليـه من خارج الطبيعة، أي لا يملى عليه مما وراءها، كما لا يملى عليه من ذاته الخاصة. إذ ما يأتي من (ما وراء الطبيعـة) خداع للحقيقـة، وليست حقيقة أيضاً!!.

«وبناء على ذلك: يكون (الدين) ــ وهو وحي (أي ما بعد الطبيعة) ــ خداع! وهو وحي ذلك الموجود الذي لا يحده ولا يمثله

كائن من كائنات الطبيعة، هو وحي الله الخارج عن هذه الطبيعة كلية . . .

«وكذلك (المثالية العقلية) وهم لا يتصل بحقيقة هذا الوجود الطبيعي، إذن هي تصورات الإنسان من نفسه، من غير أن يستلهم فيها الطبيعة المنثورة التي يعيش فيها وتدور حوله.

«إن عقل الإنسان في منطق هذه الفلسفة ـ أي ما فيه من معرفة ـ وليد الطبيعة التي تتمثل في الوراثة والبيئة والحياة الاقتصادية والاجتماعية. إنه مخلوق ولكن خالقه الوجود الحسي . . . إنه يفكر، ولكن عن تفاعل مع الوجود المحيط به . . . إنه مقيد مجبر، وصانع القيد والجبر هو حياته المادية. ليس هناك عقل سابق على الوجود المادي، كما أنه ليست هناك معرفة سابقة للإنسان عن طريق الوحي . . . عقل الإنسان ومعرفته يوجدان تبعاً لوجود الانسان المادي . . . هما إنطباع لحياته الحسية المادية التي يتنفسها»[١٢٣].

والفرد في هذه الفلسفة ليس غاية، وحياته التي يعيشها ليست هدفاً لسعيه، إنما غايته الأخيرة التي يجب أن يسعى إليها هي الجماعة، حيث أن طريق الإنسان في حياته الطبيعية تبدأ من الفرد، وتنتهي بالجماعة. ومنطق الطبيعة وحده هو الذي يرسم الطريق المستقيم في حياة الانسان ـ كما يزعمون ـ. وقد ناصر هذه الفلسفة الوضعية علماء ومفكرون. روجوا لها بين الناس، فانتشرت في أوروبا على يدهم وكانت من أعظم الممهدات لفلسفة ماركس المادية وأهم هؤلاء العلماء هم:

(١٢٣) الفكر الإسلامي الحديث، ص ٣٤٣ ـ ٣٤٤.

أوجست كومت:

يعتبر كومت في مقدمة بناة الفلسفة الوضعية. دعا إلى الإصلاح الشامل للجماعة الإنسانية، وحمّل استقلال الأفراد والبحث الحر، واستقلال الإتجاه في الحياة، مسؤولية ماينتج عن الحرية والاستقلال من فرض الآراء والأحوال العامة. وينطلق في فلسفته لإصلاح الجماعة من العلم، ويدعو إلى سيادة العلم على كل شيء.

يقول الدكتور محمد البهي: «والفلسفة الوضعية أو الواقعية التي يجب أن يقام عليها نظام الجماعة الجديد، ليست سوى النظام المنظم للعلم الواقعي نفسه. ونظام العلم الواقعي يقوم على أن (المعرفة الانسانية) تستند إلى علاقات الظواهر بعضها ببعض، وأنه ليس هناك في دائرة المعرفة (مطلق) يجعل أساساً لمجهول. والمبدأ المطلق الوحيد الذي له اعتبار عام: هو أن كل شيء نسبي... وإذن ليس هناك فائدة من الحديث عن الأحوال والعلل الأولى للوجود، ولا عن أهدافها الأخيرة وهي معرفة الميتافيزيقا والدين»[١٢٤].

والتاريخ الذي استخدمه كومت، هو تاريخ المعرفة اليونانية، فقد كانت معرفة الإنسان قبل الفلسفة الاغريقية ذات طابع ديني، ثم أصبحت المعرفة فلسفة عقلية على عهد سقراط وأفلاطون وغيرهما، ثم مالت المعرفة إلى التجربة والواقع على عهد أرسطو، ثم ابتدأت دورة جديدة، فقد كانت المعرفة في القرون الوسطى، دينية، ثم صارت عقلية في عصر التنوير، ثم قوي الميل إلى اعتبار المعرفة الحسية أو الوضعية وحدها، دون العقل والدين معاً في القرن التاسع عشر.

---

(١٢٤) نفس المصدر، ص ٣٤٦.

فورباخ:

هو ثاني الفلاسفة المقدمين في الفلسفة الوضعية. وهو ثمرة من ثمرات الفكر المادي، الذي ساد في القرن التاسع عشر الذي اشتد فيه الجدل ضد الدين النصراني على وجه الخصوص، وضد المثالية العقلية.

وهو يرى أن الفلسفة هي علم الواقع في حقيقته وفي عمومه، وجوهر الواقع هو الطبيعة الشاملة التي تدرك بطريق الحواس. وعنده أن الحقيقة والواقع والحس كلها سواء. وليست الحقيقة هي المادية، ولا هي المثالية النظرية، ولا هي علم الطبيعة، ولا علم النفس، هي علم الإنسان فقط.

وفي نظره من جانب آخر، أن علم الانسان أيضاً هو الدين، والدين إذن محصول للعقل الإنساني، وليس موحى به من خارج الإنسان.

والطبيعة الإلهية كذلك هي طبيعة الإنسان نفسه، التي تجردت من قيود الفردية والشخصية ـ أي قيود الإنسان الواقعي الجسمي ـ هي الإنسانية. هذه الطبيعة الإنسانية المتجردة ينظر إليها في احترام وخشية وقدسية، على أنها شيء آخر مقابل لطبيعة الانسان الفردية. والله بالنسبة للإنسان هو كتاب جامع لإحساسات الإنسان العالية وأفكاره وآماله، وفي نظره أيضاً أن الحياة الأخروية ليست شيئاً آخر غير هذه الحياة الإنسانية ـ على اعتباره أن الله ليس شيئاً آخر غير الإنسان إذا كان حكيماً عادلاً خيراً ـ لكن بعد أن ينظر إليها نظرة مثالية، والفجوة القديمة ـ على نحو ما تصور الأديان ـ بين هذه الحياة والحياة الأخرى، يجب أن تزول، كي تركز الإنسانية نفسها بنفس غير مشتتة، وقلب موحد في عالمها المشاهد، وفي حاضرها القائم، وعن

طريق هذا التركيز غير الموزع في العالم الواقعي فقط، تقوم حياة جديدة للإنسان، وتنتج أعمال وتأملات كثيرة، وينشأ عظماء من الناس.

ويمضي قائلاً، وإذا انقطع إيماننا أو تصديقنا بحياة أفضل في الآخرة، وأردنا مع ذلك من غير تفرق إيجاد حياة أفضل، فسنخلق أيضاً حياة أفضل. ولكن لكي نريد هذا ونريد أن نحققه، يجب أن نضع مكان محبة الله محبة الإنسان كدين وحيد حق، وأن نضع مكان الإيمان بالله الإيمان بالإنسان نفسه، وبإمكانياته الخاصة، وبعظمته... الإيمان بأن تقرير المصير للإنسانية ليس من طبيعة خارجة عنها أو فوقها، وإنما يرتبط بها نفسها تمام الإرتباط[١٢٥].

دارون:

تعتبر نظرية دارون من أكبر الأحداث التي هزت العقيدة الأوروبية، ورجتها رجاً عنيفاً، حيث جاء دارون يقول: إنه لا يوجد شيء ثابت على وجه الأرض لا إنسان ولا الحيوان ولا النبات، وليس هناك قصد ثابت على الاطلاق في الخليقة، والطبيعة الخالقة لم تقصد خلق الإنسان، وإنما هو جاء نتيجة لعملية التطور البطيئة التي استغرقت ملايين السنين، والإنسان كان في منشئه حيوانا.

يقول شيخنا الأستاذ محمد قطب في معرض حديثه عن آثار نظرية دارون:

«أول نتائجها زلزلة الإيمان بالله وبالعقيدة. وثاني نتائجها زلزلة الايمان بالإنسانية والإنسان ورفعته وسموه وروحانيته.

(١٢٥) أنظر الفكر الاسلامي الحديث، ص ٣٥٠ ـ ٣٥٢ تاريخ الفلسفة الحديثة يوسف كرم، ص ٢٤٠.

وثالث نتائجها زلزلة الإيمان بثبات أي نظام من النظم، أو قيمة من القيم، أو فكرة من الأفكار. ورابع وخامس وسادس ـ زلزلة كل شيء كان راكزاً من قبل، وتحطيم كل بنيان راسخ الأساس.

«فكرة الله الخالق، المريد المدبر ذي القصد، لقيت أول زلزلة مباشرة على يد دارون في قضية خلق الإنسان، حيث نفى دارون القصد، ونفى الخلق المباشر للانسان بيد الله، وأرجعه إلى عملية التطور، ونفى أن ثمة شيئاً في كيان الإنسان يمكن أن يكون «نفخة الله في روحه». إذ قرر على سبيل الجزم الحيوانية المطلقة لأصل الإنسان»[126].

هذا وقد كان لهذه النظرية أثر كبير في تعميق الفكر المادي في أوروبا، كما أثرت على فكر ماركس على وجه الخصوص. وسوف نتعرض لهذه النظرية وايحاءاتها وصلتها بالتفسير المادي للتاريخ في فصل مستقل باذن الله تعالى.

بداية ظهور الإشتراكية:

على أثر الانقلاب الصناعي الذي حدث في أوروبا، واتساع نطاق التجارة، واتساع دائرة الاستعمار الأوربي، حدث انقلاب هائل في نظام الهيئة الاجتماعية، نتج عنه ظهور البطالة في الأعمال اليدوية. وقد قاوم العمال اليدويون حياة العمال في المصانع، وقاومت الحكومة حركات العمال. ومع مضي الزمن دخلت المرأة والأولاد إلى المصانع وأصبحت البضائع التي تنتجها المصانع تباع بكلفة أقل من البضائع

---

(١٢٦) معركة التقاليد ص ١٥ ـ ١٦.

التي تنتج عن طريق الأعمال اليدوية، وكثر الطلب على إنتاج المصانع، وأصبح أصحاب المصانع والأعمال يستغلون العمال في الليل والنهار، لزيادة كمية الإنتاج، على الرغم من قلة الأجور وعدم كفايتها. والعمال بحاجة إلى الرعاية الصحية في كل وقت، وقد نسي أو تناسى أصحاب المصانع الرعاية الصحية لعمالهم ولم يهتموا بمشاكلهم. وقد ترتب على هذا الإهمال مشكلة العمل والعمال، وارتفعت الأصوات بالمطالبة بتحديد ساعات العمل، وتأمين الرعاية الصحية للعمال وأسرهم، وزيادة أجورهم. وهنا بدأ الفكر الاجتماعي يأخذ طريقه ويفرض نفسه كمشكلة تطالب بحل.

يقول الدكتور رؤوف شلبي: «ولا يعرف على وجه التحديد أول من استعمل لفظ اشتراكي أو اشتراكية، غير أن أول ظهور هاتين الكلمتين مطبوعتين كان في إيطاليا سنة ١٨٠٣ م ولكن مدلولهما يخالف المدلول الحالي. وذلك أن كلمة (Sosialsm) مشتقة من (Sosia) ومعناها إجتماعي، والأفكار التي كانت تدور في القرنين الماضيين كانت حول المشكلة الإجتماعية، ولم يعثر لهاتين الكلمتين بعد ذلك على أثر إلا في عام١٨٣٢ م في مجلة التعاون، التي كان يصدرها أنصار أحد الرواد الثلاثة روبرت أوين. وكانت دلالتها على المباديء التعاونية التي دعا إليها لإصلاح حالة العمال»[١٢٧].

فكلمة إشتراكي في بداية أمرها تعني قضية النظم الاجتماعية المختلفة، التي كانت شعوب اوروبا تناضل من أجلها في مواجهة الاضطرابات الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية.

---

(١٢٧) التضليل الماركسي، ص ٣٨ ــ ٣٩.

رواد الإشتراكية الأوائل:

وأشهر من تصدى لهذا العمل ثلاثة رواد هم:

سان سيمون، وشارل فورييه، وروبرت أوين. وقد اتفق هؤلاء الرواد كما يقول كول على ما يلي:

«يتفق سان سيمون وفورييه وأوين، رغم اختلافاتهم العديدة في اتجاه إجتماعي أساساً، وقد كان ذلك صحيحاً بثلاثة معان مختلفة، وإن كان بعضها متصلاً بالبعض الآخر.

ففي المكان الأول: كان المفكرون الثلاثة يعتبرون المشكلة الاجتماعية أهم المشاكل إلى حد بعيد. وأصروا على أن واجب الرجال الصالحين هو أن يعملوا على دعم السعادة والرفاهية العامتين.

وثانياً: ذهب الثلاثة إلى أن هذه المهمة لا تتفق مع استمرار أي نظام يقوم على الصراع التنافسي بين الإنسان والانسان، من أجل وسائل الحياة، أو يشجع هذا الصراع.

ثالثاً: كان الثلاثة ينظرون بريبة عميقة إلى السياسة والسياسيين. واعتقدوا أن الإشراف على الشؤون الاجتماعية مستقبلاً، يجب أن يكون للمنتجين وليس للبرلمانات أو الوزراء.

وأنه إذا أمكن تنظيم الجوانب الاقتصادية والاجتماعية، تنظيماً سليماً، فإن صور الحكم التقليدية، والتنظيم السياسي، سرعان ما يستبدل بغيره، ويحل عالم جديد من التعاون والسلام»[١٢٨].

خاتمة البحث:

من خلال البحث في الظروف التي مهدت لانتشار التفكير

---

(١٢٨) نفس المصدر، ص ٦٠ ــ ٦١.
نقلاً عن تاريخ الفكر الإشتراكي راشد البراوي، ص ١٠ ــ ١١.

المادي في أوروبا، وجدت أن التحريف الذي وقع في الدين النصراني على يد الكنيسة كان من أهم الأسباب التي جعلت معظم الناس في أوروبا يتخلون عن الدين، لأن أوروبا لم تعرف الدين الصحيح المنزل من عند الله كما وضحنا ذلك سابقاً. ولم تستفد من علوم المسلمين واحتكاكها بهم لتصل إلى طريق الرشد، وإنما خاصمت الاسلام، وصدت الناس عن إتباع تعاليمه. وقامت نهضة أوروبا على أساس غير ديني، قامت على أساس مادي لا يؤمن إلا بما تدركه الحواس(١٢٩).

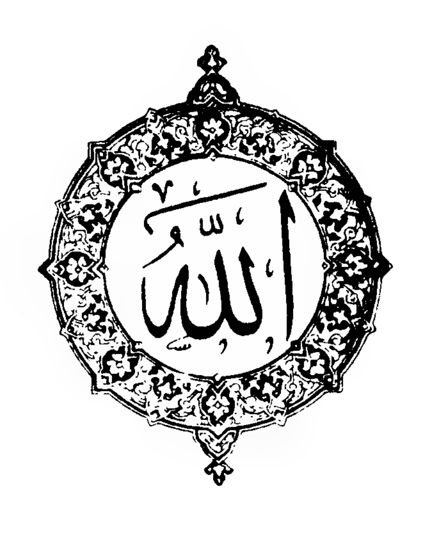
لهذا نجد أن كارل ماركس لم يكن هو الذي ابتدع الفكر المادي، وإنما كان لهذاالفكر مقدمات سبقت ظهور ماركس بقرون عديدة، كما وضحت ذلك في تتبع مراحل التفكير في أوروبا.

وإن كان لماركس من أثر على الفكر المادي، فإنما يكمن في تعميق هذا الفكر ونشره. فماركس يلغي أي تفكير غير مادي، والتفكير بشيء غيبي في نظره خطأ وضلال. وقد نشر هذا الفكر المادي على جميع نواحي الحياة، فالدين مادي، والإنسان مادي، والحياة مادة ولا شيء في نظره إلا وأصله مادي وراجع إلى المادة.

---

(١٢٩) وأرى كذلك أن تقاعس المسلمين عن الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى. وتبليغ الاسلام لأوروبا في بداية مايسمى بعصر النهضة من الأسباب التي ساعدت على انتشار التفكير المادي في أوروبا.

ملاحظة من فضيلة الشيخ الغزالي في المناقشة.


الله

الباب الأول

عرض نظرية ماركس للتفسير المادّي للتّاريخ من وجهة نظر أصحابها

الفصل الأول: المادة سابقة في الوجود على الفكر.
الفصل الثاني: قوانين المادة.
الفصل الثالث: أثر نظرية دارون على التفسير المادي للتاريخ.
الفصل الرابع: مراحل التطور في التاريخ وحتمياته.
الفصل الخامس: التفسير المادي للتاريخ والدين.
الفصل السادس: التفسير المادي للتاريخ والأخلاق.
الفصل السابع: التفسير المادي للتاريخ والشخصيات البارزة في التاريخ.
الفصل الثامن: التفسير المادي للتاريخ والأسرة.

عرض موجز للتفسير المادّي للتاريخ

في هذا الباب أكتفي بعرض النظرية من وجهة نظر أصحابها، مستشهداً بنصوص من كتبهم. وأوضح هذه النصوص وما يترتب عليها من أحكام، حسب وجهة نظر أصحابها دون مناقشة لهم إلا بما تقتضيه ضرورة البحث.

ولا بد لي في بداية هذا الباب من بيان موجز لأهم الأفكار التي بني عليها التفسير المادي للتاريخ، ليتكون عند القاريء فكرة مبسطة عن الموضوع يستطيع من خلالها متابعة جزئيات البحث.

يقول الماديون: إن التفسير المادي للتاريخ جزء لا يتجزأ من الفلسفة الماركسية. ويبحث في دراسة التشكيلات الاجتماعية والاقتصادية في التاريخ البشري. ويوضح تمايز بعض مراحل التاريخ عن بعض المراحل الأخرى على ضوء ظروف هذا المجتمع الاقتصادية أو ذاك. ويدرس التفسير المادي للتاريخ كذلك شروط حياة المجتمع المادية. وهي الطبيعة أو الوسط الجغرافي، وازدياد نمو السكان والعامل الأساسي وهو أسلوب الإنتاج.

وهذه الشروط لحياة المجتمع المادية، هي التي تحدد في النهاية

هيئة المجتمع وآراءه وأفكاره وأوضاعه السياسية والقانونية والدينية والأخلاقية . . . إلخ .

(أ) **الوسط الجغرافي :**

هو أحد الشروط الضرورية الدائمة لحياة المجتمع المادية. ولكنه ليس القوة الأساسية التي تحدد في النهاية هيئة المجتمع وتعين نظام الناس، ووظيفته أنه قد يعجل أو يبطيء سير التطور، وذلك لأن تطور المجتمع وتغيره يجري بصورة أسرع بكثير من تطور الوسط الجغرافي وتغيراته .

(ب) **نمو السكان وكثافتهم :**

وهذا لا يكوّن القوة الأساسية التي تحدد هيئة المجتمع وبنيانه أيضاً، وإن كان وجود السكان أمراً لا بد منه لأنه لا يمكن أن تكون هناك حياة مادية في المجتمع بدون وجود حد أدنى من الأفراد في المجتمع .

(ج) **القوة الأساسية في تطوير المجتمع هي أسلوب الإنتاج :**

وأسلوب الإنتاج هو: كما يعرفه أصحاب المادية التاريخية «وحدة قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج، أي وحدة جانبي الإنتاج المعبرين عن نوعين من العلاقات: علاقة الانسان بالطبيعة، وعلاقة الانسان بالانسان»[1] .

وأسلوب الإنتاج هو الذي يحدد طابع النظام الاجتماعي، وهيئة المجتمع. وقوى الإنتاج تعبر عن علاقة الناس بالطبيعة ومدى سيطرتهم عليها. وتقوم بين الناس وأدوات الإنتاج وحدة قوية لأنه لا يمكن فصل الناس عن أدوات الإنتاج .

---

(١) المادية التاريخية: ص ٤٩ .

وبفضل هذه الوحدة «تقوم أدوات الإنتاج بتحديد علاقة الانسان الخاصة بالطبيعة، مع أنها هي ذاتها من نتاج عمل الانسان الفكري، وتكشف عن مدى تطور الانسان والمجتمع كله.

إن الانسان يتكيف مع وسائل العمل المتوفرة في المجتمع ويغيرها وهو، إذ يقوم بتحسين وسائل العمل التي ينصبها بينه وبين الطبيعة، ويستخدمها في الإنتاج، يتغير هو أيضاً بدوره[٢]».

ولا بد من أسلوب لإنتاج الحاجات الضرورية لحياة الناس، كالمأكل والملبس والمسكن والوقود وأدوات الإنتاج.

هذه الحاجات الضرورية لا بد منها. ومن أجل الحصول عليها لا بد من إنتاجها، ولأجل إنتاجها لا بد من أدوات الإنتاج. وهذه الأدوات لا بد من معرفة كيفية استخدامها.

هذه العناصر تؤلف جانباً واحداً من أسلوب الإنتاج، الذي يعبر عن سلوك الناس نحو أشياء الطبيعة وقواها، التي تستخدم لإنتاج الحاجات المادية.

أما الجانب الثاني لأسلوب الإنتاج، فهو علاقات الإنتاج من الناحية البشرية؛ أي فيما بين الناس بعضهم بعض.

فالناس وهم يناضلون مع الطبيعة التي يستثمرونها، لإنتاج حاجاتهم المادية، ليسوا منفردين بعضهم عن بعض، بل ينتجون جماعياً. ومن هنا كان الإنتاج جماعياً وليس فردياً.

والأساس في علاقة الإنتاج هو ملكية وسائل الإنتاج، وملكية وسائل الإنتاج تحدد نوعية الملكية سواءً كانت خاصة أم جماعية. فإن

---

(٢) نفس المصدر، ص ٥٥.

كانت وسائل الإنتاج ملكية جماعية، كانت الملكية جماعية. وإن كانت هذه الوسائل بيد أفراد قليلين، كانت الملكية خاصة.

يقول الماديون: إن التاريخ البشري قد سجل خمسة أطوار إجتماعية حتمية الوقوع لعلاقات الإنتاج وهي:

المشاعية البدائية، والرق، والاقطاع، والرأسمالية، والشيوعية الثانية.

هذه التشكيلات الاجتماعية تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: وهو التشكيلات المتناقضة: وهي الرق، والاقطاع، والرأسمالية وأساس التجمع بينها أنها قائمة على أساس الاستعباد، وسيطرة الانسان على الانسان. وهذا الظلم نتيجة حتمية للملكية الخاصة على حد تعبيرهم. القسم الثاني: التشكيلات غير المتناقضة وهي المشاعية البدائية، والشيوعية الثانية، التي هي أعلى مرحلة من مراحل تطور المجتمع كما يزعمون. وأساس التجمع بينهما أنهما قائمتان على اللاطبقية، القائمة على علاقات المساواة والتضامن. وعندهم أن الانتقال من طور إلى طور حتمي الوقوع أولاً، وراجع إلى أسباب اقتصادية ثانياً.

وصراع المتناقضات في المجتمع، بين قوى الإنتاج، وعلاقة الإنتاج بين الطبقات المستغلة والطبقات المستغلة، هو وحده الفعّال في التطور الاقتصادي والبشري، بادئاً من الشيوعية البدائية، ومنتهياً بالشيوعية الثانية.

وعند الانتقال من طور إلى طور تكون المرحلة الجديدة في هذا الانتقال أحسن من سابقتها، وينشأ هذا التطور عن التناقض الداخلي في النظام القائم حين تتغير وسائل الإنتاج. وأهم ما في هذا التفسير أن كل تطور من هذه الأطوار الحتمية تصاحبه عقائد وأفكار وقيم وأخلاق

صادرة عن الوضع الاقتصادي، لأن الوضع الاقتصادي هو المحدد للأوضاع الدينية والسياسية والاجتماعية والأخلاقية والقانونية والفكرية وغيرها، وأن هذه العقائد والأفكار والبقية الباقية من الايديولوجيا تتطور حتمياً مع تغير الوضع الاقتصادي، وأن كل أسباب التطورات البشرية محصورة في تغير وسائل الإنتاج وعلاقاته.

هذه الفلسفة المادية لا تؤمن إلا بالمادة، لأن العالم مادي ولا شيء غير المادة، ولا وجود لعالم غيبي لأنه وهم وخرافة، ولا مجال لمشيئة الله في خط سير البشرية.

والمادة هي الأصل، والفكر نتاجها، وهي سابقة في الوجود عليه. وبالتالي فالأساس الاقتصادي هو أساس كل شيء، أساس كل تغير، أساس كل عقيدة وأخلاق وقيم وأفكار، وهذه متطورة على الدوام ولا تثبت على حال واحدة.

وبناءً على دراستهم للمجتمع، فإن التفسير المادي للتاريخ عندهم. هو التفسير العلمي الصحيح، ولأول مرة في التاريخ، لتفرده في دراسة المجتمع البشري دراسة علمية، وهذا ما يميزه عن الدراسات الاجتماعية الأخرى.

يقول أصحاب المادية التاريخية: «إن الحل الذي تقدمه المادية التاريخية للمسألة الأساسية في الفلسفة، بالنسبة للمجتمع ليس وحدانياً وحسب، وإنما هو أيضاً الحل العلمي الصحيح لأول مرة في التاريخ»[٣].

ويقول جورج بولتيزر: «كما أن الفلسفة الماركسية نظرة علمية للعالم، وهي النظرة الوحيدة العلمية، أي التي تتفق وتعاليم العلوم،

---

(٣) المادية التاريخية: ص ٦.

فما هي هذه العلوم؟ تعلمنا العلوم أن الكون حقيقة مادية، وأن الإنسان ليس غريباً على هذه الحقيقة وأنه يمكنه معرفتها ثم تغييرها كما تدل على ذلك النتائج العلمية التي توصلت إليها مختلف العلوم»[٤].

ومقتضى كلامهم أن نظريتهم اكتسبت صفة العلمية وأنها الوحيدة من بين الدراسات الاجتماعِية في تاريخ البشرية التي تميزت بهذه الخاصية لأنها نظرية مادية صرفة، هذه النظرة المادية تتفق وتعاليم العلوم التي تقول بأن الكون حقيقة مادية. وبناءً على هذه النظرة العلمية عندهم فإن المادة هي الحقيقة الوحيدة في هذا الكون، ولها قوانينها الحتمية، والانسان قادر على التغيير في الكون المادي.

وبناءً على ما تقدم نأتي على تعريف المادية التاريخية عند أصحابها يقول سبركين وياخوت: «هي العلم الفلسفي الخاص بعلاقة الوعي الاجتماعي بالوجود الاجتماعي، وبأكثر القوانين عمومية، والقوى المحركة لتطور المجتمع البشري. هي نظرية عامة وأسلوب للمعرفة العلمية للمجتمع وتحويله»[٥].

إذن فالمادية التاريخية فلسفة خاصة تبين العلاقة بين الوعي الاجتماعي والوجود الاجتماعي.

والوعي الاجتماعي هو الأفكار الاجتماعية الجديدة والمؤسسات. وهذا الوعي تابع للوجود الإجتماعي والوجود الإجتماعي يؤثر فيه ويغيره. والوجود الإجتماعي هو حياة المجتمع المادية، والعلاقات القائمة بين الناس والطبيعة، وبين أنفسهم.

وتبين المادية التاريخية كذلك العلاقة القوية بين الوعي الاجتماعي والقوى المحركة للإنتاج.

---

(٤) أصول الفلسفة الماركسية: ج ١، ص ١٤.

(٥) أسس المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية، ص ١٢٢.

والقوى المحركة للإنتاج هم الأفراد، وخبـراتهم الإنتاجيـة، وأدوات العمل، وأثر ذلك على تطور المجتمع وتحويله من طور إلى طور. وبناءً على ذلك فسر التاريخ عندهم ـ لأول مرة ـ على أنه عملية طبيعية للتطور، أي على أنه التبدل الحتمي لمختلف التكوينات الاجتماعية. والمقصود من هذه التكوينات الاجتماعية: الأطوار التي انتقلت فيها البشرية من المشاعية البدائية، والتي ستنتهي فيها عند الشيوعية الثانية.

ويلزم من هذا التعريف للمادية التاريخية أن الوعي الاجتماعي يتغير بتغير الوجود الاجتمـاعي. إذن فالعقـائد والأخـلاق والقيم والأفكار، تتغير تبعاً لتغير وجودها الاجتماعي السابق عليها. وهم ينطلقون من قاعدة مفادها أنهم بهذا الربط المحكم، بين الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي، حازوا قصب السابق ـ ولأول مرة ـ في تاريخ البشرية، حيث جاء تفسيرهم المادي للتاريخ بفلسفة علمية صحيحة تفسر حياة البشرية وتاريخها. وقد استشهدنا بموضع سابق بنصوص أوردها الماديون حول هذا الزعم.

وبما أن المادية التاريخية جزء لا يتجزأ من الفلسفة الماركسية، فقد طبق الماركسيون قوانين المادية الديالكتيكية على حوادث التاريـخ. وسوف نعرض بشكل مبسط لمفهوم الجدل والديالكتيك، ونثبت الصلة القوية بين المادية التاريخية والمادية الجدلية أو الديالكتيكية.

صلة المادية التاريخية بالمادية الجدلية

يعترف أصحاب التفسير المادي للتاريخ بالصلة القوية بين المادية التاريخية والمادية الجدلية. ولتوضيح هذه الصلة والاستشهاد عليها، لا بد من بيان موجز لمفهوم المادية الجدلية.

المادية الجدلية، الجدل في اللغة:

الجدل من «شدة الفتل» وجدلت الحبل ـ أجدله جدلاً ـ إذا شددت فتله وفتلته فتلاً محكماً»[٦].

«والجدل اللدد في الخصومة والقدرة عليها، وقد جادله مجادلة وجدالاً. ورجل جدل ومجدل ومجدال: شديد الجدل، ويقال جادلت الرجل فجدلته جدلاً أي غلبته. ورجل جدل إذا كان أقوى في الخصام.

وقد جاء ذكر الجدل في القرآن الكريم في عدة مواضع، منها قوله تعالى:

وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ[٧]

وقوله تعالى:

وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ[٨]

وغيرها[٩]. ولا جدال في الحج أي ولا مخاصمة في الحج.

وجادلهم بالتي هي أحسن «أي من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن وبرفق ولين وحسن خطاب»[١٠].

والجدلية معناها البحث والمناقشة ليصل المتناقشان إلى الحقيقة، وذلك عن طريق الكشف عن المتناقضات التي تنطوي على حجج المتنازعين. وفي هذا المعنى تقارب شديد مع المعنى اللغوي. وأول من

---

(٦) لسان العرب: ج ١١، ص ١٠٣.
(٧) النحل: ١٢٥.
(٨) البقرة: ١٩٧.
(٩) نفس المصدر، ص ١٠٥.
(١٠) تفسير القرآن العظيم، ج ٢، ص ٥٩١.

قال بأن المتناقضات موجودة في أصل كل شيء، ولها أهمية كبرى هو الفيلسوف هيجل.

. يقول كاريوهنت: «الجدلية إذن هي فكرة ونقيضها، ثم تآلف النقيضين. فالفكرة تؤيد القضية، والنقيض ينكرها أو ــ بتعبير هيجل ــ ينفيها. أما تآلف النقيضين فيحتضن ما هو حقيقي، الفكرة ونقيضها. وبهذا تقربنا خطوة نحو الحقيقة. ولكن طالما يتعرض تآلف النقيضين إلى فحص أدق، نجدها هي أيضاً ناقصة. وهكذا تعود العملية فتبدأ من جديد بفكرة أخرى، بنفيها ونقيضها، ثم يجري التوفيق بينهما بتآلف جديد للنقيضين.

وبهذه الطريقة المثلثة يمضي الفكر حتى يصل في النهاية إلى المطلق. وعندئذٍ يمكننا أن نواصل التفكير إلى ما لا نهاية، دون أن نشهد أي تناقض. وعلى هذا يطلق إصطلاح الجدلية على عملية التنازع والتوفيق التي تجري ضمن الواقع ذاته، وداخل الفكر البشري بشأن الواقع»(١١).

أما ماركس فقد انطلق في جدليته من المادة. وعاب على هيجل الذي يقول إن حركة الفكر هي مبدعة الواقع، وهي المرجع الأخير والأساس، ولقوله أيضاً بالعقل الكلي، أي الوجود المطلق خلف المادة. ويقصد به الله. وقال ماركس إن منهجه الجدلي يختلف عن منهج هيجل إبتداءً من الأساس.

يقول ماركس: «لا يختلف منهجي الجدلي في الأساس عن منهج هيجل فقط، بل هو نقيضه تماماً إذ يعتقد هيجل أن حركة الفكر التي يجسدها بإسم الفكرة، هي مبدعة الواقع الذي ليس هو سوى الصورة

---

(١١) الشيوعية نظرياً وعملياً كاريوهنت: ص ٢٨.

الظاهرية للفكرة. أما أنا فأعتقد على العكس، أن حركة الفكر ليست سوى انعكاس حركة الواقع، وقد انتقلت إلى ذهن الإنسان»[١٢].

ما هو الديالكتيك؟

يقول ستالين: «أخذت كلمة ديالكتيك من الكلمة اليونانية «ديااليغو»، ومعناها المحادثة والمجادلة، وكان الديالكتيك يعني في عهد الأولين؛ فن الوصول إلى الحقيقة باكتشاف التناقضات التي يتضمنها إستدلال الخصم، وبالتغلب عليها.

«وكان بعض الفلاسفة الأولين يعتبرون أن اكتشاف تناقضات الفكر والمصادمة بين الآراء، هما خير وسيلة لاكتشاف الحقيقة. فهذا الأسلوب الديالكتيكي في التفكير، الذي طبق فيما بعد على حوادث الطبيعة، أصبح الطريقة الديالكتيكية لمعرفة الطبيعة.

«إن حوادث الطبيعة بموجب هذه النظرية، هي متحركة متغيرة دائماً وأبداً وتطور الطبيعة هو نتيجة تطور تناقضات الطبيعة نتيجة القوى المتضادة في الطبيعة»[١٣].

هذه الفلسفة الجدلية تبدأ من المادة في دراستها معتمدة على المنهج التجريبي وهي الفلسفة العلمية الوحيدة في قولهم، لأنها القادرة على تفسير جميع ظواهر الوجود تفسيراً حتمياً على حد تعبيرهم.

وبعد هذا البيان الموجز لمفهوم المادية الجدلية عند الماديين، أثبت الصلة بين المادية التاريخية والمادية الجدلية. يقول الماديون أن المادية التاريخية جزء لا يتجزأ من الفلسفة الماركسية. هذه الفلسفة العامة الشاملة، التي تنظر للكون والانسان والحياة نظرة مادية جدلية. وذلك

---

(١٢) أصول الفلسفة الماركسية: ج ١، ص ٣٦ نقلاً عن رأس المال، ج ١، ص ٢٩.

(١٣) المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية: ص ١٤ ــ ١٥.

بتصويرها لحوادث الطبيعة تصويراً مادياً، إنطلاقاً من نظرتها المادية إلى العالم والتي مفادها أن العالم مادي بطبيعته، ويتطور تبعاً لقوانين حركة المادة، وأن الكون والحياة والانسان مادة، تتطور تتطوراً ذاتياً، وأن حوادث العالم المتعددة هي مظاهر مختلفة لحركة المادة.

من هذا الأساس المادي، تفسر المادة التاريخية حياة البشر وتاريخهم. والمادية التاريخية تطبق هذه الأفكار المادية على حوادث الحياة والمجتمع وسير التاريخ البشري.

يقول لينين: «إن هذه الفلسفة الماركسية المسبوكة من قطعة فولاذية واحدة لا يمكن انتزاع أي منطلق أساسي منها، ولا أي جزء جوهري واحد، دون الخروج عن الحقيقة الموضوعية، ودون الوقوع في أحضان الدجل البرجوازي الرجعي»(١٤).

أي أن هذه الفلسفة العامة واحدة ولا يمكن عزل أي جزء جوهري منها عن سائر أجزائها. فلا يمكن فصل المادية التاريخية عن المادية الجدلية. ويقول أصحاب كتاب المادية التاريخية: «إن تحريف المادية الديالكتيكية يؤدي حتماً إلى تشويه المادية التاريخية. إن المادية التاريخية لا تتوافق مع أية فلسفة أخرى غير المادية الديالكتيكية. إن الاعتراف بالمادية التاريخية مع نكران المادية الديالكتيكية ليس إلا زيفاً خالصاً وسفسطة مقرفة»(١٥).

إذن فالمادية التاريخية لا تتوافق مع أية فلسفة أخرى غير المادية الديالكتيكية، وما ينطبق على إحداهما ينطبق على الأخرى، وذلك لاتحادهما في الأساس المادي.

---

(١٤) المادية التاريخية: ص١٣، نقلاً عن المؤلفات الكاملة، ج١٤، ص١٣٢.
(١٥) المادية التاريخية: ص١٣ ـ ١٤.

ولو أن المادية الديالكتيكية اعترفت بما وراء الطبيعة في الفكر والفلسفة، لانهار التفسير المادي للتاريخ، لأنه مبني على الأساس المادي. لذلك فإن الاعتراف بالمادية التاريخية دون القاعدة والأساس الذي قامت عليه ـ وهو الفلسفة المادية ـ هو في نظرهم تشويه لهذه النظرية المادية عن التاريخ والمجتمع. لأن أي نظام لا بد وأن يكون له قاعدة تصور ينطلق منها في سيره.

يقول أصحاب كتاب المادية التاريخية أيضاً: «إن المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية تظهران كعلم واحد، وكفلسفة متكاملة، فلا المادية التاريخية معقولة بدون المادية الديالكتيكية، ولا المادية الديالكتيكية ممكنة بدون المادية التاريخية، فبماذا نفسر ذلك؟.

«أولاً: بأنه لا يمكن وضع نظرة مادية ديالكتيكية عن العالم ككل، إذا لم يتوفر التفسير المادي للحياة الإجتماعية، إذا لم يكن قد اكتشف أن المجتمع هو أيضاً شكل لحركة المادة وخاضع في تطوره لقوانين موضوعية كقوانين الطبيعة. والمادية الديالكتيكية غير ممكنة بدون المادية التاريخية. ثانياً: لأن الإجابة العلمية الصحيحة عن المسألة الأساسية في الفلسفة حول أولوية المادة وثانوية الوعي. غير ممكنة بدورها، بدون توضيح سبب وكيفية ظهور الوعي الانساني، والدور الذي لعبه في ذلك التطبيق العملي الاجتماعي التاريخي للناس، إذ أن الإجابة عن هذا السؤال تقدمها المادية التاريخية»[١٦].

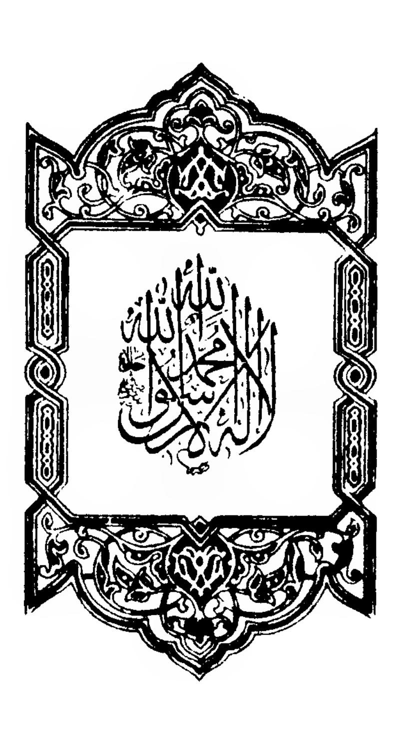
في هذا النص يوضحون سبب استحالة فصل المادية التاريخية عن المادية الديالكتيكية، لأنها يتمم بعضها بعضاً. لأن المادية الجدلية نظرة مادية للعالم ككل، وبما أن حياة المجتمع البشري جزء من العالم،

(١٦) نفس المصدر ص١٢.

فلا بد إذن من تفسيره تفسيراً مادياً حتى تصح نظريتهم الشاملة كما يقولون. ولو لم يفسر التاريخ البشري تفسيراً مادياً، لكانت نظريتهم للتفسير المادي للتاريخ ـ العلمية كما يزعمون ـ ناقصة، ويترتب على نقصانها عدم شمولها، وبالتالي عدم صحتها.

وبما أنهم يريدون تأكيد الأساس المادي الذي انطلقوا منه، وهو أسبقية المادة على الوعي والفكر، وبما أن الوعي والفكر ينطلقان من المجتمع البشري، والمجتمع في نظرهم شكل لحركة المادة، وخاضع في تطوره لقوانين موضوعية مادية كقوانين الطبيعة، فلا بد إذن من معرفة كيف ظهر هذا الوعي، وما هو الدور الذي أداه في التطبيق العملي الإجتماعي. وبما أن المادة هي الأساس عندهم. إذن فلا بد من تفسير الوعي على هذا الأساس تفسيراً مادياً.

والذي يترتب على كلامهم هذا، بناء على الصلة القوية بين المادية التاريخية والمادية الجدلية، وبما أنهما متكاملتان أنه إذا بطل أي جزء يسير أو جانب واحد من إحدى النظريتين انهارت العلمية الصحيحة الشاملة التي يزعمونها، لأنه لا يمكن أن تكون النظريتان صحيحتين إلا إذا صحتا معاً. ولا تصح إحداهما إلا إذا كانت الأخرى صحيحة.


لا اله الا الله محمد رسول الله

الفصل الأول

المادّة سابقة في الوجود على الفكر

تمهيد:

نحن نعتقد أن الفكر نعمة أنعم الله بها على الإنسان وميزه بها على سائر الحيوانات، وقيمة الإنسان الحقيقية تتجلى بفكره، وقدرته على الإبداع في الحدود التي رسمها الله سبحانه وتعالى له.

ومن هنا كان للفكر أثر عظيم في إبراز العلماء والمفكرين، والعظماء والقادة، الذين كان لهم دور، عظيم في تاريخ البشرية. ولكن أصحاب المذهب المادي يقدمون المادة على الفكر، ويعتبرونه من نتاجها وهي المؤثرة فيه.

وقبل أن أبين أسبقية المادة على الفكر، يحسن بي أن أعرف ما هي المادة.

يعرف لينين المادة بقوله: «هي مقولة فلسفية تخدم في تعيين الواقع الموضوعي المعطى للإنسان، في إحساساته التي تنسخه، تصوره، تعكسه، والموجود بصورة مستقلة عن الإحساسات»[١٧].

وبناءً على هذا التعريف الذي يعتبر المادة شاملة لجميع مفاهيم

(١٧) الدفاتر الفلسفية، ج ١، ص ٣٢.

الأشياء كالورد، والشجر، والبيت وغيرها ـ إذ كلها مفاهيم ـ تكتسب المادة خاصية السبق على الإدراك والتأثير فيه.

وبما أن الفلسفة تدرس المفاهيم شاملة إلى أقصى حد، أطلق على هذه الدراسة مقولة فلسفية، وبما أن المادة تدرس المفاهيم شاملة إلى أقصى حد فهي إذن على هذا الأساس مقولة فلسفية ووظيفتها تعيين الواقع الموضوعي، أي الواقع المادي الموجود خارج الإدراك، وهو المؤثر في أعضاء حواس الانسان وإثارة إحساساته.

إذن فالفكر انعكاس للمادة الواقعة على الدماغ، وهو يفكر في المادة التي تعكس عليه. وقبل انعكاس المادة على الدماغ لا يوجد فكر. وإلى هذا أشار ستالين بقوله:

«تقوم المادية الفلسفية على مبدأ آخر، وهو أن المادة والطبيعة والكائن، هي حقيقة موضوعية موجودة خارج الإدراك أو الشعور، وبصورة مستقلة عنه. وأن المادة هي عنصر أول، لأنها منبع الإحساسات والتصور والإدراك بينما الإدراك هو عنصر ثانٍ مشتق، لأنه انعكاس المادة، انعكاس الكائن، وأن الفكر هو نتاج المادة لما بلغت في تطورها درجة عالية من الكمال. أو بتعبير أدق، أن الفكر هو نتاج الدماغ، والدماغ هو عضو التفكير. فلا يمكن بالتالي فصل الفكر عن المادة دون الوقوع في خطأ كبير»[١٨].

إذن فالمادة على حد تعبيرهم هي منبع الإحساسات والتصور والإدراك. فلا يوجد إدراك بدون المادة التي ينعكس عنها الإدراك. والفكر نتاج المادة المتطورة الراقية. وبالتالي، لا يمكن فصل الفكر عن المادة، فحينما توجد المادة يوجد التفكير، وحينما تنعدم المادة ينعدم

(١٨) المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ص ٢٩.

التفكير، حيث لا يمكن فصل الفكر عن المادة، لأن الفصل بينهما يؤدي إلى الوقوع في الأخطاء. هذا هو مبدؤهم الذي يسيرون عليه في تحديد قيمة الفكر ومكانته. يقول إنجلز: «لا يمكن فصل الفكر عن المادة المفكرة، فإن هذه المادة هي جوهرالتغيرات التي تحدث»[١٩].

المادة أزلية أبدية:

بعد أن عرفت المادة وبينت أنها سابقة ـ حسب قولهم ـ في الوجود على الفكر، أبين رأيهم في أزلية المادة وأبديتها.

يقول الماديون: «وبالتالي فليس للكون نهاية ولا حدود، العالم أبدى، وليس له أي «بداية» ولن يكون له أي نهاية. ومن هنا فأي عالم «غيبي»، غير مادي، غير موجود، ولا يمكن أن يوجد. وفي واقع الأمر أنه إذا لم يوجد شيء غير المادة، فلا يوجد غير عالم مادي واحد. وهذا يعني أنه عند الأشياء والظواهر المختلفة في العالم المحيط بنا، هناك خاصية واحدة توحدها، هي ماديتها»[٢٠].

إذن فلا يوجد شيء على حد تعبيرهم غير العالم المادي، ولا يمكن أن يوجد عالم روحي، أو يوم آخر، كما جاءت به الأديان، وجميع هذه الظواهر المختلفة في الكون يوحدها شيء واحد هو ماديتها. أي كلها مادية لا غير، والإنسان في نظرهم نتاج المادة أيضاً.

وينبني على كلامهم أن المادة اكتسبت صفة الأزلية والخلود، فليس لها بداية ولا نهاية، ـ وهذه هي صفات الله سبحانه وتعالى ـ إذن، فعلى حد تعبيرهم المادة خالقة، ولها خصائص الخالق، وليس

(١٩) نفس المصدر ص ٣٠، نقلاً عن الإشتراكية الطوبارية والإشتراكية العلمية المقدمة.
(٢٠) أسس المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ص ٣٩.

هناك عالم غيبي، لأن العالم محصور فيما تدركه الحواس. ويدّعون بأن العلم يؤيدهم فيما ذهبوا اليه، ولنقرأ ما يقولون بخصوص هذه الذعوى:

يقول أصحاب المادية التاريخية: «ثم إن العلم إذ يكشف عن الصلات الطبيعية بين ظواهر الطبيعة، يطرد في تطوره الإله من الطبيعة، ويدحض خطل المثالية، ويؤيد صحة النظرة المادية إلى العالم. والعلم يتفق مع المادية في بحثه عن الحقيقة في الحياة ذاتها، وفي الطبيعة، ويفسر ظواهر الطبيعة والمجتمع معتمداً على القوانين الموضوعية، وهذا ما يدل على أن العلم الحقيقي هو ذو طابع مادي. إن العلم مادي بطبيعته وبجوهره، والمثالية غريبة عنه وعدوة له»[٢١].

يترتب على هذا النص أن المثالية عدوة للعلم، وبالتالي فإن الأديان عدوة للعلم لأنها مثالية، وأن العلم فقط يحمل الطابع المادي لا غير. والعلم ــ على حسب دعواهم ــ موافق لهم، ويخدم أغراضهم في بحثهم عن الحقيقة في الحياة ذاتها في الكون المادي، والعلم في تطوره يطرد الإله من الطبيعة وهو ــ تعالى عما يقولون ــ ليس له وجود لأنه خارج حدود المادة ولأنهم لا يعترفون بما هو خارج حدود المادة، لأنه في حسهم لا يوجد شيء خارج حدود المادة، والمادة شاملة لكل شيء ومحيطة به، ولها صفات الخلق والقدرة والإبداع، وهي الأساس الذي ينطلق منه الفكر والعلم، وكل شيء على حد زعمهم.

وعلى أساس إنكارهم لوجود الله تعالى، أنكروا كل عمل وهدف قصد به ابتغاء مرضاة الله تعالى، وأنكروا أثر هذا الهدف، وبالتالي أنكروا دور الإسلام ودولته في الواقع البشري، الذي ما قام إلا لإعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى في الأرض.

(٢١) المادية التاريخية، ص ٥٠٠

يقول ماركس: «إن العزة الإلهية والهدف الإلهي هي الكلمة الكبيرة المستعملة اليوم لتشرح حركة التاريخ، والواقع أن هذه الكلمة لا تشرح شيئاً»[٢٢].

ولم يكتفوا بإنكار وجود الله سبحانه وتعالى والتكليف الرباني ألا وهو إعلاء كلمة الله في الأرض ونشر العدل الذي حمل لواءه جند الإسلام، وإسقاط فترات الهدى والإيمان من حياة البشرية، بل صرحوا بأن الله من إبداع الإنسان، وأن المشكلة ليست هي مشكلة وجوده سبحانه بل هي مشكلة فكرة وجوده، ولنقرأ دعواهم بهذا الخصوص:

«ولقد أثارت النزعة المادية الجدلية هذه الصعوبات وفقدت فكرة «الله» كل محتواها ولم يعد النقاش حول وجود الله أو عدم وجوده، ذلك النقاش الذي أثار النزعة الإلحادية الساذجة غير الماركسية يثار كما أثير سابقاً، لقد أصبح الله كما قال لابلاس: فرضية لا نفع فيها. وحل محل مشكلة وجود الله مشكلة فكرة وجود الله في رؤوس الناس، هاتان مشكلتان لا تميز النزعة المثالية الموضوعية بينهما.

«ولا شك في أن فكرة الله والعواطف الدينية موجودة، وهي تتطلب تفسيراً، وبدلاً من القول بأن الانسان كائن «إلهي»، يجمع في ذاته العنصر الطبيعي والعنصر الإلهي، كما يجمع عنصر الموت والخلود في هذه الحياة وفي الحياة الأخرى، يجب القول بأن «الله» و«الديانة» هما ظاهرتان إنسانيتان، لأن العنصر الإلهي هو من إبداع الإنسان وليس الإنسان هو من إبداع الله»[٢٣].

---

(٢٢) بؤس الفلسفة، ص ١٢٣ ـ ١٢٤.
(٢٣) أصول الفلسفة الماركسية ج ١، ص ٢٠٦.

إذن فمبدؤهم الذي ينطلقون منه أن الله لا نفع فيه وإثارة النقاش حول وجوده لا طائل تحته إذ لديهم فكرة لا تتغير وهي أن ما وراء الكون المادي وهم وهراء وهو غير موجود. وعلى الرغم من اعترافهم بالعواطف الدينية والديانات لكنهم يرجعون بمصدرها إلى الوهم والخيال لأنهما ظاهرتان إنسانيتان. والعنصر الإلهي طبقاً لهذه القاعدة هو من صنع الإنسان وليس الإنسان من صنع الله.

الطبيعة والمادة عندهم تحملان نفس المعنى:

وقد ترد الطبيعة بمعنى المادة، والمادة بمعنى الطبيعة وبخاصة حين يتكلمون عن الخلق.

يقول إنجلز: «فالطبيعة توجد مستقلة عن كل فلسفة، فهي الأساس الذي نمونا عليه. نحن الناس نتاجها أيضاً. وخارج الطبيعة والإنسان لا يوجد شيء. أما الكائنات العلوية التي ولدت من مخيلتنا الدينية فليست سوى انعكاس خيالي لوجودنا نحن»[٢٤].

ويقول أصحاب أسس المادية الديالكتيكية «وجدت الطبيعة ليس فقط قبل الناس وإنما عموماً قبل الكائنات الحية. وبالتالي مستقلة عن الإدراك وهي الأولية أما الإدراك فلم يستطع التواجد قبل الطبيعة فهو ثانوي»[٢٥].

يقول لوموسف في قانونه عن بقاءالمادة: «إنه في الطبيعة لا ينشأ شيء من لا شيء، ولا يختفي أبداً بلا أثر. ولكن إذا كان الأمر كذلك فإن المادةوالطبيعة قد وجدت دائماً، لأننا إذا سلمنا بأنه في وقت من

---

(٢٤) لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية ص ١٦.

(٢٥) أسس المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ص ٤٣.

الأوقات لم يكن هناك شيء في العالم، أي لم تكن توجد مادة، فمن أين لها أن تنشأ؟ ولكن ما إن توجد المادة فهذا يعني أنها لم تنشأ في أي وقت من الأوقات، بل وجدت دائمًا وستوجد دائمًا فهي أبدية وخالدة. ولهذا لم يمكن أن تخلق، فلا يمكن أن يخلق ما لا يمكن إفناؤه. وبذلك فالمادة لم تنشأ أبداً، بل وجدت دائمًا وستوجد دائمًا فهي أبدية. . . »[٢٦].

إذن فالمادة أبدية خالدة، لم تنشأ من العدم لأنه لا يمكن أن يخلق ما لا يمكن إفناؤه. ولهذا لا يجوز السؤال عن بداية المادة ونهايتها لأن آثارها واضحة ومشاهدة.

والحركة كذلك محال خلقها وإفناؤها، لأنها صفة للمادة.

يقول إنجلز: «المادة بدون حركة أمر غير معقول بقدر ما هي الحركة بدون مادة. وإذن فالحركة محال خلقها وإفناؤها قدر ما هو محال ذلك بالنسبة للمادة نفسها»[٢٧].

وعلى هذا لا يمكن للحركة أن توجد منفصلة عن المادة، وكذلك بالنسبة للمادة. وما دامت المادة لا يمكن خلقها وإفناؤها فالحركة لا يمكن خلقها وافناؤها كذلك، وذلك للترابط التام بينهما. فإذا فقدت الحركة فقدت المادة. وإذا فقدت المادة فقدت الحركة. وبما أن الأساس في كل شيء ــ عندهم ــ هو المادة ولا غير وهي أزلية أبدية وسابقة في الوجود على الفكر فإنه يترتب على هذا الأساس النتائج التالية:

١ ــ تعلمنا المادية أن العالم مادي بطبيعته ذاتها. وإن كل ما هو موجود يوجد على أساس الأسباب المادية وينشأ ويتطور وفقاً لقوانين حركة المادة.

---

(٢٦) نفس المصدر، ص ٣٠ ــ ٣١.

(٢٧) نصوص مختارة ص ٩٨.

٢ ـ تعلمنا المادية أن المادة حقيقة موضوعية توجد خارج ذهننا ومستقلة عنه وأن الذهني لا يوجد منفصلاً عن المادي. بل إن كل ما هو ذهني أو روحي هو نتاج لعمليات مادية.

٣ ـ تعلمنا المادية أنه من الممكن تماماً معرفة العالم وقوانينه، وأنه على الرغم من أننا لا نعرف الكثير في العالم المادي فليس هناك مجال للواقع غير قابل للمعرفة ويقع خارج العالم المادي»[٢٨].

إذن فالعالم محصور في ماديته، ولا شيء فيه غير مادي، وكل ما فيه ناتج على أساس مادي. فالروحانيات والغيبيات لا وجود لها إلا على أساس مادي. وكل شيء خارج العالم المادي وهم وخرافة ولا وجود له ـ كما يزعمون ـ والفكر لا يمكن أن يسبق المادة لأنه ناتج عنها، ولا يوجد شيء في الواقع غير قابل للمعرفة، على الرغم من المعرفة القليلة عن العالم المادي، والفكر يبدأ من الإحساس، ومصدر الأحاسيس هو المادة التي يعمل بها الإنسان، متأثراً بالحاجات التي تفرضها الطبيعة عليه. ومن هنا قال ماركس: «ليس وعي الناس هو الذي يحدد وجودهم. بل وجودهم الإجتماعي هو الذي يحدد وعيهم»[٢٩]. وبما أن وجودهم الإجتماعي هو الذي يحدد وعيهم، ونظراً لتغير الظروف الخارجية المماثلة للناحية المادية وتغيرها، وتبعاً لذلك يتبعها تغير في الوعي، فمقتضى كلامهم، أن الأفراد ليس لهم وجود ولا أثر في التغيير في مجريات الأحداث عبر تاريخ البشرية الطويل فإذا تغيرت الظروف الخارجية للمادة تغير معها كل شيء يصاحبها من دين وخلق وفكر وقيم وعادات. ومن هنا تبرز أهمية

---

(٢٨) مدخل إلى المادية الجدلية، ص ٣٠ ـ ٣١.

(٢٩) : أصول الفلسفة الماركسية، ج ١، ص ٢٣٨، نقلاً عن دراسات فلسفية ص ٧٩، مشاركة في النقد الاقتصادي السياسي.

النظرية المادية في نظرهم من الناحية العملية، فيما يتعلق بأسبقية المادة على الفكر.

ويترتب عليها ما يلي:

أولاً ــ إذا كانت الظروف هي التي تتغير أولاً، ثم يتغير وعي الناس فلا يجب البحث عن سبب أية عقيدة نظرية أو مثالية في أدمغة الناس، أو في مخيلاتهم، أو عبقريتهم المبدعة، بل في تطور الظروف المادية، لأن الفكرة التي تقوم على دراسة هذه الظروف هي الفكرة الصائبة المقبولة.

ثانياً ــ إذا كان وعي الناس وعواطفهم وأخلاقهم وعاداتهم تحددها الظروف الخارجية، فإنه يصبح من البديهي، أن تغيير هذه الظروف وحده يمكن أن يغير وعي النّاس، فليس هناك إنسان خالد أو «طبيعة انسانية خالدة»، ومن الطبيعي إذن أن يكون الانسان ــ في نظام يقوم على الملكية الفردية، ويحتم فيه النضال الفردي من أجل الحياة ــ ذئباً يفترس أخاه الإنسان، كما أنه من المحتم أن تنتصر أفكار الاخاء بين الناس في نظام تحترم فيه المنافسة الإشتراكية، ويقوم على الملكية الاشتراكية.

«الانسان ليس صالحاً ولا طالحاً بل هو ما تصنع منه الظروف»[٣٠].

وبناءً على اعترافهم لا يوجد شيء غير العالم المادي، فالبحث عن العقيدة مضيعة للوقت لأنه لا أثر لها في الواقع، إنما الفكرة

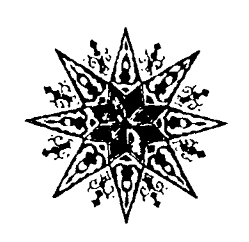
---

(٣٠) أصول الفلسفة الماركسية، ج ١، ص ٢٤٣ ــ ٢٤٤.

الصائبة هي التي تقوم على دراسة الظروف المادية المتطورة، وهي وحدها القادرة على تغيير الناس، وذلك لعدم وجود الإنسان الخالد.

والملكية الفردية عندهم هي السبب الذي يجعل من الإنسان ذئباً يفترس أخاه الإنسان بسبب الصراع على الحياة. وعلى حد تعبيرهم فإنه إذا تغير وعي الناس نتيجة لتغير الظروف المادية، فلا بد من الحتمية التي لا مفر منها وهي انتصار الشيوعية التي لا تقاوم.

وبعد هذا العرض لنظرية التفسير المادي للتاريخ، أو المادية التاريخية حول أسبقية المادة على الوعي، وما ترتب عليها من نتائج، سننظر مدى كلامهم من الصحة، حين عرض هذه الأفكار على شريحة المناقشة في فصل مستقل بإذن الله تعالى.



الفصل الثاني

قوانين المادّة

يقول الماديون أن المادة لها قوانين عامة ثابتة، تسمى قوانين الجدل وهي: الترابط والحركة والتطور والتناقض.

أولاً ــ الترابط في الطبيعة:

يقول الماديون: الطبيعة وحدة واحدة متماسكة فيما بينها، والحوادث والأشياء غير منفصلة بعضها عن بعض، لارتباطها التام، ولا يمكن فهم أي حادث من حوادث الطبيعة إذا نظر إليه بمفرده بمعزل عن الحوادث التي تحيط به، وإنما يمكن فهمه إذا نظرنا إليه من حيث الحوادث التي تحيط به، والتي تحدده وتكيفه.

يقول ستالين: «إن الديالكتيك خلافاً للميتافيزيقية، لا يعتبر الطبيعة تراكماً فرضياً للأشياء، أو حوادث بعضها منفصل عن بعض، أو أحدها منعزل مستقل عن الآخر. بل يعتبر الطبيعة كلا واحداً، ومتماسكاً، ترتبط فيه الأشياء والحوادث فيما بينها ارتباطاً عضوياً، ويتعلق أحدها بالآخر، ويكون بعضها شرطاً لبعض بصورة متقابلة.

لذلك تعتبر الطريقة الديالكتيكية: أن أي حادث من حوادث الطبيعة لا يمكن فهمه إذا نظر إليه منفرداً بمعزل عن الحوادث المحيطة به. إذ أن أي حادث في أي ميدان من ميادين الطبيعة، يمكن أن

ينقلب إلى عبث فارغ لا معنى له، إذا نظر إليه بمعزل عن الشروط التي تكتنفه، وعلى العكس، يمكن فهم أي حادث من الحوادث وتبريره، إذا نظر إليه من حيث ارتباطه ارتباطاً لا ينفصم بالحوادث المحيطة به، أي إذا نظر إليه كما تحدده وتكيفه الحوادث التي تحيط به[1]».

ولتوضيح ما تقدم ذكره حول التفاعل والترابط بين الأشياء في الطبيعة، يضرب الماديون مثالاً يوضح رأيهم.

«أمامنا رقاص معدني. فهل يمكننا أن ننظر إليه في منأى عن الكون المحيط به. كلا لأن هناك رجالاً قاموا بصنعه (المجتمع) من معدن استخرجوه من الأرض (الطبيعة). ولنتأمل هذا الرقاص جيداً، فهو في سكونه ليس مستقلاً عن الظروف المحيطة: كالثقل والحرارة والصدأ، إذ يمكن لهذه الظروف أن تؤثر فيه، ليس فقط في وضعه بل في طبيعته (الصدأ). ولندل قطعة من القصدير، فإذا بقوة تؤثر على الرقاص، وإذا به يتمدد، وإذا بشكله يتغير إلى حد ما فيؤثر الوزن في الرقاص ويؤثر الرقاص في الوزن لأن بينهما تفاعلاً متبادلاً، وأكثر من هذا أن الرقاص مكون من جسيمات ترتبط فيما بينها بتأثير قوة جاذبية، فإذا ما بلغ الرقاص وزناً معيناً، عجز عن التمدد وانكسر فتنقطع العلاقة بين بعض الجسيمات.

«حتى إذا ما حمينا الرقاص تغيرت العلاقات بين الجسيمات بطريقة أخرى «التمدد». نقول إذن أن الرقاص مكون بطبيعته وتغيراته من تفاعل الجسيمات التي يتكون منها، كما أن هذا التفاعل مشروط هو نفسه بعلائق الرقاص (في مجموعة بالوسط المحيط به)، لأن

---

(١) المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية (ص ١٥ ــ ١٦).

الرقاص والوسط هما كل واحد يقوم بينهما فعل متبادل. فإذا ما جهلنا هذا الفعل أصبح صدأ الرقاص وانقطاعه واقعتين لا معنى لهما»[2].

ثانياً ـ الحركة في الطبيعة:

يقول الماديون: الحركة صفة ملازمة للمادة، ولا يمكن فصل الحركة عنها. والمادة أزلية أبدية، ولا يجوز السؤال عمن أكسب المادة خاصية الحركة. «وفي الطبيعة لا يلعب السكون الدور الحاسم رغم أنه موجود، وإنما تلعب هذا الدور الحركة والتطور والتغير. هذه الحركة ملازمة داخلياً للمادة كخاصية جذرية لا تنفصل عنها، ولا داعي لوضع السؤال التالي: من أين حصلت المادة على هذه الحركة؟ لأنها موجودة منذ الأزل، ولهذا لا داعي للسؤال الذي يقول من الذي أكسب المادة الحركة، ما دامت لا تنفصل عنها وتعتبر شكلاً من أشكال وجودها»[3].

إذن فالإعتراف بمصدر حصول المادة على الحركة، يؤدي إلى الإعتراف بوجود إلـه خارج الكيان المادي له قوة الخلق والإبداع، وبما أنه لا يوجد في حس الماديين سوى العالم المادي، فلا يوجد إذن في العالم ظاهرة لم تكن نتيجة لحركة المادة وتطورها.

ومن خلال عرضهم لتصورات الفلاسفة المختلفة عن الأساس المادي الواحد للعالم، يقول الماديون: «ما قيل يعني أنه لا يوجد في العالم ظاهرة واحدة لم تكن نتيجة لحركة المادة وتطورها، فهي تشمل كل شيء، وفي كل مكان يمتد فعلها. ولا يوجد شيء غير المادة المتحركة المتطورة، وما يتولد عنها، ولا يمكن أن يوجد. وهذا يعني أنه

---

(٢) أصول الفلسفة الماركسية (١ : ٤٩).

(٣) أسس المادية الديالكتيكية، والمادية التاريخية (ص ٣٤).

لا يوجد غير عالم مادي واحد. ولهذا بالتحديد يشير «إنجلز» إلى أن وحدة العالم تنحصر في ماديته. وبعبارة أخرى أن العالم واحد لأنه مادي[٤]. وقد كانت الميتافيزيقيا الأوروبية تنظر إلى الطبيعة على أنها حالة من الركود والجمود والثبات. ولكن الإكتشافات العلمية أثبتت التغير في الكون المادي، وبناء على الكشوفات العلمية رتب الماديون نتيجة عامة، وهي قولهم بأن الميتافيزيقيا عامة تخالف العلم وتناقضه، لأنها تقول أن الطبيعة ساكنة وجامدة. فالطبيعة في حركة وتغير دائمين، في حالة تجدد وتطور لا ينقطعان، ففيها شيء يولد ويتغير، وآخر ينحل ويضمحل.

يقول ستالين: «إن الديالكتيك خلافاً للميتافيزيقا، لا يعتبر الطبيعة حالة سكون وجمود، حالة ركود واستقرار، بل يعتبرها حالة حركة وتغير دائمين، حالة تجدد وتطور لا ينقطعان، ففيها دائماً شيء يولد ويتطور، وشيء ينحل ويضمحل»[٥].

ولهذا لا يصح أن يكتفى بالنظر إلى الحوادث من حيث علاقاتها أوتكيفها بعضها لبعض بصورة متقابلة، بل يجب النظر إليها من حيث حركتها وتغيرها وتطورها، ومن حيث ظهورها واختفاؤ ها.

يقول إنجلز «إن الطبيعة؛ من أضأل الأجزاء إلى أكبر الأجسام. من حبة الرمل إلى الشمس، من البروتيست» وهي الخلية الحية الابتدائية ملاحظة من ستالين «إلى الإنسان، هي في حركة دائمة من النشوء والإضمحلال، هي في مد لا ينقطع في حركة وتغير مستمرين وأبديين»[٦].

---

(٤) نفس المصدر (ص ٤٠).

(٥) المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية (ص ١٦).

(٦) نقلاً عن نفس المصدر السابق (ص ١٧).

وهذا يعني أنه حين ننظر إلى الكون وما فيه من أشياء، من أضأل جزء إلى أكبر الأجسام، كحبة الرمل، والشمس، والخلية الحية الأولى... إلى الإنسان، يجب أن ننظر إلى عملية الإرتباط بالحركة، والإرتباط بعملية الحياة والفناء.

والحركة عند الماديين لها صفة الشمولية، فهي شاملة لجميع أنواع التغيرات التي تحدث في الكون. يقول إنجلز: «تشمل الحركة بمعناها العام تلك الحركة التي ندركها ـ كأسلوب وجود المادة، والخصيصة الكامنة لها ـ كل التغيرات التي تحدث في الوجود، من مجرد التغير في المكان حتى التفكير»[7].

وللحركة أوجه متعددة عندهم:

١ ـ فالشكل الميكانيكي للحركة، وهو انتقال جسيمات المادة أو الأجسام من مكان إلى آخر.

٢ ـ والشكل الفيزيائي للحركة، وهو العمليات الحرارية والكهربية.

٣ ـ والشكل الكيميائي للحركة، وهو التفاعلات الكيميائية وتركيب الأيونات.

٤ ـ والشكل البيولوجي للحركة، وهو التغيرات التي تجري في الكائنات الحية.

٥ ـ والشكل الاجتماعي للحركة، وهو التغيرات التي تحدث في الحياة الاجتماعية[8].

---

(٧) مدخل إلى المادية الجدلية (ص ٥٦).

(٨) أنظر أسس المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية (ص ٣٣).

فالحركة هي التي تحدث في الأشياء، والظواهر في العالم المادي[٩].

ولتوضيح مفهوم الحركة في الكون المادي، يضرب الماديون أمثلة من الحوادث التي تجري فيه. لنأخذ مثلاً السيارة التي تسير، فهي إذا ما انطلقت مسرعة في سيرها ارتطمت بشجرة واشتعلت فيها النار، فهل زالت المادة؟ كلا إذ أن السيارة المشتعلة هي حقيقة واقعة مادية كالسيارة التي كانت مسرعة في سيرها. فهي مظهر جديد للمادة وصفة جديدة لها، لأن المادة لا تزول بل هي تتغير وتتحول، وما تحولاتها هذه سوى تحولات الحركة التي تكون مع المادة شيئاً واحداً، فالمادة حركة والحركة مادة[١٠].

ثالثاً ــ التطور في الطبيعة:

يعتبر الماديون أن حركة التطور عبارة عن تطور ينتقل من تغيرات كمية ضئيلة وخفية، إلى تغيرات كيفية ظاهرة وأساسية، وتحدث هذه التغيرات الكيفية من حالة إلى أخرى بصورة فجائية عن طريق القفزات، وهذه التغيرات حتمية وضرورية، لأن الفلسفة الماركسية ترى حتمية الإنهيار في كل شيء، ولا شيء يستطيع الصمود بوجهها في هذا العالم، إلا الصعود من أدنى إلى أعلى، والمجرى المستمر لعملية النشوء والتغير، وتفتخر هذه الفلسفة بأنها تحطم كل التصورات عن الحقيقة المطلقة وعن أوضاع الإنسانية المطلقة، لأنها لا تعترف بشيء مطلق ونهائي ومقدس. والماديون ليسوا على استعداد لقبول ما تقرره العلوم الطبيعية من نهاية ممكنة لوجود هذه الأرض ونهاية الحياة نسبياً عليها، ولو تنبأ العلماء أيضاً بأن التاريخ لن يكون حركة

---

(٩) انظر نفس المصدر (ص ٣٣).

(١٠) أصول الفلسفة الماركسية (١: ٦٤ ــ ٦٥).

صاعدة من أدنى إلى أعلى بل هو حركة نازلة من أعلى إلى أدنى، لأن العلوم الطبيعية لم تضعها في جدول الأعمال بعد، على حد تعبير انجلز.

يقول الماديون: «وظهور الكيفيات الجديدة في الطبيعة والمجتمع يتم دائماً عن طريق القفزات، فهكذا بالتحديد يتم الإنتقال من الطبيعة غير الحية إلى الطبيعة الحية، وكل تطور العالم الحيواني أي تطور الحيوانات، من كل نوع معين إلى آخر، يتم أيضاً بطريق القفزات، وتتم تحولات متشابهة أيضاً في المجتمع البشري[11].

ويقول إنجلز: «كذلك تحطم هذه الفلسفة الديالكتيكية جميع التصورات عن الحقيقة المطلقة النهائية، وعن أوضاع الإنسانية المطلقة المناسبة لها فليس هناك بالنسبة للفلسفة الديالكتيكية، شيء نهائي مطلق، ومقدس، إنها ترى حتمية الإنهيار في كل شيء، ولا يوجد شيء يستطيع الصمود في وجهها إلا المجرى المستمر للنشوء والزوال، للصعود اللامتناهي من أدنى إلى أعلى».

«وهي نفسها، ليست سوى انعكاس بسيط لهذا المجرى في الدماغ المفكر، ولها أيضاً في الحقيقة جانبها المحافظ، فهي تبرر كل مرحلة معينة من مراحل تطور المعرفة والعلاقات الإجتماعية في زمانها وظروفها لا أكثر، فالصفة المحافظة لهذه الطريقة في الفهم نسبية، وطابعها الثوري هو مطلق، وهذا هو الشيء الوحيد المطلق الذي تقبله الفلسفة الديالكتيكية... لسنا بحاجة هنا إلى بحث قضية ما إذا كانت هذه الطريقة للفهم تنسجم كلياً مع الوضع الحاضر للعلوم الطبيعية، هذه العلوم التي تتنبأ بنهاية ممكنة لوجود الأرض نفسها،

(١١) أسس المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية (ص ٦٠ ــ ٦١) ونلاحظ في هذا النص أثر نظرية دارون الواضح على الماركسيين.

وبنهاية أكيدة نسبياً للحياة عليها، وتعلن على هذا الأساس أن تاريخ الإنسانية لن يكون حركة صاعدة وحسب، بل أيضاً حركة نازلة. ولكننا على كل حال ما زلنا بعيدين جداً عن المنعطف الذي يبدأ منه تاريخ المجتمع حركته النازلة، ولا نستطيع أن نطلب من فلسفة هيجل أن تهتم بقضية لم تضعها بعد العلوم الطبيعية المعاصرة لها في جدول الأعمال»[١٢].

وحركة التطور يجب فهمها من حيث هي حركة تقدمية وصاعدة، إنتقال إلى كيفية جديدة، من البسيط إلى المركب، ومن الأدنى إلى الأعلى، يجب فهمها لا من حيث هي حركة دائرية، أو تكرار بسيط من نفسه، ولا يصح أيضاً أن ينظر إلى حركة التطور بأنها عملية حياة وفناء، أو نشوء واضمحلال، بل يجب أن ينظر إلى أن الحياة والفناء، والنشوء والإضمحلال، إنما يحدث في طريق تقدمي تصاعدي، فينقل المادة من حال إلى حال غير الأولى وأحسن منها.

والتطور لا يدور في طريق دائري ويعود من حيث أتى، بل ينتقل إلى حال أحسن من الأولى.

يقول ستالين: «إن الديالكتيك خلافاً للميتافيزيقية، لا يعتبر حركة التطور حركة نمو بسيطة، لا تؤدي التغيرات الكمية فيها إلى تغيرات كيفية، بل يعتبرها تطوراً ينتقل من تغييرات كمية ضئيلة وخفية إلى تغييرات ظاهرة وأساسية، أي إلى تغييرات كيفية. وهذه التغييرات الكيفية ليست تدريجية، بل هي سريعة فجائية، وتحدث بقفزات من حالة إلى أخرى، وليست هذه التغييرات جائزة الوقوع، بل هي ضرورية، هي نتيجة تراكم تغيرات كمية غير محسوسة وتدريجية.

---

(١٢) لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية (ص١٠).

«ولذلك تعتبر الطريقة الديالكتيكية أن من الواجب فهم حركة التطور، لا من حيث هي حركة دائرية، أو تكرار بسيط للطريق نفسه، بل من حيث هي حركة تقدمية صاعدة، وانتقال من الحالة الكيفية القديمة إلى حالة كيفية جديدة، وتطور ينتقل من البسيط إلى المركب، من الأدنى إلى الأعلى»(١٣).

ويضرب إنجلز الأمثلة على أن التغيرات الكمية تنقلب إلى تغيرات كيفية في التطور الديالكتيكي، يقول: «يمكن القول أن الكيمياء هي علم التغيرات الكيفية الناشئة في الأجسام عن تغيرات كمية، وكان هيجل نفسه يعرف ذلك في عهده. لنأخذ الأوكسجين، فإذا جمعنا في جزئيه ثلاث ذرات عوضاً عن اثنتين كالعادة، حصلنا على جسم جديد هو «الأزون»، الذي يختلف اختلافاً بيناً برائحته وبتأثيراته، عن الأوكسجين العادي. وماذا نقول عن مختلف تراكيب الأوكسجين مع الأزون، أو مع الكبريت؟ إن كل تركيب منها يعطي جسماً مختلفاً من حيث الكيفية عن جميع الأجسام التي نعطيها التراكيب الأخرى»(١٤).

رابعاً ــ التناقض في الطبيعة:

يقول الماديون: إن كل أشياء الطبيعة وحوادثها تحوي تناقضات داخلية، لأن فيها جميعها عناصر تضمحل أو تتطور، وفيها كذلك جانب سلبي وآخر إيجابي، ولأن فيها عناصر أخرى تموت، وأخرى تولد، وعندهم أن النضال بين القديم والجديد، بين ما يفنى ويتطور، هو المحتوى الداخلي لحركة التطور، وهو كذلك المحتوى الداخلي لتحول التغيرات الكمية إلى تغيرات كيفية، (وعملية انتقال الماء مثلاً

(١٣) المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية (ص ١٨).

(١٤) نفس المصدر (ص ٢٠ ــ ٢١).

إلى بخار بزيادة درجة الحرارة، أو انتقال الماء إلى جليد بنقصان درجة الحرارة) إنما يتم بواسطة تضاد هذه الذرات في المادة (الماء) مع بعضها، والإصطدام الذي يحصل بين الذرات في المادة هو الذي يوجد التحول.

يقول ستالين: «إن نقطة الإبتداء في الديالكتيك ـ خلافاً للميتافيزيقيا ـ هي وجهة النظر القائمة على أن كل أشياء الطبيعة وحوادثها تحوي تناقضات داخلية، لأن لها جميعها جانباً سلبياً وجانباً إيجابياً، ماضياً وحاضراً، وفيها جميعها عناصر تضمحل أو تتطور، فنضال هذه المتضادات، أي النضال بين القديم والجديد، بين ما يموت وما يولد، بين ما يفنى وما يتطور هو المحتوى الداخلي لحركة التطور، هو المحتوى الداخلي لتحول التغيرات الكمية إلى تغيرات كيفية. ولذلك تعتبر الطريقة الديالكتيكية أن حركة التطور من الأدنى إلى الأعلى، لا تجري بتطور الحوادث تطوراً تدريجياً متناسقاً، بل بظهور التناقضات الملازمة للأشياء والحوادث، ب «نضال» الإتجاهات المضادة التي تعمل على أساس هذه التناقضات»(١٥).

إذن فالتناقض داخلي، والنضال بين المتضادات هو المحتوى الداخلي لحركة التطور، وهو المحتوى الداخلي لتحول التغيرات الكمية إلى تغيرات كيفية أيضاً.

وحدة الأضداد:

لا تفصل الجدلية بين الأضداد، بل هي تنظر إليها في وحدتها التي لا تنفصم(١٦)، والأضداد عندهم هي «تلك الظواهر أو جوانبها

---

(١٥) نفس المصدر (ص ٢٢).

(١٦) أصول الفلسفة الماركسية (١ : ١١٦).

التي يستثني بعضها بعضاً»[17]. وهذه الوحدة بين الضدين: تنحصر في أنهما يرتبطان ارتباطاً لا ينفصم، ويكونان معاً عملية متناقضة واحدة. والضدان هما الشرط لوجود كل منهما أي أن الواحد يوجد فقط بسبب وجود الآخر[18]. ونتيجة لهذه الوحدة القوية بين الضدين، والعلاقة المتبادلة بينهما ينشأ الصراع، هذا الصراع هو المصدر الداخلي والقوة المحركة للتطور.

«فينحصر جوهر قانون وحدة صراع الأضداد في أن جميع الأشياء والعمليات تلازمها جوانب داخلية متناقضة، موجودة في وحدة لا تنفصم، وفي صراع مستمر في نفس الوقت، وصراع الأضداد هو بالتحديد المصدر الداخلي، والقوة المحركة للتطور»[19].

وكما يقول لينين: «التطور هو (صراع الأضداد)»[20].

ويمثل الماديون على صراع الأضداد بمجال الطبيعة الحية:

«نأخذ مجال الطبيعة الحية. هنا نرى بوضوح دور التناقض الجدلي كمصدر للتطور. من لا يعرف أن الأطفال يشبهون الآباء، ولكنهم ليسوا نسخة منهم تماماً. فالنمطية والجمود مع ذلك لا وجود لهما. يرجع هذا أولاً وقبل كل شيء إلى أن قانون الوراثة يعمل إلى جانب نقيضه ــ قانون التغير ــ وهو يضمن «عدم تشابه» و«عدم تكرار» وتغير كل الأجسام وتطورها. والوراثة بدورها تثبت هذه الخواص في السلالة، بخلاف ذلك يمكن أن تختفي التغيرات، وهكذا يسوق الصراع الأبدي بين القوتين المتضادتين ــ القابلية للتغير

(١٧) أسس المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية (ص ٦٨).
(١٨) نفس المصدر (ص ٧١).
(١٩) نفس المصدر (ص ٧٢).
(٢٠) نفس المصدر (ص ٧١).

والوراثة ــ عملية تطور الطبيعة الحية. ويحدث اختيار طبيعي نتيجة للصراع بين هذين الضدين، تولد القابلية للتغير قسمات جديدة مفيدة. أما الوراثة فتجمعها في السلالة، ونتيجة لذلك تتولد أنواع جديدة من الكائنات الحية. وليست القوة الخارجية، ولا الرب، إنما التناقضات الداخلية الطبيعية هي المصدر والمحرك الداخلي لعملية تطور الطبيعة الحية[٢١].

وبناء على ما تقدم، فإن الصراع بين الأضداد يتولد عنه نوع جديد يختلف تماماً عن النوع السابق، لأن التناقضات الداخلية هي المصدر والمحرك الداخلي لعملية التطور، لذلك لا شأن للرب ــ أو القوى الخارجية على حد تعبيرهم ــ في عملية الصراع والتناقض الداخلي.

مما سبق بيانه عن الصراع بين الأضداد ووحدتها، يعرف الماديون التناقض بأنه: «علاقة بين الأضداد، وتظهر الأضداد كجوانب للتناقض»[٢٢].

التناقض داخلي:

يعتبر الماديون أن الواقع حركة، وهذه الحركة هي نتيجة التناقض والنضال بين الأضداد، وهما داخليان لأنهما جوهر الحركة.

يقول ماوتسي تونج: «سبب كل نمو أساسي للأشياء دائمًا لا يكون خارج هذه الأشياء، بل داخلها في طبيعة الأشياء المتناقضة، فلكل شيء ولكل ظاهرة تناقضاتها الداخلية الكائنة فيها. وهذه التناقضات هي التي تولد حركة الأشياء ونموها، وهكذا تكون

---

(٢١) نفس المصدر (ص ٧١).

(٢٢) نفس المصدر (ص ٦٨).

التناقضات الكامنة في الأشياء والظواهر هي الأسباب الرئيسية لنموها»[٢٣].

ويمثلون على التناقض الداخلي بعملية تحول الماء إلى بخار أو إلى جليد، ويفسرون هذا التحول بوجود تناقض داخلي. حيث يحدث في العملية «تناقض بين قوى الإنسجام بين جزئيات الماء من جهة، وبين حركة كل جزيء الخاصة به من جهة ثانية» وهي طاقة تدفع الجزيئات إلى التفرق «أي التناقض بين قوى الإنسجام والتفريق. ولا شك أن هذا النضال لا يبدو إذا نظرنا إلى الماء السائل بين درجتي صفر ومائة. بل يبدو كل شيء ساكناً، وكل ما يبدو هو سكون حالة السائل. غير أن المظهر الخارجي يخفي الحقيقة والجوهر، أي النضال بين قوى الإنسجام وقوى التفريق. وهذا التناقض الداخلي هو المحتوى الحقيقي لحالة السائل. كما أن التناقض يفسر لنا تحول الماء المفاجيء إلى ماء جامد، أو إلى بخار ماء. ولا يمكن الإنتقال الكيفي إلى حالة جديدة إلا بانتصار احدى هاتين القوتين على الأخرى. فتنتصر قوة التفريق في حالة تحول السائل إلى بخار، ولا يقضي هذا الإنتصار على القوى المعارضة، بل يغير من صفتها، فتصبح في حالة التجمد. حركة الجزيئات، الجانب السلبي (أو الثانوي)، وفي حالة الغاز. تصبح النزعة إلى الإنسجام الجانب السلبي (أو الثانوي). فالماء مهما كانت حالته الحالية هو نضال بين قوى متناقضة، وهي قوى داخلية، وبهذا تفسر تحولات الماء»[٢٤].

أما بالنسبة للظروف الخارجية المحيطة، فله دور ثانوي في عملية

---

(٢٣) حول التناقض في كراسات الشيوعية عدد ٨٧ ب سنة ١٩٥٢(ص٧٨٠ ـ ٧٨١) نقلاً عن أصول الفلسفة الماركسية (١ : ١٠٧).

(٢٤) نفس المصدر (ص ١٠٨)

التناقض. والأساس في التناقض إنما هو التناقض الداخلي، فإذا لم يوجد تناقض داخلي، فإن الظروف الخارجية تفقد تأثيرها.

يقول ماوتسي تونج: «فلقد دلتنا دراسة القانون الأول للجدلية (كل شيء مرتبط بالآخر) على أنه لا يجب أن نعزل الواقع عن ظروفه المحيطة به. ففي حالة الماء، هناك شرط خارجي ضروري لتحويل الحالة، وهو هبوط الحرارة أو ارتفاعها. إذ أن ارتفاع الحرارة يجعل من الممكن ازدياد طاقة الجزيئات من الحركة، أي ازدياد سرعتها، بينما يؤثر انخفاض الحرارة تأثيراً عكسياً. ولكن يجب أن لا ننسى أنه لو لم يكن هناك تناقضات داخلية في داخل الشيء (في الماء مثلاً)، كما رأينا ذلك سابقاً، فإن الظروف الخارجية تفقد تأثيرها. ولهذا تعتبر الجدلية أن اكتشاف التناقضات الداخلية الكامنة في العملية التي درسناها، والتي تفسر لنا نوعية هذه العملية شيء أساسي، (فالتناقضات الكامنة في الأشياء والظواهر هي السبب الرئيسي لنموها، بينما صلة الشيء أو الظاهرة المتبادلة مع الأشياء أو الظواهر الأخرى وتأثيرها عليها إنما هي أسباب ثانوية)[٢٥].

قوانين المادة وكيق يطبقونها على المجتمعات البشرية؟

بعد أن عرضنا كيف طبق الماديون قوانين المادية الجدلية على الطبيعة، نجدهم لا يكتفون بهذا القدر، وإنما يخضعون دراسة الحياة البشرية في المجتمع وتاريخها لهذه القوانين الجدلية، ولتطبيقها على الحياة البشرية وتاريخها أهمية كبرى في نظرهم. يقول ستالين: «وليس من الصعب أن ندرك ما هنالك من أهمية عظمى في إخضاع دراسة الحياة الإجتماعية، ودراسة تاريخ المجتمع لمبادىء

(٢٥) عن ماوتسي تونج نفس المصدر (ص ١٠٨ ــ ١٠٩).

الطريقة الديالكتيكية، وما هنالك من أهمية عظمى في تطبيق هذه المبادىء على تاريخ المجتمع. وعلى النشاط العملي لحزب البرولتاريا»[٢٦].

والشيوعيون حين يطبقون هذه المباديء الجدلية على الكون ــ والكون مادي عندهم ــ يهدفون من وراء ذلك إلى إخضاع حياة الإنسان لهذه القوانين الجدلية» هذا الكون المادي واحد. لم يخلقه إله ولا أي إنسان».

يقول لينين في معرض تعليقه على كلام الفيلسوف اليوناني القديم هيراكليت الذي يقول: «العالم وحدة الكل، لم يخلقه أي إله ولا أي إنسان ولكنه كان وهو سيبقى ناراً حية أزلياً تشتعل وتنطفيء بموجب قوانين». قال لينين معلقاً: «هذا عرض جيد جداً لمباديء المادية الجدلية»[٢٧]. والإنسان في نظرهم مادي، وفكره نتاج المادة الراقية، لأنه نتاخ المخ، والمخ مادة وكذلك الروح هي نتاج أعلى للمادة.

يقول إنجلز ــ في تعليقه على كلام لودفيغ فورباخ ــ: «ليست المادة نتاج الروح، بل الروح نفسه ليس سوى أعلى نتاج للمادة. فهذا طبعاً مادية بحتة»[٢٨]. ويقول في مكان آخر: «لكنه إذا ما أثيرت بعدئذ مسألة ماهية الفكر والوعي على وجه الدقة، وطبيعة مصدرهما، فإنه يتضح أنهما منتجان للدماغ الانساني، وأن الإنسان نفسه نتاج للطبيعة»[٢٩].

وما دام أن الكون مادي، والإنسان مادي كذلك. إذن فما

(٢٦) المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية (ص ٢٣).

(٢٧) الدفاتر الفلسفية (٢: ١٢٨ ــ ١٢٩).

(٢٨) لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية (ص ٢٣).

(٢٩) آنتي دوهرنغ (ص ٤٧).

ينطبق على الكون المادي ينطبق على الإنسان، لأنه جزء منه ومن نتاجه، وينطبق كذلك على تاريخ المجتمع البشري. يناقش هوبز هذه القضية انطلاقاً من كلام بيكون يقول: «إذا كانت أحاسيس الإنسان هي مصدر معرفته، إذن فإن التصور والفكر والخيال... إلخ، ليست سوى أشباح العالم المادي المعرى أكثر أو أقل من شكله الحسي».

«وما دام ما هو مادي هو الذي يدرك ويعرف، فلاشيء يمكن أن يعرف عن وجود الله، إني على يقين فقط من وجودي أنا. إن كل انفعال إنساني هو حركة ميكانيكية تنتهي أو تبدأ. إن موضوعات الدوافع هي ما يسمى خيراً. والإنسان يخضع للقوانين نفسها التي تخضع لها الطبيعة. فالقدرة والحرية هما شيء واحد»(٣٠).

إذن فعلى كلامهم هذا إن كل ما هو مادي يدرك ويعرف، وكل ما يعرف موجود لأنه مدرك، وعلى هذا الأساس فإن الله تعالى بعرفهم غير مدرك، فهو لا يعرف. وما دام لا يعرف فهو غير موجود. والقوانين التي تخضع لها الطبيعة يخضع لها الإنسان لأنه جزء منها.

يقول إنجلز: «ولكن ما هو مطبق على الطبيعة التي نفهمها الآن كحركة تطور تاريخية، مطبق على تاريخ المجتمع في جميع فروعه، وكذلك على مجموع العلوم التي تبحث في القضايا الإنسانية والإلهية»(٣١).

وأول قانون جدلي طبقوه على دراسة الحياة البشرية، وتاريخ المجتمع هو:

---

(٣٠) العائلة المقدسة (ص ٦٦).

(٣١) لودفيغ فورباخ نهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية (ص ٤٨).

قانون الترابط في الطبيعة:

والطبيعة ـ كما عرفنا عندهم ـ وحدة واحدة متماسكة، وحوادثها غير منفصلة بعضها عن بعض، وكل أشيائها مترابطة فيما بيها إرتباطاً عضوياً لا ينفصم، وبما أن الإنسان وتاريخه جزء من الطبيعة، نراهم يفسرون الحياة البشرية بقوانين الكون المادي، فما ينطبق على الكون المادي ينطبق على الإنسان وعلى المجتمع. وإن أي نظام إجتماعي قائم إنما يحكم عليه على أساس الظروف الإقتصادية القائمة.

يقول إنجلز: «فإنه ينبغي البحث عن الأسباب الأخيرة لسائر التبدلات الإجتماعية والثورات السياسية ليس في أدمغة البشر، ليس في فهمهم النامي للحقيقة والعدالة الأبديتين، بل في التبدلات الطارئة على أساليب الإنتاج والمبادلة»[٣٢].

إذن فالأسباب النهائية لكافة التغيرات والتحولات الأساسية يجب البحث عنها في الاقتصاد، وفي التغيرات التي تطرأ على أسلوب الإنتاج والتبادل، والحق والعدل الأزليان، والدين والأخلاق والقيم والأفكار لا قيمة لها، وهي ليست قيّماً موضوعية. وهذه الظروف الإقتصادية ليست صادرة عن إرادة الإنسان، بل هي خارجة عن إرادته، وتؤثر في سيره أثناء تطورها لأن قوانينها حتمية.

يقول ماركس: «إن إنتاج الأفكار والتصورات والوعي مختلط باديء الأمر ـ بصورة مباشرة ووثيقة بالنشاط المادي والتعامل المادي بين البشر، فهو لغة الحياة الواقعية. إن التصورات والفكر والتعامل الذهني بين البشر، تبدو هنا على اعتبارها إصراراً مباشراً لسلوكهم المادي. ينطبق الأمر نفسه على الإنتاج الفكري كما يمثل في لغة

(٣٢) آنتي دوهرنغ، (ص ٣٢١).

السياسة، ولغة القوانين، والأخلاق، والدين والميتافيزيا... إلخ، عند شعب بكامله. فالبشر هم منتجو تصوراتهم وأفكارهم... حتى الأشباح في العقل البشري هي تصعيدات ناتجة بالضرورة عن تطور حياتهم المادية، التي يمكن التحقق منها تجريبياً والتي تعتمد على قواعد مادية، ومن جراء ذلك، فإن الأخلاق والميتافزيا ، وكل البقية الباقية من الأيديولوجية، وكذلك أشكال الوعي التي تقابلها، تفقد في الحال كل مظهر من مظاهر الإستقلال الذاتي. فهي لا تملك تاريخاً، وليس لها أي تطور، إن الأمر على النقيض من ذلك، «فالبشر إذ يطورون إنتاجهم المادي وعلاقاتهم المادية، هم الذين يحولون فكرهم ومنتجات فكرهم على السواء مع الواقع الذي هو خاصتهم، فليس الوعي هو الذي يعين الحياة بل الحياة هي التي تعين الوعي»[٣٣].

وبناء على هذا النص فإن إنتاج الأفكار والتصورات والدين والأخلاق مرتبط مباشرة بالتعامل المادي لأنه لغة الحياة الواقعية. وما دام أن الدين والأخلاق، وغيرهما هما من نتاج أفكار الناس، والناس هم الذين يحولون فكرهم ومنتجات فكرهم على السواء مع هذا الواقع المادي، الذي هو خاصة للبشر. إذن، فهذه الأفكار والمعتقدات الدينية، والقيم والأخلاق لا تعيّن صورة الحياة التي يحياها الإنسان، بل الحياة المادية والظروف الإقتصادية هي التي تعينها وتغيرها وتشكلها، لأن المعتقدات الدينية والقيم والأخلاق والأفكار والمبادىء ليس لها إستقلال ذاتي، ولا تملك تاريخاً، وليس لها أي تطور، إنما هي محكومة بالقوانين المادية الحتمية، فهي متغيرة بتغير الظروف المادية. وعلاقات الإنتاج مستقلة عن وعي الناس وإرادتهم لأنها تنبعث من تلقاء نفسها.

---

(٣٣) الايديولوجية الألمانية، (١: ٣٠ ـ ٣١).

«وليست علاقات الإنتاج الجديدة نتيجة عمل واع يقوم به الناس، بل هي تنبعث على العكس من تلقاء نفسها مستقلة عن وعي الناس وإرادتهم»[٣٤].

«وهكذا لا تظل قوى الإنتاج في مكانها، بل تكتمل فتسبق إرادة الإنسان وتدفعها معها»[٣٥].

وبناء على ما تقدم فالقول الفصل بالنسبة للأحكام على الحياة الإجتماعية لا يصدر عن الإنسان لأنه هو ذاته محكوم بالقوانين المادية، والظروف المادية، وفكره ودينه وخلقه ومبادئه وقيمه ومثله العليا تتغير بتغير الوضع الاقتصادي، الذي هو خارج عن إرادته ومؤثر في سيره. إنما يصدر الحكم على الحياة الإجتماعية وسير تاريخ البشرية من الظروف الإقتصادية التي تولد الحركات الإجتماعية. كما أن الأفكار السابقة لحركات التحرر الإجتماعية والتي تدور حول العدالة الأبدية، والحق الأزلي لا تصدر حكماً، ولا قيمة لها، لأنها هي نفسها محكومة بالظروف الإقتصادية التي ولدت هذه الحركات، والأنظمة الإجتماعية نتيجة للترابط التام بين الحوادث وتكييفها بعضها بعضاً بصورة متبادلة.

يقول ستالين: «فإذا صح أن ليس في العالم حوادث منعزلة، إذا صح أن كل الحوادث مرتبطة فيما بينها ويكيف بعضها البعض الآخر بصورة متبادلة فمن الواضح أن كل نظام إجتماعي، وكل حركة إجتماعية في التاريخ لا ينبغي الحكم عليها من ناحية «العدالة الأبدية، أو من ناحية أية فكرة أخرى مقررة سلفاً، كما يفعل المؤرخون على

(٣٤) أصول الفلسفة الماركسية (٢ : ٥٩).

(٣٥) نفس المصدر، (ص ٣١).

الغالب. بل ينبغي لنا أن نبني حكمنا على أساس الظروف التي ولدت هذا النظام، وهذه الحركة الاجتماعية المرتبطتين بها.

«إن نظام الرق يكون في الظروف الحاضرة خرقاً وبدعة مضادة للطبيعة، ولكن نظام الرق في ظروف المشاعية البدائية، الآخذة بالانحلال، هو حادث مفهوم ومنطقي، لأنه يعني خطوة إلى الأمام بالنسبة لنظام المشاعية البدائية. إن المطالبة بإقامة الديمقراطية البورجوازية في ظروف القيصرية والمجتمع البورجوازي، مثلاً في روسيا سنة ١٩٠٥ كانت شيئاً مفهوماً وصحيحاً وثورياً تماماً. لأن الجمهورية البرجوازية كانت تعني إذ ذاك خطوة إلى الأمام. ولكن المطالبة بإقامة الجمهورية الديمقراطية البرجوازية في ظروف الاتحاد السوفياتي الحاضرة، تكون خرقاً، وشيئاً رجعياً ومضاداً للثورة. لأن الجمهورية البرجوازية هي خطوة إلى الوراء بالنسبة إلى الجمهورية السوفياتية. كل شيء يتعلق بالظروف، بالمكان والزمان.

«ومن الواضح أن وجود علم تاريخي، وتطور هذا العلم، شيئان مستحيلان بدون هذا الفهم التاريخي للحوادث الإجتماعية، فمثل هذا الفهم يمنع علم التاريخ من أن يصبح فوضى احتمالات، وكوم أخطاء سخيفة»(٣٦).

إذن فمقتضى هذا الكلام أن الرجوع إلى الدين، والرجوع إلى الماضي والتمسك بالعادات والتقاليد والقيم، هو رجعية وخرق مضاد للطبيعة بصرف النظر عما قد يحويه هذا الماضي وهذه التقاليد والقيم من خير. وترك الإلحاد، وعبادة الله الواحد الأحد رجعية وتخلف.

وبناء على ذلك، فإن الجديد يحل محل القديم، ويترك القديم

(٣٦) المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية، ص٢٣ ــ ٢٥.

ولو كان حسناً والجديد سيئاً. وإن أي دراسة أو وجود للعلوم التاريخية، لا يمكن أن يصح دون الفهم لهذا الترابط الشامل، ودون التعلق بالزمان والمكان والظروف المحيطة به. لأن هذا الفهم التاريخي للحوادث الإجتماعية يمنع علم التاريخ من الفوضى والأخطاء كما يزعمون.

وبناء على ما سبق عرضه نلاحظ في كلامهم ما يلي:

١ ــ بما أن الطبيعة عندهم كل واحد متماسك، فهم يخضعون دراسة حياة المجتمع لقوانينها، فما ينطبق عليها، ينطبق على الإنسان وتاريخ المجتمعات.

٢ ــ الترابط حتمي في كل شيء بين أجزاء الكون وما يحويه، ويكيف بعضه بعضاً، والإنسان يسير في حياته سيراً جبرياً.

٣ ــ حياة المجتمع وأنظمته يحكم عليها على أساس الظروف الإقتصادية التي تسير حياة المجتمع، وتجعل من النظام الذي يتلاءم معها نظاماً تقدمياً، وتعتبر النظام الذي لا ينسجم معها نظاماً رجعياً.

٤ ــ العودة إلى الماضي بكل ما فيه رجعية وتخلف، وانتصار الجديد على القديم حتمية لا مفر منها.

يقول سبركين وياخوت: «وانتصار الجديد قانون لا مفر منه حتمي مثل حتمية مجيء النهار بعد الليل»[٣٧].

---

(٣٧) أسس المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية، ص ٨٤.

أما القانون الثاني الذي طبقه الماديون على دراسة تاريخ المجتمع فهو:

قانون الحركة في الطبيعة:

يقول الماديون: إن كل شيء في الطبيعة المادية متحرك ومتغير. والحياة البشرية جزء من الكون المادي، وما ينطبق عليه ينطبق على البشر وتاريخهم. إذن فتطبيق الحركة في الطبيعة على الحياة البشرية وحياة الناس الاجتماعية أمر لا بد منه. وذلك لأن تفسيرهم المادي للتاريخ ينطلق من تطبيق هذه القوانين المادية، ومنها الحركة على أحداث الحياة الإجتماعية وسير تاريخ البشرية.

يقول أصحاب كتاب المادية التاريخية: «والمادية التاريخية، خلافاً للعلوم الأخرى، لا تدرس فقط هذه القوانين الخاصة أو تلك من قوانين تطور أشكال معينة لحركة المادة، وإنما هي تدرس القوانين العامة الشاملة للحركة المادية، والمجتمع هو أيضاً شكل لحركة المادة»[٣٨].

وبما أن المجتمع شكل من أشكال حركة المادة المتغيرة، فهو يتغير تبعاً لتغير حركة المادة، وعلى هذا الأساس فلا شيء ثابت وأبدي غير متغير. وبما أن العالم متحرك ومتطور عندهم، وأن اختفاء القديم ونشوء الجديد هما قانون التطور، فإنه يترتب على هذا القول بحتمية التغير في الأنظمة، لأن العالم متغير، ولا بد من انتصار الجديد على القديم، لأنه أمر حتمي على حد تعبيرهم. وبناء على هذه الحتمية فليس هناك نظام إجتماعي ثابت، ولا مباديء أبدية ثابتة غير قابلة للتغير، وبخاصة فيما يتعلق بالملكية الخاصة.

---

(٣٨) المادية التاريخية، ص ١١.

يقول ستالين: «وبعد، إذا صح أن العالم يتحرك ويتطور دائمًا وأبداً، إذا صح أن اختفاء القديم ونشوء الجديد هما قانون للتطور، أصبح من الواضح أن ليست هناك أنظمة اجتماعية ثابتة «غير قابلة للتغير» ولا مبادىء أبدية للملكية الخاصة والإستثمار! وليست هناك «أفكار أبدية» عن خضوع العلاقات الإجتماعية، وتوجد حركة دائمًا لتشكيل الأفكار»[٣٩].

أما القانون الثالث الذي طبقه الماديون على دراسة تاريخ المجتمع فهو:

قانون التطور في الطبيعة:

يقول الماديون: إن المجتمع متحرك كالطبيعة، وتقوم هذه الحركة على: الإنتقال من التحولات الكمية إلى التحولات الكيفية، ولا يجوز الفصل بين الجانب الكمي والجانب الكيفي للترابط الضروري التام بينهما. وعلى هذا، فالإنتقال من الحالة الكيفية القديمة إلى الحالة الجديدة تقدم. وهم يقولون إنّ الرأسمالية أفضل من الاقطاع، والإشتراكية أفضل من الرأسمالية وكل شيء يتطور من الأدنى إلى الأعلى ومن الأسوأ إلى الأحسن. «إن الإنتقال من الحالة الكيفية القديمة إلى الحالة الجديدة يكون تقدماً. فالحالة الرأسمالية هي أفضل من الحالة الإقطاعية، والحالة الإشتراكية هي أفضل من الحالة الرأسمالية، إذ ان الثورة تقوم بالإنتقال من السفلى إلى العلوى. لماذا؟ لأنها تقوم بالتوفيق بين النظام الإقتصادي للمجتمع وبين متطلبات نمو قوى الإنتاج.

---

(٣٩) بؤس الفلسفة، ص ١١٢ ـ ١١٣.

«ومن المهم ان لا نفصل بين الجانب الكيفي والجانب الكمي في الحركة الاجتماعية، بل يجب النظر إليهما في ترابطهما الضروري. أما النظر إلى جانب دون الآخر فإن ذلك يؤدي إلى إرتكاب خطأ كبير» (٤٠).

ولكن كيف يحدث الإنتقال من التغيرات الكمية إلى تغييرات كيفية في المجتمع؟ يفسر الماديون هذا الانتقال بتطبيق الأمثلةَ على المجتمع الرأسمالي. يقول موريس كورنفورث: «ونجد هذا القانون عن تحول التغيرات الكمية إلى تغييرات كيفية في المجتمع كذلك. فقبل أن يوجد نظام الرأسمالية الصناعية حدثت عملية من تراكم الثروة في شكل نقود في أيدي قلة (عن طريق نهب المستعمرات أساساً)، ومن تكون برولتاريا لا تملك شيئاً عن طريق تسييج الأرض وطرد الفلاحين. وعند نقطة معينة من هذه العملية، حين تراكمت النقود الكافية لتزويد المنشآت الصناعية برأس المال، وحين تحول عدد كاف من الناس إلى برولتاريا لتقديم العمل اللازم، نضجت الظروف لتطور الرأسمالية الصناعية، عند هذه النقطة ولد التراكم في التغيرات الكمية مرحلة كيفية جديدة في تطور المجتمع.

«وتحدث التغييرات الكيفية عموماً بفجائية نسبية ــ بوثبة إن شيئاً جديداً يولد فجأة، رغم ان إمكانياته كانت تحويها عملية التحول التدريجي للتغييرات الكمية المستمرة التي حدثت من قبل»(٤١).

إذن فالتغير من الحالة الكمية إلى الحالة الكيفية يتم عن طريق تراكم التغييرات الكمية الصغيرة تدريجياً، وبالتالي فإنها في مرحلة

---

(٤٠) أصول الفلسفة الماركسية، (١: ٩٥ ــ ٩٦).

(٤١) مدخل إلى المادية الجدلية، ص ١٠٧.

معينة تؤدي إلى تغييرات جذرية تتحول إلى كيفية جديدة. فيزول الكيف القديم ويحل محله الكيف الجديد، والإنتقال من الكم إلى الكيف يتم بواسطة الوثبات أو القفزات، ولا يمكن أن يتم بطريق آخر على حد تعبيرهم.

يقول ستالين: «وبعد إذا صح أن الإنتقال من التغيرات الكمية البطيئة إلى تغيرات كيفية وفجائية وسريعة، هو قانون للتطور، فمن الواضح أن الثورات التي تقوم بها الطبقات المضطهدة هي حادث طبيعي تماماً، ولا مناص منه .

«وبالتالي فالإنتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية وتحرر الطبقة العاملة من النير الرأسمالي يمكن تحقيقها لا بتغييرات بسيطة بطيئة، و لا بإصلاحات، بل فقط بتغيير كيفي للنظام الرأسمالي فقط، أي بالثورة.

وإذن لأجل اجتناب الخطأ في السياسة، يجب أن يكون الإنسان ثورياً لا إصلاحياً»(٤٢).

وبما أن الإنتقال من التغييرات الكيفية البطيئة إلى التغييرات الكيفية الفجائية السريعة هو قانون للتطور، إذن فحدوث الثورة من قبل الطبقات المضطهدة أمر حتمي طبيعي. وبناء على حصول الثورة فإن المجتمع سينتقل حتمًا إلى حالة أحسن من الحالة السابقة.
فالإنتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية على حد تعبير ستالين لا يمكن أن يتم عن طريق التدرج البطيء، بل يتم بواسطة الثورة البرولتارية، التي تتدخل فيها إرادة الجماهير ووعيها.

---

(٤٢) المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية، ص ٢٦ ــ ٢٧.

أما القانون الرابع الذي طبقه الماديون على دراسة تاريخ المجتمع فهو:

قانون التناقض في الطبيعة:

يقول الماديون: يمكن تفسير جميع جوانب الواقع الإجتماعي، وتكون المجتمع نفسه بواسطة التناقض، وبما أن جميع أشياء الطبيعة وحوادثها تحوي تناقضات داخلية، والمجتمع جزء من الطبيعة، إذن فكل مجتمع من المجتمعات يحوي تناقضات داخلية، وبما أن النضال بين القديم والجديد، بين ما يموت ويولد هو المحتوى الداخلي لحركة التطور، والتطور هو نضال المتضادات إذن فنضال المتضادات في المجتمع هو المحتوى الداخلي لحركة التطور فيه.

يقول ستالين: «إذا صح أن التطور يجري بإنبثاق التناقضات الداخلية، وبالنزاع بين القوى المتضادة على أساس هذه التناقضات، وأن غاية هذا النزاع هي قهر هذه التناقضات والتغلب عليها، فمن الواضح أن نضال البرولتاريا الطبقي هو حادث طبيعي تماماً ولا مناص منه.

«وبالتالي، لا ينبغي إخفاء تناقضات النظام الرأسمالي، بل ينبغي إبرازها وعرضها ولا ينبغي خنق النضال الطبقي، بل ينبغي القيام به إلى النهاية.

«وإذن لأجل اجتناب الخطأ في السياسة ينبغي إتباع سياسة برولتارية طبقية حازمة، لا سياسة إصلاحية تقول بالتناسق بين مصالح البرولتاريا ومصالح البرجوازية، ولا سياسة تفاهمية تقول بـ «إدماج» الرأسمالية في الإشتراكية وهذا ما تقول به الطريقة الديالكتيكية

الماركسية لدى تطبيقها على الحياة الاجتماعية، على تاريخ المجتمع»[٤٣].

وبناء على ما تقدم فإن النزاع بين القوى المتضادة مبني على أساس التناقضات الداخلية، وغاية هذا النزاع هو التغلب على هذه التناقضات، ونتيجة لهذه الحقيقة فإن نضال البرولتاريا وثورتها على النظام الرأسمالي أمر حتمي لا مفر منه. وهو حادث طبيعي. لذلك، فمن أجل الإنتصار على هذه التناقضات يجب إبرازها وعرضها، ولا يجوز خنق النضال الطبقي. ولأجل اجتناب الأخطاء السياسية يجب على الماديين إتباع سياسة لا يوجد فيها تنسيق بين مصالح البرولتاريا والبرجوازية.

والتناقض الداخلي هو الأساس في التطور والتقدم، أما التناقضات الخارجية وإن كان لها دور ثانوي، لكنها ليست هي الأساس في التغيير.

«مثلاً إضعاف مجموع النظام الإمبريالي، والتناقضات بين الدول الامبريالية، أي أن التناقضات الخارجية سهلت دون شك من كفاح الشعوب المستعمرة من أجل تحررهامن النير الاستعماري. ولكن الدور الحاسم لعبته القوى الداخلية، التناقضات بين أوسع الجماهير الشعبية في هذه البلاد، والبرجوازية الامبريالية لإنجلترا، أو الولايات المتحدة الأميركية وفرنسا وهولندا»[٤٤].

والتناقضات عند الماديين نوعان: تناقضات عدائية، وتناقضات غير عدائية. فالتناقضات العدائية توجد حيث يجري صراع المصالح الطبقية التي لا مصالحة بينها، كطبقة الإقطاعيين والفلاحين،

---

(٤٣) نفس المصدر، ص ٢٧.

(٤٤) أسس المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية، ص ٧٥.

والبرولتاريا والبرجوازية أما التناقضات غير العدائية، فهي كالتناقضات الموجودة ــ على حد تعبيرهم ــ في المجتمع الإشتراكي الذي يخلو من وجود مصالح لطبقة معينة، فتناقضاته يمكن حلها بنجاح بواسطة النظام الإجتماعي القائم، بخلاف التناقضات العدائية فلا يمكن حلها إلا بالثورة وذلك لعدم التوفيق بينها.

ويركز الماديون في التناقض على قانون نفي النفي. وهو حلول الجديد محل القديم. «وينحصر قانون نفي النفي في أنه في عملية التطور كل درجة أعلى تنفي وتلغي الدرجة السابقة، وهي ترفعها مع ذلك إلى درجة جديدة وتحافظ على كل المحتوى الإيجابي في تطورها» (٤٥).

إذن فالتطور الجديد يلغي النظام القديم، والجديد عندهم أحسن من القديم، وهو أمرحتمي، ولكن مع ذلك، فإن نفي النفي لا يلغي النظام القديم بكل محتوياته بل يحافظ على كل شيء إيجابي فيه.

ونجد الماديين يقولون بأن التناقض ــ وهو قانون الحياة الأساسي عندهم ــ سيزول في الإشتراكية ويحل محله قانون التعارض.

«ماذا يحدث إذن عند حلول الإشتراكية؟ يزول التناقض بين الطبقات بفضل القضاء على البرجوازية المستغلة، ومع ذلك تظل الخلافات قائمة لفترة ما بين طبقة العمال وطبقة الفلاحين. بين القرية والمدينة، وكذلك بين العمل اليدوي والعمل الفكري. وليست هذه الاختلافات تناقضات بل هي تعارضات يجب التغلب عليها لأن الإنسان في المجتمع الشيوعي، يمكنه القيام بمختلف ألوان النشاط التي

(٤٥) نفس المصدر، ص ٨٠.

يتقاسمها اليوم أفراد مختلفون، ولأن التعارض بين العمل اليدوي والعمل الفكري ينحل في وحدة أسمى، كما توفر الثقافة العلمية المتعددة الظروف لتحقيق هذه الوحدة، التي تجعل من الفرد ممارساً وعالماً في نفس الوقت.

«وهكذا نرى نهاية التناقض بين البرجوازية والبرولتاريا لا يعني نهاية التعارض، ولهذا كتب لينين يقول منتقداً بوخاريس:

«ليس التناقض والتعارض شيئاً واحداً. إذ يزول الأول بينما يستمر الثاني في النظام الإشتراكي»[٤٦].

وبناء على ما تقدم، يجب أن لا يغيب عن بالنا أن التناقض عند الماديين هو المحرك لعملية التطور في الحياة. وأنه الدافع لكل حركة، وهو شامل لكل شيء، وهو القانون الأساسي في الحياة، فالتعارض يلغي القانون الأساسي، أما الاختلافات الموجودة في الاشتراكية فإنها تعارضات يمكن حلها، وذلك لأن الإنسان الشيوعي يمكنه القيام بمختلف ألوان النشاط، التي يتقاسمها الأفراد اليوم. نتيجة لتوفر الثقافة العلمية لديهم حيث يصبح الفرد عاملاً عالماً في نفس الوقت.

مما سبق عرضه حول تطبيق الماديين لقوانين المادة على حياة المجتمع وتاريخه نلاحظ ما يلي:

١ ــ إخضاع دراسة حياة الإنسان ومجتمعه لقوانين الطبيعة، لأن الإنسان نتاج الطبيعة وهو جزء منها، فما ينطبق عليها ينطبق عليه، وذلك للترابط التام بين أجزاء الطبيعة.

٢ ــ حياة المجتمع وأنظمته يحكم عليها على أساس الظروف الإقتصادية التي تسير حياة المجتمع، وتجعل من النظام الذي

(٤٦) أصول الفلسفة الماركسية، (١ : ١٣١).

يتلاءم معها نظاماً تقدمياً، والنظام الذي لا ينسجم معها نظاماً رجعياً.

٣ ــ جميع أشياء الطبيعة وحوادثها متحركة ومتغيرة، وعلى هذا الأساس الشامل لكل شيء ــ والإنسان وحياة المجتمع جزء منه ــ فلا شيء ثابت على الإطلاق. كما أنّ الأديان والأخلاق والأفكار والقيم والعادات والتقاليد جميعها تتغير تبعاً لتغير الظروف الإقتصادية.

٤ ــ كل شيء متغير، وانتصار الجديد على القديم أمر حتمي، وليس هناك نظام إجتماعي ثابت. وبناء على هذا الأساس فإن النظام الرأسمالي سيزول حتماً لأنه قديم، وتحل محله الشيوعية لأنها مرحلة جديدة. وانتصارها أمرح حتمي ،لذلك يجب أن لا تقاوم.

٥ ــ إنكار قوة الله الذي أودع في الإنسان القوة على تغيير الكون المادي.

٦ ــ كل مرحلة جديدة هي حتماً أرقى من المرحلة السابقة، وكل جيل أرقى من الجيل السابق فالإقطاع أفضل من الرق، والشيوعية أفضل من الرأسمالية وهكذا، وهذا الرأي مبني على التطور في الطبيعة، ويتم الإنتقال من مرحلة إلى مرحلة ثانية بواسطة الإنتقال من التحولات الكمية إلى التحولات الكيفية بشكل فجائي.

٧ ــ كل مجتمع من المجتمعات يحوى تناقضات داخلية، وهذه التناقضات حتمية، ويجب إبرازها لأجل الإنتصار عليها، والتناقض هو القانون الأساسي في الحياة، ومع ذلك فإنه يزول بحلول الإشتراكية ويحل محله التعارض.

٨ ــ النظام الجديد لا يلغي النظام السابق بكل محتوياته، بل يبقي على الجوانب الإيجابية فيه.

الفصل الثالث

أثر نظرية دارون على التفسير المادّي للتاريخ

لا يهمنا في هذا الفصل أن نتعرض لتفصيلات نظرية دارون، بقدر ما يهمنا أن نتعرض لإيحاءات هذه النظرية، وأثرها على التفسير المادي للتاريخ. يقول شيخنا الأستاذ محمد قطب: «إن عيب نظرية دارون ليس في الوقائع العلمية التي بسطها في كتبه وتابعه فيها أعوانه ومريدوه، وإنما هو في إيحاءات تلك النظرية التي خلفت طابعها الخطر، لا في أفكار الجماهير وحدها، بل في اتجاه العلماء كذلك منذ عهده إلى العصر الأخير»[1].

وتتلخص نظرية دارون في التطور بما يلي:

«ظهرت الحياة أول ما ظهرت على شكل بروتوبلازم، الذي هو أصل الحياة في النبات والحيوان. وبعد ذلك ظهر الحيوان الدودي ومنه الرخويات كالحلازين. ثم تطورت الشوكيات كنجوم البحر، ثم القشريات كالسراطين، ثم ظهرت صور جديدة من الحيوان، هي عشائر ذوات صفات مستحدثة، دل وجودها على وقوع انقلاب خطير في سير الحياة، وأصبح لهذه الصورة الجديدة حبل متين يمتد طوال الجسم، تدرج بواسطة التطور إلى تكوين الفقار.

---

(١) الانسان بين المادية والاسلام (ص ١٩).

ثم تنشأت الفقاريـات واللافقـاريات، وبعـد ذلك تنشـأت البرمائيات ذوات التنفسين كالضفادع. ثم تدرج سلم التطور من البرمائيات إلى الزواحف كالحيات والتماسيح، ومن فروع الزواحف تنشأت الطيور وذوات الثدي، ومن ذوات الثدي تنشأت السعادين والقردة، ثم تنشأت البشرانيات.

«أما من أية من الشعب العديدة التي تحولت عن الصنابير قد تنشأ الانسان؟ فأمر لا يزال محوطاً بالشك عند العلماء!.

ومن هنا نرى أنه بالتطور قد وجدت جميع الكائنات الحية، فخرج بعضها من بعض على طول الأحقاب الجيولوجية»(٢).

إذن فالانسان تدرج في سلم التطور الحيواني حتى وصل إلى وضعه الحالي. ولم يخلق خلقاً مباشراً، ولم يكن هناك قصد من خلقه. إنما هو قد جاء هكذا نتيجة لعملية التطور البطيئة جداً والتي استغرقت ملايين السنين.

يقول إسماعيل مظهر: «حتى منتصف القرن الماضي، كان المعتقد أن كل نوع من الأنواع الحية قد خلق مستقلاً، وأن خلق الانسان كان النهاية التي توجت أعمال الخلق، وينبني على هذا أن الأنواع ثابتة لا تتغير ولا تتطور».

«في سنة **١٨٥٩** أظهر «داروين» خطأً هذه العقيدة، وأن الأنواع المختلفة نباتاً كانت أم حيواناً، ومعها الانسان، إنما نشأت تدرجاً من طريق الاحتفاظ بمختلف التحولات التي تنشأ في أفراد كل منها. أما هذا التحول فقد استغرق أحقاباً طويلة جد الطول، وفقاً لما يقتضيه تأثير سنن طبيعية دائمة التأثير في طبائع الأحياء».

---

(٢) أصل الأنواع بتصرف (ص ٣٩ ــ ٤٤).

«ولقد أبان داروين أن ما في مستطاع الانسان أن يبتكر في السلالات الداجنة من صور مستحدثة بالانتخاب الصناعي، في مكنة الطبيعة أن تستحدث مثله بالانتخاب الطبعي، وإن كان الانتخاب الطبيعي أبطأ أثراً في تحول الأحياء من الانتخاب الاصطناعي»[٣].

ولقد تعرضت النظرية منذ ظهورها إلى نقد عنيف من كثير من العلماء حتى من الداروينيين أنفسهم، وسوف نتعرض لانتقاداتهم على النظرية في فصل مناقشة النظرية بإذن الله، والسؤال الذي يطرح في هذا المقام هو: لماذا يتشبث بهذه النظرية علماء الغرب والمتأثرون من علماء الشرق الاسلامي بالحضارة الغربية، على الرغم من الاعتراضات والانتقادات الكثيرة التي وجهت إلى النظرية؟

والجواب على ذلك: إنه الفصام النكد والعداوة الشرسة التي قامت بين الدين النصراني المحرف في أوروبا والعلم.

يقول السيد جيمس جينز في كتابه عالم الأسرار: «إن في عقولنا تعصباً يرجح التفسير المادي للحقائق»[٤].

ويقول سير آرثركيث: «إن نظرية النشوء والارتقاء غير ثابتة علمياً، ولا سبيل إلى إثباتها بالبرهان، ونحن لا نؤمن بها إلا لأن الخيار الوحيد بعد ذلك هو الايمان بالخلق الخاص المباشر، وهذا ما لا يمكن حتى التفكير فيه[٥]».

---

(٣) نفس المصدر (ص ٣٨).
(٤) عالم الأسرار (ص ١٨٩)، نقلاً عن الاسلام يتحدى (ص ٣٩).
(٥) عن نفس المصدر السابق، ص ٤٠، وانظر مذهب النشوء والارتقاء، ص ٦.

آثار الداروينية:

خلفت الداروينية في الفكر الغربي آثاراً بالغة الخطورة من أهمها:

إنهيار العقيدة الدينية:

فقد كانت النصرانية المحرفة ــ وما زالت ــ تعتقد أن الله عز وجل خلق آدم وحواء ونهاهما عن الأكل من الشجرة، فأكلا منها، فارتكبا بذلك خطيئة لا تغتفر، وظل الجنس البشري يرزح تحت نير الخطيئة الموروثة حتى رحم الله الناس، فأرسل إبنه ــ الوحيد ــ.

سبحانه وتعالى ﴿عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤٣﴾[٦]

الذي هو الأقنوم الثاني في العقيدة فقتل على الصليب لينقذ البشرية من الخطيئة.

وحين جاء دارون بنظريته معلناً أن الانسان لم يخلق خلقاً مباشراً كانت النتيجة أن تزعزع الايمان بآدم وحواء وجنة عدن والخطيئة التي يقوم عليها صرح الايمان النصراني. وما دام الانسان الأوروبي لا يعرف إلا الدين النصراني المحرف فإنه سيجد نفسه تلقائياً ملحداً بالعقيدة التي تقوم على هذا الأساس الباطل في نظر العلم الدارويني.

والحق الذي لا مرية فيه أن النظرية لو تركت وشأنها، أو وجدت في غير الظروف التي وجدت فيها لما انتشرت إيحاءاتها بهذه السرعة المخيفة، ولما كان لها هذا الشأن كله في التفكير الأوروبي.

ولكن الذي أعطى الداروينية الحجم الكبير هو ما يلي:

١ ــ الظروف السيئة التي نشأت فيها النظرية وترعرعت. حيث كان الوقت الذي ظهرت فيه، زمن صراع شديد بين العلم والدين،

---

(٦) الإسراء آية ٤٣.

والثورة الصناعية أخذت تطمس ملامح المجتمع الأوروبي، وتصبغه بصبغة التحلل من الدين والأخلاق.

٢ ـ الاستغلال البشع للنظرية من قبل اليهود.

ومن المعروف لدى الكثيرين وبخاصة العلماء أن اليهود قوم يحبون أنفسهم، وقد جبلوا على الجشع والطمع وكره ما سواهم والحقد على غيرهم. لذلك فهم يخططون للقضاء على البشرية بهدم عقيدتها وأخلاقها، ليسهل عليهم ركوبهم ـ كما تركب الحمير ـ حسبما يخططون.

وحين ظهرت نظرية دارون على مسرح الوجود استغلها اليهود في تحطيم العقيدة النصرانية المحرفة، وتأجيج نار الثورة على الكنيسة الحمقاء الظالمة، وبالتالي القضاء على دين أوروبا المحرف.

فاستغلوها في موجة الثورة العارمة على الدين، وزجوا بها في ساحة المعركة الحامية الوطيس، ليهدموا آخر قلعة حصينة من قلاع الديانة النصرانية المحرفة وهي إنسانية الإنسان وخلقه المباشر بأمر الله.

تقول البروتوكولات: «لا تتصوروا أن تصريحاتنا كلمات جوفاء. ولاحظوا هنا أن نجاح داروين وماركس ونيتشه قد رتبناه من قبل، والأثر غير الأخلاقي لاتجاهات هذه العلوم في الفكر الأممي سيكون واضحاً لنا على التأكيد»(٧).

٣ ـ أضف إلى ذلك الاهمال الكامل للنظريات اللاهوتية، حتى أن والاس قرين داروين وشريكه في اكتشاف النظرية لا يكاد يعرف عند غير المختصين وليس لذلك من علة إلا أنه قال بأن وراء عملية التطور قوة مدبرة(٨).

---

(٧) الخطر اليهودي ــ البروتوكول الثاني، ص ١٠٦.

(٨) أنظر نظرية داروين بين مؤيديها ومعارضيها، ص ٤٤.

كما أنّ داروين نال من الشهرة والتمجيد ما لم يحظ به أحد من العلماء المعاصرين له. وكان لهذا الانتصار للداروينية على النصرانية المحرفة أن عمّت فكرة التبرج العقائدي[٩]، وموجة الالحاد في أوروبا، وسيطرت الأفكار المادية على عقول الكثيرين من أبناء الطبقات المثقفة، وتخلى كثيرون عن إيمانهم بسبب إيحاءات هذه النظرية الخبيثة.

أما الأثر الثاني الذي خلفته الداروينية في الفكر الأوروبي فهو نفي فكرة الغاية والقصد:

جاءت الأديان للتذكير بأن للوجود الانساني غاية ومقصداً على هذه الأرض. فلما ظهرت نظرية داروين على مسرح التفكير الأوروبي أسرعت وقالت إن الانسان وليد جرثومة تعاقب عليها خط التطور، حتى وصلت إلى وضعه الحاضر، وأن عوامل الطبيعة العمياء التي تخبط خبط عشواء ــ كما قال داروين ــ وراء عملية التطور هذه[١٠]. وعلى هذا الأساس، فمن العبث البحث عن غاية ومقصد من خلق الانسان، لأن الطبيعة لو شاءت لأعطت القطة القدرة على التطور ولجعلتها سيدة المخلوقات.

يقول جوليان هكسلي: «من المسلم به أن الانسان في الوقت الحاضر سيد المخلوقات ولكن قد تحل محله القطة أو الفأر[١١]».

وكان من نتائج هذه الفكرة أن أصبح كثير من العلماء يعتقدون بنظرية الصدفة وبخاصة فيما يتعلق بهذا الكون والدقة المبدعة في خلقه. ونجم عنها أيضاً أن شعر الناس بالضياع حيث تزعزعت قيمة الحياة في نظر كثير من الناس، وبخاصة ذوي الاحساس المرهف من

(٩) إصطلاح سمعته من فضيلة شيخنا محمد الغزالي حفظه الله.

(١٠) أنظر كتب غيرت وجه العالم ــ كلام جوليان هكسلي، ص ٣٠٥.

(١١) أنظر معركة التقاليد، ص ١٥٩.

العلماء والمثقفين. ونشأت أجيال في أوروبا ضائعة لا تطمح إلى غاية ولا تفكر في هدف. وخيم الخواء الروحي على نفوس المثقفين[١٢].

أما الأثر الثالث فهو حيوانية الانسان وماديته:

هزت هذه الفكرة المجتمع الأوروبي هزة عنيفة، ووجهت إلى الكرامة الانسانية أعظم لطمة في التحقير عرفتها البشرية. فقد قلبت الشعور الانساني رأساً على عقب وهزت المشاعر وخلخلت المعتقدات والقيم. وأصبح الانسان بعد نظرية داروين لا يستطيع تجنب اعتبار نفسه حيواناً على حد تعبير هكسلي[١٣].

فقد قال داروين إن أصل الانسان جرثومة صغيرة. وهذا هو الإيحاء بحيوانية الانسان. ثم زاد الطين بلة. والأمر خطورة الإيحاء الثاني، وهو خضوعه للقوانين المادية وتحكمها فيه. وهذا هو الإيحاء المادي للنظرية.

أما الأثر الرابع الذي خلفته النظرية فهو القول بالتطور المطلق:

والذي نشأ عنه القول بالحتمية والاضطراب، هذان هما العنصران البارزان اللذان شرح بهما داروين التطور. فكل مرحلة من مراحل التطور أعقبت سلفها بطريقة حتمية، بمعنى أن العوامل الخارجية ــ كما أسلفنا ــ هي التي تحدد نوعية هذه المرحلة. أما خط سير التطور ذاته بمراحلها جميعها فهو مضطرب لا يسعى إلى غاية مرسومة أو هدف بعيد لأن (الطبيعة) التي أوجدته غير عاقلة ولا واعية بل تخبط خبط عشواء.

---

(١٢) أنظر العلمانية وآثارها في الحياة الاسلامية المعاصرة، ص ١٦٦.

(١٣) أنظر معركة التقاليد، ص ٥٩ ــ ٦٠.

«عن طريق هذين العنصرين أوحت هذه النظرية بتطور حتمي مطلق، لا غاية له ولا حدود. الحتمية تجعل الايمان بثبات أي شيء ــ وإن كان الدين أو القيم أو التقاليد ــ جموداً ورجعية، وكل محاولة للثبات على شيء من ذلك هي معركة خاسرة مع القدر الذي لا يقهر، واضطراب خط التطور يلغي كل المعايير الثابتة المتعارف عليها للحكم على الأشياء، ويستبدل بها معياراً واحداً لا ميزة له في ذاته إلا عدم قبوله صفة التطور وهو «الزمان». فكل عقيدة أو نظام أو خلق هو أفضل وأكمل من غيره ما دام تالياً له في الوجود الزمني.

يقول لوبون: «إن الزمان إله» لأنه هو الذي يولد المعتقدات. فينميها ثم يميتها، ومنه تستمد قوتها وبفعله يتولاها الضعف والانحلال».

«إن الزمان هو صاحب السيادة الحقيقية فينا وما علينا إلا أن نتركه يعمل لنرى كل شيء يتحول ويتبدل»[١٤].

وهكذا آمنت أوروبا بالتطور المطلق، وحسبت كل تغير ــ وإن كان انتكاسة وانحطاطاً ــ تقدماً»[١٥].

صلة نظرية التطور بالتفسير المادي للتاريخ:

إن الماديين يستندون إلى التطور عموماً، بغض النظر عن كون التطور داخلياً أم خارجياً، كما أنهم يأخذون عن هذه النظرية تصويرها المادي الحيواني للانسان.

يقول جون لويس: «لقد حول دارون ما كان يجول بخاطر

(١٤) روح الجماعات، ص ١٠٣ ــ ١٠٤.

(١٥) أنظر العلمانية وآثارها في الحياة الاسلامية المعاصرة، ص ١٧٣ ــ ١٧٤.

العديد من المفكرين إلى فكرة ممكنة ومقنعة، وهي أن عالم الحيوان لم يوجد نتيجة عملية خلق واحدة، بل هو ثمرة تغيرات إرتقائية عملت على تحويل الأنواع التي ظهرت في عصور مبكرة إلى الأشكال الأكثر تعقيداً، والتي ظهرت في عصور متأخرة. وقد قام دارون بهذا عن طريق تجميع عدد ضخم من الدلائل، قبل كل شيء، وأجرى أبحاثه بأقصى دقة ممكنة، وبدون أن يترك أية ثغرة في عمله، مثبتاً أن الارتقاء قد حدث فعلاً.

«والانسان نفسه لم يخلق بفعل خاص منفصل، بل هو ثمرة الارتقاء. ونظرية الارتقاء لا تستبعد قوى ما فوق الطبيعة من عملية الخلق فحسب، بل تضع بدل هذه القوى تطور الحياة الطبيعي. وقد كان هذا تجديداً مدهشاً»[١٦].

ويقول سلامة موسى مردداً هذا الزعم، وهو من معاول الهدم في ديار المسلمين: «إستبدلت نظرية التطور النظر المادي بالنظر الغيبي لنشأة الأحياء على أرضنا، وربطت بين جميع الأحياء نباتاً وحيواناً وإنساناً برباط جديد، كما جعلتنا نفهم الحياة على أنها ليست جامدة إذ هي ــ باعتبارها إحدى ظواهر المادة ــ في حركة وتحول أبديين»[١٧].

إذن فدارون ــ على حد تعبير جون لويس وتعصبه له ــ لم يترك ثغرة في عمله. وقد استبعد القدرة الالهٰية في عملية خلق الانسان، والخالق هو تطور الحياة الطبيعي. وعلى هذا الأساس فالنظرية مادية، ومن هذا الأساس المادي الذي أنكر قدرة الله على خلق الانسان، والذي اعتبر الانسان نتاج تطور الحياة الطبيعي، ربط الماركسيون تفسيرهم المادي للتاريخ بنظرية التطور. ونلاحظ أن الماركسيين

---

(١٦) الانسان والارتقاء، ص ٨ ــ ١٠.

(١٧) نظرية التطور وأصل الانسان، ص ١١.

يعتبرون أن ماركس قد اكتشف قانون تطور التاريخ البشري. كما اكتشف داروِن قانون تطور الطبيعة، وعلى هذا الأساس فإن ماركس مستقل في نظريته عن داروِن.

يقول كورنفورث: «وتقدم المادية التاريخية أساساً للعلم الاجتماعي بنفس الطريقة التي تقدم بها نظرية التطور عن طريق الانتقاء الطبيعي أساساً للعلم البيولوجي، فأياً كان النوع الذي يدرس فإنه قد تطور عن طريق الانتقاء الطبيعي، وهذا يحدد كل طبيعته.

«وبالمثل، أياً كان المجتمع الذي يدرس، فإنه أصبح ما هو عليه بتكيف علاقات الإنتاج مع الإنتاج، والأفكار والمؤسسات مع علاقات الإنتاج».

«والحق أن داروين قد وصل إلى نظرية الانتقاء الطبيعي بنفس «أسلوب التجريد» الذي استخدمه ماركس ـ في نفس الوقت تقريباً ـ في نظرية المادية التاريخية، فقد نشأت نظرية داروين من اعتبار أساسي هو أن كل نوع يعيش بالتكيف مع بيئة ما. تماماً كما نشأت نظرية ماركس من اعتبار هو أن كل مجتمع يعيش بأسلوب إنتاج ما»(١٨).

من خلال النص السابق نلاحظ في كلام الماركسيين اعترافاً ضمنياً، وإشارة واضحة تفيد بأن ماركس بنى نظريته في التفسير المادي للتاريخ على أساس نظرية داروِن المادية. ولكن الدلائل والشواهد تفيد أن ماركس ربط نظريته بنظرية داروِن.

يقول داونز: «وهو كثير الاشارة إلى مراجع العلماء في علوم الحياة والكيمياء والطبيعة، وواضح من هذا أنه كان يأمل أن يصير

(١٨) مدخل إلى المادية التاريخية، ص ٢١.

داروين علم الاجتماع، أو نيوتن الاقتصاد. كما اعتقد أنه بالتحليل للمجتمع يستطيع أن يغير كيان العالم من الرأسمالية إلى الاشتراكية».

«وكانت الطريقة العلمية التي أشار إليها في أبحاثه عاملاً في تقبل الجمهور لآرائه، إذ كانت تسيطر على أذهان الناس نظرية التطور في القرن التاسع عشر بدرجة اعتقدوا معها إمكان تطبيقها على كل مظاهر الحياة. فلما ربط ماركس نظريته التاريخية في تنازع البقاء بين الطبقات وبين نظرية داروين في التطور، ضمن لها ذلك الاحترام العلمي الذي أبعدها عن الطعن والتشكك»[١٩].

إذن فماركس استغل تقبل الجماهير في أوروبا لنظرية التطور، التي تشمل كل شيء في الحياة عندهم، وربط بينها وبين نظريته في صراع الطبقات وجعلها أساساً يعتمد عليه في بحثه عن تطور المجتمع.

يقول الفيلسوف جوتة: «إن الدلائل في تأييد المذهب المادي قد أتت في الغالب من ثلاثة مصادر: علم الأحياء، وعلم النفس، والفيزياء».

«وسأبدأ بمعالجة الدلائل المستمدة من علم الأحياء. فقد كان يظن أن اكتشافات داروين العلمية أوضحت أن تطور الحياة من بدايتها إلى نهايتها القصوى المعقدة، وهي العقل ــ كما تجلى في علماء القرن التاسع عشر ــ يمكن تفسيره باعتباره نتيجة لحالات جزئية من التغاير بين الأنواع بعضها عن بعض، تفاعلت مع القوى المادية في البيئة، فتطورت تبعاً لقوانين محددة»[٢٠].

---

(١٩) كتب غيرت وجه العالم، ص ١٥٥.

(٢٠) منازع الفكر الحديث، ص ٢٣.

وقد استغلت نظرية داروين استغلالاً كبيراً في كثير من المجالات، وخاصة في هدم عقائد الناس وأخلاقهم. وقد جاء هذا الاستغلال البشع من إيحاءات النظرية الخطيرة.

يقول داونز: «ومن جهة أخرى نشأت تطبيقات أخرى لنظرياته، لا نظن أن داروين كان يرضاها لو كان حياً. فمثلاً اتخذت الفاشية نظرية الانتخاب الطبيعي والبقاء للأصلح مبرراً للقضاء على بعض الأجناس البشرية. وكذلك ما نادى به تجار الحروب في الدول، وتبريرهم لها لأنها تقضي على العناصر الضعيفة وتستبقي العناصر القوية، كما استغل أتباع ماركس نظرية التطور استغلالاً ملتوياً لتطبيقها على تنازع الطبقات في المجتمع الانساني»[٢١].

ويبين أصحاب كتاب أصول الفلسفة الماركسية الأساس الذي اعتمد عليه ماركس وإنجلز حين قالا إن للجدلية أساساً موضوعياً.

وكان للإكتشافات الثلاثة التالية أثر كبير في ذلك:

١ ـ إكتشاف الخلية الحية التي تتطور عنها الأجسام المعقدة.

٢ ـ إكتشاف تحول الطاقة من حرارة وكهرباء ومغناطيس وطاقة كيميائية فهي صور مختلفة نوعياً لحقيقة مادية واحدة.

٣ ـ نظرية التحول عند داروين. فلقد أظهرت هذه النظرية اعتماداً على علم الحفريات، وعلم تربية الحيوان، أن جميع الكائنات الحية (ومنها الانسان) هي ثمرات التطور الطبيعي[٢٢].

ويعلقون في الهامش على عدم استطاعة الماديين في القرن الثامن

---

(٢١) كتب غيرت وجه العالم، ص ٣٠٤.

(٢٢) أصول الفلسفة الماركسية، (١ : ٣٧).

عشر اكتشاف المنهج الجدلي، وكيف أن هذه الاكتشافات كان لها أثر كبير على المادية الجدلية. «ولقد رأينا الدور الكبير الذي قامت به[٢٣] في تكون المادية الجدلية بإدخالها فكرة التطور، وهي فكرة جدلية رائعة (تقول بتطور نوع عن آخر)»[٢٤].

إذن فنظرية التطور لها دور كبير في تكوين نظرية ماركس، وهي من الأسس الهامة التي اعتمد عليها في تفسيره المادي للتاريخ.

ويقول سبركين وياخوت بعد أن سردا حاجة العلوم الطبيعية في القرن التاسع عشر إلى ضرورة إيجاد وجهة نظر جديدة عن العالم، تحل محل النظرة الميتافيزيقية للعالم، وكيف أن الاكتشافات العلمية الثلاثة العظيمة كان لها أثر في إيجاد هذه النظرية.

«وبذلك أعد تطور العلم ـ وخصوصاً الاكتشافات العظيمة الثلاثة في العلم الطبيعي: قانون حفظ الطاقة، ونظريـة التكوين الخلوي للكائنات الحية، ونظرية التطور لداروين ـ المقدمات العلمية لانتصار النظرية المادية الجدلية عن العالم التي وضعها كارل ماركس وفريدريك إنجلز»[٢٥].

وبناءً على ما تقدم نلاحظ ما يلي:

١ ـ نظرية التطور أوحت بمادية الانسان وحيوانيته.

٢ ـ خطورة هذه النظرية تكمن في إيحاءاتها التي استغلت استغلالاً بشعاً في هدم الأديان والأخلاق، حيث نفت الغاية والقصد من خلق الانسان، وردت عملية الخلق إلى قوى طبيعية عمياء.

٣ ـ تكمن خطورتها أيضاً بالحتمية والاضطراب مما أدى إلى القول

(٢٣) يعني علوم المادة الحية.

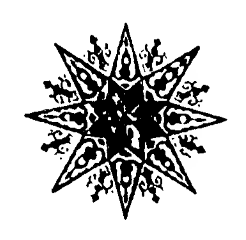
(٢٤) نفس المصدر، ص ٣٨.

(٢٥) أسس المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية، ص ١٦.

بالتطور المطلق، فلا شيء ثابت على الاطلاق، ولا شيء مقدس، وكل شيء في تطور. فالعقيدة تتطور، والأخلاق تتطور والأفكار تتطور، والطور الجديد أحسن وأرقى من الطور القديم.

٤ ـ تعتبر نظرية دارون من الأسس الهامة التي اعتمد عليها ماركس في نظريته وبخاصة في حتمية التطور والانتقال من طور إلى طور نتيجة لتغير الظروف الاقتصادية. والقول بأن الجديد أفضل من القديم وسوف يحل محله.

٥ ـ إعترف الماديون وغير الماديين بالصلة القوية بين نظرية دارون ونظرية ماركس، في تطور المجتمع حيث اعترفوا هم بذلك كما بينت ذلك سابقاً ومعلوم أن أي فساد يصيب الأساس يؤثر على سلامة البنيان. فإذا تزعزعت نظرية دارون تزعزعت نظرية ماركس من أساسها.



الفصل الرابع

مراحل التطوّر في التاريخ وحتميّاته

قبل الدخول في تفصيلات هذا البحث، لا بد من بيان مفهوم شروط حياة المجتمع المادية، المحددة لهيئة المجتمع وأفكاره، وأوضاعه السياسية وعقيدته وأخلاقه وقيمه ومبادئه، وما شاكل ذلك.

شروط حياة المجتمع المادية:

يقول الماديون: من المؤكد أن العوامل الطبيعية تؤلف أحد الشروط الدائمة لحياةالمجتمع المادية، وتؤثر في تطوره. فما هو أثرها على التطور الإجتماعي؟

إن المجتمع جزء من الكون المادي، وهو دائمًا في تطوره يتبادل التأثير مع الطبيعة، لأنها شرط ضروري لحياة لناس ولوجود المجتمع وتطوره.

فالأرض والشمس، والأنهار والبحار والمحيطات، والثروات الدفينة، والشروط المناخية تؤلف بمجموعها الوسط الجغرافي للمجتمع البشري. هذا الوسط الجغرافي يؤثر بشكل فعال على نمو المجتمع، لأنه شرط ضروري دائم لحياة المجتمع المادية. فهو إما أن يدفع حركة نمو المجتمع إلى الأمام، وإما أن يكون عائقاً لها.

يقول أصحاب كتاب المادية التاريخية: «إن شروط الوسط الجغرافي الجيدة تساعد على تطور الإنتاج، بينما تعرقل الشروط السيئة هذا التطور»[1].

ويضرب الماديون أمثلة على أثر الوسط الجغرافي في نمو المجتمع وتطوره.

«فلقد عملت سهولة استخراج الفحم الحجري في إنجلترا على نمو الصناعة في هذه البلاد، بينما وجود المستنقعات التي تتطلب أعمال التجفيف، أو وجود الصحراء التي تحتاج للري، أو فقدان البترول، كل ذلك ظروف يمكن أن تعيق نمو منطقة من المناطق»[2].

تأثير المجتمع في الطبيعة:

يقول الماديون: إن الإنسان يحول الطبيعة حين تخضع لسيطرته، ويصبح تأثيره عليها كبيراً مع تطور المجتمع، فالوسط الجغرافي الحديث لم يعد نتاجاً خالصاً للطبيعة، وإنما معظمه نتيجة لتأثير الإنسان عليها.

فالناس يقيمون السدود، ويمدون القنوات، ويصنعون البحيرات والممرات الصناعية، وغيرها من المنجزات التي تفيد الإنسان على وجه الأرض. هذه المنجزات البشرية تفتح أمام الإنسان مجالات واسعة لتغيير وجه الأرض، وتجعله أكثر جمالاً وملائمة لحياة الناس.

يقول سبركين وياخون: «وتحول البشرية ثروات الطبيعة إلى وسائل لحياة المجتمع الثقافية التاريخية. كم من القرون أخاف البرق

---

(١) المادية التاريخية، ص٩٨.

(٢) أصول الفلسفة الماركسية، ٢: ٨.

وهو يضيء ظلام الليل، ويسبب الدمار في غير قليل من الأحوال، أخاف خيال الإنسان وأجبره على أن يسجد أمام ضربات الرعد، لكن الانسان أخضع وضبط الكهرباء، وجعلها تخدم مصالح المجتمع. لقد تحول البرق بخنوع وأصبح يشتعل في مصابيع زجاجية ينير الشوارع والمنازل، ويحرك الآلات والقطارات.

«وينمو تأثير المجتمع على الطبيعة بقدر نمو الإنتاج المادي، ومع كل خطوة جوهرية في الإنتاج الإجتماعي يتم أيضاً تغيير في طابع التأثير الإجتماعي على الطبيعة، ومع نمو الإنتاج تتغير الحاجيات الإجتماعية، ويتغير الطلب على الموارد المادية الطبيعية[٣].

والإنسان يخضع الطبيعة ويقهرها لمصالحه الخاصة، فهو يؤثر بوعي عليها لأنه يستعمل القوانين الموضوعية في نشاطه.

يقول سبركين وياخوت: «وتشهد خبرة القرون العديدة أن الناس ليسوا عاجزين أمام قوى الطبيعة، وهم دائمًا يخرجون ظافرين في الكفاح ضدها.

لقد أخضع الإنسان قوة الماء وجعلها تعمل من أجله منذ القدم، ومنذ القدم تعلم استخدام قوة الريح في عمل طاحونة الريح، وفي حركة المركب الشراعي. وأخضع الإنسان أيضاً قوة البخار والكهرباء والطاقة الذرية.

«وبالتالي فليس الأفراد أداة عمياء في أيدي قوى لا ترحم. بل إنهم يؤثرون بوعي على الطبيعة ويقهرونها ويخضعونها لمصالحهم. وينتج من ذلك أن الإنسان ليس لعبة في يد القوانين، بل إنه حاكم الطبيعة، ولكن الناس يسيطرون عليها لا لأنهم يتصرفون كما يحلو

---

(٣) أسس المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية، ص ١٣٨ ــ ١٣٩.

لهم، وإنما لأنهم يستخدمون بمهارة القوانين الموضوعية في نشاطهم»[٤].

وبناءً على هذا فإن تطور المجتمع وتغيراته تجري بصورة أسرع بكثير من تطور الوسط الجغرافي وتغيراته، وعلى هذا الأساس فان الوسط الجغرافي لا يمكن أن يكون السبب الرئيسي الحاسم للتطور الإجتماعي، وإن كان يؤلف أحد الشروط الدائمة لحياة المجتمع المادية، ويؤثر في تطور المجتمع.

دور تزايد السكان في تطور المجتمع:

يقول الماديون: إن نمو السكان يؤثر في التطور الإجتماعي، لأن وجود حد أدنى من السكان على أرض معينة شرط ضروري لتطور المجتمع، لأن الإنسان بمفرده لا يستطيع أن يتصدى لقوة الطبيعة وإخضاعها لسيطرته، ولا يستطيع أيضاً أن يتحرر من وضعه الحيواني. ولكن الماديين لا يعتبرون نمو السكان وكثافتهم القوة الأساسية في تطور المجتمع، وذلك لأن نمو السكان لا يستطيع أن يبين أسباب انتقال نظام إلى نظام آخر، كالانتقال من المشاعية البدائية إلى الرق مثلاً. ومع ذلك فهم يعترفون بأثر نمو السكان على تطور المجتمع. فهو إما أن يعيق النمو الإجتماعي وإما أن يسهله.

«وعدد السكان الفعالين من العناصر التي يجب أن نحسب حسابها لتقدير القوى الإنتاجية، لأن نمو السكان يؤثر في النمو الإجتماعي، فهو يسهله أو يعيقه، وهكذا فإن تدفق الأيدي العاملة التي هاجرت إلى الولايات المتحدة قد ساعد على النمو السريع

(٤) نفس المصدر، ص ٥٦.

للصناعة الضخمة التي لم يكن قد مضى قرن على وجودها. كما أن فناء جزء من سكان أميركا الشمالية من الهنود على يد المستعمرين الأنجلوسكسون قد ساعد على ركود القبائل الباقية التقني والإقتصادي.

«ولكن هذا التأثير نفسه ليس فاصلاً، والدليل على ذلك أن نمو السكان نفسه لا يمكن أن يفسر لنا لماذا يخلف نظام إجتماعي معين نظاماً إجتماعياً ولا يخلفه نظام آخر. فخلف نظام الرق النظام الإقطاعي، وهذا النظام الإقطاعي قد خلفه النظام الرأسمالي. فلو أن نمو السكان يؤثر تأثيراً قاطعاً لكان على البلاد التي بلغت أضخم كثافة من السكان أن تتمتع بأفضل نظام إجتماعي. فقد كانت كثافة السكان في بلجيكا عام ١٩٣٩م أعلى منها في الإتحاد السوفياتي، ومع ذلك لا تزال بلجيكا في مرحلة الرأسمالية، بينما الإتحاد السوفياتي قد انتهى من هذا النظام»(٥).

أسلوب الإنتاج:

يقول الماديون أن أسلوب الإنتاج هو وحدة قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج، أي وحدة جانبي الإنتاج المعبرين عن نوعين من العلاقات، علاقة الإنسان بالطبيعة، وعلاقة الإنسان بالإنسان(٦).

وأسلوب الإنتاج هو القوة الأساسية التي تحدد هيئة المجتمع وطابع نظامه الإجتماعي، وتقرر تطور المجتمع من نظام إلى آخر. والمجتمع أياً كان بناؤه فإن الشرط الأول لبقائه هو التفاعل مع الطبيعة، وسد حاجات ومتطلبات الناس المادية في المأكل والمشرب

---

(٥) اصول الفلسفة الماركسية، ٢: ١٠.

(٦) أنظر المادية التاريخية، ص ٤٩.

والمسكن والملبس. هذه الخيرات المادية الضرورية لحياة الناس قد لا تكون جاهزة في الطبيعة فيضطر الإنسان إلى إنتاجها، لأن الناس حين يقومون بإنتاج الخيرات المادية، فإنهم ينتجون كل متطلبات حياتهم، ويجددون إنتاجها على حد تعبيرهم.

يقول ماركس: «وليس لنا بد مع الألمان المجردين عن أية مقدمات من أن نبدأ بتقرير المقدمة الأولى للوجود البشرى بكامله، وبالتالي للتاريخ بأسره، ألا وهي المقدمة التي تنص على أنه لا بد للبشر في[7] أن يكونوا في مركز يمكنهم من العيش، كما يكون في مقدورهم أن (يصنعوا التاريخ). بيد أن الحياة تشتمل قبل كل شيء على المأكل والمشرب والمسكن والملبس وأشياء عديدة أخرى. وهكذا فإن العمل التاريخي هو إنتاج الوسائط القمينة بسد هذه الحاجات، إنتاج الحياة المادية بالذات، وبالفعل فإن هذا العمل عمل تاريخي، شرط أساسي للتاريخ بكامله.

«لا بد في اليوم الحاضر، مثلما كانت الحال قبل آلاف السنين من تحقيقه يوماً فيوماً، وساعة فساعة لمجرد الإبقاء على الحياة الإنسانية»[8].

وإذن فالشرط الأساسي للتاريخ بكامله هو إنتاج الحاجات المادية الضرورية لأجل الحياة، ولأجل الحصول على هذه الحوائج لا بد من إنتاجها وبالتالي فلا بد من أدوات للإنتاج، ومعرفة كيفية استخدامها.

قوى الإنتاج:

يعتبر الماديون أن قوى الإنتاج أهم مفهوم في المادية التاريخية،

(٧) هكذا في الأصل ولعلها من.

(٨) الأيديولوجية الألمانية، ص ٣٧.

لأنه «يعبر عن علاقة الناس بالطبيعة، ويبين مدى سيطرة الإنسان عليها»[٩].

ووسائل العمل مختلفة ومتنوعة، وأدوات العمل تحتل المكانة المرموقة بينها، ولتحقيق عملية الإنتاج لا بد من وجود الشيء المراد تحويله، ولا يمكن تحويل الطبيعة دون استخدام الآلات.

إذن فإنتاج الخيرات المادية الذي هو أساس الحياة، وتطوير المجتمع يبدأ قبل كل شيء بصنع أدوات العمل واستخدامها، التي تكون على حد تعبير ماركس «الجهاز العظمي والعضلي للإنتاج»[١٠].

والبشر منذ اللحظة الأولى التي وجدوا فيها لم يستغنوا عن الأدوات البدائية، كالفأس الحجري القاطع مثلاً، والدور الرئيسي في الإنتاج يلعبه الأفراد، لأن أدوات الإنتاج بدون الأفراد العاملين عليها لا فائدة منها وتصبح ميتة. يقول سبركين وياخوت: «وهكذا فإن القوى المنتجة تعبر عن علاقات مادية بين المجتمع والطبيعة، ومستوى تطور هذه القوى دليل على درجة سيطرة البشرية على قوى الطبيعة، وبدوره يتحدد المستوى نفسه قبل كل شيء بأدوات العمل وتزويد الإنتاج بالطاقة، وتنظيم وتكنولوجيا العملية الإنتاجية وتطور العلم، وكذلك بمستوى استخدام المنتجين المباشرين للقيم المادية للمنجزات العلمية[١١].

والعمل عند الماديين هو مصدر كل ثروة، ونتيجة لتفاعل الإنسان مع الطبيعة، فإنه يحول المادة التي تقدمها له الطبيعة إلى ثروة

---

(٩) المادية التاريخية، ص ٤٩.

(١٠) أسس المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية، ص ١٤٤.

(١١) نفس المصدر، ص ١٥١ — ١٥٢.

يفيد منها في الإبقاء على حياته، لأن العمل هو أساس الحياة البشرية عندهم.

يقول انجلز: «يقول الإقتصاديون إن العمل هو مصدر كل ثروة، وإنه لكذلك فعلاً... مع الطبيعة التي تقدم له المادة التي يحولها إلى ثروة، ولكنه أكثر من ذلك أيضاً إلى ما لا نهاية له. إنه الشرط الأساسي الأول لكل حياة بشرية، وإنه لكذلك إلى درجة ينبغي علينا[١٢] معها بمعنى ما أن نقول: أن العمل قد خلق الإنسان ذاته»[١٣].

علاقات الإنتاج:

يقول الماديون: إن الإنتاج هو نضال الإنسان ضد الطبيعة، وهو لا يناضل وحده لأنه لا يستطيع أن يكافح الطبيعة بمفرده وبمعزل عن الناس. والمجتمع هو الذي أنقذه من حالته الحيوانية. والناس يناضلون مجتمعين ضد الطبيعة، ولهذا كانت طبيعة الإنتاج اجتماعية.

وبناءً على ذلك فإن للإنتاج علاقات إجتماعية، وأساس هذه العلاقات هو ملكية وسائل الإنتاج، وبناءً على ملكية وسائل الإنتاج تتحدد الجوانب الأخرى لعلاقات الإنتاج، كالعلاقات بين الناس بعضهم ببعض في عملية الإنتاج، والتعاون المتبادل في نشاطهم، والعلاقات القائمة على أساس توزيع المنتجات. وملكية وسائل الإنتاج عندهم، إما أن تكون ملكية جماعية، أي في يد المجتمع كله، يترتب عليها علاقة واحدة ـ بين الأفراد ووسائل الإنتاج ـ تقوم على المساعدة والتعاون المتبادل، وإما أن تكون ملكيتها ملكية خاصة، يملكها أناس

---

(١٢) هكذا وردت في الأصل وتستعمل لغة ينبغي لنا.

(١٣) نصوص مختارة، ص١٢٣.

معينون أو فئات إجتماعية أو طبقات تقوم على الظلم والاستغلال. «وتظهر حتماً في المجتمع علاقة السيد بالمسود»[١٤]. يقول الماديون: إن التاريخ عرف ثلاثة أشكال للملكية الخاصة وقعت في عصر الرق والإقطاع والرأسمالية، والسمة الرئيسية لها أنها قائمة على الإستغلال.

وعلاقة الإنتاج توجد بصورة لا ترتبط بإرادة الناس ووعيهم، لأن البشر لا يحددون علاقة الإنتاج، وإنما قوى الإنتاج الجديدة نتيجة عمل واع يقوم به الناس. بل هي(*) على العكس تنبعث من تلقاء نفسها، مستقلة عن وعي الناس وإرادتهم[١٥].

وكل أسلوب للإنتاج له قانونه الإقتصادي الأساسي، وجميع جوانب الحياة الأخرى يحددها أسلوب الإنتاج، وهو شرط لوجودها لأنها نابعة منه.

«وبما أن أسلوب الإنتاج هو الذي يحدد نمط حياة الناس في هذا المجتمع أو ذاك، فإن جميع ظواهر الحياة الأخرى تتعلق بأسلوب الإنتاج وتكون نابعة منه ومشروطة به»[١٦].

وحين تتغير قوى الإنتاج يغير الناس نوع الإنتاج، ولدى تغييرهم له يغيرون علاقاتهم الإجتماعية، وينتخبون المباديء والأفكار التي تتطابق مع علاقات الإنتاج الجديدة.

يقول ماركس: «ترتبط العلاقات الاجتماعية وتتعلق بالقوى الإنتاجية. ولدى تحقيقنا لقوى انتاجية جديدة يغير الناس نوع الإنتاج، وعند تغييرهم لنوع إنتاجهم، وعند تغيير طريقة كسبهم لمعيشتهم، فإنهم

---

(١٤) المادية التاريخية، ص ٥٧.
(*) أي علاقة الانتاج.
(١٥) أصول الفلسفة الماركسية، ٢: ٥٩.
(١٦) المادية التاريخية، ص ٦٠.

يغيرون كل العلاقات الإجتماعية. إن الطاحونة التي تدار باليد تمثل لك مجتمعاً يتحكم به السيد الإقطاعي، وتمثل الطاحونة البخارية مجتمعاً تتحكم فيه الصناعة الرأسمالية.

«إن نفس الناس الذين يؤسسون علاقاتهم الإجتماعية لتطابق إنتاجهم المادي، تراهم ينتجون أيضاً المباديء والأفكار واللوائح، لكي تطابق علاقاتهم الإجتماعية، وهكذا، فإن هذه الأفكار وهذه اللوائح ليست أبدية كالعلاقات التي تعبر عنها، إنها انتاج تاريخي وفترة انتقال»[17].

وبناءً على ما تقدم فإن الإنتاج في تغير ونمو، وتغير أسلوب الإنتاج عندهم يؤدي حتمًا إلى تغييرالنظام الإجتماعي بأسره، فالأفكار والمباديء والقيم والعادات والدين والأخلاق وجميع الظواهر الإجتماعية متغيرة ومتطورة، لأنها مرتبطة من حيث الأساس بأسلوب الإنتاج في المجتمع.

يقول ستالين: «الخاصة الأولى للإنتاج أنه لا يقف أبداً مدة طويلة في مدة معينة، فهو دائمًا في حالة تغير ونمو، وعلاوة على ذلك، فإن تغير أسلوب الإنتاج يؤدي بصورة حتمية إلى تغير النظام الإجتماعي بأسره، وتغير الأفكار الإجتماعية والآراء والمؤسسات السياسية.

«إن المجتمع ذاته، وأفكاره ونظرياته، وآراءه ومؤسساته السياسية تتعلق من حيث الأساس بأسلوب الإنتاج في المجتمع. أو ـ بعبارة أبسط ـ كل نمط من المعيشة يطابقه نمط من التفكير.

«ومعنى هذا أن تاريخ تطور المجتمع هو قبل كل شيء تاريخ

(١٧) بؤس الفلسفة، ص ١٢٢ ـ ١١٣.

تطور الإنتاج، وتاريخ أساليب الإنتاج التي تتعاقب خلال العصور، تاريخ تطور القوى المنتجة وعلاقات الإنتاج بين الناس»[18].

وعلاقات الإنتاج الجديدة التي لا تتعلق بإرادة الناس ووعيهم توجد داخل النظام القديم، لأن كل جيل من الناس يعمل لتحسين وسائل الإنتاج القديمة، وفكر الأنسان عندهم محصور بمصالحه اليومية، فهو لا يعي النتائج الإجتماعية، التي تترتب على تغيير وسائل الإنتاج القديمة. وقوى الإنتاج ليست مستقلة عن علاقات الإنتاج، لأن علاقات الإنتاج إما أن تكون عائقاً لنمو قوى الإنتاج، وإما أن تكون دافعاً لها إلى النمو والإزدهار، ولكن النتيجة الحتمية عندهم أنه لا بد أن تتلائم علاقات الإنتاج مهما تأخرت مع قوى الإنتاج وذلك عن طريق قلب صورة الملكية القائمة للإنتاج إلى ملكية جديدة.

«ولهذا يجب علينا أن لا ننسى ما يلي: إن قوى الإنتاج التي تتغير أولاً ليست مستقلة عن علاقات الإنتاج، وإن علاقات الإنتاج التي يتعلق نموها بنمو قوى الإنتاج تؤثر بدورها على نمو هذه القوى، فهي إما أن تعيقها أو تزيد في نموها. وتصبح علاقات الإنتاج عائقاً لنمو قوى الإنتاج، حينما لا تساير ازدهار قوى الإنتاج، وهي تصبح على العكس دافعاً لهذا النمو حينما تتفق وحالة قوى الإنتاج.

مهما كان إذن تأخر علاقات الإنتاج، فإنه يجب عليها ــ إن آجلاً أو عاجلاً ــ أن تتلائم مع طابع قوى الإنتاج الجديد. فكيف يتم هذا الانسجام؟ بقلب صور ملكية وسائل الإنتاج، التي تكون كما رأينا العنصر الأساسي في علاقات الإنتاج. ولهذا فإن إقامة نظام جديد للملكية يساوي إقامة علاقات جديدة للإنتاج[19].

---

(١٨) المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية، ص ٤٩ ــ ٥٠.

(١٩) أصول الفلسفة الماركسية، ٢: ٣٤، ٣٧.

يقول الماديون: لا بد لأجل الحياة البشرية من أن يكون في مقدور البشر تلبية حاجاتهم الضرورية، كالمأكل والمشرب والملبس والمسكن، لذلك فإن المطلب الأول هو إنتاج الوسائط القمينة بسد هذه الحاجات.

فالرابطة المادية هي الأساس الأول الذي يجمع البشر، وهي قديمة وجدت منذ اللحظة التي وجد فيها الناس، وسابقة على كل رابطة من الروابط الأخرى.

يقول ماركس: «وهكذا فإنه من الجلي تماماً منذ البداية أن ثمة رابطة مادية تجمع البشر بعضهم بعضاً، تتحدد بحاجاتهم ونمط إنتاجهم، وهي قديمة قدم البشر أنفسهم، وأن هذه الرابطة لتتخذ على الدوام أشكالاً جديدة، وبذلك تمثل «تاريخاً»، حتى دون أن يوجد بعد أي هراء سياسي أو ديني، يحقق علاوة على ذلك التماسك بين البشر»[٢٠].

الأشكال الإجتماعية الخمسة التي سجلها التاريخ عندهم

يقول الماديون: ولقد سجل التاريخ خمسة أشكال إجتماعية هي:

المشاعية البدائية، ونظام الرق، والإقطاع، والرأسمالية، ثم الإنتقال من الرأسمالية إلى الإشتراكية الممهدة للشيوعية.

وأول هذه الأشكال الإجتماعية هو **المشاعية البدائية**.

---

(٢٠) الأيديولوجية الألمانية، ١: ٣٩.

يقول الماديون: إن هذا الشكل الإجتماعي للإنتاج وجد منذ آلاف السنين، حيث كان الناس يعيشون في حالة وحشية يأكلون مما يجدونه في الطبيعة من نباتات صالحة للإستهلاك، كالخضر والفواكه، ثم اكتشفوا مصادر جديدة للغذاء باكتشافهم النار، وبعد ذلك استخدموا العصا والحجارة غير المنحوتة، وكانت أول أدوات استخدمها الإنسان البدائي، ثم اخترع الرمح الحجري المسنون والسهم الحجري، واستخدمه في صيد الحيوانات. وتدرج الإنسان في اختراع الأدوات، ولكنه مع ذلك بقي ضعيفاً في مواجهة قوى الطبيعة وسبب ذلك راجع إلى عدم استقرار الغذاء ودوامه، فلم يتمكن من ادخار قوته.

وكان البشر يعيشون في قبائل مؤلفة من عدة بطون تجمعهم صلة القربى ولم يكن لديهم تملك خاص لأدوات الإنتاج، وكان الغذاء مشتركاً بينهم.

يقول إنجلز: «وكانت جامعة البيت مشاعية تضم عدة أسر، وفي أغلب الأحيان أسراً كثيرة... ولا سيما على شاطيء أميركا الشمالية الغربي، لدى الهيدائي القاطنين في جزر كوين شارلوت، تضم بعض الجماعات البيتية (٧٠٠) شخص تحت سقف واحد. أما بين النوتكين فكانت قبائل بأسرها تعيش تحت سقف واحد[٢١].

يقول الماديون: إن ماركس وإنجلز قد برهنا على أن المشاعية البدائية كانت الشكل الأول للمجتمع، ثم وصل العالم الأميركي مورغان بعد ذلك بثلاثين سنة، وبصورة مستقلة عن أبحاث ماركس وإنجلز إلى النتيجة نفسها، بعد أن أجرى دراسة مطولة على القبائل المتوحشة وشبه المتوحشة في أميركا وجزر المحيط الهاديء.

(٢١) أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة، ص ٢٥١

يقول سيغال: «ولا تزال بقايا المشاعية البدائية موجودة حتى أيامنا هذه لدى عدد من الشعوب في شكل مشاعية بدائية، تملك الجماعات الزراعية فيها الأرض ملكاً مشتركاً، وتوزع حصصاً منها على أعضائها للتصرف بها بصورة مؤقتة. وليس يمكن بعد هذا أن يوضع موضع الشك، وجود المشاعية البدائية كنقطة بدء في تطور الشعوب كلها»[٢٢].

ونرى الماديين يشددون النكير على من ينكر وجود المشاعية البدائية ويقول بأن الملكية الخاصة ملازمة لطبيعة الإنسان، وأن إنكار المشاعية البدائية يخدم البرجوازية في تعزيز موقفها أمام نضال الشيوعية الحديثة، لأن البرجوازية قائمة على استغلال الطبقة العاملة.

يقول سيغال: «يزعم أعداء الشيوعية، أن مجتمع المشاعية البدائية لم يوجد قط، على دعواهم، وأن الملكية الخاصة وانقسام المجتمع إلى طبقات كانا موجودين منذ وجد المجتمع، ويسعى هؤلاء جهدهم ليظهروا أن الملكية الخاصة لا تنفصل عن طبيعة الإنسان ذاتها، وأنه لا يمكن للملكية من نوع واحد أن توجد، وأن المجتمع كان دائماً منقسماً إلى طبقات، وأن مجتمعاً دون طبقات هو فرضية لا يمكن تصورها.

«إن إنكار وجود المشاعية البدائية هو من مصلحة البرجوازية وعملائها في نضالهم ضد الشيوعية الحديثة»[٢٣].

ويقول أصحاب كتاب المادية التاريخية: «وهكذا فقد كان القطيع[٢٤] البدائي أول شكل إنتقالي للمجتمع الذي حدث فيه تكوين

---

(٢٢) لمحة عن تطور المجتمع منذ بدء التاريخ، ص ١٥.

(٢٣) نفس المصدر، ص ١٥.

(٢٤) نلاحظ هنا التأثير الكبير لنظرية داروين على الكتاب الماركسيين.

الإنسان. ولقد ظهر ذلك القطيع عندما انفصل الإنسان عن عالم الحيوان وبدأ بإنتاج أدوات العمل، وما زال باقياً إلى أن تكونت ملامح الإنسان الحديث نتيجة لتطورها التدريجي البطيء»[٢٥].

إنحلال المشاعية البدائية:

يقول الماديون: إن الناس لو عاشوا فرادى لما استطاعوا أن يخترعوا أدوات الإنتاج البدائية، التي كافحوا بواسطتها ضد الطبيعة، إذن فوجود نظام مشاعي كان ضرورياً للمجتمع الإنساني الأول.

يقول سيغال: «لقد كان هذا النظام المشاعي البدائي ضرورياً للمجتمع الإنساني ي تلك المرحلة من التطور. فلقد كان من المستحيل على المجتمع لو عاش أفراده حياة منعزلة مبعثرة أن يخترع الأسلحة والأدوات البدائية، وأن يحسنها فيما بعد، ولم يستطع الناس أن يحرزوا إنتصاراتهم الأولى في ميدان الكفاح ضد الطبيعة، إلا بفضل حياتهم التعاونية. لقد كان اتحادهم في بطن مشاعي هو قوتهم الرئيسية»[٢٦].

ولقلة الموارد الغذائية، لم يكن هناك استغلال في المجتمع المشاعي البدائي، لأن الإستغلال لا يوجد إلا إذا استطاع الإنسان أن ينتج ما يكفيه ويكفي الآخرين أيضاً على حد تعبيرهم.

أما المجتمع المشاعي فلم يكن ينتج أفراده إلا الضروري من الأشياء التي يحتاجون إليها في يومهم. وكان العمل مقسماً بين الرجل والمرأة. هذا التعاون في المجتمع البدائي وعدم الإستغلال لم يكن نابعاً عن وعي منهم وإرادة بل تشكل وتطور بصورة طبيعية.

---

(٢٥) المادية التاريخية، ص ٣٣٥.

(٢٦) لمحة عن تطور المجتمع منذ بدء التاريخ، ص ٨ ـ ٩.

يقول سيغال: «لقد كان مستوى تطور قوى المجتمع المنتجة هو الذي يحدد ظروف النظام المشاعي البدائي، ومن الخطأ التصور أن الناس البدائيين هم الذين أوجدوا هذا النظام عن وعي منهم، فلقد تشكل وتطور بصورة طبيعية، ودون علاقة بإرادة الناس ووعيهم»(٢٧).

ونتيجة لتطور أدوات الإنتاج وتحسينها، واختراع أدوات جديدة، وظهور تربية المواشي، وظهور الزراعة، كل هذا أدى إلى تغييرات في علاقات الإنتاج، وأدى إدخال تربية المواشي إلى أول تقسيم للعمل، لأن أصحاب المواشي بدأوا يستفيدون من لحمها وألبانها وصوفها، بينما القبائل الأخرى التي لا تربي المواشي محرومة من هذه المنتجات. وظهر نتيجة لذلك ما يسمى بنظام المقايضة المنظم وهو تبادل سلعة بسلعة أخرى. ثم ظهرت الزراعة واختراع الأدوات الجديدة، ونول الحياكة وصهر الفلزات، كل هذا أدى إلى تفسخ نظام المشاعية البدائية.

يقول أصحاب كتاب المادية التاريخية: «ومع ظهور الإنتاج الفردي ظهر التناقض بين الملكية الإجتماعية، والطابع الفردي لعملية الإنتاج، هذا التناقض الذي يحل عن طريق القضاء على الملكية الإجتماعية، وظهور الملكية الخاصة لوسائل ومواد الإنتاج، وهذه هي الأسباب الرئيسية التي أدت إلى القضاء على النظام البدائي كحتمية تاريخية طبيعية»(٢٨).

صراع الطبقات:

بعد أن تلاشت المشاعية البدائية وظهرت الملكية الخاصة، ظهر

---

(٢٧) نفس المصدر، ص ٩.

(٢٨) المادية التاريخية، ص ١٦١.

أول تقسيم للمجتمع إلى طبقات على أساس المصالح الإقتصادية، التي هي الأساس في التعامل بين الطبقات البشرية، وهي المحددة في نهاية الأمر لجميع المصالح والأيديولوجيات الأخرى.

يقول سبركين وياخوت: «والمصالح الأساسية للفئات الإجتماعية والطبقات البشرية هي أولاً وقبل كل شيء مصالح مادية إقتصادية، تحدد في نهاية الأمر المصالح السياسية والقانونية والأخلاقية والدينية والجمالية والعلمية والفلسفية وغيرها»[٢٩].

والطبقات وفقاً لتعريف لينين هي: «مجموعات كبيرة من الناس تتميز بمكانها في نظام الإنتاج الإجتماعي المحدد تاريخياً (وبعلاقاتها التي تثبت في الغالب وتصاغ في القوانين) بوسائل الإنتاج، وبدورها في التنظيم الإجتماعي للعمل، وبالتالي أساليب حصولها على ذلك النصيب من الثروة الإجتماعية الذي تمتلكه ومقاديره»[٣٠].

إذن فأهم سمة تحدد الفوارق الطبقية هي علاقة الطبقات المختلفة بوسائل الإنتاج، وأساليب حصولها على الثروة ومقداره.

إن الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج هي الأساس الإقتصادي لانقسام المجتمع إلى طبقات، واستغلال مالكي وسائل الإنتاج للكادحين، لأن تطور قوى الإنتاج، وتقسيم العمل، ونمو الإنتاج، يبرز المنطلقات الإقتصادية لظهور الطبقات، التي أول ما نشأت عن طريق تقسيم الجماعة البدائية إلى فئات طبقية فتشكلت الطبقة

(٢٩) أسس المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية، ص ١٦٢.
(٣٠) نقلاً عن نفس المصدر، ص ١٦٩.

المسيطرة «من تلك الأسر التي كانت تقوم بالوظائف الإجتماعية وتستخدم سلطتها من أجل تجميع الثروة بين أيديها، وكان أول تقسيم طبقي للمجتمع هو تقسيمه إلى فئتين: فئة الأرقاء، وفئة الأسياد. وبعدها صار التاريخ البشري مسرحاً للصراع الطبقي. يقول ماركس: «منذ تلاشت الملكية الجماعية للأرض في العصور البدائية، كان التاريخ بكامله تاريخاً لصراع الطبقات»(٣١).

ويقول كورنفورث: «إنما صار تاريخ الإنسان فقط هو تاريخ الصراع الطبقي لتغير ظروف الإنتاج مع نشوء الزراعة، ثم التغير الهائل في المجتمعات الرأسمالية»(٣٢).

والطبقة التي تملك وسائل الإنتاج، وتملك الوسائل المادية هي التي تحكم، لأن الذي يملك هو الذي يحكم، وأفكارها هي المسيطرة على أفراد المجتمع.

يقول ماركس: «إن أفكار الطبقة السائدة هي في كل عصر الأفكار السائدة أيضاً، يعني إن الطبقة التي هي القوة المادية السائدة في المجتمع هي في الوقت ذاته القوة الفكرية السائدة. إن الطبقة التي تتصرف بوسائط الإنتاج المادي تملك في الوقت ذاته الإشراف على وسائط الإنتاج الفكري، بحيث أن أفكار أولئك الذين يفتقرون إلى وسائط الإنتاج الذهني تخضع من جراء ذلك لهذه الطبقة السائدة(٣٣).

وفي المجتمع القائم على التقسيم الطبقي يكون الصراع حتماً

(٣١) نقلاً عن الماركسية تفسير وتعريب، ص ٣٣.
(٣٢) مدخل إلى المادية التاريخية ص ٣٠ ـ ٣١.
(٣٣) الأيديولوجية، ص ٥٦.

سياسياً، لأن العلاقات السياسية تنشأ وفقاً لوعي الناس نتيجة النضال الطبقي.

يقول أصحاب المادية التاريخية: «إن العلاقات السياسية ـ بخلاف العلاقات الإقتصادية المادية ـ التي لا تنشأ من خلال وعي الناس تنشأ وفقاً لوعي الناس الذي يتكون على أساس النضال الطبقي ومن خلال سيره، ووفقاً للأيديولوجية السياسية كذلك»(٣٤).

ويقول ماركس: «إن كل نضال طبقي هو نضال سياسي»(٣٥).

وإن السمة الأساسية لكل مجتمع قائم على أساس الصراع الطبقي هو وجود طبقة مظلومة داخل هذا المجتمع.

ولأجل تحرير هذه الطبقة المظلومة، لابد من بناء مجتمع جديد يقوم على أكتافها هي نفسها.

يقول ماركس: «إن كل وسائل الإنتاج، وإن أعظم قوة منتجة هي الطبقة الثورية نفسها»(٣٦).

نظام الرق:

يقول الماديون: على إثر تفسخ نظام المشاعية البدائية، نتيجة لضغط القوى المنتجة التي أوجدها، وظهور الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج التي هي مصدر الفوارق الإقتصادية بين الناس، والتي نشأ عنها ظهور طبقة مستغلة تسعى إلى الإستغلال للإنسان ومنتوج عمله، كان لا بد من تحويل الإنسان نفسه إلى وسيلة عمل، وإرغامه على العمل لدى الآخرين.

---

(٣٤) المادية التاريخية، ص ٢٧١.

(٣٥) نفس المصدر، ص ٢٤٧.

(٣٦) بؤس الفلسفة، ص ١٧٩.

جاء نظام الرق أول أشكال الإستغلال وأكثرها وحشية وقسوة. يقول إنجلز: «إن تطبيق العبودية في الظروف التي كانت سائدة في ذلك الحين قد كان خطوة كبرى إلى الأمام، ذلك أنه من الحقائق الواقعة أن الإنسان قد انبثق من الحيوانات[٣٧]، وبالتالي فلم يكن له بد من استخدام وسائل بربرية، تكاد أن تكون وحشية، من أجل تخليص نفسه من البربرية»[٣٨].

كيف نشأ نظام الرق؟

يقول الماديون: نشأ نظام الرق من طريقين: طريق الحروب، وكان المغلوب في الحرب يتحول إلى رقيق، ولكن هذا المصدر لا يكفي وحده بل لابد من مصدر آخر للرق.

ظهرت التجارة نتيجة لزيادة تقسيم العمل والتبادل. حيث كان التجار يستفيدون من عزلة المنتجين الصغار عن السوق، فيشترون منهم السلع بأسعار متدنية، ويبيعونها مرة أخرى بأسعار مرتفعة. ونتيجة لنمو الإنتاج السلعي والتبادل النقدي، ظهر الإقراض الربوي، وظهر استعباد المدين عن طريق الديون.

يقول ماركس: «كان الصراع الطبقي في المجتمع القديم، وبالدرجة الأولى، صراعاً بين الدائنين والمدينين، وقد انتهى في روما إلى زوال المدين من طبقة العامة وتحوله إلى عبد»[٣٩].

فقد كان المدين الذي يثقل كاهله الدين نتيجة للإقراض الربوي الفاحش يضطر لبيع والده أو ابنه، أو نفسه رقيقاً لأجل سداد دينه.

---

(٣٧) نلاحظ التأثير الواضح للداروينية على تفكير إنجلز.

(٣٨) آنتي دوهرنغ، ص ٢١٧.

(٣٩) رأس المال (١: ٢٠٠) نقلاً عن لمحة عن تطور المجتمع منذ بدء التاريخ، ص ١٧.

ظهور الدولة والشعب:

يقول الماديون: كانت علاقة الإنتاج السائدة قائمة على استغلال الرقيق من قبل أسيادهم، وقد كان استثمار عمل الرقيق يجلب لمالكيهم ثروات هائلة. ومن أجل حماية مصالح الطبقة المستغلة، وإدارة المجتمع ظهرت الدولة لأول مرة، ومعها كل أدوات السلطة، الجيش والشرطة وجهاز الموظفين والسجون وغيرها. وظهرت العلاقات الحقوقية والسياسية، ونتيجة لظهور الملكية الفردية نسفت رابطة الدم، وظهر الشعب كشكل جديد لاجتماعية الناس. وتميز بوحدة الأرض العامة، واللغة والثقافة. وعن طريق الحروب والغزوات نشأت دول كبيرة كالإمبراطورية الرومانية مثلاً، والشعوب تستفيد من وجود مثل هذه الإتحادات القوية، لأنها تقوي من تفاعلها بعضها مع بعض وتستفيد من المنجزات لدى الشعوب الأخرى وتطورها.

وحينما انفصل العمل الفكري عن العمل الجسماني، توفرت الفرصة لإمكانية تطوير المعارف النظرية التي تنمو الحاجة إليها من الإنتاج ذاته.

يقول أصحاب كتاب المادية التاريخية: «إن تطور الصراع الطبقي والمعارف النظرية أدى إلى ظهور الفلسفة، وحدثت إختلافات مهمة على صعيد الدين، الذي تحول تدريجياً إلى أداة روحية لاستعباد الجماهير، وبهذا فإن انقسام المجتمع إلى طبقات يحدث انقلاباً جذرياً في البنيان الفوقي وفي حياة المجتمع الروحية كلها، وفي المجتمع العبودي بالذات ظهرت لأول مرة كل الأشكال الراهنة للوضع الإجتماعي»[٤٠].

---

(٤٠) ص ١٦٣.

معاملة الرقيق:

كان العبد ملكاً مطلقاً لسيده، يتصرف به كالسوائم. كان سيده يستطيع قتله دون أن يناله عقاب. وكان محروماً من جميع الحقوق المدنية. ولم يكن من صالح السيد أن يكون عبده متزوجاً أو صاحب أسرة، وقد كان العبد يستغل استغلالاً بشعاً مما يؤدي إلى إتلاف قوته سريعاً، فإذا عجز عن العمل قتل وكان من الضروري استبدال الميت بغيره، فكانت الحروب أعظم مصدر للرق، وكثيراً ما تمرد العبيد نتيجة للمعاملة القاسية كثورة اسبارطاكوس من سنة ٧٣ إلى سنة ٧١ ق. م. ولكنها انتهت كلهـا إلى الفشل. ونتيجة للمعاملة القاسية تولد عند العبيد التمرد وبغض العمل، ولم يعد يعطي نظام الرق أية فائدة تستحق الذكر لا في الزراعة ولا في المعامل اليدوية.

يقول إنجلز: «لكن هذه العبودية المشرفة على الموت كانت لا تزال من القوة بحيث تجعل كل عمل من أعمال الإنتاج يبدو كأنه عمل عبودي وضيع لا يليق بمقام الرومان الأحرار.

«إن المسيحية ليست مسؤولة قط عن هذا الزوال التدريجي للعبودية القديمة، إذ هي قد جنت من ثمار العبودية في الإمبراطورية الرومانية خلال قرون من الزمن، ولم تفعل فيما بعد شيئاً، لا لمنع المسيحيين من المتاجرة بالرقيق سواء الألمان في الشمال، أو تجار البندقية على البحر الأبيض المتوسط، ولا لحظر التجارة بالرقيق الزنوج في السنين الأخيرة، وإنما زالت العبودية لأنها لم تعد تدر ربحاً قط. لكنها بزوالها خلفت وراءها لسعتها السامة، وذلك بوسمها عمل الأحرار في الإنتاج بميسم الضعة، فكان ذلك بمثابة الزقاق المسدود الذي وجد العالم الروماني نفسه فيه. كانت العبـودية مستحيلة من النـاحية الاقتصادية، وكان عمل الأحرار مستهجناً من الناحية الأخلاقية، لم

يعد في وسع الأول أن يظل أساس الإنتاج الإجتماعي، وكان الأخير لا يزال غير قادر على أن يكون أساساً لهذا الإنتاج. لم يكن ينفع في هذا الحال سوى ثورة كاملة»(٤١).

إنحطاط نظام الرق:

يقول الماديون: نتيجة لتطور القوى المنتجة، وتحسين عملية صهر المعادن وصناعة الحديد، وانتشار المحراث الحديدي، ونول النسيج، وتطور زراعة الأرض، وإدخال أدوات جديدة أكثر صلاحية، كان الوضع يتطلب تغييراً في علاقات الإنتاج في مجتمع عهد الرق.

يقول سيغال: «كان نظام الرق شكلاً إجتماعياً ضرورياً من أشكال تطور القوى المنتجة في مرحلة معينة من مراحل التاريخ، ولكن هذا التطور كان بدوره سبباً لانحطاط هذا النظام»(٤٢).

نظام الإقطاع:

يقول الماديون: إنتهى نظام الرق إلى الدمار حين أصبح مناقضاً لطابع قوى الإنتاج، ولأجل بناء الاقتصاد من جديد، لابد من علاقات إنتاجية جديدة. ونتيجة لعلاقات الإنتاج الجديدة، جاء النظام الإقطاعي، وحل محل نظام الرق، ويوجد بين النظامين تشابه من حيث كونهما يعتمدان على أدوات إنتاجية ضعيفة. كما أن تطور المجتمع فيهما يتم ببطء شديد.

ويتميز النظام الإقطاعي بأن علاقات الإنتاج فيه قائمة على ملكية الإقطاعي للأرض كوسيلة رئيسية للانتاج، وقيام ارتباط

---

(٤١) أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة، ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧.

(٤٢) لمحة عن تطور المجتمع منذ بدء التاريخ، ص ٢١.

الفلاحين بالإقطاعيين داخل حدود معينة. ويشتغل الفلاح لحساب السيد الإقطاعي، ولكنه يمتلك قطعة أرض خاصة به، وله نصيب معين من المنتوج الضروري لتجديد قوة عمله، يستفيد منه هو وعياله. يقول أصحاب كتاب المادية التاريخية: «ولهذا فإن تجديد القوة العاملة هنا لم يكن مرتبطاً بالحرب بصورة حتمية، ولم يكن ذا طابع وحشي كما كان في نظام عهد الرق»(٤٣).

كان نصيب الفلاح من المنتوج لا يذكر، وكان دائمًا معرضاً للجوع والمرض والشقاء، وكان مصيره مرتبطاً باستبداد الإقطاعي. ولا يتمتع الفلاح بأي حق سياسي. وقد كان مجبراً على العمل مجاناً أياماً معينة من الأسبوع، وتسليم جزء من محصول أرضه أتاوة لسيده الإقطاعي، وكان الفلاح يملك حق ترك سيده لينضم إلى سيد آخر، ولكنه لا يستطيع أن يفلت من السيادة الإقطاعية.

ونتيجة للظلم الإقتصادي الفاحش، وحرمان الفلاحين من حقوقهم حرماناً كاملاً. بدأ الفلاحون النضال ضد الاقطاعيين، فكان النضال في بداية الأمر على شكل هروب من الإقطاعية، ثم تدرج إلى إنتفاضات مسلحة، ولكنها باءت بالفشل لقوة الإقطاعي أولاً، وعدم تنظيم الفلاحين، وتحديد أهداف سياسية واضحة لهم ثانياً.

ولما كان طابع الإنتاج بدائياً ولا يعتمد على الآلات، وتطور المبادلات التجارية ضعيفاً، وطرق المواصلات صعبة وسيئة، اضطرت المدن لأجل الحصول على الحكم الذاتي أن تخوض نضالاً قاسياً ومريراً. وفازت أخيراً بالحكم الذاتي، وكان لها حامياتها الخاصة، وكان الحرفيون متكتلين في هيئات حرفية استدعى وجودها إيجاد مستودعات مشتركة، وضرورة مراقبة الأسعار ونوع المصنوعات بغية المزاحمة،

(٤٣) المادية التاريخية، ص ١٦٨.

لذلك كانوا محتاجين للدفاع ضد الإقطاعيين. ونتيجة لتطور التبادل أخذ استغلال الفلاحين يشتد من قبل الإقطاعيين، وكلما استطاع الإقطاعي شراء الأسلحة لتقوية رجاله، ازدادت الأتاوات، وقد كان الإقطاعيون الكبار يفرضون المكوس على التجارة التي تمر في أراضيهم، ونتيجة للضغط الشديد هرب الفلاحون إلى المدن، وكانت هذه الزيادة البشرية تنفع المدن في نضالها ضد الإقطاعيين، ولكنها أخيراً بدأت تهدد الحرفيين بسبب المنافسة الشديدة، ونشأ الصراع بين الحرفيين والتجار، وجاءت الإكتشافات الجغرافية فدفعت التجارة بقوة إلى الأمام، وظهر نظام المعمل اليدوي وظهر التقسيم الإجتماعي للعمل، وأصبح العامل يبيع قوة عمله.

وقد نشأت السلطة المركزية، وحلت الجيوش الملكية محل الجيوش الإقطاعية، وأضيفت على الفلاح أتاوات أخرى لسد نفقات الدولة الإقطاعية الجديدة. وتحولت الأتاوات من عينية إلى نقدية بعد ظهور التعامل بالنقود التي ظهرت على المسرح مؤخراً، وصار الفلاح لأجل الحصول على المال اللازم لسد هذه النفقات يبيع منتوجاته في السوق، فوقع من جديد في قبضة المحتكر والمرابي.

وقد كانت الطبقة المسيطرة في النظام الإقطاعي هي طبقة الملاك الكبار، ورجال الدين النصراني. وكانت الدولة تتمتع بنظام الحكم المطلق. وكان الدين من الناحية الأيديولوجية هو صاحب السيادة وحده. يقول أصحاب المادية التاريخية: «إن الدولة والكنيسة هما الجهازان الجباران المسيطراز على المجتمع واللذان يحميان مصالح الطبقة المسيطرة»(٤٤).

وحين أصبح النظام الإقطاعي عقبة في وجه كل تطور لاحق في

(٤٤) نفس المصدر، ص ١٦٩.

الإنتاج الجديد، وأخذت العلاقات الإنتاجية الرأسمالية تظهر وتتطور مع نمو قوى الإنتاج الجديدة، نتيجة لعدة عوامل، منها الإكتشافات الجغرافية، وزيادة التجارة، وحين أصبح الرأسمالي يستغل العامل، نتيجة لهذا كله انهار نظام الإقطاع، وانفجرت الثورات البرجوازية الرامية إلى هدم النظام الاقطاعي، وفسح المجال أمام تطور الرأسمالية.

يقول سيغال: «وهكذا نرى أن الإقطاعية التي كانت متوافقة عند نشأتها مع مستوى القوى المنتجة في المجتمع، صارت متناقضة مع القوى المنتجة المتنامية وصار إلغاؤها ضرورة تاريخية»(٤٥).

نظام الرأسمالية:

يقول الماديون: إن القانون الأساسي للتغيير الاجتماعي هو الذي يحكم التغيرات في أسلوب الإنتاج. وينشأ النزاع بين نمو قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج القائمة، ويترتب على هذا النزاع حدوث الثورة الإجتماعية، وبالتالي إنتقال السلطة إلى يد طبقة جديدة بعد أن ينهار النظام القديم لعلاقات الإنتاج.

وقد أصبح نظام الإقطاع نفسه عائقاً أمام تطور القوى الإنتاجية، حيث كانت الملكية الإقطاعية والأتاوات، والقيود على التجارة عائقاً في تطور الزراعة والصناعة، اللتين كانتا تستخدمان اختراعات جديدة تحتاج إلى أيد عاملة بالأجر.

كيف نشأت البرجوازية؟

يقول الماديون: كان الإنتاج في البداية ضعيفاً ويستهلك محلياً وكان التبادل ضعيفاً أيضاً، وفي القرن الثاني عشر ظهر في أسواق المدن

---

(٤٥) لمحة عن تطور المجتمع منذ بدء التاريخ، ص ٣٣.

فائض الإنتاج، ونشأت طبقة تخصصت في بيع السلع وشرائها هي طبقة التجار طلائع البرجوازية، هذا البرجوازي الذي كان يعتقد أن كل شيء يباع ويشترى، إشترى في بداية الأمر الأرقاء ليعملوا عنده، ثم اشترى الحقوق السياسية وكان الملك يقف إلى جانبهم مقابل إقراضه مبلغاً من المال[٤٦]، ينفقه لتقوية الدولة، ونتيجة للإكتشافات الجغرافية الكبرى التي قامت من أجل الإستيلاء على الذهب، تكدست الثروات الضخمة في يد التجار، وتكونت طبقة العمال المأجورة من الفلاحين المفلسينْ أو المضطهدين الهاربين من الإقطاعيين، أو الصناع اليدويين الذين قضت عليهم المضاربة، فانتقلوا من عبودية الإقطاعي إلى عبودية البرجوازي، فاضطروا لكي لا يموتوا جوعاً إلى بيع قوة عملهم إلى البرجوازي. وحدثت في القرن الثامن عشر في أوروبا الثورة الصناعية، واشتد النضال بين البرجوازية والإقطاعية في ذلك القرن، واتخذ شكلاً سياسياً بعد أن سيطرت البرجوازية على المجتمع إقتصادياً.

كيف تصبح قوة العمل الإنساني بضاعة؟

هناك عدة شروط يجب توفرها لكي تصبح قوة العمل الإنساني بضاعة وهي:

١ ــ أن يكون الإنسان العامل حراً غير مسترق لأحد.

٢ ــ أن توجد الأسواق لتصريف المنتجات.

٣ ــ أن لا يكون لدى الناس العاملين وسيلة إنتاج ولا يملكون شيئاً للبيع سوى قوة عملهم.

(٤٦) كان معظم الدائنين الربويين للملوك من اليهود. وقد كانوا يستغلون مراكز الملوك السياسية لخدمة مصالحهم الشخصية ونشر أفكارهم، أنظر بروتوكولات حكماء صهيون، وأحجار على رقعة الشطرنج.

يقول أصحاب كتاب أصول الفلسفة الماركسية: «ولهذا كانت مصلحة الرأسمالي في تحديد العمل اليومي، كما أن مصلحة البرولتاري في تقصيره، فإذا وجب ثلاث ساعات لإنتاج قيمة تساوي ما تتطلبه تغذية قوة العمل عند العامل، وإذا كان هذا العامل يبدأ عمله في الساعة السادسة صباحاً، فإنه منذ الساعة التاسعة يعمل لمصلحة الرأسمالي، فإذا عمل بدون انقطاع وانتهى من عمله الساعة ١٤ فإنه يكون قد عمل خمس ساعات لمصلحة الرأسمالي»[٤٧].

وقد أصبح الرأسمالي يملك وسائل الإنتاج، ويملك البضائع المصنعة من قبل العمال، والعامل لا يأخذ إلا أجراً زهيداً يعادل ثمن قوة عمله، والقيمة الزائدة المنتجة هي لصالح الرأسمالي، الذي يسعى للحصول على أكبر قدر من الربح، لذلك فهو تحت ضغط المنافسة يحاول زيادة الإنتاج، ويسعى إلى إدخال آلات جديدة تساعد على تحسينه ورفع مستواه، ويستغل العمال بشدة، ولكن خطوة إلى الأمام في الإنتاج هي في نفس الوقت خطوة إلى الخلف بالنسبة للطبقة المضطهدة.

يقول إنجلز: «ولما كان استغلال طبقة من قبل طبقة أخرى هو أساس الحضارة، فإن نموها كله يسير في تناقض مستمر، كل خطوة إلى الأمام في الإنتاج هي في الوقت ذاته خطوة إلى الوراء في أحوال الطبقة المضطهدة، أي الأكثرية العظمى. كل ما هو خير للبعض لا بد أن يكون شراً للآخرين، كل تحرر جديد لإحدى الطبقات يعني دائماً إضطهاداً جديداً لطبقة أخرى. وأعظم دليل على هذا نجده في إدخال الآلة، التي يعرف العالم بأسره آثارها الآن»[٤٨].

---

(٤٧) أصول الفلسفة الماركسية (ص ٧١ ــ ٧٢).

(٤٨) أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة (ص ٢٧٩).

إن الضرورة الإقتصادية تربط العامل بالرأسمالي بصورة قوية، لأنه لا يستطيع الهروب من الرأسمالي، فلا بد للعامل أن يختار بين العمل لحساب الرأسمالي والموت جوعاً، والرأسمالية تحتاج إلى السوق الواسعة من أجل تصريف الإنتاج، فأنشأت لأول مرة نظاماً إقتصادياً عالمياً واحداً وسوقاً عالمية واحدة. يقول أصحاب كتاب المادية التاريخية: «ولأول مرة في التاريخ تنشيء الرأسمالية نظاماً إقتصادياً عالمياً واحداً، وسوقاً عالمية واحدة، وتجرف شعوب العالم جميعها مع تيار التطور الرأسمالي»(٤٩).

تكوين العمل الجماعي:

يقول الماديون: إن الرأسمالية طورت التقسيم الإجتماعي للعمل على نطاق واسع، وظهر المعمل الرأسمالي المجهز بالوسائل الآلية الضخمة وزادت البضاعة المنتجة، وتطورت وسائل المواصلات، كل هذا لإيجاد السوق العالمية للإقتصاد الرأسمالي. يقول كورنفورث: «والسمة الأساسية لزيادة قوى الإنتاج التي نشأت في إطار الرأسمالية هي تشريك العمل، فلقد حلت محل الإنتاج الفردي الصغير قوة العمل الاجتماعي، الذي يتعاون الناس فيه معاً في منشآت إنتاجية كبيرة، تستخدم آلات تعمل بالطاقة. لكن هذه السمة تعوقها علاقات الإنتاج الرأسمالية التي تجعل التاريخ ملكاً للرأسماليين، وتجبر الإنتاج الاجتماعي على أن يخدم الربح الخالص»(٥٠).

نشوء الأمة:

يقول الماديون: على أساس الإجتماعية الإقتصادية الرأسمالية

---

(٤٩) المادية التاريخية (ص ١٧٩).

(٥٠) مدخل إلى المادية التاريخية (ص ٧٣).

تنشأت إجتماعية الأمة، وحل الحكم البرجوازي الدستوري محل الحكم الملكي المطلق. وتقدر قيمة الفرد في المجتمع البرجوازي الذي يسيطر عليه رأس المال بمقدار رأسماله، وأساس المساواة في هذا المجتمع هي المساواة الإقتصادية، والدين النصراني المحرف يستمر في أداء دوره المهم في عملية إستعباد الجماهير لكنه لم يعد يسيطر على الوعي وعلى الأشكال الأخرى. وتحتل الأيديولوجية السياسية والحقوقية المكان الأول. والرأسمالية تشجع العلوم الطبيعية لأنها بأمس الحاجة إلى العلم لزيادة الإنتاج وتحسين وسائله، وبالتالي فإن البنيان الفوقي يتغير بتغير العلاقات الإنتاجية الرأسمالية، «إن تغيير علاقات الإنتاج الإقطاعية إلى علاقات رأسمالية، يؤدي إلى إعادة تركيب البناء الفوقي، الذي يؤدي بدوره مع ملائمته للقاعدة الجديدة إلى تغيير وجه المجتمع ككل»[٥١].

ويقول أصحاب المادية التاريخية في موضع آخر: «إن عصر الرأسمالية الصاعدة هو عصر نشوء الأمم، والماركسيون يذهبون إلى ان الأمة لم توجد قبل الرأسمالية، لأن الشروط الإقتصادية اللازمة لنشوئها كانت لا تزال معدومة. إن تكون الشعوب من اختلاط مجموعات جغرافية مختلفة إتحدت في الأرض واللغة والثقافة كان المنطلق لتكوين الأمة، مع أنه ليس ضرورياً، أن تتألف الأمة من شعب واحد، فكل الأمم الحديثة نشأت وتنشأ نتيجة لإتحاد الشعوب المختلفة، وهكذا فإن الأمة كشكل لتجمع الناس نشأت من متطلبات الإنتاج الرأسمالي وتنشأ على أساسه، وهي تنشأ لأنها ضرورية من أجل تطور الإنتاج الرأسمالي الضخم»[٥٢].

---

(٥١) المادية التاريخية (ص ١٧٤).

(٥٢) نفس المصدر (ص ٣٤١ ـ ٣٤٢).

تناقض الرأسمالية:

يقول الماديون: إن التشكيلة الرأسمالية القائمة على الملكية الخاصة هي تشكيلة طبقية تناقضية، ويرافق تطور المجتمع الرأسمالي تناقضات عميقة حادة، والتناقض الأساسي فيها هو التناقض بين البرجوازية والبرولتاريا. ويبدأ نضال العمال بشكل تلقائي نتيجة للظلم والاستغلال، فيطالبون بتحسين ظروف معيشتهم، وبعدها تبدأ مرحلة النضال السياسي، وحين تكتشف الطبقة العاملة نفسها كثورة تظهر الأيديولوجية العلمية للبرولتاريا. والرأسمالية، نتيجة للتناقض الذي تولده بين الطابع الاجتماعي لعملية الإنتاج وشكل الملكية الخاصة، تحتوي على الأداة التي تؤدي بها إلى تدمير نفسها بنفسها.

والتناقض يحدث في أزمات فيض الإنتاج المتكررة، وسبب الأزمات أن الإنتاج الرأسمالي قابل للتوسع السريع، ولكنه يصطدم بقوة الجماهير الشرائية المنخفضة والسوق الضيقة. لذلك تكسد السلع ويتدهور الإنتاج وتنمو البطالة، ومن أجل تصريف المنتجات المكدسة تبحث الرأسمالية عن أسواق لتصريفها، لذلك نشأ الإستعمار.

«ان اقتصاد الإمبريالية هو مصدر الحروب التي تنشب عندما لم تكن ثمة قوة أخرى بعد قادرة على ردع الدوافع العدوانية عند الإمبريالية»[٥٣].

ويقول سيغال: «غير أن الرأسمالية، عندما تتطور قوى المجتمع المنتجة، تبدو يوماً فيوماً أقل قدرة على السيطرة عليها، وأجدى برهان على ذلك هو تلك الأزمات التي تأتي على نحو دوري فتزعزع النظام الرأسمالي، وتدمر جزءاً من القوى المنتجة، وهكذا تصبح الرأسمالية

(٥٣) نفس المصدر (ص ١٧٩ ـ ١٨٠).

أكثر فأكثر عائقاً في طريق تطور هذه القوى التي ولدتها هي ذاتها، ومن هنا يتبين أن إلغـاء الرأسمالية بالطرق الثورية، واستبـدالها بالشيوعية(٥٤)، أي بمجتمع دون طبقات تكون وسائل الإنتاج فيه ملكاً مشتركاً يصبح ضرورة تاريخية»(٥٥).

الشيوعية:

يقول الماديون: تؤلف الملكية الجماعية لوسائل الإنتاج أساس علاقات الإنتاج، حيث لا يبقى طبقة إستغلالية، وتوزع المنتجات حسب العمل الذي يقدمه كل إنسان تبعاً للمبدأ القائل «من لا يشتغل لا يأكل»(٥٦).

ويتم تحقيق الملكية الجماعية لوسائل الإنتاج بواسطة الثورة الإشتراكية، وقيام دكتاتورية البرولتاريا، ومهمة الطبقة العاملة بعد أن تستولي على السلطة وتقضي على الرأسمالية هي بناء إقتصاد إشتراكي جديد، لأن الثورة الإشتراكية هي ثورة أغلبية السكان، وتؤدي ملكية وسائل الإنتاج الجماعية إلى القضاء على الأجور، وذلك لأن فائض القيمة أصبح يعود إلى المجتمع بكامله، ويوزع بين أعضائه حسب عمل كل عضو. كما أن الملكية الجماعية لوسائل الإنتاج تقضي على كل إمكانية في نشوء الأزمة الإقتصادية، لأن المضاربة بين المنتجين تزول، ويزول معها استبداد الرأسمالي، وبالتالي يمكن القضاء على الإستعمار وأسباب الحروب.

وهدف الإشتراكية هو إيجاد الشروط المؤاتية لنمو قوى الإنتاج،

---

(٥٤) خطأ لغوي والصحيح إستبدال الشيوعية بها.

(٥٥) لمحة عن تطور المجتمع منذ بدء التاريخ (ص ٣٦ ــ ٣٧).

(٥٦) المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية (ص ٦١).

وإزالة العقبة الوحيدة التي تعترضها، وهي علاقات الإنتاج الرأسمالية وذلك لأن الرأسمالية هي التي هيأت الأساس الموضوعي للثورة الإشتراكية، بتنميتها لقوى الإنتاج إلى الحد الذي ناقضت فيه الرأسمالية نفسها. وزيادة الإنتاج بصورة هائلة ضرورة حتمية، لذلك لا بد من إنتاج وسائل إنتاج بكميات كافية، وإيجاد صناعة ثقيلة قوية، فترتفع إنتاجية العمل بواسطة استعمال الآلة في الأعمال الشاقة، وليس على حساب إرهاق العامل. ولا بد من تنمية العلم أيضاً لأن هدف زيادة الإنتاج بالضرورة هو سد حاجات المجتمع المادية والثقافية إلى أقصى حد. وحتى تقوم الشيوعية لا بد لها من المرور بثلاث مراحل هي:

١ ــ **المرحلة الانتقالية**: وهي الإنتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية، ثم إلى الشيوعية، لأن أعظم تحول في التاريخ هو انتقال البشرية من الرأسمالية إلى الشيوعية على حد زعمهم.

ولا بد من فترة زمنية معينة حتى تتمكن الثورة من القضاء على الطبقات المستغلة، وتأكيد سيطرة العلاقات الإشتراكية في ميادين الحياة الإجتماعية، وهي ضرورية لكل بلد يختار الإشتراكية.

٢ ــ **مرحلة الإشتراكية**: والإشتراكية كما تحددها الماركسية علمياً هي: «القضاء على استغلال الإنسان لأخيه الإنسان، والقضاء في نفس الوقت على طبقات المجتمع المتناحرة»[٥٧].

والمجتمع الرأسمالي يترك للإشتراكية وضعاً سيئاً لا يتفق فيه إنتاج وسائل الإنتاج مع وسائل الإستهلاك. «ولذلك فإن مبدأ الإشتراكية على كل فرد أن يؤدي حسب طاقاته وأن ينال حسب

(٥٧) أصول الفلسفة الماركسية (٢: ١١٨).

عمله. يكون خطوة كبرى إلى الأمام بالنسبة إلى الرأسمالية المستغلة، حيث لا ينال العامل قط حسب عمله»[٥٨].

وتوزع سلع الإستهلاك بواسطة شراء الأفراد للسلع الضرورية لمعيشتهم، وتسد حاجات الجماهير المادية والثقافية إلى الحد الأقصى بواسطة الخدمات الإجتماعية، كمجانية الخدمات الطبية مثلاً. ولا بد من تقدم هائل في إنتاج وسائل الإنتاج، وأن يتخصص العمال في معرفة استخدامها، وتطويرها بشكل أسمى من الدرجة التي بلغوها في مرحلة الرأسمالية التي تحرم الجماهير من الثقافة والعلم. ولكن إذا لم يصبح العمل بالنسبة للإنسان حاجة طبيعية كحاجته إلى التنفس والمشي، فإن أحسن وسيلة لتشجيع التقدم وتخصص العمال هي: أن ينال كل فرد حسب نوع العمل الذي يؤديه، «ولهذا تصبح وعود الرأسمالية الخلابة، التي تريد أن تقنع العمال بأنها تستطيع رفع معيشتهم إذا أحسنوا نوعية عملهم حقيقة في الإشتراكية بسبب زوال الاستغلال[٥٩]».

ولكن الفرد في الإشتراكية لا يأخذ نتيجة عمله كاملاً، وذلك لأجل الإحتفاظ بقسط منها لأجل تنمية الإنتاج، وتجديد الآلات البالية. أما وسائل الإستهلاك فلا بد من الإحتفاظ بقسم منها لتغطية مصاريف الإدارة، والمدارس والمستوصفات وغيرها.

وفي المجتمع الإشتراكي يعطي كل فرد حسب عمله بصورة غير متساوية بين الأفراد، بعد أن يؤمن لكل فرد أسباب معيشته، يقول موريس توريز:

«أما فيما يتعلق بنزعة المساواة التي تقوم على قياس الناس بنفس

(٥٨) نفس المصدر (ص ١٤٥).
(٥٩) نفس المصدر (ص ١٤٦).

المقياس فهي استحالة إجتماعية، لأن هناك تفاوتاً طبيعياً بين الناس، سببه كفاءاتهم البيولوجية والنفسية. أما التفاوت الذي يسعى الشيوعيون لإزالته فهو التفاوت الذي ينشأ من وجود الطبقات»[٦٠].

ويقول أصحاب كتاب أصول الفلسفة الماركسية: «لا يوجد في المجتمع الإشتراكي إذن، مراقبة شديدة لمقدار العمل الذي يؤديه، ولهذا لم يعد هناك محظوظون ولا مستغلون، بل العمل هو سيد الجميع»[٦١].

وفي الوقت الذي يقر فيه الشيوعيون بوجود شيء من التفاوت في الممتلكات، فإنهم ينفون وجود البطالة واستغلال القوميات واضطهادها، على حد تعبير ستالين[٦٢].

وتوجد في المرحلة الإشتراكية في الإتحاد السوفياتي صورتان لملكية وسائل الإنتاج الجماعية.

١ ــ صورة ملكية الدولة، وتمتلك الأرض وباطنها والغابات والمصانع، ووسائل النقل المائية والجوية، وبيوت السكن، والمنشآت البلدية، وسائر المرافق الضرورية.

٢ ــ صورة ملكية تعاونية كولخوزية، ولها الحق في امتلاك إنتاج الكولخوز والمباني المشتركة[٦٣].

وتسمح الإشتراكية بإمتلاك قطعة أرض صغيرة، وبعض وسائل

---

(٦٠) نقلاً عن نفس المصدر (ص ١٤٧).

(٦١) نفس المصدر (ص ١٤٨).

(٦٢) نقلاً عن نفس المصدر (ص ١٤٩).

(٦٣) بتصرف عن المادة، ٦، ٧ من دستور الإتحاد السوفياتي نقلاً عن نفس المصدر (ص ١٢٠ ــ ١٢١).

الزراعة البسيطة، وتسمح بوراثة الملكية الشخصية كالسيارة وأغراض البيت.

يقول أصحاب أصول الفلسفة الماركسية: «لكل عائلة كولخوزية عدا دخل الإقتصاد الكولخوزي المشترك الأساسي الحق بالتمتع بقطعة أرض صغيرة، تملك عليها إقتصاداً خاصاً بها، كبيت السكن، والأغنام المنتجة، والطيور، ووسائل الزراعة البسيطة. يسمح القانون إذن بإقتصاديات صغيرة للفلاحين، والصناع اليدويين ويمنع استغلال عمل الآخرين. أما فيما يتعلق بوسائل الإستهلاك فللمواطنين الحق بالملكية الشخصية لما كسبوه وادخروه بعملهم. وملكية بيت سكنهم واقتصادهم العائلي المساعد، وأغراض البيت للاستعمال اليومي، أو الاستعمال الشخصي، كالسيارة مثلاً، كما لهم الحق في وراثة الملكية الشخصية»[٦٤].

٣ ــ **الإنتقال من الإشتراكية إلى الشيوعية**: يقول الماديون: حتى يتحقق مبدأ «من كل حسب طاقته، ولكل حسب حاجته» يجب أن يصل المجتمع إلى إنتاج كمية كافية من وسائل الإستهلاك كما يجب أن تسد حاجة المجتمع إلى وسائل الإنتاج قبل أن تسد حاجات المجتمع من الإستهلاك الفردي.

ولأجل الإنتقال من الإشتراكية إلى الشيوعية، لا بد من توفر ثلاثة شروط هي:

(أ) **الشرط الأول** فيما يتعلق بزيادة الإنتاج الجماعي، لأن قانون الإشتراكية الأساسي هو زيادة الإنتاج، وسد حاجات المجتمع المادية والثقافية لجميع أفراده إلى أقصى حد، وزيادة نمو إنتاج وسائل الإنتاج.

---

(٦٤) نفس المصدر (ص ١٢١).

والنضال في هذه المرحلة يجري ضمن حدود الطبيعة، إذ يجب تحويل الطبيعة للتمهيد للشيوعية، بواسطة المشاريع الضخمة التي تقيمها الدولة الإشتراكية لصالح المجتمع، والنضال في الإشتراكية لا يجري ضمن حدود علاقات الإنتاج، أو ضمن حدود النضال بين القديم والحديث، إنما يتجه نحو الطبيعة لإستغلالها والإفادة منها في تطوير المجتمع.

(ب) **الشرط الثاني** يتعلق بالأساس الإقتصادي ونظام الملكية. يقول ستالين: «لهذا من المهم أن نرتفع بالملكية الكولخوزية إلى مستوى الملكية القومية، وذلك على مراحل تدريجية، مع توفير الربح للكولخوز، أي لجميع المجتمع، وأن نستعيض عن تداول السلع بنظام لتبادل المنتوجات على مراحل تدريجية أيضاً، حتى تستطيع السلطة المركزية، أو أي مركز إجتماعي إقتصادي آخر التصرف بجميع منتوجات الإنتاج الإجتماعي لمصلحة المجتمع»[٦٥].

«ويمهد إذن تجميع الملكية الكولخوزية بواسطة دمج الكولخوزات ـ أي بدون سحب ملكيتها ـ لزوال الفارق الأساسي بين الصناعة والزراعة ـ وهو فرق يتعلق بطريقة الملكية الإجتماعية ـ ويبشر بميلاد المجتمع الخالي من الطبقات حيث لن يسيطر بعد الآن سوى الملكية الإشتراكية للشعب بأكمله، كما أن دائرة تداول السلع ـ بعد أن ضاقت بالتدريج ـ قد حل محلها نظام لتبادل المنتوجات، غير أنه يجب ـ كي نصل إلى هذه المرحلة ـ إنتصار وعي جديد على الوعي القديم»[٦٦].

(ج) **الشرط الثالث** ويتعلق بالثقافة. يقول الماديون: لا يمكن

---

(٦٥) عن نفس المصدر (ص ١٦٢).

(٦٦) نفس المصدر (ص ١٦٣).

للشيوعية أن توجد إلا إذا أصبح العمل حاجة حياتية، وأصبحت القواعد الأساسية للمجتمع عادات.

ولا بد من توفير الثقافة للجميع، ليعمل الإنسان على نمو المجتمع ويستطيع إختيار مهنة له بحرية، حتى لا يضطر بسبب تقسيم العمل إلى ممارسة مهنة واحدة طوال حياته.

وإذا لم يصبح الإنسان عاملاً نشيطاً واعياً للنمو وحراً في اختيار عمله، فإن الملكية الجماعية لن تصبح قط عادة، ولن يصبح العمل حاجة.

وللوصول إلى هذه النتيجة لا بد من:

أولاً ــ تخفيض ساعات العمل اليومي إلى ٦ ساعات على الأقل، مما يسمح لكل فرد أن يكون لديه متسع من الوقت، لتلقي ثقافة شاملة.

ثانياً ــ جعل الثقافة البوليتكنيكية جبرية، إذ يجب على كل فرد أن يعرف بصورة علمية مباديء فروع التقنية الصناعية التقدمية الكبرى، وأفضل ما في الحضارة الشاملة.

ثالثاً ــ تحسين ظروف السكن.

رابعاً ــ مضاعفة أجر العمال الحقيقي وربما زيادة فوق ذلك، وتخفيض سعر السلع الكثيرة للاستهلاك مما يمهد للرخاء الشيوعي[٦٧].

(٦٧) أنظر نفس المصدر (ص ١٦٠ ــ ١٦٤).

الفصل الخامس

التفسير المادّي للتاريخ والدِّين

تمهيد:

إهتم الماديون اهتماماً كبيراً بالقضاء على الدين ونشر الالحاد مكانه، ولم يقتصر هجومهم على دين دون دين، بل حاربوا جميع الأديان الأرضية والسماوية، باستثناء اليهودية التي دعمت سراً، لأن الأديان عندهم من مخلفات القديم يجب القضاء عليها، لذلك استخدموا شتى وسائل التأثير الفكري وشتى وسائل الضغوط المادية والمعنوية لتحقيق هذا الهدف.

«إن الدين لا يتولد من القاعدة في الظروف الاشتراكية، وإنما يوجد كجزء من مخلفات القديم، كبقية من البنيان الفوقي للتشكيلات السابقة سوف يتم القضاء عليها في عملية بناء الشيوعية، ويتضمن البرنامج الجديد للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي تأكيداً على ضرورة استخدام مختلف وسائل التأثير الفكري للقضاء على الخرافات الدينية، ومن أجل نشر تربية علمية»[1].

(١) المادية التاريخية، ص ٨٠.

نشأة الدين عند الماديين:

يعتبر إنجلز أن الدين تخيل وهمي للقوى الخارجية في الطبيعة، يجعل الانسان يعبدها ويقدسها.

يقول إنجلز: «ومهما يكن من شيء فليس الدين إلا الانعكاس الوهمي في أذهان البشر لتلك القوى الخارجية التي تسيطر على حياتهم اليومية، وهو انعكاس تتخذ فيه القوى الأرضية شكل قوى فوق طبيعية»[٢].

والدين عندهم نشأ من الجهل والعجز، والجهل عدو للعلم، والرجل المتدين يحارب العلم لأنه حريص على الأوهام والخرافات. والانسان عاجز أمام قوى الطبيعة وأمام الظواهر الاجتماعية المتعلقة بالاضطهاد الطبقي وضعف الوعي الاجتماعي. لذلك يضع تفسيرات روحية وفلسفية تعبر عن هذا العجز، تأخذ صورة معتقدات دينية. يقول أصحاب أصول الفلسفة الماركسية: «إن الصور البدائية للديانة، وكذلك المراسيم السحرية والتفسير المثالي البدائي للظواهر الاجتماعية، وكذلك أسمى صور الديانة التي تقوم على نظريات فلسفية وأخلاقية ومراسيم سحرية» روحانية، كالصلاة والأضحيات التصوفية تعبر جميعاً عن معطى معين حقيقي، عن الفعل الانساني ألا وهو عجزه النسبي الكبير في مطلع الانسانية، وهو عجز أمام الطبيعة، ذلك العجز الذي يتعلق بنمو الانتاج الضعيف، وهو عجز أيضاً أمام الظواهر الاجتماعية الذي يتعلق بالاضطهاد الطبقي وفقدان الأمل وضعف الوعي الاجتماعي.

«يجب مع ذلك أن نقدر أهمية عامل آخر في دراستنا للدين،

(٢) آنتي دوهرنغ، ص ٣٨١.

ذلك لأن الديانة لما كانت تتولد من الجهل، فإنها تحل محل التفسيرات العلمية تفسيرات خيالية، فتعمل بذلك على ستر الوقائع وإسدال الستار على التفسير الموضوعي للظواهر. ولهذا كان الرجل المتدين مناوئاً لمبادىء العلم التي هي عمل الشيطان لأنه حريص على أوهامه»[٣].

ولكي يبرهنوا على صحة ما ذهبوا إليه من أن التفسيرات الدينية تحل محل التفسيرات العلمية تفسيرات خيالية، مثلوا بطريقة تجنب الصاعقة عند المتدينين، وعند الماديين، وقالوا إن المتدين يتجنب الصاعقة بواسطة إيقاد الشموع وترتيل الصلوات، والمادي يستخدم وسائل العلم الحديثة. ونتيجة لاستخدام المعارف البشرية الحديثة في الناحية العلمية واستغلالها يفقد الأثر الديني خاصيته في جذب الناس، وتقل التراتيل وإيقاد الشموع في مواجهة الصاعقة.

«يمكن تجنب الصاعقة بواسطة طريقتين: إما باستخدام القضيب المضاد لها، أو باستعمال شمعة والتوسل إلى السماء.

وتعتمد الطريقة الأولى على الفكرة القائلة بأن الصاعقة ظاهرة مادية لها أسبابها المادية المعينة، ويمكن تفادي نتائجها بواسطة الوسائل التي تمدنا بها المعرفة العلمية وآلاتها. وأما الطريقة الثانية فهي تعتمد على الفكرة القائلة بأن الصاعقة هي قبل كل شيء مظهر من مظاهر غضب الله وقوته، ولها أسبابها الخارقة، ولهذا يمكن تفاديها بوسائل سحرية خاصة، كالشمعة أو الصلاة عن طريق تأثير الروح الانساني في الروح الالهي، وهكذا تؤدي طريقة تصور أسباب الظواهر إلى طريقة تصور الوسائل العلمية المختلفة، وهي وسائل مادية في الحالة الأولى، روحية في الحالة الثانية، وكذلك تصور النتائج العلمية المختلفة. «ولهذا

(٣) أصول الفلسفة الماركسية، (١: ٢٠٦ ـ ٢٠٧).

التعارض النَظري نتائج أخرى عملية، إذ ليس من الصعب أن ندرك أنه كلما انتشر استعمال القضيب المضاد للصاعقة، كلما قل إشعال الشموع وترتيل الصلوات، ولهذا كانت الكنيسة التي رأت زوال نفوذها غير راضية عن تقدم العلوم، وزوال سرعة التصديق الساذج»[٤].

والدين عند الماديين من صنع الانسان، وضعه بعض الناس من عند أنفسهم لاستغلال الناس استغلالاً بشعاً، فحين أحس الناس بالاستغلال وبدأوا يثورون ضد الأوضاع القائمة، ما كان من الطبقة المستغلة إلا أن اخترعت لهم الدين الذي أغرتهم بتعاليمه، ووعدتهم بالجنة التي لا شقاء فيها إن هم صبروا على البلاء والألم. فما هذه الحياة الدنيا إلا دار اختبار وابتلاء، ونتيجة لإيمانهم بهذا النعيم الموعود، فإنهم يزدرون الدنيا ويصبرون على الضيم والأذى طمعاً بما عند الله.

فالدين في نظرهم استغل في تخدير الشعوب وتمكن مستغلوه من قيادة الشعوب وامتصاص خيراتها.

«وتستخدم الطبقات المستغلة هذه الخاصية لاهتمامها بإخفاء استغلالها عن أعين الطبقات الكادحة. فهي بحاجة إلى سلبية هذه الطبقات وجمودها كي يستمر اضطهادها، كما أنها بحاجة لخضوعها وإيمانها بالقضاء المحتوم، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية ــ يجب توجيه أمل الجماهير بالسعادة نحو العالم الآخر، وهكذا يعرض الأمل والعزاء بدخول الجنة على أنهما تعويض عما بذلته الطبقات الشعبية من تضحيات على الأرض»[٥].

ويقول ماركس: «الانسان يصنع الدين، وليس الدين يصنع

(٤) نفس المصدر، ص ١٧٩ ــ ١٨٠.

(٥) نفس المصدر، ص ٢٠٨.

الانسان. . . إن البؤس الديني لهو التعبير عن البؤس الـواقعي، والاحتجاج على هذا البؤس الواقعي في وقت ما. الدين زفرة الكائن المثقل بالألم، وروح عالم لم يبق فيه روح، وفكر عالم لم يبق فيه فكر. . . إنه أفيون الشعوب»[٦].

والدين شكل من أشكال الوعي الاجتماعي، يشوه نـظرة الانسان إلى العالم ــ كما يزعمون ــ ويشوه مشاعر الانسان تجاه الواقع، ويوجهه إلى القيام بأعمال مشوهة.

يقول أصحاب كتاب النظرية الماركسية اللينينية: «الدين هو شكل من أشكال الوعي الاجتماعي، إلا أن النظرية الماركسية لا تقف عند هذا الحد، فهي تقول بخاصية الانعكاس الديني للعالم».

«فالدين لا يكتفي بتشويه نظرة الانسان العامة إلى العالم، بل يشوه كذلك مشاعر الانسان وموقفه العاطفي من الواقع».

«إن ما يلازم الدين كشكل من أشكال الوعي من نظرة مشوهة إلى العالم، وإحساس مشوه به يوجه الانسان للقيام بأعمال على نفس القدر من التشويه. . .».

«وهكذا يبدو لنا الدين ظاهرة اجتماعية في منتهى التعقيد، ظاهرة نرى فيها مستويات معينة تخص الوعي البشري، ومستويات أخرى تخص النشاط البشري، وهذه المستويات وتلك هي حصيلة الانعكاس الخيالي المشوه للواقع وفهمه بصورة مشوهة أيضاً»[٧].

وبناءً على نظريتهم الجدلية حول أسبقية المادة في الوجود على الفكر وأن الفكر انعكاس للمادة الراقية، هذه المادة التي هي منبع

---

(٦) كارل ماركس، ص ١٦ ــ ١٧.

(٧) النظرية الماركسية اللينينية، ص ٤٤٦ ــ ٤٤٨.

الأحاسيس والمشاعر ومن بين هذه المشاعر الدين، فالدين على هذا الرأي انعكاس الواقع المادي، لأن وجود الناس هو الـذي يحدد مشاعرهم.

يقول إنجلز: «من الأزمنة الموغلة في القدم ـ إذ وصل الفكر بالناس وهم بعد في جهل تام ببنياتهم الجسدية الخاصة، وتحت تأثير أحلامهم ـ إلى القول بأن أفكارهم وأحاسيسهم ليست من فعل أجسادهم ذاتها، بل من فعل روح خاصة تسكن هذا الجسد وتفارقه لحظة الموت، منذ ذلك الحين اضطروا لأن يصطنعوا لأنفسهم أفكاراً عن علاقات هذه الروح مع العالم الخارجي .

«وعلى هذا النحو تماماً ـ عن طريق تشخيص القوى الطبيعية ـ ولدت الآلهة الأولى التي اتخذت خلال التطور اللاحق شكلاً غير أرضي أكثر فأكثر، إلى أن حدث أخيراً عملية تجريد. . . تنشأ على نحو طبيعي خلال التطور العقلي أن تولدت في عقل الناس من الآلهة المتعددين ذوي السلطة الضعيفة والمقيدة بعضهم حيال بعض فكرة الاله الواحد المنفرد في الديانات التوحيدية»(٨).

ونجد أن إنجلز يستنتج أن مطالب الجسد هي منشأ الاعتقادات الفكرية، وأن الدين ما هو إلا الانعكاس الخيالي للأشياء البشرية في دماع الانسان(٩).

وما دام أن الوضع الاقتصادي ـ عندهم ـ هو الذي يفسر ويحدد مطالب الجسد فالنتيجة أن الدين ناشيء عن الوضع الاقتصادي.

---

(٨) نصوص مختارة، ص ٦١، وانظر انتي دوهرنغ، ص ٣٨٢.
(٩) أنظر نصوص مختارة، ص ١٣٣.

الدين في عهد الشيوعية البدائية:

يقول الماديون: كان الانسان البدائي يعيش في جو من الخرافات نتيجةً للرعب والجهل، فلم يكن تطور قوى الإنتاج قوياً بحيث يساعد الانسان على اكتشاف الأسباب الحقيقية للظواهر الاجتماعية، لذلك نشأت لدى الانسان تصورات خاطئة عن الطبيعة، وعن تكوين الانسان نفسه وعن الأرواح، هذه التطورات الخاطئة نابعة من الأساس الاقتصادي السلبي في ذلك الوقت.

يقول إنجلز: «إن الدين يولد من نظريات الانسان المحدودة، وهذه النظريات محدودة بعجز الناس البدائيين المطلق تقريباً أمام الطبيعة المعادية، التي كانوا لا يفهمونها، وهي محدودة من ناحية ثانية بتعلقهم الأعمى بالمجتمع الذي لا يفهمونه، والذي كان يبدو لهم أنه تعبير عن إرادة سامية، وهكذا كانت الآلهة، وهي الكائنات المبهمة الجبارة المسيطرة على الطبيعة والمجتمع إنعكاساً ذاتياً لعجز الناس الموضوعي أمام الطبيعة والمجتمع، وكان على تقدم العلوم الطبيعية والاجتماعية أن يظهر طابع المعتقدات الوهمي، الاعتقاد بوجود آلهة متعددة، ثم الاعتقاد بوجود إله واحد»[١٠].

وأفهم من كلامهم أن التدين بدأ بالاعتقاد بوجود آلهة متعددة وعبادتهم ثم تدرجت العبادة حتى وصلت إلى عبادة الله الواحد.

ويقول إنجلز في موضع آخر: «أما المجالات الايديولوجية التي تحوم أعلى في الفضاء كالدين والفلسفة... إلخ، فإنها مؤلفة من بقية ــ تعود إلى ما قبل التاريخ، وقد وجدها العهد التاريخي أمامه فالتقطها ــ لما قد نسميه اليوم غباء، إن هذه التصورات المختلفة

(١٠) أصول الفلسفة الماركسية: (١: ٢٩٦ ــ ٢٩٧).

الخاطئة عن الطبيعة، وعن تكوين الانسان ذاته، وعن الأرواح، وعن القوى السحرية، ليس لها في الغالب غير أساس إقتصادي سلبي. فالتطور الاقتصادي الضعيف لعهد ما قبل التاريخ تكون فيه كتكملة، ولكن كذلك على نحو جزئي كشرط أو حتى كسبب، تصورات خاطئة عن الطبيعة»[11].

الدين في عهدي الرق والاقطاع:

يقول الماديون: نتيجة لظهور الملكية الخاصة، وانقسام المجتمع إلى طبقات أصبح الانسان يستغل أخاه الانسان، وما دام الاستغلال موجوداً، فإن الظروف الموضوعية التي تحمل على الاعتقاد بوجود اله علوي يوزع السعادة والشقاء بين الناس، تستمر في أداء دورها في تبرير هذا الاستغلال، لذلك لا بد من أفكار دينية تخدر الطبقات المظلومة، وتعدها بالنعيم الأخروي إن هي صبرت على الاضطهاد والاستغلال، وفعلاً حملت الكنيسة راية هذه المهمة ونشرتها بين الناس كعقيدة دينية، من أيام بولس الأولى.

«لم تحرم الكنيسة الكاثوليكية الرق، ولذلك وجد رقيق في أوروبا في القرن الوسيط...» ولقد علمت الكنيسة الأرقاء أن يطيعوا سيدهم، واضطرت الأسياد المحاربين حقاً، إلى احترام «هدنة الله»، وهددتهم بالنار الأبدية، ولكنها بهذا الاجراء قد أنقذت قبل كل شيء المزروعات الضرورية لحياة المجتمع، كما حفظت الإنتاج وأمنت تفشي الجماعة واندلاع نار الثورة. وهكذا تحمي في النهاية الاقطاعية ضد تصرفات الاقطاعيين المغالية»[2].

---

(١١) نصوص مختارة، ص ١٨٧ ـ ١٨٨.

(١٢) أصول الفلسفة الماركسية، (٢: ١٠٦ ـ ١٠٧).

وفي عهد الاقطاع كان للكنيسة مكانة هائلة من الناحيتين الروحية والمادية، ففي الناحية الروحية، كانت هي المسيطرة على العقيدة والفلسفة والآداب والفنون، وفي الناحية المادية، كانت تملك جانباً كبيراً من الأرض. وكانت في ذلك الوقت تعتبر أكبر إقطاعية موجودة، لذلك كانت الكنيسة تحارب الهرطقات الدينية حين شعرت بالخطر على وجودها الاجتماعي، وعلى ممتلكاتها الاقطاعية، وذلك للخطر الاجتماعي الكامن خلف كل هرطقة دينية.

يقول موريس كورنفورث: «وفي أوج الاقطاع في أوروبا الغربية كانت للكنيسة الكاثوليكية مكانة هائلة، وسادت العقيدة الكاثوليكية الفلسفة والأدب والفنون، ولقيت هذه العقيدة مساندة السلطة الزمنية ـ مساندة الحكام الاقطاعيين ودولهم والقوانين، ولا يمكن تفسير الحماس القاسي الذي كانت الكنيسة تلاحق به الهراطقة وتلقي فيه مساندة الحكام بمجرد الهوس الديني، فلماذا وجد مثل هذا الهوس؟ لقد استقرت العقيدة الكاثوليكية كجزء أساسي من النظام الاجتماعي، وأحست الكنيسة عن حق ـ كمالك كبير للأرض إلى جانب كبار ملاك الأرض الآخرين ـ بخطر التمزق الاجتماعي الكامن خلف كل هرطقة»(١٣).

وعلى هذا الأساس، فإنهم يعتبرون كل الحروب الدينية، والهرطقات التي ثارت على الكنيسة نابعة من الأساس الإقتصادي، وعلى هذا الأساس أيضاً، ينطلقون في تفسير الفتوحات الإسلامية بأن وراءها دوافع إقتصادية وإنها ردة بدوية ضد فلاحي المدن المتحضرين.

يقول إنجلز: «إن ما يسمى بالحروب الدينية. . . كانت تتضمن مصالح طبقية مادية إيجابية، فقد كانت هذه الحروب حروباً طبقية

---

(١٣) مدخل إلى المادية التاريخية، ص ١١٧ ـ ١١٨.

تماماً . . . ورغم أن الصراعات الطبقية كانت عندئذ مغلفة بشعارات دينية، ورغم أن مصالح وحاجات ومطالب مختلف الطبقات كانت مختفية خلف ستار ديني، فلم يبدل هذا شيئاً من الأمر، ويمكن تفسيره ببساطة من واقع ظروف تلك الأيام»(١٤).

ويقول إنجلز عن الإسلام: «في عصر محمد كان الطريق التجاري بين أوروبا وآسيا قد تبدل تبدلاً كبيراً، وكانت مدن جزيرة العرب التي شغلت قبل ذلك قسطاً كبيراً من التجارة مع الهند وغيرها كانت في حالة من الإنحطاط التجاري، الأمر الذي أعطى دفعاً كبيراً، ولكن إنجلز يتشكك في هذا الحكم ويتراجع قائلاً:

«وسأدرس في الأيام القليلة القادمة تاريخ محمد نفسه، إلَّا أنه يبدو لي أن الأمر يحمل طابع ردة بدوية، ضد فلاحي المدن المتحضرين»(١٥).

الدين في عهد البرجوازية الرأسمالية:

كان الدين في عهد الإقطاع هو المسيطر على قلوب الناس ومشاعرهم ولكن الدين الصحيح المنزل من عند الله لم يحكم حياتهم، وقد مارست الكنيسة شتى وسائل الضغوط المادية والمعنوية على الناس بإسم الدين، فكره الناس في أوروبا الكنيسة، وقاوموا سلطانها، وانتهى الصراع بين الناس والكنيسة إلى الثورة العارمة على الدين نفسه، وأقصى الدين من واقع الحياة الأوروبية.

ولكن هذا التخلي عن الدين لم يكن دفعة واحدة، وإنما تم على مراحل.

(١٤) حرب الفلاحين في ألمانيا وانظر المادية التاريخية (ص ١٦٩ ــ ١٧٠).
(١٥) حول الدين مقتطفات من مراسلات ماركس وإنجلز (ص ٩٥، ٩٧).

بدأ بعصر النهضة التي قامت على أسس غير دينية تستمد ثقافتها وفكرها من الحضارة اليونانية والرومانية الوثنية.

فقد قامت في بداية الأمر بعد عصر النهضة، والثورة على الإقطاع والكنيسة دعوة في أوروبا إلى عبادة الطبيعة، التي استغلها العلماء والمفكرون في الهروب من إله الكنيسة، الذي يستعبد الناس بإسمه، وتفرض عليهم الأتاوات والعشور والخدمة المجانية في أرضها. هذه الطبيعة التي صارت إلهاً جديداً لا كنيسة له ولا فرائض ولا إلتزامات ولا ذل ولا ضرائب. كانت إلهاً يستجيب لرغبة الفطرة في التوجه إلى الله، وإستجابة لرغبة كثير من الناس في أوروبا في التخلص من سلطان الدين، الذي مارسته الكنيسة بحماقة وبشاعة وفظاظة. وفي الوقت الذي كانت الطبيعة تعبد فيه على هذا النحو، كان الله ما يزال موجوداً في ضمائر الأوروبيين، يتوجهون له بالوجدان ويعبدونه داخل الكنيسة وله أثر على بعض أخلاقهم وتقاليدهم، وتدرجت أوروبا في إلحادها، وحل الإنسان محل الله في قلوب الأوروبيين. إنهار الإقطاع، وجاء عصر الآلة الصناعية. فقد كان أهل الريف يتطلعون بعواطفهم ووجداناتهم إلى الله في إنبات الحب والزرع، وحفظ الأرض من الصقيع والآفات، وأصبح أهل المدن الصناعية لا يرتبطون بالله ذلك الإرتباط، لأن الإنسان هو الذي يقوم بعملية الإنتاج في المدينة، وليس الله، الإنسان هو الذي عرف خواص المادة حين تعلم، واخترع الآله التي تنتج، والإنسان هو الذي يدير الآلة ويوقفها متى شاء، وهو الذي يضع في الآلة المادة الخام فتخرج مصنعة، لذلك يجب أن يعبد الإنسان الصانع، وصار كثير من الناس في أوروبا يعتبرون عبادة الله، وعبادة قوة غيبية لا تدركها الحواس والأخذ من هذه القوة الغيبية التي لم يروها ــ ولن يروها ــ أخلاقهم وأفكارهم وعقيدتهم ومشاعرهم ــ

عيباً يقلل من شأنهم في المجتمع المتحضر. هذه الصورة التي كانت تعيشها أوروبا في بداية ظهور الرأسمالية.

أضف إلى ذلك تأثير القوى الهدامة على زلزلة العقيدة وتحطيم الأخلاق، وباحتكار الصناعة عن طريق القروض الربوية[١٦].

يقول جورج سول: «فإذا كانت المصادر القديمة قد أخطأت في نظراتها إلى العالم الطبيعي أما كانت كذلك مخطئة في نظراتها إلى السلوك البشري؟ أصبح كل شيء موضع التساؤل والشك، وعلى ذلك سمي العلم فلسفة، ولم يعد هناك تمييز بين الميادين التي عني كل منها بفحصه، وأخذ الكتاب والمتفلسفون يعيدون البحث في النظم البشرية تماماً كما كانوا يفعلون بالنسبة إلى الأشياء غير البشرية، وهم في تصرفهم هذا كانوا يسلمون بأن الإنسان جزء من الطبيعة وليس كائناً منفصلاً عن بقية المخلوقات أوجدته العناية الإلهية وتولت رعايته.

«وأصبح البحث ينصب على تفسير النتائج والأسباب بالنسبة إلى السلوك البشري، سواء أكان مرغوباً فيها أم غير مرغوب عن طريق قوانين الطبيعة، بدلاً من البحث عنها في إرادة الله، كما قالت الكتب المقدسة أو المذاهب الكنيسية. ومعنى هذا ــ بتعبير آخر ــ إن علينا أن نسترشد في أعمالنا وتصرفاتنا بالعقل دون سلطة القدامى.

«وصار لزاماً على الذين نبذوا الإيمان بالله كلية، أن يبحثوا عن بديل لذلك ووجدوه في الطبيعة، أما الذين ظلوا على إستمساكهم بالدين ولو باللسان ــ وإن لم يكن في الواقع كما هو أغلبهم ــ فقد اعتقدوا أن الله يعبر عن إرادته عن طريق الطبيعة وقوانينها وليس بوسيلة مباشرة، وبذلك لم تعد الطبيعة مجرد شيء له وجود فحسب،

(١٦) أنظر جاهلية القرن العشرين (ص ٦٥).

وإنما هو شيء ينبغي أن يطاع، وصارت مخالفتها دليلاً على نقص في التقوى والأخلاق»[١٧].

وفي ظل النظام البرجوازي الجديد، برزت أفكار دينية وفلسفية جديدة، تنتقد الأفكار الدينية الإقطاعية وتدحضها، وتركز على ضمير الفرد وعلاقته المباشرة بالله. وبدأت السلطة البرجوازية الجديدة تسخر الدين لخدمة مصالحها في إستغلال الجماهير الكادحة.

يقول إنجلز: «فقد أزاحت فئة رجال القانون التي نشأت حديثاً رجال الدين من عدد من المراكز المؤثرة التي كانوا يشغلونها، وبدأ رجال الدين يفقدون أهميتهم واعترافهم أنفسهم بهذا الوضع بتزايد خمولهم وجهالتهم»[١٨].

ويقول في موضع آخر: «وفيما عدا ذلك وقفت معارضة التجار وأصحاب الحرف بحماس ضد رجال الكنيسة، الذين كانت أبهتهم الفارغة وأخلاقياتهم المهلهلة تثير الإزدراء المثير، وكانت تطالب باتخاذ إجراءات لوقف هذه الحياة الفاضحة لهؤلاء السادة. وإلغاء المحاكم الخاصة برجال الكنيسة وعدم إعفائهم من الضرائب، كما كانت تطالب خاصة بتخفيض عدد الرهبان»[١٩].

وإزاء هذه النقمة العارمة على الكنيسة بدأت تتملق السلطة البرجوازية الجديدة وتدافع عن تصرفاتها، فقد كانت الكنيسة بالأمس تدعو إلى وجود أسياد وأرقاء في المجتمع، وأصبحت اليوم تنادي بضرورة وجود رأسماليين وعمال فيه أيضاً.

«يضاف إلى ذلك أن الكنيسة حاولت بواسطة النشرات التي

(١٧) المذاهب الإقتصادية الكبرى (ص ٤٩ ــ ٥١).
(١٨) حرب الفلاحين في ألمانيا (ص ٣٤).
(١٩) نفس المصدر (ص ٣٩).

أصدرتها في نهاية القرن التاسع عشر، أن تحمي الرأسمالية من مغالاة الرأسماليين.

«كانت في الماضي تدعو إلى ضرورة وجود الأسياد والأرقاء في المجتمع، فأصبحت اليوم تنادي بضرورة وجود الرأسماليين والبرولتاريا»[٢٠].

ويقول كورنفورث: «ومع ظهور البرجوازية برزت أفكار دينية وفلسفية جديدة، ففي مجال الدين بدأ التأكيد على ضمير الفرد وعلاقة الفرد المباشر بالله، ودعا الفلاسفة إلى سيادة العلم والعقل، ومن هذه الزاوية أخضعوا الأفكار الإقطاعية القديمة للنقد المدمر، ودرسوا من جديد أسس المعرفة وحاولوا أن يبينوا كيف يمكن توسيع المعرفة، ووضع الإنسانية في طريق التقدم وكانوا في ذلك يخدمون البرجوازية الجديدة في التخلص من الإقطاع ودعم الرأسمالية»[٢١].

وحين شعرت البرجوازية التي نبذت الدين بالخطر يجتاحها، عادت فاحتضنت الدين من جديد لخدمة مصالحها.

«ولهذا رأينا البرجوازية حينما شعرت بالتهديد، أعادت الدين عن قصد وتبنته، بعد أن سخرته لخدمة حاجاتها، فقوته ودعمته وجعلته جزءاً لا يتجزأ من البناء الفوقي الرأسمالي، ثم أعلنت أن التعليم الديني والتعليم العلماني يتمم كل منهما الآخر»[٢٢].

هذا ويجب أن لا يغيب عن بالنا أن الكنيسة بعد الثورة الفرنسية العلمانية أصبحت تابعة للدولة، والكهنة والقساوسة يتم تعيينهم عن طريقها. وكانت أملاك الكنيسة خاضعة للضرائب وتشرف عليها

---

(٢٠) أصول الفلسفة الماركسية (٢: ١٠٧).

(٢١) مدخل إلى المادية التاريخية (ص ١١٨).

(٢٢) أصول الفلسفة الماركسية (٢: ١٠٧ ـ ١٠٨).

الحكومة كذلك، بعد أن كانت الكنيسة قوة كبيرة تتبعها الدول وتخشى سلطانها المادي والروحي، حيث كانت تملك جيشاً كبيراً ومالاً وفيراً، أضف إلى ذلك السلطان الروحي الذي كانت تستذل الناس وتستعبدهم بإسمه.

الدين في عهد الشيوعية:

يعتبر الشيوعيون الدين من المخلفات القديمة التي نشأت من الوهم والخيال، والتي انعكست عن الوضع الإقتصادي، أو وضعتها الطبقة الإستغلالية لتخدير الجماهير الكادحة عن المطالبة بحقوقها، هذه الجماهير الكادحة المخدرة التي أرهقها الفقر، وفقدت كل أمل لها بالمستقبل إستسلمت للإدارة الإلهية، وهيمنت عليها الأفكار الرجعية التقليدية، فما عادت تثأر لكرامتها ولا تقاوم مستغليها، بل صبرت على الأذى والإستغلال إحتساباً لله تعالى، وطمعاً بما عنده من جنة ونعيم، كما وعدتهم الديانات ورجال الكنيسة، الذين كان لهم نصيب هائل من الأراضي الإقطاعية.

والثورة الشيوعية التي قامت على أسس علمية ــ كما يزعمون ــ سيطرت على قوى الإنتاج في الطبيعة، وأوجدت الظروف التي تنمحي فيها الأفكار الدينية من وعي الناس، وأبطلت مفهوم «الناس في التفكير والله في التدبير»، وأصبح مكانه «الناس في التفكير والتدبير أيضاً»، فلا عجب إذا ما قطعت الثورة الشيوعية كلّ علاقة لها بالمعتقدات الدينية المرتبطة إرتباطاً وثيقاً بالملكية التقليدية. لهذا، فإن الشيوعية تتبنى رسمياً محاربة الأديان، وتدرس المادية والإلحاد في مدارسها على أنها عقيدة علمية، كما يدرس المؤمنون دينهم، وتستعمل شتى الوسائل للدعاية والإعلان لتنفير الناس من الدين واستئصال

جذوره من المجتمع، والإنسان الشريف المناضل عندهم هو الذي يسهم في هدم الدين وبث الوعي الإلحادي مكانه، في صفوف العمال.

يقول إنجلز: «وإنه لصحيح بعد إننا نحن في التفكير والله في التدبير (والله يعني السيطرة الغريبة لأسلوب الإنتاج الرأسمالي)»[٢٣].

«وبالتالي حين لا يعود الإنسان في التفكير فحسب، بل في التدبير أيضاً. عندئذ فقط تتلاشى القوة الأخيرة، التي لا تبرح منعكسة في الدين، ويتلاشى معها أيضاً الإنعكاس الديني نفسه، وذلك لهذا السبب البسيط، ألا وهو أنه لم يبق وقتذاك شيء ينعكس»[٢٤].

ويقول أصحاب أصول الفلسفة الماركسية: «ولهذا كان الفلاح في روسيا القديمة ـ وقد أرهقه الفقر وفقد كل أمل بالمستقبل ـ يستسلم للإرادة الإلهية. ولقد جاءت الثورة الإشتراكية، فوضعت في يد المجتمع السيطرة على قوى الإنتاج، ومكنته في نفس الوقت من إدارة المجتمع بصورة علمية، كما زادت في سيطرته على الطبيعة. فوجدت عندئذ الظروف الموضوعية لتنمحي من وعي الناس الأفكار الدينية التي ولدتها ظروف موضوعية أُخرى»[٢٥].

ويقول ماركس: «إن الثورة الشيوعية تقطع من الأساس كل رابطة مع علاقات الملكية التقليدية، فلا عجب إذن إن هي قطعت بحزم أيضاً، أثناء تطورها، كل رابطة مع الأفكار والآراء التقليدية»[٢٦].

---

(٢٣) أي في الفترة التي كان يعيش فيها إنجلز وهي سابقة على الثورة الشيوعية.

(٢٤) آنتي دوهرنغ (ص ٣٨٣).

(٢٥) أصول الفلسفة الماركسية (١ : ٢٩٧).

(٢٦) البيان الشيوعي (ص ٦٥).

وتتميز النظرية الشيوعية إلى الدين عن غيرها بالمفهوم الذي اتخذته لنفسها عن الإلحاد، فهي تصور أن لها إلحادها الخاص بها، وهو في نظرها إلحاد إيجابي. يقول روجيه غارودي: «أما الإلحاد الماركسي» فهو في جوهره أسس منطلقة، ليس رفضاً بل هو تأكيد، تأكيد إستقلال الإنسان، أما نتيجته فهي رفض كل محاولة لحرمان الإنسان من قدرته المبدعة والمبدعة لذاتها»(٢٧).

ويمضي قائلاً: «إن ما يميز الإلحاد الماركسي هو أنه على خلاف سابقيه لم يكتف باعتبار الدين خديعة فحسب، اصطنعها المستبدون، أو مجرد وهم ولده الجهل، بل إن ماركس وإنجلز قد بحثا عن الحاجات الإنسانية التي تلبيها الأديان بهذه الصورة المخادعة، فوصلا ــ كما يقول ماركس ــ إلى أن الأديان هي في وقت واحد: إنعكاس لشقاء فعلي، واحتجاج على هذا الشقاء.

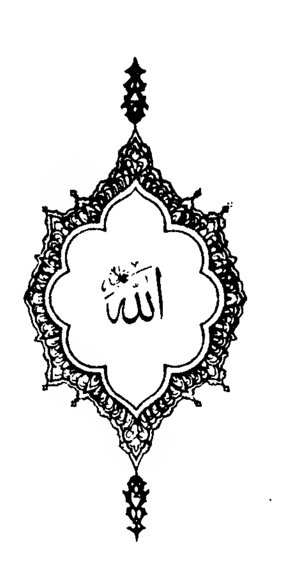
«أما الدين بوصفه إنعكاساً لشقاء الإنسان وضعفه، فهو يبدو كعقيدة تفسير للنظام القائم وتبرير له معاً. وهو إذ ذاك، وبصورة دائمة تقريباً يستخدم كسلاح للسلطان يسمح بتعليم الجماهير أن النظام القائم نظام أراده الله وأن الخير إذن هو أن يستسلم المرء وينقاد إليه في طواعية واختيار.

فناموس الخطيئة الأصلية، مثلاً استخدم لمثل هذه الغايات. يقول القديس أوغسطين (في ملكوت الله): « إن الله قد أدخل الرق في العالم كعقاب على الخطيئة، وسيكون تمرداً على إرادته أن يحاول إلغاء هذا الرق». ولقد كانت الكنيسة دائمًا تبارك وتنسب إلى الله كل صور التحكم الطبقي، من رق وقنانة وإجارة»(٢٨).

---

(٢٧) ماركسية القرن العشرين (ص ١٤٤ ــ ١٤٥).

(٢٨) نفس المصدر (ص ١٤٥ ــ ١٤٦).


الله

الفصل السادس

التفسير المادّي للتّاريخ والأخلاق

تمهيد:

يقول الماديون: الأخلاق أقدم شكل للوعي الإجتماعي، ولم يعثر على شعب واحد تنعدم لديه أبسط مباديء الأخلاق. والأخلاق متغيرة على الدوام، وتحمل طابعاً طبقياً في المجتمع الطبقي، لأن أخلاق الطبقة المسيطرة هي السائدة في المجتمع، فالأخلاق إما أن تبرر سيطرة الطبقة الحاكمة ومصالحها، وإما أن تعبر عن تذمر الطبقة المضطهدة حين تصبح قوية بدرجة كافية.

يقول إنجلز: «وما دام المجتمع قد تطور حتى الوقت الحاضر ضمن التضادات الطبقية، فإن الأخلاق قد كانت على الدوام أخلاقاً طبقية، فهي إما أن تبرر سلطة الطبقة الحاكمة ومصالحها، وإما أن تمثل، حالما تحوز الطبقة المضطهدة ما يكفي من القوة، التمرد على تلك العقيدة ومصالحه المضطهدين المقبلة في الوقت نفسه»[1].

يقول الماديون: وهذه الأخلاق ليست مفروضة على المجتمع من الخارج، وليس لها مبادئها الدائمة، فهي نتاج للوضع الإقتصادي السائد.

(١) آنتي دوهرنغ، ص ١١٥.

يقول إنجلز: «وهكذا فإننا نرفض كل محاولة لإلزامنا بأية عقيدة أخلاقية مهما كانت على اعتبارها شريعة أخلاقية أبدية، نهائية، وثابتة أبداً، بحجة أن للعالم الأخلاقي أيضاً مبادئه الدائمة التي تنهض فوق التاريخ وفوق الفوارق بين الأمم. «إننا نادي على النقيض من ذلك بأن سائر النظريات الأخلاقية قد كانت حتى هذا التاريخ، في آخر تحليل، نتاجاً لأوضاع المجتمع الإقتصادية السائدة في زمنها»(٣).

الأخلاق في عهد المشاعية البدائية:

يقول الماديون: في المجتمع الشيوعي الأول ولدت عادات وتقاليد وأخلاق جماعية، نتيجة لعلاقات الإنتاج الجماعية السائدة، ولأن الإنسان كان لا يستطيع أن يعيش ويكافح منفرداً، ولأنه كان يستمد قوته من الجماعة، لذلك كانت الضرورة القاسية هي التي ترغمه على مراعاة قواعد الحياة، التي كانت تظهر تحت شكل مطالب أخلاقية. وتتجه لتطور قوى الإنتاج وظهور الملكية الشخصية تغيرت آراء الناس، وأصبحت الملكية الشخصية أمراً مستساغاً بعد أن كانت سابقاً تعتبر غير أخلاقية وغير طبيعية، وتتعارض مع المصلحة العامة. يقول أصحاب كتاب النظرية الماركسية اللينينية: «لقد ولدت علاقات الإنتاج الجماعية في النظام المشاعي البدائي عادات وتقاليد جماعية، وأخلاقاً جماعية لدى الناس البدائيين، وعندما واجه الناس في مجرى تطور القوى المنتجة علاقات أصبح فيها التمتع الشخصي ببعض الأشياء أكثر سهولة لعملية الإنتاج، تغيرت آراء الناس أيضاً، وأصبحت الملكية الشخصية لبعض الأشياء، وهي الملكية التي كانت

(٢) نفس المصدر، ص ١١٤ ــ ١١٥.

تعتبر في المراحل السابقة لا أخلاقية أو غير طبيعية وغير معتادة، على أقل تقدير، أمراً لا ضير فيه ولا يتعارض مع المصلحة العامة»[٣].

الأخلاق في عهد الرق:

يقول الماديون: حين انهار نظام المشاعية البدائيـة، وظهرت الطبقات إلى حيز الوجود، أصبحت الأخلاق تحمل طابعاً طبقياً، وكان مجتمع عهد الرق أول شكل للأخلاق الطبقية، وكانت أخلاق الأسياد هي السائدة، لأنها قامت على أساس العلاقات الإقتصادية للنظام الرقي. وكانت تعكس العلاقات القائمة بين الأرقاء ومالكيهم، حيث أن الأرقاء كانوا يعاملون معاملة وحشية سيئة وكانت الأخلاق تسمح بظلم الرقيق وجلده وقتله. وتبرّر هذه التصرفات القاسية التي كانت تعتبر في ذلك الوقت تصرفات أخلاقية. يقول أصحاب كتاب المادية التاريخية: «إن أخلاق مجتمع عهد الرق هي أول شكل للأخلاق الطبقية، فقد كانت أخلاق مالكي الأرقاء هي السائـدة في ذلك المجتمع، وهي إذ نشأت على أساس العلاقات الإقتصادية للنظام الرقي، كانت تعكس العلاقات القائمة بين الأرقاء ومالكيهم بالدرجة الأولى. إن الخاصة المميزة لهذه الأخلاق هي أنها كانت لا تعترف بالعلاقة الإنسانية إلا بين الأحرار من الناس. لقد كان الرقيق خارج الأخلاق، وهو سلعة وشيء، وأداة ناطقة، ولهذا فقد كانت الأخلاق تسمح بظلمه وجلده وقتله، ولم تكن تلك المعاملة الوحشية للرقيق لتوقظ أي «تأنيب ضمير» لدى مالكه. وكانت الأخلاق تبررها، لكن هذا التبرير لم يكن إلا ضرورة إقتصادية أملتها العلاقات الرقية لذلك العصر»[٤].

(٣) النظرية الماركسية اللينينية، ص ٤٣٩.

(٤) المادية التاريخية، ص ٤٥٧.

الأخلاق في عهد الإقطاع:

يقول الماديون: وحين إنهار نظام الرق وسيطر النظام الإقطاعي على المجتمع. صارت الأخلاق الإقطاعية هي السائدة. وكانت هذه الأخلاق تخفي ظلم الإقطاعيين القاسي للفلاحين، وكان الدين الكنسي في هذا الوقت يفسر الأخلاق السائدة، ويضع لها الأسس التي تعتمد عليها في تبرير مصالح المستغلين كأوامر ربانية لا يجوز مخالفتها. وقد ساعدت هذه الأخلاق المرتكزة على الدين الطبقة المستغلة في تخدير الجماهير الكادحة، والإجهاز على كل ثورة تحررية تقوم بها الجماهير المغلوبة لنيل حقوقها.

«ومع الإنتقال إلى الإقطاعية، صارت الأخلاق الإقطاعية هي السائدة، فهي لا تنظر إلى القن كشيء وإنما كإنسان من الدرك الأسفل، «العظم الأسود»، بينما كانت تنظر إلى ممثلي الطبقة السائدة كبشر من الصنف الممتاز، «العظم الأبيض». وإلى جانب هذا فقد كانت الأخلاق الإقطاعية تخفي ظلم الإقطاعيين الوحشي للفلاحين، وتقنع الشكل الإقطاعي للإستقلال. ولقد كانت تصور بنفاق كبير، علاقة السيد بفلاحيه، كعلاقة الأب ببنيه، يوجههم ويرعاهم ويتحمل المسؤولية عنهم.

«إن دين المجتمع الإقطاعي قام بتفسير الأخلاق السائدة وبوضع الأسس لها، إذ صور مطالبها وحدودها التي تعبر في الواقع عن مصالح المستغلين كأوامر إلهية، والأخلاق الإقطاعية التي ارتكزت على الدين ساعدت على كبح جماح جماهير الفلاحين المسحوقة السوداء»[٥].

---

(٥) نفس المصدر، ص ٤٥٧ ــ ٤٥٨.

الأخلاق في عهد الرأسمالية:

يقول الماديون: إنتصرت الرأسمالية على الإقطاع حين طرحت شعار المساواة والحرية والنضال ضد الامتيازات الإقطاعية. وأحرز التقدم الإجتماعي خطوة إلى الأمام على صعيد الأخلاق. وبرز كتاب يناضلون ضد الأيديولوجية والأخلاق الإقطاعية، في سبيل حرية الفكر والنشاط، ومن أجل تحرير الفرد من كل القيود الإقطاعية. ولكن الرأسمالية مع انتصارها بدأت تظهر ماكانت تخفيه من جشع واستغلال للناس، فالمساواة التي أطلقتها وتبنتها في بداية أمرها شكلية لا حقيقية. فانتقل الإنسان من عبودية متخلفة إلى عبودية بشكل أرقى، وإن كان يظن نفسه حراً طليقاً من الإلتزامات الإقطاعية، إنتقل الإنسان إلى عبودية صاحب رأس المال وصاحب الآلة والمصنع، وأصبح الحال بالنسبة له، إما أن يبيع قوة عمله، وإما أن يموت جوعاً. وأصبحت العلاقات بين الناس علاقات نقدية، تقوم على أساس المصلحة والجري وراء الربح.

«ومع هذا فقد أحرز التقدم الإجتماعي خطوة إلى الأمام على صعيد الأخلاق، فالايديولوجيون البرجوازيون، إذ يناضلون ضد الايديولوجية والأخلاق الإقطاعيتين، ناضلوا في سبيل حرية الفكر، وحرية النشاط ومن أجل تحرير الفرد من كل القيود الإقطاعية الممكنة. ولكنه مع انتصارالرأسمالية يتكشف المضمون الحقيقي لأفكار الحرية والمساواة والإنسانية البرجوازية، فالمساواة البرجوازية شكلية، وهي تخفي تبعية العامل للرأسمالي، والإستغلال الشديد الوطأة للمنتج المباشر، المقيّد إقتصادياً، من قبل الرأسماليين بقيود أقوى من أية قيود حديدية أخرى. إن الحرية البرجوازية هي تمتع الرأسماليين بحرية نشاط المؤسسة وفي الإستيلاء على عمل الآخرين، وهي بالنسبة للبرولتاري بيع قوة عمله أو الموت جوعاً. والإنسانية البرجوازية أيضاً

هي إنسانية مجردة. فالرأسمالية في الواقع لا تخلق الشروط الواقعية لتطور وازدهار الشخصية، وأكثر من ذلك فهي تحول كرامة الإنسان إلى قيمة تبادلية، والعلاقات بين الناس إلى علاقات نقدية، قاضية على أي نوع من الصلات بين الناس إلا صلة المصلحة المكشوفة صلة الدفع الخالي من العلاقات الإنسانية»[٦].

يقول الماديون: نتيجة للركض وراء الربح يصطدم الرأسماليون بعضهم ببعض في صراع تزاحمي عنيف، وتولد السيطرة على الإنتاج والمزاحمة العداء المتبادل، ويهتم الرأسمالي بمصالحه الخاصة وينظر إلى الآخرين كوسيلة لتحقيق مطامعه الشخصية، ويكون رفاه بعض الناس على حساب شقاء الآخرين.

من هذه الظروف نشأ المبدأ الأساسي للأخلاق البرجوازية، وهو الفردية البرجوازية المتغلغل في جميع نواحي الحياة، في علاقات الإنتاج، والسياسة، والأسرة... الخ. والبرجوازي يسعى لتبرير أنانيته وفرديته في الوعي الأخلاقي. فالرأسمالي يصور سعيه لتحقيق أهدافه على أنه إهتمام بمصلحة الجماعة، واستثمار العمال وإنتاج السلع من أجل الحصول على الأرباح، بأنه تأمين المواد الضرورية للمجتمع.

«إن أعظم ما يعني به البرجوازي هو السعي وراء الربح. وهذا المذهب الفردي البرجوازي يتغلغل في جميع نواحي الحياة البرجوازية في علاقات الإنتاج، وفي السياسة، وفي الأسرة... الخ.

«إن مبدأ الفردية هو السائد في سلوك البرجوازي، إلّا أنه ليس من مصلحة البرجوازية أن تعلن عن مصالحها الجشعة بصورة ساخرة

(٦) نفس المصدر، ص ٤٥٨.

ومكشوفة. إن البرجوازي يسعى لتبرير أنانيته وفرديته في الوعي الأخلاقي، إذ يصور السعي لبلوغ أهدافه الجشعة كاهتمام بالمصلحة العامة. وهنا تتجلى الفردية الحيوانية «كحرية الفرد» ويتجلى استعمار العمال «كإنقاذ للمحرومين من الجوع» وكتقديم الخبز للجائعين. ويتجلى إنتاج السلع من أجل الحصول على الأرباح كتأمين المواد الضرورية للمجتمع، ويتبدى إستعباد الشعوب الأخرى كعملية «تمدين» لها.

«ولهذا فإن ما يميز الأخلاق البرجوازية هو طابعها المنافق عندما تتقنع شريعة الغاب في عالم الملكية الخاصة، بستار من تعاليم الايديولوجيين البرجوازيين»(٧).

الأخلاق في عهد الشيوعية:

يقول الماديون: إن الأخلاق الشيوعية تختلف اختلافاً كبيراً عن أخلاق المستغلين، لأن الشيوعيين يحمون الملكية الجماعية ويقدسونها، في حين أن المستغلين يقدسون الملكية الخاصة ويحمونها ويدافعون عنها بشتى الوسائل المادية والفكرية. «والأخلاق الشيوعية خلافاً لأخلاق المستغلين تعلن أن الملكية الجماعية هي المقدسة وتجب حمايتها، هذه الملكية التي تؤمن رفاه المجتمع كله وجميع الكادحين»(٨).

والأخلاق الشيوعية تربي في الإنسان الشيوعي الإخلاص للشيوعية، والحب للوطن الإشتراكي والبلدان الإشتراكية، لأنها تنطلق من قاعدة «الفرد من أجل الجميع والجميع من أجل الفرد»(٩)، الذي

---

(٧) نفس المصدر، ص ٤٥٩.

(٨) نفس المصدر، ص ٤٦٤.

(٩) نفس المصدر، ص ٤٧٤.

لا تظهر حريته إلا داخل الجماعة. يقول ماركس: «في الجماعة فقط يحصل الفرد على الوسائل التي تمنحه إمكانية التطوير الشامل لمواهبه، وبالتالي فإن حرية الفرد لا توجد إلا في الجماعة»[10].

والماركسية تعترف بقيام الإشتراكية على أساس غير أخلاقي وتنكر على المفكرين وعلماء الإجتماع البرجوازي الذين يقولون بأن الإشتراكية قائمة على أساس الأخلاق المجردة، كالعدالة الخالدة والحق المطلق مثلاً، دون أن ينطلقوا في حكمهم هذا من القوانين الموضوعية للتطور الإجتماعي. فهي على هذا المعنى لا تملك مثقال ذرة من أخلاق على حد تعبير لينين. وهي لا تحتاج في بنائها إلى الأساس الأخلاقي، وإنما تحتاج إلى الأساس العلمي. والماركسية لا تعترف بأن الظلم شيء أساسي، وإنما هو نتيجة للرأسمالية وأهم المباديء في الأخلاق الشيوعية التي تدين المهملين والمتقاعسين ـ كما يقولون ـ هي النظر إلى العلاقة نحو العمل على أنه إبداع، وأنه أسمى واجب للفرد الشيوعي تجاه المجتمع، لأن إرادة العيش على حساب الآخرين تتناقض مع أخلاق المجتمع الإشتراكي.

«إن الماركسية تنتقد دونما تحفظ محاولات علماء الإجتماع البرجوازيين. والبرجوازيين الصغار، لجعل الإشتراكية قائمة على «أساس أخلاقي» أي بناء نظرية الإشتراكية على أساس المباديء الخلقية المجردة، كالعدالة الخالدة والحق المطلق وغيرهما، دون أن ينطلقوا من القوانين الموضوعية للتطور الإجتماعي. وبهذا المعنى في الواقع ليس في الماركسية، مثقال ذرة من الأخلاق كما يقول لينين:

«إن الظلم وغيره من وجهة النظر الماركسية ليس أساسياً، وإنما

---

(١٠) المؤلفات، ٣: ٧٥، نقلاً عن نفس المصدر، ص ٤٧٥.

هو نتيجة للرأسمالية، والإشتراكية لا تحتاج إلى أساس أخلاقي وإنما إلى أساس علمي»[11].

ويقولون أيضاً: «إن أهم مباديء الأخلاق الشيوعية هي العلاقة الشيوعية نحو العمل، والإهتمام برعاية وزيادة الأموال الإجتماعية، وفي العلاقة نحو العمل بالذات وقبل كل شيء، يتجلى الإطار الروحي الجديد للناس الذين تربوا في المجتمع الإشتراكي. وتتلائم مع الأخلاق الشيوعية تلك العلاقة الشريفة الطيبة نحو العمل. العلاقة نحو العمل كإبداع، وكأسمى واجب للفرد تجاه المجتمع.

«إن الأخلاق الشيوعية تدين المهملين، والمتقاعسين، والطفيليين. إن إرادة العيش على حساب الآخرين تتناقض مع أساس المجتمع الإشتراكي، ومع أخلاقه»[12].

والشيوعيون على أتم الإستعداد لإرتكاب أي عمل منافٍ للأخلاق من أجل تحقيق مكاسبهم وطموحاتهم، وهم بهذا ينطلقون من نظرية مكيافللي التي تقول بأن الغاية تبرر الوسيلة.

يقول إنجلز: «إن الأخلاق التي نؤمن بها هي كل عمل يؤدي إلى تحقيق انتصار مبادئنا مهما كان هذا العمل منافياً للأخلاق المعمول بها»[13].

ويقول لينين: «يجب على المناضل الشيوعي الحق، أن يتمرس بشتى ضروب الخداع والغش والتضليل. فالكفاح من أجل الشيوعية يبارك كل وسيلة تحقق الشيوعية»[14].

---

(١١) نفس المصدر، ص ٤٧١ ــ ٤٧٢.

(١٢) نفس المصدر، ص ٤٧٥ ــ ٤٧٦.

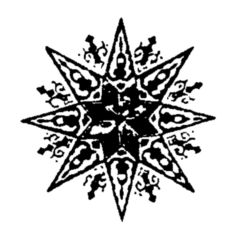
(١٣) إشتراكيتهم وإسلامنا، ص ٣٦.

(١٤) عن نفس المصدر، ص ٣٧.

ويقول أيضاً: «إذا لم يكن المناضل الشيوعي قادراً على أن يغير أخلاقه وسلوكه وفقاً للظروف مهما تطلب ذلك من كذب وتضليل وخداع،فإنه لن يكون مناضلاً ثورياً حقيقياً»[15].

وعلى هذا الأساس فإنهم يرون أن الكذب والتضليل والخداع والخيانة والظلم وعدم الشرف، وفقدان الكرامة. إذا كانت هذه الأشياء كلها تؤدي إلى تحقيق الشيوعية فلا مانع من فعلها، ولا مانع من أن يكون المناضل الشيوعي كاذباً ظالماً فاجراً مخادعاً، أو غير ذلك ما دام الهدف هو انتصار الشيوعية.

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝٣٧﴾[16]



(١٥) عن نفس المصدر، ص ٣٧.

(١٦) سورة الزخرف: ٣٧.

الفصل السابع

التفسير المادي للتاريخ والشخصيات البارزة

لا يعترف الماديون بنشاط الشخصيات البارزة في دفع عجلة التاريخ إلى الأمام، وذلك لأن أسلوب الإنتاج هو القوة المحددة للتطور الاجتماعي، والجماهير الكادحة هي القوة الحاسمة في الإنتاج، وبالتالي فهي التي تقوم بالدور الحاسم في صنع التاريخ، لأن التاريخ من صنع الجماهير، وليس من صنع الأفراد. فالأفراد البارزون لا يعملون لذاتهم، وإنما يعملون مرتبطين بنضال الجماهير فأي فكرة لا تعتنقها الجماهير لا يمكن لها أن تلقى نجاحاً مهما كانت عظيمة، وإرادة هؤلاء الأفراد أصغر من أن تغير مسار التاريخ.

وهم إذ يلغون دور الأفراد البارزين في التاريخ إنما يقصدون أولاً وقبل كل شيء إلغاء دور الأنبياء، والدعاة المصلحين، والقادة المحنكين في إصلاح البشرية، وفق شريعة الله وهديه. ودور الشخصية البارزة عندهم ما هو إلا كالشرارة، التي إن لقيت في طريقها مادة قابلة للاشتعال أحدثت الشيء الكثير، وإلا تنطفيء ويذهب أثرها.
والجماهير هي القوة الحاسمة في السياسة أيضاً، لأن كلمة الجماهير في اللحظات الحرجة هي الحاسمة في انعطاف حركة التاريخ.

والماديون يعترفون بدور الشخصيات البارزة في التاريخ، وأن

لهم أثراً فعالاً في دفع حركة التاريخ إلى الأمام، شريطة أن تكون إرادة وأفكار هذه الشخصيات معبرة عن مشاعر الجماهير ومنسجمة مع إرادتها. ودور الشعب في أي مجال من المجالات الاجتماعية هو الحاسم بصورة مباشرة أو غير مباشرة لأن الشعب هو صانع التاريخ، يصنعه وفقاً للشروط المادية التي يتعلق بها اتجاه حركة الجماهير ونشاطها.

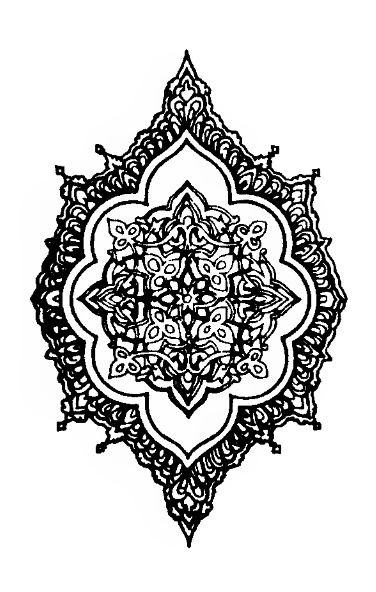
يقول أصحاب كتاب المادية التاريخية: «والواقع إذا كان أسلوب الإنتاج هو القوة المحددة للتطور الاجتماعي، فإن الجماهير الكادحة المنتجة للخيرات المادية هي التي تقوم بالدور الحاسم في صنع التاريخ، باعتبارها القوة الحاسمة في الإنتاج. فالتاريخ ليس من صنع شخصيات معينة، وإنما هو من صنع الجماهير. . .».

«فالشعوب هي التي تقوم بجميع الثورات العظيمة، وإن رغبة الجماهير واتجاهها وتأييدها لهذا أو ذاك تؤلف العامل الحاكم للنجاح في المجال السياسي. . .» ولهذا فإن إرادة شخصية ما، مهما بلغت من العظمة، ومهما كان تأثيرها كبيراً ليست إلا «عظمة» أصغر من أن تعطف التاريخ وتسيره حسب مشيئتها، لكنه إذا كانت هذه الشخصية معبرة عن مشاعر الجماهير وإهتمامها، إذا كانت إرادة وتفكير الفرد تنسجم مع إرادة وتفكير الملايين، فإن الشخصية آنذاك تترك أثرها الواضح في التاريخ.

«وهكذا، فلو تناولنا أي مجال من مجالات الحياة الاجتماعية لوجدنا أن الشعب يقوم بالدور الحاسم فيه بصورة مباشرة أو غير مباشرة. إن نشاط الجماهير الشعبية يدفع التاريخ إلى الأمام، وإن الشعب هو صانع التاريخ، لكنه يصنعة وفقاً للشروط المادية التي يتعلق بها اتجاه حركة الجماهير وطابع نشاطها.

ويقولون في موضع آخر: «وهكذا فالمادية التاريخية تعترف بأن الشخصيات البارزة يمكن أن يكون لها تأثير كبير على سير التاريخ. وأن دور الشخصية عظيم، ولا سيما في المجال السياسي حيث يمكن أن يكون لفهم الوضع والقدرة على النفاذ إلى جوهر العمليات، وللمبادرة الخلاقة، والطاقة الخاصة والامكانيات التنظيمية للشخصيات القائدة، تأثير كبير على عملية التطور، وتساهم في إنجاح نضال الجماهير. لكن هؤلاء الأفراد لا يعملون بذاتهم، ولذاتهم وإنما هم يعملون مرتبطين بنشاط ونضال الجماهير وإلا فلن يتمكنوا من التأثير على سير التاريخ»[1].

(١) المادية التاريخية مقتطفات من ص ٣٣٦، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٧٢.



الفصل الثامن
التفسير المادّي للتاريخ والأسرة

تمهيد:

يقول الماديون: شهدت الأسرة تغيرات كثيرة وتبدلات عديدة عبر القرون، وقد جاء هذا التغيير في كيان الأسرة ونظامها نتيجة لتطور الوضع الاقتصادي.

وقد كان الزواج الجماعي في المرحلة الوحشية هو النظام السائد، وكان الأبناء ينتسبون إلى الأم، ولم يكن هناك حائل يعوق بين زواج الأخ من أخته أو الولد من أمه، أو الوالد من إبنته. وقد كان الرجال يحيون حياة تعدد الزوجات، والزوجات يعشن حياة تعدد الأزواج. أما الغيرة على المرأة من قبل الرجل فهي عاطفة نشأت في عهد متأخر، لأن الغيرة في عرفهم تذيب كل صلة اجتماعية تقوم على الزواج الجماعي. والمحارم في نظرهم عبارة عن اختراع ثمين، لأنه قبل هذا الاختراع الثمين لم يكن الوصال الجنسي بين الأولاد والآباء والأخوة والأخوات يثير الاشمئزاز. وقد كان الوصال الجنسي يتم بين الرجال والنساء بلا قيد، حيث أن القيود الحاضرة لم تكن موجودة من قبل.

يقول جان فريفيل: «لا تشكل الأسرة كياناً اجتماعياً خالداً،

ولقد طرأت عليها تبدلات عديدة عبر القرون، وهذا التطور يتحدد في التحليل الأخير بالعامل الاقتصادي»[٢].

ويقول إنجلز: «ولئن كان ثمة أمر أكيد فهو أن الغيرة عاطفة نشأت في عهد متأخر نسبياً، وهذا يصدق على مفهوم «المحرم». لأن الأخ والأخت لم يكونا وحدهما يعيشان في الأصل كما يعيش الزوج والزوجة فحسب، بل إن العلاقات الجنسية بين الآباء والأولاد مسموح بها أيضاً لدى شعوب عديدة حتى اليوم... وقبل اختراع المحارم (لأن المحارم اختراع حقاً، بل اختراع ثمين جداً) لم يكن الوصال الجنسي بين الآباء والأولاد ليثير من الاشمئزاز أكثر مما يثيره الوصال بين أشخاص من أجيال مختلفة ـ كذلك الذي يحدث فعلاً اليوم ـ، حتى في أكثر البلاد تظاهراً بالتزمت من دون أن يثير النفرة الشديدة»[٣].

ويقول إنجلز في موضع آخر: «فالمفهوم التقليدي لا يعرف إلا الزيجة الوحدانية فقط، مع تعدد الزوجات للرجل الواحد، ومع تعدد الأزواج للمرأة الواحدة. إذا توخينا الدقة، ويتغاضى ـ على طريقة المتزمتين المتحجرين من دعاة الأخلاق السذج ـ عن أن هذه الحواجز المفروضة من قبل المجتمع الرسمي تخرق عند التطبيق بصمت لكن بلا حياء ـ لكن دراسة المجتمع البدائي، على عكس ذلك تطلعنا على أحوال يحيا فيها الرجال حياة تعدد الزوجات، وتحيا زوجاتهم في الوقت ذاته حياة تعدد الأزواج، وتعتبر الأولاد المشتركون تبعاً لذلك، أولاداً مشتركين لهم جميعاً»[٤].

---

(٢) المرأة والاشتراكية، ص ١٧.
(٣) أصل الأسرة، ص ٥٣ ـ ٥٤.
(٤) نفس المصدر، ص ٤٦.

أنواع الأسر:

أولاً ـ أسرة الأقرباء بالدم، أو أسرة الجيل:

يقول الماديون: تعتبر هذه الأسرة هي المرحلة الأولى للأسرة البشرية، وفي هذه المرحلة تصنف المجموعات الزوجية تبعاً للأجيال، فالجد والجدة في المجموعة الأولى، ثم الأبناء والبنات أزواج لبعضهم في مجموعة ثانية، ثم أولادهم وبناتهم أزواج يضمون في مجموعة ثالثة، والمجموعة الرابعة تضم أحفاد أولاد الأجداد والجدات. أما المحرم فهو الزواج بين السلف والخلف أي الآباء والبنات. أما الأخوة والأخوات فمسموح لهم بالزواج فيما بينهم.

ومع ذلك فإن الماديين يعترفون بأن أسرة الجيل قد انقرضت وأن أخشن الشعوب التي يتحدث عنها التاريخ لا تمدهم بأمثلة على هذا الشكل من الأسرة.

يقول إنجلز: «في هذه المرحلة تصنف المجموعات الزواجية تبعاً للأجيال، جميع الأجداد والجدات ضمن حدود الأسرة هم أزواج وزوجات بالتبادل، وكذلك الأمر مع أولادهم، الآباء والأمهات، كما أن أولاد هؤلاء يؤلفون هم أيضاً حلقة ثالثة من الأزواج والزوجات المشتركين ويؤلف أولاد هؤلاء، أعني أولاد الأحفاد للأجداد والجدات حلقة رابعة. وهكذا في هذا الشكل من الأسرة، يحرم السلف والخلف فقط، الآباء والأولاد، من حقوق وواجبات زواج أحدهم بالآخر».

«في هذه المرحلة تتضمن علاقة الأخ بأخته أن يمارس أحدهما مع الآخر الوصال الجنسي بصورة طبيعية... إن أسرة الجيل قد انقرضت. وحتى أخشن الشعوب التي يتحدث عنها التاريخ لا تمدنا بأمثلة على هذا الشكل يمكن التثبت منها»[٥].

(٥) نفس المصدر، ص ٥٦ ـ ٥٧.

يقول ماركس: «في الأزمنة البدائية كانت الأخت هي الزوجة، وكان ذلك يتمشى مع الأخلاق»[٦].

ثانياً ــ أسرة الشركاء:

يقول الماديون: كان التقدم الأول في التنظيم هو حرمان الآباء والأولاد من العلاقة الجنسية المتبادلة، ثم تقدم هذا التنظيم إلى حرمان الأخوة والأخوات من العلاقة الجنسية فيما بينهم أيضاً. وقد حدثت هذه الخطوة بالتدريج، مبتدئة بحرمان الأخوة والأخوات الطبيعيين من جهة الأم من العلاقات الجنسية، حيث كان النسب يعرف من جهة الأم، وانتهت هذه الخطوة بحرمان الزواج بين الأخوة والأخوات الأباعد (أي بين أولاد الأعمام والعمات والأخوال والخالات من الدرجة الأولى والثانية والثالثة). وعلى حد تعبير مورغان إن هذا التقدم «يقدم مثالاً جيداً للطريقة التي يعمل بها مبدأ الإنتخاب الطبيعي»[٧].

وبناءً على هذا المبدأ عندهم، فإن القبائل التي قيدت نفسها بهذا التحريم للزواج بين الأقرباء تطورت سريعاً أكثر بكثير من القبائل التي ما زال هذا النظام ساري المفعول فيها. ويرجح الماديون ظهور أسرة العشيرة من هذا الشكل من الأسرة.

كما أنهم يؤكدون على أن معرفة والد الولد في جميع أشكال الأسرة الجماعية غير ممكنة، وإنما تعرف أمه معرفة أكيدة.

يقول إنجلز: «إذا كان التقدم الأول يتألف من حرمان الآباء والأولاد من العلاقات الجنسية المتبادلة، فإن التقدم الثاني يتألف من حرمان الأخوة والأخوات منها... وقد حدثت هذه الخطوة بالتدريج،

---

(٦) نقلاً عن حاشية نفس المصدر، ص ٥٦.

(٧) .عن نفس المصدر، ص ٥٨.

مبتدئة في أقرب الاحتمالات، بحرمان الأخوة والأخوات الطبيعيين (أي من جهة الأم) من العلاقات الجنسية، وذلك في حالات متفردة في أول الأمر، ثم أصبح حرمانهم بالتدريج هو القاعدة. وتنتهي هذه الخطوة بتحريم الزواج حتى بين الأخوة والأخوات الأباعد...».

«في جميع أشكال الأسرة الجماعية لا يعرف من هو والد الولد معرفة أكيدة، أما والدته فتعرف معرفة أكيدة».

«وفي أغلبية الحالات، يبدو أن مؤسسة العشيرة قد انبثقت مباشرة من أسرة الشركاء»(٨).

ثالثاً ــ الأسرة الزوجية:

يقول الماديون: إن التعقيد المتزايد في محرمات الزواج كان سبباً في جعل الزواج الجماعي مستحيلاً شيئاً فشيئاً، وفي هذه المرحلة يعيش الرجل مع زوجة واحدة. ولكن تعدد الزوجات وخيانة الزوجة يظلان من امتيازات الرجل، وقد كانت المرأة تطالب بالاخلاص التام طوال فترة العشرة الزوجية وإن زنت فعقوبتها قاسية، وقد كان رباط الزوجية ضعيفاً بحيث يمكن حله من قبل أحد الطرفين، ويرجع الأولاد إلى أمهم في النسب.

وفي هذه المرحلة الأسرية أصبحت النساء نادرات ومرغوبات، ونتيجة لذلك ظهرت عملية اختطاف النساء وبيعهن، حتى يتمكن الرجل من الحصول على زوجة له.

يقول إنجلز: «في هذه المرحلة يعيش الرجل الواحد مع إمرأة واحدة، لكن تعدد الزوجات والخيانة الزوجية يظلان من امتيازات الرجال. وإن لم يكن تعدد الزوجات يمارس إلا نادراً لأسباب إقتصادية

(٨) نفس المصدر مقتطفات، ص ٥٨، ٦٣.

فقط، وفي الوقت ذاته يطلب من المرأة الاخلاص التام طوال فترة العيشة المشتركة، فإذا زنت عوقبت بقسوة. . . غير أن رباط الزيجة يمكن حله من قبل أي من الطرفين، فيرجع الأولاد إلى أمهم فقط كما كان الأمر في السابق»[٩].

ويقول أيضاً: «فبينما كان الرجال لا تعوزهم النساء في ظل الأشكال السابقة للأسرة، وكانوا على النقيض، يملكون منهن عدداً فوق الكفاية، إذا بالنساء الآن يصبحن نادرات ومطلوبات، ونتيجة لذلك، بدأ بظهور الزيجة الزوجية إختطاف النساء وبيعهن»[١٠].

يقول الماديون: ونتيجة لتطور الظروف الاقتصادية فقدت العلاقات الجنسية التقليدية طابعها البدائي، وأصبحت هذه العلاقات تبدو شائنة بالنسبة للنساء اللواتي اشتد طموحهن إلى الحق في العفة والزواج برجل واحد. ولم يكن هذا التقدم ليصدر عن الرجال الذين لم يخطر ببالهم أن ينبذوا مسرات الزيجة الجماعية القائمة، وقد تم الانتقال إلى هذا الشكل من الزيجة الوحدانية بفضل النساء.

يقول إنجلز: «لأنه كلما فقدت العلاقات الجنسية التقليدية القديمة طابعها الغابي البدائي الساذج، نتيجة لتطور الظروف الاقتصادية للحياة، أي مع القضاء على المشاعية القديمة وازدياد كثافة السكان، كان لا بد لهذه العلاقات أن تبدو أكثر فأكثر شائنة، ومزعجة للنساء اللواتي كان يشتد باستمرار طموحهن إلى الحق في العفة، إلى الحق في الزواج المؤقت أو الدائم برجل واحد كسبيل للخلاص، ولم يكن بالوسع صدور هذا التقدم عن الرجال، وذلك على الأقل، لأنهم لم يخطر ببالهم قط ـ حتى أيامنا هذه ـ أن ينبذوا

(٩) نفس المصدر، ص٧٢، ٧٣.

(١٠) نفس المصدر، ص٧٢، ٧٣.

مسرات الزيجة الجماعية القائمة. ولم يستطع الرجال إدخال الوحدانية الصارمة، إلا بعد أن تم الانتقال بفضل النساء إلى الزيجة الزوجية، لكن هذه الزيجة الزوجية الوحدانية الصارمة هي طبعاً وحدانية للنساء فقط»(١١).

يقول الماديون: ونتيجةً لازدياد الثروة زادت مكانة الرجل في الأسرة، وتولد في نفس الرجل الميل لاستغلال هذه المكانة الجديدة في القضاء على نظام الوراثة التقليدي السابق لمصلحة أولاده، حيث كان الوارث من جهة الأم فقط، وانتصر الرجل أخيراً على المرأة، وأصبحت خاضعة له، وأصبح يدير الأمور العامة للأسرة، وانتقل نظام الميراث إليه، وأصبح الأولاد ينسبون إلى أبيهم ويرثون ماله. وصارت المرأة عبداً لشهوة الرجل، فانحطت مكانتها واستهين بكرامتها. وغدت مجرد أداة لإنتاج الأولاد. والماديون يعترفون بأنهم لا يعرفون كيف حدثت الثورة التي أقصت المرأة عن عرش الميراث منها والنسب إليها، وعن استلام الرجل لزمام الأمور، ولا يعرفون أيضاً متى حدثت هذه الثورة الحاسمة على حد تعبيرهم.

يقول إنجلز: «وإذن فقد كانت الثروات كلما ازدادت تهب الرجل من جهة أخرى، مكانة في الأسرة أهم من مكانة المرأة، وتولد فيه، من جهة أخرى الميل إلى استغلال هذه المكانة المعززة للإطاحة بنظام الوراثة التقليدي في مصلحة أولاده. بيد أن هذا كان مستحيلاً ما دام النسب حسب حق الأمومة سائداً. وإذن كان لا بد من القضاء على هذا، وقد قضي عليه، ولم يكن هذا العمل صعباً كما يظهر لنا الآن. لأن هذه الثورة ـ وهي من أهم الثورات الحاسمة التي خبرتها البشرية على مر الدهور ـ لم تكن محتاجة لإزعاج أي فرد من أفراد

---

(١١) نفس المصدر، ص ٨١.

العشيرة الأحياء، لأن جميع أفراد العشيرة كانوا يستطيعون البقاء في العشيرة بعد هذه الثورة على ما كانوا عليه قبلها. كان يكفي أن يقرر فقط أن ذرية الأعضاء الذكور في المستقبل يجب أن يبقوا في العشيرة. وأما ذرية الاناث فيجب إقصاؤهم عن العشيرة، ونقلهم إلى عشيرة أبيهم، وبهذا تم القضاء على حساب النسب في خط الاناث، وعلى حق الوراثة من طريق الأم... وتأسس النسب إلى الذكور وحق الوراثة من الأب.

«أما كيف حدثت هذه الثورة؟ ومتى حدثت لدى الشعوب المتحضرة؟ فذلك ما لا نعلم عنه شيئاً، لأنها تقع كلها في أزمنة ما قبل التاريخ»[١٢].

ويقول في موضع آخر: «كان القضاء على حق الأمومة الهزيمة التاريخية العظيمة لجنس الاناث، لأن الرجل تسلم دفة الأمور حتى في البيت، وأصبحت المرأة منحطة المكانة، مستهانة، عبداً لشهوة الرجل، مجرد أداة لإنتاج الأولاد»[١٣].

رابعاً ــ الأسرة الوحدانية:

يقول الماديون: هذه الأسرة مبنية على سيطرة الرجل، ومن ميزاتها أنها تهدف إلى إنتاج أولاد لا يشك في صحة نسبتهم إلى أبيهم حتى يتسنى للولد أن يرث أباه. ومن الملاحظ أن هذه الأسرة كما يزعمون لم تظهر على مسرح التاريخ بصورة وفاق بين الرجل والمرأة، وإنما ظهرت بصورة إخضاع أحد الجنسين للآخر، وقد امتازت هذه الأسرة عن الأسرة الزوجية بأن أصبح رباط الزواج متيناً جداً، وأصبح حله بيد الرجل فقط.

---

(١٢) نفس المصدر، ص ٨٦.

(١٣) نفس المصدر، ص ٨٧ ــ ٨٨.

ويعتبر الماديون أن أول تقسيم للعمل هو تقسيم العمل بين الرجل والمرأة، وأن أول تضاد طبقي ظهر في التاريخ يشابه نشأة التضاد بين الرجل والمرأة، وأن أول اضطهاد طبقي يطابق اضطهاد الرجال للنساء في الزيجة الوحدانية. ويعتبر الماديون أن الزيجة الوحدانية تقدم تاريخي ولكنها بالاشتراك مع نظام الرق والملكية الخاصة رسخت أساس الاستغلال القائم إلى اليوم، حيث يدرك الناس مصلحتهم على شقاء الآخرين واضطهادهم.

يقول إنجلز: «إن الأسرة الوحدانية مبنية على سيطرة الرجل، وهدفها الصريح إنتاج أولاد لا يشك في صحة أبوتهم، هذه الأبوة التي لا بد منها، لكي يرث الأولاد في يوم ما، ثروة أبيهم بوصفهم ورثته الطبيعيين، وتختلف الأسرة الوحدانية عن الأسرة الزوجية في أنّ رباط الزواج أمتن جداً منها، ولا يعود حله الآن رهناً برضى أي من الطرفين، بل يصبح الرجل كقاعدة عامة هو وحده الذي يستطيع الآن حل هذا الرباط وتسريح زوجته»[١٤].

ويقول في موضع آخر: «إن أول تقسيم للعمل هو تقسيم العمل بين الرجل والمرأة من أجل إنجاب الأطفال، واليوم أستطيع أن أضيف: أن أول تضاد طبقي ظهر في التاريخ يشابه التضاد بين الرجل والمرأة في الزيجة الوحدانية. وأول اضطهاد طبقي يطابق اضطهاد جنس الاناث من قبل جنس الذكور».

«كانت الزيجة الوحدانية تقدماً تاريخياً عظيمًا، لكنها في الوقت ذاته دشنت هي والرق والثروة الخاصة، ذلك العهد القائم إلى اليوم الذي يكون فيه كل تقدم تقهقراً نسبياً أيضاً، العهد الذي يدرك فيه

(١٤) نفس المصدر، ص٩٥، ١٠٢.

بعض النـاس مصلحتهم وتـطورهم بشقـاء النـاس الآخـرين واضطهادهم»[١٥].

وقد قامت الأسرة الوحدانية على أساس الأحوال الاقتصادية، ولم تكن قائمة على أساس طبيعي، فقد قامت على أساس ظهور الملكية الخاصة، وانتصارها على الملكية العامة.

يقول إنجلز: «كانت الزيجة الوحدانية أول شكل للأسرة مبني لا على أحوال طبيعية، بل على أحوال إقتصادية، أي على إنتصار الملكية الخاصة على الملكية العامة البدائية، الطبيعية النشأة[١٦].

موقف الشيوعيين من الأسرة

ويشبه الماديون الرجل في الأسرة بالبرجوازي في المجتمع، والمرأة بالبرولتاري، وعندهم أن الزيجة الوحدانية قد قامت على الأساس الإقتصادي وذلك بتركيز الثروة بيد الرجل، ولكن السؤال الذي يطرح هو لما كانت الزيجة الوحدانية قد ظهرت من أسباب إقتصادية فهل تختفي باختفاء هذه الأسباب.

يجيب إنجلز: «إنها، بدلاً من أن تختفي سوف تأخذ بالتحقق تحققاً تاماً، لأنه بتحويل وسائل الإنتاج إلى ملكية إجتماعية سيزول أيضاً العمل المأجور، البرولتاريا، وستزول أيضاً تبعاً لذلك، الضرورة التي تضطر عدداً من النساء ــ يمكن حسابه بواسطة الإحصاء ــ إلى الإستسلام من أجل المال»[١٧].

ويقول الماديون: إن البغاء سيختفي من المجتمـع، وتصبح

(١٥) نفس المصدر، ص ٩٥، ١٠٢.
(١٦) نفس المصدر، ص ١٠١.
(١٧) نفس المصدر، ص ١١٧.

الزيجة الوحدانية حقيقة للرجل، وحين تنتقل وسائل الإنتاج وتصبح ملكية عامة للجماهير، فإن الأسرة الفردية لا تظل هي الوحدة الإقتصادية للمجتمع لأن الإقتصاد البيتي الخاص ينقلب إلى صناعة جماعية، وتصبح تربية الأطفال والعناية بهم من الشؤون العامة، لأن المجتمع سيعنى عناية تامة ومتساوية بجميع الأطفال الشرعيين وغير الشرعيين، ونتيجة لذلك يختفي القلق الذي يستحوذ على قلب الفتاة، من جراء العواقب التي تعتبر أهم حافز إجتماعي، إقتصادي، وخلقي يمنعها من تقديم نفسها لمن تحب.

يقول إنجلز: «فبانتقال وسائل الإنتاج إلى ملكية عامة لا تبقى الأسرة الفردية هي الوحدة الإقتصادية للمجتمع، وينقلب الإقتصاد البيتي الخاص إلى صناعة إجتماعية وتصبح العناية بالأطفال وتربيتهم من الشؤون العامة. فيعنى المجتمع عناية متساوية بجميع الأطفال سواء أكانوا شرعيين أم طبيعيين، وبذلك يختفي القلق الذي يستحوذ على قلب الفتاة، من جراء «العواقب» التي هي في زماننا أهم حافز إجتماعي ـ إقتصادي وخلقي ـ يعوقها عن تقديم نفسها بلا حرج لمن تحب. أفلن يكون هذا سبباً كافياً لازدياد حرية الوصال الجنسي شيئاً فشيئاً، ومن ثم لنشوء رأي عام أكثر تساهلاً فيما يتعلق بشرف العذارى وعار النساء؟»[١٨].

يقول الماديون: منذ أن سيطر الرجل على المرأة إقتصادياً أصبحت المرأة أداة عمل وإنجاب، وصارت سلعة يقايض بها الرجل مقابل ماشية أو أسلحة وقد أكدت الأديان والتشريعات البدائية تبعية المرأة للرجل، وقضت عليها بألا يكون لها مهمة غير الإنجاب، فالتوراة تأمر بهجر المرأة العقيمة، وكتب الهند المقدسة تحرم المرأة من

(١٨) نفس المصدر، ص ١١٨.

الحق من الحرية وامتلاك الثروة. ولم يعترف الرومان بحقوق المرأة، ومعظم المفكرين الإغريق كانوا يعادونها.

أما الكنيسة فقد زادت الطين بلة، فقد عاملت المرأة على أنها عدو، وأنها مفسدة الإنسان لأنها من حبائل الشيطان، وزاد دنس المرأة والعلاقة معها ما ابتدعته الكنيسة من الرهبنة. وفي عصور الإقطاع كان من حق الرجل أن يضرب زوجته وأن يبيعها وأن يورثها لمن يشاء، أما زوجة القن فلم تكن أكثر من دابة ركوب، بائسة محتقرة مهانة جاهلة. هذا الظلم المرير الذي قاسته المرأة على مر العصور إنما مرده في التحليل الأخير، إلى سيطرة الرجل إقتصادياً.

يقول فريفل: «واستقرت الهيمنة للرجل الذي صار ينظر إلى المرأة على أنها أداة عمل وإنجاب، وبدلاً من أن تكون تابعة لدائرة أبيها، أصبحت تابعة لدائرة زوجها، وصارت تقايض مقابل ماشية أو أسلحة. ومذ ذاك لم تكف المرأة عبر الأنظمة العبودية والإقطاعية والرأسمالية عن معاناة وإضطهاد مزدوج: إضطهاد ضمن إطار المجتمع، وإضطهاد ضمن إطار الأسرة.

«وقد كرست الأديان والتشريعات البدائية تبعية المرأة هذه، وقضت عليها بألا يكون لها من مهمة غير الإنسال.

«ولم يعاملها الإغريق بأفضل مما عاملتها شعوب الشرق ــ وكان من حق الزوج أن يضايقها أو يهبها.

«ولم تعترف الحقوق الرومانية البدائية للمرأة بإرادة مستقلة، وأخضعتها لوصاية الأب.

«ولقد عاملها آباء الكنيسة وجهابذتها على أنها عدوة، ورأوا فيها مفسدة الإنسان، وفخ الشيطان وهلاك الروح.

«ومما زاد في (دنس) المرأة و«قذارة» العلاقة بين الجنسين حالة العزوبية التي فرضت على الكهنة.

«وفي العصور الوسطى كانت المرأة تعتبر ملكاً للرجل ـ وكانت جزءاً من الإقطاعية، ومصيرها بيد صاحب الإقطاعية، وكان من حق «الفارس» أن يسيء معاملة زوجته، وأن يضربها، وأن يعاقبها عقاباً «معقولاً»، وأن يهبها ويورثها لغيره. وحتى أن يبيعها، وضماناً لوفائها كان يحبسها في «حزام العفة» إذا ما اضطر للسفر.

«هذا عن وضع المرأة في الطبقة السائدة. أما زوجة القن فلم تكن أكثر من دابة ركوب بائسة محتقرة جاهلة، مسحوقة تحت وطأة الإقطاع»[١٩].

ويعيب الماديون على التقاليد والأديان، التي تفصل فصلاً كاملاً بين تربية الأولاد والبنات، وإلى تكييف البنات بصورة لا يكون لهن من هدف معها غير الحصول على زوج لا غير.

يقول جان بابي: «وخلاصة القول أن التقاليد والآراء المسبقة، تدفع بالأسر بمساندة المؤسسات الإجتماعية ولا سيما الدينية، إلى الفصل فصلاً كاملاً بين تربية البنات والصبيان، وإلى إبقائهم في جهل متبادل، وإلى تكييف البنات بصورة لا يكون لهن من هدف معها غير الحصول على زوج»[٢٠].

أما عن مدى تأثير الشيوعية على الأسرة فلننظر ما يقولون.

إنهم يهدفون إلى تهديم ركني الأسرة الأساسيين، الزواج وتربية الأولاد، وفي نظرهم أن العلاقة بين الجنسين لن تصبح علاقة خاصة

---

(١٩) المرأة والإشتراكية مقتطفات، ص ١٩ ـ ٢٠.
(٢٠) نفس المصدر، ص ١٢٥.

تهم طرفي الزواج فقط دون تدخل من أحد، إلا بإلغـاء الملكية الخاصة، وبفضل تربية الأولاد على نفقة المجتمع.

يقول إنجلز: «إن العلاقات بين الجنسين ستصبح مسألة خاصة لا تعني إلا الأشخاص المعنيين والمجتمع لن يتدخـل فيها، وهـذا سيكون ممكناً بفضل إلغاء الملكية الخاصة، وبفضل تربية الأولاد على نفقة المجتمع، وبنتيجة ذلك يكون أساسا الزواج الراهنان قد ألغيا، فالمرأة لن تعود تابعة لزوجها، ولا الأولاد لأهلهم، هذه التبعية ما تزال موجودة بفعل الملكية الخاصة»[٢١].

ويضحك الشيوعيون من ذعر البرجوازيين حول إشاعة النساء لأن شيوعية النساء في نظرهم تقريباً كانت دائمًا موجودة. والبرجوازيون يجدون لذة في إغواء بعضهم لنساء بعض، فهم لا يكتفون بالبغاء الرسمي، ولا يكتفون بأن تكون نساء وبنات البرولتاريين تحت تصـرفهم. والزواج البرجوازي هـو إشاعـة النسـاء المتـزوجـات، والشيوعيون يقبلون التهمة الموجهة إليهم من تفكيك الأسرة وهدم العلاقة العائلية، والأهم من ذلك أنهم سيحولون إشاعـة النساء المستترة بالرياء كما يزعمون إلى شيوعية علنية رسمية.

ومع ذلك نجدهم يقولون إن شيوعية النساء ستزول بزوال علاقات الإنتاج الحالية.

يقول ماركس وإنجلز: «ليست بالشيوعيين حاجة إلى إدخال إشـاعة النسـاء، فهي تقريبـاً كانت دائـمًا مـوجـودة، ولا يكتفي البرجوازيين بأن تكون تحت تصرفهم نساء البرولتاريين وبناتهم ــ هذا

(٢١) نفس المصدر، ص ٥١.

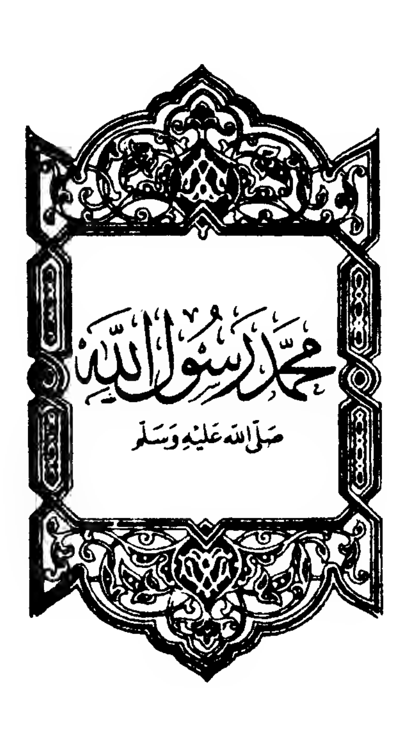
عدا البغاء الرسمي ـ بل يجدون لذة خاصة في إغواء بعضهم لنساء بعض.

«ليس الزواج البرجوازي في الحقيقة والواقع سوى إشاعة النساء المتزوجات، فقصارى ما يمكن أن يتهم به الشيوعيون إذن، هو أنهم يريدون كما يزعم، الإستعاضة عن إشاعة النساء المستترة بالرياء والمغطاة بالمداجاة بإشاعة صريحة رسمية.

«ولكن من البديهي الواضح أن محو علاقات الإنتاج الحالية يؤدي بطبيعة الحال، إلى محو إشاعة النساء التي تنتج منها. أي أن البغاء سواء أكان رسمياً أم غير رسمي، يزول ويضمحل»[٢٢].

---

(٢٢) البيان الشيوعي، ص ٦٢ ـ ٦٣.


محمد رسول الله
صلى الله عليه وسلم

البَابُ الثاني

مُناقشة النّظريَّة

الفصل الأول : هل المادة أزلية أبدية؟

الفصل الثاني : هل المادة سابقة في الوجود على الفكر؟

الفصل الثالث : مناقشة قوانين المادة.

الفصل الرابع : قوانين المادة لا تنطبق على حياة الإنسان.

الفصل الخامس : مناقشة أثر نظرية دارون على التفسير المادي للتاريخ.

الفصل السادس: مناقشة مراحل التطور في التاريخ البشري وحتمياته.

الفصل السابع : مناقشة موقف التفسير المادي للتاريخ من الدين.

الفصل الثامن : مناقشة موقف التفسير المادي للتاريخ من الأخلاق.

الفصل التاسع : مناقشة موقف التفسير المادي للتاريخ من الشخصيات البارزة.

الفصل العاشر: مناقشة موقف التفسير المادي للتاريخ من الأسرة.

الفصل الأول

هل المادة ازلية ابدية

تمهيد عام:

من خلال عرضي لنظرية التفسير المادي للتاريخ. أثبت من أقوالهم الصلة القوية بين المادية الديالكتيكية والتفسير المادي للتاريخ، وأنها وحدة متماسكة، لا يمكن فهم إحداهما دون فهم الأخرى، وأن التفسير المادي للتاريخ قد بني على أسس من المادية الديالكتيكية، وهو ثمرة من ثمراتها، طبقوه على حياة المجتمع البشري.

وذكرت أن الأساس الذي ساروا عليه وانطلقوا منه هو القول بأزلية المادة وأبديتها ــ وقد ترد المادة والطبيعة عندهم بنفس المعنى وبخاصة عند حديثهم عن عملية الخلق ــ فهم يقولون: إن المادة وجدت منذ الأزل، ولم تنشأ في أي وقت من الأوقات، فهي لم تخلق لأنه لا يمكن إفناؤها، وعلى هذا الأساس فهي أبدية كذلك. والمادة عندهم هي الخالق، والإنسان المفكر أحد مخلوقاتها(١).

وعندما يوجه إليهم السؤال الذي يقوم عليه التحدي حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو من خلق المادة؟ فإنهم يجيبون إن العلم

(١) انظر عرض النظرية من وجهة نظر أصحابها، الفصل الأول، المادة سابقة في الوجود على الفكر.

أثبت أنها وجدت دائمًا ومنذ الأزل؟ والذي يهمني في هذا البحث هو أن أعرض أقوالهم التي زعموا أن العلم يدعمها على شريحة النقد العلمي. لأرى هل العلم حقاً يدعمها أم ينقضها من أساسها؟

أولاً: هل المادة أزلية أبدية

قبل البحث في هذه النقطة لا بد من طرح سؤالين وهما:

أولاً ــ إنكم تقولون إن العلم أثبت أن المادة وجدت دائمًا ومنذ الأزل. فأين الدليل العلمي القاطع الذي يثبت صدق دعواكم أن المادة وجدت منذ الأزل؟

﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ (١١١)[٢]

ثانياً ــ إنكم تطلبون من المؤمنين بوجود الله سبحانه وتعالى الدليل على وجوده مع أن آثاره واضحة ومشاهدة تثبت بشكل قاطع لا يحتمل أدنى شك وجوده سبحانه وتعالى. فما هو الدليل العلمي عندكم على عدم وجوده سبحانه وتعالى:

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾[٣]

مخالفة الماركسية للمنهج العلمي:

ذكرت سابقاً أن الماركسيين يزعمون أن فلسفتهم المادية هي الفلسفة العلمية الوحيدة التي تتفق وسائر العلوم. ومن شأن المنهج العلمي الطبيعي ــ كما هو معروف ــ الإقتصار على الكون المادي. وعدم تجاوزه إلى ما وراءه، لأن وسائله التي يعتمدها هي الملاحظة

---

(٢) البقرة ١١١.

(٣) البقرة ٢٤.

والتجربة، وهذه الوسائل قاصرة عن إدراك ما وراء الكون المادي. فهي لا تملك إزاءه أية وسيلة للنفي أو الإثبات.

وكان على الفلسفة الماركسية التي اختارت هذا المنهج العلمي الطبيعي وإعلان نفسها فلسفة علمية أن تلتزم بموضوع هذا المنهج ولا تتجاوزه إلى غيره، فتركز همها على دراسة الكون المادي ولا تتعداه إلى غيره، ولكنها أقحمت نفسها بشيء، خارج عن المجال الذي خطته لنفسها، فتقحمت عالم الغيب. وأنكرت وجود الله سبحانه، وزعمت أن العالم المحيط بنا لم يخلقه إله، وان المادة موجودة وجوداً أزلياً. وهي تفسر العالم منطلقة من العالم ذاته دون اللجوء إلى الإعتماد على قوى خارقة للطبيعة يزعم وجودها خارج العالم»[٤].

ولكي أبين الأخطاء التي وقعت فيها الماركسية حين زعمت بأزلية المادة وأبديتها، لا بد لي من بيان خصائص الأزلي.

ما هي خصائص الأزلي؟

إن الأزلي كما هو مجمع عليه عند العقلاء لا بد أن تتوفر فيه الشروط التالية:

١ ـ أن يكون وجوده من ذاته ومتوقفاً على ذاته، ومن ثم فإنه يكون مستغنياً في وجوده وفي بقاء هذا الوجود وإستمراره عن غيره، ولا يستطيع غيره أن يؤثر عليه في إيجاد أو تحويل أو إعدام.

٢ ـ أن يكون قديماً لا بداية له، لأنه لو كانت له بداية لكان محدثاً من العدم فلا يكون أزلياً.

---

(٤) انظر المادية الديالكتيكية مجموعة من العلماء السوفيات ص ٣.

٣ ـ أن يكون باقياً لا نهاية له، لأنه لو كانت له نهاية لكان هناك من يستطيع إفناءه. والماديون عموماً يسلمون بهذه الشروط الواجب توافرها فيما هو أزلي، ولكنهم يحاولون تطبيقها على المادة ويزعمون أنها أزلية. فهل المادة كذلك؟(٥).

أدلة حدوث العالم من القرآن الكريم:

جاءت الأدلة القرآنية بدلائل واضحة تؤكد أن هذا الكون وما فيه مخلوق لله الحكيم العليم، وقد وجه القرآن الكريم فكر الإنسان إلى التطلع إلى هذه المخلوقات العظيمة العجيبة، التي تدل على حكمة وإبداع، وأن تنظيمها بهذه الدقة المتناهية لا يصدر إلاَّ عن القدير الخبير، لذلك تكرر في القرآن الكريم الحديث عن الإنسان نفسه، وعن الكون ومشاهده على أنهما طريق للوصول إلى ما وراءهما.

يقول الشيخ محمد المبارك: «إن الكون المعروف في القرآن عام شامل فهو لا يقتصر على وصف البلاد الصحراوية التي لا تعرف الأنهار، ولا على بلاد بعينها، بل يشمل الأرض كلها ثم يتجاوزها إلى النجوم والكواكب وإلى الشمس والقمر، ويشمل ما يبصره الإنسان وما لا يبصره وما خلق وما سيخلق»(٦).

يقول شيخنا الأستاذ عبد الرحمن الميداني حفظه الله: «أما البرهان على أن هذا الكون حادث وليس بأزلي فتقدمه لنا الأدلة العقلية الفلسفية القديمة، والقوانين العلمية الحديثة. فالأدلة العقلية الفلسفية تثبت لنا حدوث العالم من ظاهرة التغير الملازمة لكل شيء فيه، وذلك لأن التغير نوع من الحدوث للصورة والهيئة والصفات،

---

(٥) أنظر الماركسية في مواجهة الدين، ص ٢٥ ـ ٢٦.

(٦) نظام الإسلام والعقيدة والعبادة، ص ٢٨.

وهذا الحدوث لا بد له من علة، وتسلسلاً مع العلل للمتغيرات الأولى. سنصل حتماً إلى نقطة بدء نقرر فيها أن هذا الكون له بداية في صفاته وأعراضه وفي ذاته ومادته الأولى. وحينما نصل إلى هذه الحقيقة لا بد أن نقرر أن خالقاً أزلياً لا يمكن أن يتصف بصفات تقتضي حدوثه، وهذا الخالق هو الذي خلق هذا الكون وأوجده بالصفات التي هو عليها»(٧).

دليل الإلزام العقلي بين الوجود والعدم:

معلوم عند العقلاء أن العدم هو النفي العام لكل ما يخطر بالبال ونفي صفاته فلا ذات ولا قوة ولا إرادة ولا علم ولا حياة ولا أي شيء.

فلو كان العدم هو الأصل فكيف استطاع أن يتحول إلى الوجود؟ وكيف يأتي من هذا العدم العام ذوات وصفات وقوى تنطلق بنفسها منه إلى الوجود، وإنطلاقها هذا لا يكون إلَّا بقوة، والمفروض أن تكون من العدم.

إنه من المستحيل بداهة أن يتحول العدم بنفسه إلى الوجود أو أن يوجد العدم أي شيء. وإلى هذا المعنى جاءت الإشارة في القرآن الكريم.

قال الله تعالى:

﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾(٨).

أي: هل انتقلوا من العدم إلى الوجود من غير خالق؟ أم هل كانوا هم الخالقين لأنفسهم في هذا الإنتقال؟ وكلاهما من الأمور

(٧) صراع مع الملاحدة، ص ١٠٥ ــ ١٠٦.
(٨) الطور ٣٥.

المستحيلة بداهة وما دام قد ثبت لنا أن العدم لا يمكن أن يكون هو الأصل، فلا بد أن يكون الوجود هو الأصل لأنه نقيض العدم. ولذلك يستحيل عقلاً أن يطرأ العدم على وجود علمنا أنه هو الأصل وإلى هذه الحقيقة جاءت الإشارة في القرآن الكريم في قوله تعالى:

وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ[(٩)].

ولو نظرنا إلى الموجودات التي تقع تحت مجال إدراكنا الحسي في هذا الكون العظيم، لوجدنا أن هذه الموجودات ومنها الإنسان لم تكن ثم كانت. قال تعالى:

لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾[(١٠)].

وإن أشكال كثيرة كانت معدومة في أشكالها وصورها ثم وجدت كما هو مشاهد لنا باستمرار، كما تبدو لنا صورة التغيرات الكثيرة الدائمة في كل جزء من أجزاء هذه المواد الكونية التي نشاهدها، أو نحس بها أو ندرك قواها وخصائصها. فمن موت إلى حياة، ومن حياة إلى موت، ومن تغيرات في الأشكال والصور إلى تغيرات في الصفات والقوى، وكل ذلك لا يعلل في عقولنا وفق قوانين هذا الكون الثابتة التي استفدناها من الكون نفسه إلاَّ بالأسباب المؤثرة التي تحمل سر هذه التغيرات الكثيرة المتعاقبة في كل شيء من هذا الكون على إختلاف جواهره وصفاته سواء منها المتناهي في الصغر أو المتناهي في الكبر. وهنا نقول: لوكان الأصل في هذه الموجودات المعروفة على حواسنا هو الوجود لم تكن عرضة للتحول والتغير والزيادة والنقص والبناء والفناء، ولم تحتج صور وجوداتها وتغيراتها إلى أسباب ومؤثرات.

---

(٩) الفرقان ٥٨.

(١٠) التين ٤.

وبما أنها عرضة للتغيير والتحويل وبما أن قوانينها تفرض إحتياجاتها إلى الأسباب والمؤثرات، لزم عقلاً أن لا يكون الأصل فيها الوجود، وإنما يجب عقلاً أن يكون الأصل فيها هو العدم، ولا بدّ لها من سبب أوجدها من العدم وهو الله سبحانه وتعالى[11].

دليل الإمكان في الكون:

بملاحظتنا لكل شيء في الكون، سواء كان من الأشياء المادية التي يمكن أن ندركها ببعض حواسنا كالأرض والكواكب والنجوم، أو صفة من الصفات القائمة في الأشياء المادية التي نستنبط وجودها بعقولنا كالجاذبية الخاصة الموجودة في حجر المغناطيس، وكخواص المركبات المادية التي لا حصر لها في الكون سواء في ذلك الظواهر الكيمائية أو الفيزيائية. من خلال ملاحظتنا لجميع هذه الأشياء الكونية، ندرك بداهة في كل واحد منها أنه كان من الممكن عقلاً أن يتخذ صورة وحالة غير ما هو عليه الآن. فما المانع من أن يكون العقل في البهائم والنطق في العجماوات، وما المانع من أن تكون الأرض أدنى إلى الشمس والقمر من الوضع الذي هي عليه، أو غير ذلك من أشياء كثيرة. فإن قيل: إن الحكمة تقتضي أن تكون هذه الأشياء كما هي عليه الآن، وإلّا لاختل النظام وفسدت النتائج المرجوة من هذا الكون، قلنا أن الحكمة هي صفة الحكيم وهو الله سبحانه وتعالى. وما دام أن كل شيء في هذا الكون يحتمل أن يكون على واحد من أوضاع كثيرة غير الوضع الذي هو عليه، فإن العقول لا بد أن تحكم بداهة بأن ما كان كذلك فلا بد له من مخصص قد خصصه باحتمال موافق للحكمة والإبداع والإتقان من جملة إحتمالات كثيرة ولولا

(١١) العقيدة الإسلامية وأسسها بتصرف، ص ١٢٥ ـ ١٣٠.

وجود المخصص للزم ترجيح أحد المتساويين على الآخر من غير مرجح أو القول بأن موافقة الحكمة فيما لا حصر له من الأعداد كان على طريقة التصادف، وكلاهما مستحيل عقلاً، وحيث ثبت لدينا أن جميع هذه الممكنات محتاجة إلى المخصص الحكيم فإن عقولنا تحكم بشكل قاطع أن هذا المخصص يجب أن لا تكون ذاته أو صفاته محلاً لأي إحتمال من الإحتمالات الممكنة، التي تتعرض لها الأشياء الكونية في نظر العقل. وإنما يجب أن يكون على وضع ثابت واجب عقلاً لا يقبل العقل بحال من الأحوال أن تحتمل ذاته أو صفاته وضعاً آخر. وقد أشار القرآن الكريم إلى دليل الإمكان في عدة آيات كريمة منها قوله تعالى:

أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ (١٢).

وقوله تعالى:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ (١٣).

وقوله تعالى:

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾ (١٤).

وغيرها من الآيات الكريمة.

فقد بين سبحانه وتعالى في هذه الآيات وأمثالها من القرآن

---

(١٢) الفرقان ٤٥.

(١٣) ابراهيم ١٩.

(١٤) الملك ٣٠.

الكريم أن الصور والأنظمة والأوضاع التي تشاهدونها في الكون من الممكن أن تتخلف وتتغير، وأن تتحول من وجود إلى عدم، ومن وضع إلى وضع، وذلك بقدرة الله تعالى. فإذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يسلب هذه النظم الحكيمة القائمة في الكون، وينجم عن ذلك الاضرار بحياة الناس في الأرض فهل يستطيع أحد غير الله أن يثبتها على أوضاعها؟[١٥].

دليل الإتقان في الكون:

من أعظم ما يدهشنا في أنفسنا وفي الكون من حولنا ذلك الإتقان العجيب في التركيب والصنع، فما نصادف من شيء في الأرض ولا في السماء إلَّا وهو في غاية الإتقان مركب أحكم تركيب يؤدي به إلى غايته التي خلق من أجلها.

أليس من الإتقان هندسة الكون العجيبة، في مخطط كواكبه ونجومه، بحيث أن أي تغيير فيه يؤدي به إلى الخلل والنقص، أو الخراب والفناء، وكذلك أليس من الإتقان المدهش هذا الإنسان في خلقه وتكوينه وكذلك هذه الحيوانات المدهشة في تكوينها. نعم في كل شيء نرى فيه الإتقان المدهش الذي لا يصدر إلَّا عن الله سبحانه وتعالى الذي أتقن كل شيء صنعاً[١٦].

وقد أشار القرآن الكريم إلى دليل الإتقان في الكون المادي.

---

(١٥) نفس المصدر ١٣١ ــ ١٣٤.
(١٦) انظر نفس المصدر، ص ١٤٦ ــ ١٤٧.

وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ (17)

وقوله تعالى:

تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ (18).

وغيرها من الآيات الكريمة التي تتحدث عن الإتقان في الكون المادي.

خاتمة البحث:

بعد هذه الأدلة القرآنية التي أثبتت بشكل علمي عقلي أن الكون وما فيه مخلوق حادث لله سبحانه وتعالى، حيث لم يكن ثم كان بقدرته سبحانه وتعالى، وذلك لأنه مخلوق من العدم، والعدم لا يمكن عقلياً وعلمياً أن يكون هو الأصل في الوجود، ولا بد له من إلـه أوجده يتصف بصفات الكمال والأزلية. ثم إن كل شيء في هذا الكون ممكن أن يكون على غير الوضع الموجود عليه وقد ثبت من خلال البحث أن جميع الممكنات محتاجة إلى الخالق الحكيم. كما أن الإتقان المدهش في هذا الكون، لا بد أن يصدر عن إله عظيم.

يقول الأستاذ محمد المبارك «لا يقف الإسلام في نظرته إلى

---

(17) النمل 88.

(18) الفرقان 61 ـ 62.

الوجود عند حدود عالم الشهادة والحس في نطاق الكون المشاهد المتغير السائر وفقاً لسنن كما يقف الماديون. فوجود الكون نفسه يحتاج إلى تعليل، وحركته وارتباط أجزائه واقتران أسبابه بمسبباته وانتظام قوانينه وسننه تحتاج إلى تفسير.

«إن القرآن يدفعنا إلى التفكير في أكبر قضية، وإلى البحث عن أكبر حقيقة وذلك حين يدعونا إلى الإجابة عن أسئلة تدور كلها حول (الخلق) أي الإيجاد من العدم»[١٩].

وقد تحدث القرآن عن خلق النشأة الأولى، وعن خلق السماوات والأرض وعن تسخير المنافع المادية للإنسان. كما تحدث عن سنن الله سبحانه وتعالى هو خالق هذا الكون، وهو المقدر لسننه وقوانينه، وما دام هو الخالق المتصرف في هذا الكون، والقادر على توسيعه وزيادته كما قال تعالى:

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾[٢٠]

فهو القادر على إبادته وإفنائه، وما دام سبحانه هو الموجد لسنن هذا الكون فهو الحاكم ببقائه واستمراره وإلغائه وتبديله

﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾[٢١].

من هذا كله يتبين لنا أن الكون مخلوق لله، فالمادة على هذا الأساس محتاجة في وجودها إلى غيرها، لأن المخلوق عاجز عن الخلق لاحتياجه لغيره، وقد أثبت أن الكون لا بد له من إله عظيم عليم قدير يدبر أمره وسننه. وبهذه الأدلة التي عرضتها ثبت بشكل قاطع أن المادة

---

(١٩) نظام الإسلام العقيدة والعبادة، ص ٣٤.

(٢٠) الذاريات ٤٧.

(٢١) الأعراف ٥٤.

مخلوقة لله عز وجل لأنها وجدت من العدم، فهي حادثة، والحادث لا بد له من محدث، وبهذا يبطل قول الماديين بأزلية المادة، كما أنها في حالة حدوث وتغير دائمين، فحدوثها وتغيرها دليل على أن لها بداية، وهذا الدليل نفسه يقودنا إلى أن للمادة نهاية محتومة لا بد أن تصير إليها، لأن كل شيء له بداية فلا بد أن يكون له نهاية. قال الله تعالى:

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾[22]

وحين لا يسلم بهذه الأدلة المنطقية العقلية التي عرضها القرآن الكريم عن حدوث الكون وبدايته ونهايته طائفة من المفتونين بالعلوم الحديثة وقوانينها ومنجزاتها، فإني أعرض لهم أدلة من هذه العلوم وقوانينها تثبت حدوث الكون وأنه لا بد له من إلـه أوجده من العدم، كما أن له نهاية محتومة سيصير إليها.

* * *

الأدلّة العلميّة على حدوث المادّة:

أيدت الكشوف العلمية في العصر الحديث أن للمادة بداية حيث لاحظ العلماء أن حركة المادة في الكون كله حركة دائرية. فكل ذرة من ذرات الكون مؤلفة من جزيء كهربي موجب ويسمى البروتون وجزيء كهربي سالب ويمسى الالكترون، وبعض الذرات تحتوي على جزء ثالث معتدل يسمى النيترون، هذا ويشكل البروتون والنيترون في حالة وجوده كتلة النواة[23].

«أما الالكترون فهو يدور بسرعة دائرية هائلة[24]، ولولا هذا

---

(٢٢) الرحمن (٢٦، ٢٧).

(٢٣) أنظر الذرة ومنافعها السلمية ص ١٤.

(٢٤) أنظر المادة وضد المادة ص ١٧.

الدوران لجذبت كتلة النواة كتلة الالكترون ولم يكن هناك إمتداد لأي مادة على الإطلاق بل لولا هذا الدوران لكانت الأرض كلها ـ كما يقال ـ في حجم البيضة»[٢٥].

هذا الدوران هو سنة الله في الطبيعة. فالقمر يدور حول الأرض، والأرض تدور حول الشمس. وهكذا كل ذرة تدور في هذا الكون. والذي نريده هو أن الشيء الدائر لا بد ان تكون له نقطة بداية زمانية ومكانية ابتدأ منها[٢٦].

يقول إدوارد لوثر كيسيل في معرض رده على القائلين بأزلية الكون: «ولكن القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية[٢٧] يثبت خطأ هذا الرأي الأخير، فالعلوم تثبت بكل وضوح أن هذا الكون لا يمكن ان يكون أزلياً، فهنالك انتقال حراري مستمر من الأجسام الحارة إلى الأجسام الباردة، ولا يمكن أن يحدث العكس بقوة ذاتية بحيث تعود الحرارة فترتد من الأجسام الباردة إلى الأجسام الحارة. ومعنى ذلك أن الكون يتجه إلى درجة تتساوى فيها حرارة جميع الأجسام وينضب فيها معين الطاقة. ويومئذ لن تكون هنالك عمليات كيماوية أو طبيعية ولن يكون هنالك أثر للحياة نفسها في هذا الكون. ولما كانت الحياة لا تزال قائمة، ولا تزال العمليات الكيماوية والطبيعية تسير في طريقها، فإننا نستطيع أن نستنتج أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزلياً وإلا لاستهلكت طاقته منذ زمن بعيد، وتوقف كل نشاط في الوجود. وهكذا توصلت العلوم ـ دون قصد ـ إلى أن لهذا الكون بداية. وهي بذلك تثبت وجود الله، لأن ماله بداية لا يمكن أن يكون

---

(٢٥) الله جل جلاله ص ٢٣.

(٢٦) الماركسية في مواجهة الدين ص ٣٦.

(٢٧) من المستحيل على آلة مكتفية بنفسها غير مستعينة بأي عامل خارجي أن تنقل الحرارة من جسم إلى آخر اعلى منه في درجة الحرارة. انظر الديناميكا الحرارية، ص ١٧٣.

قد بدأ نفسه، ولا بد له من مبديء، أو من محرك أول، أو من خالق هو الإله. ولا يقتصر ما قدمته العلوم على إثبات أن لهذا الكون بداية، فقد أثبتت فوق ذلك أنه بدأ دفعة واحدة منذ نحو خمسة بلايين سنة»[٢٨]. ويقول جون كليفلاند كوثران: «وتدلنا الكيمياء على أن بعض المواد في سبيل الزوال أو الفناء،ولكن بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة، والآخر بسرعة ضئيلة.

وعلى ذلك فإن المادة ليست أبدية، ومعنى ذلك أنها ليست أزلية، إذ أن لها بداية.وتدل الشواهد من الكيمياء وغيرها من العلوم على أن بداية المادة لم تكن بطيئة أو تدريجية، بل وجدت بصورة فجائية. وتستطيع العلوم أن تحدد لنا الوقت الذي نشأت فيه هذه المواد. وعلى ذلك فإن هذا العالم المادي لا بد أن يكون مخلوقاً، وهو منذ أن خلق يخضع لقوانين وسنن كونية محددة ليس لعنصر المصادفة بينها مكان»[٢٩].

أما عالم الطبيعة فرانك ألن فقد أرجع سبب وجود الكون إلى أربعة احتمالات:

الاحتمال الأول: أن هذا الكون مجرد وهم وخيال.

الاحتمال الثاني: أن هذا الكون نشأ من تلقاء نفسه من العدم.

الاحتمال الثالث: أن هذا الكون أزلي ليس لنشأته بداية.

الاحتمال الرابع: أن هذا الكون له خالق ابدي.

أما الاحتمال الأول فلا يقيم أمامنا مشكلة سوى مشكلة الشعور والإحساس، فهو يعني أن إحساسنا بهذا الكون وإدراكنا لما يحدث فيه لا يعدو أن يكون وهماً من الأوهام ليس له ظل من الحقيقة، وقد عاد

---

(٢٨) الله يتجلى في عصر العلم ص ٢٧.

(٢٩) نفس المصدر ص ٢٥.

إلى هذا الرأي في العلوم الطبيعية أخيراً «سير جيمس جينز» الذي يرى أن هذا الكون ليس له وجود فعلي، وأنه مجرد صورة في أذهاننا. وتبعاً لهذا الرأي نستطيع أن نقول إننا نعيش في عالم من الأوهام. فمثلاً هذه القطارات التي نركبها ونلمسها ليست إلا خيالات، وبها ركاب وهميون وتعبر أنهاراً لا وجود لها وتسير فوق جسور غير مادية... الخ، وهو رأي وهمي لا يحتاج إلى مناقشة أو جدال.

أما الرأي الثاني، القائل أن هذا العالم بما فيه من مادة وطاقة قد نشأ هكذا وحده من العدم، فهو لا يقل عن سابقه سخفاً وحماقة، ولا يستحق هو أيضاً أن يكون موضعاً للنظر أو المناقشة.

والرأي الثالث الذي يذهب إلى أن هذا الكون أزلي ليس لنشأته بداية إنما يشترك مع الرأي الذي ينادي بوجود خالق لهذا الكون، وذلك في عنصر واحد هو الأزلية. وإذاً فنحن إما أن ننسب صفة الأزلية إلى عالم ميت وإما أن ننسبها إلى إله حي يخلق. وليس هنالك صعوبة فكرية في الأخذ بأحد الاحتمالين أكثر مما في الآخر.

«ولكن قوانين الديناميكا الحرارية تدل على ان مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجياً وأنها سائرة حتماً إلى يوم تصير فيه الأجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض هي الصفر المطلق، ويومئذ تنعدم الطاقة، وتستحيل الحياة. ولا مناص من حدوث هذه الحالة من انعدام الطاقة عندما تصل درجة حرارة الأجسام إلى الصفر المطلق بمضي الوقت.

أما الشمس المستعرة والنجوم المتوهجة والأرض الغنية بأنواع الحياة فكلها دليل واضح على أن أصل الكون أو أساسه يرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة، فهو إذاً حدث من الأحداث. ومعنى ذلك أنه لا بد لأصل الكون من خالق أزلي ليس له بداية، عليم محيط بكل

شيء قوي ليس لقدرته حدود، ولا بد أن يكون هذا الكون من صنع يديه»[٣٠].

أما عالم الطبيعة جورج ايرل دافيز فيقول في معرض حديثه عن الطريق التي نصل بها إلى معرفة الله حيث وصل إلى نتيجة هي أن الشيء المادي لا يستطيع خلق نفسه.

«ولا يمكننا أن نثبت وجود الله عن طريق الالتجاء إلى الطرق المادية وحدها. إذ لم يقل أحد بأن الله مادة حتى نستطيع أن نصل إليه بالطرق المادية، ولكننا نستطيع أن نتحقق من وجود الله بإستخدام العقل والإستنباط مما نتعلمه ونراه فالمنطق الذي نستطيع أن نأخذ به، والذي لا يمكن أن يتطرق إليه الشك، هوأنه ليس هنالك شيء مادي يستطيع أن يخلق نفسه.

«وإذا سلمنا بقدرة الكون على خلق نفسه، فإننا بذلك نصف الكون بالألوهية. ومعنى ذلك أن نعترف بوجود إله، ولكننا نعتبره إلهاً مادياً وروحياً في نفس الوقت. وأنا أفضل أن أؤمن بإله غير مادي خالق لهذا الكون تظهر فيه آياته وتتجلى فيه آياديه دون ان يكون هذا الكون كفواً له»[٣١].

الطبيعة لا تصلح ان تكون خالقاً:

بعد أن بينت الأدلة التي تثبت حدوث العالم وأن للكون بداية كما أن له نهاية سيصير إليها حتمًا، كما قرر القرآن الكريم، والإكتشافات العلمية الحديثة. لأن لكل حادث محدثاً، فهذا الكون

(٣٠) الله يتجلى في عصر العلم ص ٥ ـ ٦.
(٣١) نفس المصدر ص ٤٠ ـ ٤١.

حادث خلقه الله سبحانه وتعالى بإرادته ــ أناقش شبهة يرددها كثير من الناس الذين يدعون العلم والثقافة، دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث والتمحيص حتى يصلوا إلى الحق المبين، هذه الشبهة هي شبهة الطبيعة التي ينسبون عملية الخلق إليها زوراً وبهتاناً. ولقد عرفنا في التمهيد الأسباب التي جعلت أوروبا تعبد الطبيعة من دون الله، الطبيعة التي لا كنيسة لها ولا إلتزامات، تلك الظروف القاسية التي عملت النصرانية المحرفة والكنيسة المضللة على إيجادها، حيث استغلها أهل الإفساد، ومعهم اليهود فكرّهوا أوروبا من الدين ورجاله وكنيسته، فهربوا إلى عبادة الطبيعة هروباً وجدانياً ليتخلصوا من ظلم الكنيسة وسفاهتها.

إن كانت هذه ظروف أوروبا ــ فنحن المسلمين ولله الحمد ــ ليس في ديننا تحريف ولا تبديل، لأن الله تكفل بحفظ دينه ثم إن الظروف القاسية التي وجدت في أوروبا ليس لها وجود في مجتمعاتنا، فلسنا بحاجة إلى الهروب الوجداني الذي هربته أوروبا من دينها.

ولكن المفتونين بحضارة الغرب هم الذين يريدون من أبنائنا أن يخرجوا عن دينهم تقليداً للغرب الذي نبذ دينه وخالقه بحجة أن العلم والمدنية في أوروبا سببهما تخليها عن دينها وكنيستها، ونحن إذا أردنا أن نصبح مثلهم فلنترك ديننا ونأخذ الحضارة الغربية بخيرها وشرها.

هكذا يزرع المغفلون الجاحدون لنعمة الله في نفوس أبنائنا وعقولهم، ومن هذه اللوثات إلحاد الناس وذلك بإنكارهم وجود الله تعالى واعتقادهم أن الطبيعة هي الخالق من دونه.

﴿تَعَـٰلَىٰ عَمَّـا يُشْرِكُونَ ۝٣﴾ (٣٢)

---

(٣٢) النحل ٣.

ولنضع هذه القضية على شريحة النقد العلمي. إن الانسان حين يسأل أحد الطبيعيين من خلق السماوات والأرض والجبال والأنهار والحيوان والنبات ومن خلق الإنسان يقول لك الطبيعة. فما هي الطبيعة وما هي مفاهيمها وما هي حقيقة تأثيرها؟ يقول الدكتور حسن هويدي: «الطبيعة في اللغة السجية والخلق، غير أن للطبيعة اليوم في عقول الناس ـ حسب تفاوتهم ـ مفهومين: المفهوم الأول: أنها عبارة عن الأشياء بذاتها، فالجماد والنبات والحيوان، كل هذه الكائنات هي الطبيعة وهو مفهوم غير دقيق وحكم غير سديد كما سيتبين لك.

المفهوم الثاني: أنها عبارة عن صفات الأشياء وخصائصها فهذه الصفات: من حرارة وبرودة ورطوبة ويبوسة، وملاسة وخشونة وهذه القابليات: من حركة وسكون ونمو واغتذاء وتزاوج وتوالد، كل هذه الصفات والقابليات هي: الطبيعة. وسواء أكان القول الأول أو القول الثاني هو المعبر عن الطبيعة بحق، فما نصيب هذا القول من الحق؟ أما القول الأول فلا يخرج بالطبيعة بالنسبة لخلق الوجود عن تفسير الماء بالماء. فالأرض خلقت الأرض والسماء خلقت السماء والأصناف صنفت نفسها والأشياء أوجدت ذاتها فهي الحادث والمحدث وهي المخلوق والخالق في الوقت ذاته. وبطلان هذا القول بين فهو: اما ادعاء بأن الشيء وجد بذاته من غير سبب. واما ازدواج الخالق والمخلوق في كائن واحد، فالسبب عين المسبب وهو مستحيل. بل هو من التهافت والتناقض بحيث لا يحتاج إلى الوقوف والشرح.

وأما القول الثاني: وهو الاعتماد على قابليات الأشياء وخصائصها في التكوين، فنقول فيه: الحقيقة أن الذين يعزون الخلق إلى تلك القابليات والخصائص، لا يعدون عن كونهم وصافين لتلك الظواهر، لا يعرفون كنهها ولم يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن حقيقتها، ولو

فعلوا ذلك لوجدوا ان القابلية التي اعتمدوا عليها في خلق الشيء سراب خادع يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً. ولإيضاح ذلك بالطريق العلمي نضرب المثال التالي: نضع حبة في التراب ونسقيها بالماء فتنتفخ وتنفلق فيظهر منها الرشيم، ويندفع منه الجذر إلى الأسفل، والساق إلى الأعلى وتنشأ الأوراق فالأزهار فالثمار. وتكون الحبة قد أنتجت تفاحة مثلاً، فالقابلية التي كانت في الحبة هي الانتفاخ والانفلاق وظهور الرشيم... ولولا هذه القابليات المتوالية لما أطردت تلك الظواهر الحيوية ولما نشأت عنها الثمرة. فلنأت إلى هذه القابلية بالذات نبحث عن حقيقتها لو لم تنتفخ الحبّة وتنفلق لما نشأ شيء، فمن الذي نفخها وفلقها؟... لو كان للحبة عقل وتدبير! لقلنا إن عقلها هو الذي هيأ لها ذلك ولولا أن الماء هو الذي نفخها وفلقها لأمكن للماء أن ينفخ في الحديد ويفلقه. إذن فلا بد من مؤثر وقبول لتأثير ذلك المؤثر وإذا كانت الحبة بذاتها ـ جدلاً ـ إنتفخت وانفلقت فلماذا لم تجمد وتضمر بدلاًمن أن تنتفخ وتنمو؟ ولكي يحصل التكاثر والبقاء يحتاج الأمر إلى عقل وإدراك ومنهاج مرسوم من قبل تلك البذرة، والبذرة لا تملك شيئاً من ذلك، فكيف حصلت إذن ثمرة بعينها؟! بل كيف حصلت ثمار كثيرة متنوعة؟! وكيف كمنت الغاية المعينة والصفات المقصودة في صميم كل بذرة منها؟! والحقيقة أن من أمعن النظر في تعبير الطبيعيين المستندين إلى القابلية حينما يقولون: طبع النبات على ذلك، إنتفخت الحبة وانفلقت، وتوالدت الخلايا، تميل الخلية الحية إلى الإنقسام، يجد أنها جميعها أفعال مبنية للمجهول لجهلهم أو تجاهلهم الفاعل الحقيقي»[٣٣].

وهكذا نجد أن الطبيعة لا تصلح أن تكون خالقاً، حيث رأينا

---

(٣٣) الوجود الحق ص ٥٤ ــ ٥٨.

أن الطبيعة بالنسبة للموجودات ليست سوى صفاتها وقابلياتها وقوانينها التي تسير عليها، وكل هذه الأشياء لا تصلح أن تكون خالقاً، ولا بد لها من خالق عظيم عليم هو الله سبحانه وتعالى الذي خلقها فأحسن صنعها.

صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ[٣٤]

مبدأ السببية:

إن الإنسان الذي أنعم الله عز وجل عليه بالعقل، منذ أن أشرقت أشعة عقله على الوجود بدأ يتساءل ولا يزال وسيبقى يتساءل عن بداية نشأته وأين سينتهي مصيره. ويتساءل عن هذه الموجودات، والكائنات، كيف وجدت؟ ومن أوجدها؟ وما هي الأسباب الكامنة وراءها؟ لهذا كان مبدأ السببية من المباديء الثابتة التي لم تتغير على مدى التاريخ، وهو محل اتفاق بين المؤمنين والملحدين، فالتطلع إلى الأسباب والمسببات نتيجة طبيعية لميزة الإدراك والعقل اللذين خصّ الله بهما الإنسان دون سواه من المخلوقات.

وقانون السببية من المباديء العلمية الضرورية التي لا مناص للإنسان من الرجوع إليها في جميع ما يصادفه في حياته.

مبدأ السببية عند الشيوعيين:

ذكرت أن مبدأ السببية قانون عام، وهو من المباديء الثابتة على مدار التاريخ، وأنه محل إتفاق بين المؤمنين والماديين الملحدين، وهو ضرورة إنسانية ومن المباديء العلمية التي لا غنى لمفكر عنها.

---

(٣٤) النمل ٨٨.

يقول سبركين وياخوت: «نواجه دائمًا في نشاطنا سؤالاً عن علل هذه الظواهر أو تلك. وهو أحد الأسئلة التي تساعدنا على تبين الطبيعة الداخلية للظواهر التي تجري حولنا والتوصل إلى جوهرها. لم يكن عبثاً أن كتب الفيلسوف اليوناني القديم ديموقريطس يقول: «لأفضل أن أجد السبب الحقيقي ولو لظاهرة واحدة من أن أصبح قيصراً على بلاد فارس».

«فإذن ماذا تعني مقولتنا «السبب» و «النتيجة»؟

نعرف من الخبرة أنه من لا شيء لا ينتج شيء، وكل ظاهرة لها ما يولدها، وهو الذي يسمونه «السبب».

«السبب هو ما يخلق وينتج ويولد ظاهرة أخرى. وما ينتج تحت تأثير السبب يسمى نتيجة أو فعلاً»[٣٥].

هذا وقد جعل الماديون من هذا القانون مبدأ عاماً يصدق على كل شيء في العالم المادي. لذلك أخضعوا جميع الظواهر الكونية لهذا المبدأ لأن كل شيء له سببه الخاص به. فلا توجد ظاهرة لا تخضع لهذا القانون.

يقول سبركين وياخوت: «والسمة التالية للسببية تنحصر في أنها تحمل طابعاً عاماً، وقانون السببية قانون عام للعالم المادي.

«وهذا يعني أنه لا توجد ظاهرة واحدة لا تخضع لهذا القانون، أو تظهر رغم قانون السببية، وألا يكون لها المصدر المادي المناسب، ومن خبرتنا الشخصية نعرف أن قانون السببية ليس له استثناءات فإذا

(٣٥) أسس المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ص ٨٥ ـ ٨٦.

حدث شيء فإبحث عن السبب وبدونه لا ينشأ شيء في العالم. وليس صدفة المثل الشعبي الذي يقول: «لا دخان بلا نار»[٣٦].

«في الحياة العملية نبحث دائماً عن سبب الحوادث التي تحدث»[٣٧]. ولكن هذا المبدأ العام الذي أخذ به الماديون من الناحية النظرية هل طبقوه من الناحية العملية؟. ولابد من طرح سؤال وهو مثار خلاف جذري بين المؤمنين من جهة وبين الماديين الملحدين من جهة أخرى وهو: ما هو السبب الكامن وراء هذا الوجود من أرض وسماوات، ونبات وحيوانات وإنسان وغيره من المخلوقات؟ هذا السؤال نجد الإجابة عليه جاهزة وميسورة ومتوفرة عند الماديين، وهي أن هذا من الأمور الميتافيزيقية التي لا تهمنا بحال من الأحوال، ولا نشغل عقولنا بها لأنها أمور تافهة، والبحث عنها مضيعة للوقت، فكل شيء يخالف نظريتهم ولو كان صحيحاً لا يأخذون به ويصمونه بوصمة عار عندهم وهي إرجاعه إلى الميتافيزيقيه أو إلى المثالية التي هي في عرفهم عدوة للعلم، فهم لا يعرفون إلا العالم المادي، هذا العالم وجد ولا خالق له، وبالتالي فليس له سبب أول أوجده.

وقد كتب لينين بصدد المفهوم المادي عند فيلسوف العهد القديم هيراكليت يقول في ترجمة حرفية: «العالم، وحدة الكل، لم يخلقه أي إله ولا أي إنسان، ولكنه كان وهو سيبقى ناراً حية أزلياً تشتعل وتنطفيء بموجب قوانين... هذا عرض جيد جداً لمباديء المادية الجدلية»[٣٨].

في هذا النص نرى أن لينين نفى السبب الأول في إيجاد العالم

---

(٣٦) نفس المصدر ص ٨٨.

(٣٧) نفس المصدر، ص ٨٨.

(٣٨) الدفاتر الفلسفية، ج ٢، ص ١٢٨ ـ ١٢٩.

المادي، وهذا نفي صريح للقانون الذي قروه هم أنفسهم، حين وقفوا في تفسيره عند حدود معينة لم يتجاوزها. لأن تجاوز هذه الحدود يؤدي بهم إلى الاعتراف بخالق الكون، ومن ثم الاعتراف بالأديان وهذا يخالف أساس مذهبهم القائم على محاربة الأديان وإبادتها من الوجود.

وقد بينت أن العلماء أثبتوا حدوث الكون وقدروا له عمراً معيناً منذ نشأته وأن له نهاية لابد أن يصير إليها.

وما دام الماديون لا يعترفون بخالق هذا الكون، والمادة أو الطبيعة عندهم هي الخالق، فلا بد من القول أن المادة الحادثة التي قطع العلم بحدوثها لا تصلح أن تكون خالقاً، والطبيعة لا تستطيع أن تخلق شيئاً، وإنما هي مخلوقة لرب السماوات والأرض. وعلى هذا فإن الماديين لم يحققوا مبدأ السببية في ميدان الواقع كما قرروه في النظرية، لأنهم لو طبقوا هذا القانون حسب قواعده لأدى بهم إلى الإعتراف بخالق عظيم وراء هذا الكون كما ذكرت سابقا.

مبدأ السببية في مفهوم الدين:

إن الذي فهم مبدأ السببية حق الفهم هم علماء الدين ومن وافقهم من العلماء والفلاسفة، حيث لم يقفوا بالسببية عند حدود معينة ــ كما رأينا عند الماديين ــ بل ساروا بها حتى النهاية، إلى آخر ما تقرره من أحكام. يقول الدكتور حسن هويدي:

«منذ إمتياز هذا الإنسان بالإدراك واشراق أشعة عقله على الوجود، تساءل - ولا يزال - عن مبدئه ومنتهاه، فهو يتساءل: من أين أتى؟ وإلى أين يصير؟ وهو إذ ينصرف فكره إلى أن وروده المباشر إلى هذا العالم إنما كان من رحم أمه، أو من نطفة أبيه، لا يقتنع بهذه النظرة السطحية القريبة، دون النظر إلى المبدأ الأول والبحث عن السبب الأساسي الذي ترجع إليه جميع الأسباب

ولهذا الدافع العميق الممتزج بالنفس البشرية، والذي ولد معها وما زال يلازمها، كان الجواب على هذا السؤال شغل المحققين الشاغل، فنشأت أحكام مختلفة ونظريات متباينة، وكان منهم مخطيء ومصيب. غير أننا إذا نظرنا إلى ما بين أيدينا من السماء والأرض، نرى أن المطر ينهمر من سحاب، وأن الثمر يحصل من شجر، وأن الشجر ينبت من الماء والتراب، وأن الماء ينشأ من عنصري (الأوكسجين والهيدروجين)، ولم يشاهد الإنسان منذ فتح عينيه على الوجود، أن حادثا حدث من غير سبب، أو أن شيئاً وجد من غير موجد، حتى أضحى هذا المعنى بحكم الواقع القاهر لا يتصور العقل خلافه، ولا يطمئن إلى غيره. ولا يأبى الإقرار به إلا عقل مريض شأن المعتوهين، أو عقل قاصر شأن الطفل الذي يكسر الإناء ثم يقول: إنه انكسر بنفسه!

ولذلك وجدنا ذلك العربي قد أدرك هذه السببية بفطرته النقية فنادى نداءه المشهور: «البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير ليل داج، ونهار ساج، وسماء ذات أبراج، أفلا تدل على الصانع الخبير»؟!

إذن فقولنا: «لابد لكل حادث من محدث» أمر يقيني مسلم به ولا يقبل العقل غيره، وبالتالي: محال على حادث أن يحدث بذاته، وعلى شيء بأن يوجد بغير موجد. وإليه الإشارة في القرآن الكريم:

أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ؟ ﴿٣٥﴾ [٣٩]

نقول بناءً على هذه القاعدة: إن عالمنا هذا من أرض وجبال وبحار وأنهار وشجر ودواب، وشموس وأقمار، لابد له من محدث.

(٣٩) الطور، ٣٥.

وإن هذه الحوادث الفرعية الكثيرة مندفعة عَن أسباب أخرى أقل من الأولى، ولا بد أن نصل بالنتيجة إلى سبب لجميع هذه المسببات، ومحدث لجميع هذه الحادثات، لأننا كلما رجعنا إلى الأصل الذي اندفعت عنه المسببات، قلّت العوامل الدافعة حتى نصل أخيراً إلى مسبب واحد» . . .

«إذن فإنكار محدث للحوادث، وموجد للوجود تناقض مع العقل وإقامة على الخطأ»[٤٠].

مسألة قدم العالم:

أثار الفلاسفة الإلهيون مسألة قدم العالم، مع إعترافهم بالله سبحانه وتعالى، وأن تقدم الله على العالم، كتقدم المقدمة على النتيجة، والتقدم إنما هو بالذات وليس بالزمان، لهذا لم يكن ماركس هو أول من قال بقدم العالم وأزليته، وإنما سبقه كثيرون. وقد فند العلماء المسلمون شبه الفلاسفة وأثبتوا أن العالم حادث.

فهذا الغزالي رحمه الله يرد على الفلاسفة، ويثبت حدوث الكون بناء على ملاحظة الحركة والسكون:

«إن دورة من الفلك إما أن تكون شفعاً أو وتراً، فإن كانت شفعاً فقد أتمت عدداً فردياً، وإن كانت وتراً فقد أتمت عدداً زوجياً. إذن فالعدد السابق على كلا الحالتين محدود. ولما كان محدوداً فهو حادث قطعاً، ولو استمر الناقد فقال: إن أصل العالم (هيولاه) قديم، والحركة طارئة، قلنا له: من أين طرأت الحركة؟ فهو إذن إقرار منه صريح بوجود مرجح آخر أثر على العالم بإيجاد الحركة. بل هو إستعجال فاصل للإقرار بوجود خالق للعالم. فالناقد بين أمرين: إما أن يرجع إلى قولنا بالحدوث، فيعترف بالخالق، أو أن يقر بوجود المرجح

(٤٠) الوجود الحق، ص ٢٥ ــ ٢٨.

وهو إعتراف بالخالق، إذن فنقد الناقدوا لم يصل إلى القرار ولم يثبت للنقد»[41].

ويأتي العيب على الماديين من نسبتهم الخلق للطبيعة وإعطائها خصائص الله

﴿سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣١﴾[42].

فالطبيعة أو المادة غير مخلوقة لأنه لا يمكن إفناؤها. ويستدلون على أبدية المادة ونسبة الخلق إليها بآثارها الواضحة الملموسة لديهم، في نفس الوقت الذي نراهم فيه يعيبون على غيرهم الإيمان بإله حي قادر خالق، مع أن آثاره التي تدل عليه سبحانه موجودة واضحة ملموسة.

ونسبة الخلق إلى الطبيعة أو المادة لم يقل بها العلماء في أوروبا عموماً وماركس وشيعته خصوصاً، إستناداً إلى الحقائق العلمية، وذلك لأن العلم يخالف هذه النظرة ولا يمدهم بأدنى دليل، ولكنهم قالوها هروباً من الكنيسة وإله الكنيسة. الكنيسة التي حاربت العلماء وكرهتهم بالدين، فهم أرادوا خالقاً ومعبوداً ورباً بلا كنيسة ولا رجال دين ولا إلتزامات ولا قيود.

فنسبة الخلق إلى الطبيعة وهم لم يقم عليه دليل علمي، وسيبقى التحدي الذي تحدى به القرآن الكريم قائمًا حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥﴾[43].

---

(٤١) نقلاً عن نفس المصدر، ص ٢٩ ــ ٣٠.
(٤٢) التوبة ٣١.
(٤٣) الطور ٣٥.

وإذا كان الماديون باعترافهم هم أنفسهم يقرون بأن أصل الحياة لا يزال غامضاً، وأن العلماء لم يتوصلوا إلى معرفته، فكيف يطلبون من الناس أن يقبلوا فكرتهم التي ترد الخلق إلى الطبيعة وتطرد الإله من الوجود على حد تعبيرهم؟!

كيف نقبل فكرتهم، وقد أثبتت الآيات القرآنية الكريمة، ووافقها العلم الحديث، أن الكون حادث والمادة مخلوقة، والطبيعة لا تقوى على الخلق؟. وكيف يستطيع المحلوق المحتاج إلى غيره في إيجاده أن يخلق من هو أعلى منه درجة وهو الإنسان الواعي الذي يسيطر على الطبيعة ويحيط بقوانينها؟ والمعروف أن المصنوع لا يحيط بصانعه.

بعد هذا أقول: مادام قد ثبت لنا أن للمادة بداية كما أن لها نهاية فهي حادثة، والحادث لا بد له من محدث، والحادث لا يستطيع أن يخلق. وعلى هذا الأساس فإن التفسير المادي للتاريخ قد شيد بناءه على أساس باطل، وهو أزلية المادة وأبديتها. فأول حكم يهدم من أحكام الماديين الأساسية إلحادهم بالخالق حيث نسبوا الأزلية والأبدية والخلق للمادة. وما دام قد ثبت أن المادة مخلوقة فإنه تنشأ أحكام أخرى تهدم أحكامها الفرعية، دون أن يكون النقد موجهاً إلى الفروع مباشرة، لأن ظهور الباطل في النظريات لابد أن يهدم الأباطيل الناشئة عنه في جميع الفروع بصورة تلقائية، كالبناء الشامخ يتداعى جملة واحدة بنقض أساسه. ولقد صورت الآية الكريمة هذا المعنى بصورة واضحة محسوسة. يقول الله تعالى:

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾(٤٤).

(٤٤) سورة التوبة ١٠٩.

بعد هدم هذا الأساس الذي بنى الماديون عليه صرح نظريتهم وهو قولهم بأزلية المادية وأبديتها. وقد ثبت لنا من خلال البحث أنها مخلوقة ومصيرها إلى الفناء. نأتي لمناقشة الماديين في مسألة أسبقية المادة في الوجود على الفكر. لنرى قيمة هذه الدعوى من الصحة والبطلان على شريحة البحث.

ومن الغريب جداً أن هذه النظرية الباطلة وهي أن المادة لا تفنى ولا تستحدث لا تزال تدرس إلى اليوم في مدارس وجامعات الدول الاسلامية.

الفصل الثاني
هل المادّة سابقة في الوجود على الفكر

بينت في عرض النظرية من وجهة نظر أصحابها أن الماديين يقولون. إنّ المادة سابقة في الوجود على الفكر، لأن الفكر إنعكاس للمادة الواقعة على الدماغ، والمادة هي العنصر الأول لأنها منبع الإحساسات والتصور والإدراك.

والإدراك عنصر ثان مشتق لأنه إنعكاس المادة وأن الفكر هو نتاج المادة لما بلغت في تطورها درجة عالية من الكمال.

كما بينت أنهم يقولون إنّه لا يمكن فصل الفكر عن المادة المفكرة لأن هذه المادة هي جوهر التغيرات التي تحدث.

ما هي المادة؟

نشأت الفلسفة الماركسية في القرن التاسع عشر في ظل التعريف السطحى للمادة «بأنها كل ما تقع عليه الحواس». ونجح الأتباع والتلاميذ في مطلع القرن العشرين في إعطاء الماركسية قدراً من مصل الحياة بعد أن توالت الإكتشافات العلمية وتجاوزت ما تقع عليه الحواس إلى عالم الذرة... فأعادوا صياغة التعريف بأن المادة: هي الوجود الموضوعي خارج الذهن. واليوم يقف **٣٩** عالماً سوفياتياً

اشتركوا في تأليف «أسس الماركسية اللينينية» حائرين بعد أن أفلتت جميع التعريفات من أيديهم، وفقدت المسلمات النظرية حيقيتها أمام الممارسة العملية من جانب والتقدم العلمي من جانب آخر»[١].

ولا بد من مرور سريع على تعرف المادة منذ القرن التاسع عشر حتى نهاية القرن العشرين.

إن تفجير الذرة في القرن العشرين قد فتح الباب أمام تعريفات جديدة للمادة ومحاولات أعمق في مهمتها.

يقول استوالد: «المادة صورة من الطاقة فحسب».

وقال ليبون: «المادة صورة مختلفة من الطاقة».

ويقول أيضاً: «إن عناصر الذرات التي تنحل، تفنى تماماً فهي تفقد كل صفة للمادة بما في ذلك الثقل وهو أكثر صفاتها أساسياً ذلك أن الميزان يعجز عن وزنها ولا شيء يستطيع أن يعيدها إلى حالة المادة فقد اختفت في عظمة الأثير. والحرارة والكهرباء والضوء تمثل آخر مراحل المادة قبل اختفائها في الأثير».

ولكن الأثير ما هو؟... لا أحد يعرف.

يقول الأستاذ ادنجتون أحدث حجة في هذا الموضوع: «ليس الأثير نوعاً من المادة فهو لا مادي»[٢].

ويقول الأستاذ العقاد: «وحدثت في السنوات الخمس الأخيرة من القرن التاسع عشر حوادث علمية غيرت كل صورة من صور المادة عرفها الأقدمون . فقد عرف الكيميون قبل ذلك أن عناصر المادة أكثر

(١) حوار مع الشيوعيين، ص ١٠١.

(٢) هذه التعريفات نقلاً عن كتاب حوار مع الشيوعيين داخل أقبية السجون، ص ١٠٠ ــ ١٠٢.

من أربعة وأنها ليست محصورة في النار والتراب والهواء والماء. وعرفوا أن ذرة الهيدروجين أخف العناصر ليست هي أصغر جسم من أجسام المادة ينتهي إليه التقدير.

عرفوا الكهرب الذي تحسب ذرة الهيدروجين جيلاً ضخماً بالقياس إليه ثم تقدموا في معرفة الكهرب والذرة حتى أفلتت المادة كلها من بين أيديهم ولم يبق منها غير حسبة رياضية.

حسبة رياضية كانوا يحسبونها مثلاً في الدقة والضبط والعصمة من الخلل. فإذا هي في النهاية حسبة لا يضبطها الحساب إلا على وجه التقريب. أفلت من المادة كل شيء ثابت أو كانوا يحسبونه مضرب المثل في الثبوت والحقيقة.

«وتقدم العلوم بالكهرب والذرة مرة أخرى. فإذا المادة كلها كهارب وذرات. وإذا بالذرات تنفلق فتنطلق شعاعاً كشعاع النور. هل هذا الشعاع موجات؟ هل هو جزئيات؟ قل هذا أو قل ذاك. وهذا وذاك في ميدان التجربة سواءً. وعاد العلماء التجريبيون إلى القوانين الطبيعية التي تحكم الحركة والضوء وكل ما في عالم المادة من كهارب وذرات، فوجدوا لها قانوناً واحداًوهو الخطأ والإحتمال»[٣].

بعد هذه الجولة السريعة في تعريفات المادة، أعود لمناقشة أسبقية المادة في الوجود على الفكر.

* * *

(٣) عقائد المفكرين، ص ٥٦ ـ ٥٨ وأنظر مصير الإنسان ص ١٦.

أولاً ــ المغالطة المفتعلة في أسبقية المادة على الفكر:

تعمد الماديون الماركسيون افتعال المغالطة التالية وهي: جعل الفكر الانساني موضوعاً للقضية التي يريدون إثباتها، وهي أن المادة سابقة في الوجود على الفكر. حتى يصلوا إلى النتيجة التي يريدونها وهي: ما دامت المادة سابقة في الوجود على الفكر. فإن إدراك الناس لا يحدد حياتهم، بل إن الحياة المادية هي التي تحدد إدراكهم، وبالتالي فإن الأديان والأخلاق نابعة من الأصل المادي.

ووجه المغالطة أنهم جعلوا الفكر الإنساني موضوع القضية، بينما الموضوع هو العلم والارادة الالهُية التي اخضعت الكون وأتقنته غاية الاتقان. فهم أرادوا بهذه المغالطة المكشوفة أن ينتقلوا من الفكر الإنساني وتقرير أسبقية المادة عليه إلى إنكار العلم والإرادة الالهُية التي دبرت أمر هذا الكون ونظمته. هذه المغالطة أشبه ما تكون برجل رأى برج (إيفل) في فرنسا فحكم بأن هذا البرج موجود قبل الفكر. لكن هذا البرج أليس هو ثمرة عمل ذاتي؟ أو ثمرة فكر آخر خطط له وفكر في صنعه، حتى وصل إلى هذا المستوى الرفيع من البناء؟ فهل الناظر إلى برج (إيفل) بعد أن بنى حجة على الحقيقة وهي أنه وجد بعد خطة تنظيمية، هل يستطيع هذا الإنسان أن يلغي فكرة المهندس والبناء من الوجود؟

إن الجواب العلمي بلا شك هو لا... فكيف بهذا الكون العظيم الذي هو غاية في الإتقان ــ والإنسان المفكر من جملة مخلوقات الله سبحانه وتعالى الموجودة في هذا الكون العظيم ــ هل يستطيع أحد أن ينكر أن وراءه خالقاً عليمًا نظمه وفق سنن يسير عليها؟ إذن

فالمغالطة تكمن في موضوع القضية وهو الفكر الإنساني الذي هو جزء من مخلوقات الله الكثيرة في الكون المادي .

ولو أنهم أنصفوا في البحث العلمي ، ـ وهم يزعمون أنهم علميون ـ لجعلوا موضوع القضية العلم والارادة الالهُية التي سبقت تنظيم الكون . ولكنهم لا يريدون هذا الأمر، لأنهم لا يستطيعون ولا يملكون أي دليل يخدمهم في زعمهم أن المادة سابقة في الوجود على علم الله وإرادته . لأن المادة مخلوقة من مخلوقات الله تعالى خلقها بإرادته . والله سبحانه وتعالى الأول والآخر لا يشبه مخلوقاته لا في ذاته ولا في صفاته .

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[4] .

فإرادة الله تعالى سبقت وجود المادة وهي التي نظمت هذا الكون وأتقنت صنعه . وإن كان لديهم الدليل العلمي المقنع على أسبقية المادة في الوجود على علم الله وإرادته فليأتونا به إن كانوا صادقين .

ثانياً ـ الفكر الإنساني يصل إلى مجردات ذهنية لا تمت إلى الواقع الموضوعي بصلة :

إن الإنسان الذي ميزه الله سبحانه وتعالى عن سائر المخلوقات بالعقل منحه الله سبحانه وتعالى القدرة على الوصول إلى مجردات ذهنية لا تمت إلى الواقع الموضوعي بصلة ، وهي القدرة على التفكير التصويري . فالعقل يحكم بثبوت شيء وتقريره بلا إشارة له من واقع موضوعي . وهو المعقول في نفسه لا المدرك من المواد . ذلك أن للعقل فطرة خاصة يتمكن بقوتها من إصدار أحكام إنشائية جديدة ، لا يكون منشؤها الحس ، ولا يمكن إدراكها من المواد ، وهي

---

(٤) سورة الشورى آية (١١) .

المعارف العقلية الضرورية والأوليات البديهية كالواحد نصف الإثنين والكل أكبر من الجزء والحادث لا بد له من محدث[٥].

ثالثاً ــ المخلوق لا يحيط بخالقه:

ولو سلمنا جدلاً أن المادة أزلية ــ وقد ثبت أنها حادثة ــ فإن هذا لا يفيد الماركسيين في دعواهم بأن الإنسان من صنع المادة وفكره نتاج للمادة، وذلك لأن العقل الإنساني «إنتهت به رؤيته للمادة إلى حافة الأثير عندما خرج عن كل صفة معروفة من صفات المادة ولم يبق إلى حسبة رياضية لها دلالة كبرى، وهي أن الإنسان ليس من صنع المادة. لأن المصنع لا يحيط بخالقه. والإنسان قد أحاط بكل صور المادة وخرج بها إلى دائرة أوسع منها هي دائرة الأثير. بل إلى عمليات رياضية فكرية في قدرة الإنسان أن يحتويها. وهذا لا يتأتى إلا إذا كان في طبيعة الإنسان شيء يعلو على مكونات المادة. شيء مفارق لكل خصائصها المعروفة. وإذا تحولت المادة إلى حسبة رياضية يحتويها الفكر، فإن ذلك يجعل المنطق القائل بأن المادة أسبق في الوجود من الفكر في مأزق علمي شديد التناقض مع معطيات العلم الجديد، وفي مأزق أشد حرجاً مع مسلمات الماركسية التي قامت على أساس صحة هذا الإفتراض. وما ارتبط به بعد ذلك من مصالح سياسية كبرى. وما أشد محنة العالم حين يقف حائراً بين دواعي السياسة وأمانة العلم»[٦].

وعلى هذا الأساس فإن في الإنسان جوهراً في ذاتيته أكمل من المادة، وبهذا الجوهر تميز الإنسان وتميزت خصائصه عن خصائص المادة. فهذا الكون العظيم لا يوجد فيه شيء غير مسبوق بخطة تنظيمية. فالعمارة لا بد لها من فكرة مهندس، والعمارة في صنعها أقل تعقيداً

---

(٥) أنظر قصة الإيمان ص ٨٧.

(٦) حوار مع الشيوعيين، ص ١٠٤ ــ ١٠٥.

من أي خلية حيوانية في الإنسـان . أضف إلى ذلك أن وجود الحياة في المادة لم يقترن بأي دليل تجريبي ، يثبت تحول المادة الميتة إلى مادة حية، عن طريق التولد الذاتي رغم كل التجارب العلمية التي قامت في عالم البحث العلمي حتى الآن[٧].

كما أن دقة صنع هذا الكون وإتقانه قد سبقتا بتدبير ارادة الحكيم العليم وتنظيمه.

تراجع الماركسيين عن القول بأسبقية المادة في الوجود على الفكر

وحسبنا لفساد هذه النظرية أن أصحابها تراجعوا في آخر الأمر عن القول بأسبقية المادة في الوجود على الفكر.

يقول أصحاب كتاب أسس الماركسية اللينينية: «إن النشاط الذهني أو الفكر خاصة مميزة للمادة، ولكنها ليست شكلاً من أشكال المادة، وفي المسألة الأساسية في الفلسفة يطرح الفكر كضد للمادة والروح كضد للطبيعة. فالمادة هي أي شيء يوجد خارج العقل ولا يتوقف عليه. وبالتالي يكون من الخطأ الجسيم إعتبار الفكر جزءاً من المادة. وفي الوقت الحالي يعتبر التوحيد بين الفكر والمادة من مفاهيم المادية المنحطة». إذن لقد وصف السوفيات أنفسهم الفكر المادي للقرن التاسع عشر الذي قامت الماركسية على أساسه والذي يسوي بين المادة والفكر ويعتبر الفكر شكلاً متطوراً من أشكال المادة يعكس الوسط المادي . وصفوا هذا القول بأنه مفاهيم مادية منحطة. فهل معنى ذلك أنهم يقولون بانفصال الفكر من المادة؟

---

(٧) أنظر صراع مع الملاحدة ص ١١٦ .

نجدهم يتناقضون ويحاذرون من هذه النتيجة أيضاً، إذ يقول مؤلفوا أسس الماركسية اللينينية : «إن الجدلية المادية ترفض أي فصل بين الفكر والمادة إذ أن هذا الفصل يعني في جوهره العودة إلى وجهات النظر الجاهلة البدائية عن تاريخ الإنسان. . . عندما كانت كل ظواهر الحياة تفسر بأنها راجعة إلى الروح التي كان يفترض أنها تدخل الجسد».

إذن فهما متصلان منفصلان. وتلك مشكلة جاء حلها في نفس هذا الكتاب على الوجه التالي: «إن حل المشكلة السيكوفسيولوجية، أي مشكلةالعلاقة بين النشاط العقلي وجهازه أي المخ (وهو عضو مادي فسيولوجي) يجب أن ننظر فيه إلى كل من الإختلاف والإتصال بينهما. إنه لمن المهم أن نعي الخلاف بينهما لأن الوحدة بين المادة والفكر تؤدي إلى الغموض، غير أنه من ناحية أخرى ينبغي فصل الوعي عن المخ، لأن الوعي وظيفة المخ».

كل هذا العنف والجهد هو في مجال البحث عن العلاقة المتبادلة بين الفكر والمادة، وهل الفكر مجرد إنعكاس أم يعمل بطريقة فيها تميز؟ أما مشكلة أيهما وجد أولاً المادة أم الفكر؟. . . فقد صرف مؤلفوا أسس الماركسية اللينينية النظر عن القطع في هذه القضية، وذلك في قولهم: «إبتدع ماركس وإنجلز الجدلية المادية خلال صراعهما ضد النظرية الميتافيزيقية، التي تنكر التطور، غير أن الوضع قد تغير بعد هذا. ففي النصف الثاني من القرن التاسع عشر إنتشرت فكرة التطور (بفضل نظرية داروين). وفي الوقت الحالي، يقوم الصراع بين الجدلية والميتفايزيقية بصفة رئيسية حول معرفة كيف نفهم التطور وليس حول ما إذا كان هناك تطور[٨].

---

(٨) حوار مع الشيوعيين، ص ١٠٥ ــ ١٠٦.

ونسوا بذلك أن تنازلهم عن الإصرار على أن المادة أولاً، سيفقدهم المقدرة على أن المادة هي المؤثر الحاسم في عملية التطور وأن ذلك مقدمة لمزيد من التراجع».

ثم يستمر التراجع، ولكن في خجل شديد، ليعطي العقل حقاً آخر هو حق التمييز عن المادة، حيث يقول مؤلفوا هذا الكتاب: «إن الإدراك لا يتعلق دائمًا بالفرد وبالوقائع العملية وبالأوجه الخارجية للظواهر، وهو يعكس كل هذا بدرجة كبيرة أو قليلة من الدقة. والإدراك المجرد أيضاً إنعكاس للحقيقة، يحتوي حقيقة موضوعية، ولكن الإدراك المجرد يعكس الأعمال الداخلية للحقيقة، لأنه لا يتبع الوجه الخارجي المحسوس للظواهر، ولكنه يميز الصلات والعلاقات الجوهرية الموجودة عند جذورها. . . إن قوة الفكر تتمثل في مقدرته على تجاوز اللحظة وإدراك تطور الماضي وتطور المستقبل بواسطة القوانين الموضوعية التي اكتشفها. وإن الفكر عملية نشطة، وهي عملية خلق الأفكار والتفاعل معها. غير أن الفكر وناتجه (الإدراك) متصل بالعالم الموضوعي، ليس اتصالاً مباشراً، ولكنه إتصال غير مباشر خلال نشاط الإدراك الحسي وفائدة الإدراك الفكري أنه غير مقيد بالوقائع المحسوسة غير متوقف عليها نسبياً، ولهذا فهو قادر على الدراسة النظرية وتحليل الظواهر على تقريب غير محدود للحقيقة المجردة وانعكاس أكثر وأكثر دقة للعالم[9]». وهكذا تراجع وراء تراجع.

هل الروح والفكر والإحساس ثمرة من ثمرات المادة؟

قبل مناقشة هذه المسألة لا بد من طرح سؤال هو: ما هو الدليل

---

(٩) أسس الماركسية اللينينية، ص ١٠٢ ــ ١٠٣، نقلاً عن مستقبل الحضارة بين العلمانية الشيوعية والإسلام، ص ٤٨.

العلمي على أن الروح والفكر والإحساس ثمرة من ثمرات المادة؟

إن أدق ما قدمته الماركسية من برهان على هذه الدعوة إلى الآن هو أن الحياة تنشأ عن الحرارة، والحرارة بدورها تنشأ من الحركة[10]. أي أن الحركة + حرارة = حياة ونحن نلجأ إلى نفس الأسلوب الذي تسير عليه الماركسية لضبط سلامة معارفنا وهو التطبيق العملي لنرى هل الحركة + الحرارة = الحياة؟.

ولِنتساءل من الذي جمع هاتين الظاهرتين إلى بعضهما (بجهد من تطبيقه الخاص) بهذه البساطة أو بما شاء من التعقيد الكيميائي فاستخرج منها حقيقة الحياة؟... وهنا لا بد أن أعيد إلى الأذهان خبر المؤتمر الذي عقده ستة من علماء الحياة في كل من الشرق والغرب في نيويورك عام ١٩٥٩م وكان فيهم العالم الروسي (أوبارين) أستاذ الكيمياءالحيوية في أكاديمية العلوم السوفياتية أملاً في فهم شيء عن أصل الحياة ومنشئها على ظهر الأرض، وإلى معرفة مدى إمكان إيجاد الحياة عن طريق التفاعل الكيميائي. لقد قرر المجتمعون في نهاية بحوثهم بالإجماع أن أمر الحياة لا يزال مجهولاً ولا مطمع في أن يصل إليه العلم يوماً ما. وأن هذا السر أبعد من أن يكون مجرد بناء مواد عضوية معينة وظواهر طبيعية وكيميائية خاصة»[11].

يقول الدكتور محمد سعيد البوطي: «لو صح أن المادة هي ينبوع الروح وما يتفرع عنها لقضى العقل بحكم البديهة أن يكون الإنسان أسبق إلى فهم الروح وعناصرها وأسرارها، منه إلى فهم المادة وذراتها وجزئيات تلك الذرات وكهاربها. ذلك، لأن العقل إذا أدرك أصل الشيء وحقيقته فهو أحرى أن يدرك ثمراته وفروعه بجهد أقل وطريقة أقصر.

---

(١٠) أنظر المادية والمذهب التجريبي النقدي، ص ٢٤.

(١١) أنظر كبرى اليقينيات الكونية، ص ٩٥.

«... إذ هي حال هؤلاء الماديين أنفسهم... يقولون إنّ الروح وما تستبعه من إحساس وفكر من ثمرات المادة ومعطياتها. فيجب بمقتضى ذلك أن يدركوا من الروح قدر الذي أدركوه من المادة وذراتها على أقل تقدير.

وهذا ما لا يرتاب فيه عاقل... ولكنهم يعترفون بأنهم إلى هذه الساعة التي هم فيها لا يعلمون شيئاً عن الروح. بل يزيدون الأمر تأكيداً فيقررون أن العلم ذاته لا يستطيع أن يقول شيئاً عن الروح»[١٢].

يقول إنجلز: «إنه ـ يقصد العلم الطبيعي ـ لم ينجح بعد في إنتاج الكائنات العضوية دون تناسل من كائنات أخرى. وفي الحقيقة أنه لم ينجح بعد في إنتاج الهيولي البسيطة أو الأجسام الأجنبية الأخرى من العناصر الكيمائية، وبالتالي فإنه ليس في مكنة العلم الطبيعي حتى الوقت الراهن أن يؤكد شيئاً بخصوص أصل الحياة»[١٣]. ولكن إنجلز يتراجع بعد هذا الإقرار فيقول: «سوى أن هذه الحياة يجب أن تكون نتيجة بعض التفاعلات الكيمائية، ومهما يكن من أمر فلعل فلسفة الواقع تستطيع أن تقدم بعض المعونة في هذا الشأن»[١٤].

والسؤال الذي يطرح كيف يمكن التوفيق بين هذين الشطرين من كلام إنجلز «ليس في مكنة العلم الطبيعي حتى الوقت الحاضر أن يؤكد شيئاً بخصوص أصل الحياة... سوى أنها يجب أن تكون نتيجة لبعض التفاعلات الكيمائية»؟ وعلى أي شيء اعتمد إنجلز في كون

---

(١٢) نقض أوهام المادية الجدلية، ص ٩٧، ٩٨.

(١٣) آنتي دوهرنغ، ص ٩٠.

(١٤) نفس المصدر، ص ٩٠.

الحياة جاءت نتيجـة لبعض التفاعـلات الكيميائيـة؟ ما دام العلم الحديث ليس في مكنته أن يقرر شيئاً بخصوص أصل الحياة؟

ليس من برهان علمي هناك على هذه الدعوى. . . اللهم إلا الرغبة الشخصية لإنجلز في تقرير ما يريد!!

لذلك ما دام العلم لم يقرر شيئاً بخصوص أصل الحياة فإنه يتحتم علينا أن نقرر بأن العلم الإنساني لم يتوصل بعد إلى معرفة شيء عن الروح والحياة. وبمقتضى ذلك كان القول بأن الحياة والروح ثمرة من ثمرات المادة ومعطياتها من أسخف الأوهام التي يلفظها العلم والمنطق السليم.

قال تعالى:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ (١٥)

وأختتم هذا الفصل بنص جميل للدكتور أحمد العسال:

«ولكن ماركس حتى يعمل المقدمة الأولى وهي أسبقية المادة. نزع فكرة القوانين العلوية هذه وأعادها إلى المادة ومنحها القدرة على الحركة والتأثير وجعل الإنسان تابعاً لها. وبذلك أصبحت المادة ماكنة جبارة هائلة تدير هذا الكون وما الإنسان إلا «صامولة» صغيرة فيها. عليه أن ينزل عند أمرها ويصير في كنفها، فهو لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً. . . ولا مشيئة ولا تفكيراً.

«والعجيب أن إعطاء المادة وقوانينها قدرة التوجيه والتحرك بذاتها

---

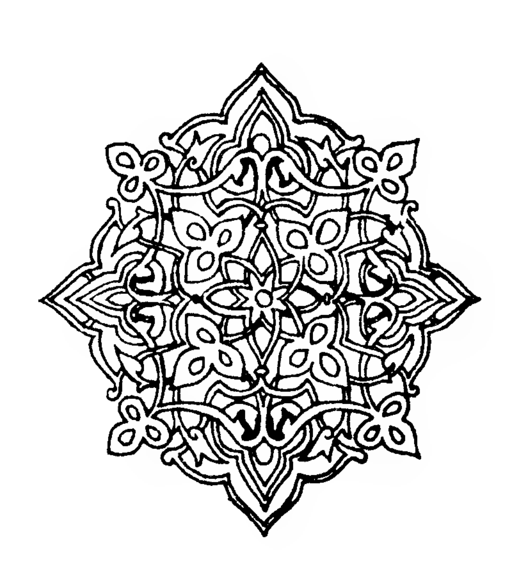
(١٥) الاسراء ٨٥.

زعم لا يثبت عند التجربة والبرهان، وهو ضرب من الغوغائية التي ينبغي أن يتنزه عنها التفكير الإنساني في القرن العشرين. فقد أصبحت المادة طاقة متحركة، وأضحى إستخدامها وإستعمالها وتغييرها وتبديلها ونقلها حسب قوانينها شيئاً بديهياً، فمن أين يأتيها الأزل وتأتيها الإرادة المستقلة؟... ثم إن البرهان على خلقها وتسخيرها وتذليلها أصبح شيئاً لا يحتاج إلى كثير جدل. أو حوار، وذلك أنها بفعل ما فطرت عليه خاضعة للإنسان تابعة له في الدائرة التي ينالها تفكيره وسيطرته، أما في غير دائرته فلا سبيل له إليه. ولا سبيل لها على نفسه (فَكُلٌ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونْ). وإذا فإفتراض أنها تعمل خارج الإرادة البشرية وبمعزل عنها ضرب من العبث والإستهتار بالفعل الإنساني.

«ولا شك أن النظرة التي تضع الأشياء المادية في مكانها بين المخلوقات الأخرى وتصفها بأنها مخلوقة مفطورة حسب قوانين معينة فطرها عليها خالقها وموجدها هي النظرة العلمية الصحيحة، إذ ليس فيها إعتساف ولا افتراض لأننا نرى الأشياء المادية تفنى بالتحول والتغيير، ونرى أنها تتشكل وتصنع وتحمل قوانين فنائها وأنها لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً، ولا تستطيع بالتالي أن تجلب السعادة لبائس ولا الصحة لمريض. وأن الإنسان الذي يملك الإرادة والتفكير تحكمه قوانين لا يستطيع الخروج عنها. فهو لا يستطيع تخليد نفسه. فكيف بالجمادات والمخلوقات الأخرى من حوله؟!!»[١٦].

---

(١٦) الإسلام وبناء المجتمع، ص ٤٢ ـ ٤٣.



الفصل الثالث

مناقشة قوانين المادّة

تمهيد:

ذكرت في عرض النظرية أن الماديين يخضعون المادة لقوانين عامة أربعة هي: الترابط، والحركة، والتطور، والتناقض.

وقد عرضت وجهة نظرهم في هذه القوانين، وكيف أخضعوا لها حياة المجتمع البشري. وفي هذا البحث سوف أناقش هذه القوانين وكيف طبقت على الطبيعة لنرى هل هذه القوانين صحيحة في ذاتها؟ وهل استخدمها الماديون على الوجه الصحيح وطبقوها تطبيقاً سليمًا على الطبيعة، ثم هل تنطبق هذه القوانين على حياة الانسان؟

هل هذه القوانين نابعة من المادة؟

أول مسألة أناقشها في هذا الفصل هي: هل هذه القوانين نابعة من المادة أم أنها مفروضة عليها من خارجها؟

يقول ستالين: «تسير مادية ماركس الفلسفية من المبدأ القائل إن العالم بطبيعته مادي وإن حوادث العالم المتعددة هي مظاهر مختلفة للمادة المتحركة، وإن العلاقات المتبادلة بين الحوادث وتكييف بعضها

بعضاً بصورة متبادلة كما تقررها الطريقة الديالكتيكية هي قوانين ضرورية لتطور المادة المتحركة. وأن العالم يتطور تبعاً لقوانين حركة المادة وهو ليس بحاجة لأي (عقل كلي)»[1].

وعلى هذا الأساس فإن قوانين حركة المادة هي التي تؤثر في العالم وإنه يتطور تبعاً لقوانين حركة المادة عندهم.

وهذا هو موضع إنكاري. لذلك يجب البحث باديء ذي بدء في قوانين المادة وليس في تطور العالم. فإذا أثبت أن هذه القوانين لم تأت من المادة نفسها ولا هي خاصة من خواصها، وإنما هي مفروضة على المادة من غيرها ومن خارجها، فتكون المادة متأثرة بقوة خارجة عنها، لا بقوانين ذاتية ناشئة من ذات المادة. فتبطل نظريتهم في هذا الشأن ولا يكون العالم سائراً تبعاً لقوانين تلقائية نابعة من حركة المادة بل سائراً بإرادة من أوجد له هذه القوانين وفرضها عليه وأجبره أن يسير عليها.

وقد أثبت فيما سبق حدوث المادة[2]. وما دامت المادة حادثة، فهي لا تستطيع أن تضع لنفسها قوانين تسير عليها، بل لا بد أن يكون الله سبحانه وتعالى خالق المادة هو الذي وضع للمادة القوانين التي تحكمها، هذا من جهة، ومن جهةٍ أخرى فإن العلم أثبت أن القوانين لم تأت من المادة نفسها. ولنقرأ شهادة العلماء حول هذه القضية.

يقول جون كليفلاند كوثران: «وعلى ذلك، فإن الكون المادي يسوده النظام وليس الفوضى وتحكمه بقوانين وليس المصادفة أو التخبط. فهل يتصور عاقل أو يفكر أو يعتقد أن المادة المجردة من

(١) المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية، ص ٢٨.
(٢) أنظر فصل هل المادة أزلية أبدية.

العقل والحكمة قد أوجدت نفسها بنفسها بمحض المصادفة؟أو أنها هي التي أوجدت هذا النظام وتلك القوانين ثم فرضته على نفسها؟ لا شك أن الجواب سوف يكون سلبياً، بل إن المادة عندما تتحول إلى طاقة أو تتحول الطاقة إلى مادة فإن كل ذلك يتم طبقاً لقوانين معينة، والمادة الناتجة تخضع لنفس القوانين التي تخضع لها المادة المعروفة التي وجدت قبلها. . . فإذا كان هذا العالم المادي عاجزاً عن أن يخلق نفسه أو يحدد القوانين التي يخضع لها،فلا بد أن يكون الخلق قد تم بقدرة كائن غير مادي»[٣].

ويقول إدوارد لوثر كنيسيل: «والواقع أن الكون لا يزال في عملية انتشار مستمر تبدأمن مركزنشأته. واليوم لا بد لمن يؤمنون بنتائج العلوم أن يؤمنوا بفكرة الخلق أيضاً، وهي فكرة تستشرف على سنن الطبيعة، لأن هذه السنن إنما هي ثمرة الخلق، ولا بد لهم أن يسلموا بفكرة الخالق الذي وضع قوانين هذا الكون، لأن هذه القوانين ذاتها مخلوقة، وليس من المعقول أن يكون هنالك خلق دون خالق: هو الله»[٤].

وما دام قد ثبت أن المادة مخلوقة. وأن القوانين التي تسير بحسبها مفروضة عليها من خارجها أي من قبل الله سبحانه وتعالى، فلا حجة بعدئذٍ للماديين فيما ذهبوا إليه من أن المادة أزلية أبدية، وأنها تضع قوانينها بنفسها وكل حكم بناه الماديون على هذا الأساس فهو باطل غير صحيح، لأن ما بني على الباطل فهو باطل. قال الله تعالى:

﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾[٥]

(٣) الله يتجلى في عصر العلم، ص ٢٤ ـ ٢٥.

(٤) نفس المصدر، ص ٢٧ ـ ٢٨.

(٥) الاسراء، ٨١.

بعد أن أثبت أن قوانين المادة مفروضة عليها من قبل الله سبحانه وتعالى أناقش هذه القوانين على ضوء فهم الماديـين لها. وتطبيقها على الكون المادي من وجهة نظرهم، لأرى مدى صحة نظريتهم والعلمية التي يزعمونها لأنفسهم ويحرمون منها غيرهم.

وأول هذه القوانين هو قانون الترابط:

ذكرت سابقاً: أن الماديين يقولون: أن كل حوادث الطبيعة متماسكة وغير منفصلة بعضها عن بعض للترابط التام بينها، كما لا يمكن فهم أي حادث بعينه إذا نظر إليه منفرداً بمعزل عن الحوادث التي تحيط به.

أقول: إن أي إنسان لا يمكن أن يفهم حوادث الكون وأشياءه، منفصلة بعضها عن بعض، ومنقطعة عن أسبابها، لأن الترابط بين هذه الأشياء قضية مسلمة، وليست من مبتكرات الفكر الماركسي الجدلي، بل هو مما أدركه الانسان قديماً منذ نظر إلى الكون ونفسه، ووجد أن غذاءه مرتبط بالأرض وأن نبات الأرض مرتبط بالشمس وأن الكواكب والنجوم مترابطة. والأديان الربانية أرشدت بنصوصها إلى هذه الحقيقة. وفكرة الترابط في الكون، وما يشتمل عليه هذا الترابط من أسباب ومسببات وعلل ومعلولات قد هدى أهل الفكر الحصيف والنظر الثاقب إلى إدراك السبب الأول في وجود هذه الكائنات الحادثة وهو الرب الخالق سبحانه وتعالى.

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى: «وتتمثل خاصية الشمول التي يتسم بها هذا التصور في صور شتى: إحدى هذه الصور وأكبرها هذا الوجود كله... بنشأته إبتداءً، وحركته بعد نشأته وكل انبثاقه فيه، وكل تحور وكل تغير وكل تطور، والهيمنة عليه وتدبيره وتصريفه

وتنسيقه . . إلى إرادة الذات الالهية السرمدية الأزلية الأبدية المطلقة. هذه الذات المريدة القادرة، المطلقة المشيئة، المبدعة لهذا الكون ولكل شيء فيه، ولكل حيا، ولكل حركة وكل ابنثاقة وكل تحور، وكل تغير، وكل تطور بقدر خاص... وبمجرد توجه الارادة. فالله سبحانه هو الذي أنشأ الكون إبتداءً، وهو الذي يحدث فيه بمشيئته كل تغيير جديد، وكل انبثاق وليد، وهذه هي حقيقة (التوحيد) الكبيرة، التي هي المقوم الأول للتصور الاسلامي»(٦).

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الخاصية:

قال الله تعالى:

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾(٧)

وقال سبحانه وتعالى

﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾(٨)

وقال أيضاً:

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾(٩)

وقال أيضاً:

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾(١٠)

هذا وقد ورد السؤال عن السبب في القرآن الكريم في مواضع كثيرة: منها سؤال الله سبحانه وتعالى للكافرين عن خلق السموات والأرض.

---

(٦) خصائص التطور الاسلامي ومقوماته، ص ١١٠ ـ ١١١.

(٧) القمر، ٤٩.

(٨) طه، ٥٠.

(٩) النحل، ٤٠.

(١٠) الأنبياء، ٣٠.

يقـول سبحانه:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ (١١)

ويقول سبحانه:

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ (١٢)

وغير هذا كثير في القرآن لا مجال لبحثه. ومن هنا نرى أن الاعتقاد بترابط أجزاء الكون المادي واعتباره كلاً متصلاً ليس وقفاً على المفهوم المادي للكون، بل إن هذا الفهم من البدهيات في الأديان الصحيحة وبخاصة في الدين الاسلامي. أما عن تفاصيل الترابط بين أجزاء الكون المادي فهذا أمر يعود إلى المكتشفات العلمية، والاسلام يدعو إلى تأييد العلم وكشوفاته الحقيقية، لأن الكون المادي سخره الله تعالى للانسان، وعقله لا يتعدى في الاكتشافات حدود الكون المادي، لأن البحث خارج حدود هذا الكون ليس من اختصاص العقل الانساني، وإنما هو من اختصاص الوحي الذي ينزل بأمر الله ويهدي بهديه وهنا يرد سؤال: أين الكشف العلمي للماديين في عالم الكون المادي؟ ولقانون الترابط العام فيه؟

مناقشة قانون الحركة:

قلت سابقاً: إن الماديين يقولون إن الحركة صفة ملازمة للمادة. ولا يمكن فصل الحركة عنها. ويعيبون على غيرهم إذا وجهوا إليهم سؤالاً مفاده من الذي أكسب المادة خاصية الحركة وذلك لأن الحركة موجودة منذ الأزل، وهي ملازمة للمادة لا تنفك عنها، لهذه الأسباب لا يجوز طرح مثل هذا السؤال.

---

(١١) سورة لقمان، ٢٥.

(١٢) الواقعة، ٦٣ ــ ٦٤.

والحركة عندهم شاملة لكل شيء، حيث لا يوجد في العالم ظاهرة واحدة لم تكن نتيجة لحركة المادة وتطورها. ولا يوجد شيء غير المادة المتحركة المتطورة وما يتولد عنها، ومن هنا حصروا الوجود فقط بالعالم المادي، لأنه لا يوجد في نظرهم غير عالم مادي واحد وأن وحدته تنحصر في ماديته. وأصدر الماديون حكمًا على هذا الأساس بأن جميع الأديان بلا استثناء وبخاصة الميتافيزيقا الأوروبية تناقض العلم وتأتي بنتائج خاطئة، حيث قالت الميتافيزيقا الأوروبية: إن الطبيعة ساكنة جامدة والعلم أثبت التغير في الكون المادي، والطبيعة في حركة وتغير دائمين على رأي الماديين، وهي في حالة تجدد وتطور لا ينقطعان. ففيها دائمًا شيء يولد ويتطور وشيء ينحل ويضمحل. والطبيعة عندهم بجميع صورها عبارة عن حركة لأن الحركة هي الصورة التي توجد عليها المادة.

ومن خلال البحث في النظرية، وجدت أن الماديين يعتبرون الحركة صفة من صفات المادة. وهي ملازمة لها وهي أزلية كالمادة كما يزعمون. هذا الدليل الذي ظنّوا أنّه يخدمهم في نظريتهم هو حجة عليهم، وذلك لأن العالم متغير كما هو مشاهد. وتغيره دليل على حدوثه. والحركة تعني التغير، فكيف يمكن التوفيق بين الأزلية والتغير؟ وكما هو معلوم أن المتغير لا بد له من بداية. وعلى هذا الأساس فإن الحركة الأزلية عندهم تتناقض مع المادة الأزلية لأنه لا يمكن التوفيق بين الأزلي والمتغير. لأن الصفة ملازمة للموصوف. وما دامت الصفة حادثة فالموصوف حادث. وقد أثبت حدوث المادة في فصل سابق وأن قوانينها مفروضة عليها من الله سبحانه وتعالى.

وعلى هذا الأساس فإن الله سبحانه وتعالى هو الذي أكسب المادة خاصية الحركة. وما دامت المادة حادثة فإن الحركة حادثة وليست

أزلية أبدية كما يزعمون، وثمة نقطة أخرى يجب ملاحظتها وهي أن الماديين عمموا حكمهم على جميع الأديان بما فيها الاسلام. وذلك حين قالوا إن الأديان تقول إن الكون المادي ثابت. والعلم أثبت التغير في الكون المادي، إذن فالأديان على هذا الأساس تخالف العلم ولو أن الماديين كانوا علميين كما يزعمون، لما عمموا حكمهم على جميع الأديان وبخاصة الاسلام، ولاكتفوا بإصدار حكمهم على الميتافيزيقا الأوروبية والأديان المحرفة لأن أوروبا كانت تتصور الثبات في كل شيء بوحي من دينها المحرف.

أما تعميم الحكم على جميع الأديان. وعلى وجه الخصوص منها الدين الاسلامي، لا يتفق مع المنهج العلمي السليم وذلك لأن من أصول المنهج العلمي السليم أن يقرأوا تعاليم الأديان كلها قبل إصدار حكمهم بأنها تخالف العلم لأنها تقول بثبات الكون المادي وسكونه. والذي ينقض هذا الحكم الباطل من أصوله هو الدين الاسلامي الحنيف. الذي لم ينكر الحركة في الكون المادي. بل إن العلماء المسلمين إتخذوا من الحركة دليلاً على حدوث الكون، وردوا أمر الحركة إلى الله سبحانه وتعالى، الذي أودع في هذا الكون خصائص الحركة والتغيير، والقادر على تغييره بأية صورة متى شاء سبحانه، ومع ذلك فإن علمهم هذا لم يقدهم إلى إنكار الله سبحانه وتعالى وذلك لأن الايمان بالله سبحانه وتعالى في حس العالم المسلم لا يقوده إلى نتائج خاطئة، وإنما يأتي الخطأ من قصور معلومات الانسان. ويجب الالتفات إلى ناحية مهمة وهي أن الاسلام شجع العلم والعلماء وحثهم على التعرف على حقائق الكون. ويكفي أن أول القرآن نزولاً كان في العلم.

قال سبحانه وتعالى:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾[13]

وعلى هذا الأساس فالمغالطة واضحة. فهي إما أن تكون متعمدة، وإما أنها عن جهل بالاسلام. وعلى كلا الحالين أقول: أين العلمية في نظريتكم التي احتكرتموها لأنفسكم إزاء هذه الحقيقة؟ وأين صدق دعواكم بأن الأديان والميتافيزيقا عامة تخالف العلم؟

كما يجب علينا أن نلاحظ أيضاً أن الماديين يسمحون لأنفسهم أن يصفوا المادة بالأزلية والأبدية. وأنها ذات قوانين ثابتة لا تتغير ولا تتحول بغير دليل علمي، ثم يرفضون من المؤمنين بالله سبحانه وتعالى أن يصفوه بالأزلية والأبدية ويطالبونهم بالدليل! ثم يرفضون كذلك أن يتساءل واحد من الناس عن كيفية وجود المادة ومن أعطاها خصائصها لأنها ـ في زعمهم ـ موجودة منذ الأزل على صورتها تلك بينما لا يتقبلون من المؤمنين بالله تعالى أن يقولوا هذا القول ذاته بالنسبة لخالقهم.

أليس كلامهم هذا واعتقادهم هذا هو الغيب بعينه الذي صبوا جام غضبهم عليه وحاربوه حرباً لا هوادة فيها؟ فكيف يعيبون على غيرهم أن يؤمنوا بالغيب وهم غارقون فيه؟

﴿إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾[14]

---

(١٣) سورة العلق، ١ ـ ٥.

(١٤) سورة، ص ٥.

مناقشة قانون التطور:

ذكرت في مجمل عرضي لنظرية التفسير المادي للتاريخ أن الماديين يقولون إن حركة التطور في الطبيعة هي: تطور ينتقل من تغيرات كمية ضئيلة وخفية إلى تغيرات كيفية ظاهرة وأساسية، وتحدث هذه التغيرات الكيفية في الطبيعة والمجتمع من حالة إلى أخرى فجأة، وعن طريق القفزات. فالانتقال من الطبيعة الميتة إلى الطبيعة الحية، وكل تطور العالم الحيواني من نوع معين إلى آخر يتم أيضاً بطريق القفزات، وكذلك تتم تحولات متشابهة في المجتمع البشري.

هذه التغيرات الكيفية التي تتم عن طريق القفزات حتمية وضرورية، لأن الديالكتيك الماركسي يرى حتمية الانهيار في كل شيء، ولا شيء مقدس أو مطلق أو نهائي في نظره، لأنه لا يوجد شيء يستطيع الصمود في وجه الديالكتيك الماركسي سوى المجرى المستمر للنشوء والزوال، والصعود من أدنى إلى أعلى. ويصر إنجلز على عدم حاجته إلى بحث قضية انسجام طريقة الديالكتيك النسبية في الفهم ـ على حد زعمه ـ والتي لها طابعها الثوري المطلق. يقول إنجلز: «وهي نفسها ليست سوى انعكاس بسيط لهذا المجرى في الدماغ المفكر. ولها أيضاً في الحقيقة جانبها المحافظ فهي تبرر كل مرحلة من مراحل تطور المعرفة والعلاقات الاجتماعية في زمانها وظرفها، لا أكثر، فالصفة المحافظة لهذه الطريقة ـ في الفهم نسبية وطابعها الثوري هو مطلق ـ وهذا هو الشيء الوحيد المطلق الذي تتقبله الفلسفة»[١٥].

يصر إنجلز على عدم حاجته إلى بحث انسجام طريقة

---

(١٥) لود فيغ نورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية، ص ١٠.

الديالكتيك مع الوضع الحاضر للعلوم الطبيعية التي تتنبأ بنهاية ممكنة لوجود الأرض نفسها، وبنهاية أكيدة نسبياً للحياة عليهاونحن نقول بل أكد القرآن الكريم نهاية الأرض وما عليها من حياة وجاءت الدلائل العلمية موافقة لما أكده القرآن الكريم من نهاية الأرض والحياة عليها كما ذكرت ذلك في مناقشة أزلية المادة وأبديتها.

فإنجلز وشيعته ليسوا على استعداد لبحث هذه القضية لأنهم لو بحثوها جدياً وآمنوا بفناء المادة ونهاية الحياة على الأرض لقادهم هذا الايمان إلى الاعتراف بخالق الكون، وهذا ما لا يريده إنجلز وأصحابه، لأن دعوتهم ما قامت إلا على أساس إنكار خالق هذا الكون، ومحاربة دينه وجنده في الأرض. فإنجلز وصاحبه وإن أثبتت العلوم الطبيعية نهاية الأرض والحياة عليها وأن التاريخ الانساني لن يكون حركة صاعدة كما يريد أن تكون وتبقى ـ بل سيكون حركة نازلة أيضاً. ليسا على استعداد لقبول هذه الفكرة، لأنه لو قبلاها لانهارت نظريتهما في التطور، وعلى وجه الخصوص القول بالتطور من الأدنى إلى الأعلى ومن الأسوأ إلى الأحسن، وعلى هذا فلا يصبح هناك معنى لقولهم إن الاشتراكية أفضل وأحسن من الرأسمالية، وإن الشيوعية أفضل مرحلة على الاطلاق في تاريخ البشرية، وذلك لأن حركة التطور تصاعدية من الأدنى إلى الأعلى ومن الأسوأ إلى الأحسن ونحن نقول: إن الاشتراكية والرأسمالية سواءً في ميزان الله تعالى كلتاهما على باطل وضلال وكلتاهما تصدان عن سبيل الله تعالى. ويعلل إنجلز عدم حاجته لبحث هذه القضية النسبية في الفهم وانسجامها مع العلوم الطبيعية بأنه وأشياعه ما زالوا بعيدين جداً عن المنعطف الذي يبدأ التاريخ الانساني فيه حركته النازلة. ونحن نقول: إن الذي أعطاه الله قليلاً من الذكاء والعلم يدرك تفاهة هذه الحياة الواهية التي يتعلل بها إنجلز ومن ناصره. لأن من آمن بأن الحياة فانية

ـ وأن مصيرها إلى الفناء ـ وقد ثبت ذلك بالأدلة القاطعة من القرآن الكريم وموافقة العلم الحديث له ـ مهما طالت المدة الزمنية ـ لأن المدة الزمنية مهما طالت فهي محدودة ـ لا يصدر حكمًا حتمياً كالذي أعلنه إنجلز أن التطور في حركة مستمرة وصعود إلى أعلى وانتقال إلى الأحسن.

كان الأولى بإنجلز أن يتوقف عن نبوءته بأن حركة التاريخ متطورة إلى أعلى. وهو يقر بأن العلوم بدأت «تتنبأ بنهاية ممكنة لوجود الأرض نفسها وبنهاية أكيدة نسبياً للحياة عليها»[١٦].

كان الأولى بإنجلز وشيعته أن يتراجعوا ما دامت العلوم الطبيعية قد أثبتت غير ما كانوا يعتقدون وما بنوا نظرياتهم عليه من أزلية المادة وأبديتها ولكنهم على عادتهم يضعون النتيجة سلفاً ويطلبون من الناس الايمان بها. ولو كانت مخالفة للعلم الذي احتكروه لأنفسهم.

«لسنا بحاجة هنا إلى بحث قضية ما إذا كانت هذه الطريقة للفهم تنسجم كلياً مع الوضع الحاضر للعلوم الطبيعية. هذه العلوم التي تتنبأ بنهاية ممكنة لوجود الأرض نفسها وبنهاية أكيدة نسبياً للحياة عليها. وتعلن على هذا الأساس أن تاريخ الانسانية لن يكون حركة صاعدة وحسب، بل أيضاً حركة نازلة، ولكننا على كل حال ما زلنا بعيدين جداً عن المنعطف الذي يبدأ منه تاريخ المجتمع حركته النازلة»[١٧].

وعند الماديين أن حركة التطور يجب فهمها على أساس أنها حركة تقدمية وصاعدة فهي ليست حركة دائرية أو تكراراً بسيطاً من ذات

---

(١٦) نفس المصدر، ص ١٠.

(١٧) نفس المصدر، ص ١٠.

النـوع. والطبيعـة عنـدهم تعمـل بصـورة ديـالكتيكيـة لا بصـورة ميتافيزيقية، ويشيدون بداروِن الذي أثبت ــ على حد تعبيرهم ــ أن العالم العضوي بأسره كما هو موجود اليوم ــ النباتات والحيوانات والانسان ــ كله نتاج تطور يجري منذ ملايين السنين.

إن هدف الماديين من بحثهم في قوانين المادة وتطبيقها على الطبيعة هو إيجاد تبرير علمي يسندون به نظريتهم العلمية كما يزعمون حين يطبقون هذه القوانين على حياة الإنسان. ولكن غاب عنهم أو تعاموا عن هذه الحقيقة، وهي أن الإنسان كائن متفرد لا ينطبق عليه ما ينطبق على المادة وقوانينها، لأنه ذو حرية وإرادة وهبها الله سبحانه وتعالى له وكرمه بها على بقية المخلوقات. وسوف أتعرض لهذه القضية في فصل خاص بإذن الله تعالى.

ثم إن التغير أو التطور الذي يحصل في الأشياء ليس تغيراً أو تطوراً من أدنى إلى أعلى ومن سيء إلى حسن، بل هو تغـير فحسب، فقد يكون التغير إلى حال أحسن وقد يكون إلى حال أسوأ. وإليكم الأمثلة على ذلك. تعفن الخبز مثلاً إنتقال من حال حسنة إلى حال سيئة وانتقال الإنسان من الشباب إلى الهرم إنتقال من حال حسنة إلى حال سيئة. فالتغير موجود في الكائنات الحية وغيرها، ولكنه مجرد إنتقال من حال إلى حال، بغض النظر عن الإنتقال إلى الحسن أو إلى السيىء. فقولهم إن الشيء يتطور بمعنى ينتقل إلى حال أحسن كلام باطل بالمشاهدة، لأن الذي يحدث هو مجرد تغير إما إلى حال أحسن وإما إلى أسوأ. ثم إن الإنتقال يجعل الحالة التي جرى الإنتقال منها قديمة والحال التي جرى الإنتقال إليها جديدة. وإذا كان الذي يحصل في الأشياء تطوراً أي إنتقالاً إلى حال أحسن فإن الجديد يكون دائماً خيراً من القديم ــ على حد زعمهم ــ وقد ثبت بالمشاهدة بطلان هذا الزعم. وأن الذي يحدث في الأشياء إنما هو مجرد تغير قد يكون إلى

أحسن وقد يكون إلى أسوأ. ودليل الماء الذي ساقه إنجلز[١٨] للتدليل على هذه النظرية يكذبها. لأن الماء عندما يتحول إلى بخار يمكن أن يكثف ويبرد وبذلك يرجع إلى كيفيته الأولى أي إلى الماء وهذا ليس تغيراً صاعداً ولا إلى أحسن بل رجوع إلى الصورة الأصلية. وعلى هذا، فالجديد لا يكون دائماً حسناً، كما أنه ليس دائماً سيئاً، وليس القديم دائماً سيئاً، كما أنه ليس دائماً حسناً. فالهرم مثلاً جديد في حياة الإنسان، والحالة السابقة عليه هي الشباب. والعفن في الخبز جديد يجيء بعد السلامة، والسلامة فيه هي القديم وهكذا ملايين الأشياء المتغيرة ليست جميعها حركة صاعدة ولا حركة تنازلية، بل قد تكون صاعدة كالماء يتحول إلى بخار، والطفل يصبح شاباً، والغرسة تصبح شجرة، والعجين يصبح خبزاً، وشريط البلاتين يصبح مضيئاً، وما شاكل ذلك، وقد يكون تغير الأشياء حركة تنازلية، كالبخار حين يتحول إلى ماء، والشباب حين يصبح هرماً وما شاكل ذلك. فالصعود والنزول ليس خاصية للحركة ولا للتغير. لذلك كان القول بأن التغير يكون دائماً صاعداً قولاً خاطئاً ومخالفاً لواقع الحركة ولواقع التغير»[١٩].

وهم من خلال تطبيق قوانين المادة على حياة المجتمع يريدون أن يصلوا إلى نتيجة وهي: أنه ما دامت حركة التطور صاعدة من الأدنى إلى الأعلى ومن الأسوأ إلى الأحسن فإن الجديد أفضل من القديم وأحسن منه. وعلى هذا الأساس فإن الشيوعية بزعمهم أفضل من الأطوار السابقة. وهم يقفون بهذا القانون عند حدود الشيوعية ولا يتجاوزونها. وهم إما أن يعترفوا بشمول هذا القانون فيشمل

(١٨) «كما هي الحال مثلاً في الماء المسخن أو المبرد. فإن نقطة الغليان ونقطة التجمد فيه هما العقدتان اللتان تتم فيهما تحت الضغط العادي القفزة إلى حالة جديدة من التجانس أي تتحول بها الكمية إلى كيفية». المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية، ص ٢١ ـ ٢٢.

(١٩) أنظر نقض الإشتراكية الماركسية، ص ٨٩ ـ ٩١.

الشيوعية والطور الذي سيأتي بعدها. وعلى ذلك تكون الشيوعية ـ على فرض تحقيقها ـ مجرد طور من أطوار الحياة البشرية يأتي طور بعدها أحسن منها فتصبح قديمة وتعاليمها قديمة. وهذا طبعاً ما لا يريدونه. لأنهم يقفون بالقوانين العلمية عن العمل عند حدود الشيوعية لتحقيق مصالحهم الشخصية ومآربهم الذاتية ويزعمون أنهم علميون وأن نظريتهم هي النظرية العلمية الوحيدة!.

وإما أن لا يكون شاملاً حيث تخرج الشيوعية من نطاقه، وعندئذ لا يصبح قانوناً صالحاً للحكم على شيء على الإطلاق، ويصبح تطبيقه على المراحل السابقة غير قائم على أساس علمي صحيح، لأن القانون إما أن يطرد تطبيقه فيصبح صالحاً للحكم به وإما أن يضطرب تطبيقه فلا يعود مقياساً صالحاً للحكم. ومن ثم لا تصبح الشيوعية أفضل مرحلة على الإطلاق.

ولا بد من توجيه السؤال التالي إليهم: أين العلمية المزعومة في نظريتكم إذا كانت قوانين المادة التي تستندون إليها في تأييدكم ضد خصومكم ـ أهل الأديان والمثاليين ـ وبخاصة قانون التطور لا تنطبق على مجتمعكم وشريعتكم؟ اللهم إلَّا إذا كانت قوانين المادة طوع بنانكم تأتمر بأمركم وتعمل حسب مشيئتكم وهي ملك لكم وحدكم دون غيركم!!.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾[٢٠]

---

(٢٠) الحج ٧٣.

وحسبنا لبيان فساد هذا الذي يسمونه قانوناً أن نعقد مقارنة بين جيل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أبناء الجيل الحاضر، الذين يفترض فيهم ـ حسب هذا القانون الباطل ـ أنهم أفضل أجيال البشرية. . .

مقارنة بين جيل أصحاب رسول الله ﷺ والجيل الأوربي المعاصر

أولاً ـ جيل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم:

تربى ذلك الجيل الكريم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد كان لهذه التربية النبوية الكريمة أثر كبير في توجيه سلوكهم، كما كان للعقيدة الربانية أثر كبير في توجيه النفوس المؤمنة نحو الخير والفضيلة. ولم يعد الإسلام ـ وهو عقيدة وتصور ـ «نظريات مجردة ولا مجموعة إرشادات ومواعظ ـ وإنما عاد نماذج إنسانية تعيش ووقائع عملية تتحقق وسلوكاً وتصرفات تشهد بالعين وتسمع بالأذن وتترك آثارها في واقع الحياة»[٢١].

إن عظمة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءت من إيمانهم بالله وتوحيده في أسمائه وصفاته، وإتباعهم لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم واعتزازهم بدين الله وتوكلهم على ربهم مع الأخذ بالأسباب والمسببات.

من هنا سطروا أروع الأمثلة في السياسة والعدل وفي الأخلاق

---

(٢١) العدالة الإجتماعية، ص ١٦٤.

والمعاملات، في الخوف من الله والتوكل عليه، في علاقة الرجل مع أهله وخدمه، ومع المجتمع الذي يعيش فيه. ضربوا أروع الأمثلة في شتى مجالات الحياة، لأن الإيمان بالله إذا وقر في نفس الإنسان فإنه يسعى إلى عمل كل ما يرضي ربه ومولاه، ويبتعد عن كل ما يخالف أوامر الذي خلقه فسواه. وإليكم الأمثلة على ذلك:

١ ـ هذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم حين استلم الخلافة لم يعلن أنه حاكم مستبد يفرض رأيه ويرفض المناقشة والحوار، ولكنه جاء يؤكد للناس جميعاً أنه عبد من عبيد الله وأنه واحد منهم لا يمتاز عنهم أو يفضلهم إلاَّ بمقدار ما يقدم لهم الخدمة وما يرعى لهم الحق(٢٢).

«أما بعد أيها الناس فإني وليت عليكم ولست بخيركم. فإذا أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني. الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف منكم قوي عندي حتى أريح(٢٣) عليه حقه إن شاء الله تعالى. والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله تعالى. لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلاَّ ضربهم بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلاَّ عمهم الله بالبلاء. أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم»(٢٤).

هذا الخليفة الذي حدد نهجه في السياسة الملتزمة بطاعة الله وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم نجده مثالاً للتواضع في معاملة الناس.

«كان أبو بكر يحلب للحي أغنامهم فلما بويع قالت جارية من

---

(٢٢) المنهزمون، ص ٣١.

(٢٣) أريح ـ أرد.

(٢٤) الرياض النضرة في مناقب العشرة، ج ١، ص ٢٩٤.

الحي الآن من يحلب لنا منائح دارنا؟ فسمعها فقال لأحلبنها لكم وأرجو ألاَّ يغرني ما دخلت فيه عن خلق كنت فيه. فكان يحلب لهم رحمه الله»[٢٥].

إن أبا بكر الصديق رضي الله عنه لم يغتر بمنصبه، وقد كان بإمكانه أن يستغل هذا المنصب ولكن الإيمان أعظم شيءٍ في هذه الحياة يضحي الإنسان في سبيله بكل ما يملك.

وجاء بعد أبي بكر تلميذ آخر من تلاميذ النبوة هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فصنع نماذج من السلوك الرفيع في الحكم توقف كل البشر أقزاماً في رحاب عمر رضي الله عنه. لقد أصابت المسلمين أيام من القحط لم يسلم منه بيت عمر رضي الله عنه، وقد كان عمر رضي الله عنه قادراً لو تخلى عن تقوى الله ــ أسمى قيمة من قيم الحضارة الإسلامية ــ أن يوفر الطعام لأهله والناس جياع. وأن يغمرهم برغد العيش والأمَّة في ضيقٍ وحرج، ولكنه عامل الجميع على حد سواء حتى بلغ الجوع والهزال أبناءه وأحفاده[٢٦].

«عن الحسن قال: بينما عمر يمشي في سكةٍ من سكك المدينة. إذا هو بصبيةٍ تطيش على وجه الأرض تقوم مرة وتقع أُخرى، فقال عمر: يا ويحها ويابؤسها من يعرف هذه منكم؟ فقال عبد الله بن عمر: أو ما تعرفها يا أمير المؤمنين. قال: لا ومن هي؟ قال: هذه إحدى بناتك. قال: وأي بناتي هذه؟ قال: هذه فلانة بنت عبد الله بن عمر قال: ويحك، ما يصيرها إلى ما أرى؟ قال: منعك ما عندك. قال ومنعي ما عندي منعك أن تطلب لبناتك ما يطلب القوم لبناتهم إنه والله

---

(٢٥) نفس المصدر، ص ٢٤٥.

(٢٦) انظر المنهزمون، ص ٣٦.

مالك عندي غير سهمك في المسلمين وسعك أو عجز عنك. هذا كتاب الله بيني وبينكم»[٢٧].

وعمر العادل يفسح صدره لغير السادة من قريش. إنه يستمع إلى سلمان الفارسي رضي الله عنه دون أن يجد حرجاً في مناقشته أو ضيقاً مما يوجهه إليه. «بعث إلى عمر ــ رحمه الله ــ بحلل فقسمها فأصاب كل رجل ثوب ثم صعد المنبر وعليه حلة والحلة ثوبان. فقال أيها الناس ألا تسمعون. فقال سلمان: لا نسمع فقال عمر: ولم يا أبا عبد الله؟ قال إنك قسمت علينا ثوباً وعليك حلة. فقال: لا تعجل يا أبا عبد الله. ثم نادى عبد الله فلم يجبه أحد. فقال: يا عبد الله بن عمر. فقال: لبيك يا أمير المؤمنين. فقال: ناشدتك الله الثوب الذي ائتزرت به أهو ثوبك؟ قال اللهم نعم. فقال سلمان: الآن فقل نسمع»[٢٨].

ويفسح التاريخ الأمين في صدره الرحب لرجلٍ فذ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. ويعلن للملأ أنّ مدرسة القرآن الكريم تربي رجالاً يندر أن يجود بمثلهم الزمان. إنه عثمان بن عفان رضي الله عنه الذي ضرب أروع الأمثلة بحسن أخلاقه وكرمه.

إنه مثال التاجر الأمين الذي لا يستغل حاجة الضعفاء والمساكين في وقت كان بإستطاعته أن يستغل ساعة عسرة المسلمين.

عن إبن عباس رضي الله عنهما قال: «قحط الناس في زمان أبي بكر فقال أبو بكر: لا تمسون حتى يفرج الله عنكم. فلما كان من الغد جاء البشير إليه قال: قدمت لعثمان ألف راحلة براً وطعاماً. قال: فغدا التجار على عثمان فقرعوا عليه الباب فخرج إليهم وعليه ملاءة

---

(٢٧) تاريخ عمر بن الخطاب، ص ١٢٦.
(٢٨) نفس المصدر، ص ١٦٩.

قد خالف بين طرفيها على عاتقه فقال لهم: ما تريدون؟ قالوا قد بلغنا أنه قدم إليك ألف راحلة براً وطعاماً. بعنا حتى نوسع به على فقراء المدينة. فقال لهم عثمان: ادخلوا: فدخلوا. فإذا ألف وقر[٢٩] قد صب في دار عثمان. فقال لهم: كم تربحوني على شرائي من الشام؟ قالوا: العشرة اثني عشر. قال: قد زادوني. قالوا: العشرة أربعة عشر. قال: قد زادوني. قالوا: العشرة خمسة عشر. قال: قد زادوني. قالوا: من زادك ونحن تجار المدينة. قال: زادني[٣٠] بكل درهم عشرة. عندكم زيادة؟ قالوا لا. قال: فأشهدكم معشر التجار أنها صدقة على فقراء المدينة»[٣١]. ماذا كان عليه ـ حتى وهو يريد البر بالمسلمين ـ أن يأخذ على الأقل رأسماله بدون ربح، ويكون في ذلك نبيلاً مشكوراً.

وهذا صحابي آخر تربى في بيت النبوة منذ صغره. إنه علي إبن أبي طالب كرم الله وجهه، الذي تقف الدنيا وملوكها يلهثون على الطريق الساحق فلا يبلغون موضع أقدام علي رضي الله عنه وهو يمر بسوق الكوفة يعرض سيفاً من أسيافه التي طالما سلها في سبيل الخير وإعلاء كلمة الله تعالى «من يشتري سيفي هذا؟ فوالله لو كان معي ثمن ازار ما بعته». وإذن فأمير المؤمنين وإمام المسلمين وحاكم الأمَّة بإسم الدين لا يستغل نفوذه ولا يفرض جبروته على الرغم من وفرة المال عنده. بل إنه ليحيا دون ما يحيا الناس الذين يجدون لقمة العيش هانِئة ميسورة[٣٢].

ولم يقتصر الأمر على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم

(٢٩) حمل.

(٣٠) أي الله تبارك وتعالى يعني قوله «من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها» الأنعام ١٦٠.

(٣١) الرياض النضرة في مناقب العشرة، ج ٣، ص ٥٥ ـ ٥٦.

(٣٢) انظر المنهزمون، ص ٤٦.

والخلفاء الراشدين، بل إن الإيمان الذي وقر في نفوس أتباع هذا الدين أخرج منهم رجالاً كانوا مثالاً في العظمة وعزة النفس، أقاموا العدل في ربوع الأرض، وجعلوا حياتهم كلها لله رب العالمين. فهذا عمر بن عبد العزيز يضرب أروع الأمثلة بعدله وتقواه، رد المظالم إلى أهلها وحاسب نفسه قبل أن يحاسبه ربه. وهذا خالد بن الوليد الذي لم ينهزم في معركة قط... يعزله عمر بن الخطاب وهو في معمعان المعركة ولكن النفس التي رباها القرآن لم تحقد بل سلم الأمر إلى الله. وقال حين قال الناس له إنها الفتنة: أما وابن الخطاب حي فلا، إنني لم أقاتل من أجل عمر ولكن من أجل رب عمر. واستمر في القتال حتى منَّ الله بالنصر على أعداء الله»(٣٣).

ولم يكن الخلفاء ولا أبطال الحرب وحدهم هم الذين يبلغون تلك القمم العالية من النظافة النفسية المتطوعة. فهذا رجل من عامة المسلمين وهو محمد بن المنكدر، فقد روي أن غلامه باع لأعرابي في غيبته شقة من الخمسيات بعشرة. فلم يزل يطلب ذلك الأعرابي طول النهار حتى وجده فقال له إن الغلام قد غلط فباعك ما يساوي خمسة بعشرة. فقال يا هذا قد رضيت. فقال وإن رضيت فإنَّا لا نرضى لك إلَّا ما نرضاه لأنفسنا ورد عليه خمسة. تلك أخلاق من تمكنت الدعوة المحمدية من نفسه(٣٤).

والذي أحب أن ألفت الإنتباه إليه أن الجريمة كانت شبه معدومة في الجيل الأول من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. فعلى سبيل المثال لم تثبت جريمة واحدة من جرائم الزنا في عهد الرسول صلى

---

(٣٣) انظر الإنسان بين المادية والإسلام ١٣٠ ـ ١٣١، وكتاب الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز، ص ١٠٤.

(٣٤) الرسالة الخالدة، ص ٦٥ ـ ٦٦.

الله عليه وسلم وأصحابه عن طريق الشهادة بل إن الجرائم المعدودة ثبتت عن طريق الإقرار. ويعود سبب قلة الجريمة في المجتمعات الأولى إلى الإيمان العظيم الذي يردع النفس عن المنكر قبل أن تردعها هيبة القانون. وهناك نماذج كثيرة حواها تاريخ الإسلام عن البطولات النادرة في الشجاعة والكرم والعفاف والتواضع وحسن الأخلاق والعدل بين الناس. إنه الإسلام العظيم الذي خرَّج أجيالاً عظيمةً حين كان الحكم له لا للطواغيت.

يقول الأستاذ يوسف العظم حفظه الله: «وإذا كان الحاكم بالإسلام ــ عدلاً وتقوى ــ لا يتمتع برغد العيش ولا أبهة الحكم ولا يطغى أو يتجبر فما الذي من أجله يحكم وفي سبيل ماذا يتسلم السلطة؟.

إنه رضوان الله الذي يبحث عنه المؤمن خاتمة المطاف وغاية الغايات. إن الواقع الملحوظ والحقيقة الملموسة أن القيم الشوامخ من رجال العدل المطبقين لأساليب الحكم العف، إنما تقوم حين يحكم الإسلام وتوضع الشريعة موضع التنفيذ.

أما حين يغيب الإسلام عن الساحة، وتهجر شريعة الله في الأرض، ويعذب السلطان فقهاء الأمة وعلماء الشريعة، فإن كل التناقضات تطفو على السطح، وكل التفاهات تتحكم في مصير الأمة تدفعها دفعاً نحو هاويةٍ من التمزق والضياع ليس لها قرار. والإسلام ليس مسؤولاً عن إنحرافات المنحرفين وظلم الظالمين حين يغيب أو يحال بينه وبين حكم عباد الله بشريعة الله»[٣٥].

بعد عرض هذه النماذج الرائعة التي رباها الإيمان بالله عز

(٣٥) المنهزمون، ص ٥٢.

وجل، أعرض نماذج مختلفة عن النفوس التي نبذت الإيمان بالله عز وجل، عن الجيل الأوروبي الضائع، لنرى حقيقة دعوى الشيوعيين التي تزعم بناء على قانون التطور أن كل جيل جديد أفضل من الجيل السابق عليه. فهل هذا الجيل الضائع الحائر أرقى نفسياً وأحسن حالاً من جيل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذين رأينا كيف رباهم الإيمان وصقل نفوسهم؟.

ثانياً ــ الجيل الأوروبي المعاصر:

لا بد لي وأنا في مجال المقارنة بين حياة الناس الذين رباهم الإيمان، وبين الجيل الذي نبذ الإيمان كلية، من عرض نماذج مختلفة لحياة هذا الجيل المعاصر. ومن أجل إنصاف الحقيقة التي يسعى إليها كل باحث، ونحن المسلمين أولى الناس بالسعي إليها. أترك معظم الحديث عن حياة الجيل الأوروبي المعاصر للكتاب الأوروبيين.

يقول الكاتب الأميركي (منكن): «إن حكومة الولايات المتحدة بسلاحيها التشريعي والتنفيذي غير كفء وفاسدة تثير الإشمئزاز في النفس.

«فوزارة العدل في الجمهورية مغفلة غاشمة تعمل ضد كل ما هو معقول وعدل. السياسة الخارجية للولايات المتحدة في أسلوبها العادي في التداول مع الأمم الأخرى سواء كانت صديقة أو عدوة، هي سياسة رياء ونفاق، ومراوغة ماكرة مخجلة.

«وإني لأجد في بلدي هنا أكثر مما أرى أو أسمع في أي بلد آخر من جنون خاص وعام. أرى موكباً لا نهاية له من أعمال السلب والإحتيال الحكومية واللصوصية التجارية، وشنق الأعناق، والمجون اللاهوتي، وقلة الذوق والإختلاس، والزنا الشرعي، وأعمال الإحتيال

المتنوعة، والدناءة والبلاهة والسخرية والإسراف. إنه موكب ضخم غير معقول، يجري بأعظم قوة يمكن إدراكها، وتغذيها أعظم جرأة وشذوذ بعيدين عن التصديق»[٣٦].

الفساد الأخلاقي:

أما عن الفساد الأخلاقي، وانتشار الفواحش ما ظهر منها وما بطن، فهي كثيرة وفيرة. فجرائم الزنا الكثيرة المرتفعة... والشذوذ الجنسي بين الرجال، لا يحصيه عد، بل طالبت بعض البرلمانات الأوروبية كما في بريطانيا، والولايات المتحدة والدول الاسكندنافية، بجعل اللواط أمراً مشروعاً»[٣٧].

الأمراض العصبية والعقلية:

ونسبة هذه الأمراض مرتفعة وتزداد كل يوم، فقد جاء في تقرير لمنظمة الصحة العالمية أعدته لاجتماعها السنوي في جنيف لسنة ١٩٧٨م: «يعاني حوالي ٤٠ مليون شخص من أمراض عقلية أكيدة في العالم، وهناك أكثر من ٨٠ مليون ممن يعانون تخلفاً خطيراً من جراء الإفراط في تعاطي الأدوية، والمخدرات والمشروبات، بالإضافة إلى مائتي مليون شخص يعانون من إضطرابات عقلية أقل خطراً، ولكنها تعرضهم للتخلف العقلي أيضاً»[٣٨].

أضف إلى ذلك حوادث الإنتحار الكثيرة التي تزداد كل يوم حتى

---

(٣٦) تطور المجتمع الأميركي ٢٦١ ــ ٢٦٧.

(٣٧) انظر مجلة المجتمع، العدد ٣٥٠، ومجلة الدعوة المصرية، العدد ٢٦.

(٣٨) جريدة الندوة، العدد ٥٧٤٨ لعام ١٣٩٨.

في أرقى دول العالم، وجرائم الأطفال الجانحين تسجل إرتفاعاً ملحوظاً في فرنسا وأميركا[٣٩].

أما المجتمع الشيوعي فجرائمه أكثر من أن تحصى أو تعد، فالحزب الشيوعي الذي يتحكم في أقوات الناس، ويملك أكبر فرصة للتحكم في أخلاقهم، ويتعمد أن يصوغ البشر في قوالب معينة نتيجتها إفساد الإنسانية وتحطيمها.

«ويشترك سكان الشقة في دورة مياه واحدة، بالإضافة إلى أن دورات المياه العامة قد تكون بنيت بلا أبواب منذ إنشائها.

وحيث أن الغرفة لا تحتوي إلَّا على سريرٍ واحدٍ فردي، فإن الأبوين ينامان عليه، في حين ينام الأبناء ذكوراً وإناثاً حتى من البالغين على المنضدة متلاصقين وهي المنضدة التي يستعملونها للمطبخ بالنهار»[٤٠].

أما الجرائم السياسية وتقتيل الأبرياء بالملايين، من أجل تطبيق مذهب ماركس فإن الكتب المختصة[٤١] قد كتبت ما فيه الكفاية. والواقع المعاصر أكبر شاهد على الجرائم التي ترتكبها الشيوعية ضد البشرية وبخاصة ضد المسلمين.

إن الذي ذكرته عن حياة الجيل الأوروبي المعاصر قليلة إنها غيض من فيض وتحتاج إلى مؤلف كامل، يبين أسباب فساد الحياة الاوروبية ونماذج منها. وفي نظري أن كثرة هذه الجرائم ـ السياسية والإقتصادية والخلقية والإنهيار العصبي والنفسي ـ التي تعاني منها الدول الاوروبية

---

(٣٩) انظر الطفولة الجانحة، ص ٨ ـ ١٣.

(٤٠) الديمقراطية والشيوعية، ٢٦٤.

(٤١) راجع الكتب التالية: الصنم الذي هوى، عائد من الجحيم، الديمقراطية والشيوعية، الإسلام في وجه الزحف الأحمر.

كماصرح بذلك علماؤها، وكما هو مشاهد وملاحظ. إن سبب هذه الجرائم كلها هو بعد الناس عن العقيدة الإيمانية السليمة، التي تمنع الناس من الوقوع في الرذائل والمعاصي والجرائم. إن الجيل الذي تربى على العقيدة الإلهية الصحيحة ضرب أروع الأمثلة في تاريخ البشرية في أخلاقياته ومعاملته للناس. وكانت الجرائم قليلة لا تذكر وكان العدل يرفرف على ربوع الأرض، لأن الحكام لم يشرعوا لأنفسهم لأنهم لا يملكون التشريع، إنما التشريع لله عز وجل. كان الناس يحاسبون أنفسهم قبل الإقدام على منكرٍ يغضب الله تعالى.

أمّا الجيل الأوروبي المعاصر، الذي شرع لنفسه، وترك خالقه، واتجه إلى المادة في العبادة، فقد أصبح في حالة من الفوضى والضياع يرثى لها لأنه لا يملك الرادع القوي الذي يمنعه من ارتكاب المنكرات، والتفنن في إبتكار وسائل الإجرام، والإعتداء على الأموال والأعراض. لجأ إلى السكر والمخدرات لعله يجد فيها راحة من عناء الهموم والمشاغل والمتاعب. ولكن هيهات أن يجد الراحة النفسية التي يريد وهو بعيد عن الله. لذلك من السهل عليه أن يلجأ إلى العنف والإنتحار، وأن يصاب بالأمراض النفسية والعصبية، وهو يعيش في مجتمع تقتل فيه الحرية باسم الحرية، فلا يستطيع أن يعترض على الظلم الذي يراه في كل وقتٍ وحين.

بعد هذا كله هل يصح لمن يزعم أنه علمي في بحثه وأن نظريته لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، أن يقول إنّ الجيل الأوروبي المعاصر أرقى وأحسن حالاً وأهنأ عيشاً من جيل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، والجيل الذي رباه الإيمان؟ هل يمكن لمنصف أن يقول إنّ الحياة المظلمة للجيل الأوروبي المعاصر التي نراها ونسمع عنها هي أفضل من الحياة المشرقة الوضاءة في تاريخ البشرية التي عاشها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

نعم. . . إنها خرافة التطور التي تقول إنّ كل طورٍ جديد أرقى من الطور القديم، هذه الخرافة التي لا تنظر إلى الإنسان إلا بالمنظار المادي الضيق، التي تتعامى عن الإيمان بالله وأثـره في النفوس. فلا ترى إلا التقدم المادي والعمـراني، وتتعامى وتتجـاهل الـواقع الإجتماعي والسياسي والأخلاقي السيء الذي تعيشه الأمم المعاصرة، وتزعم بعد ذلك أنها نظرية علمية؟!

﴿لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ۝٧٨﴾ (٤٢).

مناقشة قانون التناقض:

ذكرت في باب عرض النظرية من وجهة نظر أصحابها، أنهم يقولون إنّ كل أشياء الطبيعة وحوادثها تحوي تناقضات داخلية لأن فيها جميعها عناصر تضمحل وتتطور، وإنّ لها كذلك جانباً سلبياً وآخر إيجابياً، ولها ماضياً وحاضراً، فنضال هذه المتضادات هو المحتـوى الداخلي لحركة التطور. ويعتبر الماديون أن الواقع حركة ناشئة عن التناقض والنضال بين المتضادات، وهما داخليان لأنهما جوهر الحركة.

والظروف الخارجية لها دور ثانوي في عملية التناقض، والأساس فيه إنما هو للتناقض الداخلي لأن الظروف الخارجية تفقد تأثيرها إذا لم يوجد التناقض الداخلي. وقد ذكرت أن ماركس أخذ الجدلية عن هيغل ولكنه قلبها رأساً على عقب، لأن الجدلية هي عبارة عن دعوى ومقابل الدعوى ثم أخيراً جامع الدعوى ومقابلها.

بعد هذا العرض السريع أبدأ في دراسة التناقض في ضوء علم المنطق، وكيف فهم الماركسيون التناقض، وهل فهموه الفهم السليم؟ ثم أدرس التناقض على ضوء الأبحاث العلمية لأرى هل التناقض

---

(٤٢) الزخرف ٧٨.

وصراع المتناقضات موجود في الكون المادي فعلاً أم أن الموجود شيء آخر غير التناقض؟ وقبل الدخول في مناقشة الماديين لا بد من معرفة التناقض والتضاد، وعدم التناقـض وكيف فهم الماديون التناقض.

ـ ما هو التناقض؟

«التناقض هو: إختلاف القضيتين بالإيجاب والسلب على وجه يقتضي لذاته أن تكون إحداهما صادقة والأخرى كاذبة»[43].

ـ شروط التناقض:

هذا والتناقض شروط يتحقق بها فإذا إختل شرطٌ منها لم يعد هناك تناقضاً بل يكون الترديد بين النفي والإثبات صحيحاً، ويشترط في التناقض أربعة شروط هي:

أولاً ـ إختلاف القضيتين في الكيف، بـأن تكون إحـداهما موجبة والأخرى سالبة. مثال: كل حديد معدن، نقيضها ليس بعض الحديد معدن.

ثانياً ـ إختلاف القضيتين في الكم فيما عدا الشخصية[44]، فالاختلاف فيها في الكيف. مثاله: بعض الإنسان فرس. لا شيء من الانسان بفرس.

ثالثاً ـ اختلاف القضيتين في الجهة إن كانتا موجبتين، فنقيض الضرورية الممكنة ونقيض الدائمة المطلقة، والعكس بالعكس. كل إنسان جسم بالضرورة ونقيضها بعض الإنسان ليس جسمًا بالإمكان (كاذبة). الثانية: كل كاتبٍ متحرك الأصابع ما دام كاتباً. نقيضها: ليس بعض الكاتب متحركٍ الأصابع بالفعل (كاذبة).

---

(٤٣) ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة ص ١٦٥.

(٤٤) القضية الشخصية ما كان موضوعاً مشخصاً مثل محمد فاهم.

رابعاً ــ يشترط الإتحاد فيما عدا ذلك، وقد حصر المتقدمون من المناطقة ما يجري فيه الإتحاد في ثمانية: فقالوا يجب الإتحاد في الموضوع، وفي المحمول، وفي المكان، وفي الزمان، وفي الشرط، وفي الإضافة، وفي الجزء وفي الكل، وفي القوة والفعل[٤٥].

أما الاتحاد في الموضوع: فهو أن يتناول النفي والإثبات أو الإيجاب والسلب موضوعاً واحداً. وعلى ذلك فلا تناقض في قولنا: إنّ المربع ذو أربعة أضلاع، وإن المثلث ليس له أربعة أضلاع، وذلك لإختلاف الموضوعين اللذين تناولهما السلب والإيجاب. أما إتحاد المحمول: فهو أن يكون المحمول أو المحكوم به في كلا القضيتين واحد. وعليه فلا تناقض في قولنا: محمدٌ رسول الله، ومحمدٌ ليس بشاعرٍ وذلك لإختلاف المحمول في القضيتين.

وأما إتحاد الزمان: فهو أن يكون النفي والإثبات قد تناولا الموضوع في زمن واحد، وعلى ذلك فلا تناقض بين الإنسان لا يشعر بغريزة الجنس في دور الطفولة والإنسان يشعر بها في دور الشباب، وذلك لإختلاف العهد بين الطفولة والشباب.

وأما الإتحاد في المكان: فهو أن يتناول النفي والإثبات الموضوع في مكانٍ واحدٍ لا يتعداه. وعليه فلا تناقض بين محمد موجود في المدرسة، ومحمد ليس موجوداً في البيت لإختلاف المكان.

والإتحاد في الشرط: هو أن يكون المشروط واحد، فإذا اختلف المشروط فلا تناقض بين النفي والإثبات. مثاله الجسم مفرق للبصر بشرط كونه أبيضاً، والجسم ليس مفرقاً للبصر بشرط كونه أسوداً. والإتحاد في الإضافة، وعلى ذلك فلا تناقض بين محمد أب، أي لبكر،

(٤٥) القوة عبارة عن امكان الشيء والفعل عبارة عن وجوده حقيقة.

ومحمد ليس أباً، أي لخالد. والإتحاد في الجزء والكل، وعليه فلا تناقض بين (المصريون يتكلمون الانجليزية (أي بعضهم)، والمصريون لا يتكلمون الانجليزية (أي كلهم)، والإتحاد في القوة والفصل، وعليه فلا تناقض بين الطفل لا يعقل (أي بالفعل)، والطفل يعقل (أي بالقوة).

والتحقيق أنه لا حصر في هذه الثمانية بل لا بد من توافر شروط أخرى، فلا بد من إتحاد المفعول. فلا تناقض بين محمد يذاكر (أي الانجليزية)، ومحمد لا يذاكر (أي البلاغة). ولا بد من إتحاد الآلة، فلا تناقض بين: خالد يقطع الخشب (أي بالسكين)، وخالد لا يقطع الخشب (بالمنشار). ولا بد من اتحاد الحال، فلا تناقض بين: حضر بكر إلى الكلية (أي راكباً)، ولم يحضر بكر إلى الكلية (أي ماشياً) وغير ذلك»[٤٦].

فإن توفرت هذه الشروط في قضيتين كانتا متناقضتين حقيقة. وحكم النفي والإثبات فيهما أنهم لا يجتمعان ولا يرتفعان بل لا بد من ثبوت أحدهما ونفي الآخر، وعلى ذلك فإن القضيتين المتناقضتين لا يجوز أن تصدقا معاً، بل لا بد من صدق إحداهما وكذب الأخرى، وإلا لزم إجتماع النقيضين وهو باطل. ولا يجوز أن يكذبا معا، وإلا لزم ارتفاع النقيضين، وهو باطل فبقي أن احداهما صادقة والأخرى كاذبة وإذا لم يتوفر أحد هذه الشروط في قضيتين ما، لم يعد هناك تناقض، ومن يدعي وجود التناقض الحقيقي في الطبيعة بمعنى إجتماع النقيضين بشروطه المذكورة آنفاً، فإننا نطالبه بمثالٍ واحدٍ تتوفر فيه

(٤٦) بتصرف عن المرشد السليم في المنطق الحديث والقديم ص١١٧ ـ ١١٨، وأنظر ضوابط المعرفة ص ١٥٥ ـ ١٦٧.

شروط التناقض هذه كي يثبت دعواه. وإلا فما دون ذلك سفسطة وهزل»[٤٧].

ـ ما هو التضاد؟

أما التضاد فهو «التقابل بين القضيتين الكليتين المختلفتين في الكيف فقط، ومعنى التضاد في القضايا: أن صدق احدى القضيتين يقتضي كذب الأخرى حتماً، ولكن كذب إحدى القضيتين لا يقتضي صدق الأخرى حتماً، لإحتمال أن يكون الواقع على خلافهما جميعاً. فتكونا عندئذ كاذبتين»[٤٨].

وحكم القضيتين المتضادتين أن تصدق إحداهما وتكذب الأخرى في كل قضية يكون موضوعها أخص من محمولها. كما في المثال التالي: كل برتقالٍ فاكهة ولا شيء من البرتقال بفاكهة. أما إذا كان موضوعها أعم من محمولها، فإنهم يكذبان معاً مثل: كل فاكهة برتقال، ولا شيء من الفاكهة ببرتقال، فإنهما كاذبتان معاً. وعلى هذا فإن القضيتين المتضادتين لا تصدقان معاً، ولكنهم قد تكذبان معاً[٤٩].

ما هو مبدأ عدم التناقض؟

يقول الأستاذ محمد باقر الصدر: «إن مبدأ عدم التناقض هو المبدأ القائل بأن التناقض مستحيل، فلا يمكن أن يتفق النفي والإثبات في حال من الأحوال، وهذا واضح، ولكن ما هو هذا التناقض الذي يرفضه هذا المبدأ ولا يمكن للعقل قبوله؟ فهل هو كل نفي واثبات؟ كلا، فإن كل نفي لا يناقض أي إثبات وكل اثبات لا يتعارض مع كل نفي، وإنما يتناقض الإثبات مع نفيه بالذات لا مع نفي إثبات آخر.

---

(٤٧) الدين والفلسفة المادية الجدلية، ص ٥٧.

(٤٨) المرشد السليم، ص ١٢٥، ضوابط المعرفة، ص ١٦٩.

(٤٩) أنظر المرشد السليم، ص ١٢٥.

ووجود الشيء يتعارض بصورة أساسية مع عدم ذلك الشيء لا مع عدم شيء آخر، ومعنى تعارضهما أنهما لا يمكن أن يتوحدا أو يجتمعا»(٥٠).

كيف فهم الماديون التناقض:

قبل البحث في هذه المسألة لا بد من التفريق بين أمرين هامين وهما: «أحدهما الصراع بين أضداد ونقائض خارجية، والآخر الصراع بين أضداد ونقائض مجتمعة في وحدة معينة. فالثاني هو الذي يتناقض مع مبدأ عدم التناقض، أما الأول فلا علاقة له بالتناقض لأنه لا يعني إجتماع النقيضين أو الضدين، بل مرده إلى وجود كل منهما بصورة مستقلة، وقيام كفاحٍ بينهما يؤدي إلى نتيجة معينة»(٥١).

فالصراع بين الأضداد والنقائض الخارجية ليس كشفاً للماديين الماركسيين في عالم الطبيعة والفكر، بل هو مقرر في الفكر البشري منذ فجر التاريخ إلى يومنا هذا.

فأرسطو مثلاً، أقام فلسفته على أساس مبدأ عدم التناقض وهو يؤمن بالصراع بين الأضداد الخارجية»(٥٢).

أما إن أراد الماديون من التناقض مفهومه الحقيقي ـ الذي يجعل للحركة رصيداً للمادة نفسها بفعل مبدأ التناقض ـ فهذا شيء لا يستطيعونه ولا يستطيعون أن يبرهنوا عليه ولا بدليل واحدٍ يثبت هذا التناقض الذي يزعمون. ونحن نطالبهم بالدليل الذي يثبت هذا التناقض الداخلي الذي يزعمون. وقد ثبت من خلال البحث أن

---

(٥٠) فلسفتنا، ص ٢٣٨.

(٥١) نفس المصدر، ص ٢٤٠.

(٥٢) أنظر نفس المصدر ص ٤٢١.

الحركة صفة للمادة، والحركة دليل على التغير والإنتقال من حالٍ إلى حال، وهذا يتنافى مع الأزلية، فهو دليل إستخدمه الماديون للبرهان على أزلية المادة، ولكنه في الواقع دليل ضدهم.

لأن كل متغير حادث، والمادة حادثة كما تبين من خلال البحث السابق، والحادث لا يستطيع أن يضع لنفسه قوانين يسير عليها، فلا بد له من محدثٍ يضع له القوانين التي يسير بحسبها، وهو الله سبحانه وتعالى.

تمثيلهم للتناقض:

سأورد هنا ثلاثة أمثلة من الأمثلة التي إستدل بها الماديون على دعوى التناقض، لكي نعرف مدى الصلة بين هذه الأمثلة وبين مبدأ التناقض في فلسفتهم للكون. وقد مثلوا لذلك بأمثلة، أحدهما في الجسم الحي، والثاني بمقدرة الإنسان على المعرفة، والثالث بالحركة.

أما **المثال الأول** ففي الجسم الحي يقول إنجلز: «وبالطريقة نفسها فإن كل كائن عضوي هو في كل برهة ذاته وغير ذاته، فهو يتمثل في كل برهة المادة التي يتزود بها من الخارج، ويتخلص من مواد أخرى. كما أن بعض خلايا بدنه تموت في كل برهة، وخلايا أخرى تتكون من جديد، وأن مادة بدنه لتجدد كلياً خلال فترة زمنية تطول أو تقصر، وتحل محلها ذرات أخرى من المادة بحيث أن كل كائن عضوي يظل هو نفسه بصورة دائمة ومع ذلك فهو كائن آخر»[٥٣].

والسؤال الذي يطرح أين التناقض بين هاتين العمليتين ــ الموت والحياة ــ في الكائن الحي؟ وحين نحلل هاتين العمليتين ــ الموت والحياة ــ في الكائن الحي نجدهما غير متفقتين في موضوع

---

(٥٣) أتني دوهرنغ، ص ٢٨.

واحد، وإتفاق الموضوع هو أحد شروط التناقض. فالكائن الحي في كل يوم يودع خلايا ميتة ويستقبل خلايا جديدة، ولكن الخلية التي توجد في لحظة غير الخلية الميتة البالية. وبناءً على ذلك فالكائن قائم ومستمر وذلك بالخلايا المتجددة.

إن التناقض يحصل حين يستوعب الموت والحياة في لحظة واحدة جميع خلايا الكائن الحي، وهذا لا تعرفه طبيعة الأشياء أو واحد من البشر. فالكائن الحي لا يحمل في كينونته إلا إمكان الموت، وإمكان الموت لا يناقض الحياة لإختلاف الزمان الذي هو من شروط التناقض، وإنما الذي يناقض الحياة هو الموت نفسه، وهذا لا يتحقق بحال من الأحوال إلا في موضوع واحد كما عرفنا سابقاً(٥٤).

المثال الثاني: في مقدرة الإنسان على المعرفة. يقول إنجلز: «وكما رأينا بأن التناقض مثلاً بين قدرة الانسان على المعرفة مقدرة متأصلة ولا محدودة، وبين تحقيق هذه القدرة تحقيقاً فعلياً في البشر الذين هم مقيدون بظروفهم الخارجية في التقدم اللامتناهي، وبالنسبة لنا على الأقل وبحسب وجهة النظر العلمية»(٥٥).

في هذا النص نجد أن الماديين لا يفهمون مبدأ عدم التناقض، ولا يخدمهم هذا الفصل في التدليل على التناقض. فإذا صح أن البشرية قادرة على اكتساب المعرفة الكاملة، وأن كل فرد لا يستطيع لنفسه ذلك، فهذا ليس دليلاً على التناقض، وليس هذا ظاهرة شاذة عن المفهوم البشري العادي كذلك.

فالتناقض كما عرفنا إنما يقوم بين النفي والإثبات فيما أذا تناولا موضوعاً واحداً في وقت وزمان واحد، أما إذا تناول الإثبات الانسانية

---

(٥٤) أنظر الدين والفلسفة المادية الجدلية، ص ٦٢ ــ ٦٣.
(٥٥) نفس المصدر، ص ٦٣.

كاملة والنفي إنساناً واحداً بعينه فهذا ليس تناقضاً نظراً لإختلاف الموضوع، وليس كما ظهر لإنجلز أنه تناقض حقيقي[٥٦].

المثال الثالث: تناقض الحركة: يقول ماوتسي تونغ: «لقضية عموم التناقض أو الوجود المطلق للتناقض معنى. مزدوج. الأول: هو أن التناقض قائم في عملية تطور كافة الأشياء. والثاني هو أنه في عملية تطور كل شيء تقوم حركة الأضداد من البداية حتى النهاية. يقول إنجلز إن الحركة نفسها تناقض»[٥٧].

والرد على هذا الزعم هو أن كل حركة، وكل درجة من درجات التطور تنطوي على جانبين إثبات، بالفعل، ونفي بالقوة (إنهما غير متناقضتين لإختلاف الزمان كما مر سابقاً). فالرجل مثلاً يمر بأطوار كثيرة من نطفة إلى علقة إلى جنين إلى طفل إلى مراهق شاب وهكذا. . . فهو في كل مرحلة من مراحل تطوره يتصف بأمرين هما: الفعل والقوة، أو الإمكان. فهو في حالة تكونه جنيناً فيه جنين بالفعل وطفل بالقوة أو الإمكان، أي يمكن أن يكون طفلاً، والطفل هو طفل بالفعل، ومراهق بالقوة والإمكان وهكذا دواليك إلى آخر مراحل التطور. وعلى ذلك فقد اجتمع في الطفل صفة الجنين وإمكان الطفولة، لا صفة الجنين والطفولة معاً.

وهنا يرد سؤال على الماديين هو: إذا كان عندكم دليل على تناقض الحركة يخالف مبدأ عدم التناقض، فقدموا إلينا مثالاً واحداً توجد فيه حركة ولا توجد، بمعنى آخر يصح فيه النفي والإثبات لذات واحدة في زمن ومكان واحد كمثال للتطور؟.

---

(٥٦) أنظر نفس المصدر، ص٦٣.

(٥٧) حول التناقض، ص١٣ نقلاً عن نفس المصدر السابق، ص٦٤.

فإن كان الشيء الواحد يتطور ولا يتطور بآنٍ واحد في عالم الطبيعة، وإن كان هذا حاصلاً فعلاً كما يزعمون، فليدللوا على ذلك بشاهد واحد من الطبيعة يثبت ذلك»[٥٨].

بعد بيان المفهوم العلمي الصحيح للتناقض والتضاد، ومبدأ عدم التناقض كما قرره علماء المنطق، وكيف أخطأ الماركسيون في فهم التناقض، أناقش هذا القانون من وجهة النظر العلمية لأرى هل التناقض وصراع المتناقضات موجود فعلاً في الكون المادي، أم أن الموجود شيء آخر غير التناقض؟.

مناقشة قانون التناقض
من وجهة النظر العلمية:

إن القول بقانون التناقض وصراع الأضداد خطأ من وجهة النظر العلمية، وذلك لأن ظواهر الوجود قائمة على التوازن الناتج من الحركة حول محور ثابت. فالتوازن هو الأصل، ويحدث الصراع عند الإخلال بهذا التوازن. وحين وضع ماركس جدلية المادية، أي حين طبق قوانين هيجل في الجدل على المادة منذ قرن، لم تكن المادة معروفة وقتها تماماً، إذ كان العلماء القدامى على عهد هيجل وماركس وإنجلز يعتقدوون أن الطبيعة مركبة من **٩٢** عنصراً، وأن كل عنصر مكون من جزيئات هي «الذرات». وكانت الذرة معتبرة وحدة الكون كله، وإن كانت غير معروفة إلا بخواصها، فكان لديهم **٩٢** نوعاً من الذرات مختلفة «كيفاً» أي مختلفة في الخواص، وسمح هذا التعدد واختلاف تأثير المواد بعضها ببعض بأن يقال أن ثمة تناقضاً في الطبيعة أو المادة.

(٥٨) أنظر نفس المصدر ص ٦٤ ــ ٦٥.

وفي هذا العصر فإن طلاب المرحلة الثانوية يدركون ما لم يدركه ماركس وشيعته الأولى، من أن الذرة مركبة من نواة يحيط بها عدد من الالكترونات وهي كهارب ذات شحنة سالبة تتحرك بسرعة هائلة، وان النواة تتكون من بروتونات ونيوترونات، والبروتونات كهارب ذات شحنة موجبة، والنيوترونات متعادلة وقوام النيوترون هو بروتون والكترون ملتصقان. وعرفنا ان الإختلاف في الظواهر التي نراها في المادة وتركيباتها راجع إلى خلاف في عدد ترتيب الالكترونات في ذرات تلك المواد. فالذرة التي تحوي الكتروناً واحداً مادتها هي: إيدروجين، وإذا كانت تحوي **٩٢** فهي يورانيوم، وإذا كانت تحوي **٣٦** فهي حديد[٥٩]. وثمة حقيقة لم يكن يعرفها ماركس، وهي: أن عدد الالكترونات في أية ذرة يساوي تماماً عدد البروتونات، أي ان الشحنة السالبة في أية ذرة تتساوى تماماً مع الشحنة الموجبة»[٦٠].

ولذلك فالذرة من أية مادة في حالتها العادية وحدة متزنة، خالية من التناقض الداخلي والصراع. وقد كان المفهوم السائد عن الشحنات الكهربائية أنها تتجاذب إذا كانت من أنواع مختلفة، وتتنافر إن كانت من نوع واحد، فمثلاً الشحنة السالبة مع الموجبة تتجاذب، والشحنة الموجبة مع الموجبة والسالبة مع السالبة تتنافر، إلى ان أثبت العلم في القرن الحاضر أن هناك مسافة يبطل عندها هذا القانون وهي جزء من ثلاثين مليون من السنتيمتر وهو يعادل ⅛ قطر أكبر ذرة، وبذلك ثبت أن ليس داخل الذرة تناقض.

يقول موريس دوكين: «ولقد سادت الذرات والحتمية طوال القرن التاسع عشر كله مجال العلم... لقد حسبنا الأعداد المنتسبة

---

(٥٩)، (٦٠) أنظر الذرة ومنافعها السلمية، ص ١٤ ــ ١٦. والمادة ضد المادة، ص ١٧.

للعناصر، وحصلنا على تفسير لخواص الغازات بإفتراض تكوينها من جسيمات دائبة الحركة تامة المرونة، ورغم وصولنا إلى تقدير قطر الذرة (١٠/٨ سم) لم نحاول بناء نموذج لها»[٦١]. ويقول في موضع آخر: «في المركز شحنة موجبة يتركز فيها مجموع الكتلة تقريباً، إنها النواة. لقد أمكن تقدير نصف قطرها من التجارب السابقة فوجد انه يبلغ ١٠/٨ سم. وعلى ذلك تكون النواة التي تتمركز فيها كل الشحنة الموجبة للذرة أصغر ١٠٠٠٠٠ مرة من الذرة. وهذا الفضاء الضخم الذي يغلف النواة يحتوي على الشحنات السالبة، تلك الالكترونات الكوكبية التي تدور حول النواة بسرعات كبيرة نوعاً ما والتي يكون عددها بحيث يجعل النواة متعادلة كهربائياً»[٦٢]. والماديون كانـوا يستندون ضمناً إلى قانون نيوتن الذي جعل من القصور الذاتي نقيضاً متصارعاً مع الجاذبية، فأخذ الماديون هذه الناحية واعتبروا أن كل شيء فيه قوة جذب وقوة طرد، وبذلك يجمع في باطنه نقيضين. ولكن قوانين نيوتن قد تعدلت بنظرية آنشتين النسبية حين أثبتت أن الجاذبية ليست قوة، والفكرة التي تقول إنّ كل جسمين ماديين يتجاذبان نوع من الخداع مخالف للحقيقة في تصوير الحركة، لأن الجاذبية لم تعد نقيض القصور لأنهما وحدة واحدة.

وكان العلماء يعتقدون أنّ الطبيعة قائمة على عنصرين هامين هما: الطاقة والمادة. واعتبروا المادة شيئاً جامداً محسوساً سموه الكتلة، واعتبروا الطاقة شيئاً نشيطاً بدون كتلة. وبذلك أصبح السكون نقيض الحركة، والمادة نقيض طاقـة. ثم أثبت العلم في العصر الحاضر وحدة الطاقة والمادة، وأنها ليست إلا طاقة مركزة وإنّ الطاقة عبارة عن مادة تسير بسرعة الضوء.

---

(٦١) المادة وضد المادة، ص ١٤.

(٦٢) نفس المصدر، ص ١٧.

وبذلك زال ماكنا نتصوره على أنه تناقض بإكتشاف نظرية آينشتين في الطاقة، والتي تقول: «الطاقة تساوي الكتلة ضرب مربع سرعة الضوء». وقد كانت المادة الخفيفة تعتبر نقيض المادة الثقيلة، والسائل يعتبر نقيض الجامد، والأبيض يعتبر نقيض الأسود، والحار نقيض البارد، وما يطفيء النار نقيض ما يذكيها، ثم جاء العلم وأثبت أن المادة تتحول من السائل إلى الجامد وبالعكس، وأن كل نوع من المادة يتحول إلى نوع ثان ولا يتطلب هذا أكثر من تعديل وترتيب عدد مكونات الذرة من الكترونات وبروتونات، وقد أمكن بالفعل تحويل ذرات بعض العناصر إلى ذرات عناصر أخرى.

يقول موريس دوكين: «ولقد كان أهم نجاح تحقق في محاولة إستكشاف النواة، هو دون شك ما قام به رزفورد عام **١٩١٩** حيث قام بأول تحويل ذري»(٦٣). وما دام العلم قد أثبت أنّ الذرة خالية من التناقض الداخلي، فلم يعد من الممكن القول بأن حركة المادة جدلية، ويكون هذا التصور الجدلي للمادة وهماً لا أساس له من الحقيقة، ولم نعد بحاجة إلى الجدلية لتفسير تحول المادة من نوع إلى آخر، لأن العلم أثبت أن تحول المادة إلى تركيبات مختلفة يتم عن طريق اندماج الذرات، ويتطلب ذلك وجود ذرتين تكون درجة تشبعهما مختلفة لتندمجا فتصبح الذرتان ذرة واحدة من نوع ثالث. ولا بد من هذا التأثير الخارجي، أي تأثير ذرة على أخرى لتتم عملية التحول. وهذا لا يتفق مع قانون الجدل الذي يقوم على أساس التحول من الداخل، ويقولون أنّ الكون مليء بالقوانين المتباينة التي تحكم كل نوع، وإن الأنواع قد اختلفت وتباعدت خصائصها وبدت غريبة بعضها عن بعض، إلى حد أن إنجلز قال في كتابه جدلية

(٦٣) نفس المصدر، ص ٧١.

الطبيعة: «إن ثمة أشعة ضوء سوداء تكون نقيضاً لأشعة الضوء البيضاء»(٦٤).

لم يعتسف ماركس القول بأن في كل شيء صراعاً داخلياً وإنّ كل شيء جدلي، ويذهب إلى بناء فلسفات على أساس غير علمي، ونسي في ذلك كله أن نقطة الإنطلاق وهي الذرة التي هي وحدة الطبيعة ليس فيها تناقض ولا صراع داخليان، وأن كل الأنواع قد تكونت نتيجة اندماج الذرات وتأثرها وتأثيرها في حركتها الدائمة، وأن ناتج هذا التأثير المتبادل هو التغاير.

وحسبنا أنّ الماديين تراجعوا في آخر رأي لهم حين قالوا: «يجب ألا يفهم هذا الأمر فهمًا مبالغاً في بساطته، إنّ الصراع بين الأضداد بمعناه الحر في المباشر يحدث بصفة رئيسية في المجتمعات الإنسانية، ولا يمكن على أي وجه أن نتحدث دائمًا عن الصراع بمعناه الحرفي بالنسبة إلى العالم العضوي، أما بالنسبة إلى الطبيعة غير العضوية فيجب أن يفهم هذا التعبير على وجه أقل حرفية. وهذا هو السبب الذي وضع من أجله «لينين» ذلك التعبير بين قوسين. أنّ هذا التمييز لازم لفهم الصراع للأضداد فهمًا سليمًا»(٦٥).

مما سبق بيانه هل يمكن القول بأن ما هو موجود في الظواهر هو متناقضات أولاً؟. وأنها في حالة صراع ثانياً؟ بهدف أن يقضي كل نقيض على نقيضه، وهل يستقيم هذا الكلام مع المنطق العلمي اليوم؟

---

(٦٤) أنظر حوار مع الشيوعيين داخل أقبية السجون، ص ١٧٦ ــ ١٧٧، ونظرية الثورة العربية الأسس، ج ١، ص ١٢٠ ــ ١٢٢.

(٦٥) أسس الماركسية اللينينية، ص ١٠٢ ــ ١٠٣، نقلاً عن مستقبل الحضارة بين العلمانية الشيوعية والإسلام، ص ٤٠.

يقول الدكتور عصمت سيف الدولة: «لقد قامت الجدلية المادية على فرضية لفظية هي: «إنّ الطبيعة جدلية». وليس معنى ذلك أنه قد ثبت ذلك علمياً، ولكنها ضرورة لتفسير حركة المادة غير المعروفة، أو لعل هذا وضع تبرير تطبيق القوانين الهيجلية على المادة. ولست أرى مبرراً للتمسك بقانون الجدل ــ القانون الرابع ــ وإرغام المادة على قبوله بعد أن فسر العلم حركة المادة ــ «لقد كان ماركس وإنجلز معذورين عندما قالا إن المادة جدلية، فقد كان الجهل بالحركة الداخلية للذرة يسمح لهما بهذا الافتراض الذي يسهل لهما تبني القوانين التي وضعها هيجل... أما أن يقول واحد فهو أمر لا يدل إلا على أنه كان نائمًا وقد آن الأوان ليستيقظ النيام ولو حتى على هدير الصواريخ في عهد الذرة...

ثم يقول: «لقد جاءنا دليل اليقظة من بلد الذرة والصواريخ، ولننظر ما يقول مؤلفو أسس الماركسية ــ اللينينية ــ ما يأتي:

١ ــ إنهم قالوا: إن المادة في عالم المرئيات وعالم غير المرئيات الذري، لا يحركها ولا يحدد مستقبلها التناقض الجدلي في ذاتها. أي أنّ المادة في العالمين غير جدلية. قالوا ذلك في الطبعة الأولى باللغة الانجليزية من كتاب ــ أسس الماركسية اللينينية التي لا تحمل تاريخ نشر، ص ٨١ ــ ٨٢، تحت عنوان الحتمية والعلم الحديث.

٢ ــ أما الطبعة الثانية من الكتاب سنة **١٩٦٣**م وما تلاها من طبعات سنة **١٩٦٤**، فقد جاء الحديث تحت نفس العنوان خلوا من العبارات التي وجدت في الطبعة الأولى أو من بديل لها في ص **٦٩ ــ ٧٠**.

وإليكم نص عبارات الطبعة الأولى عن:

(أ) عالم المرئيات (الماكروكوزم).

(ب) عالم غير المرئيات.

(أ) كان علم الطبيعة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ـ أي على عهد ماركس وإنجلز ـ المقصور على دراسة عالم المرئيات أي عالم الأجسام الكبيرة نسبياً وجزئياتها، والمؤسس بشكل رئيسي على ميكانيكا نيوتن تسوده الحتمية الميكانيكية، وكان ميزة الذي هو في الوقت ذاته عيبه، أنه يجعل من كل سبب سببا ميكانيكياً. ومثال علاقة السببية الميكانيكية حركة كرة البلياردو عند دفعها بالعصا... فقوة الإندفاع في الكرة مساوية للقوة المنقولة إليها من العصا، والقول باللاشيء في الأثر بتجاوز السبب يمثل نموذجاً للحتمية الميكانيكية.

«وترتب على هذا أننا إذا عرفنا حالة جسم أو ـ مجموعة ـ من الأجسام في أي وقت، أمكننا عن طريق قوانين الميكانيكا التقليدية (ميكانيكا نيوتن) أن نحدد مقدماً حالتها في أي وقت في المستقبل، وقد تأيد هذا المبدأ أو تأكد بدراسة الحركة والتأثير الميكانيكي المتبادل في الأجرام السماوية وكذلك في الأجسام المرئية في الأرض والجزئيات. ففي عالم المرئيات تتميز حالة الجسم المتحرك بموقعه في المكان وسرعته في وقت معين ويمكن تحديد هذه الخصائص تحديداً دقيقاً وبمجرد معرفتها نستطيع أن نحدد بدون أي لبس في أي وقت في المستقبل على أساس قوانين الميكانيكا الكلاسيكية.

(ب) «أما في العالم غير المرئي (الميكروكوزم) فنظراً للميزات الخاصة لظواهره، نجد أن حركة المادة فيه أكثر تعقيداً. ويبدو هذا على

وجه خاص من أننا نستطيع أن نحدد بأية درجة مطلوبة من الدقة، إما وضع الجسم وإما سرعته، ولكن قوانين الميكانيكا الكلاسيكية غير كافية عند تطبيقها في العالم غير المرئي، إذ لا نستطيع بها أن نحدد مقدماً كلا من موضع وسرعة جسم غير مرئي. ومع ذلك فبمعرفة قوانين الميكانيكية الكوانطية: «أي قواعد الميكانيكا الخاصة بحركة غير المرئيات»، يمكن تحديد وضعها المحتمل في أي وقت في المستقبل».

«بهاتين الفقرتين كان مؤلفو أسس الماركسية اللينينية وعددهم **٣٩** عالماً قد استبعدوا الحركة على أساس قانون التناقض الجدلي من عالم المادة، مرئية أو غير مرئية، وانتهوا إلى إنّ حركة المادة يمكن تحديدها مقدماً على وجه الدقة في عالم المرئيات طبقاً لقواعد الميكانيكا التقليدية، ويمكن تحديدها على وجه الإحتمال في عالم الذرة طبقاً لقواعد الميكانيكا الكوانطية، وبهذا وضعوا النهاية الحاسمة للإدعاء بأن المادة جدلية. ولكن هاتين الفقرتين حذفتا من الطبعة الثانية سنة **١٩٦٣** وما تلاها من طبعات. وكل ما نرجوه ألا يكون وراء الحذف قصة إضطهاد للعلماء كالتي حدثت لكبار علماء الوراثة سنة **١٩٣٢** حيث المؤتمر العام للعلماء الروس في تلك السنة:[٦٦] «إن علم الناسلات وتربية النبات يجب أن يطابق المادية الماركسية»[٦٧].

وعلى هذا رفضت تجارب مندل في الوراثة لفترة طويلة لأنها تخالف قاعدة التفسير الشامل، ولم يقتصر الأمر على مجرد الرفض بل

(٦٦) نظرية الثورة العربية الأسس، ج ١، ص ١٢٥ ـ ١٢٨.
(٦٧) الشيوعية والإنسانية، ص ٢٨٩.

وصل الأمر إلى إعدام عدد من كبار العلماء وهروب قسم آخر منهم»(٦٨).

وقد عقب الدكتور عصمت سيف الدولة في كتابه نظرية الثورة العربية الأسس على قضايا المادية، وعلى تمسك الماديين بها بقوله: «لو قبل الجدليون الماديون هذا لفقدوا التعصب لنظريتهم، والتعصب كان لازماً لخدمة أغراض ثورية تقتضي إنفعال الجماهير بها إلى أقصى حد ممكن. لذلك ركز الجدليون الماديون على النظرية عن طريق المطاعن القاتلة التي وجهوها للمثالية... وعندما يقال أن ليس ثمة غير نظريتين: المادية والمثالية، ثم تنهار المثالية فإن المادية تكون قد إنتصرت دون أن تتعرض هي ذاتها للاختبار، وهي طريقة يفسرها السباب والشتائم المجردة من الموضوعية التي يكيلها بعض الماديين لغيرهم، وأول سبة أن يتهموهم بأنهم مثاليون أي ينسبونهم إلى نظرية لا يمكن الدفاع عنها، غير أنه من الواضح أن أسلوباً مثل هذا لا يجدي، فلكي نستطيع أن نقتنع بالمادية لا يكفي أن نكفر بالمثالية بل على المادية نفسها أن تصل إلى أفكارنا عن طريق الإقناع المنطقي والعلمي»(٦٩).

بعد ان بينت ان الموجود في الكون المادي هو التزاوج، وليس التناقض كما نقلت ذلك عن العلماء أهل الاختصاص. وكيف تراجع الماركسيون في نهاية الأمر عن الإصرار على القول بأن التناقض موجود في الكون المادي في كل شيء فيه، وكيف أن هذا القانون الباطل مخالف لعلم المنطق، وللعلوم الطبيعية، بعد بيان هذا كله أبين كيف أن الماركسيون يقفون بهذا القانون الباطل عن العمل عند تطبيق الشيوعية.

---

(٦٨) راجع حول هذا الأمر كتاب العقاد الشيوعية والإنسانية، ص ٢٨٨ ـ ٢٩٣.

(٦٩) نظرية الثورة العربية الأسس، ج ١، ص ٩٥.

قانون التناقض
يقف عن العمل عند حدود الشيوعية

ذكرت سابقاً في عرض النظرية أن الماديين يقولون: إن قانون التناقض هو قانون الحياة الرئيسي، وإن التناقض سيزول بحلول الشيوعية لأنه ليس هناك ثمة تناقض في المجتمع الواحد وسوف يحل التعارض ـ الذي هو في عرفهم قانون ثانوي ـ محل القانون الرئيسي في الحياة وهو التناقض على حد زعمهم[٧٠]. هذا القانون الذي ظنوا أنه يخدمهم في نظريتهم خذلهم في هذه الناحية، وهدم النظرية من أساسها وذلك «لأن مبدأ النقيض لا يقف بتحوّل الشيء إلى مقابلة فقط. بل سيتحول الشيء ومقابله إلى جامع لهما، ثم هذا الجامع بدوره يصير إلى شيء ليتحول هو أيضاً إلى مقابلة ثم إلى جامع... وهكذا. مع أن منطق هذا المبدأ هو الاستمرار في التحول، فالماركسية تقف تترقب تحول المجتمع الرأسمالي إلى النقيض والمقابل له وهو المجتمع الشيوعي، عند هذا المجتمع ـ ولا تذكر ـ فضلاً عن أن تترقب ـ توقع إنهيار المجتمع الشيوعي وسقوطه وهدم نفسه في مجتمع مقابل له بناء على أن كل شيء يتضمن نقيض نفسه وأنّ فيه عامل الهدم لنفسه»[٧١].

ولكن الماركسيين يقفون بقانونهم عند هواهم فلا يعملونه إلا فيما قبل قيام الشيوعية ثم يبطلونه بعد أن يبلغوا مرادهم منه ويزعمون بعد ذلك أنهم علميون!

والقانون العلمي حتى يكون مقبولاً يجب أن يكون جامعاً مانعاً، أي أن يطبق على الجميع دون استثناء، وإلا فلا يسمى حينئذ قانوناً

(٧٠) أنظر عرض النظرية، الفصل الثاني، قانون التناقض.
(٧١) الفكر الإسلامي الحديث، ص ٣٥٥.

علمياً. وهذا ما حدث بالنسبة للشيوعيين حيث قالوا إن التناقض هو قانون الحياة الرئيسي، وطبقوه على المجتمعات السابقة للشيوعية، ثم نجدهم يقفون بالديالكتيك عن العمل عند الشيوعية لأنه على حد زعمهم لا توجد في المجتمع الشيوعي تناقضات.

والسؤال الذي يفرض نفسه هو: كيف يتفق هذا الزعم مع قانون الديالكتيك؟ هل سيبطل الديالكتيك عن العمل فلا تقدم ولا ازدهار؟ أم سيبقى الديالكتيك مستمراً في العمل. وعلى هذا الأساس فما هو الطور الذي سيأتي بعد الشيوعية على حسب قانون التناقض.

ثم أين العلمية المزعومة في نظريتكم، وقانون التناقض لا يشمل الشيوعية؟ كيف سمحتم لقانون التناقض بالعمل في المجتمعات السابقة على الشيوعية، وأوقفتموه عن العمل عندها؟ هل قانون التنافض على فرض صحته ملك لكم تتحكمون فيه،يعمل متى شئتم ويتوقف عن العمل متى أردتم؟.

الفَصْل الـرَّابع

قوانين المَادّة لا تنطبق على حيَاة الإنسَان

بعد أن انتهيت من مناقشة الماديين في قوانين المادة، وبينت أنهم ليسوا أول من اكتشف قانوني الترابط والحركة في الكون المادي، وأن فهم الماديين لقانوني التطور والتناقض غير سليم من وجهة النظر العلمية، حيث أثبت أن التطور لا يكون من الأدنى إلى الأعلى، ومن السيء إلى الحسن، وليس كل طور جديد أفضل من الطور القديم.

كما أثبت أن المادة لا تحتوي على النقائض الداخلية، أقول: حتى لو صحت هذه القوانين كما فهمها الماديون على الكون، فهي لا تصلح للتطبيق على حياة الإنسان لأنه كائن حي، بل حي في أعلى درجة من درجات التخصص والتعقيد في تركيبه. يقول الأستاذ وحيد الدين خان في معرض حديثه عن دين العصر الحاضر، ومناقشة أفكار الدكتور كاريل عن الإنسان: «ثالثاً: لقد تجاهل الدكتور كاريل تجاهلاً تاماً أن الإنسان مخلوق، أبرز صفاته أنه ذو إرادة. وهذه الصفة تميزه عن جميع الكائنات المادية. ونحن إذا استخلصنا نتيجة ما من دراسة شيء مادي، فإنه يحق لنا أن نعتقد أن جميع الأشياء المادية سوف تعطينا النتيجة نفسها إذا كانت في ظروف مماثلة لذلك الشيء المادي الذي أجرينا عليه الدراسة، ولكن قضية الإنسان تختلف، فالإنسان يستطيع أن يغير نفسه في أية لحظة يريد لأنه صاحب إرادة حرة.

وكما يعترف الدكتور كاريل نفسه: «هناك تفاوت عجيب بين علوم الجماد وعلوم الحياة... فعلوم الفلك والميكانيكا والطبيعة تقوم على آراء يمكن التعبير عنها بسداد وفصاحة باللغة الحسابية... وقد أنشأت هذه العلوم عالماً متناسقاً كتناسق آثار اليونان القديمة... إنها تنسج حول هذا العالم نسيجاً رائعاً من الإحصاءات والنظريات. إنها تبحث عن الحقيقة فيما وراء مملكة تمتد من الفكر الشائع إلى المعنويات غير المنطوقة التي تتكون من المعادلات الجبرية والرموز فقط... بيد أن موقف علوم الحياة يختلف عن ذلك كل الاختلاف. حتى ليبدو كأن أولئك الذين يدرسون الحياة قد ضلوا طريقهم في غاب متشابك الأشجار، أو أنهم في قلب دغل سحري لا تكف أشجاره التي لا عداد لها عن تغيير أماكنها وأحجامها. فهم يرزحون تحت عبء أكداسٍ من الحقائق التي يستطيعون أن يصفوها ولكنهم يعجزون عن تعرفها أو تحديدها في معادلات جبرية»(1).

ويمضي السيد وحيد الدين خان في تعليقه قائلاً: «ولهذا أقول: إن محاولة تقديم تفسير لعلم الإنسان بحيث ينطبق على كل إنسان ضرب من المستحيل وجري وراء السراب. والحقيقة أنه لا حل لمشكلات الإنسان، إلا بالسيطرة على إرادة الإنسان حتى يفعل الإنسان بمحض إرادته ما نريده منه.

«إن مجرد الضغط على زر معين في «محطة» الكهرباء يكفي لإنارة شوارع مدينة كاملة. لكن ليس هناك قانون واحد ينطبق على كل إنسان. فالإنسان يغير نفسه بإرادته الذاتية وليس هناك عامل خارجي يمكنه أداء هذه الوظيفة، وهذا الجانب يجب ألا يفوت الباحثين في علم الإنسان»(2).

---

(1) الإنسان ذلك المجهول، ص ١٥.

(2) الدين في مواجهة العلم، ص ٦٠ ــ ٦١.

يقول الكونت دي نوي: «عندما نلاحظ تجريبياً أن بعض الظروف المحدودة يعقبها دائمًا بعض الظاهرات المرتبطة بها ارتباط المعلول بالعلة، فإننا نعبر عن هذه الملاحظة بطريقة تمكننا، كلما وجدت الشروط نفسها، من التكهن بالوقائع كمياً أو كيفياً. مثلا كلما سقط في الفضاء على سطح الأرض حجر أو أي جسم صلد آخر فإنه يقطع مهما كان وزنه المسافة ذاتها في الثانية الأولى من سقوطه. وهذا ما يعرف بقانون سقوط الأجسام.

«إن قوانيننا العلمية هي أبداً نتيجة الإستدلال، تحكمها الحوادث التي يجب أن تخضع لها. وهي نسبية إلى الإنسان، الآلة المفكرة، المسجلة، وتعبر فقط عن نسبة أو سلسلة نسب بينه وبين العلة الخارجية»[٣].

ويقول في مكان آخر: «إن الحجر الذي نقذفه في الفضاء يحسب نفسه حراً، غير أننا نحن البشر نعلم أنه خاضع لقانون الجاذبية، ولا يمكن والحالة هذه اعتباره حراً. وكذلك الإنسان فقد يمكن أن يحسب نفسه حراً لكن شعوره بهذه الحرية ليس بحقيقي في نظر المراقب الأعمق في تفهم حقيقة الأمور، إن هو إلا مجرد انفعال ذاتي وهمي يرتكز على عجز الإنسان عن الوصول إلى أعماق الواقع الموضوعي.

«علينا أن نلاحظ أن هذا البرهان البالي يعود إلى عهدٍ كانت فيه نظرية لابلاس الحتمية لا تزال مقبولة. ونحن نعلم أن ثمة حتمية احصائية حلت محلها حوالي عام ١٩٠٠م، أصبحت فيها المصادفة وحدها المحرك الأول، وأصبحت تسلم بإمكان نظري لوجود تقلبات تستطيع مضادة القانون. فتصور إمكان عدم سقوط الحجر ممكن إذن،

(٣) مصير الإنسان، ص ٣٧ ـ ٣٨.

غير أنه في الواقع لا يحصل مطلقاً. وفوق ذلك فإنه من الواضح أن القياس في الحقل الفلسفي هو خدعة كاذبة، ولا يمكن من الوجهة المنطقية مقارنة الحالتين لأن إحداهما، وهي سقوط الحجر موحدة الإتجاه، والثانية وهي عمل الإنسان متعددة الإتجاه، وإنما نعني بذلك أن الحجر، مهما كان «تفكيره» فإننا نعلم بالإختبار ـ نحن المراقبين من الخارج ـ أنه ليس للحجر اختيار لأننا لم نر قط حجراً لا يخضع لقانون الجاذبية.

ولو أننا سلمنا جدلاً بأن الحجر يستطيع «التفكير»، فإنه يصل إلى هذه النتيجة وهي أنه يختار دائمًا السقوط على الأرض. ولا فرق بين أن نسمي هذا اختياراً أو نسميه طاعة لأن الأمر الأساسي هوْ أنه لا يختار العصيان أبداً، وليس ثمة أمامه إلا إمكان واحد، فالظاهرة موحدة الاتجاه.

«لننظر الآن إلى الإنسان. إن كل شيء بنظره ووفقاً لقياس ملاحظته يجري كما لو أنه حر في أن يتبع إما غرائزه، وهذا يعطيه كثيراً من اللذة المادية، وإما أن يحتقر هذه اللذة ويتصور غاية أخرى، وهي إقتناء ما يسمونه بالقيم الإنسانية الروحية الرفيعة. نحن نعلم أن السعي وراء هذه الغاية يفرض عراكاً ضد الإنسان الحيواني. وإن هذا العراك لا يكون في أكثر الأحيان دون عذاب، حتى ولو كان في النتيجة يؤمن أفراحاً لا تقدر، ومن المؤكد أن هاتين الطريقتين لا توجدان إلا عند الإنسان»(٤).

هذا ما قاله العلماء عن الفارق بين الإنسان وبين المادة. وإنه لا يمكن أن يخضع للقوانين التى تخضع لها المادة، لأن له قوانينه الخاصة

(٤) نفس المصدر، ص ٨٣ ـ ٨٥.

به. والكون المادي محكوم بالقوانين والسنن الربانية لا يخرج عنها إلا بمشيئة الله فلا حرية له ولا إرادة. وهنا محل الخلاف بين الإنسان والمادة، فالإنسان ذو حرية وإرادة، والكون المادي لا حرية له ولا إرادة، والمادة تتصرف تصرفاً واحداً في الظروف الواحدة، بينما الإنسان يتصرف تصرفاتٍ مختلفة في ظرف واحد.

إذن فمن الخطأ من وجهة النظر العلمية القول بأن قوانين المادة تنطبق على حياة الانسان. وكل بناء أقيم على هذا الأساس الفاسد لا يمكن أن يكون مقبولاً علمياً، لأن تطبيق قوانين المادة على حياة الإنسان فاسد من وجهة النظر العلمية للخلاف الكبير بين المادة وقوانينها، والإنسان وقوانينه.

وفي ختام هذا البحث لابد من تقرير النتائج التالية:

١ ـ المادة مخلوقة وليست خالقه لأنها حادثة، ومصيرها إلى الفناء كما أثبت ذلك بالآيات القرآنية الواضحة وأقوال العلماء، فهي بالتالي ليست أزلية أبدية.

٢ ـ المخلوق لا يستطيع أن يصنع لنفسه قوانين يسير عليها، وما دامت المادة مخلوقة، فإن الله الخالق سبحانه وتعالى هو الذي أوجد لها القوانين التي تسير عليها.

٣ ـ الخلق ناشيء عن إرادة الله سبحانه وتعالى، وهذه الإرادة سبقت وجود المادة، وعلى هذا فالعلم الإلهي سابق في الوجود على المادة، والإنسان لا يفكر في العالم المادي فقط، وإنما يصل إلى تجريدات ذهنية غير مادية. وخاصية التفكير في الإنسان ناشئة عن إرادة الله تعالى، وليست مجرد نتيجة تلقائية لانعكاس حركة المادة على المخ. والروح خلقها الله سبحانه وتعالى وهي مجهولة لا يستطيع أحد اكتشافها لأنها من أمر الله واختصاصه.

٤ ــ قوانين المادة، ولو سلمنا جدلاً بصحتها كما فهمها الماديون، فإنها لا تنطبق على الإنسان لأنه كائن ذو حرية وإرادة له قوانينه الخاصة التي سيره الله بحسبها، والكون المادي لا حرية له ولا إرادة وله قوانينه الخاصة التي سيره الله عليها.

٥ ــ من خلال مناقشة الماديين في المادة وقوانينها تبين لي أن الماديين بنوا نظريتهم الجدلية على أسس فاسدة، وهي أزلية المادة وأبديتها، وأن المادة خالقة، وأن قوانين المادة تنطبق على الانسان.

وقد بينت بطلان هذه الأسس، وعلى هذا فإن كل بناء بنوه على هذه الأسس فاسد غير صحيح من وجهة النظر العلمية لأن ما بني على الفاسد فهو فاسد. وقد أثبتت الصلة القوية بين المادية الجدلية والتفسير المادي للتاريخ من وجهة نظرهم وحسب إعترافهم، وإنهما وحدة واحدة لا تنفصل، وإذا تطرق فساد لواحدة منهما انهارت النظرية الثانية. وعلى هذا الأساس فإن التفسير المادي للتاريخ قائم على أساس فاسدٍ من الوجهة العلمية من جهة أزلية المادة وأبديتها وخالقيتها، ومن جهة فهم الماديين الخاطيء لقوانين المادة، ومن جهة إنطباق قوانين المادة على حياة الانسان.

وفي الختام أسأل الماديين: أين العلمية المزعومة في تفسيرهم المادي للتاريخ؟ وأين تفردهم بالعلمية وحصرها في نظريتهم وحرمان سائر البشر منها؟ بعد انهيار أساساتها.

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾ (٥)

(٥) المجادلة (٢).

الفَصْلُ الخَامِسُ

مُنَاقشَة أثرَ نَظرِيَّة دَارونِ على التَفسِير المَادّي للتَارِيخ

تمهيد:

أثبت من خلال عرض نظرية التفسير المادي للتاريخ الصلة القوية بينها وبين نظرية دارون، حيث اعتمد الماديون في تفسيرهم المادي لتاريخ البشرية على نظرية دارون، وكان أشد ما تأثروا به في هذه النظرية ما يلي:

أولاً ــ إرجاع عملية الخلق للطبيعة بدلاً من الله سبحانه وتعالى.

ثانياً ــ القول بأن الكائنات الحية تتبع في تطورها خطاً حتمياً ناشئاً عن ضغط البيئة المادية الخارجة عليها، دون أن يكون لخلق هذه الكائنات إرادة وقصد.

ثالثاً ــ النظرة المادية الحيوانية للانسان، والتي تنفي عنه الجوانب الروحية وتؤمن بعالم الجسد وحده، وبالواقع الذي تدركه الحواس، فقد نسبوا عملية التطور إلى عوامل طبيعية عمياء آلية جبارة واستبعدوا القدرة الالهٰية في عملية الخلق وبخاصة في خلق الانسان، ونفوا الغاية والقصد من خلقه. وقد استغلت نظرية دارون من قبل الماديين استغلالاً بشعاً في هدم عقائد الناس وأخلاقهم، فهم لا يعترفون بشيء ثابت، لأن

كل شيء في نظرهم يتطور. فالعقيدة الالهيّة تتطور، والأخلاق تتطور، والقيم تتطور، والتقاليد تتطور، وكل شيء يتطور حيث لا يوجد في نظرهم شيء ثابت، لا الجوهر ولا الصورة.

والذي يهمني في هذا البحث هو مناقشة النظرية في الأمور التالية:

أولاً ــ فكرة التطور، وهذه الفكرة لم تثبت علمياً عندهم. فهي ليست حقيقة علمية بشهادة العلماء أنفسهم لأنها لا تملك أدلة إثبات يقينية فيما يتعلق بتاريخ الانسان، وإنما هي مجرد فروض ومزاعم. والتشابه الموجود بين الحيوانات الذي خدع به دارون لا يعني النسب فيما بينها. والسؤال الذي يطرح في هذا المقام هو: هل باستطاعة العلم المادي الحديث أن يقدم أدلة يقينية قاطعة تثبت ما زعموه حول نشأة الانسان الأولى وتاريخه؟ إن ما يقولونه هو مجرد احتمال افتراضي لو لم يقولوا به لما وجدوا أمامهم إلا ما يقرره الدين من قضية الخلق الرباني[1]. وهذا ما هرب منه الماديون الملحدون من غير دليلٍ علمي، نتيجةً للظروف المحلية القاسية في أوروبا[2].

يقول سيرأرثركيث: «إن نظرية النشوء والارتقاء غير ثابتة علمياً، ولا سبيل إلى إثباتها بالبرهان، ونحن لا نؤمن بها إلا لأن الخيار الوحيد بعد ذلك هو الايمان بالخلق الخاص المباشر وهذا ما لا يمكن التفكير فيه»[3]. ويقول سير جيمس جنز: «إن في عقولنا تعصباً يرجح التفسير المادي للحقائق»[4].

---

(١) أنظر صراع مع الملاحدة، ص ٢٩٧.
(٢) أنظر التمهيد: الظروف التي مهدت لانتشار التفكير المادي في أوروبا.
(٣) عن الاسلام يتحدى، ص ٤٠.
(٤) عن نفس المصدر، ص ٣٩.

ثانياً ــ كون التطور ذاتياً: وهذه قضية ساقطة من أساسها بالأدلة الايمانية التي أثبتت حدوث المادة، وأنها مخلوقة لله سبحانه وتعالى. والمخلوق لا يستطيع أن يتطور دون إرادة من خلقه[٥].

ثالثاً ــ كون الانسان بالذات نتيجة سلسلة متطورة عن الحيوانات، قضية مرفوضة من أساسها وذلك لأن الله سبحانه وتعالى أبان لنا خلق الانسان بالذات، وأنه قبضة من طين، ونفخة من روح الله. فالانسان بأمر الله وإرادته خلق وكان لخلقه مقصداً عظيمًا، ليكون خليفةً في الأرض يقيم شرع الله، ويحقق العبودية الكاملة لله سبحانه وتعالى. قال الله تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾[٦]

وهذه القضية بالنسبة للانسان فقط تتنافى مع نظرية التطور نهائياً. ولما كانت فكرة التطور بالذات أساساً لم تجد دليلاً علمياً عند القائلين بها، فادعاؤها بالنسبة للانسان ادعاء ساقط علمياً ولا يقوى بحالٍ من الأحوال على معارضة ما جاء في النصوص القرآنية عن خلق الانسان خلقاً مباشراً.

قال الله تعالى:

﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾[٧]

---

(٥) أنظر فصل مناقشة أزلية المادة وأبديتها.

(٦) سورة الذاريات ــ ٥٦.

(٧) سورة السجدة آية ٧ ــ ٩.

رابعاً ـ أضف إلى ما سبق كله البحوث العلمية التي ذكرها العلماء من أهل الاختصاص في علوم الحياة، والتي دلت على تفرد الانسان في كثيرٍ من ظواهر الخلق والصفات عن الحيوانات، والتي تهدم أهم قضيتين في النظرية وهما: القول بمادية الانسان، أي حصره بنطاق ما تدركه الحواس فهو لا يتعدى حدود الكون المادي، لأنه لا يوجد في حسهم غير العالم المادي فحسب وما عداه وهم وهراء. ثم حصره بحدود مطالب الحيوان في الأكل والشرب والجنس، وهذا ما أعنيه حين أقول حيوانية الانسان التي استمدها ماركس من نظرية دارون. وأترك مناقشة هاتين القضيتين للعلماء المختصين في هذا الموضوع.

ويبدأ المناقشة جوليان هكسلي وهو عالم دارويني ملحد، لا يعترف بالله سبحانه وتعالى، ويرجع عملية التطور إلى عوامل طبيعية عمياء. يقول هكسلي في كتابه الانسان في العالم الحديث:

«وبعد نظرية دارون لم يعد الانسان يستطيع تجنب اعتبار نفسه حيواناً، ولكنه بدأ يرى نفسه حيواناً غريباً جداً، وفي حالاتٍ كثيرةٍ لا مثيل له، وتحليل تفرد الانسان من الناحية البيولوجية لم يبلغ تمامه بعد، وما هذا المقال إلا محاولةً لعرض مركزه الحالي.

«وأولى خواص الانسان الفذة وأعظمها وضوحاً قدرته على التفكير التصويري، ولقد كان لهذه الخاصة الأساسية في الانسان نتائج كثيرة وكان أهمها نمو التقاليد المتزايدة... ومن أهم نتائج تزايد التقاليد أو إذا شئت من أهم مظاهره الحقيقية ما يقوم به الانسان من تحسين فيما لديه من عدد وآلات... وإن التقاليد والعدد لهي الخواص التي هيأت للانسان مركز السيادة بين سائر الكائنات الحية. وهذه

السيادة البيولوجية ـ في الوقت الحاضر ـ خاصية أخرى من خواص الانسان الفذة.

وهكذا يضع علم الحياة الانسان في مركزٍ مماثل لما أنعم عليه كسيد المخلوقات كما تقول الأديان، ومع ذلك هناك فروق وفروق هامة بعض الشيء بالنسبة لنظريتنا العامة، فمن وجهة النظر البيولوجية لم تخلق الحيوانات الأخرى لخدمة الانسان، ولكن الانسان تطور بصورة مكنته من التخلص من بعض الأنواع المنافسة، ومن استعباد أنواع أخرى بالاستئناس، ومن تعديل الأحوال الطبيعية والبيولوجية في معظم أجزاء اليابس من الكرة الأرضية، ولم تكن وجهة النظر الدينية صحيحة في تفاصيلها أو في كثيرٍ مما تضمنته، ولكن كان لها أساس جيولوجي متين[8].

«. . . وللانسان خاصية أخرى بيولوجية، وهي تفرد تاريخ تطوره. وهذه الخواص التي امتاز بها الانسان والتي يمكن تسميتها نفسية أكثر منها بيولوجية تنشأ من خاصية أو أكثر من الخواص الثلاث الآتية:

«الأولى قدرته على التفكير الخاص والعام. الثانية التوحيد النسبي لعملياته العقلية بعكس انقسام العقل والسلوك عند الحيوان. الثالثة وجود الوحدات الاجتماعية مثل القبيلة، والأمة، والحزب، والعقيدة، وتمسك كل منها بتقاليدها وثقافتها. «. . . وقد يكون لتفرد

(٨) يعلق شيخنا الأستاذ محمد قطب على هذا المعنى بقوله: «لا يطيق جوليان وهو ملحد ـ أن يسلم تسليمًا كاملاً بأن وجهة النظر الدينية صحيحة. ويحرص على القول بأنها كانت تشتمل على أخطاء. ومع ذلك فقد اضطر كارهاً أن يقول إنها كانت تستند إلى أساس جيولوجي متين أي إنها صحيحة. وقد حرصنا على أي حال ـ على أن ننقل رأيه هنا كاملاً دون أن نحذف منه ما لا نوافقه عليه. وعلى الرغم من التوائاته فهو واضح الدلالة».
معركة التقاليد، ص ٦١.

الانسان ثانوية اخرى لم تستغل بعد... وإن التجارب كتلك التي أجراها «بين بريل» في الحدس دون استخدام الحواس وتلك التي قام بها «جلبرت مراي» في نقل الأفكار وكثرة الكتابة من وقتٍ لآخر عن قراءة الأفكار والتنبؤ بالمستقبل، لتوحي بأن لبعض الناس القدرة على المعرفة عن غير الطريق العادي للإدراك عن طرق الحواس.

«ثم إن التخاطب والألعاب المنظمة والتعليم والعمل بأجر وفلاحة البساتين والمسرح والضمير والواجب والخطيئة والذلة والرذيلة والندم كلها نتائج ثانوية «لخصائصه الأصلية». والصعوبة في الواقع هي إيجاد نشاط للانسان لا يكون فريداً بل إن الصفات الأساسية البيولوجية مثل الأكل والنوم والاختلاط الجنسي زينها الانسان بكل المحسنات الفريدة».

«وبذلك قد يكون الانسان فريداً في أحواله أكثر مما نظن الآن»[9].

ويقول جون لويس: «وإذا كان الاعتراف بحقيقة تطور العضويات الشديدة التعقيد مثل الثدييات، من أبسط أشكال وحيدات الخلية قد تطلب انقلاباً في وعي الناس، فإن حقيقة ارتقاء الانسان نفسه وهو الكائن المفكر القادر على اختراع أدوات معقدة، وإبداع نتاجات فنية وحضارات كاملة. الكائن القادر على القيام بالمآثر الأخلاقية، والدناءات الأخلاقية قد تطلب إعادة نظر في جميع تصوراتنا على نطاق واسع لا مجال لمقارنته»[10]. ويقول في موضع آخر:

---

(٩) مقتطفات من كتاب الانسان في العالم الحديث: «تأليف جوليان هكسلي» ترجمة حسن خطاب، ومراجعة الدكتور عبد الحليم منتصر، من ص ١ ــ ٣٦ نقلاً عن كتابي معركة التقاليد، ص ٥٩ ــ ٦٣. ودراسات في النفس الانسانية، ص ٣٤ ــ ٣٨.

(١٠) الانسان والارتقاء، ص ١٠.

«ليس للحيوانات تاريخ ذاتي» إذ أن بداية ونهاية نشاط كل واحد منها ينحصران في حدود حياته الفردية. فالحيوانات لا تغتني بمعارف الحياة الماضية، ولا تستشف المستقبل، كما أنها لا تجمع المعارف التكنولوجية ولا تطرح على نفسها السؤال عن معنى الحياة»[١١].

ويقول جوردن البورت: «فالانسان يتكلم ويضحك ويمل وينمي ثقافته ويتعبد ويدرس علوم الدين ولديه معرفة سابقة في الموت، ويكافح في سبيل تحسين شخصيته ولا توجد مثل هذه العمليات ونواتجها بوضوح في الكائنات الغريزية. ولهذا السبب ينبغي أن نكون على حذرٍ حين نحاول تعميم فروض العلوم الطبيعية والبيولوجية وطرقها ومفاهيمها على الانسان. وينبغي أن نرفض بوجه خاص معنى العلوم الأخرى في عدم الاهتمام بمشكلة الفردية»[١٢].
ويقول كونت دي نوي: «إن نكران حرية الارادة ونكران التبعية الخلقية واعتبار الانسان مجرد وحدة فيزيائية كيماوية وجزءاً من مادة حية قل أن تتميز عن الحيوانات، كل هذا يؤدي حتمًا إلى موت الانسان الخلقي وخنق كل روحانية وكل أمل فيه، ويؤدي إلى ذلك الشعور الرهيب الموهن بالبطلان الكامل.

والواقع أن ما يميز الانسان كإنسان هو وجود الفكرة المجردة والخلقية الروحية فيه، وهو إن فخر فإنما يفخر بها. وحقيقة وجودها لا تقل عن حقيقة وجود الجسد، وهي التي تعطي الجسد قيمةً لا يحصل عليها بدونها»[١٣]. ويمضي قائلاً: «وهنا تظهر بوضوح تلك الهوة التي تجعل الانتقال التدريجي من ذكاء الحيوانات إلى ذكاء الانسان

(١١) نفس المصدر، ص ١٤٤ ــ ١٤٥.
(١٢) نمو الشخصية، ص ٢٩.
(١٣) مصير الانسان، ص ١٦ ــ ١٧.

بعيد الاحتمال. فالانسان قادر على أن يخلق عالماً وهمياً يستمد عناصره من ذاته لا من محيطه ومن اختباره...».

«وهو يبتكر وراء الحوادث التي تدركها حواسه، ووراء العالم الحسي عالماً فكرياً، يصبح ضرورياً لتفكيره ولتفسير اختباره وللوصول أخيراً إلى السيطرة على العالم الأول...».

«وهذا هو الحقل الانساني الصافي، حقل الفكر المجردة والأخلاق، والفكر الروحية والفكر الجمالية. وهذا الانسان الذي أراده الله والذي خلع عليه قسمًا من التبعة في تقدم التطور حين وهبه الوجدان والحرية ليتمتع ضمن وسائله بالقدرة على تقليد الخالق بإبداعه عالماً وهمياً، محرماً على الحيوانات يكرس له وحده بعدْ إبداعه مصلحته ومجهوده...»[١٤].

ويقول الفيلسوف رينيه دوبو: «وأكثر السلوك في الحيوانات بما فيها الحيوانات العليا، غريزي لا صلة له بالعقل والحجى. ومن النادر ـ إن لم يكن من المستحيل ـ أن تجد هذا السلوك متوجهاً نحو المستقبل البعيد الذي يحاول الحيوان التكهن به والسعي لإيجاده، وبالمقابل فإن ردود فعل الانسان لأكثر الاشارات المحيطية تتأثر بعمق بتكهناته عن المستقبل، سواءً كانت هذه التكهنات مبنية على الخوف، أو الحقائق المعلومة، أو الرغبة في الانجاز، أو فقط على الآمال الحالمة. والحقيقة إن ميل الانسان لتخيل الأشياء التي لم توجد بعد أو التي لن تقع بدون إرادة وعملٍ حرٍ يقوم به، هي الناحية البارزة التي تميزه بوضوح تام عن الحيوان. وهي التي تسهم كثيراً في تعقيد بنيته النفسية التي أعيت الأطباء.

---

(١٤) نفس المصدر، مقتطفات من ص ٢٣٤ ـ ٢٣٦.

«ومن أبرز النواحي المميزة للانسان هي ميله للسمو على الدوافع البيولوجية البسيطة، فعنده الاستعداد لتحويل العمليات العادية في وجوده إلى أعمال وأعراض ومطامح ليس لها ضرورات بيولوجية، وربما تكون متعارضة مع استمرار حياته. أكثر من ذلك أن الانسان يميل ليرمز لكل شيء يحدث له، ثم يتفاعل مع هذه الرموز كما لو أنها إثارات محيطية حقيقية، فرد فعل شخص معين على عامل محيطي مشروط فيزيولوجياً ونفسياً بتجاربه الذاتية الماضية»[١٥].

ويقول في موضعٍ آخر: «ويتمتع الانسان بقدرٍ كبيرٍ من الحرية في الاختيار والتقرير، فهو المتميز في كونه قادراً على الاختيار والتمحيص والتنظيم .. ومن هذه يأتي الابداع»[١٦].

ويقول في موضع آخر يهدم فيه الحتمية الداروينية: «ومن المعروف أن كل مظاهر الحياة مشروطة بالوراثة وتجارب الماضي وعوامل البيئة، إلا أنه من المعروف أيضاً أن الارادة الحرة تمكن البشر من السمو على ضوابط (التحديدية) البيولوجية، فالقدرة على الاختيار بين الأفكار وأساليب الأفعال المختلفة يمكن أن تكون أهم صفات الإنسان، لقد كانت في الغالب ــ ولا تزال ــ محدداً هاماً في تطور الانسان. وأكثر ما يستنكر في علوم الحياة كما تدرس الآن هي أنها تجاهلت متعمدة أهم ظاهرة في حياة الانسان... ألا وهي الحرية»[١٧].

ويقول في موضع آخر: «حرية الانسان تعني ــ من ضمن ما تعنيه ــ قدرته على التعبير عن إمكانياته الكامنة، وقدرته على

---

(١٥) إنسانية الانسان، ص ١٣٨ ــ ١٣٩.

(١٦) نفس المصدر، ص ١٤٠.

(١٧) نفس المصدر، ص ١٦٤.

الاختيـار، واستعداده لقبـول المسؤوليات. كـل هذه وأمثـالها من النشاطات التي تضم الاختيار والتقرير لتسمو على التحديدية الجبرية التي تَسِـمُ عمليات الآلة»[١٨].

ويستمر دوبو في اعترافاته وهو العالم الذي يدرس الانسان من خلال واقعه العضوي الذي تدركه الحواس: «ويدرك البشر العالم بحواسهم، ومن التناقض أن كثيراً ما يقدرونه في العالم من حولهم لا يعتمد على هذا الادراك الحسي. والواقع أن كثيراً من بني الانسان ضحوا بوجودهم المادي على مذبح قيمٍ غير ماديةٍ تدركها الروح ولا يحسبها جسم اللحم والدم»[١٩].

يقول دوبو كل هذا ولا يستطيع له تعليلاً مادياً... وهكذا تتهاوى الداروينية ونظرياتها المادية للانسان بين يديه دون أن يستطيع إنقاذها[٢٠].

وهكذا ينسف هؤلاء العلماء أهم أسس الداروينية وهي القول بحيوانية الانسان وماديته، حيث أثبتوا أن الانسان كائن متفرد لا مثيل له بين المخلوقات ويتميز بكثير من الخصائص التي لا توجد الا عنده وحـده. وهو غـير محصور في عـالم ما تـدركـه الحـواس في عـالم المادة. بل إنه يستطيع أن يصل إلى الأفكار المجردة وأن يضحي بوجوده المادي في سبيل القيم الروحية التي لا يحسها جسم اللحم والدم[٤]. ومن هنا يتبين لي أن القول بتفرد الانسان ليس وقفاً على

---

(١٨) نفس المصدر، ص ١٦٩.

(١٩) نفس المصدر، ص ٢٦٢.

(٢٠) نفس المصدر، ص ١٦ من مقدمة المترجم.

(٤) لماذا تدرس هذه النظرية التي أثبت العلم بطلانها في مدارس وجامعات الدول الاسلامية على أنها حقيقة علمية؟

المؤمنين بالله ورسله ودينه بل إن العلم الحديث قد اهتدى على يد العلماء المنصفين وحتى الملحدين إلى أن النظرة الداروينية للإنسان التي أفسدت عقول الكثيرين من أبناء أوروبا وعالمنا الاسلامي، كما أفسدت أخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم لم تكن صواباً حتى لو كانت تستند إلى بعض الحقائق العلمية. ذلك لأن الحقائق العلمية البحتة شيء وطريقة فهمها أو طريقة توجيهها والتأثر بها شيء آخر قد يكون منفصلاً تمام الانفصال.

يقول شيخنا الأستاذ محمد قطب في معرض تعليقه على جوليان هكسلي: «إن تطبيق نظرية النشوء والارتقاء هو ذاته يوحي بأن يكون للانسان مقاييس خاصة غير مقياس الحيوان. ففي عالم الحيوان تجد مقاييس جديدة للحيوان كلما ارتقى في سلم التطور. فالحيوان الذي له عينان لا ينطبق عليه ما كان ينطبق على حيوانٍ سابقٍ ليست له عينان. والحيوان الذي يرضع صغاره له في حياته مقاييس غير مقاييس الطيور التي تبيض وتحتضن البيض، أو الحشرات التي تبيض وتترك البيض للظروف... أفلا يكون الانسان الذي ارتقى عن الحيوان في كذا وكذا مقاييس خاصة غير مقاييس الحيوان... حتى (جوليان هكسلي) الذي لا يؤمن بالله ولا يؤمن بأن لله قصداً في خلق الكون وخلق الانسان، ولا يؤمن (بروحانية الانسان)، ولم يورد ذكر الروحانية قط في حديثه... حتى جوليان هذا يقول إن الانسان إنسان، وإنه متفرد في إنسانيته، الحمد لله والشكر والثناء»[٢١].

وعلى هذا الأساس وبناءً على النصوص السابقة التي نقلتها عن العلماء وتوسعت في نقلها لتكون عند القاريء حصيلة كبيرة من أقوال العلماء الذين هدموا أهم ركنين في الداروينية، وهما حيوانية الانسان

---

(٢١) معركة التقاليد، ص ٦٥.

أي حصره في حدود مطالب الجسد من أكل وشرب وجنس، وماديته أي حصره بنطاق ما تدركه حواسه. أقول أن الانسان كائن منفرد له قوانينه الخاصة التي سيره الله عليها وميزه عن سائر المخلوقات تكريماً له لتحقيق مقصد عظيم وهو تحقيق العبودية الكاملة لله في الأرض.

وما دام أن له قوانينه الخاصة التي تحكم حياته وأنه كائن متفرد فإن ما ينطبق على الحيوانات وما يجري في عالمها لا ينطبق على الانسان، وكل بناء قام على هذا الأساس الباطل فهو باطل. وكل نظرية انطلقت من مفهوم حيوانية الانسان ــ بالمعنى الذي أراده دارون، وطبقه ماركس ــ وماديته باطلة لأن ما بني على الباطل فهو باطل، حيث أبطل العلماء النظرة المادية الحيوانية للإنسان، والمستمدة من نظرية دارون، وأثبتوا أنه كائن متمرد يتميز بكثير من الخصائص عن عالم الحيوان. فالانسان كائن متفرد في الخلق لا يشبهه شيء في تفرده ولا يشاركه في التفرد كائن من المخلوقات.

هو قبضة من طين ونفخة من روح الله، وقد أعطاه الله سبحانه وتعالى كياناً متفرداً عن بقية المخلوقات في أمرين عظيمين:

الأمر الأول: أنه بالنفخة الالهيّة التي تشتمل عليها روحه قد صار مدركاً لنفسه وما حوله. والأمر الثاني: أنه بهذه النفخة ذاتها قد صار فريداً لما يقوم به من أعمال وتصرفات. وهذان العنصران. الادراك والارادة المستمدان من النفخة الالهيّة هما في الانسان محدودان بحدود. وهذه الحدود قد قدرها الله سبحانه وتعالى بما يناسب المهمة التي خلق لها الانسان وهي الخلافة في الأرض.

بهاتين الصفتين تختلف كل أعمال الانسان عن أعمال

المخلوقات الأخرى، في أنها أعمال تصدر عن وعي من الانسان وهو يدرك غاياتها وأهدافها وأنها تصدر عن إرادة يريدها ويقصدها[٢٢].

ثم إن نسبة الخلق إلى الطبيعة ــ التي قال بها دارون ــ بدلاً من الله سبحانه وتعالى جاءت نتيجةً لظروفٍ محلية في أوروبا ــ شرحناها سابقاً في التمهيد الذي عقدناه لبيان الظروف التي مهدت لانتشار التفكير المادي في أوروبا ــ وقلنا أنها بالإضافة إلى الظروف المحلية في أوروبا جاءت نتيجة لحماقة الكنيسة وتصرفاتها السيئة التي كرَّهت الناس بالدين، أضف إلى ذلك أن أوروبا لم تعرف الدين الصحيح المُنزَّل من عند الله، إنما عرفت ديناً محرفاً، وقد صمت آذانها عن البشير النذير والخير الكبير القادم إليها من بلاد المسلمين فصدت دعوة الله وحرمت أبناءها من الايمان والهداية على الطريقة القويمة. وارتدت القهقرى إلى الوثنية اليونانية والرومانية، تنهل من منابعها الملوثة، لتروي ظمأً دفيناً في أعماق كثير من أبنائها، ولكن الداء سرى في نفوسهم فما عاد يقر لهم قرار ولم يعرفوا طمأنينة أو استقرار نتيجةً لبعدهم عن دين الله الصحيح.

بعد هذا كله أقول: إن التفسير المادي للتاريخ إنطلق في تفسيره لتاريخ البشرية من هذه النظرة المادية الحيوانية المستمدة من نظرية دارون. إنطلق من هذا الأساس الفاسد، ويزعم أصحابه أنه التفسير العلمي الصحيح لأول مرة في تاريخ البشرية. !!.

وعلى هذا الأساس فكل بناءٍ أسسوه على هذا المفهوم المادي الحيواني باطل من وجهة النظر العلمية، حيث ثبت من خلال البحث أن فكرة التطور لم يقم عليها دليل علمي للآن، وكل ما قالوه هو مجرد فروض واحتمالات. ثم إن الانسان خلق بإرادة الله تعالى. كما أن

---

(٢٢) أنظر دراسات في النفس الانسانية، ص٢١٣ ــ ٢١٤.

فكرة التطور الذاتي باطلة من وجهة النظر العلمية، حيث أثبت العلماء أن المادة مخلوقة من مخلوقات الله ومصيرها إلى الفناء. كما أثبت العلماء أيضاً أن الانسان كائن متفرد لا يشبهه شيء في خلقه، ولا في تركيبه. وهو غير محصور في العالم المادي وإنما يتعداه إلى عالِم آخر هو عالم الغيب الذي هو من اختصاص الوحي. كما أن له قوانين ثابتة سيره الله عليها، فما ينطبق على الانسان لا ينطبق على الحيوان، وذلك لأن الانسان كائن متفرد من بين سائر المخلوقات الربانية.

والسؤال الذي يرد على الماديين في هذا المقام هو: أين العلمية المزعومة التي احتكرتموها لأنفسكم وحرمتم منها غيركم حين زعمتم أن تفسيركم المادي للتاريخ هو النظرية العلمية الوحيدة التي تتفق وتعاليم العلوم، بعد أن هدمت هذه العلوم الأساس الفاسد الذي انطلقتم منه وهو الاعتماد على نظرية دارون في تفسيركم المادي للانسان وتاريخه، وحين طبقتم قوانين الحيوانات على الانسان المكرم من الله سبحانه وتعالى وحصرتموه في نطاق ما تدركه الحواس في العالم المادي فقط؟

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾﴾[23]

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾[24]

﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾[25]

---

(٢٣) سورة الجاثية، ٧ ــ ٨.

(٢٤) النحل، ٨٣.

(٢٥) النحل، ٢٥.

الفصل السادس

مُناقشة مَراحِل التطوّر في التاريخ البشَري وحَتميّاته

تمهيد:

من خلال عرضي لأدلة الماديين في تفسيرهم المادي للتاريخ، في فصل مراحل التطور في التاريخ البشري وحتمياته، وجدتهم يعتبرون أن تاريخ الإنسان يبدأ من وقت بحثه عن الطعام والشراب، لأن الشرط الأساسي للتاريخ بكامله هو إنتاج الحاجات المادية الضرورية كالمأكل، والمشرب، والملبس، والمسكن.

وهذه الحاجات الضرورية لابد من إنتاجها، ولابد لإنتاجها من أدوات للانتاج، والأفراد يلعبون الدور الرئيسي في الإنتاج، لأن العمل هو أساس الحياة البشرية، وهو مصدر كل ثروة وهو الذي خلق[1] الإنسان على حد تعبير إنجلز.

ووسائل الإنتاج هي القوة الكبرى التي تصنع تاريخ الناس وتطورهم وتنظمهم، لأن أساس العلاقات بين الناس قائم على ملكيتها، لأنها إن كانت مملوكة للمجتمع يترتب عليها قيام علاقة

---

(١) كثيراً ما يستعمل هذا اللفظ بمعنى الخلق الذي هو من خصائص الله سبحانه وتعالى، فلا يجوز إطلاق الخلق إلا على الله ولو كان ذلك على سبيل المجاز، ولكن إنجلز يستعمله على سبيل الحقيقة لأنه لا يعترف بأن الخالق هو الله وحده.

عادلة ومتوازنة بين الأفراد على أساس المساعدة والتعاون، وإن كانت مملوكة لبعض الأفراد، أي ملكية خاصة يترتب عليها الظلم والإستغلال، وتظهر حتمًا علاقة السيد بالمسود. وعلاقات الإنتاج توجد بصورة لا ترتبط بإرادة الناس لأنها تنبعث من تلقاء نفسها، والناس لا يفكرون إلا في مصالحهم اليومية، فهم لا يدركون النتائج الاجتماعية التي يجب أن تؤدي إليها هذه التحسينات، لأن أسلوب الإنتاج هو المحدد لجميع جوانب الحياة الأخرى، وهو شرط لوجودها لأنها نابعة منه. وعندما تتغير قوى الإنتاج يغير الناس نوع الانتاج، وعند تغيير نوع الإنتاج يغيرون علاقاتهم الإجتماعية، وينتجون المباديء والأفكار التي تتطابق مع علاقات الانتاج الجديدة. والدين والقيم والأفكار وجميع الظواهر الاجتماعية متطورة لارتباطها باسلوب الانتاج، فهي تتغير بتغيره وتتطور بتطوره.

وقبل أن أناقش القضية الأولى التي انطلقوا منها في تفسيرهم المادي للتاريخ، وهي: أن الإنسان منذ وجد وهو يبحث عن الطعام والشراب، وأن الوضع الاقتصادي هو القوة الكبرى التي تصنع تاريخ الانسان. أريد أن أبين قيمة المستند الذي استندوا إليه من وجهة النظر العلمية.

قيمة الوثيقة
التي يتمسك بها الماديون في تاريخ الإنسان
من وجهة النظر العلمية:

إن التفسير العلمي لأي ظاهرة حتى يصل إلى درجة اليقين القطعي، لابد أن يبرهن على بطلان ما سواه من تفاسير، وأن ينفي إمكان أي تفسير آخر للظاهرة موضوع البحث. فما لم يقم الدليل الغلمي على ذلك لا يصل التفسير المفترض إلى درجة اليقين العلمي

ولا يوجد مبرر لقبوله، دون سواه من الافتراضات. وعلى هذا الأساس نعرض التفسير المادي للتاريخ على شريحة البحث.

فأقول: ما القيمة العلمية للوثيقة التي يتمسك بها الماديون، والتي تتمثل في تاريخ الانسان القديم، والتي يلحون على أن احكامهم التي يقيمونها على أساس هذه الوثيقة. أحكام قطعية وحتمية، ولابد من تحقيق مقتضياتها على سير المجتمع الانساني كله على الرغم من اعترافهم بأنه لا يمكن الاستناد إليها؟

يقول إنجلز: «إن الحقائق الأبدية تعاني مأزقاً أشد حراجةً من ذلك في المجموعة الثالثة من العلوم وهي المجموعة التاريخية... وهكذا فإن معرفتنا في مجال التاريخ الانساني لأشد تخلفاً أيضاً منها في ميدان علم الحياة... وبالتالي فإن المعرفة هنا نسبية جوهرياً. وذلك بقدر ما تقتصر على استقصاء الروابط الداخلية والعواقب الخاصة، ببعض أشكال المجتمع والدولة التي لا توجد إلا في عصر معين، وبين شعوب معينة. وهي إنتقالية بفعل طبيعتها بالذات وهكذا فإن كل امريء ينطلق هنا ليتصيد حقائق أخيرة ونهائية، حقائق صريحة ثابتة بصورة مطلقة لن يؤوب إلا بصيد قليل»[٢].

والباحث التاريخي والباحث الفيزيائي على الرغم من إلتقائهما عند نقطة واحدة، وهي أن كلاً منهما يتناول مجموعة من الظواهر... ظواهر المجتمع البشري كالدولة والأفكار والملكية، وظواهر الكون كالحرارة والصوت والنور، فهما يختلفان في موقفهما العلمي من تلك الظواهر موضوع الدرس، ويعود الخلاف إلى ثلاثة أسباب:

السبب الأول: إن المادة تتصرف تصرفاً واحداً في الظرف

---

(٢) آنتي دوهرنغ، ص ١٠٩.

الواحد، أي إذا اتحدت الظروف إتحد السلوك. بينما الإنسان يتصرف تصرفات مختلفة في ظرف واحد، أي إذا اتحدت الظروف لا يتحد فيها السلوك الإنساني.

السبب الثاني: إن الباحث التاريخي لا يستطيع أن يتبين الظواهر الاجتماعية التاريخية بصورة مباشرة، بل هو مضطر، إلى تكوين فكرة عنها تعتمد على النقل والرواية، بخلاف العالم الطبيعي الذي يدرس الظواهر الفيزيائية في مختبره الخاص. وعلى سبيل المثال فإن إنجلز في كتابه أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة ـ بصفته باحثاً تاريخياً، حاول تفسير الظواهر الاجتماعية علمياً ـ قد إعتمد على روايات ومزاعم المؤرخ الأميركي مورغان.

والسبب الثالث: هو نوع الدليل الذي يستخدمه كلاً منهما. فالباحث التاريخي حين يحصل على مجموعة من الظواهر والأحداث التاريخية، لا يملك تجاهها تلك الإمكانات التي يملكها العالم الفيزيائي تجاه الذرة وظواهرهامثلا. فهو يستطيع أن يجري تجاربه المختلفة على المادة التي يعالجها، ويستبعد منها ما يشاء، ويضم إليها ما يشاء بخلاف الباحث التاريخي، فهو مضطر لأخذ الظواهر والأحداث التايخية كما هي. ولنمثل بالحرارة بصفتها ظاهرة طبيعية، وبالدولة بصفتها ظاهرة تاريخية. فالباحث الطبيعي لكي يثبت صحة أن الحركة هي سبب الحرارة إذا أدرك إقترانهما في حالات عديدة، يقوم بعدة تجارب يحاول في كل واحدة منها أن يبعد شيئا من الأشياء التي تقترن بالحركة ليتأكد أن الحرارة توجد بدونه أو انه ليس سبباً لها. أو يقوم بتجربة أخرى وهي فصل الحركة عن الحرارة ليرى هل يمكن أن توجد حرارة بدون حركة، فإذا كشفت التجربة أن الحرارة توجد متى ما وجدت الحركة

مهما كانت الظروف والأحداث الأخرى، وأنها تختفي في الحالات التي لا توجد فيها حركة ثبت علمياً أن الحركة هي سبب الحرارة.

أما الباحث التاريخي حين يتناول الدولة بصفتها ظاهرة تاريخية في حياة الانسان، فهو قد يفترض أنها نتاج مصلحة اقتصادية لفئة معينة من المجتمع، ولكنه لا يستطيع أن يبطل الافتراضات الأخرى بالتجربة. فلا يستطيع أن يبرهن تجريبياً على أن الدولة ليست نتاجاً، كنزعة سياسية في نفس الانسان، لأن غاية ما يتاح لهذاالباحث أن يضع إصبعه على عدد من الأحداث التاريخية التي إقترن فيها ظهور الدولة بمصلحة اقصادية، ويحشد عدداً من الأمثلة التي وجد فيها الدولة والمصلحة الاقتصادية معاً. وتسمى هذه الطريقة في المنهج التجريبي بطريقة التعداد البسيط.

يقول الأستاذ محمد باقر الصدر: «ومن الواضح أن طريقة التعداد البسيط هذه لا تبرهن علمياً على أن المصلحة الاقتصادية الطبقية هي السبب الأساسي الوحيد لظهور الدولة، إذ من الجائز أن يكون للعوامل الأخرى أثرها الخاص في تكوين الدولة.

«وحيث أن الباحث لا يستطيع أن يغير الواقع التاريخي ـ كما يغير الفيزيائي الظواهر الطبيعية بتجاربه ـ فهو لا يتمكن من إفراز وعزل سائر العوامل الأخرى عن واقع المجتمع ليدرس نتيجة هذا العزل، ويتبين ما إذا كانت الدولة ـ كظاهرة إجتماعية ـ ستزول بعزل تلك العوامل أو لا.

وعلى هذا الأساس نعرف: أن الماركسية لم تكن تملك حين وضعت مفهومها الخاص عن التاريخ، سنداً علمياً لها سوى الملاحظة التي رأتها الماركسية كافية للتدليل على وجهة نظرها المعينة إلى التاريخ. وأكثر من هذا أنها زعمت أن الملاحظة المحدودة في نطاق تاريخي ضيق

تكفي وحدها لاستكشاف قوانين التاريخ كلها واليقين العلمي بها»[٣].

ولكن إنجلز يتجاهل هذه الحقيقة فهو يقول مثلاً: «ولكن إذا كانت دراسة هذه الأسباب المحركة للتاريخ في جميع المراحل السابقة غير ممكنة تقريبا لأن العلاقات بين هذه الأسباب ونتائجها كانت مشوشة ومستورة، فإن عصرنا قد يبسط هذه العلاقات، حتى إن حل اللغز أصبح ممكناً في آخر الأمر. ومنذ قيام الصناعة الكبيرة أي على الأقل منذ الصلح الأوروبي عام ١٨١٥م، لم يكن خافياً على أحد في انجلترا أن مركز الثقل في كامل النضال السياسي في هذه البلاد، كان السعي إلى السيطرة من جانب الطبقتين: الأرستقراطية من جهة والبرجوازية من جهة أخرى»[٤].

ويرتب على هذا أن ملاحظة الوضع الاجتماعي في فترة معينة من حياة اوروبا كانت كافية في رأيه لليقين العلمي بأن العامل الاقتصادي والتناقص الطبقي هو العامل الأساسي في التاريخ البشري كله، على الرغم من إعترافاته أن فترات التاريخ الأخرى لا تكشف عن ذلك لأنها كانت مشوشة ومستورة.

فمشهد واحد في نظر إنجلز من مشاهد التاريخ في القرن الثامن عشر أو التاسع عشر يستنبط منه ـ والماركسيون معه ـ أن القوى المحركة للتاريخ عبر عشرات الآلاف من السنين راجعة إلى العامل الاقتصادي.

ويجب أن نلاحظ أن سيطرة عامل معين على مجتمع معين في فترة خاصة لا تكفي للتدليل على سيطرة هذا العامل في كل أدوار التاريخ

---

(٣) اقتصادنا، ص ٦٥.

(٤) لودفيغ نورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية، ص ٥٣.

وفي جميع المجتمعات، لأنه من المحتمل أن يكون لهذه السيطرة نفسها أسبابها وعواملها الخاصة.

تطور القوى المنتجة والتفسير المادي للتاريخ:

نعلم من عقيدة الشيوعية أنها تؤمن بالإنتاج قاعدة رئيسية للمجتمع يقوم على أساسها الوضع الاقتصادي، وعلى هذا الأساس ذاته تبني كل الأوضاع الأخرى.

ولكن لم يكلفوا أنفسهم أن يقفوا عند الانتاج نفسه ليفسروا لنا كيف وجد الانتاج في حياة الانسان. فإذا كان الانتاج يصلح لتفسير نشوء المجتمع وكل علاقاته وظواهره، أفليس للإنتاج نفسه شروط تصلح لتفسير وجوده ونشأته؟

وقبل الجواب على هذا، أعود إلى تعريف الانتاج عندهم حيث يعرفونه بقولهم: «هو نشاط الناس الواعي الهادف الفعال الموجه لتكييف الطبيعة متطلبات الإنسان»(٥).

فالإنتاج إذن عملية يقوم بها عدد من الناس، لتكييف الطبيعة وتغييرها وجعلها بالشكل الذي يوافق حاجاتهم ويشبع رغباتهم، هذه العملية التي يقوم بها عدد من الناس لا يمكن أن توجد تاريخياً ما لم تسبقها شروط معينة منها:

١ ـ **الفكر**: إن الانسان لا يستطيع أن يغير من شكل الكون المادي بقصد إشباع حاجاته، فيجعل القمح دقيقاً والدقيق خبزاً، ما لم يملك فكراً عن الشكل الذي سوف يمنحه للكون المادي. فعملية التغيير لا يمكن أن تنفصل بحال عن التفكير فيما ستتمخض عنه العملية من أشكال وأوضاع للكون المادي لا تزال في ابتداء العمل غيبية. لذلك لم

---

(٥) المادية التاريخية، ص ٤٩.

يكن من الممكن للحيوان، أن يقوم بعملية إنتاج، عملية تغيير حاسم للكون المادي.

٢ ــ **اللغة** التي بواسطتها يتفاهم المشتركون في عمليةالإنتاج، ويتخذون موقفاً موحداً خلال العملية الإنتاجية.

يقول الأستاذ محمد باقر: «وهكذا نجد أن الفكر بوضوح ــ بأي درجة كان ــ يجب أن يسبق عملية الانتاج. وأن اللغة ليست نابعة من عملية الانتاج، كما تتبع كل العلاقات والظواهر الاجتماعية في زعم الماركسية... وإنما تنبع من الحاجة إلى تبادل الأفكار بوصفها المظهر المادي للفكر. فلم تنشأ اللغة إذن من القاعدة الرئيسية المزعومة من عملية الإنتاج. وبالرغم(٦) من أنها أهم ظاهرة اجتماعية على الإطلاق، وإنما كانت الشرط الضروري تاريخياً في وجود هذه القاعدة المزعومة.

«وأكبر دليل يمكننا أن نقدمه على ذلك هو استقلال اللغة في تطورها عن الانتاج وقواه، فلو كانت اللغة وليدة الانتاج، ووليدة القاعدة المزعومة لتطورت وتغيرت تبعاً لتطور أشكال الانتاج وتغيرها. كما تتغير تبعاً لذلك جميع الظواهر والعلاقات الاجتماعية(٧).

وبناءً على ذلك فإنه لا يستطيع أي شيوعي أن يقول: إن اللغة الروسية تغيرت بعد الثورة الاشتراكية، وتبدلت إلى لغة جديدة أو أن اللغة الانجليزية قد تغيرت بعد حلول الآلة البخارية التي غيرت القاعدة الأساسية للمجتمع، وأحدثت ثورة كبرى في أسلوب الانتاج. والتاريخ يؤكد على أن اللغة مستقلة عن الانتاج في استمراريتها وتطورها وذلك لأنها لم تنبع من هذا الشكل أو ذاك من أشكال

---

(٦) والصواب على الرغم.

(٧) اقتصادنا، ص ٨١.

الانتاج. وإنما نبعت عن فكر وحاجة هما أعمق وأسبق من كل ممارسة للانتاج الاجتماعي مهما كان شكله. وإذا تساءلنا عن قوى الإنتاج، أليس ثمة سبب دعا إلى إقبال الناس عليها وتأثرهم بها؟... أجاب ماركس بقوله: «إن الناس يدخلون في الانتاج المادي لحياتهم ضمن علاقات محددة ضرورية مستقلة عن إرادتهم»[^٨].

أي إنها الطبيعة، طبيعة الإنسان ذي الحاجات العضوية المعينة إذ يرى نفسه موجوداً في بيئة جغرافية معينة. وهذا نص واضح أن الإنسان لم يكن يملك من دوافع الخطوة الأولى في حياته السلوكية العامة إلا الدافع الاقتصادي. وليس أمامنا مجال إلا أن نرد عليهم بنفس أسلوبهم الذي قرروا فيه الدافع الوحيد في فجر الحياة الانسانية، وهو الواقع التاريخي البعيد.

لو صح أن الانسان عندما فتح عينيه على هذه الحياة لم يكن في نفسه من دوافع سوى البحث عن الطعام والشراب والملبس والمسكن، ولم تكن هناك دوافع أخرى تستأثر بفكره واهتمامه، لكان طابع حياته هو طابع حياة البهائم لا يعلو عليها، أي فما كان ينبغي أن ينزع إلى دين يدين به، ولا أن يتأثر بقيمة جمالية تسيطر على قلبه، ولا أن يبدع الفن إستجابة لدعوة وجدانه. كان يجب على هذه الظواهر أن تكون معدومة من حياته كلها، وعلى أقل تقدير من الطور الأول في حياته على حد تقسيم الماديين، فإذا فسر الماديون هذه الظواهر على أنها أسلحة نفسية تستعمل في ساحة الصراع الطبقي، فإننا لا نستطيع تأويلها على هذا المعنى، عندما تكون متجلية في الطور الأول من حياة الانسان.

---

(٨) انظر القضايا الأساسية في الماركسية، ص ٢٣١.

يقول الدكتور البوطي: «إذا ثبت أن كلًا من ظاهرة التدين والمشاعر الجمالية المختلفة عن حياة الانسان، ما إنفك عن حياة الانسان في طورها البدائي القديم ـ حسب دلالة الآثار والوثائق التاريخية ـ فقد ثبت بطلان ما تصوره الماركسيون من أن الانتاج المادي هو وحده العامل الفعال الأول في نفس الانسان. وأنه كان منساقاً إليه بشعور قسري غير إرادي. وإن كل ما إكتسبه الإنسان بعد ذلك من أفكار ولغات وقيم... إنما انبثق عن علاقات الانتاج التي هي أولى ثمرات قوى الانتاج، التي هي المهيج والمحرك السابق الأوحد في كيان الانسان»[٩].

تطور أدوات الإنتاج وأساليبه تحقيق للفطرة وليس تغييراً لها:

يقول الماديون إن تطور أدوات الانتاج هو المحرك الأول، والمؤثر الفعال في تطور الحياة البشرية وتكييف سلوك الناس في شتى أدوارها. والانسان لو لم يكتشف النار لما تمكن من طهو الطعام، ولو لم يكتشف السكين والآلة الحادة، لما قطع اللحم إلى قطع صغيرة، ولو لم يكتشف الملعقة لما أكل بها، ولو لم يكتشف جذوع الأشجار وصلاحيتها لحمل سقف عليها لما أمكنه أن يبني بيتاً عليها، ولو لم يكتشف الآلة لما امكن من الحصول على رأسمال، وأن يستغل الآخرين ويستعمرهم وهكذا... ثم يقولون: إن استخدام الأدوات يحدث تغييراً حتمياً في المشاعر والأفكار والقيم والمباديء. فالانسان حين اكتشف النار فكر أن يطهو الطعام، وحين اكتشف الجذوع القوية الصالحة للبناء عليها فكر في بناء المسكن، وحين اخترع المغزل فكر أن ينسج الأقمشة ويصنع الثياب ويتأنق في تفصيلها وصنعها حيث لم يكن يخطر بباله شيء لولا

(٩) نقض أوهام المادية الجدلية، ص ٢٣١.

اختراع آلة النسيج، وحين اكتشف الزراعة فكر في تملك الأرض والاغارة على أرض الآخرين، وأسر الأسرى واسترقاقهم. وهكذا نشأت نتائج إقتصادية وإجتماعية وأخلاقية حتمية نتيجة اكتشاف الأدوات واختراع المخترعات.

والقضية بهذه الصورة براقة وخادعة تغري كثيراً من الناس بهذا المظهر البراق الخادع، ولكن الحقيقة بعيدة عن هذه المساحيق العلمية المزعومة التي أراد الماديون طلاء وجه تفسيرهم المادي للتاريخ بها.

فللحقيقة وجه آخر بعيد عن الاغراء والبريق الخادع الذي تقدمه العلوم والدراسات العلمية في القرن الحاضر. ولا بد للباحث من وضع الأسئلة التالية:

أولاً ـ ماذا صنع الإنسان بالنار حين اكتشفها؟ ولماذا استخدمها في تحسين الطعام بطهوه عليها؟

ثانياً ـ لماذا لم يقف عند حد طهو الطعام، وراح يتفنن في طهو طعامه درجة بعد درجة؟.

ثالثاً ـ وحين لان له الحديد والنحاس والذهب والفضة، لماذا اتخذ الملاعق والشوك والسكاكين وهي ليست داخلة في عملية الطعام ذاته كضرورة بيولوجية؟ أي دافع حتمي دفعه أن يتخذ من أدوات الطعام أدوات للزينة يتفنن في نقشها وتجميلها، ثم ما علاقة هذا كله بالقيم التي اتخذها الانسان حول طعامه سواء في التمييز بين الخبيث والطيب والحلال والحرام، على غير المستوى الحسي الذي تقرره المعدة، أو في طريقة تقسيمه بين الناس، أو في رسم قواعد وتقاليد خاصة بالطعام؟ ولماذا اخترع أدوات الغزل والنسيج؟ ولماذا استخدمها حين اخترعها في نسج القماش ثم بتحسينه؟ لماذا لم يقف عند حد إستخدامها في النسيج وراح يتفنن في الملبس فيما وراء الضروريات؟

ثم أي علاقة بين هذا التحسين الذي أنتجته الأدوات وبين القيم التي إتخذها الانسان حول الملابس سـواء في ربطها بالقيم الدينية أو الخلقية أو في توزيعها بين الناس أو في رسم قواعد لها وتقاليد؟

وحين اخترع الأداة المسنونة، لمـاذا اخترعهـا إبتداء؟ ولمـاذا استخدمها في القتال؟ ولماذا لم يقف عند هذا الحد الذي وصلته إليه، فراح يبحث عن وسائل جديدة للقتال حتى وصل إلى القنبلة الذرية والهيدروجينية وقنابل الجراثيم؟ وما هي العلاقة بين هذه الأدوات كلها وبين القيمة التي ربطها الانسان بالحرب، سواء في تحليلها أو تحريمها، أو وضع قواعد لها وتقاليد؟ والسؤال الذي يطرح هو: ألا توجد وراء ذلك دلالة واضحة؟ هل الآلة هي التي وجهت الانسان، أم الإنسان هو الذي وجه الآلة»[١٠].

لو نظرنا إلى الحيوان الذي يشترك مع الإنسان في سكنى الأرض وزميله ــ في رأي دارون ــ في كثير من الخصائص والأصل المشترك، لم نجد عنده اكتشافاً ولا اختراعاً، ولم نجد عنده حضارة ولا ثقافـة ولا علمًا، فهو على حالته منذ وجد على هذه الأرض لم يتغير عليه شيء، ومن هنا نرى أن الإكتشاف والاختراع مزية بشرية موجودة في صميم فطرة الانسان التي فطره الله سبحانه وتعالى عليها.

ولنعد إلى شهادة جوليان هكسلي مرة أخرى وهو يحكي عن تفرد الانسان[١١] حيث يقول: «وأولى خصائص الانسان الفذة وأعظمها وضوحاً قدرته على التفكير التصويري، ولقـد كان لهـذه الخاصـة الأساسية في الانسان نتائج كثيرة وكان أهمها؛ نمو التقاليد المتزايدة. . .

---

(١٠) انظر حول هذا الموضوع كتاب التطور والثبات، ص ٩٩ ــ ١٠٠.

(١١) وقد فصلت الكلام عن تفرد الانسان في فصل مناقشة أثر نظرية دارون على التفسير المادي للتاريخ.

ومن أهم نتائج تزايد التقاليد أو إذا شئت من أهم مظاهره الحقيقية ــ ما يقوم به الإنسان من تحسين فيما لديه من عدد وآلات. . . إن التقاليد والعدد لهي الخواص التي هيأت للانسان مركز السيادة بين سائر الكائنات الحية. وهذه السيادة الجيولوجية في الوقت الحاضر ــ خاصية أخرى من خواص الانسان الفذة»[١٢]. هذا العالم الذي ذكرت عنه سابقاً أنه ملحد لا يؤمن بالله ولا ينسب شيئاً من عملية الخلق إليه تعالى، يثبت للانسان هذه المزايا التي انفرد بها عن الحيوان، وهي قدرته على التفكير التصويري، وقدرته على إستخدام العدد والآلات وتحسينها وإقامة التقاليد وتنميتها، ويسميها الخواص البيولوجية للإنسان. إن هذه الميزة لم تنتجها الآلة أو استخدام العدد والآلات أو وسائل الانتاج، بل هي التي أنتجت الآلة ووسائل الإنتاج، واستخدمت العدد والآلات في الأسلوب الذي تراه مناسباً.

إن الله سبحانه وتعالى الذي خلق الإنسان ليكون خليفة في الأرض، هو الذي وهبه خاصية التفكير التصويري، لأنها وسيلة من وسائل الخلافة وأدواتها، كما أودع سبحانه في فطرة الإنسان الالتفات إلى ظواهر الكون المادي وتصوره والافادة منه. يقول شيخنا الأستاذ محمد قطب: «وإذن فقد أودعت الفطرة الإنسانية القدرة على التصور، ومن ثم القدرة على الاكتشاف والاختراع، ومن ثم القدرة على استخدام الآلات. . . . والقدرة على تحسين الآلات. . . كما أودعت في الوقت ذاته ما يسميه هكسلي «بالتقاليد» ونسميه نحن (القيم) والقدرة على ربط الأعمال ــ بما فيها استخدام الآلات ــ بقيم نفسية واقتصادية وإجتماعية وخلقية ودينية»[١٣].

(١٢) الانسان في العالم الحديث، من ص ٣ ــ ٥.
(١٣) التطور والثبات، ص ١٠٢.

وعلى هذا أقول: إن اكتشاف أدوات الإنتاج كحادثة مادية لا يفسر شيئاً مما يريده أصحاب التفسير المادي للتاريخ.

إن الانسان لم يكن قادراً على اكتشاف النار لو لم يودع الله سبحانه وتعالى في فطرته القدرة على التفكير التصويري. وكان من الممكن أن لا يستخدم النار حين اكتشفها في طهو طعامه. إذ ما الدافع الحتمي الذي يدفعه إلى ذلك؟ وكان من الممكن أيضاً أن يقف حين استخدمها في طهو طعامه عند هذا الحد، ولا يتفنن في الطعام ولا يصوغ حوله قيماً وآداباً وتقاليد. والمسلم يقول: إن ذلك كله لم يكن ممكناً لدى الانسان لولا الرغبة الفطرية الكامنة في طبيعته والسابقة في وجودها على النار، وهي القدرة الفطرية على التفكير التصويري التي منحها الله للانسان، والتي بواسطتها تمكن بتوفيق الله له من اكتشاف النار، ثم الرغبة الفطرية في تحسين وتجميل ما لديه من اكتشافات على مدار التاريخ. وهذا هو الفارق بيننا وبين أصحاب التفسير المادي للتاريخ، الذين يعتبرون تطور أدوات الانتاج هو المحرك الأول والمؤثر الفعال في تطور الحياة البشرية وتكييف سلوك الناس في شتى أدوارها.

إن تأثير الحياة المادية على الانسان أمر لا ينكره عاقل، ولم يكن من اكتشاف أصحاب التفسير المادي للتاريخ.

إن اختراع الآلة أثر تأثيراً كبيراً في حياة الانسان، ولا ينكر هذه الحقيقة إلا من حاد عن طريق الصواب. وما من شك أنه قد حدث تطور هائل في الحياة الانسانية بعد اختراع الآلات والأدوات، ولكن الشيء الذي أنكره على الماديين هو أن اختراع الآلة أنشأ جديداً في كيان الإنسان، بل الحق الذي لا مرية فيه، أن إختراع الآلة حقق رغبات كانت كامنة في فطرة الانسان.

فلو أن النار أعطت للطعام طعماً لا يستسيغه الانسان هل كان يقبل عليه.؟ ولولا الرغبة الدفينة في تحسين الطعام هل كان يستخدم النار في هذا السبيل؟ إن النار قد أعطت الإنسان ـ بقدرة الله تعالى ـ إمكانيات جديدة حافلة لتحقيق رغبات كامنة في فطرته تنتظر الفرصة المناسبة للتحقيق، وقد لا تكون الفطرة واعية لتلك الرغبات في كل حالة، ومن هنا جاءت الخديعة الأولى التي خدع بها الماديون في فهم الموضوع، فإن عدم الوعي بوجود شيء معين لا يدل بذاته على عدم وجود هذا الشيء في الحقيقة. أما الخديعة الثانية التي خدعوا بها فهي: إتساع فطرة الانسان، حتى خيل للكثير من الناس أن فطرة الانسان لا حدود لها وبالتالي فلا قيمة حقيقية لوجودها ما دامت تتسع لكل شيء.

ونحن نقول: إن اتساعها لا يلغي حقيقتها ولا يلغي دلالتها. نعم إنها تتسع لأشياء كثيرة ولكنها لا تتسع لكل شيء، لأن لها في النهاية خطوطها الأخيرة التي ترفض الأشياء ولا تتقبلها لعدم وجود الاستعداد الفطري لتقبلها.

والخديعة الثالثة: ناشئة من مرونة الفطرة الانسانية.

إن فطرة الانسان مرنة ونظراً لمرونتها الشديدة فإنها تتحمل ضغوطاً عليها من خارجها. ولكنها في النهاية لا تحتمل كل شيء ولا تحتمله إلى الأبد. فهي تحتمل بعض الأشياء بعض الوقت، ولكنها في النهاية تثور على كل ما لا تسيغه ولا تستريح اليه، وتعبر عن رفضها للضغوط الواقعة عليها بطريقتين:

الطريقة الأولى: هي الثورة على الضغوط الواقعة عليها، لقد ثارت على الديكتاتوريات التي تكبت الوجود الفردي، كما بدأت تنفر

من الحرية اللامحدودة عندما شعرت بقلقها وضياعها كما هو الحال في أميركا وأوروبا.

والطريقة الثانية: إن الفطرة حين لا تستطيع دفع الظلم وتحطيمه، تعبر عن رفضها له بما يظهر عليها من أمراض نفسية وعصبية كما هو الملاحظ في أوروبا وأميركا وروسيا، حيث نرى ارتفاع نسبة حوادث الإنتحار، والشذوذ، والانهيار الأخلاقي، وزيادة المصابين بالأمراض النفسية والعصبية.

إن أصحاب التفسير المادي للتاريخ قد رصدوا التاريخ من جانب خطه السلبي الخانع، ولم يرصدوه من جانبه الإيجابي المتحرك. وعلى المنصف الذي يتحرى العلمية الحقيقية في دراسته للتاريخ أن يرصده من جانبيه الإيجابي والسلبي لأنهما موجودتان في فطرة الانسان.

وهنا أضرب بعض الأمثلة للتوضيح والتوكيد. لنأخذ اختراع الطائرة مثلاً، لم يكن اختراع الطائرة هو الرغبة في السفر السريع والتنقل بين جهات العالم، وإنما الرغبة الكامنة في فطرة الانسان هي التي أوحت باختراع الطائرة، حين تيسرت الامكانيات العلمية التي هيأت الفرصة للتحقيق العلمي لهذه الرغبة. وقد كان الانسان ولا يزال يزيد سرعته في السفر بمختلف الوسائل لأنه يرغب في ذلك. وكان يحلم حين يعجز عن التنفيذ العلمي، بوسائل خاطفة تنقله في لحظات من مكان إلى مكان. فالطائرة إذن تحقيق لحلم بشري قديم كانت تحلم به البشرية منذ زمن سحيق مرت بتجارب ومراحل كثيرة حتى وصلت إلى الشكل الذي نراه»[١٤].

وعلى هذا الأساس فإن الرغبة العامة تسبق كل اختراع أياً كان

---

(١٤) كان عباس بن فرناس أول من حاول الطيران بنفسه من مكان مرتفع ولكنه لم يفلح في ذلك.

هذا الإختراع. لأن المخترع لا يقول سأعمل اختراعاً دون أن يحدد هذا الاختراع، ثم أبحث عن وسيلة للإستفادة من ذلك الإختراع، وإنما يقول أريد أن أضع آلة كذا للاستفادة منها في مجال كذا، ثم يجمع المواد الأولية اللازمة لإختراعها. إذن ففي عملية الاختراع عدة مراحل، الرغبة أولاً، ثم الهدف ثانياً ثم وسائل تحقيق الهدف والرغبة ثالثاً، ثم النتيجة رابعاً.

يقول شيخنا الأستاذ محمد قطب: «وحين يفتح الكشف أو الاختراع الجديد آفاقاً لم تخطر بتفصيلها في بال الانسان من قبل، فإنه على الدوام يسعى لتحقيق رغبة عامة من رغبات الفطرة كالرغبة في القوة والرغبة في السيطرة والرغبة في الخلود... الخ. هذه الرغبات... ولكنها لا تستجد فكرة ولا شعوراً لا يقع تحت واحدة من هذه الرغبات العامةالموجودة في الفطرة من قبل. (المقدورة من لدن خالقها حين خلقها ووهبها امكانيتها). ومن ثم فالتطور الذي يحدثه الاختراع أو الاكتشاف الجديد في نفس الانسان، هو التنمية الدائمة للرغبات الفطرية الموجودة من قبل في حالة كامنة بإعطائها فرصة التحقق الدائم على نطاق أوسع وأشمل وأدق. وليس هو انشاء الرغبات الفطرية من حيث لا تكون، والتنمية شيء والانشاء شيء آخر»[١٥].

من خلال هذه المناقشة أصل إلى مجموعة من الحقائق أجملها فيما يلي:

«إن الفطرة هي الأصل في تصرفات الانسان.

إن الأدوات والآلات المستحدثة هي في ذاتها تعبير عن الفطرة

---

(١٥) التطور والثبات، ص ١٠٨ ــ ١٠٩.

(من حيث القدرة على التفكير التصوري والرغبة في التحسين). وإنها ـ وهي تعبير في الأصل عن الفطرة ـ تسير على هدى الفطرة في تطبيقاتها العملية (من حيث تحقيقها لرغبات الانسان).

وإنها في تطبيقاتها العملية، لا تنشيء جديداً في كيان الانسان. وإنما تحقق ما كان كامناً من قبل في ذلك الكيان.

وإنها تغير صور الحياة تغييراً شاملاً... ولكن التغيير ذاته يحدث استجابة لمطالب الفطرة. ويقع في حدودها لا يتعداه»[١٦].

تاريخ الانسان
لا يقتصر على البحث عن الطعام والشراب

أثبت في مناقشتي لأثر نظرية دارون على التفسير المادي للتاريخ أن الانسان كائن متفرد، فضله الله على سائر المخلوقات، وجعل له قوانين خاصة تحكم حياته. وقد استشهدت بكلام أهل العلم والاختصاص حول تفرد الانسان عن الحيوان ورتبت على ذلك نتيجة، وهي أن ما ينطبق على الحيوان لا ينطبق على الانسان.

ولكن الماديين أبوا إلا نفوراً، فطبقوا ما يجري على الحيوان من قوانين على حياة الانسان فقالوا إن تاريخ الانسان يبدأ من وقت بحثه عن الطعام والشراب. ولكنهم غفلوا عن الحقيقة الانسانية الأصيلة، وهي أن الانسان حين يبحث عن الطعام والشراب يبحث عنه كانسان بكيانه كله الشامل للأهداف والقيم والاحساس بالجمال وغيرها. فهو

---

(١٦) نفس المصدر، ص١٠٦ ـ ١٠٧، وراجع الفصل بكامله في هذا الكتاب.

يواجه الحياة وينشيء فيها النظم والحضارات والتشريعات ويؤثر فيها ويتأثر بها كانسان، ومع ذلك فإن تاريخ الانسان لم يقتصر على البحث عن الطعام والشراب، وإنما تعداه إلى أمور أخرى كثيرة، فالاهتداء إلى الله سبحانه وتعالى والعقيدة والقيم والمثل العليا والاختراعات وسبحات الروح وأحلام البطولة كل هذا يثبت أن تاريخ الانسان لم يقتصر على البحث عن الطعام والشراب. يقول شيخنا الاستاذ محمد قطب: «إن الانسان لأوسع من هذه الحدود الضيقة التي يريد الماديون أن يحبسوه في داخلها، وإن كل ما وجد على ظهر الأرض في الميدان المادي والفكري والشعوري، لهو إنتاج إنساني أصيل وتعبير عن حاجات نفسية أصيلة». الفن والعقيدة والمثل العليا وأحلام البطولة، وسبحات الروح، والسيارة الفاخرة والطائرة المنطلقة في الفضاء والمدفع والمصنع وإنتاج الغذاء والكساء... كلها سواء وليس اختراع الآلة والوصول إلى الانتاج الكبير أعظم في طبيعته ودلالته من الوصول إلى العقيدة والاهتداء إلى الله. كل منهما دليل على عظمة المخلوق البشري وارتفاعه عن مستوى الحيوان، بل الاهتداء إلى الله أعظم في دلالته على رفعة الانسان، واشراق روحه واتساع آفاقه أن تنحصر كالحيوان في عالم المادة أو مدركات الحواس»[17].

يقول بروفسوراليكساندر غري: «هنالك حقيقة لا ينكرها إلا القليلون وهي أن التاريخ إذا أريد له أن يكون شاملاً، يجب أن يسجل في صفحاته كل شيء عن مخزن حفظ الأطعمة في المطبخ، ولكن هنالك أيضاً شيئاً كبيراً في التاريخ غير العامل الاقتصادي. فالانسان لا يقصر حياته على أن يحبو على بطنه، فهنالك كل أشكال الحماس والولاء والايحاء والالهام التي تحفز الانسان للعمل، والتي هي

(١٧) الانسان بين المادية والإسلام، ص٧٤.

رغم ذلك غير اقتصادية ــ بتاتاً ــ ولكنها في نفس الوقت تؤثر على الظروف الاقتصادية. وفوق كل ذلك فإن تأثير الذهن مع نتائج هذا التأثير البعيدة وهو من أعظم أنواع التأثير في العالم يستعصي على التفسير الاقتصادي. «إن الأصوب عند تفسير التاريخ أن يتواضع المرء وربما أن يعتقد بعدم كفاية عقله لإدراك الغيبيات، ذلك أنه يدرك أن تاريخ الانسان إنما تكونه عوامل كثيرة، ليس الاقتصاد إلا عاملاً واحداً منها ربما لم يكن أكثرها أهمية»[١٨].

وعلى هذا فإن تاريخ الانسان لا يقتصر على البحث عن الطعام والشراب، وإن كان البحث عن الطعام والشراب جزءاً من حياة الانسان، وإن العمل وحده لا يجعل من الانسان انساناً جديداً ولا يخلقه كما يريد أنجلز، لأن الخلق من اختصاص الله تعالى، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن العمل لا يساوي شيئاً في حياة الانسان إذا لم يشارك الانسان فيه بكيانه الانساني المتفرد. ثم إن الانسان في وضعه الطبيعي يتمتع بقسط من الحرية إن شاء عمل، وإن شاء امتنع عن القيام بالعمل وإن شاء عمل بقدر معين وهو في جميع حالاته انسان.

ولا أنكر كما قلت سابقاً أن الانسان منذ أن وجد وهو يبحث عن الطعام والشراب، لأنه لا ينكر هذه الحقيقة عاقل، وإنما لم يكن هو البحث الوحيد الذي اقتصر عليه الانسان. وعلى فرض صحة هذا الزعم من أن تاريخ الانسان يبدأ من وقت بحثه عن الطعام والشراب ــ وهو ليس بصحيح ــ فإن الانسان يبحث عن الطعام والشراب بطريقته الخاصة التي يختلف بها عن الحيوان. واليكم الأمثلة على ذلك.

---

(١٨) تفسير التاريخ، ص ٩٨ ــ ٩٩.

١ ـ **حفظ الذات هدف لكل كائن حي**: يؤديه بدافع الغرائز، ولكن الانسان يؤديه بطريقة مختلفة عن الحيوان من حيث الهدف والاسلوب، فهو يضيف إلى دوافع الغرائز الوعي والادراك.

والحيوان يأكل ويشرب ويبحث عن الغذاء والمسكن ويقاتل ويحب الغلبة والبروز، والحيوان تدفعه لذعة الجوع فيأكل أنواعاً معينة من الطعام لا يغيرها، ويأكل بطريقة واحدة لا يغيرها كذلك، ولكن الانسان يختلف من البداية مع الحيوان، والاختلاف الأول يكمن في سعة المجال الذي يختار منه الانسان طعامه وقابليته لهذا التنوع في الطعام. قال تعالى:

وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا [19]

والاختلاف الثاني: أن الانسان هو الذي يحدد لنفسه حد الإكتفاء.

والاختلاف الثالث: أنه صنع الطعام بعد أن اكتشف النار، وأصبح للأكل عنده فنون وعادات وتقاليد، ونوّع الأطعمة التي يأكلها، وعمله هذا استجابة لما في فطرته من التنوع والتجدد.

والاختلاف الرابع: أنه لم يتخذ سلوكاً واحداً نحو الطعام، فليس الاختلاف بين فرد وفرد في سلوكهما نحو الطعام، وإنما يختلف الفرد الواحد ما بين مرة ومرة وبين حالة وحالة. فهو تارة معجل يأكل طعامه نهشاً، وتارة أخرى على مهل وروية، ومرة يأكل بأدوات أنيقة... الخ. حتى يصبح ذلك فناً تكتب فيه المؤلفات ليتعلمها الناس.

---

(١٩) سورة البقرة، آية ٣٥.

والاختلاف الخامس: أن الانسان جعل لطعامه هدفـاً، ثم لم يجعله هدفاً واحداً، فبعض الناس يأكل للضرورة لحفظ الحياة، يأكل ليعيش، وبعضهم يجعله هدفاً في ذاته، يعيش ليأكل، وبعضهم لسد جوعه، وبعضهم يأكل للتلذذ بأصناف الأطعمة، وقد ينتقل الفرد من حالة إلى حالة، فهو يأكل لحفظ الحياة ويتلذذ بما يأكل، ثم يختلف الهدف مرة أخرى هل هو اللذة الفردية فيأكل وحده ويبخل بالطعام على الناس؟.

أم هي اللذة الجماعية فيأكل مع الناس ويجود بما لديه عليهم؟ ثم يختلف الهدف مرة أخرى، هل يتحرى فيه النظافة الحسية والمعنوية فلا يأكل إلا الحلال النظيف، أم لا يبالي بالنظافة الحسية والمعنوية فيأكل القذر ويسرق وينهب ويأكل الحرام؟.

والاختلاف السادس: أنه لا يحس بالقهر الكامل ازاء الطعام، فهو قد يمتنع عن الأكل أياماً معدودة، فهو يملك أن يستجيب للذعة الجوع في الحال بارادته، أو يستجيب بعد فترة من الوقت حيث أودع الله تعالى فيه حرية الاختيار النسبية لأن حرية الاختيار المطلق هي لله سبحانه وتعالى. ويستطيع الانسان أن ينظم مواعيد طعامه، وأن يمتنع عن أنواع من الأطعمة، وأن يصوم فترة من الوقت إذا أراد. يقول شيخنا الأستاذ محمد قطب: «إن التفسير المادي للتاريخ الذي يزعم أن تاريخ البشرية هـو تاريـخ البحث عن الطعـام تفسير جـاهل أو مغالط. . . يرى الحقائق ثم يغضي عنها لشهوة مذهبية تريد أن تلوي الحقائق لياً لتؤدي إلى هدف معين موضوع قبل المقدمات.

«فعلى فرض أن البحث عن الطعام هو تاريخ البشرية (وهذه مغالطة مكشوفة لأنها ــ بصرف النظر عن القيم كلها ــ تغفل دافع الجنس ومدى تدخله في تاريخ البشرية على الأقل بانتاج نسل يتكون

منه (المجتمع). ومايقتضيه هذا المجتمع من تنظيمات سياسية واجتماعية واقتصادية وفكرية وروحية... الخ). فقد دخلت في هذا البحث عناصر أخرى لم تجعله بحثاً خالصاً عن الطعام... إنما جعلته ــ إلى جانب ذلك ــ بحثاً عن القيم.

هل يتعاون الناس في البحث عن الطعام أم يتقاتلون ويتنازعون؟ هل يأخذ كل انسان كفايته وحدها أم يتاح له أن يخزن ما يزيد على حاجته؟ هل يملك الطعام ملكية فردية أم ملكية جماعية؟ وهل يوزع بالتساوي أم بحسب الحاجة؟ ومقياس الحاجة؟.

«كل هذه قيم... اقتصادية واجتماعية وسياسية وفكرية وروحية ــ نشأت في أثناء هذا البحث عن الطعام ــ على فرض زعم أنه البحث الأوحد الذي قام به الانسان (وليس ذلك حقيقة). ومن ثم لم يعد البحث عن الطعام هو وحده الذي يكتب تاريخ البشرية (حتى لو كان هذا الدافع الأوحد) وإنما صارت هذه القيم كلها مجتمعة هي التي تكتب تاريخ البشرية. وكان هذا نتيجة طبيعية ــ وحتمية ــ لتعدد جوانب الانسان وتداخل مساربه وطاقاته ومكوناته، وعدم انفراد أي جانب منها أو طاقة بالعمل في لحظة من اللحظات... ومن ثم يصبح (الانسان) بكامله، هو الذي يكتب تاريخ الانسان وتلك بديهية لم يكن ينبغي أن (يتعب) في فهمها هواة التفسير المادي للتاريخ»[٢٠].

مناقشة مرحلة الشيوعية البدائية:

ذكرت أن الماديين يقسمون التاريخ إلى خمسة أشكال اجتماعية

(٢٠) دراسات في النفس الانسانية، ص ١٨٥ ــ ١٨٦. وأنظر بتوسع فصل الدوافع والضوابط معاً في هذا الكتاب.

هي : الشيوعية البدائية، والرق، والاقطاع والـرأسماليـة، وأخيراً الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية الممهدة للشيوعية.

ويدعي الماديون أن ماركس وإنجلز قد برهنا على أن المشاعية البدائية كانت الشكل الأول للمجتمع، ثم جاء من بعدهما مورغان الأميركي بثلاثين سنة ووصل إلى نفس النتيجة التي وصل اليها ماركس وإنجلز بصورة مستقلة عن أبحاثهما. وحجتهم التي استخدموها في البرهنة على أن المشاعية البدائية هي نقطة البدء في تطور الشعوب هي : وجود بقايا المشاعية البدائية لدى بعض الشعـوب المعاصـرة لهما، ويشددون النكير على من ينكر وجود المشاعية البدائية. ويدعي بأن الملكية الخاصة ملازمة لفطرة الانسان، لأن انكار المشاعية البدائية يؤدي إلى خدمة البرجوازية القائمة على الاستغلال والظلم، ثم تخيلوا علاقة الناس في ذلك العهد وصوروها بأنها قـائمة عـلى التعاون والمساعدة، فلا جشع ولا طمع ولا مليكة خاصة لأدوات الانتاج وكان الغذاء مشتركاً بينهم، ولقلة الموارد الغذائية لم يكن هناك استغلال لأن الاستغلال لا يوجد إلا إذا استطاع الانسان أن ينتج ما يكفيه ويكفي الآخرين. ولكن المجتمع المشاعي البدائي لم يكن ينتج أفراده إلا الضروري من الأشياء التي يحتاجون إليها في يومهم، ولم يكن التعاون وعدم الاستغلال مبنياً على وعيهم وارادتهم إنما تشكل بصورة طبيعية.

والأسئلة التي تفرض نفسها في هذا المقام هي : ما هو الدليل العلمي على أن البشرية مرت بمرحلة الشيوعية البدائية؟

ثم كيف يمكن الحصول على هذا الدليل العلمي ما دمنا نتكلم عن الإنسانية قبل عصور التاريخ؟ وهل تصلح ملاحظاتهم لعدة مجتمعات بدائية معاصرة دليلاً علمياً على أن الشيوعية البدائية هي نقطة البدء في تطور الشعب؟ ثم ما هو الدليل العلمي على أن نزعة التملك الخاص ليست فطرية وأن الملكية الخاصة لم تكون موجودة؟ .

أقول وبالله التوفيق: إن أصحاب التفسير المادي أنفسهم يعترفون صراحةً أن حوادث التاريخ قبل عام ١٨١٥ كانت مشوشة وغائمة كما ذكرنا عن إنجلز سابقاً. وعلى هذا الأساس عندهم فإن حوادث التاريخ قبل القرن التاسع عشر غير قاطعة الدلالة. ثم إن الماركسيين حين أخذوا معلوماتهم عن المجتمعات البدائية المعاصرة عن طريق الأفراد الذين إتفق لهم الذهاب إلى هناك لم يأخذوا بعين الإعتبار إلَّا المعلومات التي تتفق مع نظرياتهم العامة، واتهموا كل المعلومات التي تتعارض معها بالتزوير والتحريف. ومن هنا نجدهم يحكمون نظريتهم في تقدير قيمة المعلومات والأخبار التي تقدم عن تلك المجتمعات بدلاً من تحكيم المعلومات في نظريتهم.

يقول إنجلز: «فما أكثر تناقض الروايات التي في حوزتنا حتى عن القبائل البشرية المتوحشة، وما أحوجها إلى الفحص الدقيق والغربلة»[٢١].

ويقول في موضعٍ آخر: «لا يستطيع القاريء أن يميز بوجه عام في البحث الذي أعرضه فيما يلي بين ما أخذته عن مورغان وما أضفته إليه... فيما يتعلق بأحوال الجرمن لم يكن لديه ـ عدا ما دونه تاسيت ـ إلَّا معلومات المستر (فريمان) الرديئة المزيفة بلا حرج»[٢٢].

ومن هنا فإن الماديين اعتمدوا على أساسس غير علمي في بناء نظريتهم عن الشيوعية البدائية، وذلك لعدم توفر المعلومات التاريخية الصحيحة التي تجزم بوجود الشيوعية البدائية كما اعترفوا هم أنفسهم على لسان إنجلز، ولعدم تمكنهم من دحض الإفتراضات الأخرى بأدلة

(٢١) أصل الأسرة، ص ٥٠.
(٢٢) نفس المصدر، ص ١٠.

علمية مقنعة، وأصحاب التفسير المادي للتاريخ يصرون على أن الملكية الفردية ليست نزعة فطرية، لأن المجتمع الأول كانت تسوده الشيوعية البدائية. ولم يكن هناك ملك خاص لأحد، وإنما كان كل شيء ملكاً للجميع، وكانت تسودهم روح المحبة والتعاون. أما قولهم أن الملكية الفردية ليست نزعة فطرية، فإن أقل ما يقال فيه إنه غير قاطع وذلك لأنهم لا يملكون الدليل العلمي على دعواهم. ثم على فرض صحة وجود الحالة الملائكية في المجتمع الأول المزعوم، حالة عدم الجشع والاستغلال والمحبة والمساواة فإنه لم يكن هناك شيء يمتلك حتى يتقاتل الناس عليه، وهم يعترفون أنهم كانوا لا يستطيعون تخزين الصيد لأنه ينتن. ثم إن المواد الغذائية كانت قليلة لا تكفي للناس الموجودين، فعدم التنازع في ذلك الوقت لا يقطع بعدم وجود نزعة الملكية الفردية، وذلك لعدم وجود شيء يتنازع عليه. بدليل أنه منذ إكتشاف الزراعة بدأ الصراع، وتحركت النزعة الكامنة التي لم تجد من قبل دافعاً للتحرك. ثم إن الثقات من خبراء علم الإنسان لم يذكروا لنا مجتمعاً من المجتمعات البدائية خلا من الملكية الخاصة لوسيلة من وسائل الإنتاج.

يقول سبك في مبحثه عن أرض الصيد بين قبائل الشمال الشرقي الحمراء: «إن أرض الصيد هنا محدودة بحدودها الصريحة، يرثها الإبن عن أبيه، وتنتقل الزوجة إلى سكن زوجها الخاص، وللإخوة في بعض الأحوال حقوق في المزايا الإقتصادية»[٢٣]. ويقول الرحالون الذين عاشوا بين قبائل الكاي في غانة الجديدة: إن الأرض بينها مشاعة على العموم، ولكن اللص الذي يضبط في أرض يقوم على زرعها أحد غيره، يجوز قتله ولا يحق لأهله أن يثأروا له أو يطلبوا الدية

---

(٢٣) نقلاً عن الشيوعية والإسلام، ص ١٤٦ ــ ١٤٧.

من قاتله، وإنهم ربما سمحوا بغرس شجرة مثمرة في أرض الغريب، ولكنهم لا يسمحون ببناء كوخٍ أو خص عليها، وإن الرجل منهم يملك أسنان الخنزير البري، أو أسنان الكلب لأنها ذات قيمة سحرية أو خفية، ويحق له أن يقتل من يسرقها أو يحاول إغتصابها وإن ثمرات الأشجار عندهم حق لغارس الشجرة في حقل يزرعه، وإن الصائد الذي لمح الصيد لأول مرة صاحب حق فيه لا نزاع عليه»(٢٤).

ومعلوم أن الزعيم في هذه القبائل يتميز عن أفراد الأسرة ولو بريشةٍ يضعها في رأسه، ومهما كانت الريشة تافهة فإنها تدل على نزعة الملك، فضلاً عن دلالتها على نزعة البروز والسلطة. ثم إن ماركس وإنجلز يعترفان بأن القبائل القوية كانت تغير على القبائل الضعيفة. والسؤال الذي نطرحه في هذا المقام: لماذا كان القتال يدور بين القبائل البدائية؟ قد يكون صحيحاً أن المشاعية البدائية موجودة عند كل قبيلة بمفردها، ولكن غير صحيح أن المشاعية البدائية كانت عامة بين القبائل، بدليل أن القبائل كانت تغير بعضها على بعض وتنهب ممتلكاتها.

وبناء على ما تقدم أقول: إن الملكية الخاصة نزعة فطرية قد تكون كامنة في بعض الأحيان ككثير من النوازع الأخرى التي تتحقق عندما يأتي وقتها المناسب، فنزعة الجنس عند الطفل مثلاً لا نستطيع أن نقول أنها غير فطرية لأنها لا تتحقق ممارستها في مرحلة مبكرة، بل هي تترقب الفرصة المؤاتية لتحقيقها. ونلمس التناقض العجيب عند الماديين وهم يتحدثون عن علاقات الملكية في الشيوعية البدائية وكيفية توزيع المنتجات بين أفراد المجتمع البدائي وبين أخلاق الناس في ذلك المجتمع.

---

(٢٤) نقلاً عن نفس المصدر، ص ١٤٧.

يقول أحمد محمد غنيم: «ويقوم التوزيع بين أفراد المجتمع على أساس المساواة بسبب من ظروف الإنتاج أيضاً، لأن المستوى الشديد الإنخفاض للقوى المنتجة فرض تقسيم الغذاء الضئيل والسلع البسيطة المنتجة إلى أجزاء متساوية، وكان من المستحيل قيام أي طريقة أخرى للتقسيم، لأن حصول أحد الأفراد على نصيب الآخرين يعني أن يموت شخص آخر جوعاً»(٢٥).

يقولون هذا في نفس الوقت الذي يتحدثون فيه عن أخلاق المجتمع البدائي ويمجدون فضائله حيث ينقلون عن «جيمس أديرز» الذي درس حياة هنود أميركا في القرن الماضي: إن تلك الجماعات البدائية كانت تعتبر عدم تقديم المعونة لمن يحتاجها جريمة كبرى يحتقر مرتكبها. وينقلون عن الباحث (كاتلين): إن كل فرد في القرية الهندية رجلاً كان أو إمرأة أو طفلاً كان، له الحق أن يدخل إلى أي مسكن من المساكن ويأكل إن كان جائعاً. بل إن أولئك الذين كانوا يعجزون عن العمل أو يقعد بهم مجرد الكسل عن الصيد كانوا يستطيعون رغم ذلك أن يدخلوا إلى أي منزلٍ يشاءون، ويقتسمون الطعام مع من فيه. وبذلك كان الفرد في تلك المجتمعات يحصل على الطعام مهما تهرب من إلتزاماته في إنتاج هذا الطعام، ودون أن يترتب على تهربه إلّا إحساسه بفقدان ملحوظ لهيبته»(٢٦).

والماديون حين يتحفوننا بهذه المعلومات عن أخلاق المجتمع البدائي، يثبتون أن الإنتاج لم يكن منخفضاً إلى درجة تعني أن زيادة نصيب فرد تؤدي إلى أن يموت آخر جوعاً. بل كانت هناك وفرة في الإنتاج يأكل منها الضعيف والمتكاسل. والسؤال الذي نطرحه: لماذا

---

(٢٥) تطور الملكية الفردية، ص ١٤.

(٢٦) نفس المصدر، ص ١٨.

كانت المساواة في التوزيع هي الطريقة الوحيدة الممكنة؟ وكيف لم يخطر على ذهن أحد، فكرة الإستغلال والتلاعب في التوزيع ما دام في الإنتاج وفرة يمكن إستغلالها؟ ثم إذا كانت قوى الإنتاج تسمح بقيام الإستغلال في تلك المجتمعات فيجب أن نجد سبب عدم ظهوره فيها، ماثلاً في وجود وعي لدى الإنسان البدائي، وقيم أخلاقية لتمنع هذا الإستغلال (نستطيع نحن من وجهة نظرنا الإسلامية أن نردها إلى وحي سماوي).

وعلى هذا فليس صحيحاً ما زعموه، من أن التعاون وعدم الإستغلال لم يكن مبنياً على وعي من الناس وإرادتهم.

مناقشة صراع الطبقات:

ذكرت سابقاً أن الماديين يعتبرون أن التاريخ البشري بكامله كان مسرحاً لصراع الطبقات على أثر تفسخ المشاعية البدائية وظهور الملكية الخاصة. ويعتبرون المصالح الإقتصادية هي الأساس في التعامل بين البشر التي تحدد جميع المصالح السياسية والإقتصادية والفكرية والدينية والأخلاقية. وتشكلت الطبقات الإجتماعية من تلك الأسر التي كانت تقوم بالوظائف الإجتماعية، وتستخدم سلطاتها من أجل تجميع الثروة بين أيديها، وكان أول تقسيم للمجتمع هو تقسيمه إلى فئتين: فئة الأرقاء وفئة الأسياد. والطبقة التي تملك الوسائل المادية ووسائل الإنتاج هي التي تحكم ــ لأن الذي يملك هو الذي يحكم ــ وأفكارها هي المسيطرة على المجتمع، ويكون الصراع حتماً سياسياً في المجتمع القائم على التقسيم الطبقي، لأن العلاقات السياسية تنشأ من خلال وعي الناس. بخلاف العلاقات الإقتصادية التي لا تنشأ من خلال وعي الناس وإنما تنشأ بصورة تلقائية.

وإن السمة الأساسية لكل مجتمعٍ قائمٍ على أساس الصراع الطبقي هي وجود طبقة مظلومة داخل هذا المجتمع. وقبل الدخول في مناقشة الماديين في هذا الموضوع لا بد من طرح السؤال التالي عن الإنقسامة الفاصلة في حياة البشر التي قسمت المجتمع إلى طبقتين. سادة وعبيد: كيف أعطيت فيها السيادة لأولئك وكتب على هؤلاء الرق ولماذا لم يقم السادة بدور العبيد، والعبيد بدور السادة؟ يجيب الماركسيون على هذا السؤال، بأن كلًا من السادة والرقيق قد مثل الدور المحتوم الذي فرضه العامل الإقتصادي، لأن الجماعة التي مثلت دور الأسياد كانت على قدرٍ كبير من الثروة، وكانت تملك القدرة على ربط الآخرين بها برباط العبودية. ومن المعلوم أن الثروة لم تهبط على الأسياد من السماء، فكيف حصل عليها هؤلاء دون غيرهم واستطاعوا أن يفرضوا سلطانهم على غيرهم مع أنهم كانوا يعيشون في مجتمع شيوعي واحد؟ ونجد الجواب جاهزاً على هذه المسألة أيضاً. أولاً، إن الرؤساء والقادة الحربيين ورجال الدين في المجتمع الشيوعي البدائي أخذوا يستغلون مراكزهم لكي يحصلوا على الثروة فامتلكوا جزءاً من الملكية الشائعة. ثم أخذوا ينفصلون شيئاً فشيئاً عن جماعتهم، ليكونوا أرستقراطية جديدة، بينما كان أعضاء الجماعة يسقطون شيئاً فشيئاً تحت تبعتهم الإقتصادية[٢٧]. وهذا الجواب لا يخدم الماديين في تفسيرهم للتاريخ، لأنهم باعترافهم هذا يعتبرون العامل السياسي عاملاً أساسياً والعامل الإقتصادي عاملاً ثانوياً منبثقاً منه، حيث يفترض أن المكانة السياسية التي كان يتمتع بها القواد والرؤساء ورجال الدين هي التي مهدت لهم الطريق إلى الإثراء. وقد يجيبون على تلك الأسئلة بجواب آخر، وهو أن الجماعة التي حولت

(٢٧) انظر تطور الملكية الفردية، ص٣٢. وانظر إقتصادنا، ص ١٣٠ ـ ١٣١.

أسرى الحرب إلى عبيد صارت تربح الناتج الفائض عن حاجاتهم الضرورية حتى أثرت. ولكن هذا الجواب لا يحل المشكلة وهي: لماذا هيأت الفرص لأولئك السادة بالذات إسترقاق الأسرى دون غيرهم من أعضاء القبيلة؟ وهذا لا يمكن للماديين تفسيره على أساس القوى المنتجة، وإنما يمكن تفسيره تفسيراً إنسانياً على أساس الفوارق والكفاءات البدنية والفكرية والعسكرية.

وحين يقول الماركسيون إن تاريخ المجتمع البشري بكامله كان مسرحاً للصراع الطبقي بعد أن تلاشت الملكية الخاصة يناقضون أنفسهم، وذلك للأمور التالية

أولاً ــ إنهم يعترفون بأن الإنسان قد وصل إلى زراعة النبات وتدجين الحيوان قبل أن تظهر طبقة تستغل الطبقة الأخرى، وقد تم هذا التدجين على خطوات، أولاها صيد الحيوان للإنتفاع بلحومه وجلوده في الطعام والكساء، ثم صيده والإحتفاظ به للإنتفاع بألبانه وأصوافه، ثم أخيراً صيده للإنتفاع به في الزرع وحمل الأثقال. فإذا كانت هذه الأطوار نشأت قبل ظهور الطبقة فليس من المحتم أن تكون الطبقة هي التفسير الوحيد للأطوار السابقة والأطوار التي نشأت بعدها.

ثانياً ــ ثم إن حوادث التاريخ قبل عام ١٨١٥م، بإعتراف إنجلز كانت مستورة ومشوشة. فكيف يقولون بلهجة اليقين إن تاريخ البشرية كان مسرحاً للصراع الطبقي بعد أن تلاشت الملكية الخاصة.

ثالثاً ــ ثم إن إنجلز يعترف بأن الصراع السياسي كله في بريطانيا كان يدور على تنازع السيادة بين طبقتين: طبقة الملوك والنبلاء، والطبقة الوسطى، ولم يكن الصراع على إستغلال إحداهما للأخرى، وأخيراً يظهر عيب هذه النظرية في أنها عممت على تاريخ البشرية

كله بأنه كان مسرحاً للصراع الطبقي. وهذا التعميم خاطيء من وجهة النظر العلمية وذلك للأمور التالية:

أولاً ـ إن الماديين نظروا إلى تاريخ أوروبا والحالة الطبقية السائدة فيها في فترة محدودة، وأعطوا حكمًا عاماً على التاريخ البشري. ولو أنهم اكتفوا بالحكم على تاريخ أوروبا دون أن يعمموا على تاريخ الأمم الأخرى وبخاصة الأمة الإسلامية لكان ما قالوه صحيحاً إلى حد كبير، لأن الصراع الطبقي ونظام الطبقات كان موجوداً في أوروبا منذ أمدٍ بعيد. ثم إنهم لم يدرسوا تاريخ البشرية كله، بل درسوا تاريخ أوروبا في فترةٍ معينةٍ وأصدروا حكمهم. والباحث العلمي المنصف يجب عليه حتى تكون نظريته علمية مقبولة أن يدرس تاريخ جميع الأمم ليصدر حكمًا قاطعاً. بل أتساهل قليلاً معه فأقول: يدرس تاريخ الأمم المعلومة وتاريخ الإسلام لا يجهله أحد... فكيف يصدرون حكمًا قاطعاً ويزعمون أنهم علميون ونظريتهم قائمة على أسس علمية وهم يغفلون تاريخ الإسلام؟ اللهم لأن تاريخ الإسلام يهدم نظريتهم في صراع الطبقات من أساسها.

وقبل الحديث عن موقف الإسلام من الطبقات، لا بد من الحديث عن مفهوم الشيوعية للطبقة، ثم بيان وضع الطبقات في المجتمعات الأوروبية وعرضها على الإسلام، لنرى هل أقر الإسلام النظام الطبقي، أم دمره من أساسه؟.

مفهوم الطبقية عند الماركسيين:

يرى أصحاب التفسير المادي للتاريخ أن الأساس الواقعي للتركيب الطبقي ولظهور أي طبقة في المجتمع هو العامل الإقتصادي. لأن إنقسام المجتمع إلى طبقتين، طبقة تملك كل وسائل الإنتاج

وأُخرى لا تملك منها شيئاً، هو السبب التاريخي لوجود الطبقات في المجتمعات البشرية بأشكالٍ متنوعة تبعاً لنوعية الإستغلال الذي تمارسه الطبقة الحاكمة على الطبقة المحكومة. والنتيجة التي تترتب على هذا التقسيم الطبقي القائم على الأساس الإقتصادي هي: أن النشاط في ميادين العمل هو الأسلوب الوحيد لكسب المقام الإجتماعي. والسؤال الذي يطرح في هذا المقام هو: متى كان النشاط في ميادين العمل هو الطريق الأساسي لتكوين الطبقة الحاكمة في المجتمع؟ على أساس أن الذي يملك هو الذي يحكم، وإذا كانت هذه النتيجة تنطبق على الرأسمالية كما يريد الماركسيون فإنها لا تنطبق على المراحل التاريخية السابقة.

ويحق لي أن أتساءل: كيف نفسر الحدود الفاصلة التي كانت توضع في المجتمع الروماني، بين طبقة الأشراف ومجموع العامة بما فيهم طبقة رجال الأعمال الذين كانوا يدانون النبلاء في ثرواتهم، ويتمتعون بملكيات لا تقل عن ملكيات أولئك النبلاء على الرغم من التفاوت الكبير بين مقامهما الإجتماعي؟ ثم كيف نفسر قيام الطبقة الإقطاعية في أوروبا الغربية نتيجةً للفتح الجرماني إذا لم نفسره تفسيراً عسكرياً وسياسياً؟ وحتى إنجلز اعترف بأن القواد الفاتحين الذين تكونت منهم تلك الطبقة لم يكن مقامهم الإجتماعي ناتجاً عن الملكية الإقطاعية وإنما تكونت ملكيتهم الإقطاعية هذه تبعاً لدرجتهم الإجتماعية وامتيازاتهم العسكرية والسياسية الخاصة، بوصفهم غزاة فاتحين دخلوا أرضاً واسعة فتقاسموها فكانت الملكية أثراً ولم تكن هي العامل المؤثر.

وقد يحاول الماركسيون أن يدافعوا عن مفهومهم للطبقية عن طريق القول بالعلاقة المتبادلة بين العامل الإقتصادي وشتى العوامل

الإجتماعية الأخرى، الأمر الذي يجعله يتأثر بها وتتأثر به. ولكن هذه المحاولة تكفي لنسف التفسير المادي للتاريخ من أساسه، والقضاء على مجده العلمي الشامخ في عالم الماركسية، لأنه لا يختلف عندئذ عن التفاسير الأخرى للتاريخ إلاَّ في التأكيد على أهمية العامل الإقتصادي نسبياً مع الإعتراف بالعوامل الأخرى الأصيلة التي تساهم في صنع التاريخ[٢٨].

نظام الطبقات في أوروبا:

إذا استعرضنا تاريخ أوروبا في العصور الوسطى مثلاً وجدنا طبقات النبلاء ورجال الدين والشعب طبقات متميزة يختلف بعضها عن بعض.

وكان رجال الدين يتميزون بلباسهم الخاص، كما كانت لهم أموال طائلة من الأوقاف التي وقفها عليهم المتدينون، ومن الإتاوات التي يفرضونها هم على الناس، بل إنه كانت للكنيسة جيوش كبيرة في بعض الأحيان.

أما النبلاء فكانوا طبقة تتوارث الشرف بعضها عن بعض بحيث يولد الطفل فإذا هو شريف منذ مولده، ويظل على هذه الصفة حتى الموت.

وقد كانت لهم إمتيازات كثيرة. فقد كانوا هم السلطة التشريعية والقضائية والتنفيذية، وكانت أهواؤهم هي القانون الذي ينفذ على الشعب البائس، وكانت الكنيسة لا تحكم حياة الناس بشرع الله،

---

(٢٨) انظر إقتصادنا، ص ١١١ ـ ١١٣.

لذلك جاءت التشريعات التي سنوها بقوانين تهدف إلى حماية مصالحهم والحفاظ على إمتيازاتهم.

أما الشعب فقد كان محروماً من الحقوق والإمتيازات في الوقت الذي كان مكلفاً فيه بالقيام بجميع الواجبات. وكان يتوارث الذل والفقر والعبودية جيلاً بعد جيل.

وفي العصر الحديث قامت البرجوازية مقام الأشراف ولكن من وراء ستار مع بعض التعديلات التي اقتضاها التطور الإقتصادي، ولكن الجوهر لم يتغير. فهي طبقة تملك المال والسلطان والقوة التي تسير دفة الحكم.

هذا هو نظام الطبقات عرضته بشكلٍ مبسط، ويتلخص في حقيقة أساسية هي: إن الذي يملك هو الذي يحكم. فالطبقة المالكة للمال هي الطبقة الحاكمة التي تملك وسائل التشريع بطريقة مباشرة أو غير مباشرة فتشرع لحماية نفسها من المعارضين، وتفرض سيطرتها على الشعب حتى يظل خاضعاً لسلطانها محروماً من كثير من حقوقه إرضاء لشهواتها.

هذا هو وضع الطبقات الذي استمد منه ماركس أصول نظريته في الصراع الطبقي. ولو أنه اكتفى بالحكم على هذا الوضع السيء في أوروبا الناشيء عن غياب شرع الله عن التطبيق، لكان ما قاله صحيحاً إلى حدٍ ما. ولكنه يزعم العلمية لنفسه وأن نظريته في التفسير المادي للتاريخ هي النظرية العلمية الوحيدة التي فسرت تاريخ البشرية لأول مرة في الحياة، ومع ذلك يصدر حكماً قاطعاً بأن تاريخ البشرية كله كان مسرحاً للصراع الطبقي. ولبيان فساد هذا الزعم أعرض نظام الطبقات على المفاهيم الإسلامية.

نظرة الإسلام إلى الطبقات:

إن الإسلام الذي ارتضاه الله للبشرية عامة ديناً لا يقر نظام الطبقات، لأنه لا يوجد في أصوله وتعاليمه مزايا تؤخذ بالميراث كما كان الحال في طبقة الاشراف. بل إن الشريف في ميزان الإسلام هو التقي مهما كان نوعه ومهما كان جنسه ولونه.

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾(٢٩).

خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم في وسط أيام التشريق فقال: «يا أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا عجمي على عربي ولا لأسود على أحمر ولا أحمر على أسود إلَّا بالتقوى. أبلغت. قالوا بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم»(٣٠).

هذا هو الأساس العام الذي انطلق منه الإسلام في دعوته. والخروج على هذا النظام هو خروج عن تعاليم الإسلام، لا يصح أن ينسب إليه بحال من الأحوال. والطبقات التي وجدت في تاريخ المسلمين هي طبقات خارجة عن تعاليم الإسلام بهذا الشأن، ولا يقرها على تصرفاتها مسلم، وهي ليست حجة على الإسلام لأن أصوله ثابتة ومحفوظة. فالخطأ في تطبيقها إنما يعود لفهم الناس الخاطيء، وليس للدين ذاته ولله الحمد والمنة.

---

(٢٩) الحجرات ١٣.

(٣٠) مسند الإمام أحمد، ج ٥، ص ٤١١.

وليس في الإسلام قوانين تحتفظ بالثروة في يد قوم معينين وقاعدته في المال معروفة وهي:

﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾[٣١].

كما وضع قوانين الميراث التي تفتت الثروة بصفة دائمة وإعادة توزيعها في المجتمع بنسب جديدة على الدوام.

وأهم شيء في الإسلام هو أن الحكم منزوع من البشر الأغنياء منهم والفقراء على حد سواء، فهم لا يضعون شرعاً من عند أنفسهم ليحكموا به غيرهم. وذلك لأن الحكم والتشريع لله سبحانه وتعالى والبشر منفذون لحكم الله وشرعه لا غير، ولا فرق بين كون الحاكم المنفذ لشرع الله فقيراً، أو غنياً. لأن المقياس هو التقوى والمسلمون هم الذين يختارون حاكمهم.

يقول شيخنا الأستاذ محمد قطب: «ولا يملك أحد أن يشرع على مزاجه في الدولة الإسلامية، لأن الشريعة السماوية المنزلة هي التي تحكم الجميع بلا محاباة لأحد ولا ظلم لأحد. ومن هنا ينتفي بتاتاً وجود طبقات في الإسلام لأن وجود الطبقات مرتبط إرتباطاً لا ينفصم بمزية التشريع. فإذا بطلت هذه المزية ولم يكن في وسع أحد أن يضع لنفسه قانوناً يحمي به مصالحه على حساب شخص آخر. فماذا بقي من نظام الطبقات»؟[٣٢].

وقبل أن أنهي حديثي عن هذا الموضوع أنقل رأي الكاتب الماركسي سدني هوك حيث يقول: «إذا تطرق الشك إلى نظرية صراع

---

(٣١) الحشر ٧.

(٣٢) شبهات حول الإسلام، ص ١٠١ ــ ١٠٢، وانظر الفصل بكامله في هذا الكتاب.

الطبقات بان فسادها، فبانَ صرح النظريات الماركسية ينهار من أساسه»[٣٣].

أقول إن فساد نظرية صراع الطبقات قد ظهر خلال البحث من عدة زوايا، وبناءاً على هذا فإن كل حكم حتمي أصدروه على أساس الصراع الطبقي باطل، لأن ما بني على الباطل فهو باطل. والسؤال الذي يطرح على الماديين هو: أين العلمية التي تزعمونها في تفسيركم للطبقات، والإسلام يكذبها حيث لا يسمح بوجود الطبقات والصراع الطبقي؟ وأين العلمية كذلك وهي لم تبن على دليلٍ علمي قاطع، لأن حوادث التاريخ عندكم مشوشة ومستورة قبل عام ١٨١٥؟ وأين هي كذلك والأساس الإقتصادي الذي قررتم أن الطبقات قامت على أساسه. لا يخدمكم في عمليتكم المزعومة، لأنه لا ينطبق على مراحل ما قبل الرأسمالية حيث وجدت طبقات لم تقم على أساس إقتصادي؟ وأين العلمية كذلك والإنسان قد وصل إلى تدجين الحيوانات وزراعة الأرض قبل ظهور الطبقات؟.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧﴾[٣٤]

الرق والاقطاع:

من خلال عرض وجهة نظر الماديين لمراحل التطور في التاريخ البشري وحتمياته، تبين لي أن الأساس الذي يقوم عليه بناؤهم هو: أن البشرية لا بد أن تمر بخمس مراحل حتمية الوقوع وراجعةً إلى أسباب اقتصادية.

ومن بين هذه المراحل نظام الرق الذي ظهر على أثر انهيار نظام الملكية الجماعية، نتيجة لتطور القوى المنتجة، وظهور الملكية الخاصة

(٣٣) كتب غيرت وجه العالم، ص ١٦٤.

(٣٤) سورة ق آية ٣٧.

لوسائل الإنتاج. وكانت الطريقة التي يتم الحصول بها على الرقيق هي الغزوات المتكررة بين القبائل، فكانت القبيلة المنتصرة تستعبد أفراد القبيلة المهزومة. ثم ازدادت الحاجة إلى الرقيق نتيجة لاكتشاف الزراعة، وتوسعت دائرة الرق فأصبحت تشمل المدينين نتيجة لظهور الاقراض الربوي وعجز المدين عن السداد. وكان الرقيق يعامل معاملة قاسية لا كرامة له ولا حرية، يقتله سيده متى شاء، ويضربه بلا ذنب. وقد تمرد العبيد كثيراً على المعاملة القاسية التي كانوا يعاملون بها وكان أشهر حركاتهم ثورة اسبارطاكوس سنة ٧٣ ــ ٧١ ق.م، التي هزت أركان الدولة الرومانية.

ثم انهار نظام الرق وأصبح الرقيق عالة على أسيادهم، حين أصبح هذا النظام مناقضاً لطابع قوى الإنتاج. ولأجل بناء اقتصادٍ جديد لا بد من علاقات إنتاجية جديدة. ونتيجة للعلاقات الإنتاجية جاء النظام الاقطاعي، وحل محل نظام الرق. ويوجد بين النظامين تشابه من حيث كونهما يعتمدان على أدوات إنتاج ضعيفة.

ويتميز النظام الاقطاعي بأن علاقات الإنتاج فيه قائمة على ملكية الاقطاعي للأرض كوسيلة رئيسية للإنتاج، وقيام ارتباط الفلاحين بالاقطاعيين داخل حدود معينة. وكانت معاملة الفلاح قاسية جداً، فقد كان محروماً من الحقوق السياسية وكان مجبراً على العمل مجاناً معظم أيام الأسبوع. وكان لا يستطيع ترك السيادة الاقطاعية، وكثيراً ما تمرد الفلاحون على الوضع السيء. ولكن محاولاتهم باءت بالفشل لقوة الاقطاعي، ولعدم تنظيم الفلاحين وتحديد أهداف سياسة واضحة لهم.

وكانت الطبقة المسيطرة هي طبقة الملاك ورجال الدين، فقد

كانت الكنيسة في ذاك الوقت أكبر الاقطاعيين، تستغل الناس باسم الدين.

مناقشة مرحلة الرق:

هذه هي الصورة التي رسمها الماديون لوضع الرقيق والفلاح في أوروبا، وكانوا صادقين إلى حدٍ كبير في بيان هذا الوضع السيء الذي كان عليه الناس في ذلك الوقت وفي تلك البلاد. ولكنهم أخطأوا في علاج القضية حين اعتبروا أن هذه المعاملة السيئة ناشئة عن الملكية الخاصة، ولم يردوها إلى طبيعة الانسان التي تحتوي على الخير والشر والتي يغلب عليها الشر حين لا تلتزم بشرع الله.

والذي يهمني في هذا البحث هو أن الماديين درسوا حالة الرق والاقطاع في حياة أوروبا، ثم أصدروا حكمًا قاطعاً يفيد بأن جميع البشر مروا بهاتين المرحلتين نتيجة لحتمية التطور التي تعود إلى الأسباب الاقتصادية. ولو أنهم وقفوا عند حدود أوروبا لكان ما قالوه صحيحاً نسبياً وذلك لأن أوروبا لم تعرف الدين الصحيح المنزل من عند الله، ولم تحكم بشرعه في حياتها، وسنة الله التي لا تتبدل وهي: أنه حين يغيب شرع الله عن التطبيق يصبح المجال مفتوحاً أمام أهواء البشر ليشرعوا للناس ما يريدون ويستغلوهم كما يشاؤون. ولو كانوا علميين كما يزعمون لما عمموا حكمهم على جميع الناس وجعلوه شاملاً يشمل فيما يشمله تاريخ الاسلام.

يقول الأستاذ سيد قطب: «ولكن الماركسية ـ المذهب العلمي ـ تريح نفسها من متاعب (الدراسة العلمية) لكل عوامل التاريخ، ولكل دوافع الانسان.. فهي تختار عنصراً واحداً من عناصر

الحياة ــ عنصر الاقتصاد ــ وتعتبره ــ كما قلنا ــ ،إلهاً لا راد لمشيئته، ولا معقب لحكمه،ولا حيلة للإنسان في«حتمية»ما يراه !

غير أنها لا تدرس آثار قدرة هذا الاله في تاريخ العالم. . . إنما تدرسه في تاريخ أوروبا· ثم تعمم حتمية إرادته على الأرض كلها. وهذه كذلك إحدى تحريفات (المذهب العلمي) القائم على الاستقصاء !

ومن ثم يعتبر الماركسيون أن تاريخ أوروبا هو تاريخ العالم، وأن إله الاقتصاد الذي حكم تاريخ أوروبا هو الذي يحكم تاريخ العالم، ويقررون حتمية تلك الأطوار في تاريخ العالم استناداً إلى ما وقع في تاريخ أوروبا من وجهة نظرهم، التي تنحى كل العوامل في تاريخ البشر، لتقرر وحدانية إله الاقتصاد بالعمل !

وهم-طبعاً ــ لا يمكن أن يخطر على بالهم أنه على فرض أن هذا التاريخ صحيح، وعلى فرض أنه تاريخ العالم لا تاريخ أوروبا. . . فإن هذه الأطوار تأرجحت هكذا بين طرفي الغلو دائماً، ولم يعتدل بها الميزان أبداً، ووجدت فيها المتناقضات المتصارعة، نظراً إلى أنها قامت على مناهج من صنع الانسان الجاهل بنفسه وبحاجاته الحقيقية، المثقل في أحكامه وتصرفاته واختياراته بآثار هذا الجهل، وبالضعف البشري، والهوى المتقلب، والشهوات العمياء، وإنه في الوقت ذاته لم يستعن بمنهج الله ليضبط هذه الشهوات، وهذا الهوى وهذا الضعف، وهذا الجهل بضابط ثابت يخفف على الأقل من هذه الاندفاعات البشرية على غير هدى في كل اتجاه!.

لا يمكن-طبعاً-أن يخطر هذا على بالهم. وهم يقيمون فلسفتهم الاقتصادية إبتداءً على أساس المذهب المادي الذي ينكر أن يكون لهذا

الكون إله. وهم يسخرون أشد السخرية ممن يعتقدون بوجود الله»[٣٥].

وحتى يظهر زيف نظريتهم في تطور التاريخ البشري لا بد من عرض لمحة من تاريخ الاسلام تلغي هذه «الحتمية» إلغاءً كاملاً وتبطلها من الأساس. شرع الاسلام العتق ولم يشرع الرق إذ كان الرق مشروعاً قبل الاسلام في القوانين الوضعية والدينية بجميع أنواعه. رق الأسر في الحرب، ورق السبي في غارات القبائل بعضها على بعض، ورق البيع والشراء ومنه رق الاستدانة أو الوفاء بالديون... وكانت اليهودية تبيحه ونشأت النصرانية وهو مباح فلم تحرمه بل أمرت العبيد بطاعة أسيادهم كما يطيعون المسيح، كما جاء على لسان بولس في رسالته إلى أهل أفس[٣٦]. والتي جاء فيها: «أيها العبيد أطيعوا سادتكم حسب الجسد، بخوف ورعدة في بساطة قلوبكم كما للمسيح لا بخدمة العين كمن يرضى الناس، بل كعبيدٍ للمسيح عاملين مشيئة الله من القلب خادمين بنية صالحة كما للرب ليس للناس»[٣٧].

أما الاسلام فقد جفف منابع الرق كلها ولم يبق إلا منبعاً واحداً وهو رق الحرب معاملةً بالمثل لأنه ليس من مصلحة المسلمين أن يسترق أبناؤهم دون أن يردوا على أعداءهم بالمثل.

---

(٣٥) الاسلام ومشكلات الحضارة، ص٨٨ ــ ٩٠.
(٣٦) أنظر حقائق الاسلام وأباطيل خصومه. ص ٢٠٠.
(٣٧) أفسس ٦: ٥ ــ ٧.

معاملة الاسلام للرقيق:

منح الاسلام الرقيق مجموعةً من الامتيازات أذكر بعضها فيما يلي:

١ ـ قرر وحدة الأصل والمصير. قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾[٣٨]

وفي حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب الناس يوم فتح مكة فقال: يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عبية[٣٩] الجاهلية وتعاظمها بآبائها فالناس رجلان رجل برٌ تقي كريم على الله وفاجر شقي هين على الله. والناس بنوآدم وخلق الله آدم من تراب قال الله:

﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾[٤٠].

٢ ـ رد لهم إنسانيتهم المسلوبة وقرر أنه لا فضل لسيدٍ على عبده لمجرد أن هذا سيد وهذا عبد. قال الله تعالى:

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾[٤١]

---

(٣٨) الحجرات، ١٣.

(٣٩) نخوة الجاهلية وفخرها وكبرها.

(٤٠) جامع الترمذي مع شرحه تحفة الأحوذي، ج ٤، ص ١٨٦.

(٤١) آل عمران، ١٩٥.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبته في وسط أيام التشريق: «يا أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا عجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى. أبلغت. قالوا بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم»[42].

٣ ـ لم يعد الرقيق «شيئاً» وإنما صار بشراً له روح كروح السادة. فقد كانت الأمم الماضية تعتبره جنساً آخر غير جنس السادة لا تتأثر من قتله وتعذيبه. ولكن الاسلام رفعه إلى مستوى الأخوة الكريمة وضرب الأمثلة الرائعة في حسن معاملته، لأن حسن المعاملة يعيد للنفس توازنها ويرد إليها اعتبارها فتشعر بكيانها الانساني وكرامتها الذاتية.

ووصلت معاملة الاسلام الحسنة للرقيق إلى درجة عجيبة، ضربت أمثلة سابقة من قبل في آيات كتاب الله وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسرد هنا أمثلةً من التطبيق العملي.

آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين بعض الموالي وبين بعض أصحابه. فقد آخى بين بلال بن رباح وخالد بن رويحة الخثعمي، وبين مولاه زيد بن حارثة وعمه حمزة بن عبد المطلب، وبين خارجة بن زيد وأبي بكر الصديق رضي الله عنهم أجمعين. كما زوج صلى الله عليه وسلم إبنة عمّته زينب بنت جحش الهاشمية القرشية من مولاه زيد بن حارثة، كما أمّر رسول الله صلى الله عليه وسلم مولاه زيد بن حارثة على رأس الجيش المسلم الذي ذهب لمحاربة الروم في مؤتة، ثم إنه صلى الله عليه وسلم أمّر أسامة بن زيد على

---

(٤٢) مسند الامام أحمد، ج ٥، ص ٤١١.

رأس جيش آخر ليحارب الروم، وكان من بين جنده أبوبكر وعمر رضي الله عنهم.

فالاسلام لم يعط العبد حق المساواة الانسانية فحسب، بل أعطاه حق القيادة والسياسة والرئاسة على الأحرار. عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة»[٤٣].

كما أن الاسلام إعتبر الرقيق كائناً إنسانياً له كرامة يحميها الشرع فلا يجوز الاعتداء عليها بالقول ولا بالفعل. أما القول فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم السادة عن تذكير الأرقاء بأنهم أرقاء. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يقل أحدكم لعبده عبدي، ولكن ليقل فتاي، ولا يقل العبد لسيده ربي ولكن ليقل سيدي»[٤٤]. وعن المعرور بن سويد قال: دخلت على أبي ذربالربذة فإذا عليه برد وعلى غلامه مثله. فقلت يا أبا ذر لو أخذت برد غلامك إلى بردك فكانت حلة وكسوته ثوباً غيره قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يديه فليطعمه مما يأكل وليكسه مما يلبس ولا يكلفه ما يغلبه. فإن كلفه ما يغلبه فليعنه[٤٥]». أما الاعتداء الجسدي فعقوبته صريحة وهي المعاملة بالمثل[٤٦]. عن سمرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من قتل عبده قتلناه ومن جدع عبده جدعناه»[٤٧].

(٤٣) نفس المصدر، ج ٣، ص ١١٤.
(٤٤) نفس المصدر، ج ٢، ص ٤٤٤.
(٤٥) سنن أبي داود، ج ٥، ص ٣٦٠.
(٤٦) موضع خلاف فقهي بين العلماء.
(٤٧) نفس المصدر، ج ٣، ص ٦٥٢ ــ ٦٥٣.

والاسلام شجع بكل الوسائل على تحرير العبيد، فهو بعد أن حرر العبد من الداخل ورد له كرامته الانسانية طلب من الناس أن يقدموا على الخطوة الثانية وهي تحريره من الخارج. وسلك الاسلام سبيلين في تحرير الرقيق. الطريق الأول: العتق وهو التطوع من جانب السادة بتحرير من في يدهم من الرقيق، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم القدوة الأولى في ذلك، إذ أعتق من كان عنده من الأرقاء، وتلاه أصحابه رضي الله عنهم. فقد كان أبوبكر الصديق رضي الله عنه ينفق أموالاً كثيرة في سبيل الله تعالى لتحرير الرقيق، وقد حرر رضي الله عنه بلالاً الحبشي رضي الله عنه.

وكان بيت مال المسلمين يشتري العبيد من أصحابهم ويحررهم كلما بقيت لديه فضلة من المال حتى أنه في عهد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ـ الذي أغنى الناس بعدله ـ حين امتنع الناس عن أخذ الصدقة ـ لأنه لم يكن هناك من يأخذها ـ إشترى بأموال الزكاة عبيداً وأعتقهم.

حدث يحيى بن سعيد قال: «بعثني عمر بن عبد العزيز على صدقات افريقية فاقتضيتها وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد بها فقيراً ولم نجد من يأخذها، قد أغنى عمر الناس فاشتريت رقاباً فاعتقتهم وولائهم للمسلمين»[٤٨].

وجعل الاسلام العتق من كفارات بعض الذنوب كالقتل الخطأ وكفارة الايمان وانتهاك حرمة رمضان وغيرها.

الطريق الثاني: وهو طريق المكاتبة:

والمكاتبة هي: «منح الحرية للرقيق متى طلبها بنفسه مقابل مبلغ

---

(٤٨) الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز، ص ٢٢٢.

من المال يتفق عليه السيد والرقيق. والعتق هنا إجباري لا يملك السيد رفضه ولا تأجيله بعد أداء المبلغ المتفق عليه، وإلا تدخلت الدولة «القاضي أو الحاكم» لتنفيذ العتق بالقوة ومنح الحرية لطالبها. وبتقرير المكاتبة فتح في الواقع باب التحرير في الاسلام لمن أحس في داخل نفسه برغبة التحرر ولم ينتظر أن يتطوع سيده بتحريره في فرصة قد تسنح أو لا تسنح على مر الأيام»[٤٩].

بعد هذا أقول للماديين: أين الحتمية الاقتصادية التي جعلت الاسلام يجفف منابع الرق ويلغيه من الوجود ويسبق الأمم بسبعة قرون؟ وأين العلمية في قولكم إن البشرية مرت بهذه الأطوار الحتمية؟ وإن كل نظام ــ بما فيه الاسلام ــ إن هو إلا انعكاس للطور الاقتصادي القائم وقت ظهوره؟ وهذا الاسلام لم يعمل بوحي النظم الاقتصادية القائمة في العالم كله. حين جفف منابع الرق، بل كان هذا تفضلاً من الله سبحانه وتعالى وأمراً منه بإقامة العدل في الأرض.

مناقشة الاقطاع:

يحسن بي قبل مناقشة المرحلة الاقطاعية أن أعرض صورة الاقطاع التي كانت قائمة في أوروبا ليرى القاريء كيف أن ماركس اعتمد على هذه الصورة المظلمة فأصدر حكمًا حتمياً قطعياً. وهو أن البشرية كاملة مرت بمرحلة الاقطاع لأنه طور حتمي لا خيار لأمة من الأمم في تجاوزه.

---

(٤٩) شبهات حول الاسلام، ص ٤١ ــ ٤٢. وانظر بالتفصيل حول هذا الموضوع نفس المصدر فصل الاسلام والرق وظلال القرآن، ج ٢، ص ١٧٠ ــ ١٧١. وكتاب حقائق الاسلام وأباطيل خصومه. وكتاب لا رق في الاسلام، ص ٣١ ــ ٣٥. وكتاب أجنحة المكر الثلاثة، ص ٤٧٤ ــ ٤٩٢.

كان النظام المسيطر على الحياة الأوروبية في القرن الخامس عشر هو النظام الاقطاعي الذي عاصر النصرانية في عنفوان شبابها. والسمة البارزة لهذا النظام، وكل نظام جاهلي هو عدم الحكم بما أنزل الله. وقد عرفنا أن الكنيسة حرَّفت دين الله فلم تحكم حياة الناس بشرع الله. إنما كان الحكم للطاغوت الذي شرع للناس على هواه.

وكان مبدأ الكنيسة هو فصل الدين عن الدولة الذي أعطى للطاغية شرعية في أن يحكم حياة الناس. والنتيجة المنطقية التي لا تتغير هي: أنه حين لا تحكم شريعة الله حياة الناس يسود الظلم والفساد وينتشر العدوان، ويأكل القوي حقوق الضعفاء. وهذه هي الصورة التي كانت تسيطر على النظام الاقطاعي ــ وكل نظام لا يحكم بشرع الله ــ والتي تعاني البشرية منها عناءً شديداً. كان الانسان في ظل هذا النظام الجاهلي المنحرف مسلوب الإرادة مهدر الكرامة. وقد كانت الدول الأوروبية التي تتكون منها القارة الأوروبية عبارة عن مجموعة من الاقطاعيات تخضع لملك أو امبراطور مركزي، كل همه أن يحصل على الجنود والضرائب من السيد ــ مالك الاقطاعية ــ أما داخل الاقطاعية فكانت تبرز الصورة البشعة لنظام الاقطاع. وعلى الرغم من اختلاف أشكال الاقطاع باختلاف العصور والأقاليم، فإن ملامحه العامة وجوهره الموحد يمكن أن يحصرا في تقسيم المجتمع إلى طبقتين: الطبقة العليا التي كانت تشمل السادة الملاك ورجال الكنيسة وهذه الطبقة في قمة الترف والبذخ، والطبقة السفلى وتشمل العبيد ورقيق الأرض، وصغار القساوسة والزهاد من رجال الكنيسة.

أما حقوق وواجبات كل فرد من هذه الطبقات فكانت كما يلي:

١ ــ **السيد المالك**، وقد كان هو المسيطر الفعلي وصاحب النفوذ القوي، وكان يملك حقوقاً لا حصر لها في حين ليس عليه أي واجب،

وكان من حقه أن يضرب رقيق أرضه أو يقتلهم في بعض الأحيان دون أن يخشى عقاباً، وكانت له في أملاكه كل السلطات العسكرية والقضائية، وكان في وسعه أن يمتلك أكثر من إقطاعية وأن يبني في كل واحدة قصراً حصيناً[٥٠].

وكان الشريف يظل شريفاً في ظل النظام الاقطاعي حتى الموت. والعبد يولد عبداً ويظل عبداً حتى الموت، حيث يقوم توزيع أعضاء المجتمع الاقطاعي على العامل الوراثي وحده، إلا إذا حدث تبدل فجائي كامل على الحياة فينقطع ولكنه يعود إلى الحكم من جديد بعد أن تستقر الأوضاع.

٢ ـ **رجال الدين**: يقول إنجلز: «وكانت هناك فئتان متمايزتان بين رجال الدين، فكانت المراتب العليا الاقطاعية من رجال الكنيسة هي الطبقة الارستقراطية: الأساقفة ورؤساء الأساقفة ورؤساء الأديرة والمطارنة وغيرهم من كبار رجال الكنيسة، وكانت هذه الشخصيات الكنسية الكبيرة نفسها إما أمراء امبراطوريين وإما يمدون سلطانهم كالأمراء الاقطاعيين على مساحات شاسعة من الأرض تشمل عديداً من الأقنان والعبيد في ظل سيادة غيرهم من الأمراء. ولم يكونوا يستغلون تابعيهم بلا شفقة كالفرسان والأمراء بل كانوا أبعد شأواً منهم. فإلى جانب استخدامهم للقوة الغاشمة، كانوا يستخدمون كافة أساليب استغلال الدين وإلى جانب الخوف من السوط كان هناك الخوف من الحرمان ورفض التوبة.

«وكانوا يستخدمون كافة مؤامرات الاعتراف لكي يسحبوا آخر قرش من رعاياهم أو ليزيدوا نصيب الكنيسة، وكان تزوير الوثائق وسيلة شائعة ومحببة للاحتيال عند هؤلاء الأفاضل».

---

(٥٠) قصة الحضارة. ج ١٤، ص ٤١٨، ٤٢٤. بتصرف ٤٢٤.

«ورغم أنهم كانوا يتلقون العشور من رعاياهم بالاضافة إلى الواجبات الاقطاعية وريع الأرض، فقد كانت حاجتهم إلى المال لا حد لها، وكانوا يلجأون إلى تلفيق الصور المقدسة والتمائم صانعة المعجزات ويقيمون بيوت الصلاة المقدسة ويتاجرون في صكوك الغفران، كل هذا لكي يعتصروا أكثر ما يمكن من المال من الشعب. ولقد صادفوا في هذا السبيل نجاحاً لمدة طويلة من الزمن».

«ومع انتشار مطاردة الزنادقة السياسيين والدينيين، تركزت كراهية الشعب بل والنبلاء على كبار رجال الكنيسة هؤلاء، وجيشهم من الرهبان الذين كان يتزايد باستمرار. إذ كانوا يقفون عائقاً في وجه الأمراء لكونهم خاضعين مباشرةً للامبراطور».

«وكانت حياة اللذة والترف التي يحياها الأساقفة ورؤساء الأديرة وجيشهم من الرهبان تثير حسد النبلاء وغضب الشعب الذي كان عليه أن يتحمل نفقتها. وكلما ازداد غضب الشعب ازداد التناقض بين عظات رجال الدين وأفعالهم»[٥١].

أما صغار القساوسة والزهاد من رجال الكنيسة فقد كانوا يعيشون بحالة لا يحسدون عليها: يقول إنجلز: «أما القسم الثاني من عامة رجال الكنيسة فقد كان يتألف من وعاظ القرى والمدن. وكان هؤلاء يقفون خارج دائرة السلم الاجتماعي الاقطاعي كما لم يكن لهم نصيب في ثرواتها»[٥٢].

٣ ـ رقيق الأرض: وأترك الكلام لإنجلز يصور واقعهم

---

(٥١) حرب الفلاحين في ألمانيا. فريدريك إنجلز. تعريب محمد أبوخضور، ص ٣٤ ـ ٣٥ ـ دار دمشق للطباعة والنشر. وفصلت هذا القول في الطغيان السياسي والمالي الكنسي ـ التمهيد ـ.

(٥٢) نفس المصدر، ص ٣٥.

السيء المرير. «فقد كان الفلاحون هم الذين يعولون بقية فئات المجتمع. الأمراء الموظفون، النبلاء، رجال الكنيسة، الأشراف وأصحاب الحرف والتجار. وأياً كان السيد الذي يستعبد الفلاح، أميراً أو باروناً أو أسقفاً، ديراً أو مدينةً فقد كان الجميع يعاملونه باعتباره شيئاً حيواناً لحمل الأثقال أو أقل.

«فإذا كان رقيقاً كان تحت رحمة سيده تماماً. وإذا كان قناً فإن الالتزامات القانونية المسجلة في الاتفاق كانت كافية لسحقه، ورغم ذلك فقد كانت تلك الالتزامات تزداد يوماً بعد يوم. فكان عليه أن يعمل في إقطاعية سيده معظم وقته، ومما كان يكسبه في الساعات القليلة الحرة كان عليه أن يدفع العشور والجمارك والايجار والضرائب للطرق وضرائب (الحروب) والضرائب الامبراطورية والمحلية، ولم يكن يستطيع أن يتزوج أو يموت دون أن يدفع لسيده.

وإلى جانب العمل الملتزم به قانوناً كان عليه أن يجمع النفايات ويقطف التوت، ويلتقط المحار ويسوق الكلاب عند الصيد ويقطع الأخشاب... إلخ لسيده. وكان حق صيد البر والبحر من حقوق السيد فقط وكان الفلاح ينزوي جانباً في هدوء، ويرقب محصوله يدمر أثناء الصيد، وكان السادة يغتصبون مراعي وغابات الفلاحين العامة في كل مكان، وكان السيد يفرض تحكمه على شخص الفلاح وعلى زوجته وبناته تماماً كما يتحكم في ممتلكاته، وكان له حق الليلة الأولى، وكان يلقي بالفلاح في سجن قلعته عندما يرى ذلك مناسباً، وكانت آلات التعذيب تنتظر الفلاح هناك تماماً كما ينتظر المحقق المقبوض عليهم في أيامنا هذه. وكان يقتله أو يقطع رقبته عندما يروق له ذلك. ولم يكن هناك فصل واحد من الفصول الملهمة في «الكارولينا»[٥٣]

(٥٣) كتاب حول التعذيب.

حول «قطع الأذن» و«جدع الأنف» و«خرق العين» و«قطع الأصابع والأيدي» و«حز الرأس» و«الشد على عجلة التعذيب» و«الحرق» و«أسياخ الحديد المحمى» و«التربيع» أي قطع الجسم ٤ أجزاء... إلخ، لم يستعمله السيد الرحيم عندما يريد... ومن يدافع عن الفلاح؟ لقد كان يجلس في المحاكم القسس أو الأشراف أو القضاة الذين يعرفون جيداً لماذا يتقاضون أجورهم. لقد كانت كل الطبقات الرسمية في الامبراطوريه تعيش على ذبح الفلاح»(٥٤).

وفي الختام ألخص الواجبات التي كان يقوم بها رقيق الأرض للمالك عدا خضوعه المطلق لسلطته وارتباطه المحكم بإقطاعيته. وهذه الواجبات هي:

١ ــ يدفع الفلاح ثلاث ضرائب نقدية في السنة.
٢ ــ يعمل سخرة معظم أيام السنة.
٣ ــ ضريبة على كل سلعة يبيعها في السوق.
٤ ــ يفتدي سيده إذا أسر.
٥ ــ يدفع جزءاً من محصوله وماشيته.
٦ ــ يدفع أجراً للسماح بصيد الحيوان البري أو البحري.
٨ ــ يدفع رسماً إذا رفع قضية أمام محاكم المالك.
٩ ــ ينضم إلى فيالق المالك إذا نشبت الحرب.
١٠ ــ يقدم الهدايا لإبن المالك إذا رقي لمرتبة الفارس.
١١ ــ لا يبيع سلعةً إلا بعد بيع سلعة المالك نفسها باسبوعين.
١٢ ــ يشتري بعض بضائع سيده وجوباً.
١٣ ــ يدفع غرامة إذا أرسل إبنه ليتعلم أو وهبه للكنيسة.

---

(٥٤) نفس المصدر، ص ٤٢ ــ ٤٣.

١٤ ــ يدفع ضريبة مع إذن المالك إذا تزوج هو أو أحد أبنائه من خارج الضيعة.

١٥ ــ حق الليلة الأولى. وهي أن يقضي السيد مع عروس رقيقه الليلة الأولى. وكان يسمح له أحياناً ان يفتديها بأجر.

١٦ ــ ووراثة تركته بعد موته، تكون لسيد الأرض.

١٧ ــ يدفع ضريبة سنوية للكنيسة وضريبة للقائد الذي يدافع عن المقاطعة»[٥٥].

هذه هي الصورة القاتمة التي كانت ترزح تحت نير ظلمها الطبقات الفقيرة في أوروبا نتيجة لغياب شرع الله عن التطبيق. ولو أن ماركس ورفاقه إكتفوا بتصوير حالة أوروبا ولم يعمموا حكمهم على تاريخ العالم كله ومنه تاريخ الإسلام لكان حكمهم صحيحاً نسبياً بالنسبة للجاهلية الأوروبية، ولكن العيب جاء إلى نظريتهم من أنهم درسوا فترة ظالمة في حياة أمة من الأمم وهي أوروبا، وأصدروا حكماً قاطعاً بأن البشرية مرت حتماً بالظروف التي مرت بها أوروبا، ولا بد لهذه الأمم من التطور إلى مرحلة أرقى من المرحلة السابقة التي كانت تحياها.

موقف الإسلام من الإقطاع:

والذي يكشف زيف هذه النظرية هو تاريخ الإسلام. ولنناقش المقومات الأساسية للإقطاع في ضوء ما حدث في الإسلام.

---

(٥٥) مقتطفات منقولة عن قصة الحضارة، ١٤/٤٠٣ ــ ٤٤٧، فصل الإقطاع وعن إنجلز حرب الفلاحين، ٢٦ ــ ٤٤.

١ ــ **التبعية الدائمة**: وهذه مسألة لم يعرفها الإسلام قط في خارج دائرة الرق وقد ذكرت سابقاً ان الإسلام شرع العتق وجفف منابع الرق التي كانت موجودة قبله وأبقى الباب مفتوحاً لرق الحرب رغم انه فتح الأبواب التي بواسطتها يتمكن الأرقاء من العتق. وأرقاء الأرض كانوا لا يملكون تركها ولا التحرر من الإلتزامات الملقاة على عاتقهم لأصحابها. وهذه هي التبعية المقصودة في نظام الإقطاع. هذا اللون من التبعية لم يوجد في الإسلام لأن الإسلام لا يعترف بعبودية أحد لأحد، إلا العبودية لله سبحانه وتعالى. وأساس البنيان الإقتصادي في الإسلام لا يقوم على هذه التبعية، إنما يقوم على حرية العمل والتعاون بين الجميع ــ فيما عدا حالة الرق ــ وقد سعى الإسلام بكل الوسائل لتحرير الرقيق من الداخل والخارج. وقد كان بيت مال المسلمين يعول من تقصر به موارده عن الحياة الكريمة، أو يعجز عن العمل لأي سبب من الأسباب، ثم إن نظام التكافل بين الأقارب كان يكفي المعوزين منهم. وأعم من ذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم شدّد النكير على الحي الذي يبيت فيه جائع. عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من احتكر طعاماً أربعين ليلة فقد بريء من الله تعالى وبريء منه الله تعالى وأيما أهل عرصة أصبح فيهم أمرؤ جائع فقد برئت منهم ذمة الله تعالى»[٥٦].

«وما دامت كفالة الدولة موجودة فليس هناك ما يدفع أحداً إلى استرقاق نفسه لأصحاب الأرض وهو يملك الحرية والكرامة ومطالب الحياة الأساسية عن غير هذا الطريق.

(٥٦) مسند الإمام احمد بن حنبل، ج ٢، ص ٣٣.

«فمن الوجهة الروحية والوجهة الإقتصادية معاً منع الإسلام الإقطاع بصورته المعروفة وأدرك الناس قبل ان يصبحوا رقيقاً للأرض فحررهم من وبال الإقطاع»[٥٧].

أما الإلتزامات التي يلتزم بها الفلاح لسيده صاحب الأرض فلم يعرفها الإسلام بل ان في الإسلام ما يخالف هذه الإلتزامات التي كان يقوم بها الفلاح في أوروبا ولنعرضها على ميزان الإسلام.

١ ـ كان الجميع في ميزان الإسلام الغني والفقير جنوداً لدين الله سبحانه وتعالى. وكان الأغنياء يجهزون الفقراء بالسلاح كما فعل عثمان رضي الله عنه في تجهيز جيش العسرة في غزوة تبوك، وكثير من الصحابة الأغنياء رضي الله عنهم كذلك.

٢ ـ لم يكن في نظام الإسلام ما يجبر الفلاح على افتداء صاحب الأرض إذا أسر لإنتفاء التبعية بينهما، ولأن الفلاح غير ملزم بالعمل عند صاحب هذه الأرض أو ذاك إنما الخيار للفلاح، فهو يعمل عند صاحب الأرض إذا وافقته شروط العمل سواء كان العمل إيجاراً أو مزارعة، ويترك متى شاء إذا انتهى عقد العمل، لأن من أسس الإسلام الوفاء بالعقود. ثم إن إفداء الأسرى تقوم به الدولة أولاً. فإن كان هناك عجز في بيت مال المسلمين وموارده لا تكفي لسد نفقات الدولة فإن فداء الأسرى يجمع من الأغنياء إذا لم يستطع الأسير ان يفتدى نفسه بماله الخاص.

٣ ـ أما الضرائب فلم تفرض في الإسلام على الفقراء بل إن الفقراء يعطون من مال الزكاة وكذلك يعطى الأرقاء لمساعدتهم في الحصول على الحرية عن طريق المكاتبة. ولم يعرف الإسلام كثرة

---

(٥٧) شبهات حول الإسلام، ص ٦٨ ـ ٦٩.

الضرائب، بل فتح باب الصدقات أمام الناس ورتب عليه الأجر من الله تعالى، وجعل لولي الأمر الحق في أن يأخذ من أموال الأغنياء إذا اقتضت الضرورة ذلك.

٤ ــ أما أن يدفع الفلاح لصاحب الأرض جزءاً من محصوله وماشيته زيادة على نصيبه فهذا أمر لا يقره الإسلام، بل إن العكس من ذلك هو الصحيح حيث كان الأغنياء من أصحاب الأراضي هم الذين يعطون الفلاحين جزءاً من محصولهم وماشيتهم طيبة بها نفوسهم يتقربون بها إلى الله عز وجل، وكذلك الهدايا يقدمها الأغنياء للفقراء حتى في وقت بعد الناس عن تطبيق الإسلام كاملاً.

٥ ــ أما الإلتزامات عن طريق السخرة فهي لم توجد في نظام الإسلام. فلا سخرة ولا خدمة بلا ثمن، وإنما هو إلتزام بين طرفين متكافئين، فالفلاح حر في إختيار الأرض وحر في العمل، فإن وجدها صفقة رابحة عمل وإن وجدها خاسرة إمتنع عن العمل وليس للمالك ان يلزمه بشيء كما ذكرت سابقاً.

٦ ــ ثم إنه كان يبيع سلعته في أي وقت شاء. وقد حرم الإسلام الإحتكار على الفلاح وصاحب الأرض سواء بسواء وفتح باب التجارة للجميع، فليس في نظام الإسلام أن يحبس الفلاح بضاعته حتى تنفق بضاعة صاحب الأرض إنما التجارة للجميع والذكاء والخبرة في فنون البيع والشراء هي صاحبة الحظ السعيد بعد توفيق الله عز وجل. وكان من نعمة تطبيق الإسلام على الجميع أنه لم يكن هناك فرق بين أمير المؤمنين ورعيته في التجارة والقضاء وغيرها. وهذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يضرب نموذجاً رائعاً، يدمر أساس المعاملة الإقطاعية بالنسبة

لتأخير الفلاح بيع سلعته حتى يبيع السيد سلعته. عن ابن عمر رضي الله عنهماقال: إشتريت إبلاً وإرتجعتها إلى الحمى فلما سمنت قدمت بها. قال: فدخل عمر السوق فرأى إبلاً سماناً فقال: لمن هذه فقيل لعبد الله بن عمر فجعل يقول يا عبد الله بخ بخ ابن أمير المؤمنين. قال فجئته أسعى فقلت: مالك يا أمير المؤمنين؟ قال ما هذه الإبل؟ فقلت إبلاً أنضاء[٥٨] إشتريتها وبعثت بها الحمى أبتغي ما يبتغي المسلمون قال: فقال أرعوا إبل ابن أمير المؤمنين. أسقوا إبل ابن أمير المؤمنين. يا عبد الله إبن عمر. أغد على رأس مالك وإجعل باقية في بيت مال المسلمين[٥٩]. هذه الصورة الرائعة التي سجلها عمر رضي الله عنه الذي عمر الإيمان قلبه والذي أبت نفسه عليه أن يستغل إسم أمير المؤمنين في حرمان الرعية، فقد فطن إلى قول الناس هذه إبل ابن أمير المؤمنين، أخلوا لها الطريق إلى الماء والرعي. ولذلك رد إلى بيت المال للمسلمين الأرباح لأنه اعتبر الإبل سمنت على حساب المسلمين، وعلى هذا الأساس فالمسلمون أحق بالأرباح من ولده عبد الله.

٧ ـ أما الصيد فقد أباحه الله عز وجل في الإسلام للجميع قال الله تعالى:

أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾[٦٠]

---

(٥٨) هزال.

(٥٩) الرياض النضرة، ج ٢، ص ١٣٧ ـ ١٣٨.

(٦٠) سورة المائدة، آية ٩٦.

فلم يكن الصيد حكراً على الأغنياء في الإسلام دون الفقراء. بل هو مباح للجميع. قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾(٦١)

٨ ــ أما التعليم فكان مفروضاً للصغير والكبير، للذكر وللأنثى للحر والعبد فليس هناك ضريبة على التعليم في الإسلام.

٩ ــ أما الزواج فقد شرعه الله للجميع، لا فرق فيه بين الحر والعبد، إذا كانا قادرين على الزواج، بل حث الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين وبخاصة الشباب على الزواج المبكر حفظاً للأعراض والأخلاق. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»(٦٢).

١٠ ــ أما حق الليلة الأولى لصاحب الأرض فلم يعرفها الإسلام. ولم يقرها لأنها زنى يقام الحد على مرتكبها. والحدود في الإسلام لا تجوز فيها الشفاعة ولا تفرق بين شريف وفقير. عن عائشة رضي الله عنها قالت: إن قريشاً أهمهم شأن المخزومية التي سرقت فقالوا من يكلم فيها؟ يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم. قالوا ومن يجرىء إلا أسامة بن زيد حب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فكلمه أسامة. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أسامة أتشفع في حد من حدود الله. ثم قام

(٦١) سورة المائدة، آية ٩٥.

(٦٢) سنن الدارمي، ج ٢، ص ١٣٢، سنن أبي داود، ج ٢، ص ٥٣٨ ــ ٥٣٩، صحيح البخاري، ج ٣، ص ٢٣٨.

فاختطب فقال: إنما هلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»[٦٣].

١١ ــ أما وراثة تركة الفلاح من قبل صاحب الأرض فهذا أمر لم يقره الإسلام بل جعل نظام الارث محصوراً في الأرحام قال الله تعالى:

﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[٦٤]

وهذا من فضل الله على الناس.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾[٦٥]

١٢ ــ والأهم من ذلك كله أن شرع الله هو الحاكم والناس سواسية أمام شرع الله لا فرق بينهم بين فقير وغني إلا بالتقوى. والحاكم في الإسلام يقوم على تنفيذ شرع الله والناس يطيعون الحاكم لا لشخصه وإنما لأنه ينفذ شرع الله فإن خرج عن شرع الله فلا طاعة للحاكم على رعيته.

ثم إن العلماء في الإسلام ليس لهم سلطة روحية كالسلطة الدينية البشعة التي مارستها الكنيسة لا لتحكم الناس بشرع الله وإنما لمآرب شخصية، بل إن العلماء والأمراء والأغنياء والفقراء كلهم سواء في ميزان الله، وأفضلهم عند الله أكثرهم تقوى. والمسلمون كلهم رجال لدين الله، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس وقفاً على العلماء وإنما هو مفروض على جميع الناس. ووظيفة العلماء في

---

(٦٣) سنن أبي داود، ج ٤، ص ٥٣٧ ــ ٥٣٨، صحيح مسلم، ج ٣، ص ١٣١٥.

(٦٤) الأنفال ٧٥.

(٦٥) يوسف ٣٨.

الإسلام أن يبينوا للناس أمور دينهم. لذلك لم يعرف الإسلام النظام البشع الذي مارسته الكنيسة على الناس وإستغلتهم بإسم الدين. فلم تكن هناك عداوة بين الناس والعلماء بل على العكس من ذلك، إن الناس كانوا وما زالوا يحتقرون العالم الذي يتاجر بدين الله. وينافق بدينه للحكام وغيرهم ثم إن هذا العالم المنافق معذب عند الله قبل المشركين ــ وعالم بعلمه لم يعملن معذب من قبل عباد الوثن ــ لذلك لم تكن للعلماء إمتيازات طبقية لأن الإسلام لا يعرف الطبقات ولا يقر وجودها.

وقد كان كثير من العلماء المسلمين يرفضون هدايا الحكام خوفاً من الله عز وجل، ويرضون بعيشة الكفاف على أكل أموال المسلمين لأنهم كانوا يعتبرون هذه الأعطيات من بيت مال المسلمين. وأن الحاكم تصرف بها دون إستشارة المسلمين أو على كره منهم.

أما انحراف بعض العلماء فأمر لا يقره الإسلام، وليس من أساس الإسلام ونحن نتحاكم لا على تصرفات الناس وإنما على الأصول التي سار عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ــ فالإنحراف ليس من طبيعة الدين الإسلامي وإنما هو من طبيعة الأفراد الذين لا يحكمونه كما أنزله الله سبحانه وتعالى.

ويعلق الأستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى على نظام الإقطاع بقوله «ظلت أوروبا ترزح تحت وطأة هذا النظام الفظيع حتى انساحت جموع الصليبيين في الشرق الإسلامي واحتكوا بالمجتمع الإسلامي وعرفوا عن كثب أوضاع حياة الناس فيه ورأوا نظاماً آخر غير ذلك النظام الفظيع.

رأوا شريعة يتحاكم إليها الناس جميعاً. حاكمهم ومحكومهم. غنيهم وفقيرهم مالكهم ومعدمهم صاحب الأرض والعامل فيها على السواء. شريعة ليست هي إرادة السيد صاحب الأرض وليست هي

إرادة الأمير كذلك. ولا السلطان إنما هي شريعة تجيئهم جميعاً من عند الله ويتولى الحكم بها قضاة طالما وقفوا بها في وجه الأمراء والسلاطين. عندما كان أحدهم يهم بظلم الرعية أفراداً أو جماعات. وقد ظهر في هذه الفترة بالذات أئمة أقوياء وقفوا مرات في وجه سلاطين المماليك. وكان لوقفاتهم صداها الذي تتناقله: الجماهير في الوطن الإسلامي. وتعرفها جموع الصليبيين الذين يحتكون بهذا المجتمع خلال قرنين من الزمان.

رأوا الناس أحراراً لا في الانتقال من مزرعة إلى مزرعة ولا في الانتقال من مدينة إلى مدينة بل في الانتقال خلال الأقطار الإسلامية في أطراف الأرض... إذ كانت كلها وطناً إسلامياً واحداً متصلاً لا تقوم فيه الحواجز دون أفراد المسلمين حتى لو تعدد الأمراء والسلاطين.

ورأوا الناس أحراراً في اختيار المهن حسب مزاجهم ورغبتهم وإختيارهم لا يحد من حريتهم في هذا قيد ما.

«ورأوا أصحاب الحرف يتجمعون فيما يشبه النقابات حيث يكون لكل حرفة (ريس) وتقوم العلاقة بين أصحاب الحرفة الواحدة على التعاون والمودة. وكل هذه الظواهر لم يكن لها بعد وجود في المجتمع الأوروبي الذي جاء منه الصليبيون.

نعم إنه ربما وجدت بعض الملكيات الكبيرة في المجتمع الإسلامي حينذاك ولكنها لم تكن تنشيء نظام إقطاع كالذي عرفته أوروبا لأنه لا (شريف) ولا (أقنان)ولا تبعية للأرض تلصق «الأقنان» بها. ولا إرادة للسيد هي القانون! بل القانون شريعة من عند الله»(٦٦).

---

(٦٦) الإسلام ومشكلات الحضارة، ص٩٣ ـ ٩٤.

خاتمة البحث:

وفي نهاية هذا البحث نستطيع ان نستخلص جملة حقائق منها:

١ ــ إن أوروبا حين وقعت في الإقطاع لم تقع فيه لأنه طور إقتصادي طبيعي لا بد ان تمر البشرية فيه حتما أرادت أم لم ترد. بل إن السبب الذي جعلها تنحدر إليه هو أنها ما عرفت إلا ديناً محرفاً على يد الكنيسة الإقطاعية التي باركت الظلم ومجدته، ولم يحكم حياة الناس شرع الله الصحيح.

٢ ــ إن الملكية في ذاتها لا تنشيء الإقطاع بصورة حتمية لا إرادة للإنسان فيها، وإنما الذي أنشأ الإقطاع هو طبيعة التملك والعلاقة بين الملاك وغير الملاك التي لا تحكمها شريعة الله. فالملكية الفردية وجدت في العالم الإسلامي ولم يوجد نظام الإقطاع وذلك لأن الإسلام بنظرياته وتطبيقها على حياة الناس ينشيء بين الناس علاقات لا تسمح بقيام الإقطاع.

٣ ــ إن الأطوار الإقتصادية التي يرسمها التفسير المادي للتاريخ على انها تاريخ عام للبشرية وهي الشيوعية والرق والإقطاع والرأسمالية لا تمثل في الواقع إلا تاريخ أوروبا، ولا تتقيد بها إلا أوروبا.

وأخيراً نسأل الماديين: أين العلمية المزعومة في نظريتكم... وتاريخ الإسلام لا تنطبق عليه حتمياتكم؟.

مناقشة مرحلة الرأسمالية:

من خلال عرض مراحل التطور في التاريخ البشري وعند الحديث عن الرأسمالية، رأيت أن الماديين يرجعون أسباب ظهور

المرحلة الرأسمالية إلى النزاع الناشيء بين نمو قوى الإنتاج القائمة في النظام الإقطاعي حين أصبح هذا النظام عائقاً أمام تطور القوى الإنتاجية الجديدة.

ويصور الماديون المرحلة الرأسمالية على أنها في بداية ظهورها كانت خيراً عميمًا للبشرية إنطلاقاً من نظريتهم في تطور المجتمعات، والتي تقول إن الطور الجديد أفضل وأرقى من الطور القديم، ولكن الرأسمالية أخذت تستغل العمال والفلاحين لحساب مصالحها الشخصية، حيث تكدست الثروة في أيدي أصحاب رؤوس الأموال وصار العامل الذي إنتقل من عبودية الإقطاعي إلى عبودية صاحب رأس المال مضطراً لبيع قوة عمله إلى البورجوازي كي لا يموت جوعاً.

ونتيجة لجري الرأسمالي وراء الربح فإنه يسعى إلى تحسين أدوات الإنتاج ليزيد إنتاجه، فيزداد الإنتاج ويحتاج إلى سوق واسعة لتصريف المنتجات، لذلك أنشأت الرأسمالية لأول مرة نظاماً إقتصادياً عالمياً وسوقاً عالمية واحدة. ويفيض الإنتاج فيسبب هذا الفيض أزمات إقتصادية، سببها أن الانتاج الرأسمالي قابل للتوسع السريع ولكنه يصطدم بقوة الجماهير الشرائية المنخفضة والسوق الضيقة لذلك تكسد السلع ويتدهور الإنتاج وتنمو البطالة. ولأجل تصريف المنتجات المتكدسة يبحث الرأسمالي عن سوق جديدة لتصريف بضائعه ومن هنا نشأ الإستعمار.

وأنا مع الماديين في أن الرأسمالية نظام جائر يستغل الأفراد ويمتص دماء الفقراء ويثير الفتن. أنا معهم في كل سوء صوروا به الرأسمالية.

ولكني أخالفهم في أسباب هذا الظلم الفاحش. فالماديون يرجعون هذا الإستغلال الرأسمالي إلى الملكية الفردية وصراع

الطبقات، وحتمية التطور لأن الظلم عندهم مصاحب للملكية الفردية منذ ظهورها.

وأنا أرد هذا الظلم إلى غياب منهج الله عن التطبيق.

عرفنا فيما سبق أن نظام الطبقات يقوم على أساس أن المالك هو الحاكم والمشرع. وطبيعي أن الناس حين يشرعون لأنفسهم ينظرون إلى مصالحهم الشخصية ومآربهم الذاتية ولا يلتفتون إلى مصالح غيرهم، ومن هنا ينشأ الظلم. فالبشر معرضون للخطأ والصواب، كما أن الهوى الشخصي له أثره الفعال من جانب آخر.

أما حين يحكم شرع الله فإن الله سبحانه وتعالى لا يحابي أحداً على أحد، ولا يشرع لطبقة على حساب طبقة أخرى، إنما الناس جميعاً سواسية في ميزانه، هذا هو الفارق بيننا وبين الماديين.

وموضوع المناقشة في هذا الموضوع هو في قول الماديين إن مرحلة الرأسمالية طور حتمي لا بد للبشرية أن تمر فيه طبقاً لقانون الديالكتيك العام الذي يقول إن النقيض مولد للنقيض.

والسؤال الذي يوجه للماديين هو: هل كانت الرأسمالية ستصل حتماً إلى ما وصلت إليه من السوء والفساد لو كان شرع الله يحكم حياة أوروبا؟ وهل كانت ستصل حتماً إلى ما وصلت إليه من الجشع والإستغلال لو أن اليهود المرابين لم يمولوا الرأسمالية؟

دور اليهود في نشوء الرأسمالية:

والباحث المنصف يجب عليه أن يعيد الحق إلى نصابه، وأن يقف قليلاً وهو يدرس تاريخ أوروبا حين ظهرت فيها الرأسمالية الربوية عند اليهود، ليرى أثرهم العميق في حياة الناس المادية

والأخلاقية والدينية، وكيف كانت معاولهم تضرب بشدة في جذور الدين والخير والفضيلة لتقتلعها من أساسها وتزرع مكانها بذور الشر والفساد.

يقول الأستاذ محمد قطب حفظه الله: «حين ولدت الآلة إحتاجت إلى المال لإدارتها، ولم يكن من السهل في باديء الأمر أن يتحول ملاك الأرض إلى رأسماليين صناعيين، لأن الألف والعادة لهما حكمهما على النفس البشرية. ولقد كان أصحاب الإقطاع مطمئنين إلى الطريق التي يحوزون بها المال والسلطان ولهم في ذلك خبرة قرون متوالية، «وتقاليد» صنعها طاغوت الإقطاع وطبقها مئات السنين فصارت عرفاً سارياً لا بحتمية ذاتية لكن بإنصياع الناس له... بعيداً عن منهج الله!

وكان لابد من الحصول على المال من طريق آخر غير طريق ملاك الأرض...

وهنا تقدم المرابون ـ اليهود ـ لإقراض العمليات الرأسمالية الناشئة. ولم يكن قيام المرابين بالاقراض عملية جديدة أنشأتها الرأسمالية. فاليهود هذه صناعتهم منذ فجر التاريخ اوالربا يجري في عروقهم مجرى الدم. وقد نهاهم الله عن ذلك في التوراة فلم ينتهوا وانتشروا في الأرض ينشرون معهم الجاهلية الربوية في كل مكان...

«وكان لابد للمرابي اليهودي المقرض أن يضمن دينه ورباه... كما كان لابد للمقترض أن يضمن الربح الذي يكفل رد الدين والربا وبقاء قسط من الربح الشخصي بعد ذلك. ومن هنا إتسمت الرأسمالية منذ البدء برغبة الحصول على الربح الفاحش. ومن أهون سبيل، ولم يكن ذلك حتمة تاريخية ولا إقتصادية.

«فلم يكن هناك أي مانع على الإطلاق يمنع من قيام الرأسمالية على تعاون الممولين، وكان التجار يومئذ في المجتمع الأوروبي يملكون المال السائل الذي يدير الصناعة ـ لو شاء الناس... لو اهتدوا بمنهج الله الذي يحرم الربا ويفتح الطريق للتعاون النظيف فهي ليست الحتمية... وإنما الإنحراف... إنحراف الجاهلية التي لا تعبد الله»(٦٧).

ويقول وليام كار في كتابه أحجار على رقعة الشطرنج في معرض حديثه عن الحملات الصليبية، وأعمال المؤتمر المسكوني الرابع المنعقد عام **١٢١٥** م: «وأصدروا كذلك المراسيم والقرارات للحد من الربا الفاحش الذي كان اليهود يمارسونه بغية تجميع الثروات الواسعة عن طريق الممارسات غير المشروعة وغير الأخلاقية التي كانت تعطيهم امتيازاً اقتصادياً على منافسيهم من غير اليهود.

«كما حظرت القوانين على اليهود إستخدام المسيحيات في منازلهم أو مؤسساتهم، فقد كانوا يغوون تلك الفتيات ويحولوهن إلى عاهرات ليستعملوهن في الحصول على المال والنفوذ. ومنعت قوانين أخرى بعد ذلك اليهود من ممارسة بعض العمليات التجارية. ولكن الكنيسة بكل سلطانها مدعومة بزعماء الدول لم تستطع أن تخضع سادة المال للقوانين. وساهمت تلك القوانين في إذكاء نار حقد النورانيين على كنيسة المسيح، وشرعوا في التخطيط لاضعاف الكنيسة وفصلها عن الدولة. وللوصول إلى هذا الهدف أخذ النورانيون يبثون بين العامة فكرة العلمانية واللادينية»(٦٨).

ويقول في معرض حديثه عن إعدام الملك شارل الأول عام **١٦٤٩**: «لم يكن الإنتقام كما يتبادر إلى الذهن الهدف الوحيد للمرابين

---

(٦٧) جاهلية القرن العشرين، ص ١٤٣ ـ ١٤٤.

(٦٨) أحجار على رقعة الشطرنج. ص ٥٦ ـ ٥٧.

اليهود في قضية إزالة الملك شارل، بل كان هدفهم الأصيل والذي أثبتته أحداث التاريخ فيما بعد السيطرة على اقتصاديات انكلترا وعلى مقاليد الأمور فيها.

«وكانوا يخططون لتوريط إنكلترا في حروب مع الدول الأوروبية، ذلك أن الحروب تتطلب مبالغ ضخمة من المال مما يضطر الحكام الأوروبيين للإستقراض من المرابين اليهود ويستتبع ذلك ازدياد سريع في القروض الوطنية للدول الاوروبية.

«وإذا ما تتبعنا تسلسل الأحداث من مقتل شارل عام **١٦٤٩** إلى إنشاء مصرف انكلتراعام **١٩٦٤**، لوجدنا كيف أن الديون الوطنية كانت في إزديادٍ دائم. وتمكن الصيارفة العالميون من جعل المسيحيين ينقضون على بعضهم البعض»[٦٩].

وقد ذكر هذا الكاتب الشيء الكثير عن مخططات اليهود التي تمكنوا بواسطتها من الاستيلاء على ثروات العالم وبخاصة على اقتصاديات إنكلترا وفرنسا وأمريكا.

وتعترف البروتوكولات بدورها الفعال في التخطيط للسيطرة على اقتصاديات العالم: «وعلم الاقتصاد السياسي الذي محصه علماؤنا الفطاحل قد برهن على أن قوة رأس المال أعظم من مكانة التاج.

«ويجب الحصول على إحتكار مطلق للصناعة وإجارة ليكون لرأس المال مجال حر. وهذا ما تسعى لاستكماله فعلا يد خفية في جميع أنحاء العالم ومثل هذه الحرية ستمنح التجارة قوة سياسية، وهؤلاء التجار سيظلمون الجماهير بانتهاز الفرص»[٧٠].

---

(٦٩) نفس المصدر، ص ٦٧.

(٧٠) بروتوكولات حكماء صهيون ـ البروتوكول الخامس، ص ١١٦ ـ ١١٧.

«سنبدأ سريعاً بتنظيم إحتكارات عظيمة هي صهاريج للثروة الضخمة لنستغرق خلالها دائماً الثروات الواسعة للأميين (غير اليهود) إلى حد أنها ستهبط جميعها وتهبط معها الثقة بحكومتها يوم تقع الأزمة السياسية»[٧١].

«لقد انتهت ارستقراطية الأمميين كقوة سياسية فلا حاجة لنا بعد ذلك إلى أن ننظر إليها من هذا الجانب. لكن الارستقراطيين من حيث هم ملاك أرض ما يزالون خطراً علينا لأن معيشتهم المستقلة مضمونة لهم بمواردهم، ولذلك يجب علينا وجوباً أن نجرد الأرستقراطيين من أراضيهم بكل الأثمان. وأفضل الطرق لبلوغ هذا الغرض هو فرض الأجور والضرائب.

«إن هذه الطرق ستبقي منافع الأرض في أحط مستوى ممكن وسرعان ما سينهار الأرستقراطيين من الأمميين لأنهم ــ بما لهم من أذواق موروثة ــ غير قادرين على القناعة بالقليل.

«وفي الوقت نفسه يجب أن نفرض كل سيطرة ممكنة على الصناعة والتجارة وعلى المضاربة بخاصة فإن الدور الرئيسي لها أن تعمل كمعادن للصناعة. وبدون المضاربة ستزيد الصناعة رؤوس الأموال الخاصه وستتجه إلى إنهاض الزراعة بتحرير الأرص من الربويين والرهون العقارية التي تقدمها البنوك الزراعية. وضروري أن تستنزف الصناعة من الأرض كل خيراتها وأن تحول المضاربات كل ثروة العالم المستفادة على هذا النحو إلى أيدينا.

«وبهذه الوسيلة سوف يقذف بجميع الأمميين (غير اليهود) إلى

(٧١) نفس المصدر؛ البروتوكول السادس، ص ١١٩.

مراتب العمال الصعاليك وعندئذ يخر الأمّيون أمامنا ساجدين ليظفروا بحق البقاء.

«ولكي نخرب صناعة الأمميين ونساعد المضاربات ـ سنشجع حب الترف المطلق الذي نشرناه من قبل وسنزيد الأجور التي لن تساعد العمال كما أننا في الوقت نفسه سنرفع أثمان الضروريات الأولية متخذين سوء المحصولات الزراعية عذراً عن ذلك، كما سننسف بمهارة أيضاً أسس الانتاج ببذر بذور الفوضى بين العمال وبتشجيعهم على إدمان المسكرات»[٧٢].

مناقشة الشيوعية الثانية:

من خلال عرض مراحل التطور في التاريخ البشري رأيت أن الماديين يقولون إن ملكية وسائل الانتاج الجماعية تؤلف أساس علاقات الانتاج، وإن توزيع المنتجات يتم وفق العمل الذي يقدمه كل إنسان، ويتم تحقيق الملكية الجماعية لوسائل الإنتاج بواسطة الثورة الاشتراكية وقيام دكتاتورية البرولتاريا.

وينجم عن ملكية وسائل الإنتاج الجماعية ما يلي:

أولاً ـ القضاء على الأجور، لأن فائض القيمة يعود إلى المجتمع بكامله، ويوزع بين أعضائه حسب عمل كل عضو.

ثانياً ـ القضاء على كل إمكانية لنشوء الأزمات الاقتصادية، وبالتالي يزول استبداد الرأسمالية لزوال المضاربة بين المنتجين، وحينئذ يمكن القضاء على الاستعمار وأسباب الحروب.

وتهدف الاشتراكية إلى إزالة العقبة الوحيدة التي تعترض طريقها وهي علاقات الانتاج الرأسمالي.

---

(٧٢) نفس المصدر؛ البروتوكول السادس، ص ١١٩ ـ ١٢١.

وحتى تقوم الشيوعية، لابد لها من المرور بالمراحل التالية:

١ ــ مرحلة الإنتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية ثم إلى الشيوعية، وتحتاج الثورة الاشتراكية إلى فترة زمنية حتى تتمكن من القضاء على الطبقات المستغلة وتأكيد سيطرة العلاقات الشيوعية.

٢ ــ مرحلة الاشتراكية: وفيها يؤدي المرء حسب طاقاته ويأخذ حسب عمله. ولكن إذا لم يصبح العمل بالنسبة للانسان حاجة طبيعية كحاجته للمشي والتنفس، فإنه يأخذ حسب نوع العمل الذي يؤديه. والفرد لا يأخذ نتيجة عمله كاملاً في الاشتراكية، وذلك للاحتفاظ بقسم منها من أجل تنمية الانتاج وتجديد الآلات البالية. والمساواة بين الأفراد معدومة في الاشتراكية، ذلك لأنهم يعترفون بأن نزعة المساواة التي تقوم على قياس الناس بنفس المقياس مستحيلة اجتماعياً لأن هناك تفاوتاً طبيعياً بين الناس سببه كفاءاتهم البيولوجية والنفسية. أما التفاوت الذي يسعى الشيوعيون لإزالته فهو التفاوت الذي ينشأ من وجود الطبقات، والعمل سيد الجميع والإنسان يأخذ حسب العمل الذي يؤديه، لذلك لا يوجد هناك محظوظون ولا مستغلون.

وفي الوقت الذي يقر فيه الشيوعيون بوجود شيء من التفاوت في الممتلكات، فإنهم ينفون وجود البطالة واستغلال القوميات واضطهادها.

وتسمح الدولة الاشتراكية بإمتلاك قطعة أرض صغيرة وبعض وسائل الزراعة، وتسمح بوراثة الملكية الشخصية كالسيارة وأغراض البيت.

٣ ــ والإنتقال إلى الشيوعية يتم عن طريق زيادة الإنتاج وإذابة الملكيات الكولخوزية في الملكية العامة وتعميم الثقافة. وحينئذ تطبق القاعدة من كل حسب طاقته ولكل حسب حاجته.

وبعدها يسدلون الستار ولا يحدثوننا عن شيء آخر من النبوءات الغيبية عن الأحداث التي تجري بعد الشيوعية حيث يقف قانون التناقض عن العمل ويحل محله قانون التعارض.

وقبل الدخول في المناقشة التفصيلية لمرحلة الانتقال إلى الشيوعية لابد من طرح التساؤلات التالية:

ما هو الدليل العلمي على أن البديل الوحيد للخروج من تناقضات الرأسمالية وسياستها الاستغلالية، هو الانتقال إلى مرحلة الاشتراكية؟ ثم ما هو الدليل العلمي على أن الانتقال من المرحلة الرأسمالية إلى المرحلة الاشتراكية حتمي الوقوع؟

كيف تقررون هذه الحتميات الباطلة وتاريخكم الحديث يكذبها، حيث أن روسيا والصين مهد الاشتراكية في العصر الحديث انتقلتا من مرحلة الاقطاع إلى الاشتراكية دون المرور بمرحلة الرأسمالية.

ثم إن هذا التفسير المادي الجاهلي للتاريخ لا يفسر تاريخ العالم تفسيراً علمياً صحيحاً، فضلاً عن تفسير تاريخ الجاهليات الأوروبية. فهذه المانيا الغربية وفرنسا وبريطانيا.

هذه الدول الرأسمالية التي تنبأ ماركس بقيام الشيوعية فيها لا تزال في مرحلة الرأسمالية. فدعواكم أن الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية حتمي الوقوع منقوض بهاتين الحقيقتين وهما: إنتقال روسيا والصين إلى الاشتراكية دون المرور بمرحلة الرأسمالية، وعدم إنتقال الدول الرأسمالية التي تنبأ ماركس بقيام الشيوعية فيها إلى الاشتراكية حتى هذه الساعة.

ثم إن الواقع الحاضر يبرهن على أن كثيراً من الناس في الدول الرأسمالية لا يرغبون في الاشتراكية، لأنها مصدر شقاوة وفساد للبشرية. فالإعدامات البشرية الهائلة، وسفك الدماء البريئة من الناس وبخاصة المسلمين[٧٣]، في البلاد الواقعة تحت سيطرتهم وإرهاق العمال وإذلالهم إذلالاً بشعاً أكثر هولاً وفظاعةً من عصر الرقيق.

إن الجاهلية التي لا تحكم بشرع الله ولا تسير على هديه لا تبالي إن كان الحكم للرأسمالية أو للشيوعية. لأن كلا النظامين طاغوت وليس في النظامين أي شيء جديد سوى تنوع طريقة الظلم والاضطهاد.

ولما كانت سنة الله لا تتبدل، وهي: أن الناس حين لا يحكم شرع الله حياتهم فإن الطاغوت هو الذي يحكم. ولا فرق بين أن يكون الطاغوت شيوعياً أو رأسمالياً. والواقع المعاصر أكبر شاهد على الظلم المرير الذي تمارسه هذه الأنظمة الكافرة الرأسمالية منها والشيوعية ضد البشرية جمعاء.

نعم سيكون البديل من الرأسمالية والشيوعية دين الله الاسلام حين يعود اتباعه إلى منهج الله وتحكيم شرعه في أمورهم كلها، ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ [٧٤]

---

(٧٣) وأنا أكتب هذا البحث سمعت بالعدوان الشيوعي الأثيم على أفغانستان المسلمة، وتقتيل وتشريد كثير من أبناء هذه البلاد من المسلمين المجاهدين في سبيل الله، ومع ذلك فإنهم يزعمون أنهم أنصار الشعوب التي ترغب في التحرر والاستقلال. إنهم يكذبون لأن أهدافهم واضحة وأهمها القضاء على الاسلام عدوهم الأكبر في الأرض. (يُرِيدُونَ أن يُطفِئوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ويأبَى اللَّهُ إلا أن يُتِمَّ نُورَهُ). التوبة ٣٢.

(٧٤) الروم ٤ ــ ٥.

نعم إن الاسلام هو البديل حين تتعرف البشرية على ربها، لأن الاسلام دين الفطرة الذي يوازن بين متطلبات الفرد ومتطلبات الجماعة، فلا يطغى فيه جانب على جانب آخر.

الإسلام الذي يأخذ الفرد بمجموعه الكامل، قبضة من طين ونفخة من روح الله تبارك وتعالى. الإسلام الذي لا يحصر الإنسان في حدود المادية الضيقة في حدود ما تدركه الحواس. الإسلام الذي يؤمن للفرد متطلبات الحياة من أكل وشرب ولبس وسكن وغيرها، ويؤمن له أشواق الروح، ويعتني بعقل الانسان ويطلق العنان له في أن يسرح ويمرح في حدود الكون المادي ضمن المنهج الرباني.

نعم إنه لا خلاص للأمم من الشقاء الذي تعيشه إلا بالرجوع إلى كتاب الله تعالى ـ القرآن الكريم ـ تستمد منه دستور حياتها، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم كما فهمها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وطبقوها على حياتهم.

مناقشة العامل الاقتصادي:

من خلال البحث تبين لي أن الماديين يركزون على العامل الاقتصادي، ويعتبرونه العامل المحدد لجميع الأوضاع الدينية والسياسية والفكرية والأخلاقية، وأن جميع هذه الأشياء نابعة من الأساس الاقتصادي، فهي متأثرة به، تتغير بتغيره وتتطور بتطوره.

يقول الأستاذ عبدالحميد صديقي: «إننا نتأثر بالبيئة المادية التي نعيش فيها إلا أن فكرنا هو الذي يعلمنا أن نغير هذه البيئة المادية لكي تلائم أغراضنا المختلفة. إن العالم المادي لا يقرر وعينا وإنما وعينا هو الذي يقرر الوجه الذي سنستخدم فيه مواردنا المادية. فكل شيء

يجب[٧٥] أن يكون موجوداً في الفكر قبل أن يمكن وجوده في العمل، لذا فقوى الإنتاج لا تصنع نفسها وإنما يصنعها عقل الإنسان. فبالرغم من أن الانسان يتأثر بالحياة المادية المحيطة به لا يمكن اعتباره مجرد عجينة لا شكل لها تصب في قوالب البيئات المادية، إذ أنه يستطيع أن يغير بيئته»[٧٦]. ويرفض بروفيسور جي دي ايج كول ــ الذي يعد من أشد الناس إحتراماً لماركس ــ أن يعترف بالعامل الاقتصادي على أنه العامل الوحيد الذي يقرر الكيان الاجتماعي لأية أمة. فهو يقول في كتابه: (معنى الماركسية): «من السهل أن نتتبع التشابه الكبير بين الهياكل الاقتصادية التي تبنى عليها أنواع المجتمعات المختلفة وتنظيمها السياسي وأجهزتها الاجتماعية، وأن نرى كيف كيفت الهياكل السياسية والاجتماعية في الماضي وفقاً لتغير الظروف الاقتصادية الأساسية. إلا أن من الخطر أن نؤكد على هذا إلى حد مفرط في البعد. وليست الحال قط أن المجتمعات التي في مستوى واحد من ناحية أسلوب الانتاج يجب أن يكون لها حتمًا نفس الأنظمة أو نفس الأشكال الاجتماعية للعائلة والعلاقات الاجتماعية والمنظمات السياسية والدينية، أو الأفكار الخاصة بالقيم والأخلاق. فلقد أظهرت بحوث علم الإنسان أشكالاً حضارية مختلفة جداً لا يمكن قط أن تفسر تفسيراً اقتصادياً محضاً. إن أقصى ما يثبته هذا التشابه الذي تبين لنا وجوده إنما هو مجرد الاقتناع بأن الأنظمة الاجتماعية تتأثر بالظروف الاقتصادية ــ لا انها تتعين بها وحدها ــ إن الأساس الاقتصادي للمجتمع عامل واحد فقط من عوامل تصوير الشكل العام للحضارة حتى ولو كان أهم عامل»[٧٧].

(٧٥) يقصد من هذا التعميم بقوله فكل شيء: إنه يريد كل شيء، من إنتاج الإنسان، أما ما ليس من إنتاج الإنسان فهو حتمًا يخضع للمقادير الربانية.

(٧٦) تفسير التاريخ، ص ١٠١.

(٧٧) نفس المرجع السابق، ص ١٠٣ ــ ١٠٤. نقلاً عن معنى الماركسية، ص ٥٧.

«وهنالك أيضاً ناحية مهمة أخرى في النظرة المادية للتاريخ التي جاء بها ماركس. فهو يعتقد أن أفكار واتجاهات عصر ما إنما هي نتاج مرحلة التطور الاقتصادي التي تم الوصول إليها، ولذلك لا يوجد قانون مطلق أو أخلاق مطلقة في هذا العالم، وإنما هذه كلها إنعكاسات لأسلوب الانتاج. ولكن في هذه النظرية تناقضاً خطيراً فهو من ناحية لا يرى شيئاً أبدياً، ومن ناحية أخرى يعرض فكرته عن التاريخ على أنها مطلقة ، وهذا تناقض لم يستطع أحد من تلامذة ماركس أن يزيله، فنحن إذ نعتقد أن فلسفة عصر ما ناتجة عن البيئة المادية له فهذا ينطبق على الماركسية نفسها لأنها هي أيضاً إنعكاس للعصر الذي عاش فيه. فلا بد أنه قد كان في ذهنه ظروف المجتمع في ذلك العصر، وكل ما جاء به ربما كان ملائماً لزمنه هو ولا يمكن بعد زمانه ذاك أن يكون صالحاً للعصور التي تلته. فمع تغير الزمان لابد لفلسفته أن تتغير. ولكن لا يوجد ماركسي مستعد لأن يقبل هذا، فهم يعتقدون أن نظراته صحيحة في كل الأزمان، أي أنها قيم دائمة للمجتمع الانساني لا تتغير»(٧٨).

ويقول جون نيف: «منذ أن بدأت أبحاثي التاريخية قبل خمسة وثلاثين سنة وأنا معني بأصول (العالم الصناعي) الذي نراه اليوم وكنت واقعاً تحت تأثير النظرة السائدة عندئذ في الدوائر الجامعية ــ والتي لا تزال سائدة بشكل ربما كان أقوى من ذي قبل ــ وفحواها أن التأليف التاريخي يجب أن يقوم على أساس من الاختصاص، فبحثت عن هذه الأصول كما فعل كثيرون غيري في ميدان التاريخ الاقتصادي فبحثت عنها فيما كان ــ من إحدى النواحي ــ فرعاً ضيقاً من ذلك الميدان وهو نشوء (صناعة الفحم البريطانية) وبمضي الزمن أدركت أن

---

(٧٨) نفس المصدر، ص ١٢٢.

محاولتي كمختص بل ومعالجتي كلها لمسألة الأصول بالنظر في التاريخ الاقتصادي كانت جزئية، ثم أدركت أن الإلمام بالتاريخ العام لا بد من أن يغير نظرة الإنسان إلى التاريخ الاقتصادي. فالتاريخ الاقتصادي كما يعرضه المؤرخون المختصون أمثال أرنولد توينبي الأكبر، (أول من شرح فكرة الثورة الصناعية شرحاً منظمًا) بل وكما يعرضه أيضاً كارل ماركس (الذي يعتبر من فلاسفة التاريخ وفيلسوفاً مثلما هو مشرع مذهب) هذا التاريخ ليس فحسب تفسيراً ناقصاً للحضارة الصناعية بل هو لا يعد تفسيراً جزئياً مرضياً. . .»(٧٩).

تراجع الماركسيين عن أهمية العامل الاقتصادي:

إنه مما لا شك فيه أنه لا يوجد سبب مستقل منفصل وفاعل يولد النتائج والظواهر الثانوية، وإنما هناك عدة عوامل مختلفة تؤثر في بعضها تأثيرات متقابلة وإن العامل الجوهري اليوم يمكن أن يكون عاملاً ثانوياً غداً»(٨٠).

وقد كان موقف الماركسية من العامل الاقتصادي بالذات موقفاً منحازاً لا علمياً، حيث قدم أصحابها تحليلات لفترات إنتقائية من التاريخ في بيئة ما، وظنوا أنها كافية للحكم على تاريخ البشرية من خلالها. كما أنهم عجزوا عن تفسير التاريخ كله في كل البيئات. والتحدي الذي نتحدى به حتى يرث الله الأرض ومن عليها. هذا التحدي الذي يهدم التفسير المادي للتاريخ من أساسه. وهو: إذا كان العامل الاقتصادي هو الذي يتحكم في تطور المجتمع فكيف نفسر

---

(٧٩) التاريخ الاسلامي والمذهب المادي في التفسير، ص ٢٣ ـ ٢٤. نقلاً عن الأسس الثقافية للحضارة الصناعية ترجمة محمود زايد، ص ٩.

(٨٠) أنظر الماركسية والاسلام، ص ١٦.

ظهور الإسلام؟ وتاريخ الإسلام لا ينكره عاقل، لأنه لا ينكره إلا جاهل أو حاقد مكابر.

وسوف أتعرض لهذا البحث بالتفصيل بإذن الله تعالى في فصل مناقشة موقف التفسير المادي للتاريخ من الدين. كما سأبين إن شاء الله تعالى أن الإسلام لم ينكر أهمية العامل الاقتصادي في الحياة البشرية، وأنه ليس العامل الوحيد الفعال في الحياة البشرية.

ونتيجة لضغط الحقيقة والواقع بدأت المراجعة النظرية فقط من قبل أصحاب التفسير المادي للتاريخ.

يقول إنجلز في رسالته إلى جوزيف بلوخ في **٢٢** أيلول **١٨٩٠** م:

«ينبغي علينا، ماركس وأنا، أن نتحمل جزئياً مسؤولية كون بعض الشبان يعلقون في بعض الأحيان وزناً أكبر مما ينبغي على الناحية الاقتصادية. فقد كان علينا إزاء خصومنا أن نؤكد المبدأ الأساسي الذي كانوا ينكرونه، وفي هذه الحال لم نكن نجد لا الوقت ولا المكان ولا المناسبة لتحديد مكانة العوامل الأخرى التي تساهم في الفعل المتبادل.

«إن العامل المحدد في التاريخ هو في التحليل الأخير، وفي منظور التفسير المادي عن التاريخ إنتاج الحياة الواقعية وإعادة إنتاجها، ولم نؤكد قط لا ماركس ولا أنا أكثر من هذا. وإذا ما شوه أحدهم هذا الموقف وصرفه، بمعنى أن العامل الاقتصادي هو وحده العامل المحدد فإنه يكون بذلك قد حوله إلى جملة فارغة مجردة لاغية.

«إن الوضع الاقتصادي هو الأساس، ولكن مختلف عناصر البنية الفوقية الأشكال السياسية للصراع الطبقي ونتائجه والأشكال

الحقوقية، بل حتى إنعكاسات هذه الصراعات الواقعية في دماغ المساهمين فيها من نظريات سياسية وحقوقية وفلسفية ودينية تمارس أيضاً تأثيرها على مجرى الصراعات التاريخية وتحدد في الكثير من الحالات وبصورة قاطعة شكلها»(٨١).

أدوات الإنتاج ليست هي السبب في تغيير النظام

ومن المؤاخذات الكبيرة على الماديين أنهم يرجعون الأسباب التي تؤدي إلى تغيير الأنظمة إلى أدوات الإنتاج. والسؤال الذي يطرح في هذا المقام هو إذا كانت أدوات الإنتاج هي السبب في تغيير الأنظمة.

فلماذ نجد الأنظمة مختلفة في دول أوروبا الاسكندنافية عن الدول الرأسمالية وعن الدول الشيوعية مع أن أدوات الانتاج واحدة في جميع هذه البلدان؟ ثم لماذا نجد المانيا البلد الواحد منقسمة إلى معسكرين شرقي وغربي؟ المانيا الشرقية صارت اشتراكية بمجرد استيلاء روسيا عليها، والمانيا الغربية ما تزال رأسمالية مع أنها بلد واحد؟ وهي ـ أي المانيا ـ كلها بلد رأسمالي صناعي . . . ثم إن دول أوروبا الشرقية حين تطورت من الرأسمالية إلى الاشتراكية هل تطورت بتطور أدوات الانتاج أم باستيلاء روسيا الشيوعية عليها؟ ثم في روسيا هل تطورت أدوات الانتاج أولاً ثم تطورت العلاقات الاجتماعية والنظام القائم فيها، أم أن الحزب الشيوعي تسلم الحكم فغير أدوات الإنتاج؟

إن الأوضاع الدولية القائمة في وقتنا الحاضر هي أكبر دليل على فساد هذه القضية، لأن الملاحظ والمشاهد من واقع الدول وأنظمتها أن

(٨١) الماركسية والأيديولوجيا، ص ٩٣ نقلاً عن المؤلفات المختارة، م ٢، ص ٥٣٥ ـ ٥٣٧.

أدوات الانتاج لا تغير النظام بل إن النظام هو الذي يغير أدوات الانتاج، مع العلم أن أدوات الانتاج واحدة في جميع الدول التي تسير على أنظمة مختلفة.

يقول كاريوهنت: «والعلاقات الاجتماعية التي تؤلف مادة التاريخ في الواقع معقدة إلى حد لا يمكن معه أن تكون راجعة لسبب واحد. ولم تشرح لنا المادية التاريخية كيف أن الشعوب التي تعيش في أحوال متشابهة من الانتاج تصل إلى حضارات تختلف بعضها عن بعض اختلافات بينة، ولم تشرح لنا كيف أن الدين المسيحي ارتضته أجناس مختلفة بعضها عن البعض الآخر، كاختلاف الرومان المتحضرين عن السلاف الشبيهين بالبرابرة والايرلنديين. كما لم تشرح لنا أن مذاهب متباينة تجد من بين معتنقيها اناساً تتشابه ثقافاتهم، حتى أن مؤسسي الاشتراكية وبينهم ماركس وإنجلز وأغلب زعماء الحركة العمالية في القرن التاسع عشر كان يجب أن يكونوا منتمين للبرجوازية»(٨٢).

ويقول الأستاذ عبد الحميد صديقي: «ولكن إذا كانت أساليب الانتاج تعتبر حقاً القواعد الحقيقية التي تقرر كل البنيان الذي يشاد عليها، والدين جزء من هذا البنيان، فسنضطر إلى أن نصل إلى أن اسلوب الانتاج نفسه يجب أن ينتج النوع نفسه من الحركات الروحية، ونفس النوع من الأنظمة، ولكن الأمور في العالم تختلف تماماً، فنحن نجد أن مائة دين ودين تعيش كلها متجاورة في نفس الظروف الاقتصادية، فإذا كان الدين مجرد انعكاس للظروف المادية التي يعيش فيها الناس فلا مجال لأكثر من دين واحد في وقت واحد. ولكننا نجد أن الاسلام والمسيحية والهندوكية وعشرات الأديان الأخرى تسيطر على

---

(٨٢) الشيوعية نظرياً وعملياً، ٦١.

عقول ناس يعيشون في نفس الظروف الاقتصادية ونفس النوع من أساليب الانتاج مئات السنين، ولكن هذه القوى رغم كل قوتها اخفقت في أن تصهر هذه الطوائف في كتلة واحدة، فهم اليوم يختلفون اختلافاً كبيراً في الدين كما كانوا يختلفون قبل آلاف السنين»[٨٣].

فساد فكرة الحتمية:

يقول ميريت ستانلي كونجدن ــ وهو عالم أميركي معاصر ــ في مقال له بعنوان «درس من شجيرة الورد»: «إن لعلوم حقائق مختبرة، ولكنها مع ذلك تتأثر بخيال الانسان وأوهامه ومدى بعده عن الدقة في ملاحظاته وأوصافه واستنتاجاته ونتائج العلوم مقبولة داخل هذه الحدود، فهي بذلك مقصورة على الميادين الكمية في الوصف والتنبؤ. وهي تبدأ بالاحتمالات وتنتهي بالاحتمالات كذلك وليس باليقين. ونتائج العلوم بذلك تقريبية وعرضة للأخطاء المحتملة في القياس والمقارنات ونتائجها اجتهادية وقابلة للتعديل،بالاضافة والحذف وليست نهائية. وإننا لنرى أن العالم عندما يصل إلى قانون أو نظرية يقول إن هذا هو ما وصلنا إليه حتى الآن ويترك الباب مفتوحاً لما قد يستجد من التعديلات»[٨٤].

هذا ما يقوله العلم على لسان أحد العلماء. العلم كله احتمالات لا يقين فيها مهما أوتي من دقة التجربة ودقة الآلات.

والتفسير المادي: رسم خطاً حتمياً للبشرية لا يمكن أن تتجاوزه وهو أن الناس قد مروا بمرحلة الشيوعية البدائية ثم الرق ثم الاقطاع

(٨٣) تفسير التاريخ، ص ١١٠ ــ ١١١.

(٨٤) الله يتجلى في عصر العلم، ص ١٨.

ثم الرأسمالية وأخيراً لا بد أن يصيروا إلى الشيوعية. والأسئلة التي توجه إلى أصحابه هي:

ما هوالدليل العلمي على هذه الحتميات؟ وقد لاحظنا أن تاريخ الإسـلام لم يمر بمرحلة الرق والاقطاع. ثم إن الرأسمالية لم تكن حتماً ستصل إلى ما وصلت إليه من سوء لولا تدخل اليهود في الصناعة الرأسمالية واحتكارها بواسطة القروض الربوية. ثم إن العلم الحديث قال بنظرية الاحتمالات. والدليل إذا تطرق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال. إن هدف الماديين من الحتميات هو اغفال قدرة الله وارادته في تدبير الكون والحياة والانسان.

ثم على فرض أن تفسير أطوار البشرية كما فسرها أصحاب التفسير المادي للتاريخ كلها صحيحة ـ وهي ليست بصحيحة ـ فكيف تكون هذه الأطوار مستقلة عن إرادة الانسان؟ «أليس الانسان هو الذي امتلك الأرض وأدوات الانتاج بعد إذ لم يكن يملك من قبل؟ هل الأرض هي التي فرضت عليه ملك نفسها؟ أم هو الذي امتلكها برغبته في الامتلاك؟ ومن الذي اخترع الآلة؟ أليس هو الانسان؟ ولماذا اخترعها؟ بارادته؟ أم فرضت هي نفسها عليه فرضاً وأمسكته من خناقه وهزته وقالت له اخترعني؟ أوليست رغبته هـو في تحسين انتـاجه ـ الرغبة الفطرية الكامنة فيه ـ هي التي جعلته يتعلم ويبحث وينقب حتى اخترع الآلة. فعلى فرض أن هذه الآلة هي التي تكتب تاريخ البشرية، أليس فيها ارادة الانسان؟ فكيف تكون الأطوار إذن خارجة عن ارادة الانسان ومستقلة عنها؟...

ثم «من الذي فرض هذه الحتميات على خط سير البشرية؟ أهي الصورة الوحيدة الممكنة للحيـاة؟ أو لم يكن من الممكن أن يظل الانسان في طور الشيوعية الأولى أبداً؟ أو لم يكن من الممكن أن يظل

في الرق أبداً؟ وفي الاقطاع أبداً؟ وفي الرأسمالية أبداً؟ اختراع الآلة ينقل خطو الانسان خلال التاريخ... نعم مؤقتاً. فهل اختراع الآلة حتم على البشرية؟ ومن الذي حتمه؟ وما هذه العماية عن ذكر الله؟...

ثم «أو ليس الله هو الذي خلق الكون؟ ولم يكن مضطراً أن يخلقه... سبحانه... أوليس هو الذي خلق الأرض وخلق الانسان وكان من المكن ألا يخلقهما أو يخلق الظروف الملائمة للحياة وظهور الانسان؟.

ثم... إذا كان هذا قدر الله... الذي خلق... فكيف نقف في مرحلة معينة ونقول لهذا القدر: لا لست أنت!! وإنما هي الحتمية التاريخية أو الحتمية الاقتصادية أو الحتمية الاجتماعية أو غيرها من الآلهة المدعاة.

«... لقد انحرف الناس في الجاهلية الأوروبية الحديثة في تصورهم للكون وعلاقته بخالقه وعلاقته بالانسان. ضلوا ضلالات شتى، فمرة يؤمنون بحتمية قوانين الطبيعة لينكروا قدرة الله على المعجزات... ومرة يقولون إن هذا الكون موجود بلا غاية وكذلك الانسان... ولا تختلف هذه الحتمية (العلمية) التي تسمى قوانين الطبيعة[1] عن غيرها من الحتميات كلها تضل عن الحتمية الحقيقية الوحيدة في هذا الكون وهي مشيئة الله.

«وهذه المشيئة الطليقة لا يمكن أن تكون مقيدة... حتى بمشيئتها فكل قيد مفروض على ارادة الله فهو باطل. فمن الذي يملك أن

---

(٨٥) أثبت في فصل مستقل أن قوانين المادة لا تنطبق على الانسان. كما أثبت تفرد الانسان عن الحيوان وأن للانسان قوانين خاصة به تختلف عن قوانين الحيوان، وهذان دليلان هامان يهدمان الحتمية الماركسية.

يفرض إرادته على الله سبحانه الخالق المنشيء المريد؟ (وإرادة الله لا يقيدها إلا هو سبحانه وتعالى مستنداً إلى حكمته قال تعالى:

﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾[86]).

«وإنما جاءت الفتنة من ثبات السنة الالهٰية التي جعلها الله لهذا الكون ودوامها مدى الزمان... ولكن هذا الثبات الذي أوجدته المشيئة الالهٰية مختارة غير مقيدة وكان رحمة بالكون ورحمة بالانسان... إنه لا يقيد ارادة الله -بداهة- ولا يعجزه سبحانه عن التصرف في أمر الكون. كيف يعجز وهو الخالق المنشيء المريد؟.

لقد قضت مشيئة الله الطليقة سبحانه... أن يجري الكون على سنة ثابتة هي التي سمتها الجاهلية الحديثة «قوانين الطبيعة» نفوراً من أن تسميها بإسمها الحقيقي (سنة الله). ولكن حين يريد سبحانه أن يخالف هذه السنة الثابتة بأمره فمن ذا الذي يملك أن يقول له لا! إن قوانين الطبيعة لا تسمح بالتغيير؟!

ومن ثم تقع المعجزة مخالفة للسنة الظاهرة الثابتة. وتكون جزءاً من سنة الله كذلك، التي هي الحتمية الوحيدة في هذا الكون. والايمان بالمعجزة لن يمنع -كما فهم الجاهليون- من قيام العلم بقوانينه الثابتة ولا من قيام العلم في ظل العقيدة، وتقدمه في كل ميدان فلا تعارض على الاطلاق بين هذا وذاك... لقد قام العلم الإسلامي كله -وهو تراث ضخم يشهد للمسلمين بالبروز والتمكن ذلك العلم الذي تولدت عنه كل النهضة العلمية الحديثة في اوروبا وخاصة المنهج التجريبي الذي تقوم عليه كل العلوم الحديثة. قام هذا العلم في ظلال العقيدة في ظلال الإيمان بالمعجزة بلا تعارض في قلوب

---

(86) الانعام ٥٤.

المسلمين وتفكيرهم بين الإيمان بحدوث المعجزة والإيمان بثبوت سنة الله في الكون ــ التي يترتب عليها امكان قيام البحث العلمي وتتبع نتائج المشاهدات ــ لأن هذه حقيقة وهذه حقيقة والحق لا يتعارض بعضه مع بعض إلا في العقول الضيقة التي تعجز عن الشمول»(٨٧).

الملكية الفردية في ذاتها ليست هي منشأ الظلم:

يقول الماديون إن الملكية الفردية قد صاحبها الظلم على مدار التاريخ، الذي أصبح بعد ظهورها مسرحاً لصراع الطبقات، وظهرت فيه حتماً علاقة السيد بالمسود(٨٨).

والحق الذي لا مرية فيه أن الظلم لم ينشأ عن الملكية الخاصة وإنما نشأ عن سوء استخدامها. وذلك أنه حين يشرع الأفراد لأنفسهم ــ حين لا يؤمنون بشرع الله فضلاً عن الالتزام بأحكامه ــ فإنهم يشرعون لمصالحهم الخاصة على حساب الآخرين لأن الطبقة المالكة هي الطبقة الحاكمة. وقد بينت فساد هذه القضية في مناقشة نظام الطبقات، وركزت على أن الإسلام ليس فيه تشريع لطبقة على حساب طبقة، وأن المالك والحاكم هو الله سبحانه وتعالى، والناس منفذون لشرع الله بغض النظر عن كون الحاكم فقيراً أو غنياً، لأنه ليس له حق في التشريع. ومن هنا يبطل الظلم لأن الله لا يحابي أحداً على حساب الآخرين. فالظلم ناتجٌ عن غياب شرع الله وعن سوء تصرف الناس واستغلالهم للآخرين. وليس نتيجة لظهور الملكية الخاصة. ثم إن الملكية الفردية قد وجدت ولم يصحبها الظلم وذلك في تاريخ

---

(٨٧) مقتطفات من كتاب جاهلية القرن العشرين، ص ٨٢ ــ ٨٧.

(٨٨) أنظر فصل مراحل التطور في التاريخ البشري وحتمياته. علاقات الإنتاج.

الإسلام. حيث أن التشريع الإسلامي لم يسمح بقيام الاقطاع الذي عرفته اوروبا، كما أن الاسلام حرَّم الربا الذي هو أساس بناء الرأسمالية والذي هو سبب الظلم الذي تعاني منه البشرية اليوم.

يقول الأستاذ محمد قطب: «والإسلام لا يسوء ظنه بالطبيعة البشرية إلى الحد الذي يسلم فيه بأن الملكية دائمًا تعني الظلم والاستبداد. وقد بلغ في تربيته للنفس الانسانية حداً رفيعاً جعل بعض الناس يملكون ومع ذلك

وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ (٨٩)

فيشركون معهم غيرهم في كل ما يملكونه دون ثمن ولا مقابل ولا إنتظار لشيء إلا رجاء عفو الله ومثوبته»(٩٠).

يقول الماديون حتى يتحقق العدل الشامل ويبطل الصراع لا بد من الغاء الملكية الخاصة وتأميم وسائل الإنتاج، لأن الغاء الملكية الخاصة عندهم هو السبيل الوحيد للتسوية بين البشر وإبطال النزعة إلى السيطرة والسلطان. وأرد عليهم متسائلاً: لماذا كان الغاء الملكية الخاصة هو الوسيلة الوحيدة للخروج من تناقضات الرأسمالية ولم يكن مخرجاً للعبودية أو الاقطاع؟

كما أن السؤال الثاني الذي يطرح هو: هل أمكن في الواقع العملي القضاء على الشر ومحوه من الوجود.؟ هذه روسيا الشيوعية التي ألغت الملكية الفردية وأممت وسائل الإنتاج لتبطل الصراع ـ الذي لا منشأ له في زعمهم إلا التملك الخاص لوسائل الانتاج ـ هل

---

(٨٩) سورة الحشر آية ٩.

(٩٠) شبهات حول الاسلام، ص ٩٢.

استطاعت أن تلغي الصراع في مجتمعها الخاص؟ هذه الشيوعية تتهم (بريا) وتقدمه بتهمة السعي إلى السلطان. وهذا (ستالين) يتهم بالدكتاتورية والانحراف عن مبادىء الشيوعية والاثارة والأنانية وارتكاب الجرائم بلا وازع ولا ضمير. ما معنى ذلك.؟ معناه أن إبطال الملكية الفردية لم يبطل نوازع الشر في النفوس وإن هذه النوازع ـ في بعض النفوس على الأقل ـ أعمق كثيراً من وسائل الانتاج[٩٢].

الإسلام يتمشى مع الفطرة في قضية الصراع:

إن الصراع هو ضرورة بشرية وعلى هذا النحو نفهم قول الله تعالى

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [٩٣]

أي لغلب الشر وأصبح هو المسيطر على الأرض. نعم إن

الصراع ضرورة بشرية ما دام البشر هم وحياتهم هي هذه الحياة. والخالق سبحانه ـ قد زود مخلوقاته بضروراتها ـ وما دام الصراع ضرورة للبشر فقد زود البشر بالقدرة على الصراع، زودهم بها في أجسامهم وعقولهم وأرواحهم وكيانهم كله.

فهو إذ أعطاهم أجساماً تشتهي وعقولاً تفكر وأرواحاً تحلق ساعية إلى النور، زودهم كذلك بالقدرة على التوفيق بين هذه جميعاً. ولن يقوم التوفيق بينها إلا بشيء من الصراع، شيء من التدافع. حتى

---

(٩٢) أنظر في النفس والمجتمع، ص ٤٨.

(٩٣) البقرة، ٢٥١.

لنستطيع أن نقول: إنه لولا دفع هذه القوى بعضها ببعض لفسدت النفس»[٩٤].

وحكمة الخالق سبحانه وتعالى قد اختصت التوفيق بين المخلوقات وضروراتها فجعلت بذرة الصراع موجودة في داخل الكيان النفسي ما دامت ضرورية لواقع الحياة، وبناءً على هذا الأمر فإن الإسلام يقر فكرة الصراع على أساس أنه ضرورة حتمية لازمة لمنح الفساد عن الأرض، ولإيجاد التوازن في الحياة البشرية. وإنه لهذا السبب موجود في بيئة النفس الانسانية. والفكرة الإسلامية فكرة متوازنة، فهي لا تشتط إلى أقصى اليمين المتمثل بالغرب الذي تقوم حضارته على الصراع الخالص، الصراع الدائر بين الأفراد الذي لا تحكمه إلا الضرورة والصراع بين الأمم الذي لا تحكمه إلا غلبة الأسلحة.

كما أن الفكرة الإسلامية عن الصراع لا تشتط إلى أقصى اليسار المتمثل بالشيوعية التي تزعم أن الصراع ذاته ينشيء الاضطرابات في المجتمعات البشرية، لذلك لا بد من القضاء عليه حتى تستريح البشرية من ويلاته.

إن الإسلام لا يعتبر الصراع هدفاً في ذاته ولا يقر كذلك أنه هو بذاته الذي ينشيء القلق والاضطراب في حياة البشر. الإسلام يفهم الصراع على أنه وسيلة للتوفيق بين المتناقضات، ووسيلة بعد ذلك لرفع الكائن البشري عن عالم الضرورة وعن وهدة الشر إلى حيث يستطيع أن يحلق سوياً متوازناً في عالم النور. فهو لهذا يوازن الصراع داخل النفس. يوازنه بعنصر الحب. الذي يستطيع أن يوازن عنصر الصراع داخل النفس فيكبح من جماحه ويخفف من حدته، أو يستأنسه

---

(٩٤) نفس المصدر، ص ٤٨.

فلا يهيج إلا حيث ينبغي له أن ينطلق لتحطيم الشر والعناصر التي تقف في طريق الحب، وتمنع البشرية أن تستمتع بظلاله. كما أن الإسلام يوازن مكان الصراع من الكيان النفسي والطاقات البشرية، فيعمل على توجيه الصراع بقدر إلى الداخل والخارج على السواء في الحدود المعقولة. إن توجيه طاقة الصراع كلها أو معظمها إلى الداخل ينظف النفس حقاً من شهواتها، ولكنه يقتل نشاطها وينشيء فيها سلبية معيبة تجاه الحياة، سلبية لا تنتج ولا تقاوم الشر حين يقع، ولا تضيف شيئاً إلى رصيد الحياة الدائم، وكذلك العكس توجيه الصراع إلى الخارج ينشيء قوة تنتج وتنشيء جديداً كل يوم. وتتفتح وتتوسع ولكنها تقضي على نفسها بحماقة في نهاية الأمر لأنها تهمل تنظيف داخل النفس ولا تتعرض لتهذيب الشهوات»(٩٥).

خطأ التفسير المادي للتاريخ في نشوء الإستعمار:

يقول الماديون: ونتيجة لزيادة الصناعة وتكدس الإنتاج أصبح لابد من تصريف فائض الإنتاج. ومن هنا سعت الدول الرأسمالية إلى الاستعمار لتصريف منتوجاتها، وفي نظر أصحاب التفسير المادي للتاريخ أن مسألة نشوء الاستعمار مسألة حتمية تاريخية إقتصادية. وهنا تكمن المغالطة، لأن الاستعمار لم ينشأ من الرأسمالية وفائض الانتاج. وإلا فما تفسير الإستعمار الروماني الشهير في التاريخ؟

إن الإستعمار شهوة منحرفة للمجتمع الفاسد المغرور الذي يجد في يده القوة والسلطان. وقد خيل إلى الشيوعيين أن الملكية الفردية هي سبب الفساد في الأرض، فنزعت الملكية من الجميع، ولم تفطن

(٩٥) أنظر بتوسع حول هذا الموضوع كتاب في النفس المجتمع، فصل الصراع.

إلى أن الذي كان قد فسد هو الإنسان الذي يجب إصلاحه، هو الإنسان الذي لا يصلح حتى يستقيم على أمر الله وشرعه.

إن الماديين يظنون أن العامل الاقتصادي هو الذي يصنع الإنسان، وأنه إذا صلح العامل الاقتصادي صلح الانسان من تلقاء نفسه، ولم يعد الأمر في حاجة إلى التدخل لأن حتمية الآلية التي تسير الحياة بمقتضاها ـ وقد بينت فساد الحتمية ـ سترتب النتائج الحتمية بصورة آلية وينصلح الكون كله، حين تنزع الملكية من الناس. ويقولون إن هذا علماً، ولكنه حماقة ليس بعدها حماقة[٩٦]. إن الإستعمار الأوروبي سيء ظالم ولا نقره بحال من الأحوال. ولكن وجه الخلاف بيننا وبين الماديين يدور حول أسباب نشأته. فهم يردونه إلى طبيعة رأس المال والملكية الخاصة، ونحن نرده إلى غياب شرع الله عن التطبيق وتشريع الناس لأنفسهم على حساب الآخرين. يقول الأستاذ محمد باقر الصدر: «ولكن الواقع أن الاستعمار ليس تعبيراً اقتصادياً عن المرحلة المتأخرة عن الرأسمالية وإنما هو التعبير العملي بصورة أعمق عن العقلية المادية بمقاييسها الخلقية ومفاهيمها عن الحياة وأهدافها وغاياتها. فإن هذه العقلية هي التي جعلت الحصول على أكبر ربح مادي ممكن هو الهدف الأعلى، بقطع النظر عن نوعية الوسائل وطابعها الخلقي ونتائجها في المدى البعيد. والدليل على هذا من الواقع. إن الاستعمار[*] بدأ منذ بدأت الرأسمالية وجودها في التاريخ وفي المجتمعات الأوروبية بعقليتها ومقاييسها، ولم تنتظر حتى تصل الرأسمالية إلى مرحلتها العليا ليكون تعبيراً عن ضرورة إقتصادية خالصة. فقد إقتسمت الدول الأوروبية البلاد الضعيفة في مطلع الرأسمالية بكل وقاحة واستهتار. فالسبب الأصيل والأسبق

(٩٦) أنظر جاهلية القرن العشرين، ص ١١٢ ـ ١١٣.

(*) المقصود هنا الاستعمار الحديث.

للاستعمار يكمن في الواقع الروحي والمزاج الخلقي للمجتمع لا في مجـرد السماح بالملكية الخاصة لوسيلة الانتاج. فإذا سمح بهذه الملكية في مجتمع يتمتع بواقع روحي وخلق سيـاسي يختلف عن الواقـع الرأسمالي... فليس الإستعمار بمفهومه الرأسمـالي قانـوناً حتميـاً له»[97].

كما أن فائض الإنتاج من جهة أخرى ليس الطريق الوحيد الحتمي لتصريفه هو الاستعمار، لأن التجارة الطبيعية مثلاً كفيلة بتصريفه، والكف عن إنتاجه أصلاً كفيلٌ بعدم وجود الفائض الذي يحتاج إلى تصريف. إن هذه الحتميات ونتائجها التي أصبحت حتمية في ظل الرأسمالية المنحرفة التي لا يقومها ولا يمنعها شيء عن المزيد من الطغيان والظلم والافساد، نتيجة لعدم تحكيم شرع الله في الأرض. كان من الممكن جداً أن لا تتحقق ولا تؤدي إلى هذه النتائج الحتمية السيئة لو أراد الناس غير ما أرادوا واتبعوا منهج الله. يقول الله تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾[98]

خطأ التفسير المادي للتاريخ في تفسير نشوء الأمم

ذكرت في عرض مراحل التطور وحتمياته عند الحديث عن مرحلة الرأسمالية أن الماديين يعتبرون الرأسمالية هي عصر نشوء الأمم، وأن الأمة لم توجد قبل الـرأسماليـة، وذلك لأن الشـروط الاقتصادية اللازمة لنشوئها كانت ولا تزال معدومة. كما يقولون إنه

(٩٧) إقتصادنا، ص ١٨٦ ــ ١٨٧.

(٩٨) سورة الأعراف، آية ٩٦.

ليس ضرورياً أن تتألف الأمة من شعب واحد، فكل الأمم الحديثة نشأت نتيجة لاتحاد الشعوب المختلفة. والأمة نشأت عن متطلبات الإنتاج الرأسمالي وتنشأ على أساسه، وهي تنشأ لأنها ضرورية من أجل تطور الإنتاج الرأسمالي(٩٩).

والسؤال الذي يطرح هو: إذا كانت القاعدة الرأسمالية هي التي تنشيء الأمم، إذن فلماذا لا تكون بريطانيا وفرنسا والدول الرأسمالية في الوقت الحاضر أمة واحدة، هذا من جهة، ومن جهةٍ ثانية لماذا لا تكون الولايات المتحدة الأميركية أمة واحدة؟ ثم إن الباحث في طريقة الماديين في تقسيمهم لاجتماعيات الناس يلاحظ أنهم يعتبرون الشيوعية الأولى هي عصر القبائل. ثم تتحد القبائل في اجتماعية واحدة وتتكون الشعوب، ونتيجة لظهور الملكية الخاصة وانتقال السلطة إلى الأب، وازدياد عدد السكان وحلول الدولة محل التنظيم الاجتماعي للنظام العشائري(١٠٠).

إذن فطبقاً لحتمية التطور لا بد للأمم أن تتطور من مرحلة القبيلة إلى مرحلة الأسرة إلى مرحلة الشعوب إلى مرحلة الأمة.

ولكن الماديين يخرقون هذه الحتمية بأنفسهم: «والآن وبفضل مساعدة الشعب الروسي والشعوب السوفييتية الأخرى نشأت العلاقات الاشتراكية كاملة هناك، وقد نفض الناس عنهم في تلك المناطق النائية غبار التخلف الاقتصادي والسياسي. ولقد أنقذت السلطات السوفييتية كثيراً من تلك القبائل من الانقراض وهكذا. فإن التاريخ أثبت إمكانية الانتقال من النظام القبلي مباشرة إلى الاشتراكية

(٩٩) أنظر المادية التاريخية، ص ٣٤١ ــ ٣٤٢.

(١٠٠) أنظر نفس المصدر، ص ٣٣٩.

دون المرور عبر المجتمع الطبقي (وبالطبع لا يكون هذا إلا عن طريق المساعدة الأخوية للشعوب الاشتراكية)»[١٠١].

هكذا يخربون حتمياتهم بـأيديهم، ومـع ذلك يبـررون هذا التخريب بأن التاريخ المحتوم عليه من قبلهم يثبت لهم ما يريدون!!.

وعلى فرض صحة كلامهم حول نشوء الأمم وتكون الشعوب، فلماذا استمر النظام القبلي، وما تزال بعض القبائل قائمة إلى الآن بعد انتقال السلطة إلى الأب.؟.

وأخيراً فإن تاريخ الاسلام يكشف زيف دعواهم حيث تكونت الأمة الاسلامية وشملت معظم الأجناس البشرية تحت راية التوحيد قبل الرأسمالية بما يزيد على أحد عشر قرناً. والأمة الاسلامية شملت في بداية الأمر العرب ثم من دخل في الاسلام من غير العرب. قال تعالى:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ۝٩٢﴾[١٠٢]

ثم كيف يفسر نشوء الأمم تفسيراً اقتصادياً والأمة الاسلامية لم تنشأ إلا على أساس عقيدة التوحيد؟.

خرافة من كل حسب طاقته ولكل حسب حاجته:

يزعم الماديون أنهم بإستيلاء الدولة الشيوعية على وسائل الإنتاج سيتقدم المجتمع حتى يتحقق التوفير الكامل لكل السلع. ولن يتحقق (مبدأ) من كل حسب طاقته ولكل حسب حاجته).إلّا إذا أصبح العمل

---

(١٠١) نفس المصدر، ص ٣٣٨ ـ ٣٣٩.

(١٠٢) سورة الأنبياء آية ٩٢.

بالنسبة للإنسان حاجة طبيعية كحاجته للمشي والتنفس. وإذا لم يتحقق هذا الشرط فإن الإنسان سيظل يأخذ حسب نوع العمل الذي يقوم به. وحين يتحقق (مبدأ من كل حسب طاقته ولكل حسب حاجته) ستزول الدولة وتتلاشى من الوجود، ويحفظ جهازها في متحف الآثار على حد تعبير إنجلز.

والسؤال الذي يوجه إلى الماديين هو: ما هي الأسس التي بنيتم عليها تصور قيام الإنسان بعمله تلقائياً؟ هل عندكم تجربة من التاريخ الماضي تؤيد دعواكم؟ أم عندكم من الدراسة النفسية الموضوعية ما يثبت ذلك؟.

والحق أن البديهة التي يدركها الإنسان هي أن العمل فيه تعب وإرهاق للجسم، والشيوعيون يرددون دائماً إنهم سيقصرون يوم العمل ويخففون العبء عن العامل بتخفيض ساعات العمل إلى ست ساعات في اليوم[١٠٣]. والإنسان يركن إلى الكسل ويخلد إلى الراحة ما لم يدفعه دافع قوي من دين وإيمان، أو حافزٍ ذاتي من المصلحة أو المنفعة أو ضغط مستمر بالحديد والنار، والأخير لا يستمر طويلاً. لأن الفطرة الإنسانية تثور على الظلم وتلفظه في النهاية.

«وقد مارس الشيوعيون شتى الضغوط على العمال حين أرادوا أن يسووا بين الناس في الأجور، ولكنهم لم يفلحوا رغم الدماء الهائلة التي سفحت من أجل تحقيق النبؤات الماركسية، ولم تثبت بعد ذلك نبوءة من تلك النبؤات[١٠٤]. بل ثبت بما لا يقبل الشك أنها مستحيلة على التطبيق»[١٠٥].

(١٠٣) انظر عرض النظرية فصل مراحل التطور في التاريخ البشري.

(١٠٤) سوف أتعرض لنقد نبؤات ماركس بعد قليل.

(١٠٥) الشيوعية والإنسانية، ص ١٥.

لم يستطيعوا أن يسووا بين الناس في الأجور، وتراجعوا إلى إباحة الملكية الفردية لإثارة الدوافع الأصلية في النفس الإنسانية للإنتاج والعمل. ثم اعترفوا أن المساواة بين الناس في الأجور مستحيلة لأن بين الناس تفاوتاً طبيعياً مرده إلى الكفاءات البيولوجية(١٠٦).

أما توهم أن العمل سيكون ضرورة كالأكل والشرب فإنها خرافة لا يملكون دليلاً علمياً واحداً عليها، ولولا أن روسيا قد عادت إلى تمييز الدخول والسماح بدرجة من التملك لما استطاعت أن تخطو خطوة واحد. وعلى الرغم من أن الدوافع الفطرية من التمييز والتملك التي تقدمها روسيا لشعبها ــ وهي غير كافية فإنها تدعم هذه الدوافع بوسيلتين.

الوسيلة الأولى: إستخدام النظام البوليسي والقوة الغاشمة التي لا تعرف معنى الرحمة مع العمال.

الوسيلة الثانية: إثارة التنافس القومي لوجود أميركا بالذات أمامها في مجال التنافس وبدرجة أكثر تقدماً. لأن روسيا تحاول تقليد أميركا(١٠٧).

يقول الأستاذ محمد باقر الصدر في معرض حديثه عن محو الملكية الخاصة في كل المجالات: «ونحن لا نعرف فرضية أكثر إمعاناً في الخيال وتجنيحاً في آفاقه البعيدة من هذه الفرضية التي تعتبر أن كل إنسان في المجتمع الشيوعي قادر على إشباع جميع رغباته وحاجاته إشباعاً كلياً. كما يشبع حاجاته من الهواء والماء. فلا تبقى ندرة ولا تزاحم على السلع ولا حاجة إلى الإختصاص بشيء.

«ويبدو من هذا أن الشيوعية كما تصنع المعجزات في الشخصية

---

(١٠٦) انظر نفس الفصل السابق.

(١٠٧) انظر مستقبل الحضارة بين العلمانية والشيوعية والإسلام، ص ٥٦ ــ ٥٧.

الإنسانية فتحول الناس إلى عمالقة في الإنتاج من إنطفاء الدوافع الذاتية في ظل التأميم ـ كذلك تصنع المعجزة مع الطبيعة نفسها وتجردها عن الشح والتقتير وتمنحها روحاً كريمة تسخو دائماً بكل ما يتطلبه الإنتاج الهائل من موارد ومعادن وأنهار. ومن سوء الحظ أنّ قادة التجربة الماركسية حاولوا أن يخلقوا الجنة الموعودة على الأرض ففشلوا، وظلت التجربة تتأرجح بين الإشتراكية والشيوعية حتى أعلنت بصراحة عجزها عن تحقيق الشيوعية بالفعل. كما تعجز كل تجربة تحاول إتجاهاً خيالياً مع طبيعة الإنسان. فقد اتجهت الثورة الإشتراكية في باديء الأمر إتجاهاً شيوعياً خالصاً إذ حاول لينين أن يكون كل شيء شائعاً بين المجموع، فانتزع الأرض من أصحابها وجرد الفلاحين من وسائل إنتاجهم الفردية فتمرد الفلاحون وأعلنوا إضرابهم عن العمل والإنتاج، فنشأت المجاعة الهائلة التي زعزعت كيان البلاد وأرغمت السلطة على العدول عن تصميمها فردت للفلاح حق التملك واستعادت البلاد حالتها الطبيعية إلى أن جاءت سنة (٢٨ ـ ٣٠) فحدث إنقلاب آخر أريد به تحريم الملكية من جديد، فاستأنف الفلاحون ثورتهم وإضرابهم وأمعنت الحكومة في الناس قتلاً وتشريداً وغصت السجون بالمعتقلين وبلغت الضحايا على ما قيل ـ مائة ألف قتيل ـ بإعتراف التقارير الشيوعية واضعاف هذا العدد في تقارير أعدائها. وراح ضحية المجاعة الناجمة عن الإضراب والقلق سنة (١٩٣٢م) ستة ملايين نسمة بإعتراف الحكومة نفسها. فاضطرت السلطة إلى التراجع وقررت منح الفلاح شيئاً من الأرض وكوخاً وبعض الحيوانات للإستفادة منها على أن تبقى الملكية الأساسية للدولة وينضم إلى جمعية (الكلخوز الزراعية الاشتراكية) التي تتعهدها الدولة وتستطيع أن تطرد أي عضوٍ منها متى شاءت»[١٠٨].

(١٠٨) إقتصادنا، ص ٢١٠ ـ ٢١١.

وعلى فرض تحقيق هذه الخرافة (من كل حسب طاقته ولكل حسب حاجته) ما الذي سيحدث؟ هنا سوف تفاجأ الشيوعية بالحقيقة الكبرى يوم تحقق حلمها الأكبر حين يزداد الإنتاج وتوزعه بين الناس بالتساوي. سوف تفاجأ بجوعة الروح بعد أن تشبع الأجساد وهذه سنة الله سبحانه وتعالى في خلقه، وهي أن جوعة الروح تبدأ بعد إكتفاء الجسد إن لم تبدأ قبل ذلك»[١٠٩].

مناقشة فكرة زوال الدولة:

إن الشيوعية التي وعدت أتباعها بتحقيق الحلم الكبير الذي تخدر به الناس، وهو تحقيق (مبدأ من كل حسب طاقته ولكل حسب حاجته) وتستغلهم بهذا التخدير في سبيل تحقيق مطامعها الشخصية، تخدرهم بأفيون آخر وهو زوال الدولة من الوجود ونقل جهازها إلى متحف الآثار.

والملاحظة الأولى هي: إن هذه الوعود غيبيات، فكيف تسمح الشيوعية لنفسها أن تؤمن بالغيبيات، وتحرمه على غيرها وتصف المؤمنين بالغيب بالجمود والرجعية والتخلف؟.

والملاحظة الثانية وعلى فرض أن حلمهم الأكبر قد تحقق بتحول الناس من الإشتراكية إلى الشيوعية، والتساؤلات التي تفرض نفسها في هذا الأمر هي: كيف يتم التحول الإجتماعي الذي ينقل الناس من مجتمع الدولة إلى المجتمع المتحرر منها أي من الإشتراكية إلى الشيوعية؟ ثم ما هي الطريقة التي يحصل بها هذا التحول الإجتماعي

---

(١٠٩) انظر في النفس والمجتمع، ص ١٨٠.

الخطير؟ أولاً! هل هي طريقة ثورية وانقلابية حاسمة كالطريقة التي حدثت في الإنتقال من الرأسمالية إلى الإشتراكية؟.

فإن كان التحول يتم عن هذا الطريق الثوري فما هي الطبقة الثائرة على حكومة البرولتاريا؟ وكما هو معلوم أن الطبقة الثائرة على الحكومة عند الماديين لا تمثلها تلك الحكومة، وإنما هي طبقة أخرى غير طبقة الحكومة القائمة. وعلى هذا الأساس فإن الطبقة التي سيتم التحول الثوري على يديها إلى الشيوعية ليست طبقة البرولتاريا التي تمثل الحكومة الإشتراكية. فهل يريد الشيوعيون أن يقولوا إن الثورة الشيوعية تحصل على أيدي بروجوازيين مثلاً؟.

ثانياً: أم أن التحول يتم بطريقة تدريجية فتزول الدولة وتتقلص حتى تضمحل وتتلاشى؟ فإن كان التحول يتم بهذه الطريقة فهذا يخالف قوانين الديالكتيك، لأن قانون الكمية والكيفية في الديالكتيك يؤكد على أن التغيرات الكيفية ليست تدريجية، بل تحصل بصورة فجائية وتحدث بقفزة من حالة إلى أُخرى. وعلى هذا الأساس آمن الشيوعيون بأن الثورة ضرورية في مطلع كل مرحلة تاريخية، بوصفها تحولاً آنياً. فكيف يبطل هذا القانون عن العمل عند تحول المجتمع من الإشتراكية إلى الشيوعية؟.

ثم إن التحول التدريجي كما أنه يخالف قانون الديالكتيك الماركسي، فإنه يخالف طبيعة الأشياء، إذ كيف يمكن أن نتخيل أن الحكومة الإشتراكية تتنازل في التدريج عن السلطة وتقلص ظلها حتى تقضي بنفسها على نفسها، في حين أن كل حكومة سابقة في المراحل الإجتماعية السابقة على الإشتراكية على وجه الأرض كانت تتمسك بمركزها وسيادتها إلى آخر لحظة من حياتها!.

ثم إنا عرفنا أن من ضرورات المرحلة الإشتراكية قيام دكتاتورية الحكومة البرولتارية المطلقة السلطان. فكيف تصبح هذه الدكتاتورية المطلقة مقدمة لتلاشي الحكومة واضمحلالها؟ وكيف يمهد إستفحال السلطة واستبدادها إلى زوالها واختفائها؟.

ثم على فرض تحقيق حلم الشيوعية الكبير وهو قيام المجتمع الشيوعي وتحقيق مبدأ (من كل حسب طاقته ولكل حسب حاجته) أفلا يحتاج هذا المجتمع إلى سلطة تحدد هذه الحاجة وتوفق بين الحاجات المتناقضة فيما إذا تزاحمت على سلطة واحدة وتنظم العمل وتوزعه على فروع الإنتاج»[١١٠].

يقول الدكتور محمد فتحي الشنيطي في مقال له بعنوان الشيوعية والفلسفة: «والماركسية حين تتنبأ بالمستقبل تنبؤاً مستنداً إلى أساس علمي تفترض نوعاً من الإنتاج مختلفاً عن الإنتاج القائم اليوم، وتفترض إنساناً آخر مختلفاً عن الإنسان الذي نعرفه اليوم ويدعونا هذا إلى التساؤل: إذا كان من الممكن تحقيق تقدم أخلاقي بتوجيه الناس إلى أكبر قدرٍ من التعاون بتدريب الشباب في ظل النظام الجديد على الإبتعاد عن الفردية والإستغراق في العمل الجماعي، فهل في وسعنا أن نسلم بأن الإنسان الجديد إنسان متحرر تماماً من النزعات الأنانية؟ ألا نتوقع في مجتمع الغد مجتمع الحرية إنحرافاً وإلتواءً عند إنسان يعيش برغبته، والثروة العامة بين يديه؟ وإذا كان ثمة إلتواء وإنحراف فهنالك إمكانية لإستفحال الخطر وتضاعف الضرر بحيث تبرز من جديد العوامل التي تؤدي إلى الصراع»[١١١].

---

(١١٠) انظر إقتصادنا، ص ٢١١ ـ ٢١٢.

(١١١) الشيوعية اليوم وغداً، ص ٧٥ ـ ٧٦.

كذب تنبؤات ماركس:

يزعم ماركس وشيعته أن تنبؤاته قائمة على أسس علمية، ولكن الواقع المشاهد عصف بهذه العلمية المزعومة، فجاءت وقائع التاريخ مخالفة لتنبؤات ماركس. وإليكم الأمثلة على ذلك:

١ ــ يقول ماركس: «إن إنتباه الشيوعيين يتوجه بصورة خاصة نحو ألمانيا لأنها على أعتاب ثورة برجوازية. ولأنها ستقوم بهذه الثورة في ظروف تكون فيها المدينة الأوروبية أكثر تقدماً ورقياً. ومع بروليتاريا متقدمة نامية أكثر مما كانت عليه في إنكلترا في القرن السابع عشر وفي فرنسا في القرن الثامن عشر. فالثورة البرجوازية الألمانية لا تكون بالتالي سوى بداية وتمهيد مباشر لثورة بروليتارية»[١١٢].

وأترك الرد على هذه النبؤة الكاذبة لأصحاب كتاب المادية التاريخية: «ولقد رأى ماركس وإنجلز أن الثورة البرولتارية يمكن أن تنتصر فقط عن طريق توحيد جهود البرولتاريا في البلدان الرأسمالية المتطورة جميعها في الوقت ذاته، وإن إنتصار الثورة الإشتراكية في بلد واحدٍ يستحيل في مثل تلك الظروف. هكذا كتب إنجلز في مباديء الشيوعية: إن الثورة الشيوعية لن تكون على الصعيد القومي وحسب وإنما ستقوم في كل البلدان المتطور في آن واحد، أي في إنكلترا وأميركا وفرنسا وألمانيا على الأقل». ولقد أكد ماركس وإنجلز أن الثورة ليست عملاً قصير الأجل وإنما هي عصر كامل من المعارك العالمية التي تقوم بها البروليتاريا ضد أعدائها الطبقيين. لقد كانت هذه الموضوعة القائلة إنه من أجل إنتصار الثورة الإشتراكية ينبغي أن تقوم الثورة في كل البلدان الرأسمالية المتطورة في زمنٍ واحد. كانت موضوعة صحيحة

---

(١١٢) البيان الشيوعي، ص ٨٥ ــ ٨٦.

بالنسبة لفترة رأسمالية ما قبل الإحتكار وتنسجم مع الشروط التاريخية لذلك العصر. لكن الظروف تغيرت في عصر الإمبريالية»(١١٣). إذن فعلى حد تعبيرهم، إن نبؤة ماركس وإنجلز عن قيام الثورة الإشتراكية في كل البلدان الرأسمالية المتطورة في زمن واحد كانت صحيحة بالنسبة لفترة رأسمالية ما قبل الإحتكار. ثم حين شاء الله تعالى أن يخيب ظنهم برأسمالية الإحتكار، أصبحت نظريتهم كاذبة ولغاية الآن لم تتحول هذه الدول إلى الشيوعية. والسؤال الذي يرد عليهم هو: أين العلمية المزعومة في نبؤاتكم العلمية، وتغير الظروف يكذبها؟ ثم هل يصح أن تتنبأوا على أمر مجهول غيبي بصيغة الحتمية وأنتم لا تملكون منع الظروف من التغير كما حدث في مرحلة الإمبريالية الرأسمالية؟.

وثمة أمر آخر وهو: إن روسيا انتقلت إلى المرحلة الإشتراكية دون المرور بالمرحلة الرأسمالية، وألمانيا البلد الواحد أصبحت تخضع لنظامين بعد تقسيمها أحدهما رأسمالي وتمثله ألمانيا الغربية وإشتراكي وتمثله ألمانيا الشرقية. فلماذا انتقلت روسيا إلى الإشتراكية دون المرور بمرحلة الرأسمالية؟ ومرحلة الرأسمالية مرحلة حتمية في تاريخ البشر لا بد أن يمروا بها على حد تعبيركم! ثم لماذا بقيت الدول الرأسمالية كما هي ولم تنتقل إلى الإشتراكية؟ بل إن المشاهد أنها بدأت تتجه إلى تحسين مستوى دخل العمال.

٢ ــ وادعى ماركس أن الثورة تأتي بعد تركيز الصناعات الكبرى في يد قلة من الرأسماليين فتتصارع القوى الرأسمالية القليلة مع الطبقات الفقيرة المحرومة فتندلع الثورة وتتسلم البروليتاريا الحكم ووسائل الإنتاج. وقامت الثورة في روسيا لا عن تركيز إقتصادي

(١١٣) المادية التاريخية، ص ٣٠٧.

ولا عن وجود صناعات كبرى في يد قلة من أصحاب المال بل كانت نتاجاً مباشراً لنتائج الحرب الروسية اليابانية. يقول كول: لقد كانت الحرب أولاً ثم هزيمة ثانياً هما ما أثار لفترة ما جميع السكان تقريباً باستثناء سادة الأراضي والموظفين والمخلصين من أتباع الكنيسة الأرثوذكسية إلى المطالبة بإصرار بتغيير جذري. ولكن لم يكن معروفاً ما هو التغيير المطلوب...»[114].

٣ ـ ومن نبوءات ماركس الزائفة قوله إن العالم يسير في الصناعة والتجارة نحو الإحتكار بحيث يأكل الأقوياء ضعاف الملاك، وإن هذا الإحتكار يستمر ويضطرد في جميع الصناعات وينتهي ذلك إلى إلغاء الملكية الفردية، ومن العجيب أن روسيا سمحت بالملكية الفردية في بعض الأشياء كالسيارة والبيت وإدخار بعض المال في البنك. كما تنبأ بازدياد تمركز رؤوس الأموال عن طريق الاحتكارات ولكن الذي حدث كان إتجاهاً إلى تفتيت رؤوس الأموال عن طريق الشركات المساهمة وتفتيت الملكيات الزراعية من تلقاء نفسها عن طريق الميراث[114].

٤ ـ تنبأ ماركس باتساع شقة الخلاف بين البرجوازية والبرولتاريا في الدول الرأسمالية بشكل مضطرد إلى أن يتفاقم الوضع إلى ثورة تقلب النظام الرأسمالي كله. ولكن الذي حدث في المجتمعات الرأسمالية كان العكس، وهو مزيد من التقارب بين الطبقات نتيجة لقيام الدول الرأسمالية بسلسلة من الإصلاحات والأنشطة النقابية، في حين إنطلق الصراع وتفاقم من دول العالم

(١١٤) الدولية الثانية، ص٦٠٦. نقلاً عن التضليل الماركسي، ص١٠٨.

(١١٥) انظر هزيمة الشيوعية في عالم الإسلام، ص٥٨ ـ ٥٩. والماركسية والإسلام، ص١٢ ـ ١٣.

الإشتراكي نفسه كما حدث بين روسيا والصين ورومانيا ويوغوسلافيا وألبانيا والمجر وبولندا(١١٦).

بعد هذا أسأل أين العلمية المزعومة في تفسيركم المادي للتاريخ وقد كذبت تنبؤات ماركس التي تزعم أنها مبنية على أساس علمي؟

﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ۝٢٥﴾(١١٧)

التراجع والترميم:

من الملاحظات الهامة التي ينبغي على الكاتب أن يأخذها بعين الإعتبار، هي التراجعات والترميمات التي توالت على الفكر الماركسي ليرى قيمة هذا الفكر من الناحية العلمية.

في حين يزعم ماركس أن العامل الإقتصادي هو العامل الوحيد المحدد لجميع الأوضاع السياسية والقانونية والدينية والأخلاقية، نجد أن إنجلز يزعم نظرياً أنه هو وماركس لم يؤكدا إلاَّ على أهمية العامل الإقتصادي ولم ينكرا دور الأفكار وتأثيرها على مجرى الأحداث التاريخية(١١٨).

يقول جورج طرابيشي: «بيد أن مؤسسا الإشتراكية العلمية فوجئا في أواخر حياتهما بأن الماركسية نفسها مهددة بأن تتحول إلى إيديولوجيا بأن تنحط إلى مذهب يزعم المعرفة المطلقة ويحل نفسه محل الواقع. ومن هنا ارتفع صوتهما بالتحذير. فاه ماركس بعبارته المشهورة: «كل ما أعرفه هو أنني لست ماركسياً». ونـدد إنجلز

---

(١١٦) انظر الماركسية والإسلام، ص١٢.

(١١٧) القمر ٢٥.

(١١٨) انظر الماركسية والإيديولوجيا، ص٩٣.

بـ «التلاميذ» الذين أذلوا الماركسية إلى أورثوذكسية متشنجة، ينبغي على العمال أن يتجرعوها وكأنها عقيدة دينية. . . » وبلا كلل، راح إنجلز ومن بعده لينين يردد: «إن نظريتنا ليست عقيدة. . . عقيدة ينبغي حفظها وترديدها ميكانيكياً، إنها دليل للعمل. . . ونظرية للتطور»[١١٩].

ومادام أن ماركس وإنجلز قد خشيا على نظريتهما أن تنقلب إلى مذهب يزعم المعرفة المطلقة، فلماذا أنكرا وجود الله تعالى وهما يزعمان أنهما لا يملكان المعرفة المطلقة؟ ولماذا قالا بحتمية التطور وصراع الطبقات كذلك؟.

يقول جورج طرابيشي: «بيد أن هذه التحذيرات»[١٢٠] ذهبت إلى حد كبير أدراج الرياح. فقد عرفت الماركسية إنحطاطها الإيديولوجي الأول على أيدي (الماركسيين الأرثوذكسيين» من فرسان الأممية الثانية وخلفائهم من الإشتراكيين ـ الديمقراطيين ثم عرفت ـ بعد حقبة من التطور اللينيني المبدع ـ إنحطاطها الإيديولوجي الثاني على أيدي الستالينيين. . . ولكن ماذا نعني بالإنحطاط الإيديولوجي للماركسية»؟.

«إن ماركس إيستمان الذي كان في يوم من الأيام ماركسياً يجيب على جزء من هذا السؤال فيقول: «لقد تحولت الماركسية التي تزعم العلمية إلى لاهوت بيزنطي تفرع منها ونشأ حول كتب ماركس وإنجلز ولينين وبليخانوف المقدسة[١٢١].

(١١٩) نفس المصدر، ص ١٥٠. نقلاً عن كوستاس بابا يانو (الإيديولوجيا الباردة) منشورات ج.ج بوفير هولندا ١٩٦٧م، ص ٢٦.

(١٢٠) يقصد بتحذيرات ماركس وإنجلز ولينين السابقة.

(١٢١) نقلاً عن نديم البيطار الإيديولوجيا الإنقلابية ـ المؤسسة الأهلية ـ بيروت ١٩٦١ ص ١٠٦.

أما جان بول سارتر فقد حاول أن يفصل قليلاً في الإجابة فقال:

لقد أصيبت الماركسية منذ أن تحولت إلى عقيدة رسمية بتصلب في الشرايين، بتيبس توقفت كفت عن أن تعرف شيئاً جديداً تكاسلت، صار همها لا الوصول إلى معلومات ومعارف بل تأسيس نفسها قبلياً على أنها مطلق، علم مطلق يعرف سلفاً النتائج التي سيفضي إليها التحليل»(١٢٢).

«إن التباشير الأولى لإنحطاط الماركسية إلى إيديولوجيا بالمعنى المرذول، ظهرت في أيام لينين بالذات عندما حاول لوناتشارسكي كبير مثقفي الحزب أن يؤسس الإشتراكية ديناً جديداً للبشرية، وأن يحول «أبانا الذي في السموات»(١٢٣) إلى صلاة شيوعية: «ليتقدس إسمك أيتها البرولتاريا لتكن مشيئتك، ليكن ملكوتك...».

«وظهرت أيضاً عقب وفاة لينين عندما أسست عبادة شخصه ونصبت له الأصنام وحنطت جثته على نحو ما كان يفعل الفراعنة.

«بيد أن خطر الإنحطاط بات يبعث على القلق حقاً من اللحظة التي أصبحت فيها مؤلفات ماركس وإنجلز ولينين بالذات عرضة لمقص الرقابة. فقد صدرت الأوامر بوقف العمل بمشروع ربازانوف لطبع المؤلفات الكاملة لماركس وإنجلز وصدرت أوامر مماثلة بتقليص حجم (المؤلفات الكاملة) للينين فجاءت الطبعات الأولى والثانية والثالثة مشوهة ناقصة محرفة، مليئة بالحواشي المغرضة.

«ويقدر معهد ماركس ـ إنجلز ـ لينين ـ التابع للجنة المركزية

---

(١٢٢) سارتر: مسألة منهج في نقد العقل الجدلي ـ غاليمار ـ باريس ١٩٦٠ ص ٢٥ ـ ٢٩.

(١٢٣) إصطلاح للنصارى وليس للمسلمين.

للحزب الشيوعي السوفياتي عدد النصوص اللينينية التي أسقطت من الطبعتين الثانية والثالثة بـ ٥٠٠٠ نص وبالرغم[١٢٤] من أن المعهد المذكور قد وعد بأن تكون الطبعة الرابعة (أكمل طبعة للتراث الأدبي الذي خلفه لينين)[١٢٥] فقد أعلن بعد إنجاز الطبعة الرابعة في خمسة وثلاثين مجلداً أن المؤلفات الكاملة ما تزال غير كاملة. وأن هناك نصوصاً وردت في الطبعة الثالثة وأسقطت من الطبعة الرابعة بالذات وإنه من الضروري إضافة مجلدات خمسة بكاملها»[١٢٦].

«وحتى مؤلفات مؤسس الإشتراكية العلمية لم تخل من مثل هذا التحريف ـ فمعهد ماركس ـ إنجلز ـ لينين ـ ستالين لم يجد رادعاً من ضمير علمي في أن ينسقط من مؤلفات ماركس وإنجلز ما يمكن أن يتعارض مع الماركسية بعد إنحطاطها إلى لاهوت وإيديولوجيا ـ فما دامت الأسطورة المنحطة للماركسية تزعم أن هذه الأخيرة هي علم القوانين الموضوعية لتطور الطبيعة والمجتمع معاً. فإن المعهد المذكور لا يجد حرجاً في أن يحذف من طبعة الإيديولوجيا الألمانية على سبيل المثال نصاً يعلن فيه ماركس وإنجلز بكل وضوح «نحن لا نعرف سوى علم واحد هو علم التاريخ»[١٢٧/١٢٨].

---

(١٢٤) والصواب على الرغم.

(١٢٥) مقدمة الطبعة الرابعة من المؤلفات الكاملة للينين، المجلد ١، ص ٧.

(١٢٦) مقدمة المجلد ٣٦ من المؤلفات الكاملة، ص ٧.

(١٢٧) وتتمة الكلام المحذوف: «إننا نعرف علمًا واحداً فقط ألا وهو علم التاريخ. ويستطيع المرء أن ينظر إلى التاريخ من طرفين وأن يقسمه إلى تاريخ الطبيعة وتاريخ البشر وعلى كل حال فالطرفان غير منفصلين: فتاريخ الطبيعة وتاريخ البشر يشرطان بعضهما بعضاً ما وجد البشر وإن تاريخ الطبيعة المسمى العلوم الطبيعية لا يعنينا هنا. لكنه لا بد لنا أن ندرس تاريخ البشر ما دامت الإيديولوجية بكاملها على وجه التقريب ترتد إما إلى تفسير خاطىء للتاريخ وإما تؤدي إلى تعليقه كلية. فليست الإيديولوجية بالذات إلاّ مظهراً واحداً من مظاهر التاريخ»، والإيديولوجية الألمانية، ج ١، ص ٢٢.

(١٢٨) الماركسية والإيديولوجية. مقتطفات من ١٥٠ ـ ١٥٤.

ويقول كاريوهنت: «وقد أدت الشيوعية الحربية في الفترة بين ١٩١٩ ــ ١٩٢٢م إلى إنهاك قوى روسيا إلى حد اضطر معه لينين إلى العودة إلى أساليبه الخاصة وأطلق عليها (السياسة الإقتصادية الجديدة)، وهي وسيلة استنكرها كثيرون من أتباعه ووصفوها بأنها (رجعية) وقد بررها هو بسبب واحد هو الضرورة القصوى.

«ولكن الماركسيين اليوم يرون أن تلك الإعتراضات التي قامت في ذلك الوقت كشفت عن القصور عن فهم الجدلية، وأن السياسة الإقتصادية الجدلية كانت النقيض الجدلي للشيوعية الحربية. وتعتبر سياسة ستالين منذ عام ١٩٢٤وما بعده بمثابة تآلف النقيضين. وهكذا تتحول هزائم الشيوعية إلى إنتصارات»(١٢٩)

٢ ــ ثم إن الماركسيين الذين أقاموا نظريتهم على أساس إلغاء الملكية الفردية تراجعوا عن هذا القرار وسمحوا بنوع من الملكية الخاصة حين اشتدت مقاومة الفلاحين لهم، والتي ذهب ضحية هذه المقاومة ما يزيد عن ستة ملايين شخص وبخاصة من المسلمين»(١٣٠).

٣ ــ وحين رأى الماركسيون أن الإنتاج بدأ يضعف ــ إلى حدٍ جعل روسيا تستورد المواد الغذائية وبخاصة القمح من الدول الرأسمالية ــ نتيجة لقتل الحافز الشخصي ــ تراجعوا في نهاية الأمر وشجعوا الحافز الفردي.

٤ ــ وحين اشتد الضغط على روسيا في الحرب العالمية الثانية لجأت إلى إثارة نعرة القوميات وتشجيع الأديان المحرمة في دستورهم وهي الإسلام على وجه الخصوص والنصرانية. ثم عادت إلى محاربتها من جديد.

---

(١٢٩)الشيوعية نظرياً وعملياً، ص٣٢ ــ ٣٣.

(١٣٠) راجع كتاب الإسلام في وجه الزحف الأحمر، وكتاب الصنم الذي هوى.

٥ ــ ونلمس التراجع الواضح عن السياسة الماركسية الثورية العنيفة بنظرية التعايش السلمي المصطنعة التي تزعمها الشيوعية لنفسها. «إن العمليات الداخلية في البلدان الرأسمالية ستؤدي حتماً إلى قلب النظام الرأسمالي واستبداله بالنظام الإشتراكي، ومن أجل هذا ليس ثمة داعٍ للحرب. إن كل شعب حر في أن يختار[١٣١] هذا النظام أو ذاك وفقاً لإرادته ومع تطور النظام الإشتراكي ستنمو الرغبة لدى كل الشعوب[١٣٢] من أجل إقامة النظام الإشتراكي... لكن الأمر هو أن بناء الشيوعية بحاجة إلى السلم حاجة الإنسان إلى الهواء. وإنه يمكن للشيوعية أن تنتصر في العالم أجمع بدون الحرب»[١٣٣].

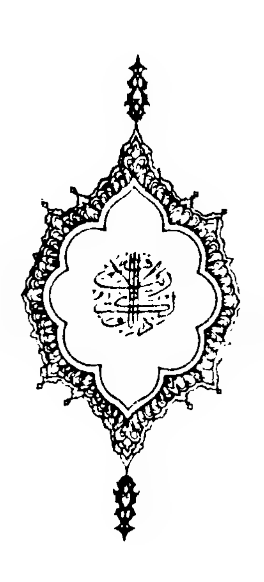
هذه جملة من المباديء والأفكار التي تراجع الشيوعيون عنها تهدم العلمية المزعومة في التفسير المادي للتاريخ من أساسها ومن أراد التوسع فليراجع الكتب التالية: الصنم الذي هوى. الشيوعية والإنسانية. منعطف الإشتراكية الكبير بديل الماركسية والإيديولوجيا.

---

(١٣١) أين الحرية التي تركها الغزو السوفياتي لشعب أفغانستان المسلم في إختيار النظام الذي يريده؟.

(١٣٢) بخلاف المسلمين الذين تنمو الرغبة عندهم كل يوم إلى إقامة حكم الله في الأرض، ولكن البغاة يضعون العراقيل في طريقهم

(١٣٣) المادية التاريخية، ص ٢٥٢.



الفصل السابع
مناقشة موقف التفسير المادي للتاريخ من الدين

محاربة الشيوعية للأديان:

تسعى الشيوعية جاهدة بكل الوسائل العملية والفكرة للقضاء على الأديان ـ وبخاصة الاسلام ـ فقد شنت الشيوعية حرباً لا هوادة فيها ضد الأديان ـ ما عدا الدين اليهودي ـ في البلاد التي وضعت أقدامها فيها، ومارست شتى وسائل الضغوط الفكرية والمادية لتحقيق أهدافها، فأغلقت المساجد والكنائس، وأعدمت العلماء المسلمين ورجال الدين النصراني. وقتلت الملايين من المسلمين وغيرهم، وشتت الملايين عن ديارهم وأهلهم، ونفت كثيراً منهم إلى مجاهل سيبيريا[1]. وفي هذه الأيام نرى ونسمع عن الغزو الشيوعي الوحشي لأفغانستان المسلمة، وتقتيل لمجاهدين المسلمين لأنهم يدافعون عن عقيدتهم وأرضهم.

كما فرضت روسيا الشيوعية الالحاد على شعبها، وعلى الشعوب التي تسير في فلكها، ومنعت تدريس الدين في المدارس، وفرضت

---

(١) أنظر الاسلام في وجه الزحف الأحمر ـ فصل المسلمون في الاتحاد السوفييتي، ص ١٠٧، وما بعدها، وكتاب هزيمة الشيوعية في عالم الاسلام، ص ١٤ ـ ١٦، الهلال الشهيد، ص ٥٣، وكتاب الأفعى اليهودية في معاقل الاسلام، ص ١١٠ ـ ١٢٠.

عقوبات السجن على كل من ينشر تعاليم الدين بين من هم دون سن البلوغ.

وتنص المادة (١٢٢) من الجنايات المذكورة على تحريم تلقين الأطفال الأحداث العقائد الدينية سواء في مدارس الحكومة أو المدارس الخاصة أو المعاهد التعليمية المختلفة، وجعلت كل مخالفة في هذا الشأن جريمة تستوجب الحبس الاصلاحي مع الأشغال مدة لا تزيد على سنة.

ويقول الأستاذ محمد سامي عاشور: «إن هذا الاضطهاد قائم رغم ما جاء في الدستور السوفييتي بشأن الحرية الدينية، لأن هدف الشيوعيين الذي لا يحيدون عنه أن يحرموا الدين من أسباب الحياة، وأن يدعوه يذبل وينتهي وكأنه مات ميتة طبيعية»[٢].

أسباب محاربة الشيوعية للدين:

١ ـ يؤكد الباحثون أن معارضة الشيوعية للدين وحربها القاسية التي شنتها عليه، تعود إلى النفسية اليهودية التي تسعى جاهدة إلى تحقيق استعلاء شعب الله المختار، ولا عجب إذا كانت الشيوعية نتاج يهودي ومعظم زعمائها من اليهود.

يقول البروتوكول الثالث: «إننا نقصد أن نظفر كما لو كنا المحررين للعمال، جئنا لنحررهم من هذا الظلم، حينما ننصحهم بأن يلتحقوا بطبقات جيوشنا من الاشتراكيين والفوضويين والشيوعيين، ونحن على الدوام نتبنى الشيوعية ونحتضنها متظاهرين بأننا نساعد العمال طوعاً لمبدأ الأخوة والمصلحة العامة للانسانية، وهذا ما تبشر به الماسونية الاجتماعية»[٣].

---

(٢) نفس المصدر الأول، ص ٢٦.

(٣) بروتوكولات حكماء صهيون، ص ٢٣.

واليهود قومٌ معروفون بـالحقد والكـراهية لـلأديان الأخـرى ومجبولون على الطمع والجشع وحب المال والفساد، فهم ينتهزون كل فرصة لإفساد الناس وإبعادهم عن الدين القويم، حتى يتمكنوا من تنفيذ مخططاتهم الرامية إلى هدم عقائد الناس وإفسـاد أخلاقهم، وبالتالي يسوسون الناس كما يريدون. والشيوعية من أهم الأسلحة التي استخدمها اليهود في مخططاتهم(٤).

٢ ــ والشيوعية جاءت بوصفها عقيدة أو ديناً، يحل محل الأديان القديمة ويحتقرها، ويناهضها بالدعوة إلى الالحاد والمادية التي تنكر الله تعالى ورسله.

هذه الحربْ العملية التي شنتها، وما تزال الشيوعية على الأديان لا سبيل إلى مقاومتها إلا بعودة الشعوب، وبخاصة الاسلامية إلى دينها، فتحكمه في واقع حياتها، وترفع راية الجهاد في سبيل الله.

وقد شنت الشيوعية حملة فكرية على الأديان ــ فقد وصفوا الدين بأنه مخدر، وأنه وهم وخرافة، وأن المتدين رجعي متخلف جاهل، والملحد تقدمي متحرر ــ حتى تبرر حربها العملية على الأديان وأتباعها. وإليكم طائفة من مفتريات الشيوعية على الدين ومناقشتها.

أولاً ــ هل الدين مخترع بشري؟

يحتل الدين جزءاً بارزاً من تفكير الانسان، وقد لعب لأجل هذا أدواراً فعالة في تكوين العقلية الانسانية أو بلورتها، فلا بد لأصحاب التفسير المادي للتاريخ ــ وقد استبعدوا عن تصميمهم المذهبي كل

(٤) ومن أراد التوسع في معرفة صلة اليهود بالشيوعية فليراجع كتاب بروتوكولات حكماء صهيون، والشيوعية وليدة الصهيونية للعطار، وهزيمة الشيوعية في عالم الاسلام، والأفعى اليهودية في معاقل الاسلام.

حقائق الدين الموضوعية من وجود الله وقدرته والوحي والنبوة، أن يصطنعوا للدين وتطوراته تفسيراً مادياً. وبالفعل فقد فسروا الدين تفسيراً مادياً، فقالوا إن الدين نشأ نتيجةً لعجز الانسان القديم وإحساسه بالضعف بين يدي الطبيعة وقواها المرعبة، وجهله بأسرارها وقوانينها(٥). ولكنهم وجدوا أن هذا القول يشذ عن قاعدتهم الأساسية التي انطلقوا منها، وهي ربط الدين بالعامل الاقتصادي القائم على أساس الإنتاج الذي يجب أن يكون هو المفسر والسبب الوحيد لكل ما يحتاج إلى تفسير وسبب، فأخذوا يفتشون عن السبب الأصيل لنشوء الدين من خلال الوضع الاقتصادي للمجتمع، حتى وصلوا إلى ضالتهم المنشودة في التركيب الطبقي للمجتمع، وعلى الرغم من إتفاق الماركسيين على نقطة واحدة هي أن الدين حصيلة التناقض الطبقي في المجتمع، لكنهم يختلفون في الطريقة التي نشأ فيها الدين عن هذا التناقض. لذلك أجدهم يقولون إنّ الواقع السيء الذي تعيشه الطبقات المضطهدة فجر في ذهنيتها البائسة الأفكار الدينية ومنها تستمد سلوتها عن البؤس الذي تحياه(٦)، وعلى هذا الأساس فالطبقات المضطهدة البائسة هي التي اخترعت الدين لنفسها ــ على حد زعمهم ــ ومرة أخرى أجدهم يقولون: إن الدين هو الأفيون الذي تسقيه الطبقة الحاكمة المستغلة، للطبقات المظلومة المضطهدة، كي تنسى مطالبها ودورها السياسي وتستسلم إلى واقعها السيء. وعلى هذا الأساس فالطبقات الحاكمة هي التي اخترعت الدين.

وتكمن المغالطة الشيوعية في قولهم إن الدين مخترع بشري،

---

(٥) أنظر الفصل الخامس ــ التفسير المادي للتاريخ والدين.

(٦) أنظر نفس الفصل.

ولا يقدمون أي دليل علمي على هذه الدعوى، وحسبي لبيان فسادها أن أبين ما يلي:

١ ـ برهنت في مناقشة أزلية المادة وأبديتها، أن المادة مخلوقة من مخلوقات الله تعالى، وأنها حادثة بإرادته، والكون وما فيه مخلوق له سبحانه وتعالى، خلقه بحكمته وإراداته. وكان من مقتضى حكمته سبحانه وتعالى أن لا يترك خلقه هملاً دون رعاية وعناية، فغرس في نفوسهم التدين والتوجه إليه بالعبادة، لأنه خلقهم لعبادته، ثم أرسل إليهم الرسل ليوجهوا إنحراف فطرهم.

٢ ـ **فطرية التدين**: إن فكرة التدين من حيث هي غريزة وأصيلة في فطرة الانسان، وإن علماء الأديان قد اتفقوا ـ إلا من شذ منهم ـ على أن التدين أمر طبيعي في النفوس، وأنه أمر جبلي مركوز في نفوس الناس. وليس هناك من دليل واحد يثبت أنها تأخرت عن ظهور الانسان على هذه الأرض. وأن التدين بمعنى الخضوع والتذلل لإلـه أعلى، أو الخوف من إله معبود، ومحاولة إرضاء هذا الإله بالخضوع والتذلل له أمر غريزي، أو أمر يكاد أن يكون متفقاً عليه بين علماء الأديان.

يقول معجم لاروس للقرن العشرين: «إن الغريزة الدينيـة مشتركة بين كل الأجناس البشرية، حتى أشدها همجية، وأقربها إلى الحيوانية... وإن الاهتمام بالمعنى الالهي وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للانسانية». ويقول هنري برجسون: «لقد وجدت وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات، ولكنه لم توجد قط جماعة بغير ديانة»[٧].

---

(٧) نقلاً عن الدين، ص ٨٤ ـ ٨٥.

وبناءً على هذا فإن التدين أمر فطري، غرسه الله في نفوس البشر، كما غرس في فطرتهم حب الحياة وحب الشهوات، وعلى هذا الأساس فإن قول الماديين إن الدين مخترع بشري لا يستند إلى دليل علمي. كما أن الماديين لا يقدرون أن ينفوا أن الانسان مفطور على التدين، بغض النظر عن طريقة التدين، فهي تكون ضالة حين لا تلتزم بشرع الله، وتكون مهتدية حين تسير على هدي الله.

يقول شيخنا الأستاذ محمد قطب: «إن الفطرة البشرية تتجه إلى الله من تلقاء ذاتها بغير كتاب منزل ولا رسول... فلقد أودع الله فيها هذا التوجيه بطريقة لا نعلمها».

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾(٨)

كيف أشهدهم؟ لا نعرف، ولكننا نرى في عالم الواقع أن البشر يتجهون توجهاً فطرياً إلى الخالق، ولو لم يدلهم عليه أحد. ويتوجهون ـ فطرة ـ إلى عبادته، ولو لم يأمرهم بذلك أحد أو يوجههم إليه، ولكنهم كثيراً ما يضلون في تصورهم للخالق سبحانه، فيتصورونه على غير حقيقته، ويتصورون وجود آلهة أخرى معه، ثم يعبدونه على هوى أنفسهم بغير ما تعبدهم به، ويشركون معه في العبادة تلك الآلهة المتوهمة ليقربوهم إليه زلفى كما يزعمون أو يعبدون تلك الآلهة

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾(٩)

المزعومة وحدها ـ في الواقع ـ من دون الله. «وعندئذٍ ينزل الله الكتاب ويرسل الرسول ليصحح للناس عقيدتهم لا لينشئها ـ فهي موجودة بأصل الفطرة ـ وليقول لهم: لا إله إلا الله

---

(٨) الاعراف: ١٧٢.

(٩) الزمر: ٣.

ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ (١٠)

ولقد يخيل إلينا أحياناً أن الجاهلية المعاصرة استثناءً من هذه القاعدة، لأن فيها شعوباً بأسرها لا تعرف الله البتة، ولا تعبده البتة بل تدرس الالحاد في المدارس، وتخرج ملحدين لا يعرفون الله ولا يؤمنون بوجوده.

«أما الشيوعيون فليسوا ـ برغم إلحادهم ـ إستثناء من القاعدة. إنما الالحاد مفروضاً عليهم فرضاً بالحديد والنار كالنظام الشيوعي ذاته. ولو خلي بينهم وبين أنفسهم لكان ضلالهم في أمر العقيدة كضلال بقية الضالين من البشرية... يعرفون الله ولكن على غير حقيقته، ويعبدونه ولكن على هوى أنفسهم.

«وإن إصرار الدولة على تدريس الالحاد في المدارس لهو ذاته دليل على خشيتهم من العقيدة المفطورة في الفطرة وإن ضلت ـ وكثيراً ما تضل ـ فهم يلاحقونها دائمًا بالتوجيه المضاد في برامج الدراسة، خشية أن تظهر تلقائياً فتفسد ـ برغم كونها ضالة ـ أصلاً هاماً من أصول مذهبهم الشرير المخطط لإفساد البشرية.

«وتكفي هذه الحادثة لتثبت أن الشيوعيين ليسوا استثناءً من القاعدة«فجا جارين»رائد الفضاء الأول شاب ربي في الشيوعية والالحاد منذ مولده إلى يوم انطلاقه إلى الفضاء في داخل الصاروخ. ومع ذلك فقد اهتزت فطرته حين نظر إلى الكون من خلال الصاروخ. لأنه رأى صورة لم يشهدها من قبل، وكان أول تصريح له حين هبط إلى الأرض: «حين صعدت إلى الفضاء أخذتني روعة الكون فمضيت أبحث عن الله» تلك هي استجابة الفطرة التلقائية إزاء الكون الهائل

---

(١٠) هود: ٥٠.

الذي خلقه الله. لم تستطع كل الشيوعية التي تفرضها الدولة، وكل الالحاد الذي تبثه في الدروس، أن تحول دون انطلاقها حين هزتها روعة الكون. ومن الطريف أن «الدولة» غضبت من هذا التصريح، لأنه يهدم كل ما أنشأته خلال خمسين عاماً من الالحاد... لذلك أمرت «جاجارين» بتصحيح ذلك التصريح الخطير، فأضاف إليه في القراءة الثانية: «... أخذتني روعة الكون فمضيت أبحث عن الله فلم أجده»... ونشرت وكالات الأنباء هاتين القراءتين المختلفتين للتصريح الواحد... بغير تعليق[11]».

فطرية التوحيد:

إنه مما لا شك فيه أن الله سبحانه وتعالى الذي خلق الكون والانسان بحكمته، والذي أودع في فطرة الانسان التدين والتوجه إليه بالعبادة، لم يترك خلقه يعتمدون على أنفسهم، فكان من حكمته إرسال الرسل لتصحيح العبادة للناس. وقد ذهب كثير من العلماء ــ وبخاصة جمهور أهل السنة من المسلمين والعقلاء من علماء أوروبا إلى أن عقيدة التوحيد فطرية في النفوس، وأن الانسان الأول عرف الإله الواحد، وتعلق به وعبده، وأن الشرك والوثنية أمور عرضت للعقيدة وانحرافات طرأت عليها، ومن جملة من يؤيد هذا الرأي من العلماء الغربيين «لانج» الذي أثبت عقيدة الاله الأكبر عند القبائل الهمجية في استراليا وافريقيا وأميركا، ومنهم «شريدر» الذي أثبتها عند الأجناس الآرية القديمة، وبروكلمان الذي أثبتها عند الساميين قبل الاسلام»[12].

وهذه الحقيقة المشاهدة في الواقع البشري من إتجاه الناس جميعاً

(١١) دراسات قرآنية، ص ٢٦ ــ ٢٨.

(١٢) أنظر الدين، ص ١١٢ ــ ١١٣.

إلى الايمان، وعبادة الله الواحد القهار، قد بينها القرآن الكريم بقوله تعالى:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾[١٣]

وقد علل القرآن الكريم وجود الفطرة الدينية تعليلاً غيبياً، موصولاً بالنشأة الذرية، وهذا أمر لا سبيل لمعرفته عن طريق العلم الانساني، فنأخذ به بالتسليم الديني، وذلك ما نلاحظه في قول الله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾[١٤]

ويذهب كثير من العلماء على أن الله سبحانه وتعالى أخذ ذرية آدم من ظهره، وأشهدهم على أنفسهم أنه ربهم وخالقهم. واعترفوا لله بالواحدانية وذلك في عالم الذر، ومن هنا كان الاعتراف بالوحدانية لله تعالى أمراً مقرراً ومعترفاً به لدى الناس جميعاً منذ خلقهم الله تعالى، أما الشرك والوثنية والكفر والبعد عن هذه العقيدة السليمة فأمور عرضت للانسانية بعد ذلك[١٥].

ولما كان الدين فطرياً في النفوس، كان لا بد أن يظهر في واقع حال الانسان الأول، وهذا ما يتفق تماماً مع الآيات القرآنية التي تثبت تماماً أن الناس في أول أمرهم كانوا مؤمنين بالله الواحد، ثم دخل بعد

---

(١٣) الروم: ٣٠.

(١٤) الأعراف: ١٧٢.

(١٥) أنظر تفسير الخازن، (٢: ٣٠٩).

ذلك الانحراف في عقائدهم بالشرك والوثنيات بعوامل مختلفة. ومن الشواهد على ذلك قوله تعالى:

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾[16]

وجاء في الحديث القدسي عن عياض بن حماد عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: «خلقت عبادي حنفاء كلهم فاجتالتهم الشياطين وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً»[17]. وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كل مولودٍ يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء»[18].

الاسلام دين الأنبياء جميعاً:

إن توحيد الله سبحانه وتعالى وإفراده بالعبودية، هو دعوة الأنبياء جميعاً، فكل نبي جاء إلى قومه بدعوة التوحيد، توحيد الله سبحانه وتعالى في ذاته وأسمائه وصفاته، والتحاكم إلى شريعته، ولكن الناس حرفوا دينهم وسلكوا سبيلاً غير سبيله ـ إلا من هدى الله منهم ـ، فكان كل نبي يقول لقومه:

﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[19]

وكان من رحمة الله أنه كلما انحرفت فطرة البشر عن توحيده

---

(١٦) البقرة: ٢١٣.

(١٧) مسند الامام أحمد (٤: ١٦٢).

(٥) متفق عليه ـ البخاري (١: ٢٤٠)، مسلم (٤: ٢٠٤٨).

(١٩) هود: ٥٠.

وطاعته في أوامره، أن يرسل لهم رسولاً يقوم إنحرافهم ويردهم إلى الطريق المستقيم، حتى ختم الله الرسالة والنبوة بأشرف المرسلين وسيد الخلق أجمعين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم برسالة الاسلام، الدعوة العالمية للناس كافة، فلم تقتصر على قوم دون قوم، ولا على جنس دون جنس، إنما للناس عامة بشيراً ونذيراً، رحمة من الله للعالمين.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾[٢٠].

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[٢١].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾[٢٢]

ثانياً ـ نقض فكرة تطور الأديان:

يزعم كثير من الكتاب الغربيين ـ ومنهم سبنسر وفريزر ودوركايم وبعض من وقع من الكتاب المسلمين كالعقاد في كتابه (الله)، وطه الهاشمي في كتابه (تاريخ الأديان وفلسفتها) أن التدين بدأ بالخرافة والأوهام ثم تطور إلى عبادة الله الواحد الأحد، ومن هذه الفكرة الخبيثة استمد ماركس نظريته القائلة بأن الأديان تتطور تبعاً لتطور العوامل الاقتصادية. والغرض من فكرة تطور الأديان هو إنكار الله الواحد الأحد الذي أودع في فطرة الانسان التدين، وبالتالي إنكار الوحي والرسل. وتنطوي هذه الفكرة على إيحاء خبيث هو: ما دام

---

(٢٠) سبأ: ٢٨.

(٢١) الأعراف: ١٥٨.

(٢٢) الأنبياء: ١٠٧.

الدين قد تطور من الخرافة إلى عبادة الله الواحد، والانسان هو الذي طور الدين، فعلى هذا الأساس يكون الدين مخترعاً بشرياً[٢٣].

إن القول بتطور الأديان خرافة لا تستند إلى دليل علمي قاطع وذلك لأن العلم لم يقطع على وجه اليقين بنوعية التدين عند الشعوب البدائية، وكل المعلومات التي عند العلماء ما هي إلا مجموعة من الفروض والتخمينات، وإن ما يجهله العلماء عن أحوال الأمم السابقة وديانتها أكثر مما يعلمونه عنها.

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز في معرض حديثه عن تطور الأديان: «أما من حيث الغاية التي يهدف إليها البحث، وهي تحديد الأصل الأصيل للعقيدة والمظهر الذي ظهرت به في أول الأزمنة بإطلاق، فلأن هذه البدائية المحضة قد اعتبرها العلم شقاً حراماً على نفسه، وأعلن في صراحة كاملة خروجها عن حدود عمله، فاقتحامها الآن باسم العلم تعامل بصك مزيف وتستر بثوب مستعار، وكل حكم يصدر تحت هذا الاسم يكون صادراً عن قاضٍ معزول فاقد للركن الأول من سلطته الشرعية. ومؤرخو الديانات على الخصوص معترفون بأن الآثار الخاصة بديانة العصر الحجري وما قبله لا تزال مجهولة لنا جهلاً تاماً، فلا سبيل للخوض فيها إلا بضرب من التكهن والرجم بالغيب»[٢٤].

وبما ان الله سبحانه وتعالى قد خلق الناس ليبلوهم، فلا بد أن يعرفهم مادة إبتلائهم، وذلك بإنزال أحكام الدين لهم، فالفكر الصحيح يقضي بأن يتدارك الله سبحانه وتعالى الإنسان الأول بإنزال التعاليم الدينية عليه، وكلما ضاعت هذه التعاليم في الواقع البشري،

---

(٢٣) بينت فساد فكرة (الدين مخترع بشري) فيما سبق، ص ٣٩٥ ــ ٤١.

(٢٤) الدين، ص ١١٣.

فالحكمة الإلٰهية تقضي بتجديد إنزال بيانات وإرسال رسل تذكرهم ما نسوا، وتعلمهم ما جهلوا من أمور دينهم. هذه النظرات الفكرية المجردة جاء بيانها وإيضاحها في كتاب الله عز وجل إذ أبانت لنا هذه النصوص أن الإنسان الأول قد أنزل الله سبحانه وتعالى عليه شريعة. قال تعالى:

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾[25]. وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾[26].

وآدم وذريته أمة، وقد كان آدم هو نذيرهم، ومبلغهم شريعة ربهم، ثم تتابعت الرسل كما هو معلوم في تاريخ الرسالات الربانية.

وبما أن العلم لم يقطع بنوعية الديانة الأولى لدى الإنسان الأول كذلك، فلا مناص من الإعتماد على الرواية الحقة الصادقة التي بينت أصل الديانة الأولى، وهي طريق الوحي، والوحي الصادق يتمثل في القرآن الكريم الذي لم يدخله التحريف والتبديل، لأن الله تكفل بحفظه. قال تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾[27]

وعلى هذا الأساس فالقول بتطور الأديان غير ثابت علمياً، بل إن الحق الذي لا شك فيه أن التوحيد هو الأصل في التدين، والشرك طاريء عليه.

---

(٢٥) طه: ١٢٣.

(٢٦) فاطر: ٢٤.

(٢٧) الحجر: ٩.

ثالثاً ـ هل الدين من إنتاج الطبقات؟

إن الشيوعيين حين يقولون إن الدين من نتاج الظواهر الفكرية للمجتمعات الطبقية فحسب، يغفلون دين المجتمعات البدائية الأولى في عهد الشيوعية البدائية كما يزعمون ـ وقد ثبت من خلال البحث ان المجتمعات البدائية الأولى التي يزعم الماديون أنها كانت تعيش في شيوعية تامة لا حقد فيها ولا صراع طبقي، ولا ملكية خاصة ولا إستغلال ـ لها دين تدين به، لأن الدين فطري في النفوس. كما أن بعض الماركسيين قد إعترف بوجود الدين في المجتمعات البدائية. يقول بليخانوف: «ان دين القبائل البدائية لم يدرس بعد الدراسة الكافية، ولكن ما نعرفه من قبل يؤكد تماماً صحة الأطروحة المختصرة التي وضعها ماركس عن فيورباخ، وهي ان الدين لم يصنع الإنسان، بل الانسان هو الذي صنع الدين»(٢٨).

والذي يهمني في كلامه هو قوله: إن دين القبائل لم يدرس بعد دراسة كافية. إذن فقد كان في ذلك الحين دين، وعلى هذا الأساس فالدين ليس من نتاج الظواهر الفكرية للمجتمعات الطبقية. لأن الشيوعية البدائية ليس فيها طبقات، فكيف يفسر الدين بأنه نتاج المجتمع الطبقي، وقد ثبت أن الدين موجود قبل وجود المجتمع الطبقي؟ وكيف يمكن بعد هذا ان يكون الوضع الإقتصادي والتركيب الطبقي أساساً لتفسير الدين.

رابعاً ـ مناقشة الماديين في الطبقة التي إخترعت الدين:

بعد بيان فساد فكرة أن الدين من إنتاج الطبقات. أناقش تناقضهم العجيب الذي وقعوا فيه عند تفسيرهم للطبقة التي اخترعت

(٢٨) نقلاً عن نقض أوهام المادية الجدلية، ص ٢٢٧.

الدين. فمرة يزعمون ان الطبقات الضعيفة هي التي إخترعت الدين لنفسها حتى تنسى همومها ومشاكلها والظلم الذي تمارسه الطبقات الحاكمة عليها.

ومرة أخرى يزعمون أن الطبقات الحاكمة هي التي إخترعت الدين للفقراء، تخدرهم بتعاليمه حتى ينسوا مطالبهم، ويغضوا أبصارهم عن الإستغلال الذي تمارسه ضدهم.

١ ـ أما قولهم إن الطبقات الضعيفة هي التي إخترعت الدين فباطل بالأدلة القاطعة التي أثبتت أن الدين ليس وقفاً على طبقة معينة بل وجد الدين قبل وجود الطبقات.

ثم إذا كانت الطبقات الضعيفة هي التي إخترعت الدين النابع من واقعها السيء، وظروفها الإقتصادية السيئة، فكيف يمكن أن نفسر وجود العقيدة الدينية منفصلة عن الواقع السيء وظروف الإضطهاد الإقتصادي؟ وكيف أمكنت لغير المضطهدين أن يتقبلوا من الطبقة المضطهدة الدين الذي تبشر به كالإسلام الذي يحارب الربا، والإحتكار، والإستغلال ويوجب الصدقات والنفقات على الأغنياء القادرين؟ ويوجب المساواة بين البشر ولا فضل لأحد على الآخر إلا بالتقوى. . . ؟

إن الماديين لا يمكن أن ينكروا وجود العقيدة الدينية، عند أشخاص لا يمتون إلى ظروف الاضطهاد الإقتصادي بصلة، وصلابة العقيدة في نفوس بعضهم إلى درجة تدفعهم إلى التضحية بنفوسهم وأموالهم في سبيلها مثل إمرأة فرعون، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وكثير من الأغنياء المسلمين الذين لم يكن لهم هدف مادي من وراء دخولهم في الإسلام، بل كان هدفهم مرضاة الله سبحانه وتعالى.

وهذا يبرهن بوضوح على ان المتدين لا يستوحي دينه من واقعه الإقتصادي، لأن الفكر الديني عند أولئك الأشخاص، لم يكن تعبيراً عن بؤسهم وتنفيساً عن شقائهم، وبالتالي لم يكن إنعكاساً لظروفهم الإقتصادية، وإنما كانت عقيدة تجاوبت مع شروطهم النفسية والعقلية، فآمنوا بها على أساس فكري(٢٩).

٢ ــ أما قولهم: إن الطبقات الحاكمة هي التي اخترعت الأديان للطبقة الكادحة المستغلة كي تنسى مطالبها ودورها السياسي وتستسلم إلى واقعها السيء، فباطل أيضاً وذلك لأن أكثر أتباع الأديان السماوية كانوا من الفقراء والمضطهدين.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى أتساءل: هل كان من مصلحة الطبقة الحاكمة ان تجعل من الدين أداةفعالة في القضاء على الرأسمال الربوي الذي كان يدر عليها أرباحاً طائلة، قبل ان يحرمه الإسلام تحريماً باتاً؟ أو هل كان من مصلحتها ان تتنازل عن مركزها الإجتماعي والطبقي فتسخر الدين إلى المساواة بين الناس في الكرامة الإنسانية، والإستهانة بالأغنياء الفجرة المترفين؟

ثم إذا كان الأغنياء والإقطاعيون قد أغروا العمال والفلاحين بالخضوع للدين وما يعدهم من الفردوس في الآخرة ليسكتوا عن حقوقهم، فإن الأنسب لهم لتحقيق هدفهم هذا الا يتخذوا الدين وسيلة لهذا الإغراء، وذلك لأنه مامن دين حق يغري أتباعه بترك الحق والإستكانة للمخلوقين، وما من دين حق كذلك إلا وهو قوة إيجابية تدفع المتدين إلى قوة الروح والعمل على شحذ العقول والنقمة على الطغاة العصاة حتى يؤمنوا(٣٠).

(٢٩) أنظر إقتصادنا، ص ٨٤ ــ ٨٥.
(٣٠) أنظر نفس المصدر، ص ٨٥، الماركسية في مواجهة الدين، ص ٤٩.

خامساً ــ مناقشة تفسير الدين تفسيراً إقتصادياً:

يزعم الماديون بناء على فكرة التطور ان الأديان تتطور تبعاً لتطور العامل الإقتصادي، وتتغير بتغيره، لأنها نابعة منه، ومشروطة به فالعامل الإقتصادي هو المحدد للأوضاع الدينية والسياسية والإجتماعية والأخلاقية.

هذا الزعم الباطل ليس عليه دليل علمي، بل إن العلم ينقضه من أساسه.

أولاً ــ أبطلت في مناقشتي للماديين فهمهم لقانون التطور، وبينت أن التطور إنما هو تغير فحسب، وأنه لا يشترط فيه أن يكون الطور الجديد أفضل من القديم بل قد يكون القديم حسناً، والجديد سيئاً والعكس بالعكس[٣١] وأبطلته من جهة أن قوانين المادة لا تنطبق على حياة الإنسان[٣٢] وأبطلته من زاوية تفرد الإنسان عن الحيوان، وأن قوانين الحيوان لا تنطبق على الإنسان[٣٣].

ثانياً ــ أبطلت هذه النظرية بإثبات أن عقيدة التوحيد هي الأصل وأن الشرك طاريء عليها، وان تطور الأديان خرافة لا يقوم عليها دليل علمي، وهي تهدف إلى إنكار الله وإنكار الوحي والرسل[٣٤].

ثالثاً ــ كما برهنت على أن العامل الإقتصادي واحد من العوامل المؤثرة في كيان الإنسان، يعمل بجانب عوامل أخرى لا تقل عنه أهمية

(٣١) أنظر الفصل الثالث مناقشة قانون التطور.
(٣٢) أنظر الفصل الرابع. قوانين المادة لا تنطبق على الإنسان.
(٣٣) أنظر مناقشة أثر نظرية دارون على التفسير المادي للتاريخ.
(٣٤) أنظر فطرية التوحيد.

كالعامل الديني والفكري، وليس هو العامل الوحيد الفعال في حياة الإنسان[٣٥].

إهتمام الإسلام بالعامل الإقتصادي:

إعتنى الإسلام عناية تامة بالعامل الإقتصادي لما له من أهمية كبرى في حياة الناس. وقد جاءت التشريعات الإسلامية الإقتصادية فريدة من نوعها لأنها منزلة من عند الله الحكيم الذي لا يشرع لطبقة على حساب الآخرين.

ومن أهم هذه التشريعات ما يلي:

١ ـ إهتم الإسلام بالعمل والعمال، وحث العمال على العمل، ونهاهم عن الإخلاد إلى الأرض والكسل، وعلى ولي أمر المسلمين أن ييسر فرص العمل ويفتح أبوابه للعمال، وشجع التجارة وحرم الربا والغش والإحتكار والإستغلال.

فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذ من الفقر والكسل والصفات الذميمة. عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الكسل والهرم، والمأثم والمغرم، ومن فتنة القبر، وعذاب القبر، ومن فتنة النار وعذاب النار، ومن شر فتنة الغنى وأعوذ بك من فتنة الفقر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال»[٣٦].

وجاء في حديث آخر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من ان يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده»[٣٧].

---

(٣٥) أنظر الفصل السادس ـ مناقشة العامل الإقتصادي في الشيوعية.

(٣٦) البخاري (٤: ١٠٨).

(٣٧) نفس المصدر (٢: ٦).

وعن النبي صلى الله عليه وسلم أيضاً أنه قال: «لأن يأخذ أحدكم حبله خير له من أن يسأل الناس»[٣٨]. وفي حديث آخر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة وليس في وجهه مزعة لحم»[٣٩].

ففي الأحاديث السابقة رأينا كيف أن تعاليم الإسلام لا تحبذ الفقر ولا تشجعه، كما أنها تربي في المسلم الشعور بالعزة وكرامة النفس، فالعامل الذي يأكل من عمل يده، أفضل من الذي يعتمد على صدقات الناس.

والفارق الكبير بين الإسلام والشيوعية، هو أن الإسلام فتح باب العمل للجميع، وترك للعامل حرية اختيار العمل الذي يناسبه دون أن يتعرض لضغط من الدولة، ما دام يعمل ضمن ما أباح له الشرع، ولا يستطيع الحاكم أن يمنع الإنسان عن القيام بالعمل والتجارة، ما دام العامل ملتزماً بما أحل الله، ومجتنباً ما حرم الله.

أما الشيوعية فإنها وفرت فرص العمل للعمال، ولكنها إستعبدتهم وأذلتهم من أجل الحصول على لقمة الخبز. فالعامل ذليل محتقر مهان تستطيع الدولة ان تقتله جوعاً إذا سحبت بطاقة التموين منه، ولا يستطيع أحد أن يقدم له العون والمساعدة ولو كان إبناً أو أخاً أو أباً أو زوجة لأن من يساعده يعتبر في نظرهم خائناً للدولة والحزب.

وأما العامل في الإسلام فإن الحاكم المسلم لا يستطيع أن يقتله جوعاً ولو كان كافراً. وإن ارتكب محظوراً شرعياً في العمل، كأن أكل الربا أو احتكر أو غش، فإن الحاكم يوقع عليه عقوبات مادية لا تصل

(٣٨) متفق عليه: البخاري (٢ : ٦)، مسلم (٢ : ٧٢١).
(٣٩) متفق عليه: البخاري (١ : ٢٥٧)، مسلم (٢ : ٧٢٠).

في مجموعها إلى الموت ولا مصادرة ماله كله. وهذا عمر بن الخطاب يوصي عماله بالمسلمين خيراً ومن جملة وصيتهم لهم قوله: «ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم»[٤٠].

كما نهى الإسلام عن أكل أموال الناس بالباطل، قال تعالى: «ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل»[٤١] ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكل أجر العامل حيث يقول صلى الله عليه وسلم: «ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل إستأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره»[٤٢].

٢ ــ إهتم الإسلام بأصل المال، فلا بد ان يكون مصدر المال معلوماً وان تكون طريقة الحصول على المال مباحة شرعاً، كالتملك والإرث ــ والوصية والبيع والشراء والهبة والصدقة إن كان يستحقها وغيرها من طرق التملك المشروع.

كما إهتم الإسلام في الوجوه التي يستغل فيها المال، فلا يستغل في تجارة محرمة، ولا بيع محرم كبيع الخمر والخنازير، كما لا يجوز أن يتعامل بالربا، وأن يحتكر أقوات المسلمين، وأن يغش في بيعه.

قال الله تعالى: «وأحل الله البيع وحرم الربا»[٤٣] وقال صلى الله عليه وسلم «من احتكر فهو خاطيء»[٤٤].

---

(٤٠) راجع الخطبة كاملة في مسند الإمام أحمد (١: ٤١)، تاريخ عمر بن الخطاب، (ص ١١٤ ــ ١١٥).
(٤١) البقرة: ١٨٨.
(٤٢) البخاري، (٢: ٣٤).
(٤٣) البقرة: ٢٧٥.
(٤٤) مسلم، (٣: ١٢٢٧).

كما إهتم الإسلام بالوجوه التي يجب ان ينفق فيها المال. فلا ينفق في خمر ولا ميسر ولا بغاء، ولا ترف ولا إسراف ولا معصية.

٣ ـ سن الإسلام نظام التكافل الإجتماعي بين الأقرباء، وبين الأغنياء والفقراء، وبين الدولة المسلمة، ورعاياها. فقد فتح باب الزكاة والصدقات وأوجب على الدولة الإسلامية أن توفر لرعاياها الأشياء الضرورية لحياتهم وهي الأكل والشرب واللبس، التي أقام ماركس ضجته من أجلها كما يزعمون.

٤ ـ سن الإسلام نظام الإرث بين الأقرباء لتفتيت الثروات، حتى لا يكون المال دولة بين الأغنياء فقط[٤٥].

وغير هذه من التشريعات الإقتصادية التي يفاخر بها الإسلام على مدار التاريخ.

بعد هذا اسأل: ما هو التفسير الإقتصادي الذي أدى إلى ظهور الإسلام وإنتشاره بسرعة مذهلة في أقطار الدنيا؟

ما هو الدافع الإقتصادي الذي جعل الإسلام يحرر الرق قبل أوروبا بسبعة قرون؟

ثم ما هو الدافع الإقتصادي الذي جعل الإسلام يحرم الربا الذي كان يدر أموالاً طائلة على الأغنياء من قريش؟

ثم ما هو الدافع الإقتصادي الذي جعل الإسلام يعطي المرأة حقوقاً وإمتيازات ليس لها مثيل في التاريخ، كالتملك والإرث، والهبة والوصية والبيع والشراء، والنفقة على الزوج، والتعليم، والأمر بحسن معاملتها، هذه التشريعات التي ما تزال نساء القرن العشرين يعملن

---

(٤٥) أنظر نظرية الملكية في الشريعة الإسلامية ـ د. عبد السلام العبادي، والعدالة الاجتماعية في الإسلام، وشبهات حول الإسلام.

المؤتمرات، ويقدن المظاهرات، ويظهرن الإحتجاجات حتى يصلن إلى بعض منها، وللآن لم يصلن إلى حقوقهن كاملة اللهم إلا في قضية واحدة عند كثير من الدول، وهي تحررها من دينها وخلقها وشرفها.

﴿إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[٤٦]

ثم ما هو الدافع الإقتصادي الذي جعل الإسلام ديناً عالمياً لا يقتصر على أمة دون أمة، ولا على لون دون لون، بل للناس كافة؟

ثم ما هو الدافع الإقتصادي الذي جعل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيهم من الأغنياء كعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وصهيب الرومي وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين يتركون أموالهم في مكة ويهاجرون في سبيل الله فراراً بدينهم. أضف إلى ذلك المعاملة الحسنة التي كان يسلكها جنود أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقادة الإسلام في معاملاتهم لغيرهم وبخاصة في الحروب. فهذا أبو عبيدة رضي الله عنه يعيد الجزية لأهل حمص حين شعر انه لا يستطيع حمايتهم[٤٧].

إن ظهور الإسلام ينسف التفسير المادي للتاريخ من أساسه، لأنه لا يمكن ان يفسر تفسيراً إقتصادياً. بل هو رحمة من الله للعالمين.

سادساً ــ هل اخترع الإنسان الدين لخوفه من الطبيعة وجهله بأسرارها؟

يزعم الماديون أن الإنسان إخترع الدين لخوفه من الطبيعة، وجهله بأسرارها. وقد بينت فساد فكرة إختراع الدين من قبل البشر،

---

(٤٦) سورة ص: ٥.

(٤٧) أنظر كتاب الدعوة إلى الإسلام ت. و. أرنولد، ترجمة حسن ابراهيم، (ص ٥٨).

كما بينت بطلان فكرة التطور كما فهمها الماديون. وهم يقصدون من هذه الفكرة الخبيثة بناء على فكرة التطور أن الإنسان الذي اخترع الدين لخوفه من الطبيعة وجهله بأسرارها ليس بحاجة إلى التدين في هذه الأيام، وذلك لأن الإنسان أصبح مسيطراً على الطبيعة، فهو لا يخاف منها، وأصبح عالماً بأسرارها فهو غير جاهل بها كذلك. وعلى هذا الأساس فإن التدين الذي نشأ عن الجهل والخوف قد زال في هذه الأيام من تفكير الإنسان ومخيلته، فلم يبق شيء يدين له بالعبادة والطاعة. وبناء على هذه النظرية الكاذبة فإن الإنسان المتعلم يجب ان يكون ملحداً ـ والعياذ بالله تعالى ـ لكن تفسير التاريخ نفسه ينبيء بعكس ما توهمه وأراده ماركس ومن سار في طريقه، إذ أنه كلما إزدادت الكشوف العلمية إزداد إيمان المؤمنين، وقوي سلطان الدين حتى في نفوس الذين دخلوا في مجال البحوث والإكتشافات العلمية، لأن حقائق العلم تبطل كل شك في أن لهذا الكون خالقاً حكيماً عالماً مدبراً، يقول البرت ماكومب ونشستر: «ليس من شك ان العلوم تزيد الإنسان تبصراً بقدرة الله وجلاله، وكلما إكتشف الإنسان جديداً في دائرة بحثه ودراسته زاد إيمانه بالله»[1].

سابعاً ـ هل الدين السماوي الصحيح مخدر؟

يزعم الماديون أن الدين مخدر، إبتدعه الطغاة ليعتمدوا عليه في تحقيق سيطرتهم على الضعفاء والفقراء والمحرومين. ومن شأن هذا الدين على أساس نظريتهم أن يعجز أتباعه عن كل عمل منتج، وأن يقعد بهم عن المطالبة بحقوقهم وإنصاف أنفسهم من المستغلين.

والدارس لكتبهم وفكرهم يلاحظ أنهم يعتبرون جميع الأديان ـ

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم، (ص ١٠٤ ـ ١٠٥).

إلا اليهودية مخدرة، لأن الشيوعية وسيلة من وسائل اليهود التي يستخدمونها في سبيل القضاء على الأديان، والأخلاق، وإفساد المجتمعات وزعزعة إقتصادياتها حتى يحقق اليهود حلمهم الأكبر يوم تصبح البشرية خاضعة ذليلة لهم، تخدم شعبهم المختار، ولكن الله لهم بالمرصاد.

مخالفتهم للمنهج العلمي:

إن المنهج العلمي هنا يحتم لإطلاق حكم عام كهذا الحكم ــ وهو القول بأن الدين مخدر ــ ان يستقريء الباحث جميع الأديان حتى يتسنى له إطلاق حكم كلي عليها في ضوء مباديء كل دين على حدة، وأثر هذه المباديء في الواقع.

والإحتمالات الواردة في هذا الصدد هي:

١ ــ إما أن ماركس إستقرأ فعلاً جميع الأديان ــ كلا، على حدة ــ كما يشترط المنطق وفهم مبادئها وواقعها التاريخي، ورصد آثار المباديء في تاريخ الأديان وأهلها وخرج من دراسته تلك بأنها كانت مخدراً للشعوب المتدينة وصارفاً لها عن الحركة التقدمية، فإن كان حقاً درس تاريخ الأديان كلها وخرج من هذه الدراسة بهذا الحكم الشامل فهو إما مخطىء وإما مغالط، وذلك لأن ثمرة الأديان السماوية الصحيحة السليمة من التحريف وآثارها على النفوس البشرية، ودفعها أتباعها إلى الثورة على الظلم، ومقاومتها للفساد الروحي والمادي لا تخفى على طالب الحقيقة والدارس العلمي المخلص، فضلاً عن فيلسوف يزعم لنفسه الفكر المعصوم ــ فضلاً عن تسفيه فكر غيره، من مذاهب المفكرين في الأرض، ورسالات الرسل المنزلة من عند الله.

وهذا يجعلني أعتقد أن ماركس كان مغالطاً في تصويره للأديان

حين زعم أنه ملتزم بالمنهج العلمي في هذا التصوير، ولشهوة الهدم اليهودية الحاقدة على الأديان والمتأصلة في نفسه منذ الصغر.

٢ ــ وإما أنه لم يستقرِيء جميع الأديان، ولم يدرس مبادئها وتاريخها وإنما اكتفى بدراسة دين واحد أو دينين في فترة معينة، ثم أطلق الحكم عليها جميعاً بأنها كانت مخدراً. ويبدو ان الذي حدث هو هذا الإحتمال، فمعظم كتابات الماديين تقع في خطأ التعميم في مسألة الدين وغيرها من المسائل[٤٨].

والذي يبدو لي أن الحالة الوحيدة التي اقتصر عليها ماركس في دراسته للدين هي حالة العصور الوسطى في أوروبا، حين امتزجت العقيدة النصرانية بعد التحريف بأفكار الأفلاطونية الحديثة على يد أساتذة مدرسة الاسكندرية[٤٩].

هذه الفترة الظالمة من حياة النصرانية المحرفة كانت في نظر ماركس كافية لإصدار حكم قاطع يزعم فيه أن الدين أفيون. وهنا يكمن العيب في نظرية ماركس المادية. فلو أنه اكتفى بالحكم على هذا الدين المحرف في هذه الفترة المظلمة لكان معظم ما قاله صحيحاً، أما أن يعمم حكمه على الأديان الصحيحة[*]، ومنها الإسلام على وجه الخصوص على الرغم من إعترافهم أنهم لم يدرسوا تاريخ الاسلام الدراسة الكافية[٥٠]، فهذا أمر لا يتفق والمنهج العلمي السليم الذي إحتكروه لأنفسهم. . .

الأديان السماوية الصحيحة تهدم نظرية أفيون الشعوب:

وحتى يظهر للقاريء عيب هذه الدعوى الفاسدة، لابد من

(٤٨) أنظر مناقشة قانون الحركة، ومناقشة مرحلة الرق والإقطاع.
(٤٩) انظر التمهيد، أثر مدرسة الاسكندرية على الديانة النصرانية.
(*) كاليهودية والنصرانية قبل التحريف.
(٥٠) انظر حول الدين مراسلات ماركس وانجلز، ص ٩٧.

عرض نماذج مختلفة من أصول الديانات السماوية تهدم هذه الدعوى من أساسها.

وحسبنا في الديانة النصرانية ما قرره «إنجلز» و«لينين» في كتبهما من أثر الدين النصراني في النصارى ودفعهم إلى الثورة واستخلاص حقوقهم من الأباطرة الرومان. يقول روجيه غارودي: «ولقد قدم إنجلز مثالين مختلفين عن الدور التاريخي للإيمان. فهو في دراساته حول المسيحية الأولى يوضح كيف أن هذا الايمان الديني (قبل أن يأخذ شكل عقيدة ومؤسسة محافظة في يد السلطة ابتداءً من عهد قسطنطين) كان إحتجاجاً ولكنه إحتجاج عاجز، وهو يرينا كيف كانت الجماعات المسيحية الأولى تحلم برؤيا (يوحنا) أي ـ عملياً ـ تحلم بتهديم السلطان الروماني الذي كان يسحقها. وهو يتحدث عن هذه المسيحية الأولى بوصفها «عنصراً ثورياً» (وهذا أمر واضح، إذ أن السلطات العامة كانت من خشيته بحيث نظمت إضطهاداً وحشياً، واضطهاداً لا يرجع إلى أسباب دينية فحسب. بدليل أن العبادات الأجنبية الأخرى كانت كثيرة ومسكوتاً عنها»[٥١].

ويقول إنجلز في موضع آخر: «أما الهرطقة التي عبرت مباشرة عن مطالب الفلاحين والتي ارتبطت غالباً بالعصيان في كل مكان فكانت ذات طبيعة مختلفة تماماً، ورغم أنها كانت تشترك مع الهرطقة البرجوازية في كافة المطالب المتعلقة برجال الكنيسة والبابوية وإحياء دستور الكنيسة المسيحية إلا أنها هدفت إلى أبعد من ذلك، فطالبت بعودة المساواة المسيحية الأولى بين أعضاء الجماعة والإعتراف بهذه المساواة كقاعدة من قواعد العالم البرجوازي واعتمدت على (المساواة

(٥١) ماركسية القرن العشرين، ص ١٤٧.

بين أبناء الرب) لتصل إلى المساواة في الحقوق الدينية بل وإلى المساواة في الملكية بشكل جزئي»(٥٢).

ويقول روجيه غارودي «وتحليل أنجلز هذا في خطوطه الجوهرية أيدته البحوث والاكتشافات التي حققت تقدماً هاماً بشأن أصول المسيحية ولا سيما منذ اكتشاف مخطوطات البحر الميت عام ١٩٤٧ م»(٥٣).

أما لينين فيتحدث في كتابه (الدولة والثورة) عن الروح الثورية الديمقراطية لدى الجماعات المسيحية الأولى، وإن أثر المسيحية الأولى لم يتحول إلى كونه أفيوناً إلا بعد أن اختلطت بالأفلاطونية الحديثة، وبعد أن ضعفت هذه الجماعات عن مقاومة الامبراطور الروماني»(٥٤).

وبناءً على كلام أنجلز ولينين وتحليل غارودي لموقف كل من الرجلين، لا تكون النصرانية في كل عهودها أفيونا. فإذا كان موقف الماديين من النصرانية هذا الموقف من الضعف، فإنهم بإزاء الاسلام أكثر ضعفاً وتهافتاً لأن مباديء الاسلام وواقعه التاريخي يرفض أي اتهام له بأنه كان في أي مرحلة من مراحله أفيونا للمسلمين. وإليكم نماذج من أصول الاسلام وتاريخه تنسف خرافة الأفيون من أساسها.

١ ــ أرسل الله عز وجل نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم برسالة الاسلام، وقد لقيت هذه الدعوة في بداية أمرها مقاومة عنيفة من الكفار والمشركين، ولكن المسلمين الذين حملوا علم الدعوة في بداية الأمر صبروا وصابروا وقاتلوا وقتلوا في سبيل الله حتى تحقق لهم النصر

---

(٥٢) حرب الفلاحين، ص ٥٠.

(٥٣) ماركسية القرن العشرين، ص ١٤٨.

(٥٤) انظر نفس المصدر، ص ١٤٧.

ودخل الناس في دين الله أفواجا، فأين الأفيون في الاسلام الذي رفض من أتباعه من أول يوم أن يخلدوا للراحة والكسل، كما رفض أن يصروا على الشرك والكفر والمنكر والأذى؟ بل طلب منهما أن ينشروا دعوة الله بين الناس، بعزيمة صادقة، ونية مخلصة لله عز وجل.

٢ ــ وأين الأفيون في الاسلام الذي طلب من المسلم أن لا ينسى نصيبه من الدنيا وأن يأخذ من طيباتها، ولا يقبل منه أن يكون ذليلاً في يوم من الأيام لأحدٍ إلا لله رب العالمين. . . أين الأفيون في الاسلام وقد توعد بالعذاب من لا يدفع عن نفسه وعن دينه وأمته الظلم والاضطهاد وهو يستطيع ذلك ولا يفعل؟ قال تعالى:

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ (٥٥)

وقال تعالى:

﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٦).

وقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ (٥٧).

٣ ــ وأين الأفيون في الاسلام وتشريعاته الاقتصادية ــ التي تلائم فطرة الانسان ــ لم يسبق إليها، لأنها من الله العزيز الحكيم،

---

(٥٥) القصص: ٧٧.
(٥٦) المنافقون: ٨.
(٥٧) النساء: ٩٧.

هذه التشريعات التي حرمت الربا أساس اقتصاد الرأسمالية المعاصرة والاحتكار والغش والاستغلال، وكل ضروب الجشع والطمع والسلب والنهب، على الرغم من أنها كانت تدر أرباحاً طائلة على كثير من الأغنياء والمرابين في مكة وغيرها، وصار هذا التحريم قانوناً عاماً صالحاً للتطبيق في كل زمان ومكان حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

٤ ــ وأين الأفيون في الاسلام، وقد حرم الترف على الأغنياء والفقراء وعلى الأشراف والأرقاء، وقد كانت التفرقة في الحدود بين الناس من أشد ما حظره رسول الله صلى الله عليه وسلم وحذر منه، كما جاء في حديث المخزومية التي سرقت؟

ويكفي لدحض هذه الشبهة أن أشير إلى أن جميع حركات التحرر من نير الاستعمار في الشرق الاسلامي كانت من وحي الدين. فحركة الشعب المصري ضد الاحتلال الفرنسي كانت بقيادة علماء الدين، وحركة عمر مكرم على عائلة محمد علي كانت دينية، وثورة المهدي على الانجليز في السودان كانت دينية، وثورة الشعب الليبي على إيطاليا كانت دينية، وثورة المغاربة على فرنسا وإسبانيا كانت دينية، وثورة الجزائر كانت دينية، وثورة أفغانستان الحالية على الشيوعية نفسها دينية، وثورة الشعب الايراني على النظام الامبراطوري دينية. وهكذا الإسلام يدفع أبناءه للجهاد في سبيل الله، ولا يقبل منهم بحال من الأحوال أن يصبروا على الظلم.

إن الاسلام ليس فيه مخدر، إنما جاء المخدر للمنتسبين إليه بحفيظة النفوس حين تخلوا عنه ولم يحكموه في حياتهم، حين أصبحوا عالة على فتات موائد الغرب تارة والشرق مرة أخرى.

ولو أن ماركس كان علمياً ــ كما يزعم ــ لاكتفى بالحالة المظلمة التي كانت تعيشها أوروبا نتيجة للعقيدة المحرفة التي اعتنقتها، ولحماقة

وسفاهة الكنيسة التي حكمتها أما أن يعمم حكمه على جميع الأديان ـ ومنها الإسلام على وجه الخصوص ـ ماعدا اليهودية فهذا خروج على المنهج العلمي الذي احتكره ماركس لنفسه، ومع ذلك فاني أتحدى الماركسيين ومن سار على ضلالتهم أن يأتوا بدليل واحد يثبتوا فيه أن الاسلام دين مخدر لأتباعه؟

ثامناً ـ هل الدين الصحيح يشوه نظرة الإنسان إلى العالم؟

١ ـ إنه مما لا شك فيه أن الدين المحرف يشوه نظرة الانسان إلى العالم. لأن التحريف تدخل فيه الأهواء الشخصية، والأطماع الذاتية، وهذا ماحدث فعلاً في أوروبا حين شوهت الكنيسة الحياة الدنيوية، وكرهت الناس بها، وفرضت عليهم أنظمة وبدعاً تخالف الفطرة البشرية، وحاربت العلم وأحرقت العلماء وكانت الجهالة هي السلاح الذي تسيطر به على الناس(٥٨).

من هذه الفترة الظالمة في حياة أوروبا استمد ماركس نظريته ـ وأصدر حكمه على الأديان بانها تشوه نظرة الانسان للعالم، وهذا الحكم الباطل ينقضه تاريخ الإسلام وتعاليمه، وذلك لأن الاسلام ـ ولله الحمد ـ لم يعرف التبديل والتحريف بل إن أصوله ثابتة محفوظة بحفظ الله لها، وهو يترقب اليوم الذي يستيقظ فيه أبناؤه من غفلتهم ويعودون إلى تعاليمه يحكمونها في شؤون حياتهم كلها.

٢ ـ شجع الاسلام العلم والعلماء بكل الوسائل المادية والمعنوية وطلب من المسلمين أن يتفكروا في هذا الكون وما فيه من مخلوقات ليؤمنوا بالله عز وجل عن قناعة وتدبر. قال تعالى:

---

(٥٨) انظر التمهيد، الظروف التي مهدت لانتشار التفكير المادي في أوروبا، طغيان الكنيسة.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾[٥٩].

وهذا الكون وما فيه سخره الله سبحانه وتعالى للإنسان. قال تعالى:

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾[٦٠].

٣ ــ حث الإسلام أتباعه على التوكل على الله في أمورهم كلها مع الأخذ بالأسباب والمسببات، وحارب التواكل، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذ من الأخلاق الذميمة كالجبن والكسل والبخل.

أما المثال الذي إستشهدوا به ــ وهو طريقة تجنب الصاعقة عند المتدينين بإيقاد الشموع والتراتيل ــ على أن الدين يشوه نظرة الانسان إلى العالم[٦١]... فهذا المثال ينطبق على أوروبا ودينها المحرف، ولا ينطبق بحال من الأحوال على تعاليم الاسلام، وذلك لأن الاسلام طلب من أتباعه أن يؤمنوا بأن القادر على دفع الضرر والأذى هو الله، وأن الله تعالى هو الذي أرشدهم إلى الأخذ بالأسباب التي تدفع الضرر

---

(٥٩) آل عمران: ١٩٠ ــ ١٩١.

(٦٠) الجاثية: ١٣.

(٦١) انظر الفصل الخامس التفسير المادي للتاريخ والدين.

والأذى. فإن كان مرضاً يعالج بالدواء، وإن كان أمراً يحتاج إلى الوسائل العلمية أخترعت له الوسائل العلمية.

ويكفي أن نقول إن الاكتشافات العلمية وبخاصة المنهج التجريبي الذي قامت عليه نهضة أوروبا العلمية قامت تحت راية هذا الدين العظيم وبتشجيع من تعاليمه، وبدعم من الحاكمين به.

٤ ــ كما أن الاسلام لا يحتقر شيئاً من مطالب الفطرة البشرية، فلا يحتقر مطالب الجسد من أكل وشرب ولباس، ولا يحتقر مطالب الجنس، ولا مطالب العقل والروح وإنما وجهها الوجهة السليمة، فلا إفراط ولا تفريط.

فهل يصح بعد هذا أن يقال إن الدين الصحيح – الاسلام يشوه نظرة الانسان إلى العالم؟

إن ما ذكرت عن نظرة الإسلام إلى الحياة الدنيا يحتاج إلى بحث واسع، ولا يتسع المقام هنا لذكر المزيد عن هذا الموضوع. وإنما يرجع حول هذا الموضوع في الكتب التي تعرضت لهذه المسألة بشكل واسع، ففي كتب الشيخ محمد الغزالي، والأستاذ محمد قطب، والشهيد سيد قطب رحمه الله تعالى والأستاذ المودودي رحمه الله تعالى، وغيرهم من الكتاب المسلمين كفاية لمن أراد التوسع. كما أن الأستاذ عبدالرحمن الميداني وبعض الكتاب الغربيين كتبوا في أثر الحضارة الاسلامية على الحضارة الغربية.

وأختم هذا الفصل بتعليق للأستاذ عباس العقاد، وآخر للدكتور محمد البهي يكشفان فيه تهافت النظرة الشيوعة للدين.

يقول الأستاذ العقاد في معرض تعليقه على كلام ماركس وقولته (الدين أفيون الشعوب): «أما الدين فلو كان لـ(كارل ماركس)

نصيب من خيال التشبيه لما خطر له أن يشبهه بشيء من المخدرات والمسكرات، وإذا كانت الأديان جميعاً تقوم على الايمان بالجزاء والثواب والعقاب، وتعلم المتدين أن يحاسب نفسه على تبعات أعماله لأنه محاسب عليها في السر وفي العلانية، وتغرس في نفسه عادة الاحترام والتقديس وتحذره القحة وسوء الأدب. وهذه العقائد كلها هي وحالة السكر نقيضان لا يجتمعان، وأول ما يسقطه السكر عن المخمور أو المخدر شعوره بالاحترام، فلا يبالي عاقبة عمله ويتطاول على العظماء في نظره. وتكاد تكون الكلمة الأولى على لسان كل سكران: أنا لا يهمني شيء... أنا لا أبالي بإنسان.

ومن عجز الخيال أن يختار (ماركس) للدين تشبيهاً لا يصدق على عقيدة قط كما يصدق على عقيدة الشيوعية، لأن الشيوعية تروج بين الذين يسقطون التبعة عن أنفسهم ويلقون أوزار الجرائم والرذائل على المجتمع، وتمهد العذر للسراق والجناة والمنافقين بما تتهم به المجتمع من الرياء والظلم وسوء التصريف والتدبير، وتعطي كل من يشتهي التطاول حجة التطاول على المحسودين أو التطاول على ما يشاء من الحريات والمقدسات. وما من سبب يغري بتعاطي المخدرات والمسكرات إلا كان من المغريات بالشيوعية على حد سواء، فحيث توجد الأسباب للإقبال على السكر توجد الأسباب للايمان بالشيوعية على السواء.

«... وقد منيت عقيدة العقائد بالتحريف والتزييف بين أناس يكفرون برأس المال كما يكفرون بالاستغلال، ولم ينقض من الأبد الطويل الذي سنطبق عليه فلسفة الماركسيين أكثر من عشر سنين عند إبتداء ذلك التحريف والتزييف فإذا تواضعنا بالأبد الأبيد فهبطنا به إلى مليون سنة، فإلى أين ينتهي التغيير بالعقيدة الراسخة الخالدة التي لا تقبل التغيير في المدى الطويل بله المدى القصير...

وجاء الامتحان الأول للعقيدة الراسخة أيام الحرب العالمية الثانية، فنادى الكفار بالوطنية وبالدين إنها حرب الغيرة الوطنية، وإن المجاهدين أحرار في العقيدة الدينية التي يسرونها أو يعلنونها... ولم يكن جيل القيصرية هو الذي ألجأهم إلى التمسح بالوطنية أو بالحمية الدينية فيقال إنه قديم شبوا عليه وشابوا فلا مندوحة عنه في إبان المحنة الداهمة، بل كان الجنود المقاتلون في الصدمة الأولى من جيل بين العشرين والأربعين، أكبرهم لم يزد على الثالثة عشرة عند قيام الدولة الشيوعية، وتسعة أعشارهم على الأقل لم يتعلموا حرفاً واحداً في غير مدارسها ولم يستمعوا الكلمة من غير دعاتها، ولا تفسير لإستفزازهم بنخوة الوطن وحمية الدين إلا أنه افلاس للمذهب المادي في تكوين المجتمع وغرس الأخلاق في نفوس لم يزاحمه عليها مزاحم من المهد إلى مقتبل الشباب»(٦٢).

ويقول الدكتور محمد البهي: «إن ماركس ولينين يعيبان التمسك بالدين ويصفان التمسك به بأنه «رجعية» ــ أي الرجوع إلى الخلف والوراء ــ مع أن صلاحية الدين لم ترتبط بوقت معين ولا بمشاكل لا تتكرر، إذ هو للطبيعة بما لها من خصائص أينما وجدت، وفي أي وقت كانت، وهدفه أن يحول دون الإنحراف في السلوك سواء في المال أو في العلاقات البشرية، بينما الماركسية قد ارتبطت بمشاكل اقتصادية معينة وأوضاع اجتماعية معروفة خلقتها ظروف خاصة ليس لها طابع الاستمرار، وهي ظروف القرن التاسع عشر والثورة الصناعية التي تبدلت تماماً في القرن العشرين.

«أفلا يوصف ذلك الذي ينادي بالماركسية اللينينية ــ وقد اختلفت الأوضاع والظروف الآن وذهبت تلك الأخرى التي حملت على

(٦٢) الشيوعية والانسانية مقتطفات من، ص ٣٠٤، ٣٠٥، ٣١٨، ٣١٩.

الفكر الفلسفي المـاركسي ــ بأنه رجعي، وأنه يريد أن يعيد عجلة تاريخ القرن العشرين إلى القرن التاسع عشر.

إن الماركسي «التقدمي»... يعيش في صورة الأمس بعد أن حجب عينيه بالتعصب البغيض لاتجاه فلسفي إنتهى اعتباره عن رؤية التغيير الذي يحدد صورة اليوم والذي سيحدد صورة الغد»[63].

وهكذا تتهاوى هذه الخرافات والأكاذيب التي نسجت حول الدين المنزل من عند الله أمام الأدلة العلمية، وحقائق الدين والايمان.

﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾[64].

---

(٦٣) تهافت الفكر المادي التاريخي بين النظر والتطبيق، ص ٣٦.

(٦٤) التوبة: ٣٢.


واعتصموا بحبل الله جميعا

الفصل الثامن

مُناقشة موقف التفسير المادّي للتاريخ من الأخلاق

تمهيد:

من خلال عرضي لموقف الماديين من الأخلاق، تبين لي أنهم يقولون إن الأخلاق متطورة على الدوام تبعاً لتطور العامل الاقتصادي ــ الذي هو في نظرهم العامل الوحيد المحدد لجميع الأوضاع السياسية والدينية والخلقية والفكرية فهي غير ثابتة، وبالتالي فهي غير فطرية في النفس البشرية.

أما سبب الظلم فراجع إلى الرأسمالية والملكية الفردية، كما يعترف الماديون أن الاشتراكية قائمة على أساس غير أخلاقي، وينكرون المباديء الخلقية المجردة كالعدالة الخالدة والحق المطلق، وهم لا يحتاجون إلى الأساس الأخلاقي، بل يحتاجون إلى الأساس العلمي.

وينطلق الماديون من نظرية ميكافيلي، التي تقول إن الغاية تبرر الوسيلة، ولا يجدون أدنى حرج في عمل كل ما ينافي الأخلاق من أجل تحقيق مصالحهم الشخصية.

وأهم الاعتراضات التي توجه إليهم في هذا الموضوع هي :

القيم الذاتية للأخلاق:

من المعلوم أن الماديين ينكرون وجود خالق عظيم وراء هذه الموجودات لأن المادة عندهم هي الخالقة، فهم لا يعترفون بأن الانسان مخلوق من مخلوقات الله تعالى. ونتيجة لهذا الايمان أنكروا أن الله فطر الانسان على التدين وأرسل للناس الرسل ليقوموا انحرافهم كلما ضلوا عن الطريق المستقيم بل اعتبروا الدين من اختراع البشر يطورونه ويغيرونه كما يريدون تبعاً لتغير الظروف الاقتصادية[1]. وأعادوا نفس الكرة بالنسبة للأخلاق، وقالوا إن الأخلاق مخترعة من الواقع المادي، وتتغير تبعاً لتغير الظروف الاقتصادية وعلى هذا الأساس المادي لا توجد قيم ثابتة ولا أخلاق ثابتة ولا دين ثابت.

وقد أثبت أن المادة مخلوقة من مخلوقات الله، وأن الله هو الذي فرض على المادة قوانينها، وأن الانسان مخلوق متميز عن المادة وعن الحيوان، ولا ينحصر تفكيره في حدود العالم المادي، بل يتعداه إلى عالم آخر.

لقد أودع الله سبحانه وتعالى في مدارك العقول، وفي مشاعر الوجدان الفطرية ما تدرك به مكارم الأخلاق ورذائلها، وهذا ما يجعل الناس يشعرون بقبح العمل القبيح وينفرون منه، ويشعرون بحسن العمل الحسن ويرتاحون إليه وبذلك يمدحون فاعل الخير، ويذمون فاعل الشر وقد أرشدت النصوص الاسلامية من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم إلى وجود هذا الحس الأخلاقي في الضمائر

(١) بينت تفاهة هذه الخرافة في الفصل السابق.

الانسانية، وأحالت المسلم المؤمن إلى استفتاء قلبه في حكم السلوك الذي قد تميل نفسه إلى ممارسته.

يقول الله تبارك وتعالى:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠﴾(٢)

فالنفس الانسانية منذ تكوينها وتسويتها ألهمت في فطرتها إدراك طريق فجورها وطريق تقواها، وهذا هو الحس الفطري الذي تدرك به الخير والشر، ولذلك كان على الانسان أن يزكي نفسه ويطهرها من الاثم حتى يظفر بالفلاح، وإلا خاب سعيه. قال تعالى:

﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ۝١٥﴾(٣)

فالانسان لديه بصيرة يستطيع بها أنْ يحاسب نفسه محاسبة أخلاقية على أعماله ومقاصده منها، ولو حاول في الجدل اللساني الدفاع عن نفسه وإلقاء المعاذير. ويقول الله تبارك وتعالى

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ۝٤ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾(٤)

فالانسان كما لديه أدوات الحس الظاهر، لديه حس باطن يدرك به طريقي الخير والشر، وهما النجدان الممتدان في أرض حياته الدنيا يختار منها لسلوكه ما يشاء، وعليه بعد ذلك أن يتحمل نتائج عمله.

---

(٢) الشمس: ٧ ــ ١٠.

(٣) القيامة: ١٤ ــ ١٥.

(٤) البلد: ٤ ــ ١٠.

وهذا الحس الباطن يشمل ما تدركه العقول بموازينها التي فطرها الله عليها، ويشمل ما تحس به الضمائر بمشاعرها الوجدانية التي فطرها خالقها عليها، ومن ذلك يتكون في الانسان حسه الأخلاقي. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «البرُ حسن الخلق والاثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس»(٥).

فهذا الحديث يدل على أن في النفس البشرية حساً خلقياً بالاثم، ولذلك يكره فاعل الاثم أن يطلع عليه الناس. لأنه يعلم أنهم يشعرون بمثل ما يشعر وذلك بحس أخلاقي موجود في أعماق نفوسهم، وهذا ما سماه الفلاسفة الأخلاقيون بالضمير. وقد جمع صلى الله عليه وسلم فضائل الأخلاق تحت عنوان «البر»، ورذائل الأخلاق تحت عنوان «الاثم»(٦).

وظهرت في الضمير ثلاث نظريات:

١ ــ نظرية تصور الضمير على أنه حاسة أخلاقية ممثلة في الغرائز وخليط من الانفعالات والعواطف أي الوجدانات، وهو في قلب الانسان وليس في رأسه، وظيفتها إدراك خيرية الأفعال وشريتها، وإصدار أحكام تقيم هذه الأفعال. وهي قوة باطنية تولد مع الانسان دون الحيوان وهي تشبه حاسة الجمال وقوة التفكير.

٢ ــ ونظرية ثانية تصور الضمير على أنه ملكة عقلية مستقلة عن غيرها من ملكات الانسان، وهي عند أصحابها ذات قداسة خاصة في نوعها وطبيعتها وتميزها عن غيرها من الملكات، ولها سلطة مطلقة ترتفع فوق كل جدل، ومنزهة في أحكامها عن الخطأ والهوى.

---

(٥) مسلم، ج ٤، ص ١٩٩٠.
(٦) أنظر الثقافة الاسلامية ــ المستوى الأول، ص ٢٠١ــ ٢٠٣.

٣ ـ ونظرية كانت الذي استبدل بفكرة الخير مبدأ الواجب، وعبر عن الضمير بالعقل العملي الذي تنشأ أحكامه لا من مقارنة أفعال الانسان بعضها ببعض بل بمقارنة فعل أو مجموعة من الأفعال بمبدأ عام يكشفه الضمير. هذا المبدأ فطري في طبائع البشر لا يتغير، ندركه حدسياً عن طريق الضمير المنزه عن الخطأ(٧). وهو لا يجيء كسباً فلا نعلم العقل العملي كيف يدرك الحق الواضح بذاته(٨).

«ونواة الضمير فيما يبدو فطرية يشارك فيها كل كائن ناطق، وهي تظهر عند الانسان قبل أن يتمكن من تقدير نتائج أفعاله وآثارها، لأن الميل إلى الخير والنفور من الشر متأصل في طبيعة الانسان، وبغير هذا يتعذر علينا أن نفسر طبيعة السلطة الخلقية أو نفهم الشعور بالحياء الذي يعقب اقتراف الاثم»(٩).

صلة الأخلاق بالدين:

إن الضمير وحده لا يستطيغ أن يحقق طبيعة الخير والشر دون أن يُربى عليهما. فالضمير طاقة خام تدفع إلى الرقابة، وحافز هام على عمل الخير، ولكنها لا تستطيع أن تصدر حكمها إلا إذا عرفت الخير من الشر، ودربت على مقاييس الأخلاق الوسط، فتكونت لديها قدرة على معرفة الخير والأمر به. فإننا كثيراً ما نحكم على شيء بالخير أو الشر قبل أن نشعر به أو نحس بعاطفة نحوه. ثم إن اختلاف الناس في تقدير القيمة الأخلاقية لبعض الأعمال يدل دلالةً واضحة على عدم اتحاد الادراك الأخلاقي(١٠).

---

(٧) لا ينزه عن الخطأ إلا المعصوم الرسول صلى الله عليه وسلم.

(٨) أنظر الفلسفة الخلقية نشأتها وتطورها، ص ١٦١ ـ ١٦٢.

(٩) نفس المصدر، ص ٣٦٥.

(١٠) مستقبل الحضارة بين العلمانية الشيوعية والاسلام، ص ٢٠٨.

يقول الأستاذ فلوجل: «إنه لا توجد علاقة مباشرة بين المعرفة والذكاء من جهة وبين السلوك الخلقي من جهةٍ أخرى، فالعلاقة بينهما غير مباشرة. إن المعرفة والذكاء يعينان كثيراً في إقرار المباديء وفهمها، وهذا أمر هام جداً في معرفة الواجبات كما رأينا، على أن أداء الواجبات يعتمد على عناصر وجدانية نزوعية قد تكون موجهة إلى هذه الغاية أو لا تكون، ولا يكفي لكفالة السلوك الخير مجرد معرفة الشخص لما هو صواب أو حتى مجرد القبول العقلي لصحته، ومع ذلك فثمة علاقة إيجابية بسيطة بين المعرفة والذكاء من جهة، وبين السلوك الخلقي من جهة أخرى، ولعل السبب في ذلك أن المعرفة والذكاء يسهلان التنبؤ بالنتائج الكاملة للتصرفات، واصطناع بعد النظر الذي يهدي إلى أن حسن الخلق تبرره عموماً نتائجه الطيبة»[١١].

ولكن هذه العناصر تمثل الاستعداد والادراك ولا تصل إلى القدرة على وضع المباديء الأخلاقية الثابتة، لأنه لا بد أن تكون المبادىء الأخلاقية التي يتكون منها السلوك الخلقي مبنية من مصدر عليم بالزمان كله والكون بأكمله. فالأخلاق ما هي إلا منهج حياة تتصل بالماضي والمستقبل وترتبط بحركة الكون كله. والانسان محدود العلم والطاقة، والمحدود الناقص لا يستطيع أن يحدد منهجاً أخلاقياً يلائم الناس جميعاً في زمان معين، وفي كل زمان على مدار العصور والأيام.

نعم إن الله العليم الحيكم الذي خلق الانسان وفطره على التمييز بين الخير والشر، لا يمكن أن يترك هذا المخلوق يعتمد على نفسه في رسم قواعد الأخلاق، وذلك لأن فكر الانسان بعجزه

---

(١١) الانسان والأخلاق والمجتمع، ص ٤٠ ــ ٤١.

الواضح وقصوره الادراكي ينظر إلى الموضوع من زاوية واحدة فيظنها كل شيء وينحرف بذلك عن الحق والخير.

لذلك أرسل الله سبحانه وتعالى الأنبياء والرسل بقواعد الأخلاق الثابتة التي لم تتغير على مدار التاريخ، فكلما انحرف الناس عنها ذكرهم الرسل بها ودعوهم من جديد إلى الالتزام بقواعدها.

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز: (... فالناس محتاجون على وجه التحديد إلى قاعدة صالحة للتطبيق على فطرتهم. ويستطيع كل منهم في الحالات السهلة أن يجد تلك القاعدة مسجلة بصورة ما في ضميره. أي أن الشخص لا يحتاج إلى ذلك الكيان الشكلي المجرد، وهو إن احتاج إليه فإن هذه الفكرة الفارغة لا تفيدنا شيئاً محدداً.

«لا بد إذن من أن نتوجه وجهة أخرى، فأين نفتش عن ذلك النور البديع لنهدي ضمائرنا، عندما لا تجد حيثما توجهت غير الظلام... وأين نجد المخلص الذي تعلقت به أنفسنا وقد تقاذفتها الشكوك».

ليس لدينا أمام هذه الأسئلة سوى إجابة واحدة تفرض نفسها، إذ لا أحد يعرف جوهر النفس، وشريعة سعادتها وكمالها، مع الصلاحية الكاملة والبصيرة النافذة ـ غير خالق وجودها ذاته:

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾[١٢].

... فإذا ما قيل لنا إننا نحن الذين نشرع لأنفسنا، بوصفنا أعضاء في عالم عقلي، وجب علينا أن نتفق على ذلك الاستقلال الذي خص به العقل. ماذا تعني في الواقع هذه المقولة: (العقل يمنح نفسه

---

(١٢) الملك: ١٤.

قانونه)؟ هل يبدع العقل القانون؟ أو أنه يتلقاه معداً على أنه جزء من كيانه، كيما يفرضه على الارادة. . . ذلك لأنه إذا كان العقل مبدع القانون، فإنه سوف يصبح السيد المطلق يبقي عليه، أو يبطله، تبعاً لمشيئته، فإذا لم يستطع ذلك فلأنه قانون سبق في وضعه وجود العقل، وأن صانع العقل قد طبعه فيه كفكرة فطرية، لا يمكن الفكاك منها.

«وحينئذٍ يكون معنى: أن يستنصح المرء عقله: أنه يقرأ في كتاب فطرته النقية والانسانية بصفة نوعية ـ ما سبق أن فطرها الله عليه. وبعبارة أخرى: عندما يرجع أشد الناس إلحاداً إلى سلطة العقل، فإنه لا يفعل في الواقع سوى الانصات إلى ذلكم الصوت الالهي، الذي يتكلم في داخل كل منا دون أن يذكر إسمه، وهو ينطق به صراحة عندما يتحدث إلى المؤمن.

ولكن إذا كان النوران: الفطري والموحى ـ ينبثقان من مصدر واحدٍ فحسب، فيجب أن نخرج أخيراً بأن الله سبحانه هو الذي يرشدنا دائمًا إلى واجبنا ما ظهر منه وما بطن»(١٣).

وعلى هذا الأساس فإن تعاليم الأخلاق مستمدة من الدين، ولا يجوز بحال من الأحوال فصل الأخلاق عن منبعها الأصيل وهو الدين.

أساس الأخلاق:

لدى التحليل تبين لي أن أسس الأخلاق عقلية وفطرية، وجدانية ودينية، تدعو إلى الأخذ بها القاعدة الايمانية في الاسلام، لكل ذلك فهي ربانية لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي منح العقول

---

(١٣) دستور الأخلاق في القرآن، مقتطفات من ص ٣٣ ـ ٣٦.

موازين إدراكاتها، وأودع في الفطر الوجدانية أحاسيسها ومشاعرها، وهو الذي أنزل على رسله قواعد الايمان وأحكام التشريع.

أما كون الأخلاق عقلية فلان مكارم الأخلاق يؤيدها العقل ويستحسنها ويحث عليها، ويوجب ما يوجب منها. ولأن رذائل الأخلاق يؤيد العقل اجتنابها ويستقبحها، ويحث على البعد عنها.

أما كونها فطرية وجدانية فلان في فطر الناس الوجدانية ميلاً إلى مكارم الأخلاق، ورغبة داخلية بالتزامها وممارسة كل سلوك تدفع إليه، كما أن في فطر الناس نفوراً من رذائل الأخلاق، ورغبة داخلية باجتنابها.

أما كونها دينية فلان القاعدة الايمانية في الاسلام تلزم بطاعة الله عز وجل في أوامره واجتناب نواهيه. وقد اشتملت أوامره سبحانه وتعالى ونواهيه ووصاياه على العمل بمكارم الأخلاق، والبعد عن رذائلها، وقرنت ذلك بالثواب لمن أطاع، والوعيد بالعقاب لمن عصى[١٤].

ثبات الأخلاق:

وما دامت الأخلاق فطرية في النفوس، ومصدرها واحدٌ وهو الله عز وجل، ذلك لأن القيم الأخلاقية العليا ثابتة ثبات فطرة الإنسان وكيانه ووجوده، وأن تغير البيئات والعصور لا يغير منها، فلا يمكن أن يكون العدل ظلمًا أو الحق باطلاً أو الفضيلة رذيلة، فقد أعطي الإنسان الفطرة التي تميز الخير من الشر، والعدل من الظلم، والتقوى من الفجور، وستظل هذه القيم قائمة ما دامت الحياة.

أما قول الماديين إن الأخلاق تتطور تبعاً لتطور العامل

(١٤) الثقافة الاسلامية، ص ١٩٩ ــ ٢٠٠.

الإقتصادي وإن الأخلاق من إختراع الطبقات فباطل للوجوه التالية:

١ ــ فساد فكرة حتمية التطور كما فهمها الماديون.

٢ ــ العامل الإقتصادي ليس هو العامل الوحيد الفعّال في كيان الإنسان.

نعم إن الأخلاق تتطور تبعاً لتطور العامل الإقتصادي حين يغيب شرع الله عن التطبيق، ويصبح التشريع بيد الأفراد. فالطاغوت الذي يضع قواعد الإقتصاد ــ لصالح طبقة معينة على حساب الآخرين ــ هو ذاته الذي يضع قواعد الأخلاق لصالح نفس الطبقة على حساب الناس الآخرين كذلك. والخطأ الذي وقع فيه الماديون هو: أنهم نظروا إلى الإرتباط بين الأخلاق والإقتصاد من زاوية السبب والنتيجة. ولم ينظروا إليهما من زاوية المصدر.

وحقيقة الأمر أن الإرتباط بين الأخلاق والإقتصاد، هو توحد المصدر الذي صدرت عنه وهو إما أن يكون الله سبحانه وتعالى، وإما أن يكون الطاغوت. ومن هنا فإن قول الماديين إن الطبقة الحاكمة هي التي تشرع الأخلاق قول صحيح نسبياً بالنسبة للجاهلية التي لا تلتزم بشرع الله عز وجل ولا تحكمه في شؤون حياتها. أما حين يحكم شرع الله ودينه الصحيح واقع الناس، فإن الأخلاق تكون واحدة لجميع الناس، لأن الله يشرع للجميع. وعلى فرض صحة كلام الماديين إن الأخلاق غير فطرية ــ وهو ليس بصحيح ــ فما هو مصلحة الطبقة الحاكمة في الأخلاق والصدق والعفة؟ لأنه كما هو معلوم أن الطبقة الحاكمة التي لا تلتزم بشرع الله من مصلحتها إنتشار الفساد حتى تتمكن من فرض سيطرتها على الناس. إذن فالأخلاق ثابتة وخالدة من الأصل من تقرير الله سبحانه وتعالى لها.

وحتى تتكون لدى القاريء صورة واضحة عن فساد النظرة

المادية للأخلاق، لا بد من عرض موجز للأخلاق الأوروبية وللظروف التي أحاطت بها حتى وصلت إلى ما وصلت إليه من الإنهيار والإنحطاط في أيامنا المعاصرة، ولنرى كيف استمد ماركس من هذه الظروف نظريته وأصدر حكمًا حتمياً على الأخلاق بأنها أخلاق طبقية تتبع العامل الإقتصادي بتطوره وتغيره.

كيف انحرفت أوروبا عن الأخلاق؟

كانت الأخلاق الأوروبية في يوم من الأيام مستمدة كلها من الدين، وليس هناك مصدر للأخلاق في الحقيقة سوى الدين، وبمرور الزمن، انحرف الناس عن الدين والعقيدة، وانحرفت أخلاقهم، ولكن إنحراف الأخلاق بطيء جداً، قد لا يتم في جيل واحدٍ أو جيلين.

كانت الأخلاق الأوروبية ذات يوم مستمد كلها من المعين الذي لا معين غيره للأخلاق... معين الدين. وكان هناك مصدران لهذا الرصيد الخلقي في أوروبا: أحدهما الديانة النصرانية ·والثاني هو الإسلام. أما الديانة النصرانية ـ منذ أدخلها الأمبراطور قسطنطين في أوروبا ـ فقد صبغت الحياة بمثل أخلاقية معينة، رغم ما دخل العقيدة النصرانية من تحريف. ثم احتك العالم الأوروبي بالمسلمين عن طريق الحروب الصليبية ورأوا الأخلاق الإسلامية على حقيقتها، رأوا الأمانة والصدق والوفاء بالمواثيق والتعاون بين الناس.

ولكن النهضة ـ لظروف بينتها من قبل[١٥] ـ قد انحرفت عن عبادة الله وعادت وثنية يونانية ورومانية لا يردها عن الوثنية شيء، وإن

(١٥) انظر التمهيد ـ الظروف التي مهدت لإنتشار التفكير المادي للتاريخ.

بقيت العقيدة رصيداً باهتاً في الضمير، وهنا أضيف إلى حصيلة الأخلاق في النفس رصيد ثالث هو رصيد الفلسفة الهلينية. وبدأ الإنحراف في الأخلاق منذ ذلك الحين.

لقد كان من أثر دخول الفلسفة اليونانية في حصيلة الأخلاق الأوروبية أنهم تصوروا أنه من الممكن ـ ومن المستساغ ـ أن تقوم المثل الأخلاقية في الفضاء. بينما السلوك الواقعي يسير في خط آخر محكوم بالضرورات. وهذه التفرقة بين النظرية والتطبيق رصيد أوروبي بحت أنتجته الجاهلية الأوروبية الحديثة بوجه خاص، وصبغت به أخلاقيات العالم كله، في كل مجال، فصار من المستساغ عند الناس أن يتحدثوا عن النظرية الأخلاقية ويستمتعوا بها في ذاتها ـ في عالم المثل ـ ثم لا يتوقعوا تطبيقها في واقع الأرض وإنما يسيرون في هذا الواقع، بحسب ما تقتضيه الظروف.

وفي ظل هذه الجاهلية في التصور ولدت «الميكافلية» التي تسم بطابعها السلوك الغربي كله، في كل مجال تجد في أوروبا أن المثل لا تسعفها بالفائدة المطلوبة. وبدأت الغاية تبرر الوسيلة تعمل عملها في السياسة. فكل وسيلة مهما كانت قذارتها وبشاعتها مستساغة ما دامت توصل إلى الهدف المطلوب.

وفي الداخل والخارج طبعت الميكافلية سياسة أوروبا بطابعها.

الملوك، والأشراف، ورجال الكنيسة يتبعون أخس الوسائل للحفاظ على ما لهم من سلطان ومال. وكذلك الرأسمالية من بعدهم ترثهم وتزيد عليهم بشاعة زائدة في إلتواء السلوك لتحقيق المصالح غير المشروعة التي تعيش عليها. أما في الخارج فحدث عن الإستعمار وبشاعته ولا حرج. كان المستعمرون يتوسلون بكل سفالات الأرض

ودناءاتها ليوطدوا سلطانهم ويمتصوا دماء الناس، ولا يرون في ذلك إنحرافاً.

وأخذ الإقتصاد من بعد السياسة في الإنفصال عن الأخلاق.

والحق أن النظام الإقتصادي في أوروبا كان قائمًا منذ البدء على أساس غير أخلاقي فقد كان النظام الإقطاعي قائمًا بكل شناعته من قبل النصرانية، ولم تستطع النصرانية الكنسية المحرفة أن تخضع الوضع الإقتصادي في الأمبراطورية الرومانية لقواعد الأخلاق المستمدة من الدين. وزاد الطين بلة أن الكنيسة نفسها انقلبت إلى مؤسسة إقطاعية كبيرة، ولكنها على الرغم من كل الإنحرافات استطاعت أن تجعل التعامل بالربا أمر مستبشعاً لا يلجأ الناس إليه في معاملاتهم الإقتصادية إلّا كارهين. فلما جاء الإنقلاب الصناعي، والرأسمالية، كان الناس قد بعدوا أشواطاً كثيرة عن العقيدة والأخلاق، ومن ثم لم تجد الرأسمالية حرجاً في إنتهاك كل مارغبت في إنتهاكه من مبادىء الأخلاق، فاستحلت الربا والإستغلال الشنيع للعمال والأطفال والنساء، وإفساد الأخلاق بالجملة لإتاحة فرص الربح المجنون للرأسمالية، الملاهي، الملذات وأدوات الزينة.

«وكان نهب المواد الخامة من البلاد المستعمرة لتحصل الرأسمالية على الربح الفاحش وتترك الملايين الأصليين في الفقر والتأخر والجهل والمرض والعجز... مع تصدير المفاسد الخلقية لتربح الرأسمالية عن طريقها مزيداً من الأرباح.

وكان شراء الذمم والضمائر ـ في السياسة الداخلية ـ لضمان تسيير السياسة حسب أهواء الرأسمالية الحاكمة، وفي السياسة الخارجية للإبقاء على مصالح الرأسمالية والإستعمار. وسخرت الرأسمالية أيما سخرية من الذين يواجهونها بالدعوة الخلقية والرجوع

إلى مبادىء الأخلاق. وظهرت نظريات (علمية) تقول إن الإقتصاد له قوانينه الخاصة ـ قوانينه الحتمية التي لا علاقة لها بالأخلاق. بل لا علاقة له بالناس على الإطلاق»[١٦].

ثم أخذ الجنس بالإنفصال عن الأخلاق، وقد كان واضحاً للناس في أوروبا، أن هذا فساد في الأخلاق. ولكنهم رويداً رويداً نسوا هذه الحقيقة أو أنستهم إياها شياطين النظريات الحيوانية من اليهود، مثل ماركس وفرويد، ودور كايم.

لقد غرق الناس في حمأة الجنس بتأثير مبادىء اليهود الهدامة، ثم نسوا أنهم بذلك ينحرفون عن الأخلاق، فراحوا يقولون: إن الجنس عملية بيولوجية بحتة لا علاقة لها بالأخلاق.

ومضت العجلة خطوة أُخرى في طريق الإنحدار، لقد بقي رصيد من الفضائل الإنسانية الخليقة بالإعجاب. الصدق، والأمانة، والإستقامة، والجلد على العمل، والإخلاص فيه. وهي جزء من الرصيد الأصلي للأخلاق الذي استمدته أوروبا من الدين ـ النصراني والإسلامي ـ ولكن الأخلاق الرومانية الأنانية النفعية أفسدت ما تبقى من هذا الرصيد الخلقي.

إن الصدق والإخلاص والأمانة والإستقامة... الخ فضائل. ولكنها يمكن أن تتم على مستويات مختلفة. على مستوى إنساني وهو الخليق بها وهذه صورتها الحقيقية الأصلية التي تستمدها من وحي الدين. أو على مستوى قومي. أي أنها لا تطبق إلاَّ في حدود القومية فإذا ما خرجت عن الحدود القومية الضيقة برزت الأنانية على أشدها. فلا تبالي من السرقة والغش والنهب والإستغلال والخداع، ولا تبالي أن

---

(١٦) جاهلية القرن العشرين، ص ١٤٢.

تصنع ذلك كله ولا تتأثم من فعله، حتى على المستوى القومي فإنها تتم على أساس ما تجلبه من النفع لحاملها، فهي تتبع بمقدار هذا النفع ـ وتبطل إذا بطلت المنفعة القريبة أو البعيدة(١٧).

هذه النتيجة السيئة التي وصلت إليها أوروبا بسبب إنحراف الأخلاق عن الدين. وبالتالي إنحراف الناس عن الأخلاق(١٨)... هذه الحالة السيئة هي التي جعلت ماركس ـ الذي أنكر وجود الله سبحانه وتعالى، وأنكر ما وراء المادة ـ يقول:إن الأخلاق غير فطرية وهي متطورة تبعاً لتطور العوامل الإقتصادية، وعمم حكمه على جميع الأخلاق.

وقد جاءت النظرية الشيوعية منسجمة مع الأخلاق النفعية الأوروبية، فأعلنت صراحةً أنها لا تحتاج إلى الأساس الأخلاقي. كيف تؤمن بالأخلاق وهي تنكر مصدر الأخلاق وهو الدين، وتحاربه؟ وكيف تؤمن بالأخلاق وهي لا ترى حقيقة الأخلاق الصحيحة في المجتمعات؟ وكيف تؤمن بالأخلاق وهي الدعوة التي ما قامت إلَّا من أجل إفساد الأخلاق؟ وهذا ما حدث فعلاً في المجتمعات الشيوعية. لم يتركوا طريقاً لإفساد الأخلاق إلَّا سلكوه. فأحلوا ما حرم الله، وحرموا ما أحل الله، أباحوا الزنا، وحرموا الزواج ودعوا إلى إشاعة النساء. وهدموا الأسرة، واستعملوا كل وسائل الكذب والخداع والتضليل كما جاء في إعترافهم. ومارسوا شتى ألوان الإضطهاد والتعذيب والقتل الوحشي للأفراد والجماعات. ولم يردعهم في ذلك وازع من ضمير.

---

(١٧) انظر نفس المصدر، (ص ١٤٢ ـ ١٤٦).

(١٨) ومن أراد التوسع في معرفة فساد الأخلاق في أوروبا فليراجع الكتب التالية: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام، جاهلية القرن العشرين، جذور البلاء.

إن الأخلاق التي يدعون إليها هي فقط في العلاقة نحو العمل ونحو الملكية الجماعية. ولكن هل تحققت الأخلاق الشيوعية نحو العمل والملكية الجماعية؟ ألم يسرقوا من ملك البرولتاريا بإسم السلطة؟ وهذا ستالين أكبر سفاح ومجرم في نظرهم... نهب أموال الشعب وأسرف في ملذاته وشهواته الخاصة.

وهل أحب العامل عمله والعمال من حوله؟ وهذه أدوات التعذيب شاهدة على كره العمال لعملهم. وثورات الفلاحين التي أخمدت بالحديد والنار تنسف دعواهم من أصولها.

إنهم صادقون فيها وصفوا أنفسهم حين قالوا: (إن الماركسية تنتقد دوئما تحفظ ـ محاولات علماء الإجتماع البرجوازيين، والبرجوازيين الصغار لجعل الإشتراكية قائمة على أساس أخلاقي... أي بناء نظرية الإشتراكية على أساس المبادىء الخلقية المجردة كالعدالة الخالدة، والحق المطلق وغيرهما، دون أن ينطلقوا من القوانين الموضوعية للتطور الإجتماعي، وبهذا المعنى في الواقع ليس في الماركسية مثقال ذرة من الأخلاق كما يقول لينين[١٩].

هذه الحياة البهيمية التي تريد الشيوعية والرأسمالية للبشرية أن تحياها حين حاربت شرع الله، وصدت الناس عن الدين والأخلاق القويمة، من أجل تحقيق أكبر قدر ممكن من الأرباح المادية على حساب الشعوب وامتصاص دمائها وخيراتها.

إن البشرية لن تسلم من عاقبة الفساد إلاَّ بالعودة إلى دين الله الصحيح. إلى الإسلام تحكمه في شؤون حياتها، وتتخلق بأخلاقيات هذا الدين الحنيف في حياتها العامة والخاصة.

---

(١٩) المادية التاريخية، (ص ٤٧١ ـ ٤٧٢).

الأخلاق في الإسلام:

للإسلام نظرة خاصة بالنسبة للأخلاق. هذه النظرة مستمدة من عند الله الذي أنزل للناس تشريعاً خالداً يحكم حياتهم ويربي مكارم الأخلاق في نفوسهم. ومن هنا فإن الأخلاق الإسلامية شاملة لجميع نواحي الحياة. فللفكر أخلاق، وللإعتقاد أخلاق، وللقلب أخلاق، وللنفس أخلاق، وللسلوك الظاهر أخلاق.

فمن فضائل الأخلاق الفكرية، تحري الحقيقة بإنصاف وتجرد وحياد، والصبر على التفكير، والتأمل والتدبر، والبحث عن كل نافع مفيد من الأفكار والمعارف والعلوم. لقد سخر الإسلام العلم لخدمة البشرية وتحقيق الخير والسعادة للناس يوم كانوا سادة العلم، حين كانوا يحكمون بوحي من دينهم، في يوم كانوا يستطيعون فيه أن يستغلوا العلم لمصالحهم الخاصة، والتحكم في الشعوب الجاهلة. ولكن الدين الذي أنزله الله رحمة للعاملين ربى في نفوسهم أن يسخروا العلم لخدمة دين الله، ولتحقيق العدل والرخاء للناس كافة. بخلاف العلوم الأوروبية الحالية التي تستغل في إفساد الأخلاق (كحبوب منع الحمل مثلاً) التي أخترعت من أجل النساء اللواتي يتضررن من الحمل، ولكنها أخيراً استعملت في إفساد أخلاق الشباب والشابات.

ومن فضائل الأخلاق في الإعتقاد أن لا يسمح الإنسان لنفسه أن يتتبع الأوهام والظنون الضعيفة في مراكز إعتقاده الثابتة الراسخة، وأن لا يجعل مركز عقائده فريسة للتقليد الأعمى والضلالات الشائعة، أو فريسة لما تمليه الأهواء والشهوات من أفكار ومذاهب، أو ما يمليه القادة المضلون والشياطين الموسوسون من الإنس والجن. وعلى الإنسان أن يجتنب النقائص والرذائل، حتى يظفر بالإرتقاء في سلم الكمال الخلقي.

ومن فضائل أخلاق القلب حب الحق وحب الخير وكراهية الباطل والشر وعدم تحمل الأحقاد والضغائن. ومن أخلاق النفس الصبر والعفة ومجانبة الحسد والترفع عن سفاسف الأمور، وعلو الهمة، وجود النفس وعفوها عن إساءة المسيء إلى غير ذلك من أمورٍ كثيرة.

أما فضائل أخلاق السلوك الظاهر فكثيرة، وهي في حقيقتها تعبير عما في داخل النفس الإنسانية من أخلاق[٢٠]... وتتناول الأخلاق الإسلامية جانب السلوك الفردي والجماعي، ومن الأخلاق التي تتناول جانب السلوك الفردي القناعة الذاتية والزهد والصبر والنظام والحزم والتفاؤل. أما الأخلاق التي تتناول السلوك الجماعي فهي الحلم، والصبر والصدق والأمانة والعفو والتسامح، وحب العطاء والشجاعة والكرم والتواضع ولين الجانب والوفاء.

يقول شيخنا الأستاذ عبد الرحمن الميداني حفظه الله: (وقاعدة الأخلاق الإجتماعية الكبرى تتلخص بأن يعامل الإنسان الآخرين بما يحب أن يعاملوه به، إنه يحب أن يعاملوه بالعفو إذا أساء فليكن عفواً عن إساءاتهم، ويجب أن يكونوا معه أمناء فليكن معهم أميناً. ويحب أن يصدقوه ولا يكذبوه فليصدقهم ولا يكذبهم، ويحب منهم العفة عن محارمه فليكن عفيفاً عن محارمهم وهكذا... ويكره منهم أضداد هذه الأمور فلا يعاملهم بما يكره أن يعاملوه به. وقد بلغت الأخلاق الإجتماعية في الإسلام مبلغاً من الرقي العظيم جعلها في مركز القمة، بما اشتملت عليه من تفصيلات موثقة للروابط الإجتماعية بين الأفراد، ومؤثرة تأثيراً عميقاً في تغذية وحدة الجماعة الإسلامية وتنمية روابط المودة والإخاء بين المسلمين.

---

(٢٠) انظر الثقافة الإسلامية، (ص ٢١٣ ــ ٢١٤).

«وحسبنا أن نذكر في هذا المقام فضائل العفو، والإحسان، والتعاون والتضحية، والإيثار، وإكرام الضيف، وإكرام الجار، والتواضع، ولين الجانب، وحسن المعاشرة، والتزاور في الله، وعيادة المرضى، والتهادي، والقرض الحسن ونحو ذلك»[٢١].

هذه هي الأخلاق الإسلامية التي ندعو إليها، لأن فيها الخير العظيم والرخاء العميم للبشرية. فقد جربتها البشرية مرة في تاريخ حياتها يوم كان الحكم لله فكانت نتائجها طيبة على أهلها خاصة. وعلى البشرية عامة، حتى أن الكتاب المنصفين يصفون كيف كان الناس يعيشون في حالة نفسية هادئة نتيجة للإستقرار وروح الأمن والأخلاق. حتى إن شعوباً كثيرة اعتنقت الإسلام نتيجة للأخلاق الإسلامية التي كان يتمثل بها الدعاة المسلمون من تجار وعلماء وغيرهم.

تقسيم الأخلاق الإسلامية باعتبار علاقاتها:

لدى تصنيف مفردات الأخلاق باعتبار علاقاتها نلاحظ أنها تنقسم إلى أربعة أقسام هي:

١ ـ **علاقة الإنسان بخالقه**: ومكارم الأخلاق في هذا المقام تفرض على الإنسان الإيمان بالله لأنه حق، وبتنزيهه عن كل ما لا يليق به، وأن يصفه بما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم من غير تحريفٍ ولا تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل، وأن ينفي ما نفى الله عن نفسه وما نفاه عنه رسوله صلى الله عليه وسلم من غير تحريفٍ ولا تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل، وأن يطيع أوامره ويجتنب نواهيه.

---

(٢١) نفس المصدر، (ص ٢١٥).

٢ ـ **علاقة الإنسان مع الناس الآخرين**: وتتمثل في الصدق والأمانة والعدل والكرم، والعفة والعفو، وحسن المعاشرة وأداء الواجب والإعتراف لكل ذي حق بحقه.

٣ ـ **علاقة الإنسان مع نفسه**: وتتمثل في الصبر على المصائب، والنظام والإتقان في العمل والإخلاص، وهكذا.

٤ ـ **علاقة الإنسان مع الأحياء غير العاقلة**: وتتمثل في الرفق بها ومعاملتها والرحمة بها، وتأدية حقوقها من أكل وشرب، وحرمانها من حقوقها يعتبر من قبائح الأخلاق[٢٢].

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم« عُذبت إمرأة في هرة حبستها حتى ماتت فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها وسقتها إذ حبستها ولا هي تركتها تأكل من خشاش[٢٣] الأرض»[٢٤]. كما طلب الإسلام من المسلم أن يريح ذبيحته ويحد شفرته، كما نهى عن ضرب الحيوان بقسوة وتحميله فوق طاقته.

ضرورة مكارم الأخلاق للمجتمعات الإنسانية:

يقول شيخنا الأستاذ عبدالرحمن الميداني: «إن أي مجتمع من المجتمعات الإنسانية لا يستطيع أفراده أن يعيشوا متفاهمين متعاونين سعداء ما لم ترتبط بينهم روابط متينة من الأخلاق الكريمة. إن مكارم الأخلاق ضرورة إجتماعية، لا يستغني عنها مجتمع من المجتمعات، ومتى فقدت الأخلاق التي هي الوسط الذي لا بد منه لإنسجام

(٢٢) انظر نفس المصدر، (ص ٢١٧ ـ ٢١٨).

(٢٣) خشاش الأرض: هوامها وحشراتها.

(٢٤) متفق عليه. البخاري ٢٥، ص ٢٦٣، مسلم، ج ٤، ص ١٧٦٠.

الإنسان مع أخيه الإنسان، تفكك أفراد المجتمع وتصارعوا، وتناهبوا مصالحهم، ثم أدى بهم إلى الإنهيار ثم إلى الدمار.

كيف تكون الثقة بالعلوم والأخبار وضمان الحقوق لولا فضيلة الصدق؟ كيف يكون التعايش بين الناس في أمنٍ واستقرار لولا فضيلة الأمانة؟.

«... كيف تكون جماعة مؤهلة لبناء مجدٍ عظيم لولا فضيلة الشجاعة في رد عدوان المعتدين وظلم الظالمين، ولولا فضائل العدل والرحمة والإحسان والدفع بالتي هي أحسن؟.

«... لقد دلت التجربات الإنسانية، والأحداث التاريخية، أن إرتقاء القوى المعنوية للأمم والشعوب ملازم لإرتقائها في سلم الأخلاق الفاضلة وتتناسب معه، وإن إنهيار القوى المعنوية للأمم والشعوب ملازم لإنهيار أخلاقها ومتناسب معه. فبين القوى المعنوية والأخلاق تناسب طردي دائمًا صاعدين وهابطين»(٢٥).

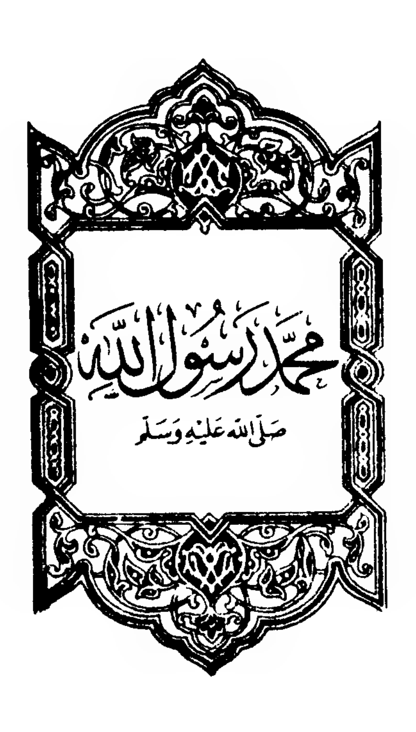
حرص الإسلام على تقويم الأخلاق:

حرص الإسلام أشد الحرص على العناية بتزكية النفس وتربيتها على الأخلاق الفاضلة. وللأخلاق مكانة عظيمة في الإسلام، وذلك لأن حسن الخلق عبادة لله عز وجل إذا قصد المسلم إبتغاء مرضاة الله تعالى. وفيه فوائد شخصية واجتماعية كثيرة. لذلك يتحقق بحسن الخلق من رضوان الله عز وجل أكثر مما يتحقق بالإستكثار من نوافل العبادات المحضة كالصلاة والصيام والأذكار، والأدلة على قيمة حسن الأخلاق كثيرة وفيرة. ومن أراد التوسع في ذلك فليرجع إلى الكتب التالية:

خلق المسلم، ودستور الأخلاق في القرآن.

---

(٢٥) نفس المصدر، (ص ٢١٨ ـ ٢١٩).


محمد رسول الله
صلى الله عليه وسلم

الفصل التاسع

مُناقشة موقف التفسير المادّي للتاريخ من الشخصيّات البارزة

لا يعترف الماديون بدور الأفراد البارزين في دفع عجلة التاريخ إلى الأمام، وذلك لأن أسلوب الانتاج هو القوة المحددة للتطور الاجتماعي. والجماهير الكادحة هي التي تقوم بالدور الحاسم في صنع التاريخ، وهم يعترفون أحياناً بدور الشخصيات البارزة في التاريخ، ولكنهم ينكرون أن يكون تأثير هذه الشخصيات مستقلاً عن إرادة ووعي الجماهير. ومهما كان الفرد عظيمًا فإنه لا يستطيع أن يعطف مسار التاريخ، إلا إذا كان معبراً عن مشاعر الجماهير وإرادتها[1].

وهدفهم من إنكار دور الأفراد البارزين هو: أنهم بعد أن أنكروا وجود الله سبحانه وتعالى، أنكروا دور الرسل عليهم السلام. وأنكروا أثرهم في دفع عجلة التاريخ إلى الخير والعدالة والفضيلة، وتغيير مسارها عن طريق الفساد والضلال.

صلة الفرد بالمجتمع:

توجد بين الفرد والمجتمع صلة قوية، لذلك لا يمكن الفصل بينهما، لأن الفرد لا يمكن أن يكون فرداً خالصاً ذا كيان مستقل مقابل

(١) أنظر الباب الأول، الفصل السابع.

لوجود المجتمع، إن الواقع المحسوس هو أن كل فرد هو في ذات الوقت كائن مستقل وعضو في جماعة، ولا تكاد توجد لحظة واحدة ولا فكرة واحدة ولا عمل يمكن أن يزاوله الفرد بإحدى صفتيه دون الأخرى. وقد كان أمراً طبيعياً أن يكون المجتمع الأول في أضيق نطاق ممكن وأبسط صورة ممكنة: أسرة وزوج وزوجة وأبناء. وتلك أول مجموعة يمكن أن تتغلب فيها نزعة الاجتماع على النزعات الفردية المستغلة. ثم ظل المجتمع يرتقي ويكبر كلما تلاقت مصالح البشر فغلبوها على نوازعهم الفطرية حيث يجدون أن ذلك يحقق لهم قدراً من النفع المشترك أكثر مما يحققه الفرد وحده، أو الأسرة وحدها. وتكونت القبائل والعشائر ثم الأمم والشعوب.

والمهم أن هذاالإرتقاءالذي وصل إليه الناس في اجتماعياتهم لم يكن مفروضاً عليهم من خارج أنفسهم، وإنما كان استجابة لتلك النزعة القوية المتأصلة في نفوسهم. وهي التي تدفع الإنسان إلى الالتقاء بأخيه الانسان.

ولكن الواقع أن الإنسان مجموعة من الرغبات المتضاربة التي لا يمكن تحقيقها في وقت واحد، والرغبة في الاجتماع عند الانسان أخضعت النوازع الفردية فيه لسلطانها وعملت على تهذيبها بالتدريج، ولكنها لم تنتزعها من نفس الفرد، فالنوازع الفردية موجودة في نفس الإنسان جنباً إلى جنب مع الرغبةالجماعية الملحة، كما يوجد فيها الحب والكره والخير والشر، والرغبة في الصعود مع الرغبة في الهبوط. فالإنسان مخلوق متقلب، فمرة نجده يستجيب لنوازعه الفردية ويسير معها إلى آخر المدى، ويشعر أن وجود الآخرين يضايقه، ويتمنى أن تكون له السيطرة المطلقة عليهم، وتارة أخرى نجده يستجيب لنزعات الاجتماع، فيضيق بنفسه فرداً، ويسعى إلى الالتقاء بالآخرين. وقد

يصل في هذا التبرم إلى آخر مدى فيذوب في كيان الآخرين. وهو في حالته السوية دائم التقلب من وضع إلى وضع. ولا ضير في ذلك فتلك فطرته وهو مستطيع ـ ما دام لا يسرف ولا يتطرف ـ أن يحقق بفطرته أقصى الخير لنفسه وللمجتمع. ولكن الخطر ينشأ من الإسراف والتطرف في كلا الاتجاهين الفردي أو الجماعي. وقد وقعت أوروبا بقسميها الشرقي والغربي في هذا الخطر. فالشيوعية في شرق أوروبا أسرفت في تقدير المجتمع وأهملت شأن الأفراد وأهميتهم. والرأسمالية في غرب أوروبا وأمريكا ركزت على الفرد وأهملت شأن المجتمع.

في حين نجد أن الدول الرأسمالية التي ركزت على الفرد وإطلاق الحرية له كاملة بدأت تشكو من الجرائم والويلات التي جرتها عليهم النزعة الأنانية الفردية. ففي أمريكا تزداد حوادث إختطاف البنات يوماً عن يوم على الرغم من الحرية الجنسية الكاملة المباحة للجميع بلا حرج. وفرنسا بدأت فيها المسألة بالحرية وأخذت الحرية النفسية تتدرج من مجال إلى آخر حتى شملت السياسة والاقتصاد وكل شؤون الحياة. وقد أدى هذا كله إلى قلة الإنتاج والدسائس، وضعف الجيش لعدم الرغبة في التجنيد لأن الأفراد أحسوا أن الدولة معسكر آخر منفصل عنهم، لا ينبغي له أن يتدخل في شؤونهم أو يفرض عليهم قيداً من القيود.

فلما دخلت فرنسا الحرب خرت ذليلة أمام الألمان وذلك لضعف الروح المعنوية عند شعبها. إن أوروبا تعاني من الأمراض العصبية والنفسية والخلقية والسلوكية عناء شديدا، وفي كل يوم نسمع عن جرائم جديدة، كما نسمع من المفكرين والعلماء والأدباء صيحات جديدة تحذر الشعوب الغارقة في وحل الجريمة والحرية الجنسية غير المحدودة

والأنانية الفردية من عاقبة أمرها. إن هذه الانحرافات التي أصابت المجتمعات الأوروبية هي نتيجة لتهاونهم في رد الأفراد الذين بالغوا في الاحساس بفرديتهم إلى صوابهم.

أما حين يكون الاعتداء موجهاً من المجتمع إلى أفراده، فإن الصورة تكون أبشع وأفظع. حين يتسلم الأمر مجموعة الأفراد المستبدين ــ كما هي الصورة القائمة في المجتمعات الشيوعية ــ فإنهم يخضعون بقية أفراد المجتمع لسلطانهم الجائر، ويفرضون عليه نظاماً معيناً تضيع فيه شخصية الفرد المستقلة حيث يتجه دائماً حيث يراد له، ولا حيث هو يريد. ولا يسمح للفرد في هذه المجتمعات الدكتاتورية أن يفكر على طريقته الخاصة، أو يكون له رأي في أمور بلاده أو أمور الدنيا عامة غير الرأي الذي تريده دولته. ولكي تحقق السلطة خضوع الأفراد التام لها، فإنها تلجأ إلى سلوك الأساليب التالية:

١ ــ تشرف الدولة إشرافاً تاماً على تربية الأطفال في محاضنهم أيام الطفولة المبكرة، ثم في المدرسة والجامعة، بل تظل تشرف عليهم وتراقبهم في حياتهم العملية.

٢ ــ وحين تستلم الدولة الأطفال تعمل على أن تبذر في نفوسهم الغضة الطرية الطيعة أن النظام القائم خير نظام موجود على ظهر الأرض، وأن كل ما سواه من الأنظمة منحط وجائر، فيخرج إلى الحياة العامة وقد إنطبع لا شعورياً على حقائق معينة لا يناقشها، ولا يفكر في مناقشتها حين ينضج فكره، وتبذل الدولة كل ما تستطيع من أجل أن تتوصل إلى الربط الكامل بين ذاتية الفرد وبين النظام الذي يعيش فيه. بحيث لا يحس أن له وجوداً ــ أو يمكن أن يكون له وجود ــ إلا في داخل هذا النطاق المرسوم، أنه لو خرج عنه تهددته الكوارث. وعلى الرغم من كل هذه

الجهود الجبارة في التربية على مبادىء الشيوعية فإنها تلجأ إلى الجاسوسية التي تشكك الفرد بأبيه وأخيه وصاحبته وبنيه. فضلاً عن زملاء العمل في المصانع والمتاجر. والويل لمن يعارض أو يثور[٢].

دور الأفراد البارزين في التاريخ:

الفرد الممتاز عضو من المجتمع دون شك، فهو متأثر بتياراته، ومتفاعل معها، ولكنه ممتاز عنه في طريقة تكوينه، ففي بنيته قدرة من الطاقة الحيوية أكبر من المعتاد وهو أقدر على تفهم تلك التيارات المتفاعلة في المجتمع وأقدر على سلخ نفسه منها والنظر إليها كأنما ينظر من خارجها، فيراها بعين النقد والتمحيص، وتلك درجة من الامتياز، ولكنها ليست كل درجاته فهناك مرحلة أخرى هي السخط على ما يراه خطأ في سير المجتمع. وإعلان هذا السخط، ومرحلة أخرى هي الدعوة إلى إصلاح هذا الفساد، والعمل على هذا الإصلاح، ولكن الدرجة القصوى هي التصدي للاصلاح بايمان كامل يصاحب هذا الايمان مقدرة على العمل في سبيله، ثم موهبة التأثير في الآخرين.

إن المجتمع في بداية الأمر يقاوم دعوة الخير والاصلاح، وذلك لأن الشر الخالص غير موجود، وكل شيء مزيج من الخير والشر. ولولا هذه المقاومة من المجتمع لأصبح الأمر فوضى، ولكان كل مأفون تقوم في رأسه فكرة يتمكن من الوصول بها إلى أقصى الغايات في لحظات.

إن مقاومة المجتمع الداعي للإصلاح تستمر إلى آخر جهد، ثم

---

(٢) انظر الاسلام بين المادية والاسلام، ص ١٣٦ ــ ١٥٦.

تنهار تدريجياً، ولكنه عند ذلك يندفع في التيار الجديد اندفاعاً حماسياً حاراً.

إن إنكار دور الفرد الممتاز في القيادة والتوجيه جريمة مزدوجة وذلك لأنه يبدد طاقة بشرية من نوع ممتاز، كان يمكن أن يستفيد بها المجموع لو أتيحت لها الفرصة المناسبة، كما أنه يظلم هذا الفرد حين يعامله معاملة الأفراد العاديين بدعوى المساواة المطلقة بين الجميع. إن دعوى المساواة المطلقة خرافة حمقاء، لأن الناس مختلفون في طاقاتهم الفردية واستعداداتهم الجسمية والفكرية والنفسية. كما يختلف هذا الكون بين القوة والضعف، والعظمة والضآلة. ويكذب الشيوعيون حين يزعمون أن مكانة الفرد الممتاز عندهم محفوظة، والواقع أنهم ينكرون أن هناك فرداً ممتازاً. لأن الفرد هو نتاج المجتمع الذي يعيش فيه، وأقصى ما يمكن أن يتميز به الفرد عن غيره هو أن يكون مزوداً بقدرة أكثر من غيره على فهم الأمور على وضعها الصحيح، أما الذاتية المتيمزة، التي تقدر على القيادة(٣) والتي تتفوق على المجتمع وتؤثر فيه أكثر مما تتأثر به، وتدفعه إلى تغيير عقائده ونظم حياته بمقدرتها الفذة على التأثير والتوجيه، فتلك كلها خرافة لا وجود لها إلا في نفوس المتدينين الرجعيين ــ على حد تعبيرهم ــ.

والذي يهدم هذه الخرافة من أساسها هو تاريخ الأنبياء والرسل عليهم السلام، وعلى وجه الخصوص سيدنا ونبينا محمد بن عبدالله صلى الله عليه سلم.

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم إستطاع أن يغير مسار التاريخ بما أوحي إليه من عند الله وبطريقته الذاتية في تنفيذ ما أوحي

---

(٣) أنظر بتوسع نفس المصدر، «صل الفرد والمجتمع، ص ١٣٦ ــ ١٧٦، وكتاب في النفس والمجتمع، ص ١٤٥ ــ ١٥٢.

إليه، تلك الطريقة التي تعكس شخصيته صلى الله عليه وسلم الفذة العميقة، التي ترتفع في قوتها وتوازنها مع تعدد جوانبها، إلى قمة البشرية في تاريخها الطويل. وكذلك شخصية أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، اللذين أقاما دولة الاسلام على منهج الله وهديه، وأشرفا على إقامة مثل عليا في سياسة الحكم وتنظيم المجتمع المسلم.

كما أن الناحية العملية في إحتقار دور الفرد الممتاز عند الشيوعيين هي أن كل فرد تسول له نفسه وامتيازه أن ينتقد شيئاً من النظام الشيوعي فإن ثلوج سيبيريا الباردة، ومعسكرات الاعتقال في انتظاره.

أما الاسلام فلا ينكر دور الفرد الممتاز، بل من الفرد المتوازن ينشأ المجتمع المتوازن وفي المجتمع الصالح ينشأ الفرد الصالح، لأن الاسلام لا يغفل الفرد، ولا يغفل المجتمع، ولا يبالغ في تقدير واحد منهما على حساب الآخر.

من الفرد الواحد وهو محمد بن عبدالله رسول الله صلى الله عليه وسلم نشأ المجتمع الاسلامي، وانتقلت الفكرة منه صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه رضوان الله عليهم، فانطلقوا بهذا الدين ينشرونه في كل مكان، ووقفت قوى البغي ممثلة بالمشركين من أهل مكة ومن حولها، واليهود والمنافقين في وجه الدعوة الجديدة، ومكن الله للفئة المؤمنة في الأرض ونصرهم على عدوهم، والأمر الهام الذي يجب أن نلحظه هو أن الوضع الاقتصادي والمادي للعرب في الجزيرة العربية، بل للعالم أجمع حينذاك لم يكن يؤدي بطريقة ذاتية إلى ظهور هذا الدين من جديد.

إن الله هو الذي أرسل رسوله لهداية الناس، رحمة بهم ومنقذاً

لهم من ظلمات الشرك والظلم والجور، إلى نور الايمان بالله وتحقيق العدل والأمن في الأرض.

إن الإسلام يعتني عناية تامة بالفرد المسلم على حدة، لأنه الوحدة التي ينشأ المجتمع من اجتماعها بغيرها من الوحدات، واللبنة التي يقوم عليه البناء. فعناية الاسلام بالأطفال والأولاد، والشباب، والنساء، والكهول، لا مثيل لها وإن كانت تشبه عناية بعض الدول الجماعية، ولكن الوسيلة مختلفة. ففي الدول الشيوعية تشرف الدولة بنفسها على تنشئة الأطفال بوسائلها الخاصة، وتراقبهم في أثناء قيامهم بواجبهم، رقابة علنية حيناً وسرية على الدوام. ذلك لأنها لا تثق بهم، ولا تستطيع أن تكلهم لضمائرهم، وذلك لأنها لا تعتني بتربية ضمائرهم، والرباط المقدس الذي تربط به المشاعر والأفكار وتنشأ عليه الأجيال هو الدولة لا العقيدة، لأن العقيدة الدينية من أهم الأشياء التي تسعى الشيوعية إلى إزالتها من الوجود.

أما الإسلام، فلا يحتاج إلى ذلك كله، لأن إيمان أهله به، هذا الايمان الذي يصلهم بالله عز وجل دون وساطة دولة أو حزب، يجعلهم يتطوعون بتربية أولادهم على خلق الاسلام وهديه، لا يرجون من وراء عملهم إلا رضاء الله سبحانه عنهم.

إن الآباء والأمهات في الاسلام حين يربون أبنائهم على الإسلام لا ينتظرون من أحد أن يوجههم إليه لأنه البديهية الأولى في حياة الأسرة وهم لا يكبتون رغباتهم وأشواقهم لأن الكبت مناف لطبيعة الاسلام، بل يضبطون نزعاتهم الفطرية وينظمونها، ويربون في نفوسهم تلك الإرادة الضابطة التي تتحكم في تصريف الطاقة الحيوية، فلا هي تستأصلها من منبتها ولا هي تطلقها بدون حدود، وبذلك يسلم الأطفال من الاضطرابات النفسية والعصبية، كما يبذرون في

نفوسهم بذور الأخلاق التي ترتفع بمشاعرهم عن الأنانية والبغضاء. كما يبذورن في نفوسهم ضميراً حياً يراقب أعمالهم ويحاسبهم عليها، فيطيعون دافع الخير ويبتعدون عن دافع الشر خوفاً من الله لا من الناس.

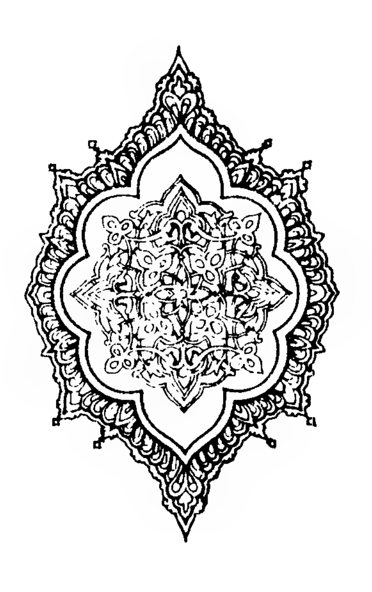
كما يربون فيهم العزة التي لا تخضع لإرادة أي إنسان كان على ظهر الأرض إذا خالف أمر الله ونهيه، والتي لا تقبل ظلمًا يقع عليها من مخلوق.

إن الإمتياز موجود، لأنه السنة الطبيعية ما دام الأفراد مختلفين في استعدادهم وميولهم، ومواهبهم، ولكن هذا الامتياز في الاسلام لا يبيح لأحد حقاً إنسانياً أكثر من غيره من الأفراد. فالناس كلهم سواسية أمام شرع الله، لا فرق بينهم إلا بالتقوى (٤).

وقد شرع الإسلام أنظمة وقوانين، راعى فيها مصلحة الفرد، ومصلحة المجتمع دون أن يطغى فيها جانب على آخر، وكان من أهمها التشريع الاقتصادي، والتكافل الاجتماعي، وقوانين الأسرة. كما حث على مكارم الأخلاق، وحرم الترف وكل وسائل الفساد. وحث على طلب العلم وشجعه، وفتح الباب أمام ذوي الذكاء، ولم يحجر على عقولهم أن تبحث وتكتشف كل ما هو نافع ومفيد في حدود طاعة الله.

---

(٤) انظر الاسلام بين المادية والاسلام فصل الفرد والمجتمع ص ١٣٦ ـ ١٧٦ والنفس والمجتمع ص ١٤٥ ـ ١٥٢.



الفصل العاشر

مُناقشة موقف التفسير الماديّ للتاريخ من الأسْرَة

تمهيد:

من خلال عرض موقف الماديين من الأسرة بينت أنهم يقولون: إن الأسرة متطورة ومتغيرة على الدوام تبعاً لتطور العامل الاقتصادي وتغيره، وقد كان الزواج الجماعي هو النظام السائد في المرحلة الوحشية، والغيرة على المرأة عاطفة نشأت متأخرة، والمحرم إختراع ثمين، لأنه قبل هذا الإختراع الثمين لم يكن الوصال الجنسي بين الأولاد والأمهات والآباء والبنات والأخوة والأخوات يثير الاشمئزاز، وقد كان الوصال الجنسي يتم بين الرجال والنساء بلا قيد. ونظراً لازدياد الثروة زادت مكانة الرجل في الأسرة، وأخيراً تمكن من السيطرة على زمام الأمور، أصبح الأولاد ينسبون إليه ويرثون ماله وأصبحت المرأة خاضعة له، وإن أول تقسيم للعمل هو تقسيم العمل بين الرجل والمرأة، ويشبهون الرجل بالبرجوازي والمرأة بالبرولتاري. ويقول الماديون: إن البغاء سيختفي من المجتمع، وتصبح الزيجة الوحدانية حقيقة للرجل، وإن الأسرة الفردية لن تظل هي الوحدة الاقتصادية للمجتمع لأن الاقتصاد البيتي الخاص ينقلب إلى صناعة جماعية، وتصبح تربية الأولاد والعناية بهم من الشؤون العامة، لأن المجتمع سيعنى عناية تامة بالأولاد الشرعيين، ونتيجة لذلك يختفي القلق الذي

يستحوذ على قلب الفتاة من جراء العواقب التي تعتبر أهم حافز اجتماعي اقتصادي وخلقي يمنعها من تقديم نفسها لمن تحب.

ويعيب الماديون على الأديان التي تفصل فصلاً كاملاً بين تربية الأولاد والبنات، وإلى تكييف البنات بصورة لا يكون لهن من هدف معها غير الحصول على زوج لا غير، كما يهدف الشيوعيون إلى تهديم ركني الأسرة الأساسيين، الزواج وتربية الأولاد. ووسيلتهم في تحقيق هذا الهدف هي إلغاء الملكية الخاصة، وتربية الأولاد على نفقة المجتمع، والمرأة لن تعود تابعة لزوجها، ولا الأولاد لأهلهم، لأن هذه التبعية ما تزال موجودة بفعل الملكية الخاصة.

ويضحك الشيوعيون من ذعر البرجوازيين من إشاعة النساء، وذلك لأن شيوعية النساء في نظرهم تقريباً كانت دائمًا موجودة، والزواج البرجوازي هو إشاعة النساء المتزوجات، كما أنهم سيحولون إشاعة النساء المستترة بالرياء إلى شيوعية علنية رسمية، وأن البغاء الرسمي وغير الرسمي سيزول من المجتمع نتيجة لزوال الملكية الفردية(١).

مناقشة فكرة شيوعية النساء البدائية:

قبل الدخول في مناقشة هذه القضية لا بد أن أطرح السؤال التالي:

ما هو الدليل العلمي على أن الشيوعية المطلقة في علاقة الرجال بالنساء كانت هي النظام السائد في المجتمعات البشرية الأولى؟

إن العلوم البشرية الحالية لا تمدنا بدليل علمي قاطع عن أحوال المجتمعات البشرية الأولى، وكل ما تقدمه لنا عن تلك المجتمعات

---

(١) أنظر الباب الأول ـ الفصل الثامن.

ليس إلا مجرد ظنون وتخمينات، حتى أن إنجلز نفسه إعترف وهو يتحدث عن انقراض أسرة الجيل بقوله: «أن أسرة الجيل قد انقرضت، وحتى أخشن الشعوب التي يتحدث عنها التاريخ لا تمدنا بأمثلة على هذا الشكل يمكن التثبت منها»[٢].

وعلى الرغم من هذه الإعترافات الصريحة منهم التي تقول إن حوادث التاريخ في المراحل البشرية الأولى، لا يمكن التثبت منها، فإنهم يصدرون أحكاماً قطعية تفيد بأن البشرية كانت تعيش في حالة شيوعية جنسية كاملة ويزعمون أنهم علميون؟.

يقول الدكتور علي عبد الواحد وافي: «نظام الشيوعية المطلقة لم نعثر عليه في أي مجتمع من المجتمعات الانسانية سواءً في ذلك البدائي منها والمتحضر، فليس من بين المجتمعات الحاضرة والغابرة التي وقفنا على نظمها عن طريق ملاحظتها أو ملاحظة ما خلفته من آثار، أو عن طريق ما كتبه المؤرخون أو الرحالة، أو علماء الانتوجرافيا أو القانون... ليس من بين هذه المجتمعات أي مجتمع أخذ بنظام الشيوعية المطلقة في علاقة الرجال بالنساء، فكان جميع نسائه حقاً مشاعاً لجميع رجاله»[٣].

وما دام أن نظام الشيوعية المطلقة لم يقم عليه دليل علمي قاطع للآن، فلا بد من الالتزام بما قرره الله عز وجل من أن نظام الأسرة فطري وأن آدم عليه الصلاة والسلام وحواء كانا أول زوجين من البشر.

---

(٢) أصل الأسرة، ص ٥٧.
(٣) الأسرة والمجتمع، ص ٩٢، وانظر الاجتماع الديني، ص ١٠٦ ــ ١٠٧.

قال تعالى :

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾[4]

وقال تعالى :

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾

وقال تعالى :

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾[6]

أما الاستشهاد بأن النظام الأمي دليل على المشاعية الجنسية قديماً فهو استشهاد خاطيء، لأن النظام الأمي يتصل اتصالاً مباشراً بتحديد القرابة لا العلاقة الجنسية. ولقد لوحظ ذلك في العشائر الاسترالية التي تسير على النظام الأمي، فلم يشاهد الباحثون فيها أي أثر للشيوعية الجنسية، أو صعوبة تعيين الآباء[7].

وإن الدارس لتاريخ الزواج منذ القدم يجد أن المشاعية الجنسية لا نستطيع أن نطلقها على نظام يوجد به زواج، لأن الشعب لا يعد سائراً على نظام المشاعية المطلقة إلا إذا لم يكن فيه زواج، وكان نساؤه مشاعاً لجميع رجاله. أما الاستشهاد بإباحة العلاقات الجنسية بين غير المتزوجين من الرجال والنساء في بعض الشعوب البدائية، أو وجود

---

(٤) الروم: ٢١.

(٥) النحل: ٧٢.

(٦) البقرة: ٣٥.

(٧) أنظر الأسرة والمجتمع، ص ٩٥.

نظام من البغاء تقره الشعائر أو التقاليد، فإن هذا انحراف واستثناء لا يهز القاعدة الأصلية وهي احترام العلاقات الجنسية وتقييدها عن طريق الزواج[8].

وتكمن المغالطة في نظريتهم في قولهم إن الأسرة شهدت تبدلات عديدة، وتطورات عبر مختلف القرون تبعاً لتطور العامل الإقتصادي، ويردون سبب الظلم الاجتماعي الذي تعانيه المـرأة إلى الأسباب الإقتصادية.

إن العامل الإقتصادي له أثرٌ كبير على الأسرة، ولكنه ليس العامل الوحيد الفعال في حياة الانسان، فكل ما تصنعه الحياة المادية والظروف الإقتصادية هو أن تكيف الصورة التي يحيا بها الإنسان، ولكنها لا تنشيء جديداً في حياته، فهم يقولون: إن الأسرة كانت قائمةً في أول عهدها على أساس سيطرة الأم، وكان الميراث ينتقل من الرجل إلى إخوته وأخواته لا إلى أولاده، فلما سيطر الرجل على الناحية الاقتصادية وامتلك وسائل الإنتاج حول الأسرة إلى نظام سيـطرة الأب، حتى يتمكن من نقل ما يملكه إلى أولاده، والسؤال الذي يطرح هو: لماذا حدث ذلك؟ هل ملكية وسائل الإنتاج هي التي غيرت مشاعر الأب فجعلته يحب أولاده ويؤثرهم بالخير؟ هل كان الرجل لا يحب أبناءه من قبل، فلما سيطر إقتصادياً صار يحبهم؟ أم أن هذا الحب للأبناء سابق في وجوده على التطور الإقتصادي وكان ينتظر الفرصة المناسبة لتحقيق أهدافه؟ إن الإنسان يولد وفيه أصلان كبيران على الأقل، هما حب الحياة ثم الرغبة الجنسية حين يجيء موعدها المحدد، هاتان الرغبتان لا تنشآن من الحالة الإقتصادية ظالمةً كانت أو غير ظالمة.

---

(٨) أنظر نفس المصدر، ص ٩٨ ــ ٩٩.

والماديون، بعد أن أنكروا وجود الله، وأنكروا الرسالات السماوية وقالوا إن الدين مخترع بشري[٩]. يقولون إن الغيرة عاطفة نشأت متأخرة والمحرم إختراع ثمين إخترعه الانسان.

إن الغيرة على المرأة عاطفة متأصلة في نفس الرجل، وتأخر تحققها ليس دليلاً على أنها ليست فطرية في نفسه فقد تكون عقبات تحول بين الرجل وبين إظهار غيرته على المرأة.

أما قولهم إن المحرم اختراع ثمين اخترعه الإنسان فغير مسلم به، وذلك لأن مقتضى الإيمان بأن الله هو الخالق، يستلزم الإيمان بأن ما جاء من عنده هو الحق، وشاءت إرادة الله أن يكون نظام تحريم الزواج من المحرمين والمحرمات ساري المفعول في الوقت المناسب، والله سبحانه وتعالى لا يشرع إلا الحق والخير، ولا يشرع للناس إلا ما يناسب فطرهم وفيه مصلحتهم، ومن مصلحة الناس وجود المحارم، وإلا أصبحت الحياة الانسانية فوضى وأشبه بحياة الحيوان. فتحريم الزواج من المحارم شرع رباني، وليس اختراعاً إنسانياً، وقد بين القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة المحرمين من الرجال على النساء والمحرمات من النساء على الرجال.

والخرافة الكبرى في نظرية الماديين للأسرة هي أن المجتمع كله في نظرهم وبدون استثناء مجتمع بغي وفساد، وأن جميع الناس زناة وبغاة ـ والعياذ بالله ـ ولهذا يريدون هدم الأسرة هدماً كاملاً، وأن يجعلوا المرأة مشاعاً بين الجميع، كما تخيلوها في المرحلة البدائية الأولى. ويقولون إن سبب ظلم المرأة وخوفها على عرضها وشرفها ناشيء عن الوضع الاقتصادي، وبناءً على خرافة التطور فإن هذه القيم التي يزعمون أنها ناشئة عن الأوضاع الاقتصادية ستزول حين تتحرر المرأة

(٩) أنظر الفصل السابع من الباب الثاني.

اقتصادياً، فلن تصبح خاضعةً للرجل ولا ذليلةً للقمة العيش، ولن تخاف على شرفها وعرضها، لأنه لا يوجد شيء تخاف منه. ونظراً لأن الشيوعية تريد إفساد أخلاق الناس فإنهم يطمئنون المرأة ويقولون لها إن الدولة ستعتني بالأولاد الشرعيين وغير الشرعيين وفرص العمل متاحة لك، فما عليك من حرج في تقديم نفسك لمن تحبين من الرجال.

والخرافة الثانية في هذه النظرية هي أن ماركس يفترض أن إشاعة النساء البرولتاريات والبرجوازيات موجودة عند الجميع، وينسى أنه بهذه التهمة يطعن البرولتاريين ـ الذين جند نفسه لخدمتهم والدفاع عن حقوقهم ـ كما يطعن البرجوازيين. سواء بسواء، والمعروف لدى معظم شعوب الأرض أن القلة النادرة من نساء الأرض هي التي تحرر نفسها من الروابط الدينية والاجتماعية والأخلاقية، فمن الظلم الكبير لكل الطبقات ـ وبخاصة البرولتاريا ـ أن يتهمها ماركس بأنها تضع نساءها وبناتها تحت تصرف البرجوازيين ويكمن العيب في نظريتهم أيضاً حين يقول ماركس: «ليس الزواج البرجوازي في الحقيقة والواقع سوى إشاعة النساء المتزوجات»[١٠] وأقر التهمة الموجهة إليه حول إشاعة النساء، وقال «فقصارى ما يمكن أن يتهم به الشيوعيون إذن هو أنهم يريدون كما يزعم، الاستعاضة عن إشاعة النساء المستترة بالرياء والمغطاة بالمداجاة بإشاعة صريحة رسمية»[١١].

ولكن هل الحقيقة أن زواج جميع البرجوازيين إشاعة للنساء المتزوجات؟ وهل الخير للبشرية أن تمارس إشاعة النساء المستترة ـ إن كانت فعلاً موجودة وعامة كما يزعم الشيوعيون ـ علانية، وعلى مرأى

---

(١٠) البيان الشيوعي، ص ٦٢.

(١١) نفس المصدر، ص ٦٢.

من الناس وعلم منهم دون الالتفات إلى التعاليم الدينية والأخلاقية والاجتماعية؟ وهل حقيقة أن جميع البرولتاريين يضعـون نساءهم وبناتهم تحت تصرف البرجوازيين؟

وهل تحقق في الواقع زعمهم حين قالوا إن البغـاء سيزول ويختفي، حين تزول الملكية الفردية وتتحرر المرأة من سلطة الرجل؟ فالدول الشيوعية التي ألغت الملكية الفردية، وحررت المرأة من كل السلطات الدينية والأخلاقية والإجتماعية، ومنعت الزواج، ومارست شيوعية النساء العلنية هل زالت الشيوعية النسائية والبغاء منها كما قال ماركس: «ولكن من البديهي الواضح أن محو علاقات الإنتاج الحالية يؤدي بطبيعة الحال إلى محو إشاعة النساء التي تنتج منها، أي أن البغاء سواء أكان رسمياً أم غير رسمي يزول ويضمحل»، وهل تحقق هذا الالغاء في الواقع فعلاً؟

المرأة في حضارة الغرب الرأسمالي والشرق الشيوعي:

تأرجحت النظرة إلى المرأة بين اعتبارها كائناً منحطاً لا قيمة له، إلى اعتبارها شيطاناً رجيمًا يوسوس بالشر والخطيئة، إلى اعتبارها سيدة المجتمع والحاكمة في أقداره وأقدار حاكميه، إلى اعتبارها عاملة عليها أن تكافح وتشقى وتتعب لتعيش، ثم تحمل وتنجب وتربي.

كما تأرجحت العلاقة بين الجنسين باعتبارهـا علاقـة حيوان بحيوان، إلى اعتبارها دنساً ورجساً من عمل الشيطان، إلى اعتبارها علاقة حيوان بحيوان مرة أخرى. هذه هي النظرة الأوروبية القديمة للمرأة والعلاقة بين الجنسين.

أما النظرة إلى المرأة من زاوية أنها شطر النفس الإنسانية، وأنها

صانعة الجنس البشري، وأنها حارسة العش الذي تدرج فيه الطفولة. . . وأنها الأمينة على أنفس عناصر هذا الوجود وهو الإنسان، وأن عملها في إتقان هذا العنصر لا يعدله عملها في إتقان أي عنصر آخر أو أي جهاز. . . إلى آخر هذه الاعتبارات الفطرية الإنسانية. فهذه النظرة لم تعرفها الجاهلية الأوروبية القديمة.

وأما أن العلاقة بين الجنسين أداة لخدمة النوع الانساني، بإنشاء المحضن الأمين النظيف الواعي المتخصص لإنتاج صناعة البشر ـ التي هي أثمن وأغلى صناعة في هذه الأرض ـ واعتبار الواجب ـ لا اللذة ـ هو عماد هذه العلاقة، لتعلق مستقبل البشرية كله بها، وقيام التمدن البشري عليها. . . أما هذا الاعتبار فلم يعتدل به الميزان كذلك في مناهج الجاهلية الأوروبية القديمة والحديثة. وقد مضت الجاهلية الإغريقية القديمة على هذا النمط(١٢).

كانت المرأة في المجتمع اليوناني والروماني، محتقرة، جاهلة، لا تسهم في الحياة العامة بقليل ولا كثير، حتى سموها رجساً من عمل الشيطان، وقد كانت مسلوبة الحرية والكرامة والمكانة، وليس لها حق في الميراث، وقد كانت تشترى وتباع في الأسواق، وكان لزوجها الحق التام في التصرف بها كما يريد، يستطيع أن يزوجها لمن يريد، ويستطيع قتلها وبيعها والتصرف في أموالها.

يقول الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله: «وفي أوج حضارة اليونان تبدلت المرأة واختلطت بالرجال في الأندية والمجتمعات، فشاعت الفاحشة حتى أصبح الزنى أمراً غير منكر، وحتى غدت دور البغايا مراكز للسياسة والأدب، ثم أخذوا التماثيل العارية باسم

---

(١٢) انظر الاسلام ومشكلات الحضارة، ص ٦٩ ـ ٧٠.

الأدب والفن، ثم اعترفت ديانتهم بالعلاقة الآثمة بين الرجل والمرأة»[١٣].

أما في روما فقد شاعت الفاحشة وانتشرت بشكل كبير، حتى صار الزنا شيئاً عادياً، ونادى المفكرون الرومان بإطلاق الحرية للشباب، وعدم تقييدهم بأغلال الأخلاق الثقيلة، وأخيراً انهارت الحضارة اليونانية والرومانية وشاءت إرادة الله أن يرسل المسيح عليه السلام بدعوة التوحيد، ويخرج الناس في ذلك العصر من الظلمات إلى النور، ومن دنس الرذيلة إلى ذروة المجد والفضيلة، ولكن النصارى حرفوا كلام الله عن موضعه، فابتدعوا الرهبانية، وفرضت الكنيسة العزوبة على رجالها، ونظر النصارى إلى المرأة نظرة ازدراء واحتقار، وقالوا إن المرأة هي ينبوع المعاصي، وهي أصل السيئة والفجور، وهي للرجل باب من أبواب جهنم، من حيث هي مصدر تحريكه وحمله على الآثام، ومنها انبجست عيون المصائب الإنسانية جمعاء، فبحسبها ندامة وخجلاً أنها امرأة، وينبغي لها أن تستحي من جمالها. أما نظرتهم إلى العلاقة بين الرجل والمرأة فهي نجس في نفسها يجب أن تجتنب ـ ولو كانت عن طريق نكاح وعقد رسمي ـ حتى صارت حياة العزوبة مقياساً لسمو الأخلاق، وهي من إمارات التقوى والورع وذكاء الأخلاق. ونتيجة لهذه النظرة إلى المرأة انحطت مكانتها في المجتمع في كل ناحية من نواحي الحياة[١٤].

من تلك الإباحية اليونانية الرومانية المطلقة، نقلت الكنيسة الحمقاء أوروبا إلى الكبت القاتل، والنظرة السيئة للمرأة، والاشمئزاز من العلاقة بين الجنسين ولو كانت على وفق شرع الله وهديه.

---

(١٣) المرأة بين الفقه والقانون، ص ١٤.

(١٤) أنظر الحجاب، ص ٢٥ ــ ٢٨، المرأة بين الفقه والقانون، ص ٢٠ ــ ٢١.

ومضت الكنيسة في حماقتها، وزاد الطين بلة أن رجال الكنيسة ـ من رهبان وراهبات ـ كانوا يمارسون الجنس فيما بينهم بشكل محتقر ومهان وكانوا يفجرون ويعبثون داخل الأديرة والكنائس بشكل يثير الاشمئزاز وكانوا ينصحون الناس خارجها بالزهادة والورع والتقوى[15].

ويقول ليكي: «كانت الدنيا في ذلك الحين تتأرجح بين الرهبانية القصوى والفجور الأقصى، وإن المدن التي ظهر فيها أكبر الزهاد كانت أسبق المدن في الخلاعة والفجور ـ وقد اجتمع في هذا العصر الفجور والوهم اللذان هما عدوان لشرف الانسان وكرامته[16]».

ويمضي الكاتب في تصوير فكرة «الجنس» وما حولها من علاقات في ظل الرهبانية ـ فيقول: «وكانوا يفرون من ظل النساء ويتأثمون من قربهن والإجتماع بهن، وكانوا يعتقدون أن مصادفتهن في الطريق والتحدث إليهن ولو كن أمهات أو أزواجاً وشقيقات ـ تحبط أعمالهم وجهودهم الروحية»[17].

من هذه النظرة الجاهلية التي لم يأمر بها الدين الصحيح المنزل على عيسى عليه السلام، حدث رد فعل عنيف في الإتجاه الآخر، فالفساد المروع الذي حدث داخل الكنائس ذاتها، حاوياً لكل الفساد الجنسي ما بين الرهبان والراهبات، كان إحدى الصدمات التي خلخلت القيم الرهبانية من جذورها، وصرفت الناس عن الترفع الرهباني وانحدر الناس يبحثون عن الشهوات.

لقد قامت النهضة الأوروبية على أساس غير ديني، وذلك لأن

---

(١٥) أنظر التمهيد ـ الظروف التي مهدت لانتشار التفكير المادي في أوروبا.

(١٦) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص ١٨٨.

(١٧) نفس المصدر (١٨٦).

أيدي المصلحين الدينيين لم تتناول بالإصلاح عقائد الكنيسة ونظمها المخالفة لدين الله والفطرة الإنسانية، ولم يفسح المجال للدعوة الإسلامية أن تنتشر في أوساط الشعوب الأوروبية، ولم تستفد هذه الشعوب من تعاليم هذا الدين العظيم على الرغم من الاحتكاك بالمسلمين عن طريق الحروب الصليبية والشمال الإفريقي والأندلس.

وظهر في ذلك الوقت كتاب ومفكرون حاربوا الدين والقيم والأخلاق ودعوا إلى هدمها وإقتلاعها من جذورها، واحتلت قضية المرأة مكاناً بارزاً في القضايا التي طرحوها وبدأت المرأة تقع في الرذيلة من جديد، وتجد أنصاراً يبررون لها عملها السيء ويدافعون عنه، بل ويزينونه لها وللآخرين بعد أن يهيئوا لها المجال الذي يدفعها إلى الوقوع في المعصية.

وظهرت الثورة الصناعية، وأحدثت تفككاً في الأسرة، وانتقل الشباب من الريف إلى المدن، ولم يستطيعوا نتيجة لقلة الأجور من تكوين أسر، وأتاحت البغاء للشباب ويسرته لهم، وظهرت على المسرح قضية زيادة الأجور وإضراب العمال، وبرزت قضية تشغيل النساء أولاً، بأجر أقل من أجر الرجل، ثم بدأت تطالب بمساواة الرجل في كل شيء حتى في الفجور.

والمهم في الأمر أن يد اليهود كان لها أثر كبير في إفساد المرأة، فقدموا الثورة الصناعية بالأموال الربوية، وخططوا لإفساد العمال بحرمانهم من الأجور العادلة، وإتجهت المرأة للمعامل والمصانع تزاحم الرجال ولو كان على حساب دينها وعرضها ــ وإن كانت المرأة في بداية الأمر لا تقبل على العمل إلا للضرورة ــ وبالتدريج ألفت الإختلاط مع الرجال وزاحمتهم على العمل.

وقد أدى العلماء اليهود مهمتهم في تلويث البشرية، تنفيذاً

لمخططات اليهود الرامية إلى إفساد الأديان وأخلاق الناس المستمدة منها. تقول تعاليم الماسونية السرية: «إن الأمر الجوهري في إستمالة الناس إلى جماعتنا إنما هو إفراد الرجل عن عائلته وإفساد أخلاقه، فاجتذبوه واسحبوه وإذا ما فصلتموه عن إمرأته وأولاده وجسمتم له مشاق الواجبات الأهلية ومصاعب العيشة البيتية، رغبوا إليه العيشة الحرة وانفثوا في قلبه السأم من الديانة»[١٨].

وشجع اليهود الزواج المدني، ليبعدوا الناس عن تعاليم الدين، وأنشأوا محافل ماسونية مختلطة لإجتذاب المرأة وإلقاءها في مهاوي الفساد والرذيلة، وقد إستغل اليهود نظرية دارون في التطور واستخدموها سلاحاً فتاكاً يشهرونه في وجه الملتزمين بالدين والأخلاق في كل حين، يتهمون من يخالف التطور بالجمود والرجعية، إستخدموا هذه النظرية في إفساد المرأة، واستمد ماركس ودوركايم وفرويد نظرياتهم الإقتصادية والإجتماعية والنفسية منها.

وقد ركزت هذه النظريات على هدم الأديان والأخلاق، وقالت إن الأسرة ليست شيئاً من طبائع البشر، ولا أصلاً من الأصول الإنسانية، إنما هي شيء تحت تصرف المجتمع إذا شاء أبقاها وإذا شاء محاها من الوجود، دون أن يكون لأحد حق في الإعتراض، أو أن يقول إن المجتمع أخطأ أو إنحرف السبيل، فإذا ما أراد المجتمع الحديث أن يعود للفوضى الجنسية فلا حرج عليه. كما قالت إن الأسرة بوضعها الذي استقرت عليه فترة طويلة من التاريخ كانت ضرورة إقتصادية...

والرجل لأنه أصبح يملك وسائل الإنتاج هو الذي شرع أخلاقاً

(١٨) جذور البلاء، (ص ١٢٢)، نقلاً عن لويس شيخو الكراس الثالث، (ص ٢٩).

تحيط الأسرة بالقداسة الكاذبة. وجاء الدين الذي هو من اختراع البشر ـ عند ماركس وشيعته ـ فزاد في تلك القداسة الكاذبة التي تحبس المرأة في نطاق رجل واحد، ولا تبيح لها بالخروج على هذا النطاق.

ولكن الوضع قد تغير، وخرجت المرأة نهائياً من أسر الرجل لأنها صارت تعمل وأصبحت حرة طليقة، تهب نفسها لمن تشاء، لا لرجل معين كما كانت تفعل من قبل تحت ضغط الضرورة الإقتصادية. هكذا نفثت شياطين اليهود في روع المرأة وفي أفكار الناس، وأصبحت نظرياتهم في نظر المفتونين بها حقائق علمية لا تقبل النقاش.

لقد كانت الظروف الإقتصادية التي صنعها اليهود تجبر المرأة على العمل بعد ان تتخلى عن دينها وأخلاقها، وكانت النظريات التي تزعم أنها علمية، تبرر للمرأة عملها وتزينه لها، وتشجعها على المضي قدماً في سبيل الحصول على حقوقها المسلوبة، دون ان تلتفت إلى تعاليم الدين والأخلاق لأن الدين يكرس تبعية المرأة للرجل، ويجعلها خاضعة ذليلة لسلطانه الإقتصادي، قالوا لها إن الدين إخترعه الرجل لتمكين سلطته الإقتصادية فما حاجتك للدين بعد أن تتحرري إقتصادياً؟ وقالوا لها إن الأخلاق ليست فطرية وليست مستمدة من الدين، بل هي مستمدة من الوضع الإقتصادي والأديان والأخلاق، تتطور تبعاً لتطور العامل الإقتصادي، فلا تلتفتي إلى تعاليمها لأنها تحرمك من حريتك في ممارسة الجنس مع من تحبين وتحرمك من حقوقك المادية والمعنوية لمصلحة الرجل، واليوم لا يوجد شيء تخافين عليه فأنت حرة فيما تفعلين، ومستقلة عن الزوج مالياً، والدولة تكفل رعاية الأطفال الشرعيين وغير الشرعيين.

من هذه الحالة السيئة التي وصلت لها المرأة الأوروبية نتيجة لغياب شرع الله الصحيح عن التطبيق، ونتيجة لحكم الطاغوت، إستمد ماركس نظريته عن الأسرة، وقال إن الأسرة ليست نظاماً فطرياً، وإنما هي ناشئة عن الوضع الإقتصادي، ودعا إلى هدم ركني الأسرة، الزواج تربية الأطفال وإشاعة النساء.

وسارت عجلة الزمن مسرعة، وزاد إنتشار الفساد الخلقي في المجتمعات الأوروبية حتى وصلت إلى حالة يرثى لها نتيجة للإباحية المطلقة، وأصبحت نذير خطر يهدد كيان أوروبا وأميركا والدول الشيوعية مما جعل الكتاب[١٩] والمفكرين يحذرون مجتمعاتهم وشعوبهم من عاقبة الفساد الأخلاقي ونادوا بالعودة إلى الإلتزام بالأخلاق ومحاربة الترف والفجور.

فقد كتب جيمس رستون في النيويورك تايمز مؤخراً: «إن خطر الطاقة الجنسية قد يكون في نهاية الأمر أكبر من خطر الطاقة الذرية»[٢٠].

إن أوروبا اليوم بقسميها الشرقي والغربي تعاني من إرتفاع حوادث الطلاق، وإنحلال الأسرة وجرائم الزنا، وجرائم الإغتصاب، والشذوذ الجنسي بشكل رهيب.

ففي أميركا نجح اليهود بتدمير الأخلاق والقيم، فانحلت الأسرة بشكل مخيف وانتشرت الدعارة بشكل سافر. وقد كشفت مجلة (انسنورد) ــ حقيقة هذه الدائرة التابعة لوزارة الخارجية الأميركية، وقالت المجلة إن السياسة الأميركية الحديثة قد أدخلت إلى المفاهيم الدبلوماسية مفهوماً جديداً تخطى إستعمال الفتيات الجميلات في

(١٩) منهم ول ديورانت والكسيس كاريل، وانظر كتاب الإسلام والجنس، (ص ١٤ ــ ١٥).
(٢٠) نفس المصدر، (ص ١٠).

أعمال التجسس وسرقة الأسرار، وتعرف هذه المهمة في الأوساط السياسية الأميركية بـ (الترفيه عن كبار الدبلوماسيين الأجانب). واعترفت المجلة أن في دوائر وزارة الخارجية الأميركية ملفاً سرياً يحتوي على أسماء وعناوين أكثر من عشرين فتاة رائعة الجمال جرى إختيارهن بدقة وعناية للقيام بالترفيه عن كبار الزائرين السياسيين كل حسب حاجته وذوقه وشذوذه الجنسي . . . ويطلق لديهم في دوائر الخارجية لقب فريق «الحب». وذكرت المجلة أسماء زبائن كبار قدمت لهم فتيات من فريق الحب، منهم بعض الملوك والرؤساء والوزراء، مما لا يصح ان نفصح عنه»[٢١].

وفي السويد والدانمارك نجحت أفكار اليهود في تدريس الجنس وإطلاق الحرية للفتيان والفتيات في ممارسة نشاطهم الجنسي قبل الزواج، ولا تكاد توجد فتاة في هذين البلدين لا تعرف العلاقة الجنسية قبل الزواج، كما أن المسؤولين في الدانمارك يشجعون عمليات الإجهاض التي تزيد على عشرين ألف حالة في السنة.

أما في الدول الشيوعية فإن كثرة الطلاق وتفسخ الأسرة بات نذير خطر يهدد روسيا فاضطرت أخيراً إلى تقييد الطلاق وإعادة الزواج.

وكما فشلت النظرية في أهدافها الإقتصادية فشلت أيضاً في أهدافها الإجتماعية. فلقد أصدرت حكومة لينين قانون الأسرة سنة ١٩١٨ ومن نصوصه الإعتراف بالأبناء غير الشرعيين أي الذين أنجبوا سفاحاً ولهم نفس الحقوق التي لغيرهم وذلك في المادة ١٣٣ من هذا القانون، وهذا إعتراف صريح بالزنا وتصريح ضمني به. وأباح

---

(٢١) جذور البلاء، (ص ١٧٦) نقلاً عن الحوادث، بيروت، ١٩٦٢/٢/١٩م.

القانون السوفييتي الطلاق لكل من الزوجين على قدم المساواة. ودخلت المرأة في العمل على قدم المساواة مع الرجل دون مراعاة لوظيفتها في رعاية الأطفال. وكان الأطفال من سن ٣ ـ ١٠، يوضعون في رعاية الأطفال. ومن سن ٧ ـ ١٦ يستطيع الأطفال أن يلتحقوا بالمدن الدراسية. وكان نتيجة ضعف الأسرة وكثرة الرذائل الخلقية أن رغبت النساء عن الحمل فانتشر الإجهاض الذي كان يبيحه القانون وقل الإقبال على الزواج وكثرة الأولاد غير الشرعيين وإنتشر الطلاق. فاهتز المجتمع السوفييتي هزة عنيفة وقل عدد السكان مما أدى بالمشرع إلى التدخل عام ١٩٣٦ فحرَّم الإجهاض، وقيد الطلاق بقيود صعبة جعلته أصعب من الطلاق الكاثوليكي»[٢٢].

المرأة في الإسلام:

على الرغم من كل الوسائل التي استخدمتها المرأة الأوروبية في سبيل نيل حقوقها ـ من سفور وتبذل وقبول المساومة على عرضها، والمظاهرات والإضطرابات التي قامت بها، والكتابات التي ناصرتها في تحررها من الدين والأخلاق والقيم ـ ومساواتها بالرجل، على الرغم من كل ما فعلته فإنها لم تصل إلى حقوقها كاملة إلى يومنا هذا، لأن أوروبا ما زالت تنظر إليها نظرة الكنيسة المستمدة من الخطيئة الأصلية. بينما نجد الإسلام يعطي المرأة حقوقاً وإمتيازات ـ تتمنى المرأة الغربية أن تحصل على بعض منها ـ دون ان تلجأ إلى الوسائل التي لجأت إليها المرأة الأوروبية، وإليكم نماذج من الحقوق والواجبات التي أعطاها الإسلام للمرأة فضلاً من الله ورحمة بها.

---

(٢٢) انظر الشيوعية اليوم وغداً، (ص ١٣٦ ـ ١٣٨).

١ ــ إن المرأة كالرجل في الإنسانية سواء بسواء. قال الله تعالى:
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗ﴾ (٢٣)

٢ ــ دفع عنها اللعنة التي كان يلصقها بها رجال الديانات الأخرى، فلم يجعل عقوبة آدم بالخروج من الجنة منها وحدها، بل منهما معاً قال تعالى:
﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ (٢٤)

ويقول عن توبتهما:
﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣﴾ (٢٥)

ثم قرر مبدأ آخر يعفي المرأة من مسؤولية أمها حواء، وهو يشمل الرجل والمرأة. قال تعالى:
﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٤﴾ (٢٦)

٣ ــ قرر الإسلام أن المرأة أهل للتدين والعبادة ودخول الجنة إن أحسنت ومعاقبتها إن أساءت قال تعالى:

---

(٢٣) النساء: ١.
(٢٤) البقرة: ٣٦.
(٢٥) الأعراف: ٢٠.
(٢٦) البقرة: ١٣٤.

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾[27]

٤ ـ حارب التشاؤم بها والحزن لولادتها كما كان شأن العرب قبل الإسلام، وشأن كثير من الأمم ومنهم بعض الغربيين. قال تعالى:

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾[28]

كما حرم وأدها وقتلها، وشنع على ذلك أشد تشنيع قال تعالى:

﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾[29]

وقال تعالى:

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[30]

٥ ـ أمر بإكرامها أماً، وبنتاً، وزوجةً وأختاً، وأمر بتعليمها وتأديبها.

٦ ـ أعطاها حق الإرث أماً وبنتاً وزوجة، كما أوجب لها النفقة على الزوج ولو كانت موسرة.

٧ ـ حث الإسلام على الزواج المبكر، وطلب من أولياء أمور النساء

---

(٢٧) آل عمران: ١٩٥.
(٢٨) النحل: ٥٨ ـ ٥٩.
(٢٩) التكوير: ٨ ـ ٩.
(٣٠) الأنعام: ١٤٠.

تيسير المهور، كما منع ولي المرأة أن يجبرها على الزواج بمن لا تريد وجعل موافقتها شرط لصحة عقد الزواج.

٨ ـ نظم قضية الطلاق وجعله ثلاثاً، وحد من التعدد غير المقيد وجعله أربعاً.

٩ ـ جعلها قبل البلوغ تحت ولاية أهلها، وجعل ولا يتهم عليها ولاية تأديب ورعاية وعناية بشؤونها وتنمية لأموالها، لا ولاية تملك واستبداد. وجعلها بعد البلوغ كاملة الأهلية للإلتزامات المالية كالرجل سواء بسواء. ومن تتبع أحكام الفقه الإسلامي لم يجد فرقاً بين أهلية الرجل وأهلية المرأة في المعاملات كالبيوع والشراء، والرهن والكفالة، والسلم والإجارة، والوكالة والشفعة والخيارات، والإقالة، والشركة والصلح والمضاربة والوديعة والهبة والوقف والعتق وغيرها.

من هذا الإستعراض السريع لموقف الإسلام من المرأة، ومبادئه العامة التي أعلنت في كل ما يتعلق بحقوقها وكرامتها نستطيع ان نستخلص الحقائق التالية:

١ ـ إن موقف الإسلام من المرأة كان ثورة على المعتقدات والآراء السائدة في عصره وقبله والتي كانت تشك في إنسانيتها.

٢ ـ إنها ثورة على المعتقدات التي تحرم المرأة من تلقي الدين ودخول الجنة مع الصالحين.

٣ ـ إنه ثورة على المعتقدات والتقاليد السائدة من عدم إحترامها الإحترام الحقيقي اللائق بكرامتها الإنسانية.

٤ ـ إنه كان تقدماً فكرياً إنسانياً قبل الحضارة الأوروبية بإثني عشر قرناً على الأقل حين إعترف بأهلية المرأة كاملة غير منقوصة.

وحتى نرى الفارق الكبير بين الإسلام والحضارة الأوروبية يجب ان نبين ان أسباب الحجر في التشريع الإسلامي هي الصغر والجنون، بينما هي في القانون الفرنسي حتى عام **١٩٣٨** ثلاثة: الصغر والجنون والأنوثة. ولما عدل القانون الفرنسي في عام **١٩٣٨** لرفع القيود عن أهلية المرأة بقيت أهليتها مقيدة بقيود قانونية ناشئة عن نظام الأموال المشتركة بين الزوجين. فمن هذه القيود عدم ممارسة المرأة الفرنسية إحدى المهن بدون إذن زوجها. كما أنها لا تستطيع إذا كانت متزوجة أن تتصرف بأموالها الخاصة إلا بإجازة الزوج، وإذن المحكمة وحده لا يكفي[٣١].

٥ ــ إن التشريع الإسلامي المنزل من عند الله كان إنساني النزعة، حين قرر حقوق المرأة دون ثورة النساء ومؤتمراتهن، بينما لم تحصل المرأة الأوروبية على بعض من حقوقها إلا بعد مظاهرات وإضرابات وثورات دموية.

كما كان التشريع الإسلامي نبيل الغاية والهدف حين أعطاها حقوقها من غير تملق لها وإستغلال لأنوثتها، كما حدث في الحضارتين: اليونانية والرومانية والحضارة الأوروبية الحديثة التي استغلت المرأة أبشع إستغلال للإستمتاع بأنوثتها، وامتهان كرامتها.

٦ ــ وعلى الرغم من كل الإمتيازات التي أعطاها الإسلام للمرأة فإنه راعى في كل ما رغب إليها من عمل وما وجهها إليه من سلوك، أن يكون ذلك ملائماً لفطرتها وطبيعتها، وأن لا يرهقها ما لا تستطيع عليه صبراً. فلم يفرض عليها ان تعمل لتأكل كما هو عند الشيوعيين، بل أوجب لها النفقة، ولم يمنعها ان تمارس

---

(٣١) أنظر المرأة بين الفقه والقانون، (ص٤٣) نقلاً عن الزواج لزهدي يكن، (ص ٢٢٤).

البيع والشراء وشتى أنواع المعاملات الأخرى. لكنه رغب إليها أن لا تباشر هذه إلا عند الضرورة، وأفهمها أن الخير لها ولدينها ولبيتها وأمتها أن تتفرغ لأداء رسالتها في تربية الجيل وهي أسمى رسالة لها وأدل على إنسانيتها وكرامتها من مزاولة العمل خارج البيت.

إن الأسلام لم يمنع المرأة أهلية العمل خارج البيت، ولا حرضها على هجر البيت وزين لها مزاحمة الرجل وترك شؤون الأسرة كما هو شأن الحضارة الحديثة. إن الإسلام كان في هذا الموقف جد حكيم وكيف لا يكون ذلك وهو تشريع رب العالمين.

٧ ــ وأخيراً يحق للمرأة السلمة أن تفاخر جميع نساء العالم بدينها وتشريعه الذي سبق جميع شرائع الأمم السابقة واللاحقة بتقرير حقوقها، والإعتراف بكرامتها إعترافاً إنسانياً نبيلاً لا يشوبه غرض ولا هوى، ولا يدفع إليه قسر ولا ضرورة[٣٢].

---

(٣٢) انظر المرأة بين الفقه والقانون، (ص ٢٥ ــ ٤٥)، أجنحة المكر الثلاثة، (ص ٤٩٦ ــ ٥٢٨)، شبهات حول الإسلام ــ فصل الإسلام والمرأة، والإسلام وبناء المجتمع (ص ١٨٦ ــ ٢٠١).

الباب الثالث

التصوّر الإسْلامي

الفصل الأول: سنن الله في الكون والحياة والانسان.
الفصل الثاني: تفسير تاريخ الأمم بمقتضى التصور الاسلامي.

الفصل الأول

سنن الله في الكون والحياة والإنسان

التصور الاسلامي للألوهية والحاكمية:

بعد أن رأينا كيف أن الشيوعية والجاهليات الحديثة ركزت على إفساد البشرية حيث انحرفت في تصورها لله وللكون والحياة والانسان. ومن انحرافها في هذه التصورات انحرفت في سلوكها كله، في السياسة والاقتصاد، والاجتماع والدين والأخلاق وفي كل شيء. أبين كيف تستقيم هذه الأمور كلها حين يستقيم التصور في فكر الانسان وضميره. إن التصور هو الأصل الذي ينشأ عنه السلوك، فينحرف بانحرافه أو يستقيم باستقامته. والتصور الاسلامي هو المقياس الأعلى الذي أجد فيه الدليل الكافي على هذه الحقيقة.

لقد استقام هذا التصور مرة في حياة البشرية، على يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، والأمة المسلمة التي رباها على عينه، والتي وصفها الله سبحانه وتعالى بقوله:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[1]

---

(١) ال عمران ١١٠.

وعندئذٍ استقامت شؤون الحياة كلها وقامت أكبر حركة بعث في التاريخ، وانطلقت الحركة الاسلامية المهتدية بمنهج الله تنشر الهدي في كل الأرض، وعلى الرغم مما أصاب المسلمين من انحراف تدريجي عن منهج الله، فقد ظلوا قبساً منيراً في كل الأرض، يعلمون الناس ويهدونهم إلى سواء السبيل ويخرجونهم من ظلمات الكفر والشرك إلى نور الايمان.

ولكن من رحمة الله بعباده أن الاسلام ليس مقيداً بأتباعه، وهذا هو الفارق بين الاسلام والأنظمة الجاهلية الرأسمالية والشيوعية، إن الانحراف في صميم هذه الأنظمة لأنها من صنع البشر فمهما عدلوا وبدلوا في النظام فإن الظلم سيبقى ولن يزول إلا بزوال النظام كله، بخلاف الاسلام إذ أن الانحراف ليس في طبيعته لأنه منزل من عند الله الذي لا يشرع لأحد على حساب الآخرين ـ بل إن الانحراف الذي أصاب المسلمين ناشيء عن انحراف المسلمين أنفسهم وليس عن طبيعة النظام الاسلامي. بل إن أمر الأفراد المسلمين يستقيم حين يعودون إلى تعاليم دينهم العظيمة.

فالطغيان الذي تمارسه الأنظمة الكافرة الشيوعية والرأسمالية ـ باسم الحرية الفردية تارة، وباسم المصلحة الجماعية تارةً أخرى لن يزول إلا بزوالها، بينما الطغيان الذي يمارسه الأفراد المسلمون لا يزول إلا بعودتهم إلى تحكيم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم في حياتهم كلها، ولقد كان الانحراف الأكبر الذي أنشأ الجاهليات الحديثة كلها. وترتب عليه ما ترتب من فساد في التصور والسلوك، وشقاء حياة الناس وقلقهم وحيرتهم واضطرابهم. هو انحرافهم في تصور حقيقة الإله سبحانه وتعالى، ثم الانحراف عن عبادته المتمثلة في اتباع منهجه في الحياة.

ولقد ركز القرآن الكريم تركيزاً كبيراً في الفترة الأولى من الدعوة الاسلامية على قضية واحدة أصيلة، هي قضية توحيد الله في ذاته وأسمائه وصفاته، وتوحيده بالعبادة والطاعة والحاكمية.

إن قضية العقيدة في الله هي محور ارتكاز البشرية كلها، لا يقوم لها بناء ولا تستقيم لها حياة إلا إذا استقامت هذه القضية في نفوس البشر، ورسخت في قلوبهم وصارت هي الأساس الذي يقوم عليه كل البناء. لما نشأ المجتمع المسلم ودولته في المدينة، نزل القرآن بالتشريع والتوجيه في العبادات والمعاملات، والفروض المختلفة التي فرضت على الأمة الاسلامية لتقوم برسالتها الكبرى للبشرية. ومع ذلك فإن قضية العقيدة لم تتخل عن دورها لتفسح المجال لهذه التشريعات والتوجيهات، بل ظلت العقيدة ملازمة لها حتى كملت الشريعة، وظلت هي الأساس الذي تقام عليه التشريعات والتوجيهات في الشعائر والمعاملات[٢].

فالله سبحانه وتعالى هو الخالق والمدبر والرازق، وهو المالك والمسيطر. والله هو المعبود لا شريك له في شيء من الملك أو الرزق أو الخلق والتدبير.

وما دام هو الخالق، والمالك والمدبر والمسيطر والرزاق وحده، فهو المستحق أن يتجه له الخلق بالعبودية.

فالانسان مخلوق من مخلوقات الله تعالى، وهو الذي منحه القوة والتمكين، وسخر له ما في السموات والأرض فضلاً منه، فلا يستطيع أن يضع للكون قوانين يسير عليها ولا يستطيع أن يغير شيئاً من نواميس الحياة لو أراد، ولا يستطيع أن يمنح المادة خواص غير

---

(٢) أنظر في ظلال القرآن تفسير السور التالية المائدة، والأنعام، والأعراف، ج ٦، ٧، ٨.

خواصها، أو أن ينشئها على غير قوانينها التي خلقها الله بها. لهذا لا يصح أن يتجه الناس إليه بالعبادة من دون الله، أو معبوداً مع الله. والحتميات، أليست هي قدر الله في الكون والانسان والأشياء، وهي حتمية بما فيها من قدر الله، وليست حتمية في ذاتها إلا أن يشاء الله، فلا تصلح أن تكون معبوداً من دون الله، أو معبوداً مع الله[٣].

وعلى هذا فإنه لا يوجد شيء يمكن أن يتوجه إليه الخلق بالعبادة إلا الله سبحانه وتعالى. ومن مقتضيات عبادة الله أن تكون الحاكمية له وحده، وأن يأخذ الناس تشريعهم عنه سبحانه وتعالى. ولقد ضلت الجاهليات الحديثة ضلالتها الكبرى حين حرفت في العقيدة وفصلت الشريعة عن العقيدة. ثم ترتب على هذا التحريف ما نراه من طغيان في حياة الناس. إن الناس حين سمحوا للطاغوت أن يشرع لهم من دون الله صارت الأمور إلى عبودية من الناس وذلة، وتجبر لحكم الطاغوت وغياب شرع الله عن التطبيق.

والاسلام إذ يعطي التصور الصحيح للألوهية وللحاكمية. يبسط هذا التصور فيشمل الكون والحياة والانسان.

سنن الله في الكون والحياة وخصائصها:

الكون في نظر الاسلام ليس إلهاً وليس مخلوقاً بلا غاية ولا تدبير، إنه لا يعبد في ذاته، ولا يستمد من ذاته حتمية حتى لنفسه، وإنما يستمد حتميات وجوده من الله سبحانه وتعالى. لأن الله هو الذي خلقه، ومن ثم فهو ذاته عابد لله، يسير بمقتضى سنته ويهتدي بهداه[٤]

---

(٣) أنظر جاهلية القرن العشرين، ١٨٦ — ١٨٧.

(٤) أنظر نفس المصدر، ص ١٨٩.

قال تعالى:

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾[5]

والكون يتميز بالتنوع والاختلاف ولو ترك دون ضابط لتنافر وانحل، فهي سنة الله التي تمسكه في نظام.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾[6]

وهذا الكون من الذرة البسيطة إلى المجرة الضخمة يتحرك فيتخذ أشكالاً دائمة التغير والتحور والتطور. فالذرة لا تهدأ والنجوم تتقد والخلايا تتكون وتهدم، لا يعرف الكون السكون أبداً. هذه السنة هي قانون الله الذي يسلم له الكون طوعاً وكرهاً ويذعن له كل شيء وكل حي رضي أم لم يرض، من أكبر سيارة في السماء إلى أصغر ذرة في الانسان قال تعالى:

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾[7]

---

(٥) فصلت ١١.

(٦) فاطر ٤١.

(٧) آل عمران ٨٣.

إن نواميس الكون هي سنة الوجود المادي وهي كلها الحق من عند الله قال تعالى:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ۝٥﴾[8]

فالحق هو قانون الكون إذا سار عليه انتظم، وإذا خرج عنه تفتت وانهار. قال تعالى:

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ﴾[9]

قال تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٩﴾[10]

والحياة ليست عبثاً، فهي المقدمة التي تترتب عليها النتيجة في الآخرة. قال تعالى:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥﴾[11]

---

(٨) الزمر ٥.

(٩) المؤمنون ٧١.

(١٠) الدخان ٣٨ ـ ٣٩.

(١١) المؤمنون ١١٥.

وقال تعالى:

﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ (١٢)

فالحياة الدنيا هي المكان والزمان المخصصان للابتلاء، والحياة الأخرى هي المكان والزمان المخصصان للجزاء قال تعالى:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ﴾ (١٣)

وقال تعالى:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ﴾ (١٤)

إن الانسان حين يعرف أن الحياة الدنيا ليست نهاية الأحداث، تعتدل حياته، ويستقيم أمره، فلا يتلهف اللهفة المجنونة على متاع الأرض، ولا يدركه اليأس القاتل حين يرى مظالم البشر وانحرافاتهم، التي لا حيلة له فيها مهما حاول وصارع الباطل واستيأس في الصراع، ثم يحس أنها النهاية الأخيرة وليس وراءها تصحيح للأوضاع الفاسدة، ولا رد للمظالم الجائرة، ولا يفسد قلبه ولا إيمانه بالحق والعدل الأزليين، فلا ينحرف في سلوكه وأخلاقه فلا يظلم ولا يقبل الظلم، ولا يبرر الوسيلة بالغاية، ويخشى الله ويتقيه ما دام يعلم أنه ملاقيه، فيعمل حساب هذا اللقاء بالتطهر والنظافة من الفساد.

لذلك ركز الاسلام تركيزاً شديداً على قلب الانسان بذكر الآخرة وتصويرها، وتجسيم مشاهدها، وإبرازها ووصلها بالحياة

---

(١٢) العنكبوت ٦٤.

(١٣) الملك ٢.

(١٤) آل عمران ١٨٥

الدنيا، وتوحيد الطريق من الدنيا إلى الآخرة وترتيب هذه على تلك، لأن هذا هو المفتاح الذي يضبط الوتر على ضبطه الصحيح فلا تصدر عنه النغمة النشاز[١٥].

يقول الأستاذ محمد المبارك: «لقد كان للنظرة الاسلامية إلى الحياة والكون وأثرها العميق الفعال في تاريخ الحضارة واتجاه مسيرها في جميع ميادين الحياة. ولقد نقل الاسلام العالم من النظرة الخرافية والميتافيزيقية والمجزأة إلى النظرة الشاملة الجامعة الموضوعية والتجريبية المنتظمة في سنن وقوانين، وفتح آفاق التفكير العلمي فسار البحث العلمي في طريق جديد، وانتقلت العلوم الطبيعية من المرحلة العقلية النظرية عن اليونان إلى المرحلة التجريبية منذ القرن الثاني للهجرة، وانتهت الكيمياء والفيزياء والفلك إلى مرحلة التجربة واكتشاف القوانين»[١٦].

الانسان في التصور الاسلامي:

ثم يجيء دور الانسان، والاسلام يقدمه في أروع صورة وأبدعها، إن الإنسان في الإسلام ليس إلهاً، وما هو كذلك بالحيوان، ولا بالشيطان، وإنما هو إنسان خلقه الله سبحانه وتعالى ليكون خليفة في الأرض، وهو مخلوق فريد متميز[١٧]، كريم رفيع القدر. في حين أن الجاهليات الحديثة تخبطت تخبطات شتى، فجعلت من الانسان إلهاً، ثم جعلت منه في ذات الوقت حيواناً (بالمفهوم الداروني) ثم جعلته في النهاية عبداً سلبياً خانعاً لا حول له ولا طول بإزاء آلهة المادة والاقتصاد والحتميات (بالمفهوم الشيوعي).

---

(١٥) نفس المصدر، ص ١٩١ ــ ١٩٢.

(١٦) نظرة الاسلام العامة إلى الوجود وأثرها في الحضارة، ص ٢١.

(١٧) أنظر الباب الثاني الفصل الرابع والخامس.

إن الاسلام يضع الانسان في موضعه الحق الذي لا ينحرف به ولا يتخبط تخبط الجاهليات الحديثة. قال تعالى:

﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾ (١٨).

إنه لمخلوق عجيب، إنه من أصل ترابي، ثم أصبح يتناسل كسائر أنواع الحيوان ثم كان خلقاً سوياً، وفي آخر هذه المراحل ونهايتها وحين نضج وكمل جعلت فيه نفخة من روح الله وبلغ الأمر بتكريمه أن تسجد الملائكة له قال تعالى:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٧٢﴾ (١٩)

إن الاسلام لم يمرغ الانسان في الوحل كما مرغته الداروينية، نعم لقد أشار إلى حقارة منشئه كما أشارت الداروينية. ولكنه حين يدلي بهذه الحقائق القاطعة لا يوحي بحقارة الانسان، أو ضآلة قدره أو ضآلة دوره في الحياة كما أوحت الداروينية إلى أتباعها الذين صاغوا كل التفسيرات الحيوانية السيئة للانسان بوحي من اليهود والقوى الهدامة. بل يردف هذه الحقائق بالحقائق الأخرى المكملة لها، حقائق التفضيل وحسن التصوير والاختيار للأمانة الكبرى، أمانة الخلافة في الأرض، فيتحقق بهذا التوجيه أمران في وقتٍ واحد، عظمة الخالق ورفعة الانسان، وتعمل هاتان الحقيقتان لربط الكائن الانساني بالله، ورفعه

---

(١٨) السجدة، ٧ ـ ٩.

(١٩) سورة ص ٧١ ـ ٧٢.

إلى المستوى اللائق بالخلافة، وصيانته في ذات الوقت من الغرور المردي والتردي الذميم.

والانسان في تصوير الاسلام هو ذلك الكائن المزدوج الطبيعة، المكون قبضة من طين ونفخة من روح الله ممتزجتين مترابطتين غير منفصلتين. فلا هو قبضة من طين خالصة فيهبط إلى مستوى الجماد أو الحيوان، ولا نفخة روح خالصة فيؤله أو يتأله، إنما هو مزاج من الطين ونفخة من روح الله يكونان هذا الكيان المتفرد في الخلق المتيمز عن كل الخلق[٢٠]. قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾[٢١]

هذا الانسان المتفرد قادر على الارتفاع قدرته على الهبوط. قال تعالى:

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾[٢٢]

وفي هذه الخاصية يكمن الابتلاء والجزاء، فبمقتضى الهبوط والرفعة، والارادة الممنوحة له ليختار بها في كل لحظة وفي كل حالة بين الهبوط والرفعة، بمقتضى ذلك يترك في الأرض ليعمل ثم يجازى على عمله يوم القيامة. إن أحسن فله الجنة، وإن أساء فله النار.

---

(٢٠) أنظر جاهلية القرن العشرين ١٩٢ ـ ١٩٣.

(٢١) الاسراء ٧٠.

(٢٢) الشمس ٧ ـ ١٠.

والانسان في نظر الاسلام كيان موهوب، وهبه الله أدوات الخلافة كلها، قال تعالى :

وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا (٢٣)

وبهذه المواهب من سمع وبصر وفؤاد وعلم من الله يقوم بعمارة الأرض، ويكلف بالخلافة وحمل الأمانة قال تعالى :

إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ (٢٤)

ومن مقتضى ذلك كله أن يكون عنصراً فعالاً في الأرض، لا كمًا مهملاً تتحكم فيه «الحتميات» وهو أمامها خاضع ذليل، إنما يعمل قدر الله في الأرض خلال حركة الانسان وعمله قال تعالى:

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ (٢٥)

وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ (٢٦)

ثم يسخر الله سبحانه وتعالى الكون للإنسان.

وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ (٢٧)

وحين يرفع التصور الاسلامي الانسان إلى هذا المدى الهائل الرفيع فإنه لا يجعله خصمًا لله يصارعه ويبغضه، إنما يحبه ويخشاه.

---

(٢٣) البقرة، ٣١.

(٢٤) الأحزاب، ٧٢.

(٢٥) الرعد، ١١.

(٢٦) البقرة، ٢٥١.

(٢٧) الجاثية، ١٣.

والرد الجميل على هذه العطايا والمواهب هو شكر الله، وليس البغضاء والصراع كما صورته الجاهلية اليونانية وألقت ظلاله على الجاهلية المعاصرة.

يقول الأستاذ محمد قطب «والانسان في نظر الاسلام ــ كما هو في حقيقة فطرته ــ كائن مترابط، فلا انفصال بين عنصر الطين وعنصر الروح فيه، ليس جسداً خالصاً ولا روحاً خالصاً. ولا انفصال بين شعوره وسلوكه، ولا عمله وأخلاقه، ولا مثله وواقعه ولا عقيدته وشريعته، ولا دنياه وآخرته، كلها مزاج واحد وحسبة واحدة. جسمه وروحه وحدة جسمية وروحية في آن، وشعوره وسلوكه وحدة شعورية سلوكية معاً في ذات الوقت، وعمله وأخلاقه وحدة عملية خلقية بلا انفصال، وعقيدته وشريعته شيء واحد هو «الدين». ودنياه وآخرته جزآن متكاملان من حياة متصلة ليس في داخلها انقطاع.

«وهو كائن متوازن ــ أو ينبغي أن يتوازن. لا الجسد يغلب فيه على الروح، لا الواقع على الخيال. لا نزعته السلبية على نزعته الايجابية... لا دنياه على آخرته. لا ثقلته نحو الأرض ولا رفرفته للسماء. ومن هذا الكيان المتوازن يتوازن الفرد والمجتمع والتصور والسلوك... حين يستقيم هذا التصور الواضح المضيء في ضمير الانسان. تستقيم حياته كلها على الأرض. ولقد استقام هذا التصور في نفس محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، والأمة التي رباها على عينه، فحدثت معجزات في الأرض لا مثيل لها في التاريخ. تجمعت القبائل الجاهلية فصارت أمة مسلمة... وتركت النفوس الجاهلية ألفها وعادتها، وعرفها وسلوكها ولذائذها المنحرفة، وشهواتها، وأساطيرها وخرافاتها... على المولد الجديد «الإنسان» كله... المولد الحقيقي في ظل الله. لو قامت هذه النفوس المسلمة تنشىء واقعها

إنشاء على نمط غير مسبوق ولا ملحوق، نمط ليس من وحي هذه البيئة، ولا من عاداتها، ولا من عرفها، ولا من سلوكها الجاهلي، وليس من وحي «ضرورة من كل ضرورات الأرض... قامت تحرر «الانسان» من الطاغوت لغير سبب بيئي ولا دنيوي يدفعها إلى هذا التحرير»[٢٨].

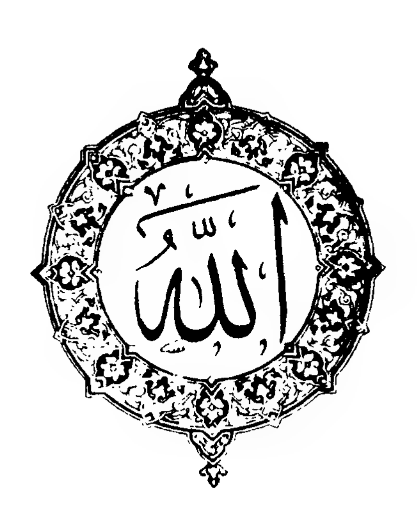
وإلى هنا ينتهي طوافي مع الاسلام في استعراض الكون والحياة والانسان استعراضاً سريعاً. لأن هذا الموضوع بحاجة إلى مؤلف كامل يبحث فيه هذه القضايا المهمة. وقد شق الطريق في هذا المجال الشهيد سيد قطب في كتابه خصائص التصور الاسلامي ومقوماته. والأستاذ محمد المبارك.

وأختم هذا الفصل بنص للأستاذ المبارك حول هذا الموضوع: «والاسلام في نظرته إلى هذا العالم شارك الماديين في نظرتهم إلى الكون وحوادثه وسننه وقوانينه وشاركهم كذلك في أن السمع والبصر والتفكير والعقل هي أدوات الوصول إلى معرفة حقائقه، ولذلك طالما كرر القرآن الأمر بالنظر والتفكر والتدبر، ونسب إلى المتأملين الألباب والعقل. ولكن الاسلام إذ يمر بنا في آفاق النفس الانسانية، لا يقف بنا في المسير حيث تقف النظرة المادية، بل يستمر حتى ينتقل من الكون إلى موجده، ومن الانسان إلى خالقه، ومن الحياة الانسانية إلى ما وراءها»[٢٩].

---

(٢٨) نفس المصدر، ص ١٩٥ ــ ١٩٦.

(٢٩) نظرة الاسلام العامة إلى الوجود، ص ١٦.



الفصل الثاني

تفسير تاريخ الأمم بمقتضى التصور الإسلامي

الحضارة في التصور الإسلامي:

ليست الحضارة في التصور الإسلامي هي التقدم المادي والعمراني، لأن الله سبحانه وتعالى يعطي الدنيا لمن يحب ومن لا يحب، وقد تنتفخ الجاهلية بالترف والرفاهية والفساد، وقد يوجد معها نماذج محدودة من الأخلاق، لأن فطرة الإنسان مجبولة على الخير والشر، ولا يمكن للجاهلية أن تستنفذ جميع الخير ولكن العاقبة إلى زوال، لأن الأصول التي بنيت عليها الحضارة الجاهلية ينخر فيها الانحلال فلابد أن تنهار، وهي نتيجة قد لا تظهر في أول الطريق ولكنها تظهر في نهايته.

والإسلام لا يحتقر المادة ولا ينبذها لأنها جزء من كيان الإنسان وجزء من بنية الوجود وهي موضوع الابتلاء وحقل الخلافة. قال تعالى:

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ (١).

---

(١) الأعراف ٣٢.

فالإسلام منشيء الإبداع المادي ولكن في إطار القيم الإيمانية، فإن إنفصل الإبداع المادي عن القيم الإيمانية كانت النكسة والإنهيار، والفارق الكبير بين المقياس الاسلامي، والمقياس الأوروبي، إن المدنية الأوروبية الحديثة مقياسها مادي لا غير، فالتفوق المادي هو الذي يسجل درجة أي دولة في التقدم والتأخر، لكن هذا المقياس يتباين من وجهة النظر الرأسمالية عنه من وجهة النظر الشيوعية وإن اتفقتا في النوع.

فالرأسمالية مقياس تقدمها أو تأخرها هو الدخل السنوي بالنسبة للفرد. والدول التي يزيد دخول أفرادها فيها عن مبلغ معين من الدولارات في السنة تعتبر دولاً متقدمة والتي تقل عن ذلك تعتبر دولاً متخلفة. والشيوعية مقياس تقدمها أو تأخرها مرتبط بالمذهب أي مرتبط بصورة قوى وعلاقات الإنتاج. ومراحل التطور وضعها الشيوعيون على درجات تبدأ بالشيوعية البدائية حيث الصيد، إلى مرحلة الرق والإقطاع حيث الزراعة، إلى الرأسمالية حيث الصناعة، وأخيراً يصل إلى أعلى مرحلة في الاشتراكية الماركسية، وعلى حسب وضع أي دولة في هذه الأطوار يكون مدى تقدمها أو انحطاطها وتأخرها.

إلا أن مقياس التصور الإسلامي غير هذا، إنه تقوى الله وطاعته، والنمو المادي في إطار القاعدة الايمانية، إنه خضوع البشر المستخلفين في الأرض لله خضوعاً كاملاً يشمل الروح والمادة والفرد والمجتمع والدولة والعالم أجمع، وما دون ذلك فهو الجاهلية، وعلى هذا الأساس فالحضارة ليس معناها النمو المادي فحسب، ولا النمو الروحي فحسب، فلا هي مادية ولا رهبانية، إنها الإسلام لله والإذعان لأوامره، فتعمر الأرض بالأسلوب الذي أمر الله به.

والتصور الإسلامي للحضارة الإنسانية وتاريخها ينظر إلى الحياة الإنسانية على أنها خطان متوازيان، خط مشرق يمثل البشرية حين تهتدي إلى الله وتلتزم بشرعه وتسلك طريق الأنبياء الذين يتعاقبون لردها إلى الطريق المستقيم، وخط آخر مظلم يمثل حزب الشيطان وفترات الضلال والفساد الذي طرأ على الناس بعد أن كانوا أمة واحدة على الايمان بالله الواحد القهار.

يقول توينبي «والتاريخ الإنساني مؤلف من سلسلة من المواقف يتعين على الإنسان أن يختار بين المضي في سبيل الله، أو الإنحراف عن هذا السبيل، وقد لوحظ أن حرية الإنسان تبلغ أقصاها حين يتم الاتصال بينه وبين الله ، وتهوي إلى الحضيض حين ينأى الإنسان عن تعاليم الله وهديه»[٢].

الهدف من دراسة تاريخ الأمم السابقة:

سرد القرآن الكريم نماذج مختلفة لحوادث تاريخية تحدثنا عن مواقف الأفراد والجماعات إزاء عدد من الأحداث والقيم التاريخية يمتد بعضها إلى خلق آدم عليه السلام، وردود الفعل التي أثارتها هذه الخطوة الإلهية الحاسمة، ويصل بعضها إلى عدد من التجارب التي مارسها أفراد عاديون سلباً (أنظر قوم لوط، أصحاب الحجر أصحاب الجنتين) أو إيجاباً (أصحاب الكهف وأصحاب الفيل). مروراً بسلسلة الأنبياء الطويلة التي بعثت لكي تجدد الحوار الموعود، منذ عهد آدم بين السماء والأرض، وتسعى بأقوامها إلى صياغة حركة التاريخ بما ينسجم ومركز الإنسان في الكون. وتتجاوز بعض الآيات القرآنية الماضي والحاضر، لكي تمد رؤيتها إلى المستقبل القريب أو البعيد، في تنبؤات

(٢) مستقبل الحضارة بين العلمانية الشيوعية والاسلام، ص ٨٩ نقلاً عن مجلة المجلات العالمية، أغسطس ١٩٥٨.

تاريخية يحيطها علم الله المطلق بالصدق الكامل والضمانة النهائية، وقد نفذ بعضها في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وظل بعضها الآخر ينتظر التنفيذ إذ لم يحدد له زمن بالذات. وهنا ملاحظة جديرة بالإنتباه وهي أن القرآن كلام الله الذي يحوي كثيراً من علم الله الكامل ورؤيته المحيطة بمعجزات الزمان كله ماضياً وحاضراً ومستقبلاً. لم يسرف في النبوءات التاريخية، واكتفى منها بما يعد على أصابع اليدين لأنه لم يجيء لكي يكون كتاب تنبوءات، بل جاء ليكون تشريعاً لحياة المسلمين. في حين أن ماركس قد أسرف في تنبوءاته[٣] حين فسر التاريخ إسرافاً خيالياً وعلى الرغم من ذلك فإنه زعم أن تنبوءاته علمية!

والهدف من إيراد الحوادث التاريخية وقصص الأنبياء هو:

١ ــ إثارة الفكر البشري، ودفعه إلى التساؤل الدائم والبحث الدائب عن الحق.

٢ ــ تقديم خلاصة التجارب البشرية عبراً يسير على هديها العقلاء.

٣ ــ إزاحة ستار الغفلة والنسيان في نفس الإنسان. وصقل ذاكرته وقدرته على المقاومة لكي تظل في مقدمة قواه الفعالة التي هو بأمس الحاجة إلى تفجير طاقتها وهو يواصل الجهاد في عالم يرفض الذين يعانون الغفلة والكسل الذهني والتّواكل واليأس والنسيان.

٤ ــ تقديم الدليل على علم الله الواسع الذي أحاط بحركة التاريخ ماضياً وحاضراً ومستقبلاً.

٥ ــ تأكيد البرهان على الحق الواحد الذي جاء به الأنبياء السابقون جميعاً وسعوا إلى أن يقودوا أممهم إلى مصدره الواحد الذي لا إله إلا هو[٤].

---

(٣) راجع، ص ٤٧١.

(٤) انظر التفسير الاسلامي للتاريخ، ص ١٠٦.

أما النتائج المترتبة عن دراسة حركة التاريخ البشري وأحداثه فهي:

١ ــ إن القرآن يطرح علينا لأول مرة مسألة السنن والنواميس الربانية التي تسير حركة التاريخ وفق منعطفها الذي لا يخطيء، وعبر مسالكها المقننة التي ليس للخروج عليها سبيل لأنها منبثقة من صميم التركيب البشري ومعطياته المحورية الثابتة. فطرة، وغرائز، وأخلاقاً، وفكراً، ووجداناً، ومن قلب العلاقات والوشائج، والارتباطات الظاهرة والباطنة في العالم الذي يتحرك فيه الانسان، متجاوزة في اتساعها وشمولها نسبيات البيئة الجغرافية أو الوضع الاقتصادي، لكي تتسع للفعل الانساني والتي تنبثق عنها المواقف التاريخية سلباً وإيجاباً، حتى لكأن القرآن يلفت أنظارنا إلى أننا نستطيع أن نرتب على مجموعة من الوقائع التاريخية سلفاً نتائجها التي تكاد تكون محتومة لارتباطها العضوي بمقدماتها إعتماداً على استمرارية السنن التاريخية واستمرارها.

٢ ــ إن أي تأخر في نفاذ هذه السنن سوف يؤدي إلى تمييع الحركة التاريخية وبالتالي سيؤول إلى موقف نقيض لمفاهيم الحق والعدل. وقد أكد القرآن الكريم في أكثر من موضع ثبات هذه السنن ونفاذها وعدم تبدلها وتحولها لأنها موجودة أساساً في صميم التركيب الكوني وفي قلب العلاقات المتبادلة بين الإنسان والعالم. وقد كشف القرآن الكريم النقاب عن هذه السنن وأكد وجودها وثقلها في حركة التاريخ.

٣ ــ والسنن والنواميس الربانية غير محددة، ولا تأسر نفسها، بل تمتد وتمتد مرنة منفتحة شاملة، لكي تضم أكبر قدر من الوقائع، وتلامس أكبر عدد من التفاصيل والجزئيات، وتبقى دائماً

الحصيلة النهائية، والرموز المكثفة والدلالات الكبرى لحركة التاريخ.

٤ ـ والسنن الربانية في نفس الوقت دافع حركي تفرض على الجماعة المدركة الملتزمة، أن تتجاوز مواقع الخطأ التي قادت الجماعة البشرية السابقة إلى الدمار، وأن تحسن التعامل مع قوى الكون، مستمدة التعاليم والقيم من الله سبحانه وتعالى.

٥ ـ والسنن الربانية في التاريخ ثابتة وماضية إزاء الجماعات البشرية التي تتنكب عن الطريق المستقيم، بغض النظر عن حجم هذه الجماعة وعن مدى دورها الحضاري ومقدار منجزاتها المادية والأدبية في مقياس الكم ومعايير المساحات.

٦ ـ إنه ليس بالقوة والبطش تحيا الأمم وتزدهر وتواصل الطريق، إنهما جانب فحسب في المسيرة الحضارية، وإن أي طغيان لأي منهما سيعرض الجماعة للدمار[٥].

سقوط الحضارات:

أجمعت المذاهب الوضعية للتاريخ على سقوط الحضارات، وبخاصة مذهب ماركس في التفسير المادي للتاريخ، حيث أخضع حركة التاريخ بدولها وحضاراتها وتجاربها لحتمية تبدل وسائل الانتاج وانعكاسه على الظروف، وإن كل وضع تاريخي مآلُه إلى الزوال باستثناء حكم الطبقة العاملة حيث لا زوال بعدها.

ولكن الإسلام يختلف في تفسيره للتاريخ عنها إبتداءً، لأنه من وحي الله عز وجل، إنه يقرر منذ البدء قاعدة أساسية في موقفه إزاء الدول والتجارب البشرية والحضارات، إنه بواقعيته المعجزة يقرر منذ

---

(٥) انظر نفس المصدر، ص ١١٠ ـ ١١٦.

البدء عدم ديمومة أي من هذه المعطيات، ولا يستثني منها المسلمين.
إنها المداولة بين الناس يقول الله تعالى:

وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ (٦).

والإسلام يطرح فكرة المداولة كفعل حركي يستهدف تمحيص الجماعات البشرية وإثارة الصراع الدائم بينها، الأمر الذي يتمخض عن تحريك الفعل التاريخي. والاسلام إذ يقرر حتمية السقوط والانحلال، نجده في نفس الوقت يقرر إمكانية أية أمة أو جماعة أن تعود باستمرار لكي تنشيء دولة أخرى أو تمارس تجربة جديدة، أو تتولى زمام القيادة الحضارية والعقائدية، وحتى تتمكن أي أمة من الصعود لابد أن تستكمل الشروط اللازمة لذلك وهي:

١ ــ عملية التغيير الداخلي، الذي يمتد إلى كافة المساحات الأخلاقية وسائر المكونات النفسية الأساسية. وكل العلاقات الداخلية مع ذات الإنسان ومع الآخرين، والتي تمكن الإنسان فرداً وجماعة من مواجهة حركة التاريخ. والقرآن الكريم يطرح مبدأ التغيير الداخلي مقابل حتمية السقوط والمداولة كوسيلة للاستعادة قال تعالى:

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ (٧).

إن تأكيد الإسلام على مبدأ التغيير في جانبيه السلبي والايجابي يعني أنه يمنح الارادة البشرية فرصتها في صياغة مصيرها، في التشبث به أو إستعادته إذا ما أفلت من بين يديها.

٢ ــ تتعرض الأمم في سيرها للصعود والهبوط، للنجاح والفشل، للإرتفاع والإنهيار إعتماداً على ممارساتها ومعطياتها، ثم تبرز

---

(٦) آل عمران، ١٤٠.
(٧) الرعد ١١.

المسؤولية كعامل أساسي في توجيه مصائر الحركة التاريخية.
ويؤكد الاسلام على أن أية أمة مؤمنة كانت أم غير مؤمنة إنما تحمل مسؤوليتها كاملة إزاء نفسها أمام الله والتاريخ[٨].

عوامل السقوط وإتجاهاتها:

إن قضية سقوط الحضارات تأخذ إتجاهات عدة، سياسية وإدارية وإقتصادية وأخلاقية وإجتماعية وعقائدية.

أما سقوط الحضارات السياسي فراجع إلى العلاقة بين القيادة والقاعدة على السواء، وذلك لأن القيادة لا تمارس فاعليتها وأخلاقياتها الحسنة أو السيئة إلَّا بإقرار مكشوف أو ضمني من القاعدة حركةً وسكوناً.

١ ـ وحين تستلم القيادة حفنة من المترفين الفسقة، أو الإداريين الظلمة أو المجرمين الطغاة، فإنهم يمارسون من خلال سلطتهم كل أسلوب من شأنه أن يؤول إلى إلحاق التفكك والدمار بالجماعة والأمة التي ارتضتهم قادةً لها، كالترف والفسوق والعصيان والطغيان، والفوضى والإستغلال، والمكر والخداع والكذب والتضليل، ورفض الدعوات الخيرة وإستخدام أشد أنواع البطش والقسوة لصد الناس عنها. إن هؤلاء الطغاة أدوات بيد الله سبحانه وتعالى يسخرهم من حيث لا يشعرون لإنزال عقابه العادل بطرفي الجريمة، السلطة التي تظلم والقاعدة التي ترضى بالظلم قال تعالى:[٩]

وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾[٩]

---

(٨) انظر نفس المصدر، ص ٢٥٥ ـ ٢٦٣.
(٩) الإسراء ١٦.

وما من ريب أن المسألة الإدارية ترتبط أشد الإرتباط بممارسات السلطة السياسية في إطارها الشامل، وتأخذ إزاءها علاقة طردية، فكلما زادت القيادة ظلمًا وطغياناً كلما أصيب الجهاز الإداري بالتفكك والعجز وبالعكس.

٢ ــ كما ركز الإسلام على المسألة الإجتماعية في جانبها الإقتصادي ودوره في التدهور والهبوط، لأنه إذا اختفى العدل وانعدم التوازن ظهر الغنى الفاحش والترف الذي يهدم كيان المجتمع.

«إن الترف ممارسة مدمرة سواء للجماعة كلها التي تسكت عليها وتغض عنها الطرف، أو تغلو في إنهزاميتها فتتملق وتتقرب وتداهن، أو للمترفين أنفسهم الذين يعمي الثراء الفاحش، وما ينبثق عنه من ممارسة مرضية متضخمة مبالغ فيها بصائرهم ويطمس على أرواحهم، ويسحق كل إحساس أخلاقي أصيل في نفوسهم ويحجب عنهم ــ وهذا هو الأهم والأخطر ــ كل رؤية حقيقية لدور الإنسان في الدنيا، وموقفه في الكون، وطبيعة العلاقات المتبادلة بين عالمي الحضور والغياب، والروح والطبيعة وما وراء الطبيعة، والأرض والسماء»(١٠).

كما شنع الإسلام على العلماء المنافقين الذين يتاجرون بدينهم، ويتملقون للمترفين والمفسدين ويدَجلون على الناس باسم الدين ليأكلوا أموالهم بالباطل. إن الدور الذي تمارسه هذه الفئة من الناس في السير بالجماعات والحضارات نحو الإنحطاط والتدهور والإنهيار، لا يقل خطورة عن دور المترفين، إن لم يفقه بكثير وذلك لأنهم يمارسون جريمة مركبة تقوم على إستنزاف أشد ما يهم الناس في حياتهم اليومية والتزوير في ما يهمهم في تجربتهم الدينية الشاملة.

---

(١٠) نفس المصدر ص ٢٧٢ ــ ٢٧٣، وانظر مقدمة ابن خلدون، ص ٣٧١ ــ ٣٧٤.

وقد تجلى في موقف رجال الكنيسة من الإقطاع وحمايتهم له وسلب أموال الناس باسم الدين ومحاربة العلماء والمصلحين[١١].

٣ ــ وقد ركز الإسلام على القاعدة واعتبرها شريكة في الإثم إذا لم تغير المنكر والظلم الذي تمارسه الطبقات الحاكمة. ويدفعها إلى العمل المتواصل حتى تحقق العدل في الأرض بتطبيق شرع الله وهديه على الناس.

وفي ختام هذا البحث، لا بد من تقرير الحقائق التالية:

١ ــ كان مصير جميع الديانات السماوية النجاح الحاسم[١٢]، ومصير الطغاة الدمار الكامل.

٢ ــ كانت الجماعات المؤمنة، حتى في مرحلة كفاحها ومواجهتها لقوى الكفر التي تفوقها عدة وعدداً أكثر سعادة وفرحاً، وأعمق أمناً ويقيناً وأشد إيماناً بالمستقبل والمصير من الجماعات الكافرة.

٣ ــ إن الأيام سجال بين الناس تسقط حضارة وترتفع أُخرى، والميزان الذي تقاس به حضارة الأمم هو مقدار إلتزامها بشرع الله وبعدها عنه.

٤ ــ إن الظلم والفجور والترف إذا أصاب أمة من الأمم فإن مصيرها إلى الهلاك والدمار.

٥ ــ إن الإنسان مخلوق مكرم ذو حرية وإرادة فضله الله على كثير من خلقه وكلفه بمهام الخلافة في الأرض بعد أن سخر له ما في السماوات والأرض فضلاً منه، ولم يتركه عبثاً. هذا الإنسان

---

(١١) انظر الظروف التي مهدت لانتشار التفكير المادي في أوروبا.

(١٢) قبل أن يدخلها التحريف ويتخل عنها أتباعها.

الذي خلقه الله في أحسن تقويم يظل في هذه الصورة الكريمة منعمًا ما دام ملتزماً بشرع الله ويهبط إلى أسفل سافلين إذا تخلى عن عبادة ربه. ويرتفع إلى السعادة من جديد إن عاد والتزم بأمر الله سبحانه وتعالى.

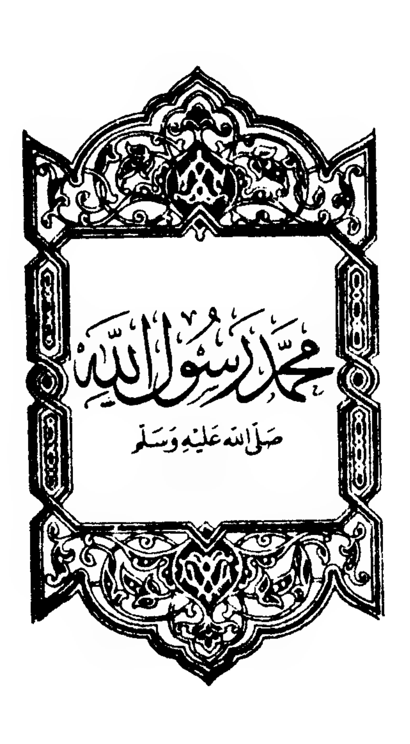
قال تعالى:

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾ (١٣).

وفي ختام هذا الفصل أتمنى على الله أن يهيء شباب هذه الأمة المسلمة لقيادة ركب الحضارة من جديد في كل المجالات، وأن يهيء منهم من يحقق الأمنية التي يتمناها كل مسلم وهي كتابة التاريخ من وجهة النظر الإسلامية، إنه سميع مجيب.

---

(١٣) التين ١ ــ ٦.


محمد رسول الله
صلى الله عليه وسلم

الخَاتمــة

وفي نهاية هذا البحث، بعد أن منَّ الله عز وجل علي فأبطلت بمنهج علمي وعقلي إدعاءات الفكر الشيوعي فيما أسموه بالتفسير المادي للتاريخ، والأسانيد التي اعتمد عليها هـذا الفكر المـزيف. أقدم للقاريء الكريم أمهات القضايا التي تبين لي بالمناقشة العلمية بطلانها وأهمها:

أولاً ـــ فيما يتعلق بالظروف التي مهدت لإنتشار التفكير المادي في أوروبا، فقد توصلت إلى النتيجتين التاليتين:

(أ) الفكر المادي ليس من إبتداع ماركس، بل هو ضارب في أطناب الزمن حيث يعود إلى عهد الحضارتين الإغريقية والرومانية.

(ب) ما كان للتفكير المادي أن ينتشر لو أن الكنيسة حكمت بشرع الله ولم تحل بين الناس وبين إعتناق الدين الإسلامي.

ثانياً ـــ وفي الباب الأول لم أناقش نظريات الماديين، بل عرضتها عرضاً أميناً كما جاءت من وجهة نظرهم، وأبرزت الأهداف التي يسعون إلى تحقيقها وعلى سبيل المثال إن قولهم بأزلية المادة وأبديتها يستهدف إنكار وجود الله سبحانه وتعالى.

ثالثاً ــ أما الباب الثاني والذي خصص لمناقشة النظرية، فقد توصلت فيه إلى النتائج التالية:

(أ) ناقشت أزلية المادة وأبديتها وأسبقيتها في الوجود على الفكر، وأظهرت لي البحوث العلمية بطلان هذا الإدعاء من أساسه، وأن المادة حادثة خلقها الله بعد أن لم تكن، وأن مصيرها إلى الفناء، كما ظهر لي تراجع الماركسيين عن القول بأسبقية المادة في الوجود على الفكر.

(ب) توصلت بالأدلة العلمية إلى بطلان فهم الماديين لقوانين المادة في ذاتها، كما وجدت أن التطور لا يكون دائماً صاعداً، وأن التغير هو الموجود بالفعل، وقد يكون نحو الأدنى أو الأعلى. وأن التناقض غير موجود في المادة. وأن الماديين خالفوا علم المنطق في فهمهم لقانون التناقض، وأنهم يقفون بقانوني التطور والتناقض عن العمل عند حدود الشيوعية، وهذا العمل مخالف للمنهج العلمي، كما أن قوانين المادة لا تنطبق على الإنسان لأنه كائن ذو حرية وإرادة منحهما الله سبحانه وتعالى له.

(ج) وجدت من خلال البحث أن نظرية التطور لم تصل إلى درجة الحقيقة العلمية، وأن كثيراً من العلماء في أوروبا لم يتقبلوها على أنها حقيقة علمية، وإنما لأنه لا يوجد بديل عنها سوى الإيمان بالله سبحانه وتعالى، وهذا مما يحرم التفكير فيه عند كثير منهم، وذلك راجع إلى حماقة الكنيسة التي كرهت الناس بالدين ونفرتهم منه، كما أنه لو صحت هذه النظرية فإنها لا تنطبق على الإنسان لأنه كائن متفرد له قوانين خاصة يسير عليها في حياته تختلف عن قوانين الحيوانات.

(د) وتوصلت إلى أن العامل الإقتصادي هو أحد العوامل المؤثرة في

حياة الإنسان، وأن أدوات الإنتاج تحقيق لفطرته، وأن حصره في نطاق البحث عن الطعام والشراب خرافة لا تستند إلى دليل علمي، وأن السبب في تغيير النظام لا يعود إلى أدوات الإنتاج، لأن دولاً كثيرة تملك أدوات إنتاج متماثلة مع أن أنـظمتها مختلفة، كما اتضح لي أن القول بـالحتميات مخـالف للمنهج العلمي، وأن نظرية الإحتمالات هي النظرية السائدة في ميدان العلوم اليوم. وأن حتمية التطور خرافة، فقد تجاوزتها الشيوعية بانتقالها من المرحلة الإقطاعية إلى المرحلة الإشتراكية دون أن تمر بالمرحلة الرأسمالية.

ووجدت أنهم لا يملكون الدليل العلمي القاطع على أن الناس في المجتمعات الأولى كانوا يعيشون في شيوعية عامة، لا جشع فيها ولا طمع ولا نهب ولا إستغلال.

كما توصلت إلى أن الظلم الذي شهـده عصر الـرق والإقطاع والرأسمالية ناتج عن غياب شرع الله عن التطبيق، وأن تلك الصورة المظلمة خاصة بتاريخ أوروبا وحدها ولا تشمل غيرها، وأن أسلوب التعميم الذي سلكه ماركس في تفسيره المادي للتاريخ مخالف للمنهج العلمي، لأنه لا يجوز للباحث التاريخي أن يجعل دراسته قاصرة على حياة أمة من الأمم في فترة من الفترات، ثم يعمم النتيجة التي توصل إليها على جميع الأمم، وأن القول بأن التاريخ البشري أصبح بكامله منذ ظهور الملكية الخاصة مسرحاً للصراع الطبقي باطل، لأنه لا ينطبق على الإسلام الذي لا يقر نظام الطبقات، وذلك لأن الله سبحانه وتعالى هو الحاكم والمشرع، والأفـراد منفذون لشـرعه. كـما توصلت إلى أن الملكية الفردية نزعة فطرية، وأن الظلم ناشيء

عن سوء إستخدامها، وأن الأمم قد تشكلت قبل مرحلة الرأسمالية، بدليل أن الأمة الإسلامية تشكلت قبلها، والدول الرأسمالية الحالية لا تشكل أمة واحدة، وأن الإستعمار وجد في العصور القديمة لأنه شهوة منحرفة ناشئة عن بعد الناس عن شرع الله، وأن السوء الذي وصلت إليه الرأسمالية، لم يكن نتيجة حتمية لطبيعة رأس المال، ولم تكن لتصل إلى ما وصلت إليه لو أنها استقامت على دين الله، وحاربت الربا ومخططات اليهود الشريرة الرامية إلى إفساد البشرية وتدمير أديانها وأخلاقها، ونهب إقتصادها. كما توصلت إلى أن التفسير المادي للتاريخ لا يستطيع أن يفسر ظهور الإسلام تفسيراً إقتصادياً. فالإسلام مثلاً حرر الرقيق قبل أوروبا بسبعة قرون، وأعطى المرأة حقوقاً وإمتيازات لا مثيل لها في تاريخ البشر، دون أن يكون وراء ذلك دوافع إقتصادية، كما أن الإسلام لا يقر نظام الإقطاع، لأن التشريع بيد الله، والمال مال الله والإنسان مستخلف فيه، ونظام الإرث يفتت الثروة ويحول دون التضخم الذي يؤول إلى جعل المال دولة بين الأغنياء.

كما وجدت أن شعار «**من كل حسب طاقته ولكل حسب حاجته**» الذي أطلقه الماديون خرافة لا يمكن أن تتحقق بحال من الأحوال، وأن الحوادث التاريخية كذبت تنبؤات ماركس.

كما وجدت أنهم تراجعوا عن تطبيق كثير من مباديء الشيوعية كإباحتهم أنواعاً من الملكية الفردية والإرث.

(هـ) وقد ظهر لي ولله الحمد بطلان النظرة الشيوعية للدين ــ التي تزعم أن الدين مخترع بشري يتطور تبعاً لتطور العوامل الإقتصادية، وهو مخدر لاتباعه. وأثبت أن التدين فطري ثابت

في النفوس، والتوحيد أصل التدين والشرك أمر طاريء، ووجدت أن القول بأن الدين مخترع وهم خداع يقصد منه هدم الأديان ـ أمنية اليهود والمفسدين الغالية ـ وأن الدين الصحيح لم يكن مخدراً لأتباعه في يوم من الأيام، بدليل أن الثورات المعاصرة التي ثارت على الإستعمار الرأسمالي والشيوعي معظمها قامت تحت راية الدين، وأن الدين لا يشوه نظرة الإنسان إلى العالم، فالدين الإسلامي مثلاً يأمر أتباعه أن ينظروا إلى العالم نظرة تفاؤل وأمل، وأن يسعوا في الأرض لإعمارها، وأن ينهلوا من ينابيع العلم والمعرفة ما يستطيعون وفق شرع الله وهديه.

(و) كما توصلت إلى أن الأخلاق فطرية ثابتة في النفوس لا تتغير، وتستمد تعاليمها من الدين وأن ما يزعمه الماديون تطوراً أخلاقياً ليس إلاَّ إنحرافاً في السلوك نتيجة لعدم تحكيم شرع الله في حياة الناس، وأن إنحراف أوروبا عن المعايير الخلقية كان نتيجة حتمية لابتعادها عن دين الله ومخالفتها لشرعه.

(ز) توصلت إلى بيان غرض الماديين من إنكار دور الأفراد البارزين وهو إنكار دور الأنبياء والمصلحين، وأكدت على أن دور الأنبياء والمصلحين في دفع عجلة التاريخ حقيقة ثابتة لا سبيل إلى نكرانها.

(ح) تبين لي أن شيوعية النساء لم يقم عليها دليل علمي قاطع، وأن الأسرة فطرية، وأن آدم وحواء كانا أول زوجين أنشآ أول أسرة على وجه الأرض، وأن تطور الأسرة تبعاً لتطور العوامل الإقتصادية خرافة، وأن الإنحلال الذي صارت إليه المرأة الأوروبية ليس إلاَّ نتيجة لجفاف الينابيع الأخلاقية والظلم

الإقتصادي وذلك لانحراف أوروبا عن الدين الصحيح، وانسياقاً مع مخططات اليهود الرامية إلى إشاعة الفاحشة في الأرض والقضاء على نظام الأسرة.

رابعاً ـ أما فيما يتعلق بالتصور الإسلامي فقد توصلت من خلال النظرة الإسلامية للإنسان أنه مخلوق مكرم ذو حرية وإرادة، سخر الله له الكون المادي ليستفيد منه وأمره بالإستقامة على دينه لينال سعادة الدنيا والفوز بالآخرة.

كما تبين لي أن الإسلام يقيس حضارات الأمم بمقدار قربها أو بعدها عن الله، وليس بما تملك من وسائل الإنتاج، وأن الظلم والفجور والترف والضعف المادي والمعنوي والبعد عن شرع الله والسكوت على المنكر إذا أصيبت به أمة من الأمم فإنها ستنهار حتماً لا محالة.

* * *

من خلال ما تقدم أستطيع أن أقول أن موقف الإسلام من نظرية ماركس للتفسير المادي للتاريخ بصفة خاصة والشيوعية بصفة عامة، هو الرفض التام المطلق، لأنهما قائمتان على تصور ملحد ينكر وجود الله ويحارب دينه، ويخالف فطرة الإنسان والمنهج العلمي الصحيح، ويسعى إلى نشر الفساد في الأرض.

هذا وقد مكنني الله سبحانه وتعالى من إتمام هذا البحث لا يسعني إلَّا أن أتوجه إليه سبحانه وتعالى بالشكر على ما أنعم، وإنني لا أستطيع أن أدعي لنفسي الكمال وإنني أتيت في هذا الموضوع ما لم يستطعه الأوائل، ولكنني أقول أنني بذلت جهداً وقضيت وقتاً أمتد قرابة ثلاث سنوات، حاولت خلالها أن أبحث وأستقصي وأن أرجع إلى كل ما له مساس بالموضوع إلتماساً لإيفائه ما يستحق من بحث

وتمحيص، فكم من رجل من كبار رجال الفكر والعلم ورواد المعرفة قد كتب بحثاً اليوم وأولاه من الجهد والوقت ما رآه أهلاً له، ولكنه بعد أن فرغ منه وجد فيه هنات وهنات، وقال لو قدمت لكان أحسن أو أخرت لكان أجمل، وتلك طبيعة البشر وغاية إمكانه فسبحان من تفرد بالكمال واستعلى على النقد والنقصان.

وإنني وأنا أقدم هذا البحث لأمل أن أكون وفيته حقه، وأتيت فيه بجديد، فإن كنت وفقت لذلك فهذا ما أردت، وإن يكن قصر جهدي عن إدراك الغاية، فعزائي أني لم آل جهداً في هذا السبيل، وأن الله لم يكلف نفساً إلاَّ وسعها فإن أنا أحسنت فمن الله، وإن أسأت فمني ومن الشيطان وأستغفر الله.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم، وأن يرجح به كفة حسناتي وحسنات شيوخي، ومن ساعدني على إتمامه يوم الدين .

يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ (١٤)

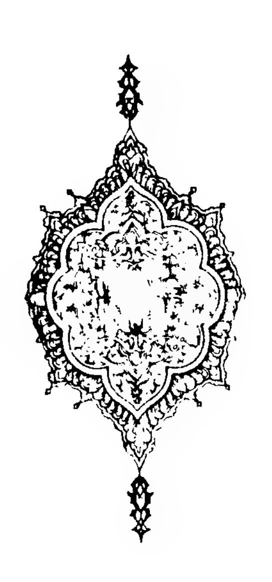
سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلاَّ أنت أستغفرك وأتوب إليك.

رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ (١٥)

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١٤) الشعراء ٨٨ ــ ٨٩.

(١٥) البقرة ٢٠١.



ترجمة
لأهم الأعلام الواردين في البحث

(١) أرسطوطاليس (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق.م).
فيلسوف إغريقي معروف، تتلمذ على يد أفلاطون، وألف عدداً من الكتب ظلت أفكاره في منزلة لا يرقى إليها غيرها أكثر من خمسة عشر قرناً لا سيما في المنطق، إلا أن الفلسفة الحديثة هدمت كل نظرياته تقريبا.

(٢) أرنست رينان (١٨٢٣ ـ ١٨٩٢).
فيلسوف فرنسي، كان في بداية أمره رجل دين، ثم انتقل بعد دراسته للفلسفة إلى معاداة الدين، حتى أصبح زعيمًا للمدرسة المسماة «مدرسة النقد التاريخي للكتب المقدسة». هاجم الأسفار والأناجيل ورجال الدين.

(٣) إسبارطاكوس (توفي عام ٧١ ق.م).
مصارع روماني، زعيم أكبر ثورة للعبيد في روما.

(٤) أفلاطون (٤٢٧ ـ ٣٤٧ ق.م).
فيلسوف إغريقي مثالي قديم، ولد في أثينا، كان شاعراً ثم اختص بالفلسفة.

(٥) إميل دور كايم (١٨٥٨ ـ ١٩١٧).
يهودي فرنسي، ينسب إليه علم الاجتماع الحديث لا سيما نظرية العقل الجمعي، واعتبار الظواهر الاجتماعية أشياء مستقلة عن الصور الفردية وتتبعه مدرسة مستقلة في هذا الميدان.

(٦) إنجلز (١٨٢٠ ـ ١٨٩٥).
رفيق ماركس في النظرية والنضال، أسهم معه في وضع ما يسمى بالأسس العلمية للاشتراكية، والده برجوازي كبير صاحب شركة نسيج، تأثر بفلسفة هيجل، شارك عام ١٨٤٤ وعام ١٨٤٥ مع ماركس في كتابي «العائلة المقدسة» و«الايديولوجية الألمانية» كما شاركه في كتاب «رأس المال والبيان الشيوعي» وفي عام ١٨٧٨ نشر كتابه «أنتي دوهرنغ» الذي يعتبر أعمق توضيح للنظرية الماركسية سواء في جوانبها الفلسفية أو الاقتصادية أو الاجتماعية. ويعتبر كتابه «جدليات الطبيعة» من أهم الكتب الماركسية بعد كتاب رأس المال الماركسي.

(٧) أوجس كومت (١٧٩٨ ـ ١٨٥٧).
فيلسوف فرنسي، وهو واضع أسس الفلسفة الوضعية وفكرة الانسانية بمفهومها الحديث، كما أنه وضع مبادىء علم الاجتماع التي أكملها تلميذه دور كايم.

(٨) أوغسطين «القديس».
فيلسوف نصراني جمع بين النصرانية والأفلاطونية الحديثة، كان صاحب نظرية نصرانية في الحكم، أوضحها في كتابه «مدينة الله» بينما ترى الوجودية أنه من أوائل الوجوديين، كانت حياته في الفترة ما بين عامي (٣٥٤، ٤٣٠).

(٩) آينشتين (١٨٧٩ ـ ١٩٥٥).
يهودي ألماني، صاحب نظرية النسبية التي كان لها أثر بالغ في الفكر والعلم المعاصرين، وعلى أساسها سقطت معظم نظريات القرن التاسع عشر الكونية.

(١٠) بترارك (١٣٠٤ ـ ١٣٧٤).
شاعر إيطالي، درس القانون في إيطاليا وفرنسا، واهتم بالدراسات الانسانية، نظم بالايطالية كتاب «الأغاني» وكان يعتز بمؤلفاته اللاتينية.

(١١) بودان (١٥٣٠ ـ ١٥٩٦).
جان بودان برجوازي فرنسي وعالم اجتماعي من أنصار الحكم المطلق.

(١٢) جاليليو (١٥٦٤ ـ ١٦٤٢).
ولد بإيطاليا، ودرس الطبيعة والرياضيات، وكان صاحب نظريات جديدة، أدت إلى اصطدامه بالكنيسة وحوكم وسجن بسبب قوله بدوران الأرض واختراع المرقب «التلسكوب».

(١٣) جرادنو أنوبرونو (١٥٤٨ ـ ١٦٠٠).
كان راهباً ولكنه انفصل عن الكنيسة بسبب تأثره بالنزعة الانسانية والعلوم الطبيعية، ونظرية كوبرينكس، وترك سلك الرهبنة، وفر إلى إيطاليا ولكنه وقع أخيراً في قبضة محاكم التفتيش وسجن ثماني سنوات وأحرق حياً على عمود التعذيب، وكانت فلسفته مادية إجمالاً، قال بالحلول والاتحاد ولا نهائية العالم.

(١٤) جون لوك (١٦٣٢ ـ ١٧٠٤).
فيلسوف إنجليزي، ومن أصحاب المذهب الثنائي ومن أنصار المذهب الحسي.

(١٥) داروين (١٨٠٩ ـ ١٨٨٢).
هو تشارلز داروين صاحب نظرية التطور العضوي المعروفة، ولد بويلز في بريطانيا، وألف كتابه «أصل الأنواع» بعد رحلة طويلة وقد أحدثت نظريته انقلاباً فكرياً في معظم حقول المعرفة الأوروبية، نظراً للاستغلال العظيم الذي قام به المغرضون والهدامون، ولا سيما اليهود.

(١٦) ديفيد هيوم (١٧١١ ـ ١٧٧٦).
إشتغل بالفلسفة حتى أصبح عالماً على مذهب «الشك» الحديث. له مؤلفات كثيرة أشهرها «رسالة في الطبيعة البشرية».

(١٧) ديكارت (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠).
هو رينيه ديكارت، فيلسوف ورياضي فرنسي بارز، من أصحاب المذهب الثنائي، مادي ميكانيكي.

(١٨) رابله (١٤٩٤ ـ ١٥٥٣).
فرانسوا رابله، كاتب فرنسي إنساني من عصر النهضة.

(١٩) روبرت أوين (١٧٧١ ـ ١٨٥٨).
إشتراكي طوباوي إنجليزي، ومؤسس الحركة التعاونية، كان من رجال الأعمال الناجحين في مانشستر، وقد حاول إقامة مجتمعات إشتراكية في إنجلترا وأميركا وأهم كتبه «نظرة جديدة إلى المجتمع».

(٢٠) سان سيمون (١٧٦٠ ـ ١٨٢٥).
إشتراكي طوباوي فرنسي، كان مغامراً في الحياة والفكر، دعا إلى تسليم زمام الحكم إلى رجال الصناعة والعلم بدل الاشراف والقانونيين.

(٢١) سبنسر (١٨٢٠ ـ ١٩٠٣).
فيلسوف إنجليزي ينتمي للمدرسة التطورية إحدى مدارس علم الاجتماع الكبرى، أشهر كتبه «مباديء علم النفس» تعرض فيه لنظرية التطور.

(٢٢) سبنيوزا (١٦٣٢ ـ ١٦٧٧).
فيلسوف يهودي هولندي ملحد إشتهر بعداوته للنصرانية وكان من أصحاب مذهب وحدة الوجود، كما أنه أول من أسس فكرة النقد التاريخي للكتب المقدسة في كتابه «رسالة في اللاهوت والسياسة».

(٢٣) ستالين (١٨٧٩ ـ ١٩٥٣).
إسمه الحقيقي جوزيف فيسيار فيتش شوجاتشفيلي، واتخذ إسم «ستالين» إسماً مستعاراً أثناء نشاطه الثوري في بداية هذا القرن. كان أبوه إسكافياً فقيراً، وحاولت أمه أن تجعله قسيساً فألحقته في معهد ديني ولكنه هرب منه والتقى ستالين مع لينين الذي كان في المنفى، وأصبح عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، إتسم عهده بالوحشية والقسوة والجاسوسية والطغيان والانحراف عن مباديء لينين كما جاء في التهم التي وجهها خروشوف لستالين بعد موته.

(٢٤) سقراط (٣٩٩ ـ ٢٧٠ ق.م).
فيلسوف إغريقي شهير. أستاذ أفلاطون له نظريات في الفلسفة والرياضيات والأخلاق،

حوكم وأعدم عام ٢٧٠ ق.م بتهمة إنكاره لآلهة اليونان وادعاء أنه رسول أو يقوم بمهمة الرسل.

(٢٥) سيرفيت أو سرفيتوس.
كاتب إسباني ألف كتاباً هاجم فيه عقيدة التثليث إبان الصراع الدائر بين الكنيسة والعلم في القرن السادس عشر، أعدم عام (١٥٥٣).

(٢٦) شارل فوربيه (١٧٧٢ ــ ١٨٣٧).
إشتراكي فرنسي طوباوي، وهو أحد آباء الشيوعية الحديثة، دعا إلى التعاون بين الأفراد، وأن يختار كل فرد العمل الذي يوافق ميله، ولا يتسنى هذا الاختيار إلا في فرق، تمثل كل فرقة منها المهن الضرورية لبقائها، وفي كل قسم من أقسام المهنة يؤلف العمال جماعة أصغر بحيث يشعر الكل بتعاون الكل، وكان يشير إلى نظام الكلخوز الذي طبق فيما بعد في روسيا.

(٢٧) شكسبير (١٥٦٤ ــ ١٦١٦).
وليم شكسبير من كبار المسرحيين والشعراء والمؤلفين الانجليز.

(٢٨) فرويد (١٨٥٦ ــ ١٩٣٩).
سيجموند فرويد يهودي نمساوي زعيم مدرسة التحليل النفسي التي تقوم على التفسير الجنسي للسلوك.

(٢٩) فريزر (١٨٥٤ ــ ١٩٤١).
سير جيمس فريزر باحث اجتماعي اعتمد عليه علم مقارنة الأديان بصفة عامة والشيوعيون بصفة خاصة، أشهر كتبه «الغصن الذهبي».

(٣٠) فور باخ (١٨٠٤ ــ ١٨٧٢).
لود فيغ فورباخ فيلسوف مادي ودهري الماني بارز، كانت ماديته رغم صفتها المحدودة والتأملية إحدى المصادر النظرية للفلسفة الماركسية كان في صف المناهضين للدين النصراني في أوروبا حيث ألف كتابه جوهر المسيحية كنقد لها.

(٣١) فيشته (١٧٦٢ ــ ١٨١٤).
إبن فلاح من أهل سكسونيا، درس اللغة وفقهها والفلسفة، ثم وقف على كتب كانت، كان من رواد فلسفة النقيض، عين أستاذاً في جامعة أيينا عام ١٧٩٣ وفي هذه الجامعة بسط مذهبه في كتابه «المباديء الأساسية لنظرية المعرفة» ١٧٩٧ ومن كتبه «القانون الطبيعي».

(٣٢) كالفن (١٥٠٩ ــ ١٥٦٤).
ولد في مدينة نويون، لاهوتي فرنسي من رجال الاصلاح الديني تحول عن الكثلكة عام ١٥٣٣ وصار من قادة البروتستانت المشهورين، وكتابه «أنظمة الدين المسيحي» الذي كتبه بعد عام ١٥٣١ يوضح مباديء اللاهوت على مقتضى مذهبه الجديد.

(٣٣) كانت (١٧٢٤ ــ ١٨٠٤).
هو عمانوئيل كانت فيلسوف ألماني مثالي، أسس الفلسفة الكلاسيكية الألمانية.

(٣٤) كوبرنيكس (١٤٧٣ ــ ١٥٤٣).
ولد نيقولا كوبرنيكس ببولاندا واهتم بدراسة الفلك حتى استطاع أن يأتي بنظريته في دوران الأرض حول الشمس، وهي أول نظرية هزت الفكر الأوروبي والكنيسة الأوروبية هزة قوية. وقد طبع كتابه «حركات الأجرام السماوية» قبيل وفاته، فأفلت من عقوبة الكنيسة، ولكن من جاء بعده من أنصاره لم يفلت منها.

(٣٥) لوثر (١٤٨٣ ــ ١٥٤٦).
من ألمع وجوه الاصلاح الديني ومؤسس المذهب البروتستانتي في ألمانيا، إستغل اليهود دعوته لإحياء مجدهم والتذكير بأمجادهم، كان خادماً أميناً لتعاليم التوراة اليهودية والتلمود، أحيا الهالة التي أضفتها التوراة على بني إسرائيل بعد أن كانت النصرانية قد حطمت تلك الهالة وقضت على خرافة شعب الله المختار.

(٣٦) لومونوسوف (١٧١١ ــ ١٧٦٥).
ميخائيل لومونوسوف، عالم طبيعي ومفكر مادي روسي بارز.

(٣٧) ليبنتز (١٦٤٦ ــ ١٧١٦).
أحد رواد الفلسفة الأوروبية الحديثة وصاحب مذهب الذرات الروحية إشتغل بالقانون والسياسة وكان له بعض النظريات في ذلك.

(٣٨) لينين (١٨٧٠ ــ ١٩٢٤).
إسمه الحقيقي فلاديمير ايليتش لينين أوليانوف، اعتنق الماركسية سنة ١٨٩٤، ومن ثم شارك في التنظيمات الشيوعية التي كانت تعمل في روسيا وبقية أوروبا، وأصدر بعض الصحف الثورية، وفي سنة ١٩٠٣ تزعم لينين الأغلبية الشيوعية المسماة «بولشفيك» وفي سنة ١٩١٢ أنشأ الجريدة الشيوعية المعروفة «البرافدا» وفي سنة ١٩١٧ نشبت الثورة الروسية واستطاعت الاطاحة بالقيصر. وكان البولشفيك أقلية بين الأحزاب الثائرة، ولكن لينين وحزبه إستطاعوا تصفية الأحزاب الأخرى بثورة داخل الثورة، وطبق الماركسيون نظاماً سياسياً واقتصادياً لروسيا، وظل لينين يحكم روسيا بالسلطة الارهابية حتى هلك. وأهم جهوده الفكرية هي التعديلات والاضافات التي أدخلها على الماركسية ضمن كتبه التي أهمها «تطور الرأسمالية في روسيا» مما جعل الناس يطلقون على الشيوعية في عصره «الفلسفة الماركسية اللينينية».

(٣٩) ماركس (١٨١٨ ــ ١٨٨٣).
هو مؤسس المادية التاريخية، وحاخام الشيوعية وفيلسوفها الأكبر، كان جده ليفي حاخاماً يهودياً كبقية آبائه وأجداده. درس القانون في جامعة برلين، ثم هجره إلى الفلسفة، وحصل على الدكتوراة فيها سنة ١٨٤١، طرد من الجامعة وضويق في ألمانيا بسبب اتهامه بالإلحاد، فاضطر إلى الهجرة إلى باريس حيث كان الاشتراكيون الأوائل يبذرون فلسفتهم، وهناك بدأ

في انتهاج فلسفة ثورية تجمع بين نظرية هيجل بعد نقلها من الخيال إلى الواقع وبين المذهب الاقتصادي الذي سلكه فلاسفة الانجليز، وبين نظريات الاشتراكيين الأوائل، أمثال سيمون واوين. وبعد ظهور نظرية التطور استغلتها الفلسفة الماركسية لإثبات تطور المجتمعات حسب المراحل الخمس وللبرهنة على أن العوامل البيئية البحتة هي المؤثر الوحيد على الانسان كان عصبي المزاج أناني الطبع، لئيمًا حقوداً يتكل على غيره، عاصياً لوالديه وأسرته، وكان إنجلز يساعده في كثير من أعماله الصحفية والفكرية وأهمها كتاب «رأس المال والبيان الشيوعي»، كما كان يساعده مادياً، وقد عاش ماركس متنقلاً في دول أوروبا يبث سموم الفساد في كل مكان يحل فيه حتى هلك.

(٤٠) ميكافيلي (١٤٦٩ ـ ١٥٢٧).
نيقولا ميكافلي أول المفكرين السياسيين الأوروبيين، إشتهر بكتابه «الأمير» الذي كان دعوة صريحة إلى فصل السياسة عن الدين والأخلاق ووضع مبدأ عملياً لها هو «الغاية تبرر الوسيلة».

(٤١) مورغان (١٨١٨ ـ ١٨٨١).
لويس هنري مورغان، باحث اجتماعي تعتمد المصادر الشيوعية على مؤلفاته التي أهمها «المجتمع القديم». واستعان ماركس وإنجلز بنظريته التطورية في دعم نظريتهما المادية في التاريخ.

(٤٢) نيوتن (١٦٤٢ ـ ١٧٢٧).
سير إسحق نيوتن عالم إنجليزي فيزيائي، وفلكي ورياضي كبير، مؤسس الميكانيك الكلاسيكي.

(٤٣) هنري برجسون (١٨٥٩ ـ ١٩٤١).
صاحب النظرية الروحية الحديثة، حصل على جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٢٧، أهم مؤلفاته «التطور الخلاق».

(٤٤) هوبز (١٥٨٨ ـ ١٦٧٩).
توماس هوبز، فيلسوف إنجليزي كبير وممثل للمادية الميكانيكية آراؤه الاجتماعية والسياسية كانت مناهضة للديموقراطية. كان من أشهر أنصار الحكم المطلق.

(٤٥) هولباخ (١٧٢٣ ـ ١٧٨٩).
فيلسوف فرنسي ملحد، ممثل للمادية الميكانيكية، أشهر كتبه «نظام الطبيعة».

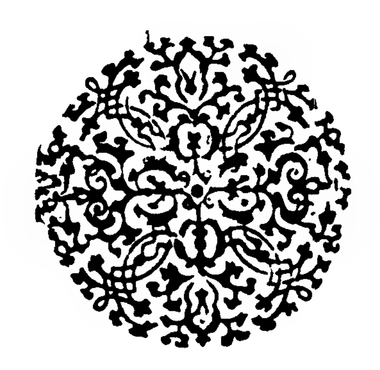
(٤٦) هيجل (١٧٧٠ ـ ١٨٣١).
هو جورج وليم فريدريك هيجل، يعد أكبر فلاسفة العصر الحديث في أوروبا، إذ منه تستمد كلا الفلسفتين المادية والمثالية على اختلاف ما بينهما، ومن أعظم أعماله وضع منهج للتفكير مغاير لمنطق أرسطو وهو نظرية «النقيض» التي اقتبستها الفلسفة المادية على يد ماركس.

(٤٧) هيراكليت (٥٤٠ ـ ٤٨٠ ق.م).
فيلسوف يوناني قديم. أحد مؤسسي الجدلية والمادية العفوية.

(٤٨) هيس.
جون هيس عميد جامعة براغ. يهودي حارب الفساد وناوأ تعاليم الكنيسة التي تساعد على ذلك الفساد. أحرق حياً عام ١٤١٥ بقرار من مجمع كونستانس، على الرغم من ضمان الامبراطور سلامته.

(٤٩) والاس (١٨٢٣ ـ ١٩١٣).
باحث طبيعي وصل إلى ما وصل إليه دارون وفي نفس الفترة تقريباً ولكن شهرة دارون فاقت عليه.

(٥٠) ويكلف (١٣٢٠ ـ ١٣٨٤).
يهودي إنجليزي كان قسيساً عالماً في إكسفورد ثم اشتغل بالتدريس في كلية «باليون» وتولى مناصب متنوعة في الكنيسة، ثم شرع وقد علت به السن يوجه سلسلة من النقد الصريح إلى ما عليه رجال الكنيسة من فساد وما عليه الكنيسة من حماقة، ترجم التوراة إلى الانجليزية.



المـــراجــع

القرآن الكريم

(١) أجنحة المكر الثلاثة: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم دمشق ١٣٩٥هـ.
(٢) الإجتماع العائلي: د. مصطفى الخشاب، الدار القومية، ١٩٦٦م.
(٣) أحجار على رقعة الشطرنج: وليام غالي كار، ت. سعيد جزائرلي. مراجعة م. بدوي ١٩٧٣م.
(٤) الأسرة والمجتمع: د. علي عبد الواحد وافي، ط ٦، نهضة مصر ١٣٨٦هـ.
(٥) أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار العربية للنشر.
(٦) الأسس الأخلاقية للماركسية: أوجين كامنكان. ت مجاهد عبد المنعم مجاهد منشورات دار الآداب بيروت، ١٩٧١م.
(٧) أسس الإشتراكية العلمية المادية الديالكتيكية: مجموعة من العلماء السوفييت ترجمة فؤاد مرعي. بدر الدين السباعي. عدنان جاموس، دار الجماهير دمشق ١٩٧٣م.
(٨) أسس المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية: سبركين وياخوت. ت محمد الجندي، دار التقدم موسكو.
(٩) الإسلام على مفترق الطرق، محمد أسد، ت. د. عمر فروخ، مكتبة المنار الكويت.
(١٠) الإسلام في وجه الزحف الأحمر: محمد الغزالي، ط ٥، المختار الإسلامي، ١٣٩٥هـ.
(١١) الإسلام وبناء المجتمع: د. أحمد محمد العسال، دار القلم الكويت ١٣٩٥هـ.
(١٢) الإسلام والجنس: فتحي يكن، دار النور، بيروت، ١٣٩٢هـ.
(١٣) الإسلام ومشكلات الحضارة: سيد قطب، دار الشروق.
(١٤) الإسلام يتحدى: وحيد الدين خان. ت ظفر الإسلام خان، ومراجعة د. عبد الصبور شاهين، ط ٦.
(١٥) الإشتراكية: د. أحمد شلبي ط ٣، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٨م.
(١٦) إشتراكيتهم وإسلامنا: بشير العوف بيروت، ١٩٦٦م.
(١٧) أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة: فريدريك أنجلز ت. أديب يوسف، دار الفارابي والكتاب العربي.

(١٨) أصل الأنواع: تشارلز داروين، ترجمة إسماعيل مظهر، مكتبة النهضة، بيروت، ١٩٧٣م.
(١٩) أصول الفلسفة الماركسية: جورج بولتيزر ورفيقاه تعريب شعبان بركات، المكتبة العصرية، بيروت.
(٢٠) أضواء على المسيحية: متولي يوسف شلبي ط ٢، الدار الكويتية للنشر، ١٣٩٣هـ.
(٢١) الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام: عبد الله التل، ط ٢، المكتب الإسلامي.
(٢٢) أفكار ورجال (قصة الفكر الغربي) جرين برنتون، ت. محمود محمود، مصر ١٩٦٥م.
(٢٣) أفيون الشعوب (المذاهب الهدامة) عباس العقاد، ط ٥، دار الاعتصام القاهرة، ١٩٧٥م.
(٢٤) إقتصادنا. محمد باقر الصدر. دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٣٩٨م.
(٢٥) الله جل جلاله. سعيد حوى، ١٣٩٢هـ.
(٢٦) الله يتجلى في عصر العلم: مجموعة من العلماء الأميركيين، الدمرداش سرحان، مؤسسة الحلبي للنشر، القاهرة.
(٢٧) آنتي دوهرنغ فريدريك أنجلز: ت. د. فؤاد أيوب، دار دمشق، ١٩٦٥م.
(٢٨) إنسانية الإنسان (نقد علمي للحضارة المادية) رينيه دوبو تعريب د. نبيه صبحي الطويل، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٣٩٩هـ.
(٢٩) الإنسان بين المادية والإسلام: محمد قطب، ط ٢، دار احياء الكتب العربية ١٩٥٧م.
(٣٠) الإنسان ذلك المجهول: الكسيس كاريل، ط ٢، تعريب شفيق أسعد فريد، مؤسسة المعارف، بيروت ١٩٧٧م.
(٣١) الإنسان والأخلاق والمجتمع: فلوجل، ت. عثمان نويه وزميله، مصر ١٩٦٦م.
(٣٢) الإنسان والإرتقاء، جون لويس، ت. عدنان جاموس دار الجماهير، ١٩٧٠م.
(٣٣) الأيديولوجية الالمانية: كارل ماركس، فردريك أنجلز، ت. د. فؤاد أيوب، دار دمشق.
(٣٤) بديل البديل: علال الفاسي، نشر دار الكتاب الدار البيضاء.
(٣٥) بروتوكولات حكماء صهيون (أو الخطر اليهودي)، ت. محمد خليفة التونسي ط ٥، مصر، وطبعة أخرى ترجمة زكريام.
(٣٦) بؤس الفلسفة: كارل ماركس ت. أندريه يازجي، ط ٢، دار اليقضة العربية ومكتبة الحياة، سوريا، لبنان ١٩٦٧م.
(٣٧) البيان الشيوعي: كارل ماركس، فريدريك أنجلز، الشركة اللبنانية للكتاب بيروت.
(٣٨) بين الدين والعلم. عبد الرزاق نوفل، دار مطابع الشعب.
(٣٩) التاريخ الإسلامي والمذهب المادي في التفسير، محمد فتحي عثمان، الدار الكويتية للنشر، ١٩٦٩م.
(٤٠) تاريخ العالم، جمع جو أ. هامرتن، ت. إدارة الترجمة بمصر.
(٤١) تاريخ عمر بن الخطاب. الإمام أبو الفرج بن الجوزي، تقديم أسامة عبد الكريم الرفاعي، دار احياء علوم الدين للنشر دمشق.
(٤٢) تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون، عمر فروخ، دار العلم للملايين بيروت، ١٣٩٢هـ.

(٤٣) تاريخ الفلسفة الحديثة. يوسف كرم، مكتبة دار المعارف، بمصر.
(٤٤) التضليل الماركسي. د. رؤوف شلبي، مكتبة الأزهر ١٩٧٦م.
(٤٥) تطور المجتمع الأميركي، كينث لن، ت. نعيم موسى، دار النهضة ١٩٦٦م.
(٤٦) تطور الملكية الفردية. أحمد محمد غنيم، الدار القومية للنشر.
(٤٧) التطور والثبات في حياة البشر، محمد قطب، دار الشروق، ١٣٩٧هـ.
(٤٨) التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، محمد الغزالي، دار البيان الكويت.
(٤٩) التفسير الإسلامي للتاريخ. د. عماد الدين خليل، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٥م.
(٥٠) تفسير التاريخ، عبد الحميد صديقي، ت. كاظم الجوادي، الدار الكويتية للنشر.
(٥١) تفسير القرآن العظيم، الحافظ ابن كثير، ط ٢، دار الفكر للطباعة والنشر ١٣٨٩هـ.
(٥٢) تكوين العقل الحديث ح. ه. راندال، ت. جورج طعمة، دار الثقافة.
(٥٣) تهافت الفكر المادي التاريخي (بين النظر والتطبيق)، د. محمد البهي، ط ٣، مكتبة وهبة القاهرة، ١٣٩٥هـ.
(٥٤) الثقافة الإسلامية المستوى الأول ١٠١، عبد الرحمن الميداني ومحمد الغزالي، مطبوعات جامعة الملك عبد العزيز.
(٥٥) جامع البيان في تفسير القرآن. ابن جرير الطبري، مطبعة الحلبي مصر، ١٣٨٨هـ.
(٥٦) جامع الترمذي مع شرحه تحفة الأحوذي. الترمذي، ط ٢، دار الكتاب العربي، بيروت.
(٥٧) الجامع الفريد كتب ورسائل لائمة الدعوة الإسلامية، ط ٢، دارالأصفهاني جدة.
(٥٨) الجامع لأحكام القرآن. القرطبي دار الشعب.
(٥٩) جاهلية القرن العشرين، محمد قطب، مكتبة وهبة.
(٦٠) جذور البلاء، عبد الله التل، ط ٢، المكتب الإسلامي، بيروت ١٣٩٨هـ.
(٦١) الجفوة المفتعلة بين العلم والدين، محمد علي يوسف، بيروت ١٩٦٦م.
(٦٢) حرب الفلاحين في المانيا. تعريب محمد أبوخضور، دار دمشق للطباعة والنشر.
(٦٣) حرية الفكر، سلامة موسى، بيروت ١٩٦١م.
(٦٤) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، عباس العقاد، دار العلوم للطباعة.
(٦٥) حوار مع الشيوعيين في أقبية السجون، عبد الحليم خفاجي، دار القلم، الكويت ١٣٩٤هـ.
(٦٦) حول الدين، كارل ماركس، فريديريك أنجلز ت. زهير حكيم، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٤م.
(٦٧) حول المسألة اليهودية، باور ماركس، ت. الياس مرقص، دار الحقيقة بيروت.
(٦٨) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، سيد قطب دار الشروق.
(٦٩) خلق المسلم، محمد الغزالي، ط ٤، دار الكتب الحديثة مصر ١٣٧٩هـ.
(٧٠) الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز، سيد الأهدل، ط ٥، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٧م.
(٧١) دراسات في النفس الإنسانية، محمد قطب دار القلم.
(٧٢) دراسات قرآنية، محمد قطب، دار الشروق.

(٧٣) دستور الأخلاق في القرآن: د. محمد عبد الله دراز، تعريب د. عبد الصبور شاهين مؤسسة الرسالة ١٣٩٣هـ.
(٧٤) الدفاتر الفلسفية، لينين، ت. الياس مرقص، دار الحقيقة، بيروت ١٩٧٤م.
(٧٥) الدين، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، د. محمد عبد الله دراز، مطبعة السعادة ١٣٨٩هـ.
(٧٦) الديناميكا الحرارية، إبراهيم شريف، مصر ١٩٧٠م.
(٧٧) الدين في مواجهة العلم، ت. ظفر الإسلام خان، مراجعة عبد الحليم عويس، ط ٢، المختار الإسلامي القاهرة ١٩٧٣م.
(٧٨) الدين والمادية الجدلية، أحمد علي حيشي، رسالة ماجستير، جامعة الملك عبد العزيز، كلية الشريعة ١٣٩٦هـ.
(٧٩) الذرة ومنافعها السلمية، مارتين مان. ت. الدكتور عبد الحميد أمين، عالم الكتب للنشر.
(٨٠) الرد على الدهريين، جمال الدين الأفغاني ت. الشيخ محمد عبده، ط ٤، المكتبة التجارية، مصر ١٣٣٣هـ.
(٨١) الرسالة الخالدة، عبد الرحمن عزام، ط ٤، دار الشروق، دار الفكر بيروت ١٩٦٩م.
(٨٢) روح الجماعات، غوستاف لوبون، ت. عادل زعيتر، القاهرة ١٩٥٥م.
(٨٣) الرياض النضرة في مناقب العشرة، أبي جعفر أحمد الشهير بالمحب الطبري تحقيق الشيخ محمد مصطفى أبو العلا، مكتبة الجندي.
(٨٤) السلام العالمي والإسلام، سيد قطب ١٣٨٦هـ.
(٨٥) سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث، تعليق عزت عبيد الدعاس، نشر محمد علي السيد، حمص.
(٨٦) سنن الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، دار الباز للنشر مكة المكرمة.
(٨٧) شبهات حول الإسلام، محمد قطب، دار الشروق.
٨٨) شمس العرب تسطع على الغرب، زيغريد هونكه، ت. فاروق بيضون وزميله، بيروت ١٩٦٩م.
(٨٩) الشيوعية اليوم وغداً، سلسلة مقالات لمجموعة من المفكرين والأدباء العرب مكتبة مصر.
(٩٠) الشيوعية نظرياً وعملياً، كاريوهنت، دار الكتاب المصري. القاهرة.
(٩١) الشيوعية والإنسانية، عباس العقاد، ط ٢، دار الكتاب العربي، بيروت.
(٩٢) الشيوعية والشيوعيون في ميزان الإسلام، د. عبد الجليل شلبي، دار الشروق، ١٩٧٦م.
(٩٣) الشيوعية وليدة الصهيونية، أحمد عبد الغفور عطار، المكتبة العصرية بيروت ١٣٩٤هـ.
(٩٤) صحيح البخاري بحاشية السندي، الإمام محمد بن اسماعيل البخاري، دار الباز للنشر، مطبعة الحلبي وأولاده بمصر.
(٩٥) صحيح مسلم، الإمام مسلم بن الحجاج القشيري، ترقيم فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث، بيروت.
(٩٦) صراع مع الملاحدة حتى العظم. عبد الرحمن الميداني، دار القلم، بيروت ١٣٩٤هـ.

(٩٧) الصنم الذي هوى، ستة من كتاب الغرب، ت. فؤاد حمودة، المكتب الإسلامي، ١٣٨٠هـ.

(٩٨) ضوابط المعرفة وأصول الإستدلال والمناظرة، عبد الرحمن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، بيروت ١٣٩٥هـ.

(٩٩) الطبقة الجديدة، ميلوفان دجيلاس، تقديم قدري قلعجي، بيروت.

(١٠٠) الطفولة الجانحة، جان شازال، ت. أنطوان عبده، بيروت ١٩٧٢م.

(١٠١) عائد من الجحيم، أنطوان دومازة، بدون، ١٩٧٢م.

(١٠٢) العائلة المقدسة، أو نقد النقد النقدي، كارل ماركس، فريدريك أنجلز، ت. حنا عبود، ومراجعة فؤاد أيوب دار دمشق للنشر.

(١٠٣) العدالة الإجتماعية، سيد قطب، دار الشروق ١٣٩٤هـ.

(١٠٤) عرض موجز للمادية الديالكتيكية والمادية التاريخية، بودوستينك وياخوت. دار التقدم، موسكو.

(١٠٥) عقائد المفكرين في القرن العشرين، عباس العقاد، ط ٢، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٦٩م.

(١٠٦) العقيدة الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن حبنكة الميداني، دار القلم، بيروت ١٣٨٥هـ.

(١٠٧) على أطلال المذهب المادي، محمد فريد وجدي، مطبعة دائرة معارف القرن العشرين ١٩٢١م.

(١٠٨) العلمانية وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، سفر عبد الرحمن، رسالة ماجستير، جامعة الملك عبد العزيز ١٣٩٨هـ.

(١٠٩) العلم يدعو للإيمان، أ. كريسي موريسون، ت. محمود صالح الفلكي، تقديم د. أحمد زكي، ط ٥، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٥م.

(١١٠) الغصن الذهبي، جيمس فريزر، ت. أحمد أبوزيد ١٩٧١م.

(١١١) فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني، ط ٢، مصطفى بابي الحلبي القاهرة ١٣٨٣هـ.

(١١٢) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالإستعمار الغربي، ط ٥، دار الفكر، بيروت ١٩٧٠م

(١١٣) الفلسفة الخلقية نشأتها وتطورها: د. توفيق الطويل.

(١١٤) فلسفتنا: محمد باقر الصدر، ط ٥، دار الفكر، بيروت ١٣٩٤هـ.

(١١٥) في التاريخ فكرة ومنهاج: سيد قطب، ط ٢، دار الشروق ١٣٩٨٩هـ.

(١١٦) في ظلال القرآن، سيد قطب، ط ٦، بيروت.

(١١٧) في النفس والمجتمع، محمد قطب، دار الشروق، بيروت.

(١١٨) قراءات في المادية الجدلية، كارل ماركس، فريدريك أنجلز، لينين وآخرون تحرير قيس الشامي، دار الطليعة، بيروت.

(١١٩) القاموس السياسي، ب. ن. بونوماريوف، ت. عبد الرزاق الصافي، مركز الطباعة الحديثة، بيروت.

(١٢٠) قصة الحضارة: ولديورانت، ت. محمد بدران، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة ١٩٦٤م.

(١٢١) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، نديم الجسر، ط ٣، المكتب الإسلامي، بيروت ١٣٨٩هـ.

(١٢٢) قضايا الفكر الإسلامي المعاصر، الندوة العالمية، بحوث ومحاضرات، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض ١٣٩٦هـ.

(١٢٣) قضايا المادية التاريخية: أنطونيو غرامشي، ت. فواز طرابلسي، دار الطليعة بيروت.

(١٢٤) كارل ماركس، هنري لوفافر، ت. محمد عيتاني، دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٧٢م.

(١٢٥) الكتاب المقدس، العهد الجديد (الأناجيل والرسائل)، مصر ١٩٧٦م.

(١٢٦) كتب غيرت وجه العالم، روبرت، ب. داونز، ت. أحمد صادق مهدي وزميله، دار الثقافة.

(١٢٧) الكفاح من أجل الحياة، مجموعة من العلماء السوفييت، دار التقدم، موسكو.

(١٢٨) لباب التأويل في محاسن التنزيل، علي بن ابراهيم الخازن، ط ٢، مصطفى الحلبي، مصر ١٣٧٥م.

(١٢٩) لسان العرب، العلامة الفضل جمال الدين محمد بن منظور، دار صادر للنشر، بيروت ١٣٧٤، ١٣٧٥هـ.

(١٣٠) لمحة عن تطور المجتمع منذ بدء التاريخ، ل. سيغال، ط ٥، دار دمشق للطباعة والنشر ١٩٧٤م.

(١٣١) لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية. فريدريك أنجلز، دار التقدم، موسكو.

(١٣٢) المادة وضد المادة، موريس دوكين، ت. د. رمسيس شحاتة، دار المعارف بمصر ١٩٦٨م.

(١٣٣) المادية التاريخية. ف. كيلي، م. كوفالزون، ت. أحمد داود، مراجعة د. بدر الدين السباعي، دار الجماهير دمشق ١٩٧٠م.

(١٣٤) المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية، ستالين، دار دمشق للطباعة والنشر.

(١٣٥) ماذا خسر العالم بإنحطاط المسلمين. أبوالحسن الندوي، ط ١٠، مطابع علي بن علي الدوحة ١٣٩٤هـ.

(١٣٦) الماركسية تفسير وتعريب، إحسان مراش، دار دمشق للطباعة والنشر.

(١٣٧) الماركسية في مواجهة الدين، حقائق ووثائق، د. عبد المعطي محمد بيومي، دار الأنصار بمصر.

(١٣٨) ماركسية القرن العشرين، روجيه غارودي. ت. نزيه الحكيم، ط ٣، دار الآداب بيروت ١٩٧٢م.

(١٣٩) الماركسية والإسلام: د. مصطفى محمود، دار المعارف بمصر.

(١٤٠) الماركسية والأيديولوجيا، جورج طرابيشي، دار الطليعة للنشر بيروت ١٩٧١م.

(١٤١) مبادىء الفلسفة، أ. س. رابو يورت ، ت. محمد أمين، دار الكتاب العربي، بيروت.

(١٤٢) مبادىء فلسفة المستقبل، لودفيغ فورباخ، ت. إلياس مرقص، بيروت.

(١٤٣) مباهج الفلسفة. ول ديورانت، ت. أحمد فؤاد الأهواني، مكتبة الأنجلو مصرية ١٩٥٧م.

(١٤٤) محاضرات في النصرانية محمد أبوزهرة، ط ٤، دار الفكر العربي ١٣٩٢هـ.

(١٤٥) مختارات جديدة نصوص حول الموقف من الدين، لينين، ت. محمد كبة، تقديم العفيف الأخطر، دار الطليعة، بيروت ١٩٧٢م.
(١٤٦) مخطوطات كارل ماركس، لعام ١٨٤٤، ت. محمد مستجير مصطفى، دار الثقافة الجديدة.
(١٤٧) مدخل إلى المادية التاريخية، موريس كورنفورث. ت. محمد مستجير مصطفى، دار الفارابي، بيروت ١٩٧٥م.
(١٤٨) مدخل إلى المادية الجدلية، موريس كورنفورث، ت. محمد مستجير مصطفى، دار الفارابي، بيروت ١٩٧٥م.
(١٤٩) المدخل لدراسة الفلسفة الإسلامية، ليون جوتيه، ت. محمد يوسف موسى، دار الكتب الأهلية، ١٣٦٤هـ.
(١٥٠) المذاهب الإقتصادية الكبرى، جورج سول، ت. راشد البراوي. مصر ١٩٦٥م.
(١٥١) مذكرة المذاهب الفكرية المعاصرة، يحيى هويدي، إصدار جامعة الملك عبدالعزيز ١٣٩٣هـ.
(١٥٢) مذهب ذوي العاهات، عباس العقاد، المطبعة الفنية الحديثة ١٩٧٧م.
(١٥٣) مذهب النشوء والإرتقاء، منيرة علي الغاياتي، تقديم د. محمد البهي، مصر ١٣٩٥هـ.
(١٥٤) المرأة بين الفقه والقانون، د. مصطفى السباعي ط. المكتب الإسلامي بيروت.
(١٥٥) المرأة والاشتراكية، لينين وآخرون. سلسلة مقالات، ت. جورج طرابيشي، ط ٢، دار الآداب ١٩٦٣م.
(١٥٦) المرشد السليم في المنطق الحديث والقديم، د. عوض الله حجازي، ط ٤، دار الطباعة المحمدية بالأزهر، القاهرة.
(١٥٧) مستقبل الحضارة بين العلمانية، والشيوعية، الإسلام، يوسف كمال محمد، المختار الإسلامي ١٣٩٤هـ.
(١٥٨) المسيح في القرآن والتوراة والإنجيل. عبد الكريم الخطيب، دار الكتب الحديثة ١٣٨٥هـ.
(١٥٩) المسيحية، د. أحمد شلبي، ط ٣، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٧م.
(١٦٠) مصير الإنسان، اليكونت دي نوي، ت. خليل الجر، المنشورات العربية.
(١٦١) معالم تاريخ الإنسانية، ه. ج. ولز، ت. عبدالعزيز توفيق جاويد، ط ٣، القاهرة ١٩٧٢م.
(١٦٢) معركة التقاليد، محمد قطب.
(١٦٣) مقدمة إبن خلدون: عبدالرحمن بن خلدون، ط ٤، دار الباز للنشر مكة المكرمة ١٣٩٨هـ.
(١٦٤) منازع الفكر الحديث: جود، ت. عباس فضلي خماش، مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٩٧٥م.
(١٦٥) منشأ الفكر الحديث، كرين برنتون، ت. عبدالرحمن مراد، دمشق.
(١٦٦) منعطف الإشتراكية الكبير، روجيه غارودي، ت. ذوقان قرقوط، ط ٢، دار الآداب، بيروت ١٩٧٨م.
(١٦٧) منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، دار الشروق.

(١٦٨) المنهزمون. يوسف العظم، ط ٢، دار القلم دمشق، بيروت ١٣٩٧هـ.
(١٦٩) موجز تاريخ الفلسفة، جماعة من الأساتذة السوفييت، ت. توفيق إبراهيم سلوم، دار الجماهير العربية.
(١٧٠) الموسوعة العربية الميسرة، بإشراف محمد شفيق غربال، دار العلم، ومؤسسة فرانكلين للنشر.
(١٧١) موسوعة الهلال الإشتراكية، دار الهلال مصر ١٩٧٠م.
(١٧٢) نصوص مختارة، فريدريك أنجلز، جمع جان كانابا، ت. وصفي البنى، منشورات وزارة الثقافة بدمشق ١٩٧٢م.
(١٧٣) نصوص حول أشكال الإنتاج ما قبل الرأسمالية، كارل ماركس. ت. د. صادق جلال العظم، دار ابن خلدون للنشر بيروت ١٩٧٤م.
(١٧٤) نظام الإسلام العقيدة والعبادة، محمد المبارك، ط ٣، دار الفكر بيروت ١٣٩٣هـ.
(١٧٥) نظرة الإسلام العامة إلى الوجود وأثرها في الحضارة، محمد المبارك، المطبعة الجديدة دمشق.
(١٧٦) نظرية التطور وأصل الإنسان، سلامة موسى، ط ٦، سلامة موسى للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٦٣م.
(١٧٧) نظرية الثورة العربية، الأسس. د. عصمت سيف الدولة دار المسيرة بيروت ١٩٧٩م.
(١٧٨) نظرية دارون بين مؤيديها ومعارضيها، قيس القرطاس، بيروت ١٣٩١هـ.
(١٧٩) النظرية الماركسية اللينينية. في المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ايـرزرين ورفقاه، ت. خيري الضامن، دار التقدم.
(١٨٠) نقض الإشتراكية الماركسية، غانم عبده، دار الإيمان بيروت ١٣٨٣هـ.
(١٨١) نقض أوهام المادية الجدلية، د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر دمشق ١٣٩٨هـ.
(١٨٢) هذا الدين، سيد قطب ١٩٧٠م.
(١٨٣) هزيمة الشيوعية في عالم الإسلام، أنور الجندي، دار الإعتصام.
(١٨٤) الهلال الشهيد، ريمون شارل، منشورات المعهد الدولي للبحوث والدراسات الإسلامية باريس ١٩٦٢م.
(١٨٥) الوجود الحق، د. حسن هريدي، ط ٣، المكتب الإسلامي.
(١٨٦) لا رق في الإسلام، ابراهيم هاشم الغلالي، الدار القومية للنشر.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

التمهيد
الظروف التي مهدت
لانتشار التفكير المادي في أوروبا

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

(هـ)

الباب الأول
عرض نظرية ماركس للتفسير المادي للتاريخ
من وجهة نظر أصحابها

الفصل الأول
المادة سابقة في الوجود على الفكر

الفصل الثاني
قوانين المادة

الفصل الثالث

أثر نظرية دارون على التفسير المادي للتاريخ

الفصل الرابع

مراحل التطور في التاريخ وحتمياته

(ز)

الفصل الخامس
التفسير المادي للتاريخ والدين

(ح)

الفصل السادس
التفسير المادي للتاريخ والأخلاق

الفصل السابع
التفسير المادي للتاريخ والشخصيات البارزة

الفصل الثامن
التفسير المادي للتاريخ والأسرة

(ط)

الباب الثاني
مناقشة النظرية

الفصل الأول
هل المادة أزلية أبدية

(ي)

الفصل الثاني
هل المادة سابقة في الوجود على الفكر

الفصل الثالث
مناقشة قوانين المادة

الموضوع	الصفحة

الفصل الرابع
قوانين المادة لا تنطبق على حياة الإنسان

الفصل الخامس
مناقشة أثر نظرية دارون على التفسير المادي للتاريخ

الفصل السادس
مناقشة مراحل التطور في التاريخ البشري وحتمياته

الموضوع	الصفحة

(ل)

الفصل السابع
مناقشة موقف التفسير المادي للتاريخ من الدين

الفصل الثامن
مناقشة موقف التفسير المادي للتاريخ من الأخلاق

الفصل التاسع
مناقشة موقف التفسير المادي للتاريخ من الشخصيات البارزة

الموضوع	الصفحة

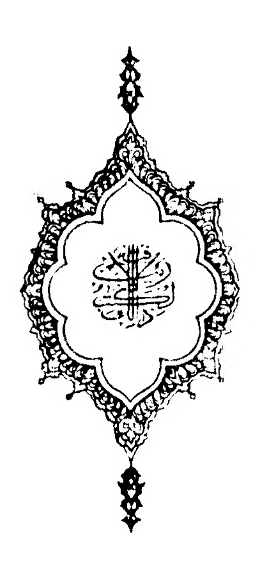
الفصل العاشر
مناقشة موقف التفسير المادي للتاريخ من الأسرة

(ن)

الباب الثالث
التصور الإسلامي

الفصل الأول
سنن الله في الكون والحياة والإنسان

الفصل الثاني
تفسير تاريخ الأمم بمقتضى التصور الإسلامي



بسم الله الرحمن الرحيم

مِنْ مَنْشُوراتِنَا

١ - ابنُ تيميَّةَ المُفترى عَلَيْهِ	سليم الهلاليّ
٢ - أحكامُ العيدَيْنِ في السُّنةِ المُطَهَّرةِ	علي حسن علي عبد الحميد
٣ - البِدْعَةُ وأثَرُها السيِّءُ في الأمة	سليم الهلاليّ
٤ - بِرُّ الوالِدَيْنِ في القرآنِ الكريم والأحاديثِ الصحيحةِ	نظام سكجها
٥ - التَّذكِرَةُ في صِفَةِ وُضوءِ وَصَلاةِ النَّبيِّ ﷺ	علي حسن علي عبدالحميد
٦ - التعليقاتُ الأثريَّةُ على المنظومةِ البيقونِيَّةِ	علي حسن علي عبدالحميد
٧ - تلخيصُ أحكام الجَنَائزِ	محمد ناصرالدين الألبانيّ
٨ - الجَنَّةُ نعيمُها والطَّريقُ إليها	علي حسن علي عبدالحميد
٩ - حكمُ الدين في اللِّحيَةِ والتَّدخين	علي حسن علي عبدالحميد
١٠- ركائزُ الدَّعْوةِ في القرآنِ	محمد إبراهيم شقره
١١- سلسلةُ الأحاديثِ الصَّحيحةِ المجلد الرابع	محمد ناصرالدين الألبانيّ
١٢- سلسلةُ الأحاديثِ الضَّعيفةِ والموضوعة المجلد الثاني	محمد ناصرالدين الألبانيّ
١٣- صفةُ صَوْمِ النَّبيِ ﷺ في رَمَضانَ	سليم الهلاليّ وعلي حسن علي عبد الحميد
١٤- القَبْرُ عَذابُهُ ونَعِيمُهُ	حسين العوايشة
١٥- كتابُ الإِخْلاصِ	حسين العوايشة
١٦- كتابُ الدُّعاءِ	حسين العوايشة
١٧- مُختصرُ إيقاظِ هِمَمِ أولي الأبْصارِ	الفُلَّاني/سليم الهلاليّ
١٨- مناسِكُ الحَجِّ والعُمرة	محمد ناصر الدين الألبانيّ
١٩- موقفُ الإِسلامِ من نَظَرِيَّةِ ماركس	الدكتور أحمد العوايشة
٢٠- هل المسلمُ ملزمٌ باتِّباعِ مذهبٍ من المَذاهبِ الأرْبَعَةِ	المعصومي/سليم الهلاليّ
٢١- الوَسيلةُ إلى شَفاعَةِ صَاحبِ الوَسيلَةِ	محمد إبراهيم شقره

